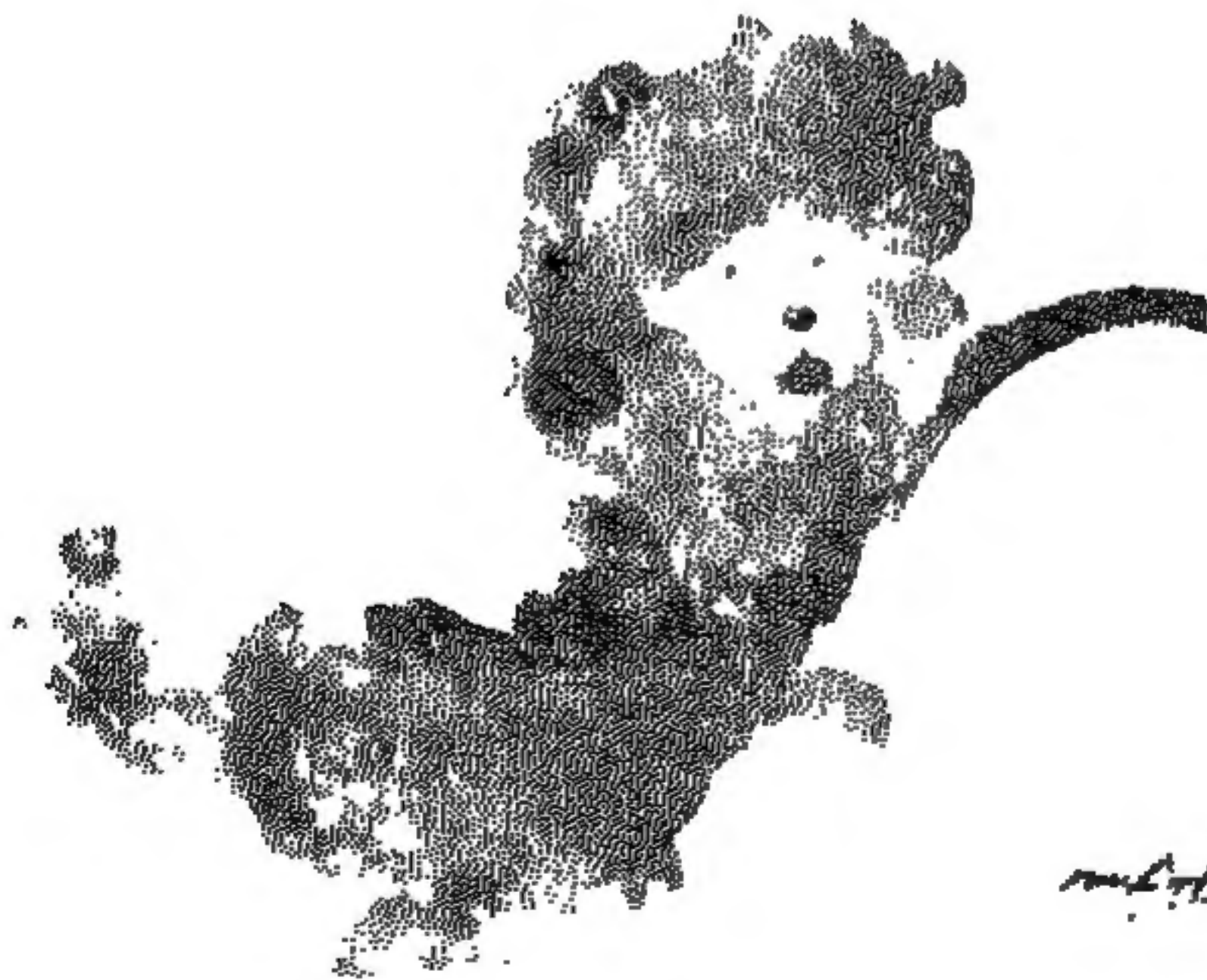


مكتبة

الأسطورة



دار الشريعة

الانسان

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

الطبعة الثانية
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بروكس : شروق - لكسم : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣٦٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
بروكس : شروق - لكسم : SHROK 20175 LE

مكتبة أنيس

الأنسفة

دار الشروق

الفصل الأول

هل وصلت السيدات المشرفات على الحفلة؟

– نعم يا صاحبة السمو.. وقد وقفت كل واحدة منهن في المكان المخصص لها.

– وهل تم إعداد الصالون الكبير الذى سيجلس عليه الملك والملكة فريدة والملكة نازلى؟

– نعم يا صاحبة السمو..

– وهل رتبت بنفسك زهور الزنبق الأبيض فى أوانى الزهور الذهبية؟

– نعم يا صاحبة السمو..

وتطلعت الأميرة شويكار بعينيها السوداوين الكبيرتين إلى مرآة مائدة الزينة، التى تجلس فى مواجهتها ومدت يدها، وعدلت وضع التاج الماسى المرصع الذى كان يزين رأسها الكبير، ولمعت عيناها وهى ترى بريق الماس الأبيض فوق شعرها المصبوغ، ثم هبطت عيناها إلى وجهها، فاصطدمت بالتجاعيد الكثيرة التى فشلت مختلف المساحيق فى إخفائها. وكأن الزمن يريد أن يعلن أنه أقوى من الطلاء. ثم تنهدت الأميرة تنهيدة طويلة وقالت :

– قدر غريب ! عندما كنت شابة جميلة كنت فقيرة ومفلسة، وعندما

أصبحت أغنى امرأة في مصر أصبحت عجوزاً شمطاء ! أنفقت شبابى بحثاً
عن مالى المسروق، ولما وجدت المال ضاع الشباب ! وضاع الجمال !

قالت الوصيصة تجاملها :

— إنك، مازلت جميلة يا صاحبة السمو ! الجمال هو جمال الروح !

وعادت، الأميرة تتطلع إلى المرأة من جديد. وفي هذه المرة لم تتطلع
بعينها .. تطلعت، بخيالها وذكرياتها. رأت في المرأة صورة شبابها، المليئة
بالجمال، المزدحمة بالحب، المشحونة بالفتنة والحيوية والاعزاء.

وابتسمت الأميرة للمرأة. وكأنها تحيي الأميرة الشابة الفاتنة التي تراها
في مرآة ذكرياتها، وبرقت عيناها كأن ذكريات الماضي سكبت ماء الحياة في
العينين المجوزين فعاد إليهما لمعان الشباب .. ثم قالت :

— الأيام تمر بسرعة غريبة ! منذ أقل من خمسين سنة كنت ملكة الحب في
مصر. كنت أجمل امرأة في هذه البلاد. كنت معشوقة الأمراء الشباب في
الأسر الملكية في العالم. كنت البريمادونا على مسرح الهوى. كان لى في كل
عاصمة في الدنيا قصة غرام. كان الرجال والشباب يتقاتلون من أجلى. كنت
إذا دخلت الأوبرا في فيينا لوى الجالسون رؤوسهم وتركوا الرواية على
المسرح، واتجهوا إلى المقصورة التي أجلس فيها، يملأون عيونهم بجمالى.
النساء يمسكن نظاراتهن المكبرة ليعرفن الثوب الذى أرتديه. ولون الشال
الذى أضعه على كتفى. كان الرجال يأكلوننى بعيونهم شبقاً. والنساء
يأكلننى بعيونهن غيرة وحسدا. كنت حبيبة كل الأزواج، وعدوة كل
الزوجات ! كانت كل زوجة في مصر تخاف على زوجها منى. كل امرأة تخشى
أن أخطف زوجها، أو أسلب حبيبها، أو أسرق ابنها !

ثم أطلقت الأميرة تنهيدة حارة طويلة وعادت تقول:

— أما اليوم فقد تركت مكان الفاتنة الأولى على مسرح الحب، وجلست في مقاعد المتفرجين. اتفرج على العشاق الجدد! وأنا سعيدة في مكاني هذا. نظرات العشاق الساخنة إلى عشيقاتهم تدفئ قلبي البارد. همساتهم الراحشة في أذان حبيباتهم تملأ أذني بموسيقى لذيذة. عندما أشهد العشاق وهم يتخاصرون ويرقصون أحس كأن أيديهم جميعا تلتف حول خصري وتضغط عليه.

قالت الوصيفة، وهي تعدل ثوب الأميرة فوق جسمها الصغير:

— عجباً يا صاحبة السموا! كنت أتصور أن الممثلة الأولى القديمة تكره رؤية النجوم الجديدة!

قالت الأميرة:

— إن العاشقة القديمة ترى نفسها في كل حب جديد! يسعدها أن ترى الحب حولها في كل مكان إذا لم استطع أن أغنى فإنني أطرب للصوت الجميل! إذا أصبحت قدماى لا تساعدانى على الرقص فإنني أجد لذة في مراقبة الراقصين والراقصات. إذا كانت سنى حرمتنى من الحب فإننى أستنشق رائحته في أنفاس المحبين! هذه الحفلات والسهرات التى أقيمها لا أقصد بها جمع الأموال للخير كما أقول للناس، ولا أقصد بها إسعاد الملك كما يتصور الملك فاروق، ولا أقصد بها إفساد الملك كما يقول رئيس الديوان حسنين باشا، ولا أقصد بها الانتقام من الملك وتلويث سمعته لأنه يجلس على العرش مكان ابنى إسماعيل الذى رزقت به من الملك فؤاد، ولو عاش لكان الابن البكر وصاحب الحق فى العرش، كما تتصور الملكة نازلى! إننى أقصد بهذه الحفلات الباذخة أن استعيد شبابى، إنها أشبه بحقن لاعادة الشباب.

وبدل أن أدفع من مالى ثمن هذه الحقن، يدفعها الذين يشترون تذكرة حضور حفلة مبرة محمد على فى قصرى !

إننى أرى فى هذه الحفلات صور شبابى الذى ذهب . صورة أحلامى التى عجز فقرى فى تلك الأيام أن يحققها . أشهد فيها قصص حبى القديم يمثلها ممثلون جدد وممثلات جدد ! إننى أستمع برؤية ميلاد حب جديد . حتى ولو لم أكن طرفا فيه . إذا لم استطع أن أكون فى سنى هذه ملكة الحب ، فإننى أستطيع أن أكون كيوبيد إلهة الحب التى تجمع العشاق ، وتسهل لقاء المحبين !.. والحب يدخل السهرات التى أقيمها بغير أن يدفع ثمن التذكرة ! إنه الوحيد الذى لا يدفع ثمن التذكرة !

قالت الوصيصة الشابة :

– ولكن الرجال فى أيامنا ، لا يعرفون الحب كما كانوا يحبون فى الماضى ! كان الرجل يدفع حياته ليرى المرأة التى يحبها من بعيد ! أما الآن فيدفع العاشق تذكرة بخمسة جنيهات ليرى المرأة التى يحبها ، ويتحدث إليها ، ويرقص معها ! كان الحب فى أيامكن صعبا ، ولهذا كان لذيذا . والآن أصبح الحب سهلا ، والرجل بطبيعته يحتقر كل شىء سهل !

ووقفت الأميرة ، واتجهت تجر ذيل فستانها الطويل إلى المرأة الكبيرة فى دولابها ، ووقفت أمامها تستعرض فستانها الأبيض . الأنيق الموشى بالفضة وتقول :

– أنتم الآن فى عصر السرعة ! كنا نقطع المسافة بين مصر وباريس فى أسبوعين . الآن نقطعها فى بضعة ساعات ! فى الماضى كان الرجل يستطيع أن يحب امرأة واحدة عشرين سنة أو ثلاثين سنة بغير انقطاع ، حتى ولو هجرته ! أما اليوم ، فى عصر السرعة ، فالرجل يحب المرأة لبضع ساعات .

وأحيانا لبضع دقائق، تأثرت قلوب الرجال بعصر السرعة، فهم يعشقون
بسرعة وينسون بسرعة. يصلون بسرعة، ويتركون المرأة بنفس السرعة !

قالت الوصيفة وهي تبسم :

ـ إننا في عصر الساندوتش يا صاحبة السمو! الرجال يريدون أن
يقصموا النساء وهم واقفون على أقدامهم لا وقت عندهم للحب.. لذة الحب
كلذة الطعام المطبوخ المسبك. فرق بين أن أكل من صنف تعبت في إعداده.
وصنعتة بيدي فوق النار. أضفت إليه أنواعا وأشكالا من البهارات. لسع
أصبعي وأنا أغرفه في الطبق، وبين الطعام الجاهز، الذي نأكله على البارد!
بعد لحظات ننسى أننا أكلنا. مع أن الطبق الذي نطهوه بأيدينا يبقى طعمه في
شفاهنا زمنا طويلا. هناك أكلة دسمة لذيذة تبقى طول حياتنا نذكر طعمها
ولا ننساها ! رجال اليوم لا يثقون في الحب، ولذلك لا يشعرون بلذته. مرارة
الهوى هي التي تضع حلاوته في شفاهنا !

قالت الأميرة وهي لاتزال تعيش في الماضي :

ـ في أيامي كان الرجال يقاتلون ويموتون من أجل المرأة التي يحبونها
كانت المرأة جارية والرجل يسجد أمامها ! كان الرجل سجانها وعبيدها في
وقت واحد. كان يخجل من ذكر اسمها أمام الناس، فإذا اختلى بها أجلسها
فوق العرش وجلس تحت قدميها !.. أما اليوم فالمرأة حرة ! حرة في أن
تجلس على البلاط ! حرة في أن تتشعبط في الترام ! حرة في أن تقف في
الأتوبيس ولا يترك الرجل مقعده لها ! حرة في أن تجري وراء الرجل. حرة
في أن تركع تحت قدميه. حرة في أن تتوظف وتجيء بمرتبتها كله وتدفعه
مصاريف البيت والطعام بدلا من زوجها !

قالت الوصيفة : إن المرأة تنازلت عن عرشها لتكسب الحرية ! تصورت أن

سعادة الرجل في عمله فزاحمته فيه، ولم تجد إلا الشقاء ! توهمت أن الهناء في المساواة فحصلت على المساواة ولم تجد فيها إلا العبودية. كانت عبدة لرجل تحبه فأصبحت عبدة لكل مرءوسيه في المصلحة ! خدعها صوت الآلات وظنت أنه موسيقى لذيذة فأسرعت إليها، فلم تجد إلا الصداع ! إننى أعتقد أن المطالبة بالمساواة بين الرجل والمرأة كانت مؤامرة دبرها الرجل لينتزع من المرأة سلطانها. وقعت المرأة بطيبة قلبها وغفلتها في هذه المكيدة. المرأة الآن فقدت قيمتها !

قالت الأميرة :

— المرأة الآن أصبحت مجانا.. كالماء والهواء ! فقدت قداستها وأهميتها في نظر الرجل. كان الرجل عندما يطرد من قلب امرأة يشعر بتعاسة الذى خرج من الجنة. أما الآن فهو يستبدل المرأة كما يستبدل منديله ! ما يكاد يبصق في المنديل، حتى يستبدله بمنديل نظيف ! في شبابى أطلق أخى الرصاص على زوجى الاول الملك فؤاد لأنه كان يغار على، وطلقنى الأمير فؤاد ومع ذلك عاش بعد ذلك ثلاثين عاما يطاردنى ! أعلن الحرب على، غضب على كل رجل عرفته. رفض بعد عشرين عاما من طلاقى أن يعين أحد السياسيين وزيرا لأنه شك في أن هذا السياسى كان في يوم من الأيام على علاقة غرامية بى ! وكنت أضيق بهذه الحرب التى شنها الملك على، ولكنى كنت أعرف أنه كان يفعل ذلك لأنه يحبنى ! كان يكرهنى لأنه يحبنى ! كان يريد أن يجعلنى أموت جوعا لأنه لا يزال يعشقنى ! وسيف الله يسرى باشا زوجى الثانى كاد يقتل ضابطا بريطانيا في مبارزة لأن الضابط كان يغارلنى، وزوجى الثالث رءوف بك قائد البارجة حميدة رآنى ذات يوم أخرج من بيت شاب تركى في استانبول. ولم يقل لى كلمة واحدة ولم يسألنى لماذا كنت في بيت هذا الشاب. بل إنه أرسل عددا من بحارة البارجة حميدة إلى بيت

الشباب، وخطفوه، وذبحوه، والقوا بجثته في البسفور.. وبعد ذلك قال لى
رعوف بك : إذا أردت أن ترى هذا الشاب مرة أخرى.. فهو موجود في قاع
البسفور ! كرهت زوجى، ولكننى شعرت أنه ارتكب هذه الجريمة لأنه
يحبنى. وأنه مستعد لأن يذهب إلى المشنقة من أجلى.. وهذا هو الحب..

أما اليوم فإذا قلت لزوجى الحالى الهامى باشا حسين إن فلانا يغازلنى
ضحك ودغاه لتناول الشاى

* * *

الليلة في قصر الأميرة هى ألف ليلة وليلة !
ثريات بلورية ضخمة تتدلى من سقف الصالونات الكبيرة، تتدلى منها
لمبات مضيئة في شكل شموع، أنوار ساطعة باهرة في أرجاء القصر كأنها
محاولة لجعل الشمس تشرق قبيل منتصف الليل.
الخدم النوبيون في ثيابهم ذات الألوان البهيجة. بين الخضراء
والبنفسجية والحمراء والزرقاء، الموشاة بالذهب، وعلى رؤوسهم الطرابيش
الحمراء اللامعة، يحملون فوق أيديهم صوانى من فضة ومن ذهب. نساء.
نساء. نساء. شقراوات وسمراوات. يمشين كأنهن يرقصن. ويرقصن كأنهن
يمشين ! صدور عارية. فساتين السهرة تكشف عن الأذرع البضة، وعن
الأعناق الفاتنة، وفتحات الظهر أو الجانبين في الفساتين كأنها ثقب صنعت
خصيصا لتسقط فيها عيون الرجال فتصل إلى السيقان.. وربما إلى أصابع
الأقدام ! أكبر الخياطات في القاهرة والاسكندرية أعلن منذ شهر (حالة
طوارئ) استعدادا لليلة الكبيرة، حيث ارتدت كل امرأة أجمل أثوابها.
بعضهن أرسلن إلى باريس ولندن ونيويورك، واستحضرن آخر مبتكرات ملوك
الموضة في تلك البلاد. حلاقو شعر السيدات أعلنوا التعبئة العامة لأن أجمل

نساء القاهرة قررن تزيين شعورهن في ليلة واحدة؛ السمرء تريد أن تصبح شقراء، والشقراء تريد أن يكون شعرها بلون البلاتين. والعجوز تريد أن تخفى شعرها الأبيض في سواد الشباب ! صدور النساء تحولت إلى فروع لمحلات بيع المجوهرات. كأن هؤلاء النساء عصابة سطت فجأة على جميع محلات بيع المجوهرات في المملكة ، فلم تترك فيها لا قرطا ولا سوارا ولا خاتما ولا عقدا من اللؤلؤ أو الماس ! كأن أرض القصر وحدائقه رششت بالعطر. في كل خطوة تستنشق عطرا مختلفا بل إنك في المرأة الواحدة تشم أكثر من عطر واحد ! كأنها ضمخت رأسها بعطر ووجهها بعطر ثان، وصدرها بعطر ثالث، أو كأنها دخلت محلا للعطور فسكبت كل ما فيه على جسدها فخرجت تفوح منها رائحة الورد والبنفسج والفل والياسمين في وقت واحد !

الرجال في ملابس السهرة السوداء يمشون في موكب الجمال، بعيون مبهورة، كأنها تتساعل من أين جاء كل هذا الجمال ! كل امرأة هنا تصلح أن تكون ملكة، إذا لم تكن ملكة الجمال فهي ملكة الأناقة، وإذا لم تكن ملكة الأناقة فهي ملكة جمال العيون أو ملكة جمال السيقان أو ملكة جمال الشعر أو ملكة جمال الشفاه ! كأن الحاضرات لم يجئن لحضور حفلة خيرية، وإنما حضرن للاشتراك في مسابقة للجمال، فحاولت كل امرأة أن تبرز أكثر ما فيها من فتنة وسحر وإثارة !

— وفرفة موسيقى فندق شبرد جاءت بكامل هيئتها. أقيمت لها منصة عالية في ركن من حديقة قصر الأميرة، وأمامها حلبة للرقص، ازدحمت بالرجال يخاصرون النساء يتمايلون ويدورون، على أنغام موسيقى التانجو والفالس، وكأنهم يسبحون في الأضواء هذه سعاد راشد أجمل شقراء في مصر في ثوب أبيض كأنها شعاع من نور. هذه زوزو عاصم أجمل سمرء في مصر في ثوب أحمر، وكأنها لهب أحمر يرقص على الأنغام. هذه هي الأميرة

نسل شاه، بجمالها الفتان، وقامتها الطويلة، كأنها زهرة يانعة من زهور الزنبق. هذه الزهرة الأرستقراطية التي لا تتفتح إلا في حدائق الملوك! ويجوارها شقيقتها الأميرة هان زادة، بعينيها اللتين لا مثيل لهما في الزرقة والصفاء. كأنهما مياه البحر الأبيض عند رأس الحكمة. بأهدابهما الحريريّة التي ما تكاد العين تراها حتى تهبط فوقها، وتستريح عليها، وكأن أهدابهما وسادة من ريش النعام. وهذه هي الأميرة فايّزة، في جمالها الساحق، وفتنتها الصاخبة، وعلى شفّتها ابتسامة حلوة خفيفة، لا تعرف هل هي تسخر بجهال النساء الأخريات، أم هي تهزأ بالرجال الذين صفعهم جمالها، أو هي تضحك لنكتة سخيفة أطلقها زوجها محمد على رعوف الذي كانوا يسمونه وقتئذ محمد على خروف وهذه هي الأميرة فوزية بعينيها الساحرتين الحالمتين وشفّتيها الصامتتين، وجسدها الذي يشبه تمثالا لفينوس من الفضة الصافية... وهذه هي الملكة فريدة تحاول أن تخفي شقاءها خلف ابتسامة. عيناها تضحكان من بعيد. فإذا اقتربت منهما شعرت كأنك ترى فيهما بقية من دموع تتطلع إلى وجوه النساء الفاتنات لتعرف من منهن عشيقه الملك الجديدة، ومن كانت منهن عشيقته القديمة، ومن منهن ستكون عشيقته المستقبلية...! وهي تمشي في رشاقة، وتحدث في بساطة، وتتحرك في أناقة. وهي أشبه بوردة جميلة في إناء من الذهب ليس فيه نقطة ماء!

... كل امرأة في الحفلة هي ربة حسن، أو فساتنة عصر، أو ذات دلال! نصف الموجودين يرقصون ونصفهم يشهدون الرقص. نصف الموجودات ملكات للجمال، ونصفهن كن في يوم من الأيام ملكات للجمال. نصف النساء عاشقات ونصفهن الآخر جاء يبحث عن الحب والتي فاتها قطار الحب جاءت تتفرج على القطار.. وهو يقف أمام المحطات الكبرى.. ويتمهل أمام المحطات الصغيرة! والرجال جاءوا ليحرسوا الجمال، أو ليسرقوا الجمال.

نصفهم حراس جاءوا يحرسون نساءهم، ونصفهم لصوص جاءوا يسرقون النساء المحروسات ! ففي مثل هذه الحفلات يلعب الرجال عادة لعبة « عسكر وحرامية » بعضهم عساكر وبعضهم لصوص.. وبعضهم عساكر ولصوص في نفس الوقت !

وكان المهندس عادل علاء الدين حارسا ولصا في وقت واحد وعندما وقف أمام حلبة الرقص يرقب الراقصين والراقصات قال لنفسه إن مهمته في هذه الحفلة أخطر من مهمة أى رجل سواه ! فهو قد جاء للحراسة والسرقة.

ولكن الفرق بينه وبين أى رجل آخر.. أن أى رجل غيره جاء إلى حفلة الأميرة شويكار ليحرس زوجته أو يحرس ابنته أو يحرس أخته.. وأى رجل آخر جاء ليسرق امرأة واحدة ! أما هو فرجل لم يتزوج، وليس له ابنة وليس له أخت ! بل أن مصيبيته أنه يحب عدة نساء في وقت واحد.. وكلهن حضرن هذه الحفلة. وكلهن تواعدن معه على اللقاء في هذه الحفلة. وهو يريد أن يحتفظ بهن جميعا. ليس مستعدا لأن يقبل ان يسرق لص آخر واحدة من جواريه. والمفروض في اللصوص أنهم لا يسرقون بعضهم بعضا، إلا لصوص الحب، فأنهم لا يجدون لذة أكبر من ان يسرقوا من اللصوص أمثالهم ! ومهمة الحراسة ليست هى مهمة عادل الأولم. فالمهمة الأولى أن يسرق نساء جديدات ! هذه الحفلة وأمثالها هى المكان الذى تجتمع فيه الاسماك من مختلف الأشكال والأحجام، وهى خير موقع لالقاء الشباك ! لقد تعود أن يخرج من كل حفلة بصيد جديد.. وهذه الليلة لن يكتفى بسمكة واحدة، إنها فرصة ذهبية لاصطياد أكبر عدد من الأسماك !

الصيد الذى يقف على الشاطئ ويلقى شبكته هو صياد مبتدئ، أو صياد قانع، أما الصياد الخبير فهو الذى يتجه بقاربه إلى داخل البحر، وسط العواصف والأمواج، ويبتعد عن الشاطئ، ثم يلقي شبكته هنا تمتلئ

شباكه بأشكال وأنواع وأصناف من الأسماك. فالسمك الذى يقترب من الشاطئ نوع واحد عادة، وهو أقرب إلى السردين، منه إلى السمك الكبير اللذيذ ! ولهذا يحرص عادل علاء الدين على أن يغوص فى هذه السهرات قبل أن يلقى الشباك.

وصفات ذئب النساء تشبه صفات الصياد. فهو صبور. والصياد الصبور تمتلئ شبكته بالأسماك، بينما الصياد ناقد الصبر لا حظله فى بحر لا يعرف إلا الصابرين

وفى هذه الليلة اتجه عادل علاء الدين بكل اهتمامه إلى الأميرة فضيلة ابنة عم الملك ! لم يعرف لماذا اختارها وحدها دون مئات النساء الموجودات فى الحفلة. أحس أن شيئاً فيها يجذبه إليها. مغناطيس فى مكان ما فى هذه المرأة الجميلة. لا يستطيع بالضبط أن يحدد مكان المغناطيس. هل هو فى عينيها الواسعتين الضاحكتين حيناً، الحالمتين أحياناً، الساخرتين دائماً ! هل هو فى شفتيها المرحتين اللتين تطل منهما بطاقة دعوة لآلف قبلة ! هل هو فى شعرها الأسود اللامع المصقول الذى ينادى أصابع عادل علاء الدين أن تتقدم لتعبت به ! هل هو فى خصرها الناحل المثير كأنه خلق خصيصاً لكى تلتف حوله ذراع عادل. أم أن فى هذه المرأة الساحرة أكثر من مغناطيس واحد. فى كل جزء من جسدها مغناطيس يجذب العين لكى تحديق، والشفاه لكى تقبل، والأيدي لكى تعانق، والأجساد لكى تلتصق !

وكان عادل قد اتفق مع جواريه أن يتحدث إليهن الليلة بالإشارة ! إن صديقه زينب معها زوجها الغيور، وصديقه فاطمة معها شقيقها الذى يتبعها كظلها، وصديقه أميرة معها والدها الذى يشبه الكلب البولج الذى يعض كل من يقترب منها، وصديقه عصمت معها أمها التى تشبه فرقة من

رجال البوليس السرى، وصديقتة إلهام صحبت زوجها وأمها وأباها وأخاها
وهم يحيطون بها وكأنهم يحرسون خزانة البنك الأهلئ !

ولقد اتفق عادل مع صديقاته جميعا على لغة واحدة فإذا أخرج القداحة
من جيبه، وأشعلها دون أن يشعل السيجارة فمعنى ذلك أنه يقول إنك جميلة
الليلة يا حبيبتي ! وإذا وضع أصابعه فوق شعره الأسود فمعنى ذلك أنه
يقول : ما أجمل تسريحة شعرك. وإذا لمس رباط عنقه بيده فإنه يقول إن
ثوبك هو أجمل ثوب للسهرة فى هذه الحفلة ! وكان عادل ينسوى أن يخرج
القداحة ويضع أصابعه على شعره، ويلمس رباط عنقه سواء أعجب بجمال
صديقاته أو لم يعجب بهن، وسواء رضى عن زينة شعورهن أو لم يرض،
وسواء فتن بطريقة تصفيف شعورهن أو ضاق بالحركات الجنونية التى
رسمها الحلاق سقراط على رءوس الحبيبات. فهو يعرف بخبرته أن المرأة
يسعدنا المديح، وتذيبها كلمات الإعجاب. وأن قصيدة غزل يكتبها شوقى
أمير الشعراء فى وصف امرأة لا تثيرها كما تثيرها كلمة (إن ثوبك مدهش) !

واستعرض عادل بعينه صديقاته. ولم يرهن جميعا. كان جمال الأميرة
فضيلة كسف جمالهن. فعندما تظهر الشمس تختفى الذ . .

* * *

وأخرج عادل قداحته، وأمسكها فى يده، وأشعلها، دون أن يشعل سيجارة.
وفوجئ. بالأميرة فضيلة تبتسم وتفتح حقيبتها، وتخرج منها قداحة صغيرة
مرصعة بالماس، وعلبة سجاثر ذهبية، وتضع سيجارة فى فمها، ثم تشعل
القداحة.. ولا تشعل السيجارة !

وجن عادل علاء الدين، إن الأميرة الجميلة تتكلم بلغته ! كأنها ترد

تحيته ! كأنها تقول إن الشعلة التى خرجت من القداحة مست قلبها الشاب .
وأشعلته أيضا !

وعاد عادل يخرج الولاة ويشعلها !
وعادت الأميرة تشعل ولاعتها فى الهواء !
وهنا أسرع زوجها محسن باشا معروف وأشعل قداحته ، وأشعل سيجارة
الأميرة ، ونفخت الأميرة دخان سيجارتها ناحية عادل وابتسمت ..

وعجب عادل أن شبكته اصطادت صاحبة السمو الملكى بغير مجهود !
وأن إشارة القداحة التى أراد أن يوجهها إلى صديقاته زينب وفاطمة وأميرة
وعصمت وإلهام ، ضلت الطريق واستقرت على المائدة التى تجلس فيها
الأميرة مع زوجها وبعض الأمراء والأميرات !

ولم يصدق عادل عينيه ! لابد أنه يحلم ! غير معقول أن تقع أجمل أميرة
فى مصر فى شباكه بهذه السرعة المذهلة !

ومرر عادل أصابعه فوق شعره الأسود وقد شرد فى عالم الأحلام .
وفوجئ بالأميرة الفاتنة ، ترفع يدها وتتحسس بأصابعها خصلة من
شعرها الجميل ، واتسعت الابتسامة فوق شفتيها . وخيل لعادل أن وجه
الأميرة يحمر ، كأن لهيب القداحة امتد إلى صدرها وإلى كتفيها ثم إلى
عنقها ؛ وتضاعف جمالها فى عينيه . بدت أشبه بالوردة الحمراء الناضرة
المتفتحة التى تغرى يده أن تتقدم ليقطفها ، ويشمها ، ويضمها إلى صدره !

لقد رأى الأميرة فى حفلات مختلفة عشرات المرات . ولم يرها بكل هذه
الحلاوة . كان يراها تشبه الوردة ، وزوجها ولقبها الملكى أشبه بالشوك الذى
يحيط بالوردة ، وكان الشوك يخيفه أكثر مما كان سحرها يشجعه . ولم يلاحظ
فى كل هذه المناسبات أنه استلفت نظر الأميرة ، أو أنها أحست بوجوده . ولم
يجرؤ مرة أن يلفت نظرها . أو يغازلها . أو حتى يبتسم فى وجهها . ولكنه الليلة

أحس بشغور غريب، بشجاعة جديدة. بأنه يرغب في أن يضم اسم الأميرة الجميلة إلى قائمة محظياته وجواريه !

وراح يحلم، وعيناه مستقرتان على عيني الأميرة الفاتنة ! ثم رآها ! تقف وتتجه إلى حلبة الرقص، وزوجها يسير خلفها. وبدأت الأميرة ترقص. وتسمرت عيناه عليها. لم يعد يرى زوجها الذي يخاصرها. بل لم يعد يرى مئات الراقصين والراقصات حولها. اختفى كل من في الحلبة، ولم تبق أمام عادل إلا الأميرة وحدها شحبا جميعا. أصبحوا أشبه بالظلام. أو أنهم أرضية الصورة لامرأة رائعة الجمال.

حارت عيناه في جسد الأميرة : كل شيء فيها ساحر فاتن. كل شيء فيها يغري ويغوى ويصيد القلوب، كأنها عدة نساء في امرأة واحدة. كل واحدة منهن ملكة على مملكة بذاتها. كأنها سرقت الجمال كله واستأثرت به لنفسها وتركت نساء الحفلة : الفاتنات عاريات من الفتنة والجمال ! لقد مرت أمامه في تلك اللحظة صديقه زينب وهي ترقص مع زوجها. وتعمدت أن تقترب من المكان الذي يقف فيه، ولكنه لم يرها. لم ير الغمزة التي غمزتها بعينها اليسرى وراء ظهر زوجها ! ومرت بجواره صديقه فاطمة وهي ترقص مع شقيقها محمد. وابتسمت له فلم يرد ابتسامتها ومرت أميرة وهي تخاصر ابن عمها الضابط في سلاح الشرسان وعصمت ومعها خطيبها، وإلهام ومعها ابن خالتها. لم يشعر بأى واحدة منهن ! نسي أن يخرج الولاة، أو يمرر أصابعه على شعره، أو يعدل رباط رقبتة كما وعدهن جميعا : كان لا يزال مبهورا بالأميرة وحدها، ولا يرى سواها. لا يهتم بامرأة غيرها. ماذا جرى له ! إنه ذئب قديم. له تجارب واسعة في عالم النساء. قادر على أن يشعل النار في عدة مواقع في آن واحد ! لذته أن يحب بالجملة. يهجر بالقطاعي. سعادته في أن يجعل من قلبه عمارة من ناطحات السحاب، فيها مئات الشقق، وفي كل شقة

امرأة. ومعه وحده مفتاح هذه الشقق جميعا. ما له الليلة لا يمارس هوايته
في أن يلعب بعدة نساء في وقت واحد. في أن يعتبر كل امرأة أشبه بطابع
البريد. وقلبه هو مجموعة الطوايع. من كل بلد طابع. ومن كل حجم وكل لون
وكل رسم. وهو أشبه بهواة جمع طوايع البريد يفضل دائما الطابع المختوم!
الطابع المستعمل! ولا يكاد يلصق الطابع القديم في المجموعة، حتى يبدأ في
البحث عن طابع جديد لقد حاول طوال حياته أن يقنع بامرأة واحدة ففشل
أصيب بمرض اقتناء النساء. لم تعد تكفيه امرأة واحدة حتى ولو كانت ملكة
الجمال. شهيته في أن يغير ويبدل، وأن يضع من كل بلد طابعا ومن كل صنف
على مائدة قلبه عدة أطباق، ويأكل من كل طبق لقمة! بعض النساء في حياته
كان لذيذا كالكافيار، وكان شهيا كاللانجوست، وكان حلوا كالشهد! ولكنه
كان يمد يده إلى طبق الفول المدمس وطبق الطعمية! لا ينسى عندما أحسب
يوما نجمة السينما المشهورة إجلال فوزى التى يسمونها ملكة الاغراء
وتصور أنه سيخلص لها طوال حياته. لقد منحته من الحب والهناء والمتعة
أكثر مما يحلم به. وذات مساء تركته في شقتها، لتذهب إلى ستوديو مصر
لتصور اللقطة الأخيرة في فيلمها الأخير (ملكة الاغراء). وقالت له إنها
ستعود بعد ساعتين، وتمضى معه ليلة راقصة سوف يعيش طوال حياته
يذكرها ويحلم بها. وجلس عادل ينتظرها، وقد امتلأ خياله بصورة الليلة
الموعودة.. وجاءت عائشة خادمة الممثلة.. هذه المرأة الابنوسية التى تبلغ
الأربعين من عمرها. ووجد عادل نفسه يغازل الخادمة التى تكبر ملكة
الاغراء بخمس عشرة سنة! التى يشبه لونها الفحم الحجرى.. بينما لون
إجلال يشبه القشدة الطازجة. التى ليس فيها من الجمال ولا الفتنة
ولا السحر جزء من ألف من إجلال. ومع ذلك أحس برغبة شديدة في أن يأكل
الفول المدمس!..

وبعد بضع دقائق كان يؤلف أشعار الغزل في الخادمة السمراء.. وعندما عادت إجلال من ستوديو مصر وجدته يغط في نومه، ورفض أن يفتح عينيه، وأبى أن يحضر الليلة الموعودة، فقد كان يشعر في شفثيه بطعم الفول المدمس اللذيذ الذي أغناه عن الكافيار واللانجوست وعسل النحل اللذيذ !

وكم حاول عادل أن يتخلص من مرض الجشع للنساء. فإذا كان أشعب يضرب به المثل في النهم إلى الطعام فهو نهم إلى النساء. لا يشبع منهن أبداً. جائع لكل لون. مشتاق لكل شفاء. ضعيف أمام أى جمال ! مهما أكل فهو جائع. مهما شبع فهو يبحث عن طعام جديد ! كل طعام جديد يفتح شهيته. ما أشبهه بالمرض الذي يصاب به بعض الناس، عندما لا يشبعون أبداً مهما أكلوا، وقيل إن تفسير هذه الظاهرة أن في أمعائهم ديداناً تأكل كل ما يدخل فيها من طعام ! كأن هذه الديدان في جسده، وفي قلبه. وكأنها هى التى حولته إلى رجل (مرام) لا يعف عن امرأة ولا يشبع من امرأة مهما امتلأ قلبه وجسده بالنساء !

وتذكر عادل أنه أصيب بهذا المرض العجيب وهو في الرابعة عشرة من عمره. عندما أحب زكية ابنة الجيران كان حبه الأول، الذى ملا عليه فكره وخياله. ذاق أول قبلة في حياته من شفثى زكية. أحس جسده بأول حرارة في حبها. خفق قلبه لأول مرة بحبها ثم استقيظ ذات ليلة وأطل من نافذته على حديقة الجيران فإذا به يرى معبودته زكية بين ذراعى صديقه عبد المجيد.

في هذه اللحظة هوت كل نساء الدنيا من فوق عروشهن وسقطن مع زكية في الحضيض ! تحطمت كل الآلهة التى كان يعبدها وتحولت إلى تراب يدوسه بالأقدام. أصبح لا يطمئن إلى أى امرأة، ولا يثق بأى أنثى. تحولت نساء العالم إلى خائنات وغادرات. اكتشف أن الاخلاص لامرأة واحدة هو نوع من العبودية. هو ذل ما بعده ذل. هو هوان ليس مثله هوان. اكتشف

أن الأمان الوحيد في التعدد : كلما زاد عدد النساء في قلبه تضاعل الألم الذي تحدثه خيانه كل امرأة على حدة. لم يعد يؤجر قلبه من بابيه لامرأة واحدة، فإذا خرجت فجأة بقي البيت فارغا مهجورا يحمل لافتة للايجار. أصبح قلبه في أول الأمر شبيها بالغرفة المفروشة. تمضي فيه الساكنة ليلة واحدة، ثم تتركه لتجىء ساكنة جديدة. ثم تحول القلب إلى بنسيون، وزاد عدد الساكنات، ثم كبر البنسيون وأصبح فندقا ! فيه غرف متعددة، وفيه أجنحة مخصصة للمحظوظات. وفي مواسم يمتلئ الفندق بالساكنات، وفي مواسم أخرى يقل عدد الغرف المسكونة كما يحدث للفنادق الكبرى في المواسم التي تخلو من السياح ! ولكن عادل لم يقل في يوم من الايام إن الفندق كامل العدد.. كان دائما مستعدا لأن يطرد الساكنات القديمت ليخلي الغرف في قلبه للساكنات الجديديات !

وكان يصاب في بعض الأحيان بنوبات من الملل. فيقرر إخلاء الساكنات جميعهن من فندق قلبه. والاكتفاء بأربع نساء، نزولا على أحكام الشريعة بالسماح بأربع زوجات، ثم لا يلبث أن يجد نفسه يزيد العدد تدريجا حتى تزدحم غرف فندق قلبه من جديد، وكان عادل يزهو بذاكرته القوية، فلم يخطئ مرة واحدة في معرفة اسم الصديقة التي تحدثه في التليفون ولم يناد زينب باسم فاطمة، ولا فاطمة باسم زينب، وكان يحتفظ في أجنحة صغيرة بتواريخ أعياد ميلادهن وبتواريخ ذكري اللقاء لكل واحدة منهن، وباسم العطر الذي تحبه كل واحدة واسم اللون الذي تفضله، واسم الرقصة التي تفضلها، والساعات الآمنة التي يستطيع أن يتصل فيها بكل واحدة بالتليفون في غيبة الرقيب. كان هذا الدفتر الصغير هو أرشيف قلب عادل. يرجع إليه في الملمات ويستعين به في الأزمات. وبذلك كان يحافظ بصدق على حركة المرور الداخلة إلى قلبه والخارجة منه فلا يحدث اصطدام بين غريمتين، أو لقاء بين متنافستين !

وعندما تضاعف الزحام في قلبه، وتعددت الأسماء، لجأ عادل إلى حل سعيد ليتخلص من هذه الورطة، فكان يطلق على كل امرأة من صديقاته لقب (يا روى) : وبهذا لم يعد يتردد ويفكر قبل أن ينادى الصديقة باسمها خشية السهو والغلط، ولم تطلب أى امرأة من عادل أن يناديها باسمها فقد وجدت في لقب (يا روى) ما يغنيها عن سماع اسمها من شففى الرجل الذى تحبه !

* * *

وكان عادل يشغل منصب المدير العام لشركة الهندسة الكهربائية. وقد وصل إلى هذا المنصب بفضل عبقريته فى الهندسة. فقد حصل على أكبر شهادة فى الكهرباء من جامعة برمنجهام فى إنجلترا، وكانت له كفاءة عجيبة فى دراسة المشروعات، وفى الحصول على أعمال جديدة للشركة، حتى أنه استطاع أن يضاعف رأس مالها عدة مرات. واستطاع أن يجمع حوله عددا من المهندسين الشبان، ويجعلهم أشبه بفريق كرة القدم، يعملون بروح واحدة، ويحبون عملهم، ويمضون فى الشركة أكثر مما يمضون فى بيوتهم !

ولكنه قادر دائما على أن يجد الوقت اللازم للهو ! يمضى أحيانا فى مكتبه ١٨ ساعة بغير انقطاع. يتناول إفطاره فى الشركة، وغداءه فى الشركة، وعشاءه فى الشركة. ومع ذلك يستطيع أن يلتقى بثلاث نساء فى الأربع والعشرين ساعة. فقد درب نفسه منذ أن كان طالبا على أن يكتفى بثلاث ساعات نوم كل يوم ! فإذا دخل إلى مكتبه فى الصباح المبكر لم يتصور أحد من زملائه أن مديرهم العام أمضى الليلة السابقة يرقص حتى الفجر فى فندق شبرد، وأكمل باقى السهرة بين ذراعى الممثلة إجلال فوزى فى شقتها فى الزمالك ! وكان يشعر أن قبلات النساء تجدد نشاطه، وعناقهن يحافظ على

حيويته، والتغيير والتبديل فيهن يستخرج ملكاته المدفونة من ابتكار
واختراع وإنتاج !

وهو لا يذكر أين تعلم الحب ! هل تعلمه من نساء انجلترا عندما كان
يدرس في الجامعة أم تعلمه من نساء أمريكا عندما ذهب إلى جامعة هارفارد
ليحصل على الدكتوراه.. أم تعلمه من نساء باريس عندما كان يتردد على
مدرسة السنترال. أم تعلمه من بنات القاهرة اللاتي يجد فيهن حرارة وخفة
دم لم يجدهما في نساء العالم كله أم لعله تعلم الهوى في شفاة نساء الدنيا !
فكلما زاد عدد الاساتذة في مدرسة الحب زاد نبوغ التلاميذ !

ولقد كان حريصا على ألا يعرف عنه أنه زئير نساء ! وكان يساعده على
أن يخفى حقيقته أنه كتوم بطبعه. يكره الاستعراض، ويعتقد أن هذه
الشهرة سوف تسيء إلى عمله، فرجال الأعمال ينظرون إلى ذئب النساء بغير
اطمئنان. يرفضون أن يدعوه إلى بيوتهم. ويتفادون أن يظهرأ مع زوجاتهم
معه في مكان عام. وأكبر الصفقات الصناعية هي التي تعقد في مآدب
العشاء، أو في الحفلات الراقصة على أنغام الموسيقى.. أما المكاتب فهي
خير الأمكنة لاثارة الاشكالات والتعقيدات والخلافات. ولهذا كان يظهر مع
المرأة في مكان عام، حتى إذا انتقلت من خانة المعارف إلى خانة الصديقات
أو العشيقات. اختفت من حياته العلنية. وحرص على ألا يظهر معها في مكان
عام، واكتفى بأن يستقبلها في شقته الأنيقة بعمارة ايموبيليا. حيث يوجد
عشرات الخياطات وعشرات من عيادات الأطباء وعشرات من صالونات حلاقة
السيدات !

فلا يمكن أن تكون الأميرة فضيلة قد عرفت أنه زئير نساء !

على العكس لقد حاول جهده أن يظهر أمامها بمظهر العاشق المبتدئ.

فالمراة المبتدئة تعشق الرجل صاحب التجارب، والمرأة ذات التجارب
تفضل الرجل المبتدئ!

ترى هل دخلت الأميرة قلبه لتسكن غرفة أوجناحا في الفندق، وتترك
باقي صديقاته ساكنات في باقي الغرف. أم أنها جاءت لتستولى على الفندق
كله، وتطرد كل من فيه من نساء!

* * *

وعاد عادل يتطلع إلى الأميرة الفاتنة وهي ترقص، وتغمض عينيها على
أنغام موسيقى شتراوس وكأنها تحلم!

ووجد عادل نفسه يغمض عينيه ويحلم! ويشعر بشعور غريب لم يشعر به
في يوم من الأيام، شعور الرغبة في أن يطرد كل ساكنات قلبه، ويخصصه
للأميرة الفاتنة وحدها!

ماذا حدث له؟ كيف استطاعت هذه المرأة التي لم يعرفها بعد، ولم
يتحدث إليها أن تفعل به كل هذا؟ أن تنسف نظريته في «التعدد».. أن تطرد
بنظراتها النساء الفاتنات اللاتي ملأن قلبه! أن تنسيه خفة دم زينب،
وحرارة فاطمة، وأنوثة عصمت، وسحر أميرة، وصدر الهام؟

هل نومته تنويما مغناطيسيا؟ وأفقدته إرادته، وجعلته مراهقا يبيع
العصافير العشر التي في يده من أجل عصفورة لا تزال فوق الشجرة؟

إنه ليس عاشقا مبتدئا يسقط أمام أول نظرة، كما تسقط المدينة العزلاء
أمام أول طلقة. لقد جرب هو مع النساء سياسة الهجوم الخاطف الذي
لا سبيل إلى مقاومته. طريقة هتلر في الانقضاض. ولكنها هذه هي المرة
الأولى التي شعر بان امرأة تنقض عليه تحاصره من جميع الجهات. تغزوه

من الأرض والبحر والجو في وقت واحد . كل ذلك بابتسامة !

وانتهى الرقص، واتجهت الأميرة إلى مائدتها، وزوجها خلفها، وقام
الأمراء الجالسون حول المائدة احتراماً لهما، ثم همست في أذن زوجها،
وتركتهم ومشت وحدها.. ولاحظ عادل أن الأميرة تلتفت إلى ناحيته لفتة
سريعة، كالبرق، ثم تتابع مشيتها وفهم من هذه اللفتة أن الأميرة تدعوه أن
يتبعها..

ومشى يتبعها عن بعد..

ولاحظ أنها صعدت درجات سلم القصر..

ومضى خلفها.

واتجهت إلى دورة المياه.

ثم توقفت أمامها..

وفتحت حقيبتها، وأخرجت علبة سجاثرها الذهبية، وفتحتها وأخرجت
سيجارة ووضعتها في فمها.

وأخرج عادل علاء الدين على الفور قداحة السجاثر من جيبه، وتقدم
خطوتين.. وأشعل القداحة وتقدم ليُشعل سيجارة الأميرة..

وفي نفس اللحظة وجد يدا أخرى تمتد نحو الأميرة.. وفي اليد قداحة
أخرى مشتعلة..

وأصبح أمام الأميرة ولاعتان مشتعلتان في وقت واحد..

ونظرت الأميرة إلى وجه عادل..

ثم إلى وجه الشاب الآخر..

وأحنت رأسها وأشعلت سيجارتها من ولاعة الشاب الآخر..

ووقف عادل علاء الدين مبهوتا وفي يده الولاة المشتعلة.

وابتسمت الأميرة...

ونفخت في ولاعة عادل وأطفأتها !

الفصل الثانى

فوجئ عادل بالأميرة الفاتنة تختار الشاب الآخر، تفضله عليه، وفهم بذكائه أن الأميرة قبلت أن يشعل الشاب الآخر قلبها.. ثم نفخت في ولاعته إشارة منها إلى أنها تطفىء نار قلبه !!

وأحس بحسرة الهزيمة.. كأن الأميرة كانت بين ذراعيه، وجاء هذا الشاب المجهول وانتزعها منه وأخذها بين ذراعيه.. وتأخر بضع خطوات إلى الوراء، كأنه جيش مسحوق مهزوم. وضاعف من مرارة الهزيمة أنه رأى الأميرة تهمس بكلمة في أذن الشاب الآخر ثم تمضى في طريقها إلى غرفة التواليت، ورأى الشاب الآخر يستدير متجها إلى الباب الخارجى للقصر!

وعلقت عيناه بالشاب الآخر، فوجده شابا أشقر، مديد القامة، جميل الطلعة، لم ير وجهه قبل ذلك فى حفلة من الحفلات أو سهرة من السهرات. ولاحظ أن الشاب الأشقر يبدو سعيدا كأنه يعلم أنه انتصر فى معركة حربية. ولم يكلف نفسه أن يلقي نظرة رثاء على القائد المهزوم!

وفهم عادل أن الأميرة قد أعطت موعدا للشاب الأشقر المجهول. وأراد أن يعود إلى حلبة الرقص يجر هزيمته وراءه، ولكنه بطبعه لا يستسلم بسرعة. زثر النساء لا تصدمه الهزيمة الأولى. على العكس أنها تضاعف من إصراره على النصر. المعركة الأولى يكسبها عادة القائد المبتدئ،

أما المعركة الأخيرة فيكسبها دائما القائد الخبير!

قد يكون هذا الشاب الأشقر فاز بموعد مع الأميرة. ولكن عادل لا يريد موعدا. يريد الأميرة كلها! وقرر عادل أن يربط أمام التواليت..

وبعد دقائق خرجت الأميرة، ولم تلتفت إليه. لم تشعر بوجوده. مضت في طريقها كأنها نسيت وجهه. كأنها لم تره من قبل. كأنها لم تطفئ ولاعته!

وعادت الأميرة إلى مكانها على المائدة مع زوجها وأصدقائه. وعاد عادل إلى مكانه السابق خارج حلبة الرقص، ودهش أن الأميرة لم تلتفت إلى ناحيته. بل مضت تتحدث مع زوجها وأصدقائه، وتضحك في مسرح وكأنها شربت زجاجة شامبانيا عندما همست في أذن الشاب الأشقر المجهول. وتلفت عادل حوله يبحث عن الشاب حول حلبة الرقص فلم يجده. ما حاجته إلى أن يبقى في السهرة وقد حصل على أجمل امرأة في السهرة. لابد أنه عاد إلى بيته يحلم بالموعد الذي حددته له الأميرة.

ترى هل حددت له موعدا هذه الليلة بعد أن ينام زوجها؟ أم هي حددت له الموعد في اليوم التالي؟

ترى هل هذا مواعده الأول معها. أم أنه حبيب قديم للأميرة؟

أ تكون الأميرة غازلت عادل في أول الأمر، وذهبت إلى التواليت لتحدد له موعدا للقاء، فلما رأت حبيبها القديم نسيت عادل، وأعطت الموعد المنتظر للحبيب القديم، نزولا على المبدأ الذي يقول ما الحب إلا للحبيب الأول!

ثم رأى الأميرة تلتفت إلى ناحيته، وأسرع عادل وأخرج ولاعته وأشعلها في الهواء. وأدارت الأميرة رأسها، وانحنيت على الرجل الذي يجلس بجوارها، ولم تخرج ولاعتها ولم تشعلها!

وكرر عادل إشعال ولاعته طوال السهرة حتى فرغ ما فيها من بنزين..
ومع ذلك لم تشعل الأميرة ولاعتها مرة واحدة!.. كأنها أقلعت فجأة عن عادة
القدخين.

ثم عزفت الموسيقى لحنا راقصا دافئا.. وعكست أنوار حمراء على حلبة
الرقص. وأطفئت كل الأنوار ولم يبق سوى هذا اللهب الأحمر.. وقامت
الأميرة ترقص مع أحد الأمراء الشبان الجالسين على مائدتها. وكانت
ترقص مغمضة العينين كأنها تحلم. ومرت أمام عادل فلم تفتح عينيها، فقد
كانت مستغرقة في ذلك الحلم اللذيذ.. وأحس عادل بلسعة غيرة في قلبه. لا بد
أن الأميرة تفكر وهي ترقص في ذلك الشاب الأشقر المجهول. وشعر بالغيرة
القاتلة تنهش صدره. وتصور في أول الأمر أن جمال الأميرة سيذوب أمام
عينيها بعد خيانتها. وإذا به يراها تزداد نضارة وجمالا وفتنة وإغراء.. كأن
حديثها السريع مع ذلك الشاب الأشقر لا يزال يسكرها. أو كأنها تعيش في
الموعد المنتظر.. وتتزين من داخلها لهذا اللقاء، كما تتزين من خارجها
استعدادا لموعد لقاء الحبيب، شيء في هذه المرأة كان يزداد حلاوة. شيء
في داخلها. كأن لمبة كهربائية أضيئت فجأة في أعماقها، فأضاءت كل جزء
من جسدها! هذا الشاب الأشقر لم يقبلها، لم يلمسها. لم يفتح فمه وينسطق
بكلمة واحدة.

ماذا فيه جعل هذه الأميرة تنتشى كل هذه النشوة. تنسى عادل في لحظة
واحدة! تطفئ ولاعته، وتلتهم النار التي في ولاعة الشاب الأشقر.. كيف لم
يره عادل في الحفلة قبل أن تنشق الأرض أمام باب التواليت ويخرج منها
حاملا ولاعته المشتعلة! ثم كيف انشقت الأرض مرة أخرى واختفى هذا
الشاب من الحفلة كلها، بعد أن سرق قلب الأميرة!

لقد كانت أغرب عملية نشل قلب رآها عادل طوال حياته الغرامية! رأى

قبل ذلك ألوانا وأشكالا من لصوص القلوب. رأى اللص الهجام وهو الذى يستعمل العنف وهو ينتزع المرأة، ورأى اللص الذى يبيع للمرأة الترام ويستعمل ذكائه ليخدع الضحية الساذجة، ورأى اللص الخطاف الذى يخطف المرأة من بين أحضان رجلها، ورأى اللص قاطع الطريق الذى يقطع على المرأة الطريق إلى حبيبها ويأخذها لنفسه ! ولكنها أول مرة يشهد فيها عملية نشل امرأة، بهذه السرعة، وبهذه الخفة !

وأحس عادل بالغيب الذى يحس به الضحية عندما يكتشف أن محفظة نقوده التى كان فيها كل رأسماله، قد اختفت من جيبه فجأة. وها هو ذا يرى المحفظة أمامه، ولا يستطيع أن يمد يده إليها، بل هى تتجهأله، كأنها لم تره من قبل، ولم تعرفه.. ولم تشعل له ولاعتها !

وخطر بباله أن يبحث عن أجمل امرأة فى السهرة، ويجىء بها إلى حلبة الرقص، ويضارب بها الأميرة وكأنه يخرج لسانه لسموها الملكى. وكأنه يقول لها إنك لست وحدك المرأة الفاتنة فى هذه الليلة الساهرة فعندى امرأة لا تقل عنك فتنة وجمالا وسوف يرقص مع المرأة التى سيختارها كما لم يرقص فى أى يوم فى حياته.

وعجب عادل من نفسه أن يلجأ إلى أساليب الأطفال ليضايق الأميرة التى هدمت أحلامه. والتى هربت من يديه فى نفس اللحظة التى تأكد فيها أنها ستكون بين ذراعيه. ولم يجد أمامه ما يفعله ليجذب أنظار الأميرة، ويشير اهتمامها، ويشعل الغيرة فى قلبها إلا أن يلجأ إلى هذه الطريقة الصببانية التى لم يلجأ إليها مرة واحدة فى حياته المليئة بالمغامرات والمطارادات !

ومضى يبحث فى الحفلة عن امرأة يكسف جمالها جمال الأميرة. امرأة

تتحدى جمالها. وطافت عيناه بالنساء الموجودات. وأحس بالذعر، خيل له أنه لم يعد في الحفلة امرأة جميلة واحدة. كأن الأميرة أكلتهن جميعا بجمالها ولم تترك سوى هياكلهن العظمية !

وقرر أن يتواضع في بحثه. ويكتفى بامرأة أقل جمالا من الأميرة وراح يحلق في النساء الموجودات. واكتشف أنه فاته قطار الجمال وصل متأخرا بعد أن تحرك قطار الجمال ! كل امرأة جميلة أو شبه جميلة في السهرة وجدت شابا أو عدة شبان يتعلقون في ذيلها. كل فتاة كانت تتمنى - في الحفلات الماضية - أن ترقص معه، اعتذرت عن عدم الرقص معه لأنها ارتبطت برجل آخر، كل الرقصات محجورة. كل النساء محجوزات ! وهو وحده غير المحجوز وغير المطلوب ! محظياته الموجودات في الحفلة على استعداد لأن يعطينه كل ما يريد من البسمات والغمزات والتنهيدات. ولكن واحدة منهن ليست مستعدة لأن تعطيه رقصة واحدة. فقد جاء متأخرا ! الوقت الذى أضاعه في الحملقة في وجه الأميرة الفاتنة انتهزه صيادون آخرون وصادوا كل ما في البحر من أسماك وسردين !

* * *

وتلفت حوله في يأس. ووجد الأنسة قسمت شاهين جالسة وحدها ! هى الوحيدة في السهرة التى ليس بجوارها لا رجل ولا شاب ولا عجوز ! ولم يدهش عادل لأنه رأى قسمت وحدها. فهى تجلس في كل حفلة وفي كل سهرة وحدها ! الرجال يخافون من الاقتراب منها.. الشبان يسمونها « هادمة الذات ومقلقة الراحة » !.. النساء عندما يردن أن يصفن امرأة يمقتنها بقبح الخلقة يقلن إنها تشبه قسمت شاهين !

على عينيها نظارة سوداء سميقة، شعرها مهوش، يشبه رأس العبد الذى

يزيلون به التراب من سقف الحجرات. تقاطيع وجهها فيها قسوة. تبدو دائما « قرفانة ». كأنها تبحث طول حياتها عن ليمونة. على شفتيها مرارة غريبة لست في حاجة إلى أن تذوقها لتعرف طعمها ! ملابسها ليس فيها أناقة ولا ذوق. الألوان التي تختارها دائما لا تناسبها. ألوان غامقة لا تتفق مع بشرتها السمراء، فتزيد لونها سوادا فوق سواد.

كل شيء فيها يدل على « البهذلة ». خصلات من شعرها تدلت فوق وجهها بغير نظام، فلا تعرف هل هذا وجه قسمت أم قفاها. تسريحتها مبتكرة في خروجها عن كل فن مألوف. أنفها صغير، ولكن إطار نظارتها الذهبية الغليظ أخفى الأنف، فبدت كأنها غطاء الأنف، شفتاها رقيقتان ولكنهما مطبقتان، كأنها تجز على أسنانها، أو كأنها تخفى أنيابا تريد أن تغرسها في وجوه الناس.

ودهش عادل.. ما الذي يجيء بفتاة مثل هذه إلى الحفلات الأرستقراطية المليئة بالأناقة والجمال. كأنها تريد أن تتحدى بمظهرها الزرى وقسماتها المنفرة، كل الجميلات وكل الأنىقات، فجاءت تحمل إليهن النقيض. أو كأنها تريد أن تقول إنها الصورة الحقيقية لكل واحدة منهن إذا تخلص عنها سقراط الحلاق أو أشهر الخياطات، أو مستحضرات ماكس فكتور التي تصنع الجمال. أو أنها تريد أن تقول إنها صورة لكل واحدة من هؤلاء الجميلات من الداخل.. صورة بالأشعة !.

أو لعلها تحرص على أن تظهر في هذه الحفلات الأرستقراطية بهذا المظهر الزرى ا تذكر الحاضرين والحاضرات بالمتسولين التعساء، الذين يتضورون جوعا في المدينة الكبيرة، بينما هؤلاء ذوات الثراء يحملن فوق أجسادهن، وفي أذانهن، وحول رقابهن، وفوق رؤوسهن ألؤفا من الجنيهاات..

كانها تذكر كل امرأة بملجأ الشحاذين في القاهرة التى تتولى منصب
سكرتيرة مجلس الادارة فيه.

ليست هذه هى المرة الاولى التى تخطر هذه الاسئلة برأس عادل
علاء الدين. كلما رأى قسمت فى حفلة من هذه الحفلات أطلت من رأسه
هذه الاسئلة بغير أن يجد لها أى جواب. وكثيرا ما حدثته صديقتها أميرة
عن قسمت، زميلتها فى مجلس إدارة جمعية ملجأ الشحاذين.

قالت له إن قسمت ليست فتاة فقيرة عاجزة عن شراء أفخر الثياب،
والتردد على أعظم صالونات الحلاقين وشراء آخر مستحضرات الجمال من
باريس، فهى على العكس ابنة شاهين باشا عبد اللطيف الثرى المعروف،
الذى بع صوته فى محاولة إقناع ابنته الوحيدة كى تظهر بالمظهر اللائق
بالأسرة وباسمها الكبير! ولكن كل المبالغ التى يدفعها الأب لابنته لشراء
الملابس ولشراء المجوهرات تتبرع بها لملجأ المتسولين! وكثيرا ما حاولت
أميرة إقناع صديقتها قسمت بأن تعنى بمظهرها الزرى الكئيب، كأنها تصر
على أن تكون إعلانا متنقلا عن حالة المتسولين فى مدينة القاهرة!

وتقدم عادل نحو قسمت وقال لها باسم:

— أهلا بعدوة الرجال!

قالت قسمت وهى تبتعد قليلا عن المكان الذى اختاره ليجلس فيه
بجوارها:

— أهلا.. بسفاح النساء!

وتأملته قسمت بنظرة واحدة وقالت:

— ماذا جاء بك إلى هذه المنطقة الحرام؟ هل أوقعت كل النساء اللاتى

في الحفلة في حباتك. أم أنك وصلت متأخرا بعد أن كانت كل سمكة قد
تعلقت في سنارة أخرى! لو كان هذا هو الذي حدث فمعناه أن الله يحب
النساء في هذه الليلة.. ولهذا خلصهن من شباكك!

وفوجئ عادل بهذا الهجوم فقال:

— لماذا تكرهينني يا قسمت كل هذه الكراهية!

قالت قسمت:

— إنني لا أكرهك أنت بالذات... إنني أكره كل الرجال!

— ولماذا تكرهين كل الرجال؟

— لأنهم يكرهونني!

— ولماذا يكرهونك؟

— لأنني أفهمهم جيدا!

وتأملها عادل خلف نظارتها السوداء، ويبحث عن عينيها فلم يستطع أن
يراهما ليعرف ما تعنى قسمت بأنها تفهم الرجال، ولكنه رأى على شففتيها
علامة القرف وهي تذكر أنها تفهم الرجال، وأنها تكرههم لأنها تفهمهم!
وعاد يقول لها:

— لا بد أن رجلا واحدا أساء إليك، فمن أجله وحده كرهت كل الرجال!

وابتسمت قسمت ابتسامة ساخرة وقالت:

— ليس ضروريا أن يمرض الطبيب بالحمى الصفراء ليعرف أعراض
الحمى الصفراء!.. أو أن يكون مصابا بالطاعون لكي يعرف مريض

الطاعون ! يكفينى أن أعرف ضحاياكم.. لأعرف سبب الوفاة !

وضحك عادل وقال :

– هذه أول مرة أسمع فيها امرأة تشبه الرجل بالحمى الصفراء أو الطاعون ! ولكن ما رأيك في أن كل امرأة في العالم تتمنى أن تصاب بهذه الحمى الصفراء !. وكل امرأة جاءت إلى هذه الحفلة مكثت ساعتين عند الحلاق وعشر ساعات عند الخياطة وعدة ساعات أمام المرآة.. لتصاب بميكروب الحمى الصفراء، أو لتحفظ بميكروب الحمى الصفراء !

قالت ساخرة :

– ولكننى لم أقف أمام المرآة دقيقة واحدة، لأننى لم أشأ أن أنكد على نفسى برؤية وجهى فى المرآة ! أوريما لأننى لا أريد أن أصاب بالحمى الصفراء أو بالطاعون، ولكنى فى الوقت نفسه انتهز كل فرصة لأحذر النساء من خطر الحمى الصفراء والطاعون !

قال عادل :

– لقد قالت لى أميرة عبد العاطى إنه فى كل مرة تقابلك فيها تحذرينها منى ! وتنصحينها بالابتعاد عنى . وتبصرينها بالمصائب التى سوف تنزل على رأسها إذا استمرت فى علاقتها بى !

ولم يبد على قسمت أنها أخرجت عندما علمت بأن أميرة أخبرت عادل بكل ما قالته عنه بل على العكس، بدت عليها السعادة لأن عادل عرف رأيها فيه ! فعادت تقول :

– أنا لا أنكر كل كلمة قلتها فيك ولكننى لم أتبرع بهذا الرأى. لقد سألتنى أميرة عن رأيى فيك، فقلت رأيى بصراحة.. فأنا أحب أميرة. وعندما

يطلب منى إنسان أحبه النصيحة يجب أن أصدقها فيها.

قال عادل :

— وإذا طلبت أنا نصيحتك... فهل تصدقيننى النصيحة؟

قال قسمت :

— أنا لا أنصح الرجال ! نحن لا نستطيع أن نحققن ميكروب الحمى الصفراء. ولهذا نكتفى بحققن المصابين !

— ولكن ما الذى يجعل كل امرأة تحبك وتثق بك وتأتمنك، كأنك الخزانة السرية التى تحتفظ النساء فيها بكل أسرارهن؟!

وأخرجت قسمت علبة سجائرها، وأخذت سيجارة، وأشعلتها دون أن تنتظر حتى يبحث عادل فى جيوبه ويخرج علبة الثقاب بعد أن انتهى البنزين فى ولاعته وقالت :

— لعل شكلى الزدى، ووجهى القبيح، وإهمالى لمظهرى جعلنى فوق مستوى غيرة النساء. كل عاشقة تطمئن إلى، لأننى لن أسلب منها رجلها أو أسرق حبيبها.. أو استغل الأسرار التى ائتمنتنى عليها لأحتل مكانها فى قلب معبودها..

وضحكت قسمت من كل قلبها وقالت :

— سأقول لك سرا.. إذا كانت المرأة الجميلة تستطيع أن تسيطر على الرجال بجمالها، فالمرأة المحرومة من الجمال قادرة على أن تجعل من هذا العيب ميزة لها !

وفتح عادل فمه دهشة لأن قسمت تتحدث عن قبحها بهذه البساطة ! بل

هى تفاخر بقبحها، وتعتبره ميزة لها !

ورأها عادل تفتح حقيبة يدها، وتخرج منها مرآة، ثم تطل فى المرآة وتبتسم فى رضاء وتقول :

— إن وجهى اليوم.. يشبه الصرمة القديمة !

وابتسم عادل، وتأمل وجه قسمت فوجده فعلا يشبه الحذاء القديم ! ولكنه تعجب فى نفسه من قوة هذه المرأة التى تسخر من نفسها بهذه القسوة. الانسان القوى هو الذى يتحمل النقد، ولكن الانسان العظيم هو القادر على أن يسخر من نفسه ! وأحس عادل بشعور غريب. أن فى داخل هذه المرأة القبيحة الخلقة شيئا جميلا. لا يعرف ما هو؟ شيئا يجذبه.

ووجد نفسه يقول لها :

— هيا.. نرقص !

ولم تتحرك قسمت من مكانها وقالت :

— هل جننت يا عادل؟ دكتور عادل علاء الدين دون جوان مدينة القاهرة يرقص مع أقبح فتاة فى القاهرة؟ سيشك الناس فى أنك الدكتور علاء الدين. سيظنون أنك الدكتور طه حسين ! سيقولون إنك أصبت بالعمى لأنك ترقص مع قسمت شاهين !

وجذبها عادل من يدها، ومشى بجواره متخاذلة إلى حلبة الرقص وهى تقول :

— ستندم يا عادل ! ستصبح الليلة أضحوكة بين الرجال ! ستسمع ألوانا وأشكالا من النكات والقفشات ونحن نرقص معا !

ولم يرد عادل على اعتراضاتها، ودخل معها إلى حلبة الرقص، ولف ذراعه حول خصرها واحتضنها، ومضى يرقص معها وقد رفع رأسه مزهوا فخورا !

وقالت له قسمت وهى ترفع رأسها نحو وجهه الذى انحنى على وجهها :
— لماذا ترقص معى ؟ هل أردت أن تقوم فى هذه الليلة المباركة بعمل خيرى ؟

قال لها وهو يضغط على خصرها :

— نعم.. أردت أن أتبرع بهذه الرقصة لملجأ الشحاذين !

قالت له وهى تتفادى أن تنظر إلى عينيه الحالمتين :

— التبرعات تدفع لأميرة عبد العاطى أمينة الصندوق !

قال :

— ولكن أمينة الصندوق مع والدها الذى يشبه الكلب البولج..
ولو رقصت معها الليلة فسوف يغرس والدها مخالبه فى جسمى ولا يتركنى إلا جثة!.. ولا أظن أنكم توزعون على الشحاذين فى الملجأ جثث الموتى !

قالت : إذن أنت ترقص معى لأننى بلا حارس ! لقد تصورت أن قبس وجهى يحرسنى أكثر من فرقة من الرجال !.

قال لها عادل :

— قد يدهشك أنك لست قبيحة بالصورة التى تحاولين إظهارها للناس ! إن شيئا فيك جميل.. لا أعرف ما هو ! وما زلت أبحث عنه دون جدوى !

قالت باسمه :

— هل هذه المجاملة موجهة إلى ملجأ الشحاذين أيضا على سبيل
التبرع؟

قال عادل :

— لا.. إنها موجهة إليك!

قالت ساخرة :

— سأضم اسمك إلى كشوف كبار المحسنين.. إلى كشوف فاعلى الخير!
إننى أتصورك عندما تعود إلى بيتك، ستقول « الليلة قمت بعمل لله! »..
ربما تكون أنت أول رجل فى العالم رقص لله! سمعت عن رجال يتبرعون لله..
ويحسنون لله.. ويعملون المعروف لله.. ولكن هذه أول مرة أرى فيها رجلا
يرقص لله! انظر حولك تجد الرجال ينظرون إليك بسخرية ويتغامزون عليك،
ألا تشعر بالخجل؟ ألا تؤلمك هذه الغمزات؟

قال عادل :

— أنا لا أشعر بهذه النظرات! إنها لا تصل إلا لقدمى! إنك ترقصين
ببراعة عجيبة.. ولا بد أن هذه النظرات هى إعجاب ببراعتنا فى الرقص!

قالت :

— الناس لا تنظر إلى الأقدام.. وإنما تنظر إلى الوجوه!.. ليتهم ينظرون
إلى الأقدام فقط!

قال عادل :

— ألم تقولى لى الآن إن وجهك مثل الصرمة القديمة؟ ماذا يهملك لو

نظروا إذن إلى وجهك أو إلى حذائك !

وابتسمت قسمت لهذه القفشة وقالت :

— أنت أول رجل يرقص معى فى مكان عام ! كل امرأة جميلة فى المدينة تحب أن تخرج معى إلى الأماكن العامة، اللون الأسود يبرز اللون الأبيض. القبح يبرز الجمال الذى بجواره. إن امرأة نصف جميلة تمشى بجوارى فى الشارع تبدو كأنها ملكة الجمال ! تماما كما يستطيع الظلام الدامس أن يجعل ضوء عود الثقاب باهرا يعمى العيون !

وفى تلك اللحظة اقتربا من المائدة التى تجلس عليها الأميرة فضيلة. وفوجئ بفضيلة تهز رأسها لقسمت، ثم تهز رأسها لعادل وعلى شففتها ابتسامة.. ثم رآها تخرج ولاعتها وتشعلها فى الهواء !

وبهت عادل لهذه المفاجأة التى لم يتوقعها. لقد بحث طويلا عن أجمل فتاة فى السهرة ليرقص معها، ويثير اهتمام الأميرة الفاتنة التى فقدتها أمام دورة المياه، ولم يجد فتاة جميلة، ولا نصف جميلة لتثير غيرة الأميرة الحسنة.. وإذا بأقبح الفتيات وجها وأحقرهن مظهرا هى التى تثير اهتمام الأميرة، وهى التى تجعلها تحرك رأسها بالتحية، وتبتسم له، وتشعل ولاعتها فى الهواء !

أتكون فتنته هو، وأناقته هو، لم تبرز إلا بجوار هذه الفتاة الزرية الهيئة، القبيحة الخلقة.. طبقا لنظرية قسمت بأن الأسود هو الذى يبرز الأبيض، وحلقة الليل هى التى تظهر ضوء عود الثقاب !

أم هي نتيجة فعل الخير، هو الرجل الوحيد في هذه السهرة الذي فعل شيئاً لله، لا يبغي من ورائه جزاء ولا شكورا، هو الوحيد الذي عطف على هذه المنبوذة التي هرب منها كل الرجال. هل كان حقاً يرقص لله كما قالت قسمت، فأراد الله أن يجازيه على أنه رق لامرأة هجرها الجميع، فأسرع يثيبه على هذه الحسنة، لا بعشرة أمثالها، وإنما بمليون من أمثالها!..

إنه رجل مؤمن، يؤمن بنظرية الثواب والعقاب. ولكنه كان يتوقع دائماً أن يكون الثواب في السماء، لا في قصر الأميرة شويكار! وكان يؤمن بأن الثواب يجيء في يوم القيامة، بعد آلاف السنين، لا بعد دقائق من عمل الخير..

ومضى يرقص، وقسمت بين ذراعيه، ومواكب الراقصين تدفعهما بعيداً عن مكان مائدة الأميرة الفاتنة. وقرأت قسمت تعبيرات الهناء في وجه عادل فسألته :

— هل تعرف الأميرة فضيلة؟

وأيقظه هذا السؤال من الحلم الذي كان يحلم به وقال :

— لا.. لا أعرفها.

قالت قسمت في خبث :

— يبدو أنها تريد أن تعرفك!

قال عادل ساخراً :

— هل تعرفين قراءة أفكار النساء؟

قالت قسمت باسمه :

— لا.. إن الأميرة أشارت لي بيدها إشارة معناها أنها تريد أن تذهب

إلى مائدتها بعد انتهاء الرقص !

قال عادل مذهولا :

ـ ولكننى لم أر هذه الإشارة !

قالت قسمت :

ـ عندما أدركت ظهورك للأميرة أشارت لى الأميرة الإشارة وفهمتها ! يا لك من صياد ماهر ! وضعت فى سنارتك سمكة بسارية .. هى أنا .. لتصطاد بها أجمل سمكة فى البحر .. الأميرة !

وتوقفت الموسيقى بعد انتهاء الرقصة، ودفعت قسمت أمامها عادل، ثم صحبته من يده إلى مائدة الأميرة !

ووقف زوج الأميرة والأمراء وانحنوا إجلالا لقسمة .. وقدمت قسمت عادل إلى الأميرة قائلة :

ـ عادل علاء الدين !

وصافحته الأميرة وضغطت على يده وهى تصافحه، وأجلست قسمت إلى جوارها، وطلبت من عادل أن يجلس فى المقعد الذى أمامها .. وقالت لهما :

ـ لقد كنتما أبرع راقصين فى حلبة الرقص !

قالت قسمت وهى تضحك :

ـ لقد كنا فعلا محط أنظار الجميع . فقد كان الموجودون يتساءلون من هو هذا الفدائى الذى يرقص مع هذه الخنفساء !!؟

وضحكت الأميرة ضحكة عالية لخفة دم قسمت !

ومضت قسمت تقول : حدث مرة أن جاء محام اسمه زعزوع بيومى وتقدم لخطبتى .. وكان زعزوع هذا مشهورا بقبح الخلقة . له أنف يحتل نصف وجهه بالطول، وله فم يحتل كل وجهه بالعرض .. وعندما سمع الناس أن زعزوع هذا سيتزوج، راحوا يقولون مسكينة التى ستتزوج زعزوع ... وعندما عرفوا أنه سيتزوج قسمت شاهين قالوا على الفور: مسكين زعزوع ... وضحكت الأميرة حتى امتلأت عيناها بالدموع !

وفهم عادل من ضحكة الأميرة من كل قلبها، وإعجابها بها لماذا كانت تنتخب قسمت بالاجماع دائما سكرتيرة لمجلس إدارة ملجأ المتسولين ' فلا تتقدم عضو لمنافستها. ولا تنازعها سيدة على سلطانها. إن اعترافها الدائم بقبح وجهها ودمامة خلقتها جعل العضوات لا يفرن منها، ولا يحسدنها على شيء، ولا يخفن منها. كانت النساء يتصارعن على مراكز مجلس الادارة. على منصب الرئيسة .. على منصب الوكيله. على منصب أمينة الصندوق. يختلفن، ويتشاجرن ، ويتخاصمن، ويمسكن شعور بعضهن، وينقسمن إلى فرق وأحزاب. ولكنهن يجمعن دائما على أمر واحد هو انتخاب قسمت شاهين سكرتيرة .. لأنها لا تنافس واحدة منهن فى جمال، أو فى أناقة، أو فى محاولة الحصول على إعجاب الرجال !

وقطعت الأميرة على عادل أفكاره وقالت ل قسمت :

– ولكن الذى أدهشنى أن أراك ترقصين مع رجل .. والمعروف عنك أنك عدوة الرجال !

قالت قسمت ضاحكة :

– هذه طريقتى فى الانتقام من الرجال ! أنا واثقة أن عادل سيعلم أنه طلق الرقص نهائيا. حتى لا يرقص معى مرة ثانية !

قال عادل :

– على العكس ! إننى بدأت الآن أحب الرقص ! إن قدميك تعزفان الموسيقى وهما ترقصان !

قالت الأميرة :

– هذه أجمل كلمة سمعتها فى حياتى تحية لقدمى امرأة ! أظن بعد هذه التحية أنك سوف توقفين يا قسمت الحرب التى أعلنتها على الرجال ! يكفيانا أن نعيش فى حرب واحدة.. وهى الحرب بين هتلر والحلفاء !

قالت قسمت :

– إن الحرب التى أعلنتها لا تنتهى أبدا إلا بعد أن يموت كل الرجال.

قال زوج الأميرة مقاطعا :

– طبعا ما عدا أفراد الأسرة المالكة !

قالت قسمت :

– الرجال من الأسرة المالكة فى المقدمة !

وضحكت الأميرة ووضعت أصبعها على فمها وقالت هامسة :

– احذرى ! إن الملك هنا !

قالت قسمت :

– أنا امرأة صريحة ! أنا أعلنت الحرب على كل الرجال بلا استثناء !.. وأعتبر كل الرجال من الأعداء.. بغير استثناء ! أنا لا أثق فى أى رجل،

ولا أطمئن إلى وعود أى رجل، أنا أعتقد أن الكذب هو رجل. والفدر هو رجل.. والخيانة هى رجل!

وأنا أنصح كل صديقاتى بالابتعاد عن الرجال. وأحذرن من الرجال وخطر الرجال وسفالة الرجال!

قالت لها الأميرة:

– وإذا جاءتك صديقة وقالت لك إن رجلا رآته فى هذه الحفلة وأعجبها.. وسألتك ماذا تفعل لتعبر له عن إعجابها فماذا تقولين لها؟

ونظرت الأميرة من طرف عينها نحو عادل فاهتز فى مقعده.. وأسرعت قسمت تقول وهى تنظر إلى عادل:

– أقول لها إنك ترتكبين أكبر حماقة فى حياتك، وسوف تندمين طول حياتك على ارتكاب هذه حماقة! وأن هذا الرجل يبدل النساء كما يبدل جواربه. وأنه سفاح النساء!.. لذته أن يذبح المرأة.. ثم ينتقل إلى امرأة أخرى ليذبحها!

وكاد عادل يقول لقسمت إن رأيها مثل وجهها! ولكنه تمالك نفسه. فقد شعر أن قسمت تبدى رأيها فيه.. لا رأيها فى الرجال وأسرع يقول:

– إن قسمت مغرصة فى حكمها على الرجال. إذا جاءتها صديقة تعرض عليها أزمة مع حبيبها، نصرتها على الحبيب. أيدتها فى الخلاف قبل أن تسمع أسباب الخلاف! ووجدت الأسباب القوية والحديثات المؤكدة للحكم على أى عاشق بالأعدام!

ومن حسن حظ الرجال أن النساء لا يثقن فى نصائح قسمت.. وإلا لطلقت

كل الزوجات أزواجهن. وانفصلت كل المحبات عن أحبابهن، وأصبح الحب جريمة عقوبتها الاعدام!

قالت الأميرة : لو قالت قسمت هذا الرأي فيك يا عادل بك.. فماذا تفعل؟
قال عادل :

– كنت أضربها بالرصاص أو أرقص معها!

قالت قسمت معترضة :

– إننى أفضل ضرب الرصاص!

ثم عادت قسمت وقالت بجدية :

– ولكن النساء تعجبهن أرائى!

قال عادل :

– المرأة بطبيعتها تحب أن تكون دائما على صواب! تستريح عندما تجد امرأة أخرى تؤكد لها أنها على حق.. وليس شعورها أنها على حق دائما نتيجة غرورها. إنما هو جزء من أنوثتها. وهذا الشعور يجعلها أكثر جاذبية! ويحدث أحيانا أن تتأكد المرأة أنها مخطئة. ترى ذلك بعينيها. وتلمسه بيديها. فإذا جاء من يقول لها إنها على حق كذبت عينيها على الفور وصدقت أنها على خطأ!

قالت قسمت محتجة :

– الرجال هم الذين يتصورون أنهم على حق دائما! لقد حدث أمس فقط أن صدمت سيارتى فى شجرة.. وشهدت كل النساء الموجودات فى الشارع أن الحق معى.. وإذا بكل الرجال يشهدون ضدى!

قال عادل ضاحكا :

— أنا مستعد لأن أشهد أنك لست المسئولة عن الخطأ ! المسئولة هى الشجرة ! لا يمكن أن تكون امرأة صدمت شجرة بسيارتها مسئولة عن هذا الاصطدام ! لا يمكن ألا تكون رأّت الشجرة. لا يمكن أن تكون قد سرحت، ومشت فوق الرصيف بدلا من أن تمشى فى الشارع !

قالت الأميرة وهى تبتسم وتنظر إلى عادل :

— فعلا ! قسمت على حق ! المسئول عن الاصطدام هو مصلحة التنظيم ! هى التى زرعت هذه الشجرة فى غير المكان المناسب لها. من الوجهة الفنية !

قالت قسدت فى حماس :

— مضبوط يا سمو الأميرة ! لو أنهم قدموا الشجرة مترا، أو أخروها مترا لما وقع الاصطدام !

قالت الأميرة ضاحكة :

— بل هو ذنب الشجرة نفسها التى مالت بجذعها إلى الأمام، بينما المفروض علميا أن تميل الشجرة بجذعها إلى الراء..

قالت قسمت :

— ليس غريبا أن تخرج هذه الشجرة قليلة الأدب على الوضع المعقول ! فالذى زرعها رجل، ومدير مصلحة التنظيم رجل. ووزير الأشغال الذى تتبعه مصلحة التنظيم رجل. وجندى البوليس الذى شهد ضدى رجل، وضابط البوليس الذى حرر المحضر ضدى رجل !

قال عادل ساخرا :

— إنها مؤامرة من الرجال ضد عدوة الرجال ! لقد قصد الرجال سيئو النية بزرع الشجرة في هذا المكان بالذات، أن تسرع قسمت، وتصعد بسيارتها فوق الرصيف، وهي خالية الذهن من مكائد الرجال الذين يزرعون الأشجار فوق الرصيف، لو حكمنا النساء فأول ما تفعله المرأة أنها ستقطع الأشجار من الشوارع، وستخلع المصابيح من الأرصفة.. حتى لا تصطدم بها سيارات النساء !

قالت الأميرة :

— إن المرأة تقود سيارتها بحذر أكثر من الرجل. الثابت من الإحصاءات أن نسبة حوادث اصطدام السيارات التي يقودها الرجال عشرة أمثال اصطدام السيارات التي تقودها نساء ! هل سمعت أن سيارتين تقودهما سيدتان اصطدمتا في طريق مصر الاسكندرية !

قال عادل :

— السبب هو أدب السائقين الرجال الذين يتركون المرأة السائقة تمر أولا ! ويتوقعون أن تفعل المرأة أى شىء إلا أن تحافظ على قواعد المرور ! عندما أقود سيارتى خلف سيارة تقودها امرأة لا أعرف هل هى تريد أن تتجه إلى اليمين أو إلى اليسار ! هل تريد أن تتقدم إلى الامام، أو تتقهقر إلى الخلف ! بل إن السائقة نفسها لا تعرف عادة ماذا تريد ! فهى تقرر أن تتجه إلى اليسار بعد أن تكون فعلا اتجهت إلى اليمين !

قالت الأميرة وهى تضحك :

— إن المرأة هكذا دائما ! مترددة ! تُحار في أول الأمر. ثم تنطلق !..

ونظرت الأميرة نظرة طويلة إلى عادل ثم قالت له :

— أنا مثلاً.. مترددة!.. لا أعرف هل أدوس على الفرملة.. أم أدوس على البنزين!

وكاد عادل يقول لها «دوسى على البنزين يا سمو الأميرة» ولكن قسمت أسرع تقطع عليه الطريق وتقول:

— إذا رأيت أمامك رجلاً فدوسى على الفرملة.. وإذا لم تلحقى أن تدوسى على الفرملة، فدوسى على البنزين وادهسيه، الرجال هم سبب كل مصيبة فى الدنيا! هذه الحرب التى نعيش فيها. رجل اسمه هتلر هو الذى أعلن هذه الحرب! هذه المذابح التى نسمع عنها كل يوم، الأفران التى يلقون فيها بالرجال والنساء أحياء! كل جرائم التاريخ ارتكبها رجال.

هل سمعت عن امرأة أعلنت حرباً!

قال عادل:

— نعم.. أنت! أنت أعلنت الحرب على الرجال ولا تريدين لا صلحاً ولا هدنة ولا سلاماً!

ونظرت الأميرة إلى ساعتها فوجدتها الثالثة بعد منتصف الليل، وتهيأت للقيام وقالت لعادل:

— إن عادل بك يتجنى على المرأة.. وقسمت هانم تظلم الرجال.. لماذا لا نعقد صلحاً بين الرجل والمرأة؟

وسكتت لحظة وقالت لقسمت:

— سأتصل بك يا قسمت هانم غداً.. لنحدد موعداً نعقد فيه الهدنة!

قالت قسمت في حزم :

— أنا أرفض الصلح ! أنا أؤمن بالحرب حتى الموت !

وسألت الأميرة بعينيها عادل :

— ما رأيك .؟

قال عادل :

— أما أنا.. فمستعد للتسليم بلا قيد ولا شرط !

وابتسمت الأميرة ابتسامة فهم منها عادل أنها ستحدد له موعدا للصلح !

وأهم من ذلك أنه قرأ في عينيها المليئتين بالحياة والرغبة أن الأميرة هي التي ستجلس على مائدة الصلح بدلا من قسمت شاهين !

ومدت الأميرة يدها البضة إلى عادل..

وتناول عادل يد الأميرة، ورفعها إلى فمه، وانحنى على يدها، وقبلها قبلة طويلة حارة !

وارتعشت يد الأميرة بين شفتيه رعشة لذيدة. وكأن يدها جسد امرأة ينتفض بين ذراعي رجل !

وأحس عادل أن شفتيه وقعتا معاهدة الصلح مع كل نساء العالم !

لا.. إنها معاهدة حب.. مع صاحبة السمو الملكي.

الفصل الثالث

وضعت الأميرة آلة التليفون بجوارها..

ووضع عادل آلة التليفون إلى جواره..

كل منهما ينتظر في لهفة رنين جرس التليفون.

هى فى قصرها بالجزيرة، وهو فى شقته فى عمارة إيموبليا.

ولكن جرس التليفون لم يدق!

كان عادل ينتظر أن يسمع صوت الأميرة. ولكن الأميرة لم تكن تنتظر صوت عادل.

كان عادل منذ الليلة التى قبل فيها يد الأميرة على ثقة من أنها سوف تحصل على رقم تليفونه وسوف تتصل به لتحدد له موعد توقيع الصلح كما وعدته عيناها!

سوف تجد بسهولة رقم تليفونه فى دفتر التليفونات. إن اسمه مكتوب مرتين تحت اسم عادل وتحت اسم علاء الدين!.. لو نسيت الأميرة اسم عادل.. فسوف تذكر اسم علاء الدين! ولو أنها نسيت الاسمين معا. فإنها تستطيع أن تتصل بقسمت شاهين وتعرف منها رقم تليفونه!

مضت أربع وعشرون ساعة كاملة على لقائه بالأميرة ولم تتصل به بعد.
إنه لأول مرة في حياته لم يذهب إلى مكتبه في الشركة وجلس مرابطا بجوار
آلة التليفون. لأول مرة ألغى جميع مواعيده الغرامية حتى لا يصدق جرس
التليفون ومعه إحدى صديقاته، فلا يستطيع أن يتحدث مع الأميرة بحرية
كما يريد. وماذا يحدث لو أن الأميرة اتصلت به وقالت إنها قادمة للقاءه على
الفور وكانت لديه إحدى صديقاته. أى ورطة يمكن أن يقع فيها إذا تلكأت
صديقتها في الخروج..

لهذا كان الأسلم أن يلغى جميع مواعيده الغرامية. ويدعى أن لديه
أعمالا هندسية هامة، عاجلة، وأنه لزم البيت لاعدادها!

وكما كان يصدق جرس تليفونه، ويدق معه قلبه. ويرفع السماعة، يصاب
بخيبة أمل عندما يجد صوت امرأة أخرى غير الأميرة. ويسارع إلى إنهاء
المحادثة. خشية أن تطلبه الأميرة في التليفون وتجده مشغولا!

وينتظر.. وينتظر.. ولا يتحدث الأميرة..

* * *

ويخطر ببال عادل أن يتصل بالآنسة قسمت شاهين في ملجأ المتسولين!
ألم تقل الأميرة أنها ستتصل بها في اليوم التالى لتحدد موعدا لعقد الصلح؟
ويفكر في اختلاق سبب لمحادثة قسمت! ويهرش رأسه بحثا عن سبب
وجيه! ويخطر بباله أن يدعوها لتناول الشاي معه... ثم يعدل عن هذا
الرأى! كفاه التضحية العظيمة التى قام بها عندما رقص معها في سهرة
الأميرة شويكار! لقد فعل شيئا في حياته لله مرة واحدة.. ولا يريد أن يكرر
ارتكاب هذه الحسنة مرة أخرى ويبتعد عن آلة التليفون مذعورا. وكأن آلة
التليفون هى قسمت شاهين!

ثم يعود ويضع يده على آلة التليفون من جديد.. ويرفع السماعة. ويدير رقمها. ثم يغمض عينيه. وكأنه يتهاى لكى يتجرع شربة زيت خروج.

ويسمع صوت قسمت.. ويلاحظ أن صوتها جميل فى سماعة التليفون. مساكين هؤلاء الذين يسمعون صوتها فى التليفون.. ويتصورون أنها ملكة جمال. فإذا التقوا بها عرفوا أنها « عفريته » ملكة الجمال !

ويحيى عادل الأنسة قسمت برقة متناهية، ويقول أنه طلبها ليشكرها على الرقصة الجميلة التى سمحت له بها. وعلى الوقت الجميل الذى أمضاه معها !

وتضحك قسمت وتقول له : إن عمرك أطول من عمرى ! لقد كنت أنوى أن أطلبك فى التليفون لأطمئن هل أنك ما زلت على قيد الحياة..

وتصور عادل أن قسمت تقصد أن زوج الأميرة سوف يطلق عليه الرصاص، ولكنها فاجأته بقولها :

— كنت أتصور أنك سوف تنتحر بعد أن عدت إلى بيتك !

قال عادل :

— لماذا انتحرت ؟ !

قالت قسمت وهى تضحك :

— كان عليك صورة رجل يؤس من الحياة. وأراد أن يلقي بنفسه فى النيل. وعندما لم يجد النيل رقص معى !

قال عادل :

— قد يدهشك أن تعلمى أن تليفونى لم يتوقف أمس عن الرنين ! نساء

أعرفهن ونساء لا أعرفهن اتصلن بى ليطلبن منى موعدا !

قالت قسمت :

ـ طبعاً !.. كل النساء اللاتي في الحفلة قلن هذا رجل «نفسه حلوة».
وما دام قد رقص مع قسمت شاهين فكل امرأة أخرى في نظره ستكون ملكة جمال !

وتحدث عادل وقسمت في عدة موضوعات.. ولكنها لم تذكر الأميرة بكلمة واحدة. ولم تذكر أنها اتصلت بها.. ولم يشأ عادل أن يفتح موضوع الأميرة. فقد تكون سموها لا تريد أن تعرف قسمت بعلاقتها به.

وضع سماعة التليفون على الآلة في حسرة، على الوقت الذى أضاعه بلا فائدة في محادثة طويلة مع عدوة الرجال !

وخطر بباله أن تكون الأميرة طلبت رقم تليفونه في أثناء انشغاله بالحديث الطويل مع قسمت، ولما يئست من أن تتصل به عدلت عن الحديث أو أجلته ! وأحس بالضيق، وكره قسمت شاهين، وكأنها هى التى طلبته في التليفون وشغلت الخط !

ومضت الايام والأميرة لا تتصل به،

وعاد إلى مكتبه محزوناً مكتئباً. واعتقد زملاؤه في الشركة أنه كان مريضاً فعلاً في الأيام الثلاثة التى بقى فيها ملازماً بيته !

وكان عادل يتصل تليفونيا بقسمت كل يوم، ويخترق في كل مرة سبباً لهذا الحديث. مرة قال لها إنه قرر التبرع بعشرة جنيهات لملجأ المتسولين، ومرة قال لها إنه يبحث عن صديقه أميرة عبد العاطى أمينة صندوق الجمعية..

وفي المرة الثالثة سألها عن موعد الحفلة الساهرة التي ستقيمها جمعية رعاية المتسولين !

وفي كل مرة كان يتحمل عادل بصبر غريب محاضرة قسمت عن سفالة الرجال وجرائمهم وعن أن الرجال مسئولون عن عذاب البشرية منذ فجر التاريخ !

ولكن ما من مرة ذكرت قسمت اسم الأميرة. أو أشارت إلى المناقشة التي جرت بينهما أمامها، أو عن وعد الأميرة بعقد الصلح بينهما !

* * *

وأقامت جمعية الهلال الأحمر حفلتها السنوية في فندق سميراميس.

وكانت مبرة محمد على برياسة الأميرة شويكار تنافس جمعية الهلال الأحمر برياسة حرم حسين سرى باشا رئيس الوزراء.

وكان الملك يشجع مبرة محمد على... وكانت الملكة فريدة تشجع جمعية الهلال الأحمر، لأن حرم سرى باشا هي خالتها !

وكان بين الجمعيتين ما بين القط والفأر ! وكل جمعية تحاول أن تكون حفلتها الساهرة هي حفلة الموسم !

وعرف عادل من صديقه فاطمة عبد الرسول عضو مجلس إدارة الهلال الأحمر أن الأميرة فضيلة ستحضر الحفلة..

وانتظر عادل موعد حفلة الهلال الأحمر بفارغ الصبر. سوف يحضر هذه الحفلة الساهرة. وسوف يعرف من الأميرة سر عدم اتصالها به. لابد أنها كانت مريضة. أو لابد أنها كانت مسافرة. إن عينيه لم تخذعاه مطلقا

عندما قرأ في عين الأميرة أنها أعجبت به. وأنها سوف تحدد له موعداً. إن الأميرة لم تترك له فرصة لكيلا يفهم ماذا تريد أن تقول! وخبرته في النساء تؤكد له أن ما فهمه هو ما قصدته الأميرة! إنها لم تترك الأمر لذكائه. بل كررت وأكدت في حديثها ما فهم منه أنها معجبة به!

لولا ذلك الاعجاب لما دعتة للجلوس إلى مائدتها! ولما سألت قسمت ماذا تفعل لتعبر لرجل أعجبها في الحفلة عن أنها معجبة به! ولما قالت له أنها ستعقد معاهدة صلح بين الرجال وبين النساء! ولما أفهمته أنه هو الذي سيمثل الرجال في هذه المعاهدة وأنها وحدها هي التي ستمثل جميع النساء!

لقد وضعت الأميرة النقاط فوق الحروف. وضعت خطاً تحت الكلمات.. عبرت بصوتها وعينيها ويديها عما تقصد مفترضة أن عادل علاء الدين حمار لا يفهم بالإشارة من بعيد!

فما الذي حدث حتى امتنعت عن الاتصال به. وتركته معلقاً في الهواء؟!

وذهب عادل إلى الحفلة بعد أن تأنق أكثر مما تأنق في أي يوم من أيام حياته. وحرص على أن يصحب معه ولاعتين للسجائر.. لا ولاعة واحدة.. حتى لا ينفد بنزين الولاة كما حدث في سهرة الأميرة شويكارا!

وذهب إلى الحفلة في بدايتها. ووقف يرقب وصول الأميرة، ورفض أن يرتبط بأي رقصة مع صديقاته الموجودات في الحفلة! خشية أن تغضب الأميرة إذا رآته يرقص مع امرأة أخرى.

وأقبلت الأميرة في أناقتها وفتنتها وجمالها. وكان زوجها يمشي خلفها. ووقف عادل يتأمل جمالها الصارخ، وفتنتها الطاغية، وجاذبيتها المثيرة.

ورأى رجالا وسيدات يتقدمون لتحيتها. وهى تسيل رقة وعذوبة. توزع
بسماتها على الناس.. وتوزع مع البسمات جمالا يسحر. ودلالا يهز الجماد.
وضحكة حلوة ترن في أذان التعساء كأنها أغنية عذبة !

وما كادت تقع عين الأميرة على عادل حتى غاصت البسمة من شففتها
واختفت داخل فمها وحولت رأسها بعنف، وأسرعت في خطواتها مبتعدة عنه !
ومضت في طريقها دون أن تحيى أحدا، أو تبسم لأحد !

وتسمر مكانه ! بهت. أحس أن الأميرة صفعته على وجهه بنظراتها ! لقد
رأى نظرة احتقار في عينيها السوداوين الجميلتين. رأى هذا القوام الفارع
الرشيق وهو يتحول إلى سوط يلهب ظهره ! رأى لفظة هذا القوام الرشيق في
حركة معناها. أنا لا أعرفك ولا أريد أن أعرفك ! رأى جسمها الغض الناعم،
ونهدبها المستديرين كفاكهة الرمان، وساقبها المخروطتين من العاج.. رأى
كل ذلك ينتفض.. إن المرأة قادرة على أن تعبر عن الغضب بأجزاء مختلفة
من جسدها.. كما تعبر عن الغضب بقسمات وجهها !

وأحس عادل بحيرة شديدة، استبدت به الهواجس، حطمت المفاجأة
كيانه. ما هذه المرأة الغريبة ؟ إنه يفاجأ بها تحييه ويفاجأ بها وهى تطرده.
العينان اللتان تقولان له نعم. هما اللتان تقولان له « لا » بعد دقائق ! تدعوه
ليلحق بها. فإذا لحق بها تركته إلى رجل آخر ! تواعده على اللقاء ثم تتركه
بغير مرعد ! تأكله بعينيها.. ثم تبصقه بشفتيها !

هل هى تقصد بهذه المعاملة الغريبة أن تذله. أن تجعله يركع أمامها.
هل سمعت أنه زئرنساء. فأرادت أن تثبت له أنها من نوع آخر من النساء،
وأنها هى التى تلعب بالرجل، وليس الرجل هو الذى يلعب بها !

لقد عرف في حياته أنواعا مختلفة من النساء ! نساء كالنسيم ونساء

كالعواصف ! نساء كالحرير ونساء كالحديد ! نساء كالألهة ونساء كالعبيد !
فاجرات يخلعن ملابسهن فيتحولن إلى قديسات !.. ونساء يغطين كل
أجسادهن ويخفين كل محاسنهن ويخبئن كل أنوثتهن ومع ذلك يطل الفجر
من وراء كل هذه الأغطية والحجب ويصرخ ويصيح ! ولكنه لم يعرف امرأة
هى نسيم وعاصفة معا ! قادرة على أن تنحول أمام نفس الرجل من قرن
كهربائى إلى فريجيدير خلال بضع ساعات ! تصالحه وتخاصمه فى وقت
واحد . تدعوه وتطرده .. تقبله وتلعنه . لا يكاد يستقر فوق رأسها حتى يجرد
نفسه تحت قدميها !

وبدت له الأميرة لغزا . وتضاعفت رغبته فى أن يحل هذا اللغز الغريب ..
وتبعها ووجدها تدخل مع زوجها إلى المقهى البلدى . وهو سراقق أقيم فى
إحدى صالات فندق سميراميس على شكل مقهى بلدى . جلس فيه المطرب
محمد العربى وقد ارتدى ملابس أولاد البلد يغنى على المزمار مواويل
شعبية .. والمتفرجون يجلسون على شلت ويتناولون القهوة بنفس الطريقة
التي يتناولونها بها فى مقهى الفيشاوى !

ودخل عادل إلى المقهى البلدى .. واتخذ لنفسه مكانا بعيدا عن الأميرة
والتفتت الأميرة خلفها ورأت عادل ، وأدارت رأسها بسرعة ، وهمست فى أذن
زوجها ، فوقف ثم تبعته الأميرة وخرجت من المقهى البلدى مع أنه لم يمض
سوى ثلاث دقائق على دخولها ! ولم تنتظر الأميرة حتى ينتهى محمد العربى
من غناء مواله !

ولم يتحرك عادل من مكانه ومكث يسمع محمد العربى وهو يردد .

جوزة الهند . ومركب عليها غاب

يا مدندشة بالذهب ، يا مجمعة الأحباب !

ومع أن الأميرة لم تشأ أن يتجمع الاحباب، إلا أن عادل قرر أن يرد على
تجاهل الأميرة له بتجاهلها!

ولم يستمر صمود عادل طويلا، وبعد بضع دقائق. وجد نفسه يترك
المطرب محمد العربي قبل أن ينهى مواله، ويخرج لبحث عن الأميرة في
أرجاء السهرة!

ووجدوها جالسة مع زوجها وبعض أصدقائها وصديقاتها حول مائدة على
حلبة الرقص..

واتخذ عادل لنفسه مكانا في مواجهة مقعد الأميرة.. وأخرج ولاعته من
جيبه وأشعلها..

وإذا بالأميرة تقف. وخفق قلب عادل فرحا. لابد أنها ذاهبة إلى التواليت
لتتحدث معه..

ولكنها اتجهت إلى مقعد آخر ظهره إلى حلبة الرقص وجلست فيه، بحيث
لا ترى عادل وهو واقف في مكانه!

ودار عادل حول حلبة الرقص، واختار مكانا في مواجهة الأميرة في مقعدها
الجديد... ووقف ينظر إليها.. وهو يشعل ولاعته في الهواء!

وتجاهلته الأميرة، ومضت تتحدث إلى جارها دون أن تنظر إلى ناحيته..
وأصر عادل على أن يضايق الأميرة كما ضايقته، واستدار مرة أخرى،
ووقف في مكان آخر، بحيث يجب أن تراه الأميرة إذا أرادت أن تتحدث إلى
الجالس بجوارها.

وتركت الأميرة حديث الذى يجلس عن يمينها، والتفتت إلى الجالس عن يسارها. حتى تتفادى رؤية عادل.

وكرر عادل عملية الدوران حولها .. متجاهلا نظرات السخط والاحتقار التى امتلأت بها عيناها!.. وحارت الأميرة ماذا تفعل؟ كلما اتجهت إلى ناحية وجدت عادل أمامها. وظهر عليها الضيق وسعد عادل بضيقها. فلقد أراد أن ينكد عليها حياتها فى هذه السهرة كما نكدت عليه الحياة!

كلما أقبل عليها أدبرت عنه. كلما اقترب منها ابتعدت عنه.. كلما اتجه إليها نفرت منه! ولم يشعر عادل بخجل من هذا الصدم المتوالى، ولم يعد يبتئس من نظرات الأميرة الغاضبة. على العكس كلما رآها غاضبة وحانقة زاد حجم الابتسامة فوق شفثيه!

وانحنى زوج الأميرة عليها يطلب أن يرقص معها. فقالت إنها متعبة. واعتذرت عن أن ترقص مع أى رجل طلب منها أن يراقصها فى تلك الليلة.. كأنها كانت تتفادى أن ترقص فى الحلبة حتى لا تلتقى عيناها بعيني عادل علاء الدين!

وفجأة انتصبت الأميرة واقفة. وتركت صالة الرقص. واتجهت إلى ناحية دورة المياه.. وأسرع عادل يقتفى أثرها..

ورأت دورة مياه السيدات فى الفندق مليئة بالسيدات فلم تدخلها، وإنما مضت فى طريقها إلى مصعد الفندق ودخلت المصعد وقالت لحارسه: - أوصد إلى الطابق الثانى!

ودهش عادل لدخولها المصعد وفكر فى أن يتقدم لدخول المصعد، ولكن حارس المصعد أغلق الباب قبل أن يصعد إليه.

وقرر عادل أن يصعد على درجات السلم خلف الأميرة ليعرف إلى أين هي ذاهبة.. ووصل وهو يلهث إلى الطابق الثانى.. ووجد الأميرة تمشى فى دهليز طويل – بين غرف الفندق – مفروش بالأبسطة الحمراء..

ثم رآها تتوقف أمام باب مكتوب عليه.. دورة المياه. وتستدير إليه. وقد تحولت إلى تمثال من الشمع. وانبعثت من عينيها الجميلتين شرارات الغضب، وانتفض جسمها كأنما انتابتها حمى مفاجئة!

وقالت لعادل فى صوت حانق:

– اسمع! إما أن تخرج من هذه الحفلة.. أو سأخرج أنا!

ووقف عادل يحدق فى الأميرة ثم علت شفتيه ابتسامة استخفاف وقال:

– أنا لن أخرج من الحفلة.. اخرجى أنت!

وانتفضت الأميرة غاضبة من لهجة عادل! من استهانته بها. من أنه يخاطبها بلهجة «أنت» لا «سموك»، ولا «صاحبة السمو الملكى»!

وكان هذه الطريقة صدمتها وانزلتها من عرش الامارة إلى الأرض التى تقف فوقها كل امرأة!

وتمتمت الأميرة قائلة فى صوت حزين:

– ألم يكفك ما فعلته بى؟

قال عادل:

– ماذا فعلت بك؟

قالت الأميرة :

— التقرير الذى كتبته ضدى للملك !

قال عادل مذعورا :

— أنا أكتب تقريراً ضدك إلى الملك ! أنا لا أعرف الملك. وليست
صناعتي كتابة التقارير!

قالت الأميرة :

— ألم تقل لك (الآنسة قسمت شاهين ماذا حدث؟!

قال عادل فى دهشة :

— إنها لم تقل لى كلمة واحدة.. وأنا أتصل بها كل يوم ولم تذكر اسمك
مرة واحدة!

قالت الأميرة وهى تتركه عائدة إلى المصعد :

— لقد قلت لقسمت رأى فيك.. فاسألها عن رأى.. وهى ستقول لك هذا
الرأى.

ومضت وفى عينيها نظرة شزراء حانقة..

وأمسكها عادل من ذراعها وقال لها :

— قفى هنا!.. كونى شجاعة وقولى لى رأيك فى مواجهتى!

وتخلصت الأميرة من يده وقالت له دون أن تنظر فى عينيه :

— لقد قلت إنك أسفل رجل قابلته فى حياتى!

ورفع عادل يده وهوى بكفه على وجه الأميرة. ثم مشى عائداً إلى الطابق الأول دون أن يلتفت وراءه..

وترنحت الأميرة من الصفعة المباغثة.. أرادت أن تصرخ ولكن الصرخة عجزت عن أن تنطلق من فمها. كأن الدهشة والمفاجأة كانتا يدين أطبقتا على فمها. واندفعت داخل دورة المياه، وأغلقت عليها الباب وراحت تبكى وتنتحب!

* * *

إنها المرة الأولى التي يصفعها فيها رجل على وجهها! إن والدها لم يصفعها مرة واحدة على وجهها. إنها كثيراً ما تشاجرت مع ابن عمها الملك فاروق ولم يجرؤ مرة واحدة على أن يصفعها! إن زوجها يسجد أمامها. كيف يجرؤ هذا الرجل على أن يصفعها. ويصفعها في مكان عام. ماذا كان يحدث لو أن أحد الخدم أو السفرجية أو خدم الفندق مر في تلك اللحظة ورأى رجلاً يصفع ابنة عم الملك على وجهها. سيتصورون أن هذا الرجل هو عشيقها! لن يصدقوا أنها لم تتحدث معه سوى مرة واحدة، لم تجلس معه سوى مرة واحدة. لم تعطه شيئاً سوى يدها ليقبلها!

إنها لا يمكن أن تسكت على هذه الإهانة. سوف تذهب فوراً إلى حرم حسين سرى باشا رئيسة جمعية الهلال الأحمر وتخبرها بما حدث. يجب أن يطرد هذا الرجل المجرم من الحفلة فوراً. بل يجب أن يقبض عليه ويوضع في السجن. ستكون فضيحة.. ستشاع أكاذيب عديدة على علاقتها بهذا الشاب. كل هذا لن يهملها كل ما يهملها الآن أن تؤدب هذا الكلب الوقح. إنها تكرهه وتمقته. إنها تزدريه وتحتقره. إنها لن تهدأ حتى ترى العقاب الصارم ينزل به..

وتصورت الأميرة أمامها عادل علاء الدين وجنود البوليس ينهالون عليه بالضرب والصفع والركل. ويجرونه خلفهم خارج الفندق..

ورأت في هذه الصورة منديلا يجفف دموعها.

وشعرت بأن خدها يؤلمها من أثر الصفعة. واتجهت إلى المرآة التي في الحمام وتطلعت فيها. فوجدت إحمرارا فوق خدها من أثر أصابعه القسوية.. وأسرعت تفتح حقيبتها، وتخرج علبة البودرة، وعلبة الأحمر، وبدأت تغطي الصفعة، ولكن خيل لها أن الاحمرار الذي تركته الصفعة على خدها يتحدى كل مساحيقها، ويصر أن يظل من خلالها..

وأخرجت الريميل من حقيبتها. وأخفت دموعها في خطوط جديدة وضعتها فوق رموشها..

وعادت تضع يدها على مكان الصفعة وكأنها تحاول أن تخفيه من عينيها !

ثم خرجت من دورة المياه. وقد اطمأنت على أن زينتها عادت كما كانت قبل هذه الصفعة. وقبل أن تمشي في الدهليز الطويل شعرت بالرعب. خشيت أن يكون عادل علاء الدين لا يزال واقفا في أحد الأركان ليصفعها مرة أخرى.. وترددت ثم مشت في الدهليز إلى أن وصلت إلى مكان المصعد.. وضغطت على زر الجرس. وأقبل المصعد. ودخلت فيه. ولاحظت أن عامل المصعد لم يحدق في وجهها، ولم ير أثر الصفعة فتتنفست الصعداء.

وقررت أن تخفى عن حرم حسين سرى باشا أن عادل صفعها. لا يليق بمركزها السامي وبمكانتها كأميرة أن تعترف بأن أحد رعاياها صفعها على وجهها. ستكتفى بأن تقول إن هذا الشاب حاول أن يمسك يدها ! هذه جريمة

عيب في الذات الملكية. اعتداء على أميرة من البيت المالِك. عقوبتها السجن ثلاث سنوات ! لن تعطى هذا الشاب الوقح شرف أنه صفع أميرة !.. وأى أميرة ! ابنة عم الملك.. أجمل أميرة في مصر..

سوف يعرف الملك بالقصة. سوف يغضب على هذا الشاب الذى حاول أن يعتدى على ابنة عم الملك في مكان عام.. سيناله الغضب السامى ! لن ينعم عليه بأى رتبة أو نيشان ' سيوضع في القائمة السوداء. سيحرم من أن يعين وزيرا أو عضوا في مجلس الشيوخ ! أو في أى وظيفة في الدولة بمرسوم '

وبهذا تنتقم منه انتقاما هائلا عقابا على الصفة.. وعقابا على التقرير الذى قدمه ضدها إلى الملك.. هذا التقرير الذى ضايقها أكثر من أى تقرير قدم ضدها إلى الملك. ما أكثر التقارير التى قدمت ضدها. وضد تصرفاتها ولكن الذى ألمها أن هذا التقرير من رجل أعجبت به. وتمنته. ولهذا أحست بألم الطعنة من يده، أضعاف ما أحسته من طعنات أشخاص لم تعرفهم ولم تعجب بهم !

ومشت تبحث عن حرم حسين سرى باشا في كل مكان لتخبرها بالحادث الذى وقع لها.. ووجدتها واقفة أمام البار..

وأسرعت إليها وقالت لها :

— إننى أبحث عنك يا ناهد في كل مكان.. لأقول لك..

ورأت عادل أمامها يحدق فيها وعلى شفثيه ابتسامة.. وتوقفت الأميرة عن الكلام. وأدارت وجهها بسرعة..

وسألتها ناهد هانم سرى باهتمام :

— ماذا كنت تريد أن تقولى لى يا سمو الأميرة؟

قالت الأميرة

- كنت أريد أن أقول لك . أقول لك.. إن هذه أجمل حفلة حضرتها هذا العام !

وأحنت ناهد هانم رأسها وقالت :

- هذا شرف عظيم يا سمو الأميرة، ماذا أعجبك في الحفلة؟

قالت الأميرة :

- إن ما ذقته في هذه الحفلة لم أذقه في حفلة أخرى ! سيبقى طعمه في فمي دائماً !

قالت ناهد هانم :

- قولى لى يا سمو الأميرة على الصنف الذى أعجبك من الطعام لنقدمه في كل حفلة !

قالت الأميرة وهى تضحك :

- لن أقوله لك... حتى يبقى لى وحدى !

ورفعت رأسها ناحية عادل علاء الدين.. فوجدته لا يزال واقفاً يبتسم ويشعل ولاعته في الهواء..

وأحست بغیظ شديد . لا يبدو عليه أى علامة من علامات الندم على الجريمة النكراء التى ارتكبها . لا يظهر عليه أنه خجل من أنه في لحظة جنون رفع يده وصفع امرأة . لا يزال يبتسم . لا يظهر عليه الخوف والاضطراب خشية أن تشكود ويطرده من الحفلة شرطردة . هذا المغرور يتصور أنه سيفلت من العقاب إنه يحمل الولاة بنفس الأصابع التى صفعتها على

خدها. كأنه يتباهى بها. كأنه يعرض عليها الكف التى لطمتها ! ليبتها صارحت ناهد هانم سرى رئيسة جمعية الهلال الأحمر بجريمته الشنيعة.. ما الذى جعلها ترحمه فى آخر لحظة، وتثنى على الطعام الذى ذاقته بدلا من أن تشكو من « القلم » الذى أكلته !.. هذا القلم الذى لا تزال تحس به فوق خدها. وكأن خدها يحترق من الألم !

إنها لم تخف على ناهد هانم نبأ الاعتداء عليها رحمة بالجانى. بل إنها فكرت فى الفضيحة التى يمكن أن تحدث، ما سوف تكتبه الصحف الطويلة اللسان ! إنها لن تجرؤ على ذكر اسمها صراحة، ولكنها بوسائلها الخبيثة ستنشر النبأ بغير أسماء وتكتفى بأن تكتب خبرا بريئا بأن الأميرة كانت فى حفلة جمعية الهلال الأحمر. وتكتب تحته خبرا يقول إن شابا صفع سيدة رفيعة المقام، مشهورة بالجمال، فى حفلة الهلال الأحمر. وهكذا يعرف كل قارئ من قراء الجريدة أن شابا صفع الأميرة، بغير أن تتعرض الجريدة للمسئولية القانونية ! ويكفى أن تضع الجريدة علامتى تعجب واستفهام فى نهاية خبر الصفعة ليؤلف خيال القارئ قصة محبوبة عن الغرام بين الأميرة والشاب المجهول.

لقد قصدت من إخفاء نبأ الصفعة أن تحرم عادل علاء الدين من بطولة أنه صفع أجمل أميرة فى مصر على وجهها. إنها تعرف عقلية نساء المجتمع. لن يعرفن نبأ هذه الصفعة حتى يتكاثرن. على عادل، ويتزاحمن عليه، وتتمنى كل واحدة منهن أن تخرج مع عادل علاء الدين، ويصفعها على وجهها كما صفع صاحبة السمو الملكى الأميرة الفاتنة !.. لا بد أنه ارتكب هذه الجريمة طلبا للشهرة، فسوف تحرمه من الشهرة التى كان يسعى إليها !.. لن تقول شيئا !

واكتفت الأميرة بأن القت على عادل نظرة احتقار ومضت في طريقها!

* * *

واتجهت الأميرة إلى حلبة الرقص.. وجلست إلى المائدة مع زوجها وأصدقائها..

ثم وقفت مرة أخرى مع زوجها، واتجهت إلى حلبة الرقص.. ووقف عادل يتابعهما..

ولاحظ عادل أن زوج الأميرة يتطلع إلى خدها الأحمر ويسألها ما به! وتتحسس الأميرة خدها بيدها.. وتقول شيئاً.

ويبدو على زوجها الحزن والأسى.. وكأنه سمع خبراً فاجعاً..

وعرف عادل على الفور أن الأميرة أخبرت زوجها بأنه صفعها على وجهها!

وحار عادل ماذا يفعل. هل ينسحب من الحفلة ليتفادى الاصطدام مع زوج الأميرة؟ أم يبقى في مكانه؟.. وليكن ما يكون.

وشعر برغبة في أن يتحدى الأميرة ويتحدى زوجها في الوقت نفسه.. وقرر البقاء.. إنه ليس جباناً ليفر من معركة. إن من عيوبه أنه لا يؤمن بأن الجبن سيد الأخلاق! إنه يحب الصراع.. ويفضل الصراع مع الكبار!

ولكن ماذا سيقول لزوج الأميرة إذا سأله لماذا صفعها على وجهها؟!

إنه يعرف جيداً أنه لم يصفعها على وجهها لأنها قالت له إنه أسفل رجل قابله في حياتها. ولا لأنها قالت له إنه قدم تقريراً ضدها إلى الملك.. ولكن

لأنها لم تتصل به في التليفون. لأنه اعتقد أن الشاب الأشقر المجهول الذي أشعل سيجارتها في حفلة الأميرة شويكار أخذها منه. لأنها تركته هذه الأيام الطويلة ينتظر بغير جدوى وعندما التقت به تجاهلته!

ورأى الأميرة وهي ترقص مع زوجها تشير إليه بأصبعها..

وفهم على الفور أنها تقول لزوجها إن هذا الشاب هو الذي صفعها على وجهها!

وتوقفت الأميرة عن الرقص قبل أن تنتهي الأغنية الراقصة. واتجهت إلى مائدتها دون أن تنظر إلى ناحية عادل.. ومشى زوجها خلفها إلى أن أزاح لها المقعد وجلست فيه، ثم اتجه إلى ناحية عادل..

وعرف عادل أن زوج الأميرة قد جاء إليه ليصفعه على وجهه ردا على الصفعة التي لطم بها الأميرة..

ويطبيعة الحال قد يدعوهُ إلى المبارزة.. ويطلب إليه اختيار السلاح الذي يريده..

وأسرع عادل يضع الولاة في جيبه.. وألقى السيجارة التي في فمه.. واستعد في وقفته، كأنه ملاكم مستعد للدخول في حلبة الملاكمة..

وشعر بشعور غريب، شعور الاستهانة بزوج الأميرة، وبالأميرة، وبالأسرة المالكة كلها!

إنه لا يخافهم جميعا. لقد صفع الأميرة بساعتبارها امرأة لا أميرة! صفعها لأنه يحبها.. ولكنه سيصفع زوج الأميرة كأنه يصفع الأسرة المالكة كلها! الأسرة التي يكرها ويحتقرها!

لن يهمة ما يحدث له. لن يهمة إذا وضعوه في السجن. إنه سوف يرد
اعتداء زوج الأميرة مهما حدث!

وكما اقترب زوج الأميرة من المكان الذي يقف فيه، غلى الدم في
عروقه، خيل له أن الذي يتقدم نحوه ليس زوج الأميرة وحده. بل الملك
معه والأمراء معه والنبلاء معه والحاشية الملكية كلها معه. والحرس
الملكي. الدولة بكل سلطانها.

ولم يشعر بأنه يهرب هؤلاء جميعاً.. سوف يصفعهم جميعاً على
وجوههم! لن يسكت! سوف يرد أى إهانة توجه إليه في هذا المكان
العام...

ورأى ابتسامة عريضة تملأ وجه زوج الأميرة. ولم يفهم معنى هذه
الابتسامة! هل هي ابتسامة رجل واثق من قوته؟ ويعتقد أنه سيلقيه
على الأرض من الصفحة الأولى؟

أم هي ابتسامة رجل غادر، يخفى خلف الابتسامة ضربة قاضية؟
وكم كانت دهشته عندما وجد زوج الأميرة يمد يده إليه، ويصافحه في
حرارة، ويقول له في لهجة ودية:

— أهلاً دكتور عادل بك، إن سمو الأميرة تدعوك لتشاركنا في مأثدتنا!

الفصل الرابع

صافحته الأميرة ببرود. ودعاه زوجها ليجلس بجوارها.
وما كاد يتخذ مجلسه بجوار الأميرة، حتى أشار زوجها إلى الاحمرار
فوق خدها وقال:

— هل ترى هذا الاحمرار يا دكتور؟

وبدت الأميرة كالتمثال. لم تقل كلمة. لم يعبر وجهها عن شيء!
واصفر وجه عادل، حتى غدا كالشمع. رأى العلامة الحمراء التي تركها
كفه الخليظ على خد الأميرة الناعم. ولم يخطر بباله أبدا أن الصفحة كانت
بهذا العنف، وبهذه القسوة. لم يتصور أنه من الممكن أن تترك هذا الأثر
الواضح على بشرتها الناصعة، صحيح أنه صفعها وهو مغيظ حانق، ولم يجد
كلمة يقولها لها إلا هذه الصفحة. ولكنها بدت أعنف وأقسى من كل كلمات
السباب والاهانة التي أراد أن يوجهها إليها.

وقربت الأميرة خدها من عيني عادل ليرى أكثر مما رأى، وأغمض عادل
عينيهِ وكأن الصفحة ألمته هو، وهوت على خده هو، وأحس بخجل لم يشعر
به في حياته. وتمنى لو قالت الأميرة شيئا، لو قامت وشفعت، لو قام زوجها
وهوى عليه ضربا وركلا فإنه عدل عن أن يقاوم الزوج. أحس فعلا بأنه
يستحق كل ما يمكن أن ينزل به من عقاب!

وقالت الأميرة في هدوء مريب :

— هل تستطيع يا دكتور أن تزيل هذا الأثر؟!

وتطلع عادل إلى عينيها ليعرف ماذا تعنى بهذا السؤال؟ ماذا تعنى باستدعائه إلى مائدتها! ماذا تعنى بجعله يرى الاحمرار الذى تركته الصفحة على خدها الجميل، ماذا يعرف زوجها عن هذا الاحمرار؟ ولكن عينيها لم تقولا شيئا!

وسارع زوجها يقول :

— إن خد الأميرة لا يزال يؤلمها! قالت الأميرة في صوت حزين، وكلماتها تسقط كالدموع :

— ليس خدى وحده الذى يؤلمنى، أشياء كثيرة تؤلمنى!

وانكمش عادل في مقعده. تضاعل، أحس بأن الأميرة لا ترد الصفحة بمثلها وإنما تنهال عليه بالسياط، سياط غير منظورة، ولكنه يسمع صوتها، ويشعر بالامها!

وقال زوج الأميرة :

— تستطيع ان تفعل الآن شيئا يا دكتور لتخفف من عذاب الأميرة“

وبدت الحيرة على وجه عادل، وتطلع إلى الأميرة يستنجد بها، ولكنها تركته في حيرته ولم تنطق بكلمة.

ومضى زوج الأميرة يقول :

— لقد اصطدمت الأميرة بباب المصعد، وأصيب خدها. وقد قالت لى إنك تستطيع أن تصف علاجاً سريعاً لايقاف الألم يا دكتور!

وتنفس عادل الصعداء، وألقت عيناه نظرة شكر للأميرة لأنها تسترت على جريمته، ثم قال :

— ولكننى لست دكتوراً فى الطب ! إننى دكتور فى الهندسة الكهربائية.

وبدا الارتباك على وجه زوج الأميرة وأسرت الأميرة تقول :

— المصاعد تتبع الهندسة الكهربائية .. لابد أنك تعرف ما هو علاج من يصطدم رأسه بباب المصعد ؟

قال عادل :

— فعلاً ! إن هذا من اختصاصى .. إن عندى دواء سريعاً، أن أدعوك للرقص !

قال زوج الأميرة فى دهشة :

— ما علاقة الرقص .. باحمرار الخد !

قال عادل وهو يتصنع الجد :

— ما حدث للأميرة هو صدمة. وعلاج الصدمة هو الحركة. وبذلك يجرى الدم فى كل أجزاء الجسم ويزول الاحمرار. إن هذه هى نظرة العلامة سيمنس مخترع المصاعد الكهربائية المعروفة باسمه !

قالت الأميرة وهى تقف :

— إذن سارقص معك يا دكتور، وأنت مسئول عن إزالة هذا الألم من خدى !

وانحنى عادل وهو يقول لها :

– إن هذا اختصاصي يا صاحبة السمو!

* * *

ومشى خلفها إلى حلبة الرقص، وأحاط خصرها بذراعه، ومضيا يرقصان على أنغام التانجو الهادئة.

ويحث عن كلمة يبدأ بها الحديث فضاعت الكلمات من شفثيه. وفسوجى بها تقول له : أنا أسفة ! وذعر من كلمة « أسفة ».

انتفض وكأنها هوت عليه بسوط، وقال لها متوسلا :

– كفاك تعذيبا لى !

قالت وهى تبتسم :

– هل يعذبك أن أعتذر لك ؟

قال : طبعا أتعذب، لأننى أنا المجرم وأنت المجنى عليك ! إنها أول مرة يقول القتل للقاتل : أنا أسف !

قالت : ولكننى أطلقت عليك الرصاصة الأولى. أنا التى بدأت بالعدوان، وعلى أن اتحمل نتيجة ما فعلت.. وعلى كل فإننى أشكرك لأنك صفعتنى ! لولا هذه الصفعة لما صدقت أنك برىء ! لو كنت مكثت عاما كاملا تحاول أن تقنعنى ليل نهار بأنك لم تكتب التقرير عنى إلى الملك لما صدقتك ! ولكن عندما صفعتنى تأكدت أنك برىء ! الذين يكتبون التقارير هم أشخاص جبلاء. صناعتهم ان يطعنوا الناس في ظهورهم بالخناجر .. وهؤلاء لا يصفعون الذين يتهمونهم على وجوههم في النور، لا يعرفون إلا الضرب دائما في الظلام !

قال : لست أفهم حكاية هذا التقرير المزعوم الذى تتحدثين عنه !
قالت : إنها قصة طويلة ! لا داعى لأن تعرفها مادامت قد ثبتت براءتك !
قال : إن من حق المتهم الذى ظهرت براءته أن يعرف التهمة التى
سندت إليه !

قالت : إنها مسألة لا تهمك !

قال : إن كل شىء عنك يهمنى !

قالت : باسمه منذ أن صفعتنى على وجهى !

قال : لا.. قبل أن اصفعك ! لولا إننى مهتم بك لما صفعتك ! إننا نضرب
أولادنا ونحن نعبدهم !

قالت : هل اعتبرتني ابنتك ؟

قال : اعتبرتك كل شىء فى امرأة واحدة !

قالت : إنك أول رجل صفعنى على وجهى !

قال : وسأكون آخر رجل !

قالت : هذه مسئوليتك وليس مسئوليتى ' ربما تعودنى على الصفعات
فأدمن عليها '

قال : لماذا تهربين من حكاية التقرير ؟

قالت : أخشى أن تصفعنى مرة ثانية !

قال : أعدك ألا أصفعك !

قالت : هل تعلم أن الصفعة لا تزال تؤلمنى على الرغم من تناولى دواءك.. لقد مضى علينا ونحن نرقص عدة دقائق ولا يزال خدى يؤلمنى !

قال : عندى دواء سريع يشفيك على الفور، ولكنى لا أستطيع أن أعطيك إياه هنا.. يجب أن أنقلك إلى مستشفى !

قالت هامسة : أين مستشفىك ؟

قال : عمارة الايموبيليا الدور العاشر شقة ١١٠

قالت : وما مدة العلاج ؟

قال : العمر كله !

قالت وهى تضع يدها على خدها :

— كأنك تعتقد أن الاصابة مزمنة !

قال : العلاج... هو المزمّن !

قالت : وكم تطلب أجرا للعلاج ؟

قال : شىء بسيط جدا.. قلبك !

قالت : يا لك من طبيب جشع ! هل تعامل كل مرضاك بهذه الطريقة ؟

قال : إنك أول امرأة صفعتها فى حياتى !

قالت : وسأكون أول امرأة تذبحها ! لو أعطيتك قلبى فماذا يبقى لى ؟

قال : تبقى الأميرة.. وهذا مالا أريده ! العيب الوحيد فىك أنك صاحبة

السمو الملكى، ولولا هذا العيب لكنت أجمل امرأة فى العالم !

قالت : ولكنك بعد أن صفعتنى على وجهى سقط التاج من فوق رأسى !

قال : ولهذا فأنت الآن أجمل امرأة في العالم.

قالت : قبل العلاج أم بعد العلاج ؟

قال : أثناء العلاج ؟

قالت : أخشى أن يكون مستشفاك مستشفى عاما !

قال : سأحوله من أجلك إلى مستشفى خاص.

* * *

دخلت الأميرة عمارة الايموبيليا.

وضعت على عينيها نظارة سوداء كبيرة أخفت ملامحها.

أحاطت رأسها بإيشارب خبأت فيه شعرها الأسود.

كانت أقرب إلى عاملة في محل تجارى منها إلى صاحبة السمو الملكي،
كانت تضع في قدميها صندلا أحمر جعلها أقصر قامة مما هي في الحقيقة،
المعطف الجلدى الذى كانت ترتديه أخفى عنقها الرشيق، ونهديها البارزين،
وجسمها الذى يشبه جسم فينوس إلهة الجمال !

لا يستطيع من يعرف الأميرة معرفة وثيقة ! أن يتصور أن في داخل هذا
المعطف المتواضع توجد أجمل امرأة في مصر. ولا يستطيع الخبراء بأسرار
الجمال أن يكشفوا أن في داخل هذا الايشارب الرمادى تختفى الأميرة
الفاتنة !

وفتح عادل باب شقته .. ودخل إلى الشقة عبق عطر أخاذ، قبل أن تدخل
الأميرة ..

وقال لها عادل :

– ما فائدة كل هذا التنكر.. إن هذا العطر يفضحك ! إن عبقه يعلن أن
الأميرة قادمة ورائي !

قالت وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل :

– إنني وضعت العطر.. وأنا داخل المصعد !

وتقدمها إلى غرفة الصالون، وفتح لها بابها، وتطلعت إلى جدران
الصالون الرمادية، وإلى السجادة الرمادية، وإلى المقاعد الرمادية،
وجلست على أحد المقاعد وقالت :

– يبدو أنك تحب لون التراب !

قال عادل :

– من التراب جننا.. وإلى التراب نعود !

قالت :

– يبدو أنك رجل واقعي.. تريد دائما أن تشعر أنك واقف على الأرض !
أما أنا فأحب اللون الأزرق، لون السماء، لأنني دائما أشعر برغبة في أن
أحلق، أن أطير في الفضاء !

قال عادل :

– اجتماع السماء والأرض هو الذي يصنع الحياة !

ضحكت وقالت :

– ولكن عندما تنطبق السماء على الأرض.. فهذا يوم القيامة !

قال عادل :

– إننى أشعر أن هذا يوم البعث بالنسبة لى ! اليوم الذى صعدت فيه
إلى السماء !

قالت باسمه :

– هل معك مظلة هبوط؟ الذين يسقطون من السماء بغير باراشوت تدك
رءوسهم !

قال :

– إن معى جناحين !

وغمزت بعينها وقالت :

– إننى أخطأت فى عنوان الشقة، ودخلت شقة ملاك !

قال :

– لا تنسى أن إبليس كان أحد الملائكة !

قالت :

– هل تقصد أن تخيفنى منك؟

قال : بصراحة... أنا الذى أشعر بالخوف !

قالت : هذه أول مرة يخاف فيها الطبيب من المريض !

قال وهو يضىء نور الأباجرة :

– كيف حال خدك الآن !

قالت وهى تخلع الايشارب :

– لا يزال يؤلمنى ! وأظن أن هذا يسعدك جدا .. فكلما ألمنى فكرت فيك !

وحملق عادل فى بشرة وجهها، فلاحظ أنها طلت خدها ببودرة حمراء
ليزيده احمرارا !

– إنك تغشين .. إن هذا الأحمر ليس من أصابعى .. وإنما هو من
أصابعك !

وزاد احمرار وجهها، فقد شعرت أنه كشف لعبتها وقالت :

– الاحمرار من صنعى .. ولكن الألم من صنعك !

قال وهو يحيط كتفها بذراعه، ويسند خده إلى خدها :

– أظن أنه بعد أن تعانق خدى مع خدك .. راح الألم !

قالت :

– قليلا !

وقبلها فوق خدها وهو يقول :

– ما دام الدواء الأول لم ينفع .. فلنجرب الدواء الثانى !

وأبعدت خدها وهى تقول :

– لم أعد أشعر بالألم .. لقد شفيت تماما !

وتظاهرت بأنها تنهيا للوقوف وقالت :

– أظن انه يجب أن أذهب الآن بعد ان تم شفائى !

وأمسكها من يدها وقال :

— هذا ليس ترياقا.. إنه دواء فقط.. يجب أن تداومي عليه كل يوم !

قالت متظاهرة بالجزع .

— كل يوم هذا مستحيل !

قال :

— إننى أحب المستحيل !

قالت :

— لو علم الملك بقصتى معك لقطع رقبتك !

قال : لا يهمنى أن يقطع رقبتى ! كل ما يهمنى ان تكونى مستعدة أن
تحبى رجلا برأس مقطوع !

قالت وهى تتأمل رأسه :

— خسارة هذا الرأس ! إنه رأس جميل ! ولكنى سأحاول أن أتعود على
رؤيتك بلا رأس !

قال :

— إننا عندما نحب نفقد رءوسنا ! وألذ لحظات الحب هى اللحظات التى
يفقد فيها العشاق رءوسهم !

قالت :

— ولهذا جئت إليك بعد أن تركت رأسى فى قصرى ! لو كان رأسى فوق كتفى
لما جئت إلى شقتك !

قال :

— إنك رائعة بلا راس !

قالت وهي تتنهد :

— إن أسعد لحظات حياتي هي اللحظات التي أفقد فيها رأسي؟..
هذه ثالث مرة في حياتي أفقد فيها رأسي.. كانت المرة الأولى وعمري
١٦ سنة ! واختار الملك شابا من الياوران ليدربني على ركوب الخيل،
وكان اسمه الصاغ نجم الدين محمود وكانت يده هي أول يد شاب تمس
جسدي، وهو يسندني على رأس الحصان. وأحسست في تلك اللحظة
بأنها ليست يدا التي تلمسني، وإنما هو تيار من الكهرباء ! وأصبحت
أجد لذة بأن أظهار بالسقوط من فوق الحصان لأقع بين ذراعيه.
واحبيته، وأحبني. ومن أجله أحببت كل حصان في العالم ! أصبحت
مجنونة بالفروسية أريد أن أركب حصانا طول النهار والليل، لكي أراه،
لكي يساعدني على امتطاء الحصان، لكي أراه فوق حصانه، لكي نعدو
معا ونتسابق ونختفي عن العيون والأنظار.

ولم يكن نجم الدين طويل القامة، ولكنه فوق الحصان كان يبدو
عملاقا. كان أطول رجل رأيته في حياتي، كان يبدو جميلا وأصبح فارس
أحلامي. وأصبحت أتمنى أن يجيء اليوم الذي يخطفني فيه فوق
حصان أبيض.

وذات مرة كنا في حدائق قصر القبة، كان يركب حصانه الأحمر، وكنت
أركب حصاني الأبيض. وكنت أتحدث معه حديثا عاديا. وفجأة رأيت

حصانى يقرب رأسه من حصان نجم الدين، ويضع فمه على فم الحصان !

وضحكت أنا ونجم الدين فى لحظة واحدة، شعرت أن الحصانين فعلا ما نريد ان نفعله، ولا نجروا عليه.. وضحكت أكثر لأن حصانى هو الذى تقدم نحو حصان نجم الدين وقبله ! واعتقدت أن نجم الدين ينتظر أن أتقدم نحوه وأقبله، فإن التقاليد فى القصور الملكية أن الرجل لا يتقدم للأميرة ليطلب أن يرقص معها، بل هى التى تطلبه للرقص، وأن الرجل لا يتقدم يطلب يد الأميرة للزواج، بل هى التى تقول له إنها تريد أن تتزوجه !

ولقد كنت أتمنى فى كل يوم أن يأخذنى نجم الدين بين ذراعيه وينتزع قبلة من شفتى، ولكنه لم يفعل، لم يحاول، بل لم يفكر !

وقلت لنجم الدين وأنا أسير فوق حصانى إلى جوار حصانه.

— يظهر أن حصانى يعرف تقاليد القصور الملكية !

قال وكأنه يحدث نفسه :

— إن احساس الخيول غريب، لقد لاحظت فى الأسطبل أن حصانى يترك دائما مكانه ويذهب ويقف إلى جوار حصانك، كأنهما يتهاامسان !

قلت له :

— لابد أنك كفارس قديم تعرف لغة الخيول ! ماذا كان يقول حصانك لـ "حصانى" ؟

قال :

— يقول له إنه يحبه !

قلت :

— أتعرف ماذا أجاب حصانى؟

قال : لا.. تمنيت أن أعرف !

قلت : كان يقول لحصانك : وأنا أعبدك !

وانطلقت بحصانى أعدو..

وانطلق نجم الدين خلفى !

وفى هذه المرة سقطت فعلاً من فوق الحصان ! كانت أول مرة أسقط
عن ظهر الحصان دون أن أتعمد السقوط !

ولم يستطع نجم الدين ان يتلقانى بيديه، فسقطت على الأرض،
وجرحت ساقى..

وركع نجم الدين بجوارى، وكشفت عن ساقى المجروحة، وبدأ يدلّكها
بيده، وشعرت بقشعريرة غريبة.. اختفى الألم تحت ضغط يديه..
أحسست براحة لذيذة.. ولكننى تظاهرت بأن ساقى لا تزال تؤلمنى،
حتى يمضى فى تدليكها ثم قلت له وأنا أتأوه :

— قبلنى على ساقى !

ووضع شفتيه فوق ساقى وقبلها.. وخدرتنى هذه القبلة.. وتمنيت أن
ياخذنى بين ذراعيه ويقبلنى

ولكنه لم يفعل..

ووضعت يدي على فمي وقلت له :

— إننى سقطت على شفتى أيضا.. وتردد..

فصحت فيه :

— قبلنى.. قبلنى على شفتى.. إن فمي يؤلمنى !

وقبلنى فوق شفتى ! وكانت هذه أول قبلة ذقتها فى حياتى !

وفى اليوم التالى لم يحضر نجم الدين فى موعد درس الفروسية.. ولم يحضر فى اليوم الثانى، ولا فى اليوم الثالث..

وجننت ! رحت أبحث عنه فى كل مكان فى القصر فلم أجده. سألت عنه فلم أجد إلا شفاها مطبقة لا تجيب.

وكنت فى كل يوم أذهب إلى اسطبل القصر، وأجد حصانه واقفا فى مكانه وحيدا حزينا، شقيا. كأنه مثلى يفتقد صاحبه. وشعرت بحب غريب نحو هذا الحصان. وقلت للسايس إننى سأركب هذا الحصان بدلا من حصانى.. ولاحظت أن الحصان يمشى بى متثاقلا، فقد الرغبة فى العدو. وكنت أربت عليه، أناجيه، أقبله، أحيط عنقه بذراعى..

وعلمت من إحدى الوصيفات أن الملك علم بأن نجم الدين قبلنى فى حديقة القصر. فأمر بنقله فى نفس اليوم من منصب ياور الملك إلى وظيفة فى سلاح الفرسان !

ودهشت أن أحدا لم ير نجم الدين وهو يقبلنى. كنا فى مكان بعيد جدا عن الحراس والموظفين. كانت الأشجار العالية تخفينا عن العيون.

تصورت أن الأشجار هي التي افشت سرنا، أصبحت أشعر كأن كل شيء في القصر يتجسس على. وكنت كل يوم أذهب إلى الأسطبل، وأصحب الحصان وابته حزني وأروى له عذابي.. وكنت أجد سعادة في صحبة هذا الحصان، سعادة غريبة.. وبدأوا يقولون في القصر إن الأميرة جنت. وأنها أصبحت تحب حصانا!

وذات صباح ذهبت إلى الأسطبل فلم أجد الحصان! وقال السائس والدموع في عينيه:

— الحصان مات!

صرخت مذعورة:

— مات؟ كيف مات؟

قال السائس: وجدناه صباح اليوم ميتا! يظهر انه مات حزنا على نجم الدين بك!

وسقطت مغشيا على!

وحملوني إلى داخل القصر.

بقيت عدة أيام غائبة عن الوعي! كنت أحسد الحصان على رقة احساسه، إنه لم يحتمل فراق نجم الدين، إنه يحبه أكثر مما أحببته. والدليل على ذلك أنه لم يحتمل عذابه ومات، وأنا أحتمل عذابي ولا أزال على قيد الحياة!

وقررت أن أنتحر! غريب أمرى! لم أفكر في الانتحار عندما ذهب الرجل، وفكرت في الانتحار عندما ذهب حصان الرجل! كأنني كنت أرى في هذا الحصان بقية الرجل الذي أحببته. كأنني كنت أشعر أنني أقبل

نجم الدين عندما أقبل حصانه. فلما ذهب الحصان أحسست بأنه لم
يبق لى من نجم الدين أى شىء!

وشربت زجاجة صبغة يود. وأسعفونى بالعلاج. وكنت أصرخ وأقول:
— لا تنقذونى.. أريد ان أموت كما مات الحصان!

وبدأوا يعاملوننى فى القصر كأننى مجنونة! مجنونة لأننى أردت
الانتحار من أجل حصان! وفكرت أن أهرب من القصر وأتزوج
نجم الدين، وفشلت فى الاتصال به.

ثم عرفت أن نجم الدين محمود تزوج. وبكيت فى تلك الليلة كما لم
أبك فى حياتى. كرهت كل الرجال كرهت كل الخيل.. كرهت نفسى!

* * *

ومضت الأيام ولم أنس نجم الدين ولا الحصان..

وسافرت مع أمى وإخوتى إلى فلسطين، وأقمنا فى فندق الملك داود.
وكان معنا حراس، ورجال بونيس سرى، ورقباء يحصون خطواتنا. ولم
يكن الملك وحده الذى يراقبنا، كان البوليس الانجليزى لحكومة فلسطين
يمشى خلفنا كظلنا وأصبح الشبان يخافون من الاقتراب منا. وعشت فى
وحدة قاتلة.

وذات يوم فوجئت بشاب فلسطينى جميل الصورة، خفيف الدم، يتقدم
نحوى وأنا جالسة اتفرج على الرقص، وحولى الحراس والرقباء،
ويدعونى للرقص..

وأعجبت بشجاعته وجراته. ويأنه لم يأبه بكل هذا الحرس، وبكل هؤلاء الرقباء، وتحداهم جميعا.

إن المرأة تحب الرجل الفارس الذى يستهين بالأهوال والخطوب من أجلها.

وبغير تردد قمت أرقص معه، وسط دهشة الموجودين!
وكان راقصا رائعا، ومحدثا لبقا. وكان اسمه عمر.. وهو من أسرة فلسطينية كبيرة..

قلت له : ألا تخشى أن يقبضوا عليك لأنك تجرات ورقصت معي !
قال : إننى مستعد أن أذهب إلى المشنقة. لا إلى السجن !
قلت له : من أجل رقصة واحدة !

قال : نعم، من أجل رقصة واحدة ! ورقصت معه طوال الليل !
واتفقت معه على أن أهرب فى اليوم التالى، من سلم الخدم، وألقاه.
وأصبحت أخرج معه كل ليلة فى غفلة من عشرات الحراس الذين يحيطون بالفندق طوال الليل والنهار !

كنت أظهار بأننى متعبة، وأصعد إلى غرفتى، وأغلق الباب، ثم أبدل ملابسى، وأرتدى ملابس تشبه ملابس خادمت الفندق، وأخرج من باب الخدم، فلا يتصور الحراس أن هذه الخادمة هى صاحبة السمو الملكى الأميرة المصرية !

وأحببت عمر. وأحببنى عمر، ونسيت معه الفارس نجم الدين والحصان الشهيد !

كنت أكبر سناً، فأصبح للحب طعم يختلف عن طعمه وأنا فتاة صغيرة! فالحب مثل الخمر. كلما شربنا منه، عرفنا كيف نميز بين أنواعه.. الرجل الذى يملأ قلب الفتاة فى السادسة عشرة، غير الرجل الذى يملأ شفيتها فى العشرين. غير الرجل الذى يملأ جسدها فى الثلاثين! الرجل للمرأة مثل الثوب، كل سن له ثوب مختلف، المريـلة التى ترتديها الطفلة لا تصلح للمرأة، وأحسست بأن عمر هو ثوب على مقاسى، يناسب سنى، يناسب أفكارى، يناسب أحلامى.

وفوجئت ذات يوم بأمرى تعرف قصتى مع عمر. تعرف كل مكان نذهب إليه معاً! وذهلت لأننى استطعت أن أضلل رجال البوليس الأذكىاء. ولم أستطع أن أضلل أُمى..

ومضيت أبحث عن كيف عرفت أُمى سرى، فلم أهتم..

وأبلغت عمر ما جرى بينى وبين أُمى.. وإذا به يكتشف أن أُمى تتردد يومياً على قارئة بخت تقرأ لها نجمها!

كانت الملكة نازلى يومها تحب أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى، واعترض على تصرفاتها، وقاطعها، فسافرت إلى فلسطين لتحاول أن تنساه!

ولكنها لم تستطع ان تنساه. فكانت تذهب كل يوم إلى قارئة البخت تسالها عن أخباره، وهل سيعود إليها أو لا يعود!

ورأتنى قارئة البخت ذات يوم مع عمر، وعرفت بذكائها من نظراتنا إننا عاشقين.. فما كان منها إلا أن عينت رجلاً يراقب حركات عمر!

وهكذا كانت تبلغ الملكة أولا بآول بأسماء الامكنة التى نذهب إليها.
واستطاعت قارئة البخت أن تحصل من الملكة نازلى على مبالغ طائلة
بهذه الطريقة !

ثم أخبرت الملكة نازلى أمى .

ورأى عمر أن الحل الوحيد هو أن يشتري قارئة البخت أو يقتلها !
وطلب إليها ان تختار.. فاختارت أن تعيش !

وأصبحت تقول للملكة إن علاقتى بعمر قد انتهت، وأننى لم أعد
أقابله !

واطمأنت أمى إلى أن قصة غرامى قد انتهت ! فى الوقت الذى كنت
فيه ألتقى به كل يوم !

وفوجئت بوصول أحمد حسنين باشا إلى القدس خلافا لكل ما قالته
وأكدته قارئة البخت !

وتم الصلح بينه وبين أمى، وطلب إليها أن تعود فوراً إلى القاهرة،
بعد أن كانت قررت أن تقيم فى فلسطين إقامة دائمة !

ولم استطع أن أودع عمر. لم أستطع أن اتفق معه كيف نتكاتب.

لقد كان الأمر فجائياً بالرحيل فوراً..

ولم تكن الملكة تستطيع أن تفتح فمها فى حضرة أحمد حسنين !

* * *

وعدت إلى القاهرة وقد تركت قلبى فى فلسطين..

عدت بائسة شقية معذبة..

فشلت كل محاولاتي في الاتصال به..

ومضت السنوات..

وذهبت إلى حفلة الاميرة شويكار ورأيتك.. وأعجبتني من بعيد!

وأشعلت ولاعتك في الهواء، فاشعلت ولاعتي في الهواء.. أردت أن أقول لك إنك اشعلتني كما أشعلتك..

وذهبت إلى التواليت، ودعوتك لتتبعني..

وعند التواليت رأيت عمر أمامي،

ونسيتك على الفور! نسيت أنني متزوجة! نسيت أنني دعوتك لاتفق معك على موعد! نسيت كل شيء! لم أعد أرى سواه!

واعطيته رقم تليفوني وطلبت منه أن يتصل بي!..

ولم يتصل!..

وبعد أيام اتصلت بي سيدة من القدس وقالت إنها تحمل إلى رسالة من عمر..

وما كدت أفض الرسالة وأقراها.. حتى شعرت برغبة جامحة في أن أقتلك!

الفصل الخامس

تراجع عادل برأسه إلى الخلف وقال :

– تريدن أن تقتليني. أنا؟

قالت الأميرة في إصرار:

– نعم.. أقتلك أنت!

واعتقد عادل في أول الأمر أن الأميرة تمزح، ولكنه رأى في عينيها نظرة جد، فقال لها في دهشة:

– ماذا فعلت حتى استحق القتل؟

قالت :

– قتلت أجمل أحلامي!

قال :

– إننى لا أقتل الأحلام! أنا أصنع الأحلام!

قالت :

– سأثبت لك أنك قاتل!

ومدت الأميرة يدها، وتناولت حقيبة يدها، وفتحتها. وأدخلت أصابعها الجميلة في الحقيبة، وراحت تتحسس محتوياتها. وبرزت عيناها فجأة. حتى خيل لعادل في لحظة أنها ستخرج مسدسا من الحقيبة. ولكن أناملها خرجت من الحقيبة تحمل ورقة زرقاء.. ودفعتها إلى عادل وهي تقول:

— هذه شهادة وفاة حلم.

قال عادل وهو يتناول الورقة في يده:

— هذه أول مرة اسمع أنهم يكتبون شهادة وفاة للأحلام!

قالت الأميرة وهي تتنهد:

— عندما يموت فرد واحد تكتب له شهادة وفاة! وفاة الحلم الجميل هي موت رجل وامرأة معا... وهذا يستحق شهادة وفاة! انظر إلى الورقة جيدا... اقرأها بإمعان... ستجد فيها صورة بصماتك على جثة القتيل! وأمسك عادل الورقة بيد مرتعشة، فلم يجد شهادة وفاة، وإنما وجد خطابا من عمر، الشاب الفلسطيني، الخطاب مكتوب في مدينة القدس وموجه إلى الأميرة.

وتاريخ الورقة حديث. ولكنها تبدو قديمة، من كثرة ما فتحتها الأميرة وطوتها، وأخفتها في صدرها وبللتها بدموعها وأحرقتها بأنفاسها..

وبدأ عادل يقرأ الخطاب.. فقالت له الأميرة:

— اقرأ بصوت مرتفع.. حتى أسمعه بصوتك!

* * *

وبدأ عادل يقرأ بسخرية.. ولكن لم تلبث سخريته أن اختفت، وبق صوته،

واختلج، وارتعشت الكلمات فوق شفتيه، كأن خطابات الحب الحقيقية لها رهبة الكتب المقدسة وجلالها! ومضى يقرأ:

«رأيتك فجأة في حفلة الأميرة شويكار. لم أصدق عيني. اعتقدت أنني أحلم. رأيت ليلة القدر على الأرض. عادة لا نراها إلا في السماء! ولكن رأيت طاقة ليلة القدر فعلا عندما رأيت وجهك تلك الليلة. اندفعت إليك بغير تفكير. ورأيتك تعطينني مفتاح الجنة!

«حملت المفتاح معي، خرجت من الحفلة على الفور. الدنيا لا تسعني. كنت أحلم وأنا أمشي على قدمي. كنت أطيّر من الفرح. كنت أسعد رجل في العالم.

«كان مفتاح الجنة هو رقم تليفونك الذي أعطيتني إياه. كنت أردد رقم تسعة سبعة خمسة تسعة سبعة كأنني أردد أغنية. كان كل رقم من هذه الأرقام يقول لي (أحبك)! أحسست بأن هذا الرقم هو الرقم السري الذي يفتح خزانة سرية فيها أجمل كنوز الدنيا التي هي أنت!

«عرفت أنني أخيرا وجدتك. أخيرا أمسكت حلمي بيدي. عشت كل أيامي وكل ليالي كالأموات، منذ ذلك اليوم التعس الذي فارقتني فيه في القدس بغير كلمة وداع!

«بذلت المستحيل لاتصل بك ففشلت .. كتبت إليك مئات الخطابات بلا رد. سافرت إلى القاهرة عشرات المرات فلم أستطع رؤيتك. ما أكثر القصور التي تقيم فيها. قصر عابدين، قصر القبة، قصر المنتزة، قصر رأس التين! طفت حولها كلها. لم أر إلا الأسوار العالية. لم تصافح عيناى الا المدافع في أيدي الحراس!

«لم أياس أبدا ! قلبى كان يؤكد لى أن الحب الذى بدأ فى القدس لا يمكن أن يموت فى القاهرة !

«وعدت إلى القاهرة للمرة العشرين ورأيتك. واعطيتنى مفتاح الجنة. رقم تليفونك. لم تقولى لى كلمة واحدة، ولكن أرقام تسعة سبعة خمسة تسعة سبعة قالت كل الكلمات التى تمنيت أن اسمعها من شففتيك ! قالت إنك ما زلت تحبيننى. حبنا انتصر على الزمن وعلى الفوارق وعلى الصعوبات والعقبات !

«مشيت على قدمى إلى الفندق ! كانت أصابعى تأكلنى، كأنها تتلهف لمجىء الصباح، وتدور فى قرص التليفون لتطلب المرأة التى أحبها. لن أنام حتى اسمع صوتك. سأتفق معك على موعد. سألقاك غدا. سنجدد لىالى الحب. ستفطر شفتاى الصائمتان على رحيق شففتيك. لن نفترق بعد اليوم. لن أعود إلى القدس مرة أخرى. سأبقى فى القاهرة، سأعيش فيها، ستكونين أنت وطنى ومدينتى وأسرتى وعملى. يكفى أن أسمع صوتك مرة كل يوم !

«وما كدت أصل إلى باب غرفتى فى فندق شبرد حتى رأيت عددا من ضباط البوليس المصرى. ولم أهتم بهم. كان عقلى مشغولا بك وحدك، وأخرجت مفتاحى وفتحت باب الغرفة. وإذا بضباط البوليس يدخلون خلفى بلا استئذان !

«وضع كبيرهم يده على كتفى وقال لى : أنت مقبوض عليك !

«وأحسست كأن هذه اليد تهوى بى من السماء التى كنت أحلق فيها إلى قاع الهوان ! وتطلعت فى وجوه الضباط بدهشة، وعاد كبيرهم يقول :

« - يجب أن تغادر القاهرة فوراً ! » ما كدت اسمع كلمة « فوراً » حتى

أحسست بخنجر يفرس في قلبي ! « فوراً » معناها ألا أتحدث إليك معناها
ألا أراك ! معناها أن أخرج من الجنة إلى الجحيم من جديد ! « توسلت إليهم
أن يتركونى إلى الصباح .

« فقالوا فى غلظة : الأمر يفرض بأن تترك القاهرة... بل مصر كلها فوراً !
« فوجئت بهذا الأمر الغريب وسألت : ماذا فعلت ؟

« قال الضابط : أنت تعرف جيداً ... ماذا فعلت !

« قلت : لم أفعل شيئاً . لم أرتكب جريمة . لم أسيء إلى أحد . لم أفتح فمى
وأتكلم فى السياسة ..

قل لى : ما هى جريمتى ؟

قال الضابط حانقاً :

« ليس من حَقك أن تحقق معنا ! ليست مهمتنا أن نرد على أسئلتك .
مهمتنا أن نراك تغادر مصر فوراً ، ولا تعود إليها أبداً !

« انزع قلبي ، وقفت أمامهم مشلولاً بلا حراك . فتولوا حزم حقائبى ،
ووضعوني فى سيارة حملتنى إلى خارج الحدود ، وتركونى هناك وهم يقولون :
« - لو عدت مرة أخرى ... فستضرب بالرصاص !

« وفهمت أن جريمتى الكبرى أننى حدثتك فى حفلة الأميرة شويكار !

« لم يشفع لى أننى مسلم وأنت مسلمة ، أننى عربى وأنت عربية . جريمتى
أننى من أبناء الشعب ... وأنت حفيذة ملك وابنة عم ملك !

« إن شخصاً واحداً رأى وأنا أحدثك فى حفلة الأميرة شويكار . هو الشاب
الأسمر الطويل الذى كان يحمل ولاعة فى يده ، وحاول أن يشعل لك

سيجارتك، وفضلت أنت أن تشعل سيجارتك من ولاعتي، وأطفأت أنت ولاعته !

« لاحظت أن هذا الشاب بقي واقفا أثناء حديثك معي. كان يحملق فينا ونحن نتحدث. وأنا انصرف رايت وجهه. شىء فيه جعلنى لا أحبه. أحسست بأنه يكرهنى، يمقتنى، يريد أن ينشب أنيابه فى.

« وصدق أحساسى، عندما عدت إلى الفندق ورأيت رجال البوليس فى انتظارى. تأكدت على الفور أن الرجل الطويل حامل الولاة كان أحد عيون الملك. وأنه سمعك وأنت تعطيننى رقم تليفونك، وأنه عرف علاقتى بك أثناء إقامتنا فى القدس، وأنه هرول وكتب تقريراً للملك بكل ما عرف، وأصدر الملك أمراً بإبعادى فى نفس الليلة !

« لن أقول : سامحه الله. بل أقول : لعنه الله ! إننى العن هذا الرجل المجرم كلما تنفست.

« إنه حطم سعادتى، دمر هنائى، حول جنتى إلى جحيم.

« لو رأيته مرة أخرى فسوف أقتله. إنه قتلنى، إننى الآن ميت على قيد الحياة !

« حاولت أن أعود إلى القاهرة من جديد ذهبت إلى قنصلية مصر فى القدس أطلب منها تأشيرة دخول، فرفضت القنصلية المصرية إعطائى التأشيرة.

« قابلت الدكتور محمود فوزى قنصل مصر فى القدس فقال لى إن أمراً صدر بمنعى من دخول مصر باعتبارى من الأجانب الخطرين !

« سافرت إلى بيروت، وقابلت الأستاذ أحمد رمزى قنصل مصر هناك،

وطلبت تأشيرة، فرحب بي، وما كاد يعلم باسمي حتى فزع، وكأنه أمام أحد
الصهيونيين من زعماء عصابات الارهاب !

«وقال لي بصراحة إن أمرا صدر بمنع من دخول مصر باعتباري من
الأجانب الخطرين، وأن الأمر أرسل بالبرق إلى جميع قنصليات مصر
ومفوضياتها في الخارج !

«وعرفت أن هذا أمر نهائي، لا يقبل المناقشة، ولا الاستئناف،
ولا الطعن... فهو أمر ملكي !

«أمر ملكي بألا أحبك ! ألا أراك ! ألا اتصل بك» !

«كدت أجن.. إنني أحب مصر. أحبك. ولكن الدولة المصرية بكل
أجهزتها وبوليسها وشرطتها العلنية والسرية اعتبرتني العدو الأول.. أعلنت
على الحرب، فلماذا؟»

«لأن أميرة مصرية أحببتني وأحببتها !

«لأن قلوب أولاد الملوك مثل قصورهم، ليس من حق أفراد الشعب أن
يدخلوها» !

«ولكن لن أياس» !

«جيوش الدنيا كلها لن تقف بيني وبينك» !

«عزائي أن قلبي عندك، كل جنودهم وحراسهم فشلوا في أن يمنعوا
حبي من الدخول إلى قلبك».

«سأحاول أن أهرب جسدي إلى مصر.. كما يهربون المخدرات» !

«عمر»

طوى عادل الخطاب وهو يقول في سخرية :

— خطاب بليغ !

قالت الأميرة في حماس :

— أهم شيء.. الصدق فيه. هذه هي بلاغته.. إنه وثيقة اتهامك !

قال عادل وهو يعيد الخطاب إلى الأميرة :

— هذا الخطاب هو وثيقة براءة ! أولا أن صناعتي مهندس لا ضابط بوليس !

قالت :

— إن بعض كبار رجال الدولة وصلوا إلى مناصبهم فوق تقاريرهم السرية ! جثث الذين طعنوهم بهذه التقارير في ظهورهم هي درجات السلم التي ارتفعوا فوقها إلى مراكزهم الكبيرة !

قال :

— إن عيب المرأة عندما تقرأ خطابا غراميا أنها تحفظ الكلمات الغرامية التي في الخطاب وتنسى الوقائع ! إنه يقول في خطابه : إن رجال البوليس كانوا في انتظاره عقب خروجه من الحفلة.. وأنت تعلمين أنني لم أغادر الحفلة.. أليس كذلك ؟

قالت :

— نعم.. إنك فعلا بقيت في الحفلة !

قال عادل :

– مكثت ساعة كاملة واقفا أمامك أشعل ولاعتى.. ولا تردين على.. هل حدث هذا أم لم يحدث؟!

قالت الأميرة :

– نعم.. إنك كنت واقفا طوال الوقت أمامى.

قال عادل :

– إذن متى ذهبت وكتبت التقرير وأبلغته إلى الملك؟ لقد رقصت بعد ذلك مع قسمت شاهين، ودعوتنا للجلوس معك، وبقيت جالسا معك حتى نهاية الحفلة.. فمتى كتبت التقرير، ومتى ذهبت إلى الملك وأبلغته بالحديث الذى جرى بينك وبينه؟

قالت الأميرة :

– إذن من فعل هذا؟

قال :

– الذى فعل هذا هو شخص كان معك فى فلسطين، أو عرف بما جرى لك فى فلسطين.. هو شخص صاحب مصلحة فى مطاردة عمر!

قالت باسمه :

– لا تنكر أنك صاحب مصلحة فى طرد عمر!

قال :

– نعم أنا صاحب مصلحة.. ولكن هناك صاحب مصلحة أكبر منى.. هو زوجك!

قالت بدهشة :

– زوجى ؟!

– نعم زوجك.. هل هو يعرف بقصة غرامك بعمر فى فلسطين قبل زواجك ؟

قالت :

– نعم.. اعترفت له بها واعترفت له أننى لا أزال أحبه !

قال عادل :

– ألم تلاحظى أنه عندما عدت إلى مائدتك أنه تركك وذهب وتحدث إلى

الملك ؟

قالت :

– نعم.. ولكنه قال لى إنه كان يتحدث إليه عن قضية فلسطين !

قال عادل :

– إن قضية فلسطين بالنسبة لزوجك هى عمر !

قالت وقد فتحت فمها دهشة :

– إننى لم أفكر فى هذا !

قال عادل :

– لأننا عندما نحب نلغى عقولنا ! إن المجرم الحقيقى يعيش معك فى

بيتك طوال الوقت.. وأنت تتهميننى ظلما بجريمة لم أرتكبها !

قالت الأميرة فى تأثر :

– لقد اعتذرت إليك بعد أن صفعتنى ! الصفعة كانت دليل براءتك.. وفي تلك اللحظة برأتك بقلبي ! والآن أبرئك بعقلي ! ماذا تطلب أكثر من ذلك.. لقد نلت البراءة من محكمتين، المحكمة الابتدائية وهى قلبي، ومحكمة الاستئناف وهى عقلي !

قال عادل :

– بقيت المحكمة الثالثة !

قالت فى استغراب :

– المحكمة الثالثة.. هل توجد محكمة ثالثة ؟

قال وهو يطوقها بذراعيه :

– المحكمة الثالثة... جسدك !

وتخلصت الأميرة من ذراعه وقالت :

– هذه المحكمة صعبة.. وليس من السهل إقناعها !

قال عادل :

– لماذا لا تعطى الدفاع الفرصة اللازمة لإقناع المحكمة ؟

قالت الأميرة :

– إن هذه المحكمة العليا مشغولة بقضية أخرى.. وهى لا تستطيع أن تنظر فى قضيتين فى وقت واحد !

قال عادل وكأنه أصيب بضربة مفاجئة :

– قضية أخرى ؟ لقد ظننت أننى القضية الوحيدة أمام هذه المحكمة !

قالت الأميرة :

– إننى لا أزال أحب عمر.. ولا أستطيع أن أمنح جسدى لرجلين معا !

قال عادل :

– إن عمر لن يعود إلى مصر!

قالت :

– ولكننى سأنتظره. إننى قادرة أن أنتظر عاما وعامين، وبضعة أعوام

قال ساخرا :

– إلى أن يتزوج.. كما تزوج نجم الدين!

قالت فى حسرة :

– هذا هو قدرى ! لقد فتحت لك قلبى، وقلت لك بكل صدق قصة حبنى
لنجم الدين وقصة حبنى لعمر.

قال عادل مغيظا :

– ولكن هذه ليست قصص حب. هذه مغامرات، حب أطفال ! كلنا دخلنا
روضة الأطفال ! كلنا نذكر أيامنا الجميلة فيها ! ولكننا سوف نكون موضوع
السخرية إذا عشنا طوال حياتنا فى روضة الأطفال ! إنك لم تحبى رجلا حتى
الآن حبا حقيقيا !

قالت محتدة :

– أنا لم أحب ! إنك لا تعرفنى !

قال عادل :

- بل أعرفك جيدا.. أعرفك أكثر مما تعرفين نفسك ! إننى أعتقد أنك لم تحبى نجم الدين ولا عمر حبا حقيقيا ! الوحيد الذى أحببته فعلا هو الحصان، حصان نجم الدين.. المرأة عندما تحب رجلا حقيقيا تتبعه إلى آخر العالم. تحبه وهو حى : تحبه وهو ميت ! تحبه وهو أعزب وتحبه وهو متزوج، تحبه وهو معها، وتحبه وهو بعيد عنها ! تذهب وراءه إلى آخر الدنيا. وأنت لم تذهبي وراء نجم الدين إلى آخر الدنيا.. لم تذهبي وراء عمر إلى آخر الدنيا. الوحيد الذى حاولت أن تذهبي وراءه إلى آخر الدنيا هو الحصان ! عندما مات الحصان حاولت الانتحار. وهذا مالم تفعله من أجل نجم الدين، ولا من أجل عمر ! كل هذه مغامرات صبيانية وليست حبا حقيقيا. الحب الحقيقى ليس حكاية قصيرة.. إنما هو قصة طويلة !

قالت الأميرة :

- أحلى حكايات الحب، أقصرها !

قال عادل :

- هى حلوة عندما نقرأها، أو عندما نكتبها.. ولكنها تافهة عندما نعيشها.. هذه المغامرات هى هوامش فى صفحات حياتنا. أما الحب الكبير فهو كل الصفحات من كتاب حياتنا ! إنه أشبه بزجاجة حبر تسقط على كتاب حياتنا، فتطمس كل صفحة فيه. ولا يبقى ظاهرا من صفحات الكتاب إلا النقط التى تتركها زجاجة الحبر ! وعندما نقلب هذا الكتاب فى أيدينا لا نكاد نرى السطور التى خطت مغامراتنا السابقة، إنها تشحب وتختفى وتضيع ! تصبح هذه المغامرات أشبه بأفلام سينما عادية حضرناها.

ولا نكاد نذكر أسماءها أو أبطالها ! تصبح أشبه بوجوه رأيناها في الزحام
لا نكاد نذكر ملامحها. أنت لم تعرفي بعد ما هو الحب الكبير!

قالت الأميرة :

— المرأة تختلف عن الرجل. عندما يخفق قلبها ولو مرة واحدة تبقى
تذكرى هذه الخفقة في ذكراتها طول حياتها !

قال عادل :

— إلى أن يجيء الحب الكبير.. الحب الكبير مثل العاصفة يقتلع كل
شيء ! إننا ننسى النسيم الذي داعب وجوهنا، ولكن لا يمكن أن ننسى،
العاصفة التي اقتلعتنا من أماكننا ! لو أنك أحببت حقيقة نجم الدين لهربت
خلفه ! لضحيت من أجله بلقب صاحبة السمو الملكي، كما ضحى إمبراطور
الهند، وكما ضحى ملك بريطانيا بكل شيء من أجل مسز سمبسون المرأة
التي أحبها ! لو أنك أحببت حقيقة عمر لرفضت أن تعودى من فلسطين،
وتتركه وحده ! لفشلت كل السلطات والقوى أن تنتزعك من بين ذراعيه !
الحب الكبير هو أن تذوبى في الرجل كما تذوب قطعة السكر في الماء ! عندما
تذوب قطعة السكر لا يمكن فصلها عن الماء أو فصل الماء عنها أما إذا
أمكننا فصلها فمعنى ذلك أنها صمدت للماء ولم تذوب فيه ! الحب الكبير هو
اللحظة التي نغمض فيها عيوننا عن واقعنا، ونفتح عيوننا على الوهم. فإذا
تذكرنا بعد ذلك واقعنا فمعنى ذلك أننا لم نحب بعد هذا الحب الكبير !

قالت الأميرة ساخطة :

— إنك بهذا الكلام تدوس بقدميك على أجمل زهرة في حياتي ! لقد قلت
لك إننى لا أزال أحبه !

قال عادل :

– لو كنت تحببته ذلك الحب الكبير، لرفضت أن تتزوجى !

قالت الأميرة :

– لقد تزوجت لأتحرر من قيود القصر.. لأستطيع أن أذهب إليه ! إن عمر
هو الحب الكبير فى حياتى !

قال عادل :

– لو كنت تحببته هذا الحب الكبير لما جئت إلى هنا !

قالت تتحداه :

– إننى جئت إلى هنا لأننى أحبه ! جئت لأطلب إليك أن تساعدنى كيف
أستطيع أن أجعله يحضر إلى مصر دون أن يعرفه الملك وتعرفه الحكومة !
وأطرقت لحظة ثم قالت :

إننى شعرت أنك تحببى حبا حقيقيا ولولا هذا الحب لما صفعتنى على
وجهى وأنا أعرف أن العاشق الحقيقى يضحى بكل شئ من أجل إسعاد
المرأة التى يحبها !

قال ساخرا .

– أنت تحبين بطريقة الملوك ! الملوك ينتظرون من رعاياهم أن يضحوا
بحياتهم من أجل عظمة الملوك ومجدهم من أجل اتساع نفوذهم وسلطانهم !
العبيد وحدهم هم الذين يرضون بهذا الهوان ! إننى أحبك كملك.. وأنست
تريدين أن أحبك كعبد من العبيد ! أنت تريدين أن تحبينى كما أحببت

الحصان.. تركبين الحصان لتلحقى بنجم الدين.. وتركبين الحصان عادل
لتلحقى بعمر..

إننى لست حصانا.. ولست حمارا.

* * *

ورأت الأميرة وجه عادل وقد تحول من السخرية إلى الغضب، وأحست
بأنها أهانتة بهذا العرض الغريب.. فتراجعت وهى تقول:

— لم أكن اتصور أنك تحبنى بهذا العنف ! كنت أتمنى أن تكون صديقى
الوحيد. إننى لم ألجأ إلى رجل سواك..

قال عادل غاضبا :

لو كنت تظنين أننى رجل لما لجأت إلى ! الرجل الذى يحب امرأة
لا يقبل أن يكون قنطرة تدوس عليها لتذهب إلى رجل آخر.. الحب كما
أفهمه تضحية من اثنين لا تضحية من طرف واحد. كل شئ لا يقبل
القسمة على اثنين لا يمكن أن يكون حبا عظيما ! الحب أنانية، عملية
امتلاك، ترفض الشركاء، تأبى أنصاف الحلول. الحب جشع لا يشبع، بخيل
لا يقبل أن يعطى المرأة التى يحبها للبؤساء والفقراء والمساكين على سبيل
الاحسان الحب ليس جمعية خيرية !

وكانت الأميرة ترقبه وهو يتكلم تسمعه حيناً بأذنها، وتسمعه أحيانا
بعينها. تشعر كأن الكلمات تخرج من قلبه لا من فمه. كلمات تغضبها
وترضيها فى وقت واحد. تدفعها وتجذبها. كأن هذه الكلمات تهزها.
وأحست بأنها تشبه زجاجة من الماء الفوار، وأن عادل يخض هذه الزجاجة
بيده فيندفع الهواء المحبوس فيها، ويحاول أن يدفع السدادة وينطلق.

وقالت له :

– لماذا اخترت الهندسة ؟ كان يجب أن تكون شاعرا ! أو خطيبا ! أو محاميا إنك استطعت أن تهز معتقداتي .. كدت تقنعني ! لا أعرف ماذا اقنعني “ هل الكلمات ، أم طريقتك في النطق بها ، أم صوتك وأنت تتكلم ، أم ملامح وجهك وأنت تتفعل ، أم كل هذا معا ؟!

قال .

– ربما كان صدقي هو الذي يقنعك !

قالت .

– تمنيت لو كذبت على ! لو خدعتني وقلت إنك سوف تساعدني ليعود عمر إلى ' كانت هذه الكذبة أقصر الطرق إلى قلبي !

قال

– إنني أفضل دائما أن أختار الطريق الطويل ! فليسوب النساء مليئة بالمنحنيات والمنعطفات والزوايا !

قالت

– هل رأيت امرأة قبلت تطلب من رجل أن يكذب عليها “ أن يخدعها أن يعدها بما لا يبوى أن يقوم به “

قال

– كل امرأة تحب الرجل الذي يكذب عليها وتجذ لذة في أن تصدقه وهي تعلم أنه كاذب .. ولكن هذا هو أسلوب الحب العادي . الحب الصغير أما الحب الكبير فلا يعرف إلا لغة واحدة هي الصدق ' كلما قلت درجة الحب

زادت الأكاذيب فيه . وكلما ارتفعت درجة حرارة الحب اختفت منه الأكاذيب
إلى أن يجيء يوم يصبح كل ما في الحب صدقا .

قالت .

— إن صدقك يثيرنى .. كأنه كذب لذيذ !

قال :

— لأنك عشت حياتك في عالم من الأكاذيب ! كل ما حولك كذب وخداع
وزيف ! قيمة الرجل في القصر بقدر كفايته من الكذب ومقدرته على إخفاء
مشاعره . قيمة الوصيصة بقدر نجاحها في الانحناء لمن تريد أن تلعنهم . وفي
مجاملة من تريد أن تصفعهم ، وفي تقبيل من تريد أن تبصق في وجوههم كل
شيء في حياتكم كذب ! حتى الأسوار العالية حول قصوركم كذب ! توهمون
الناس بأنها تحميكم ، وأنتم أول من يعرف أنها تهوى تحت ضربة واحدة !

قالت ضاحكة :

— أنت ثائر !

قال :

— أنا ثائر على عالم من الكذب ! إننى أبحث عن الحقيقة في كل مكان
ولا أجدها ! لعلك سمعت أننى زير نساء ! وأننى أبدل النساء كما أبدل
الكرافات ! هذا غير صحيح . إننى أبحث في كل امرأة عن الحقيقة
فلا أجدها . فأتركها بحثا عن الحقيقة في امرأة أخرى !

قالت وهى تغمز بعينها :

— يبدو أن الحقيقة داخل ملابس المرأة الداخلية .. ولهذا تحاول دائما
أن تجردها من ملابسها !

قال

– إننى أجردها من زيفها ! أجردها من الكذب ! وكلما نزعنا ثوبها من الكذب وجدت تحته ثوبا آخر من الكذب إلى أن اصل إلى جلدتها فأجده كذبا أيضا ، كل امرأة تخبى حقيقتها في مكان ما في جسدها. ولهذا أحاول أن أبحث عن الحقيقة في كل مكان ! وفي كثير من الأحيان لا أجد الحقيقة !

قالت الأميرة وهى تبتسم :

– إنك لن تتعب في البحث عن حقيقتى ! حقيقتى فوق شفتى !

قال عادل :

– قد يكون هنا طعم الحقيقة.. لا الحقيقة نفسها !

* * *

واقتربت منه..

وقبلها في شفتيها قبلة طويلة. وطالت القبلة.. ثم تخلصت من ذراعيه، وهى ترتب شعرها قائلة :

– لقد بقيت مع الحقيقة مدة طويلة !

قال يداعبها !

– لا... إنها ليست هنا ! دعيني أبحث بنفسى.. أين هى الحقيقة ! ومد يده نحو ثوبها...

وهنا سمع جرس باب الشقة يدق دقا متواصلا..

واضطربت أصابعه التى كانت تبحث عن الحقيقة..

وعادت يده إلى جواره..

ولاحظت الأميرة اضطرابه فقالت له باسمه :

— هل تنتظر أحدا؟

قال :

— لا.. إننى ألغيت كل مواعيدى وقلت إننى سافرت إلى الاسكندرية.

وعاد جرس الباب يدق من جديد وسمع طرقا متواليا..

ونظر عادل حوله فى حيرة، وكأنه يبحث عن مكان يخبئ فيه الأميرة!

وعادت الأميرة تتطلع فى وجهه، فترى اضطرابا يحاول جاهدا أن يخفيه..

وسألت الأميرة:

— هل أنت خائف؟

قال عادل:

— لست خائفا على نفسى! إننى خائف عليك!

قالت الأميرة:

إننى لست خائفة!

قال عادل:

— قد يكون زوجك، قد يكون ضابط البوليس!

قالت الأميرة:

— أنا لا أخافهم!

وعاد الباب يدق من جديد، وتزداد الطرقات عنفا..

وزاد اضطراب عادل.. ثم قال

– لن أفتح الباب !

كان عادل قلقا مضطربا.

ما أكثر ما دق الباب من قبل وهو مع امرأة يحبها !

ما أكثر المرات التى استطاع أن يتصرف فيها وينقذ الموقف، وينقذ المرأة !!

ولكنه فى هذه المرة أصبح كالعاجز المشلول، لا يستطيع أن يفكر، ولا يستطيع أن يتحرك، ولا يستطيع أن يفعل شيئا

والباب لا يكف عن الدق !

إن دقائق الباب أيقظته من الحلم الجميل ! أيقظته فى نفس اللحظة التى كانت أصابعه تقترب فيها من الحقيقة !

فى نفس اللحظة التى كان يستعد فيها لمعرفة الحقيقة !

وحاول عادل جاهدا أن يخفى خيبة أمله، واضطرابه، وضيقه، وحيرته، خلف ابتسامة عريضة..

ولكن مساحة الابتسامة كانت أصغر من مساحة الخيبة، والضيق والاضطراب والحيرة.

ولم تكن الأميرة مضطربة.

كانت على العكس هادئة..

كانت مطمئنة.. وكأنها لا تسمع الطرق المتوالية على الباب..
وكانها أرادت أن تزيد حيرته فقالت له في خبث وهي تقترب منه في دلال
ـ مالك مضطرباً؟!.. ألم تكن تبحث عن الحقيقة؟
قال متظاهراً بالابتسام
ـ طبعاً.. طبعاً!
قالت :
ـ اذهب وأفتح الباب.. ربما كانت الحقيقة هي التي تدق بابنا!

الفصل السادس

استمر جرس الباب يدق بعنف ويلا انقطاع، كأن يدا عصبية غاضبة تطرقه.. بلا توقف !

وأمسك عادل بيد الأميرة.. واتجه بها إلى غرفة المكتب، ثم عدل عن إخفائها في المكتب، فجذبها من يدها إلى المطبخ، ثم عاد ودفعها إلى الحمام، ثم دفع بها أمامه إلى غرفة النوم.

وتركته الأميرة يفعل بها ما يشاء. لم تعترض على أى قرار، ولا على عدوله عن كل قرار. وكانت تبتسم وهي ترى اضطرابه، ودقات الجرس المتوالية تضاعف هذا الاضطراب. وكان يضيق بحيرته ويخجل من اضطرابه، فقد كانت هذه أول مرة في حياته يشعر بمثل هذا الاضطراب وهذه الحيرة، على كثرة المآزق التي تعرض لها طوال حياته الغرامية المليئة بالآزمات والمطاردات !

ودخلت الأميرة إلى غرفة نومه.. وراحت تتأمل أثاثها الأنيق بإعجاب، كأنها تدخل محلات بونتريمولى لبيع الأثاث لا لتختفى في هذه الغرفة من الطارق المجهول. وضاعف هدوء الأميرة وعدم مبالاتها من اضطرابه، وأحس بالعرق يتساقط من رأسه كأنه أحس بالعار لأن المرأة ليست خائفة، ولأن الرجل هو الذى تصطك أسنانه !

ولم تكتف بذلك، بل قالت له :

— لا تخف يا عادل ! إننى مستعدة لأن أموت معك هنا !

وتركته الأميرة يغلّق الباب بالمفتاح من الخارج، ثم اتجه إلى باب الشقة فى خطوات متعثرة، واقترب من الباب، وأحنى رأسه، وقرب أذنه من ثقب الباب، لعله يلتقط بأذنه أصوات الطارقين فلم يسمع صوتاً. وتوقف رنين الجرس.. وشعر بالاطمئنان.. لابد أن الذى كان يطرق الباب قد تعب من الطرق بلا جدوى وانصرف معتقداً أن لا أحد فى الشقة.

وتنفس عادل الصعداء.. وعاد الدم يجرى فى عروقه من جديد.. واختفى الخائف فيه، وعاد يطل زئير النساء، الأميرة الآن فى غرفة النوم.. القدر يساعده، هذا الجرس المجهول اختصر كثيراً من الخطوات التى كان يجب أن يقوم بها لينقل الأميرة من الصالون إلى غرفة النوم ! لن تمضى ثوان حتى تصبح الحقيقة عارية بين ذراعيه !

واتجه بخطوات سريعة عائداً إلى غرفة نومه، وأخرج المفتاح من جيبه. وقبل أن يضعه فى ثقب الباب سمع جرس الباب يدق من جديد بعنف واستمرار. وبدأ صوت الجرس فى أذنه أعلى كثيراً مما كان.. فقد امتزجت سرعة دقات قلبه مع توالى دقات جرس الباب.

وماتت الأحلام الجميلة التى ولدت فى مخيلته من ثوان قليلة، واختفى زئير النساء وظهر اللص المذعور الذى يسمع خطوات رجال البوليس. وعاد إلى الباب من جديد، وفتح نصف فتحة، وحرص على أن يسده بجسمه، ثم أطل برأسه من داخل الشقة.. واستقرت عيناه على ساقى امرأة.. ورفع عينيه إلى وجهها، فوجد أمامه الأنسة قسمت شاهين.

واطمأن كثيرا، وانزعج قليلا. اطمأن لأنه لم يجد أمامه زوج الأميرة.. ولم يجد ضباط البوليس الذين زاروا عمر الفلسطيني في فندق شبرد.. ولم يجد واحدة من صديقاته المترددات على بيته.

وانزعج لأن قسمت شاهين تمثل في نظره زوج كل امرأة يعرفها! . فهي تعتبر نفسها مسئولة عن شرف كل امرأة، وحراستها من الرجال الذئاب. وهي عبارة عن بوليس آداب متبرع، وفوق ذلك فهي صديقة حميمة لصديقه أميرة عبد العاطى!

وارتسمت على وجهه علامة استفهام وبجوارها علامة تعجب، تليها عدة نقاط، كأنه يريد أن يسأل قسمت ما الذى جاء بها الآن؟! وابتسمت قسمت، كأنها قرأت علامة الاستفهام وعلامة التعجب والنقاط فوق وجهه، وقالت:

أسفة أننى أزعجتك يا عادل. لقد جئت أتسلم مبلغ العشرة الجنيهات اللى قلت لى فى التليفون إنك تبرعت بها لملجأ المتسولين!

وأحس عادل برغبة عارمة فى أن يحمل قسمت من يديها وساقها، ويلقيها من الدور العاشر تبرعا منه لملجأ المتسولين! ووضع يده فى جيبه، وأخرج محفظته وناولها بسرعة عشرة جنيهات..

وأمسكتها بيدها، وراحت تتطلع فيها ببطء، كأنها تريد أن تتأكد أنها ورقة بنكنوت صحيحة، وليست مزيفة، ثم قالت له:

— دعنى، أجلس عندك قليلا لأكتب لك إيصالا بالمبلغ.

قال فى عجلة:

— إننى لا أريد إيصالا!

قالت وهى تعود إلى فتح حقيبتها فى بطة شديد، وتخرج دفترا للإيصالات
قلمًا :

– يجب اتباع الأصول، نحن لا نقبل فى الجمعية مليما بغير إيصال !
قال :

– إننى لا أريد التبرع باسمى.. العشرة الجنيهاات تبرع من مجهول.
قالت له :

– حتى ولو كان المبلغ من مجهول فيجب أن أحرر إيصالا..
ثم حاولت أن تكتب الإيصال وهى واقفة فلم تستطع، فعادت تقول له :
– دعنى أدخل عندك دقيقة واحدة حتى أستطيع أن أكتب الإيصال..
قال لها بجفاء :

– إن لديه الآن اجتماعا هاما.. أرجو أن تمرى على غدا فى الشركة.. أو
أن ترسلنى لى الإيصال بالبريد !
قالت له برقة، على غير عادتها :

– يا لك من رجل بخيل ! ألا تريد أن تدعونى لأشرب فنجان قهوة فى
شقتك؟. هذه هى المرة الأولى التى أزورك فى الشقة.. سمعت من أميرة
عبدالعاطى أنها أجمل شقة فى القاهرة.. هذه فرصة لتفرج على الشقة !
وفزع عادل تتفرج على الشقة؟! إنه ليس مستعدا لأن يضيع دقيقة
واحدة الآن مع أجمل امرأة فى العالم، لا مع قسمت شاهين ! فعاد يقول لها
فى توصل :

– إن عندى الآن اجتماع مجلس إدارة.. ولا أستطيع أن أدخل سيدة أثناء الاجتماع..

قالت باسمه : إننى أنسة.. ولست سيدة!

قال وقد نفذ صبره : أنسة.. سيدة.. هذا اجتماع مقصور على الأعضاء!

قالت : سأبقى جالسة فى الصالة إلى أن ينتهى اجتماع مجلس الإدارة.

إغتاظ عادل.. ضاق بإلحاحها الغريب.. تمنى لو استطاع أن يخنقها فى تلك اللحظة، وقال لها هامسا :

– أؤكد لك أننى مشغول الآن جدا.. وقد لا ينتهى الاجتماع قبل منتصف الليل!

ورفعت قسمت صوتها وكأنها تعتمد إيصال صوتها إلى مجلس الإدارة.. وقالت :

– إننى مستعدة لأن أبقى أنتظر إلى منتصف الليل.. إننى فاضية اليوم وليس عندى ما أعمله!

وذعر عادل من صوتها المرتفع.. لابد أن الأميرة سمعت الصوت وعرفت أنه صوت امرأة!.. امرأة جاءت تفتح شفته.. وكلما طال الحوار تأكدت الأميرة أن المرأة إحدى صديقاته جاءت تضبطه مع امرأة أخرى.. لن تصدق أنها قسمت شاهين القبيحة الخلقة، ذات النظارات السوداء الكبيرة، ذات الثوب المهلهل.. مندوبة ملجأ المتسولين.

شعر أنه فى حاجة إلى الإيصال الذى رفضه من دقائق ليثبت للأميرة أن قسمت شاهين هى التى كانت بالباب، حتى تصدق. وحتى لا تتشاجر معه

كما تفعل أى صديقة جديدة فى مثل هذا الموقف الدقيق.

وأسرع يقول لها :

— أكتبى الايصال !

قالت وهى تبتسم :

— ولكنك قلت لى : إنك لا تريد إيصالا.

قال : اقتنعت بحججك الوجيية !

قالت : إذا كنت اقتنعت بحججى الوجيية. فدعنى أدخل الشقة !

وشعر أنه سيفقد أعصابه أمام الحاح قسمت واصرارها على دخول الشقة، فقال لها فى صوت حازم صارم :

— هذا ليس وقت المزاح.. قلت لك إن عندى اجتماعا هاما. اجتماعا لمجلس الادارة !

قالت فى هدوء :

— وأنا مدعوة لحضور اجتماع مجلس الادارة !

قال فى دهشة : من الذى دعاك !

قالت، وهى تعبث بخصيلة فى شعرها :

— مجلس الادارة كله !

قال وهو يهم بإغلاق الباب :

— ليس لدى وقت لهذا العبث !

قالت .

– أنت لا تعرف أننى أقوم بدور فرقة المطاؤون! مهمتى أن أطفىء الحرائق.. وقد تلقيت إشارة بأن هناك حريقا فى الشقة ١١٠ فى الدور العاشر، فجئت لاطفائها!

قال غاضبا :

– قلت لك إننى مشغول.. ولا وقت عندي للمزاح.

قالت :

– اسألنى أولا.. من الذى أرسل لى إشارة عن وجود حريق فى هذه الشقة؟! إنها الأميرة!.. الأميرة الموجودة عندك هى التى استنجدت بى وطلبت منى أن أحضر إلى هنا لخماد الحريق!

قال فى ذهول :

– الأميرة! الأميرة!

قالت قسمت :

– نعم الأميرة، الأميرة! وقد تعمدت أن أتأخر عدة دقائق عن الموعد الذى حددته لى الأميرة، حتى أصل بعد اندلاع النار!

وذهل عادل! انتقل كل سخطه من قسمت شاهين إلى الأميرة! أصبح يشعر برغبة فى أن يلقي بالأميرة أيضا من الطابق العاشر، أن يخنقها بدلا من قسمت شاهين..

ودعا قسمت إلى الدخول، وأجلسها فى الصالون. وخرج من الصالون ولم يتجه إلى غرفة النوم.. لم يكن هذه المرة فى عجلة للذهاب إلى غرفة النوم

كما كان منذ دقائق. أحس بأنه ينتفض من الغيظ، هذه المرأة تريد أن تعبت به. تحضر إلى شقته توهمه بأنها قادمة إليه في موعد غرام ثم تفاجئه بأنها تريد منه أن يساعدها على لفة حبيبها، ثم تتفق مع قسمت على أن تحضر إلى شقته بعد وصولها بدقائق لكيلا تترك له فرصة ينفرد بها! وقبل ذلك تدعوه في حفلة الأميرة شويكار ليلتقى بها عند التواليت! ثم يفاجأ بها تعطى رقم تليفونها لحبيبها القديم عمر الفلسطيني، وتتركه بغير أن تقول له كلمة اعتذار!

ماذا تقصد هذه المرأة هل تريد أن تنتقم لكل النساء اللاتي وقعن في حبائله؟ هل تريد أن تهزأ به كزئير نساء؟ هل تريد أن تنتقم منه لأنه صفعها على وجهها، فترد الصفعة بطريقة أعنف وأقسى وأشد إيلا ما؟ ترفعه إلى السماء ثم تهوى به إلى الأرض، توهمه بأنها تقوده إلى باب الجنة، بينما هي تدفعه إلى أبواب الجحيم؟ تتظاهر بأنها تعانقه وهي تخنقه؟ لقد رأى بسمه مربية على شفتيها عندما رآته مضطربا وجرس الباب يدق، مما يدل على أنها هي التي دبرت هذه المؤامرة، واتفقت مع قسمت شاهين على أن تقوم بدور الزوج أو ضابط البوليس!

وأحس عادل برغبة في أن يعبت بالأميرة كما عبثت به، ومشى إلى غرفة نومه، وأخرج مفتاحه، وفتح الباب، ورأى الأميرة متمددة فوق فراشه تبسم ابتسامتها المريبة.

وشجعت هذه الابتسامة على أن يرد التحية بأحسن منها، فأغلق الباب في هدوء، ثم أقفله بالمفتاح.

وقفزت الأميرة من الفراش في دهشة وقالت:

— من جاء حتى تقفل الباب بالمفتاح؟

قال عادل، وهو يتحكم في أعصابه ويخفي غيظه :

— لا أحد !

قالت الأميرة .

— ولكنى سمعت بأذنى رنين الجرس وصوت الطرق على الباب !

قال عادل بهدوء :

كان وابلور المطافئ هو الذى يدق الجرس !

قالت الأميرة فى استغراب :

— هل يصعد وابلور المطافئ إلى الدور العاشر !

قال عادل ساخرا :

— لم يصعد الوابلور نفسه، وإنما جندى يحمل خرطوما.. وقال إنه تلقى إشارة بأن حريقا فى الدور العاشر.. فطمأنته إلى أن الحريق لم يبدأ بعد فى هذه الشقة.. وعندما يبدأ الحريق سوف نتصل به ! وطلبت منه ألا يبتعد، فبعد دقائق سوف تشتعل النيران !

قالت الأميرة :

— أين ستشتعل النيران ؟

قال عادل :

فى هذه الغرفة ! عندى الكبريت، وعندك المواد القابلة للالتهاب !

قالت الأميرة :

لا تمزح. ما هى حكاية الحريق !

قال عادل :

— مسأله بسيطة.. إن حريقا شب فى الطابق التاسع الذى تحتنا !

قالت الأميرة فى فزع :

— ولكن النار لا تلبث أن تصل إلى الدور العاشر!

قال عادل :

— لا خوف من أن تحترقى ! لقد تأكدت أنك غير قابلة للالتهاب !

قالت الأميرة وقد زاد فزعها :

— دعنا نخرج من هنا ! يجب أن أخرج فوراً !

قال عادل :

— لا فائدة من الخروج.. النار تحاصر السلم.. والمصعد متوقف..
وسيارات المطافئ تحيط بالعمارة.. والأمل الوحيد أن يرفعوا سلم المطافئ
حتى يصل إلى الطابق العاشر، وتنزلى على هذا السلم !

قالت والكلمات ترتعش فوق شفيتها :

— سيرانى كل من فى الشارع وأنا أخرج من نافذة شقتك ! ستكون
فضيحة !

قال عادل ساخراً :

— ولكنك قلت لى : إنه لا يهmk أى شىء !

قالت ملتاعة :

— إننى خائفة من الحريق !

قال عادل وهو يجلس فوق الفراش :

— أما أنا فلست خائفاً من الحريق ! إنتى على العكس أرحب بالحريق !
ألم تقولى لى من دقائق : « لا تخف يا عادل، إنتى مستعدة لأن أموت معك
هنا ». لماذا تخافين الآن ؟ إن السماء استجابت إلى دعواتك ! وما دمنا
لا نستطيع أن نعيش معا فإننا نستطيع أن نموت معا !

وزاد فزع الأميرة واضطرابها وقالت فى صوت مبجوح :

— أنا لا أحب أن أموت محترقة !

قال عادل وهو يشعل ولاعته فى الهواء :

— ما الفرق بين الموت بالنار والموت بالشيخوخة ؟ ! إن نار الشيخوخة
تعذب المرأة أكثر من النار الحقيقية ! تلتهمها مثل النار. تشوهها مثل النار،
تحولها إلى رماد !

قالت غاضبة :

— وهل هذا وقت الضحك والابتسام ؟

قال عادل :

— أنت كنت تبتسمين عندما كنت تريننى مضطربا وجرس الباب يدق،
وأنا أتصور أن زوجك أو رجال البوليس هم الذين يقفون أمام الباب !
قالت .

— كنت أعرف أنه لا زوجى ولا البوليس بالباب.. ولهذا كنت أضحك !

قال ضاحكا

— وأنا أضحك لنفس السبب !

قالت :

– إذن لا توجد حريقة !

قال :

– لا.. يوجد وابور مطافئ ! توجد قسمت شاهين في الصالون !

قالت ساخطة :

– إذن، لماذا أفرعنتى وقلت لى إن في العمارة حريقا؟

قال :

– لأذوق نفس اللذة التى شعرت أنت بها عندما رأيتنى فزعا عندما دق الجرس !

قالت له :

– أنت قاسى القلب.

قال ساخرا :

– وما أحن قلبك !

قالت الأميرة :

– فلنذهب إلى الصالون إذن.. ماذا ستقول قسمت عندما تجدنا تاخرنا في الذهاب إليها !

قال عادل :

– لن تقول شيئا.. لقد قلت لها إنك في غرفة النوم.. وقالت إنها مستعدة

لأن تنتظر حتى منتصف الليل.. وأنها قاضية اليوم وليس لديها ما عمله !

قالت محتجة :

— كيف تقول لها : إننى فى غرفة النوم؟

قال عادل :

— قلت لها الحقيقة !

قالت غاضبة :

— ولكن.. لماذا قلت لها؟

قال :

— ولماذا قلت لها أنت : إنك قادمة إلى؟

قالت :

— إننى لم أقل لها هذا، هى التى اقنعتنى بأن أحضر! كنت مترددة فى الحضور، وسألته رأيها، فقالت لى إن من رأيها أن ألبى دعوتك للذهاب إلى شقتك، وقالت لى إنك أنبل رجل رآته فى حياتها.

— قال عادل فى دهشة :

— هل قالت قسمت عنى إنى نبيل؟ رأيها أن كل الرجال سفلة، أوغاد !

قالت الأميرة :

— لقد قالت لى إن عادل علاء الدين هو الرجل النبيل الوحيد الذى عرفته فى حياتها. وقد كنت خائفة، لم أكن خائفة منك، كنت خائفة من نفسى.. كنت أخشى أن أضعف أمامك، وأنا لا أريد أن أضعف. أريد أن أبقى وفية لعمر.

ووعدتنى بأن تصعد إلى الشقة بعد دقيقة واحدة، وجاءت معى إلى باب
العمارة، ولكنها لم تصعد بعد دقيقة. بل تركتنى معك نصف ساعة !

وابتسمت الأميرة وقالت :

ـ لعلها أرادت أن تمتحن قدرتى على الصمود !

قال عادل وقد تحولت قسمت شاهين لأول مرة في عينيه إلى امرأة جميلة :

ـ لعلها أرادت أن تمتحن قوتى في الهجوم !

قالت الأميرة :

ـ إنك أبرع مهاجم رأيته في حياتى !

قال عادل :

ـ تقصدين.. أفشل مهاجم ! إن القلعة لم تسقط !

قالت :

ـ قد يدهشك أن القلعة لم تصعد.. في لحظات كانت تتمنى أن تسقط في
يدى الغازى الفاتح ! ولكنك فضلت أن تسخر بالقلعة على أن تغزوها !

قال :

ـ أننى شعرت بأنك تحبين عمر فعلا ! رغبتى في الغزو تحولت فجأة إلى
رغبة في احترام صمودها ! تحولت من « غازى » إلى « حامى »، صياد يريد أن
يلقى شبابه إلى حارس يمنع صيد الأسماك ! إننى رأيت الحقيقة هنا.. في
غرفة النوم ! لم أتصور أن امرأة مثلك ممكن أن تحب من وراء الحدود،
ممكن أن تخلص لرجل تعرف جيدا أنه لن يعود.

كنت أعتقد أن الوسط الذي تعيشين فيه قضى على كل المبادئ، حطم كل القيم.. ولكنى فوجئت بحقيقة أذهلتنى. إن البيئة ليست هى التى تغير المرأة. قد نجد فاسقا فى دير، ونجد قديسة فى كباريه. إن شعورى الآن شعور الذهول لأننى وجدت قديسة تعيش فى كباريه !

قالت الأميرة : لست قديسة ! لست ملاكا ! إننى امرأة مخلوقة من نار. ولكن حبنى لعمر هو الذى غيرنى ! إنبنى لا أتمنع عنك بإرادتى. إننى أتمنع برغم إرادتى ! أحس بأن هذا الشاب الغريب علق فى جسدى قفلا، وأخذ مفتاحه معه.. وأتمنى أن أستعيد هذا المفتاح !

وفى بعض اللحظات وأنا معك تمنيت أن تفتح القفل، أن تنتزعه من مكانه أن تنقذنى من السجن الذى وضعت نفسى فيه. ولكنى كنت أعود لنفسى.. أجد لذة فى عذاب الصمود، أكثر من اللذة التى أجدها فى الاستسلام ! ليست البيئة هى التى تؤثر فى أخلاق المرأة الرجل هو بيئة المرأة. الرجل الذى تحبه يصبح بيئتها، حياتها، الهها، فلسفتها، وكل ما سواه هو موت وعدم. تصاب المرأة فى لحظات بفترة شك، كالشك الذى ينتاب العلماء فى محاولة للاعتراض على سلطة الدين، أو فى البحث عن دليل ملموس على وجود الخالق.. ثم لا تلبث المرأة أن تجد فى قبلة الرجل الذى تحبه، أو فى الالتصاق به، المعجزة التى تبحث عنها.. الدليل الذى لا يقبل جدلا ! وعندئذ تعود إلى الايمان برجلها من جديد أشد مما كانت .. المرأة عندما تحب حبا حقيقيا تحب رجلا لا تراه، كما يعبد المؤمنون إلها لم يروه ! يشعرون به فى كل ماحولهم فى داخلهم، فى كل مكان، يعرفون أنه يراهم أينما كانوا. يحاسبهم على هفواتهم، يكافئهم على حسناتهم.. هذا ما تشعر به المرأة التى تحب حبا حقيقيا.. رجلها بالنسبة إليها هو الهها الصغير !

ووقف عادل مبهوراً وهو يسمعها تتحدث. لم يتصور أنه من الممكن أن تخرج من فم مثل هذه الأميرة الجميلة هذه المعاني الجميلة ! لقد تعود أنه كلما كانت المرأة جميلة، كانت تافهة. كأن الله لا يعطى جمال العقل وجمال الجسم لفرد واحد. فمن أخذ قوام الغزال أخذ عقل الحمار، ومن نال قسمة الضبع نال معها حكمة الحية، وأحس بأنه يسمع كلمات جميلة من امرأة جميلة ! هل في استطاعة الأميرات أن يشترين الكلمات الغالية كما يشترين الفراء الفاخر، والأثواب الأنيقة، والمجوهرات الثمينة هل هذه كلماتها أم هي كنزات مستعارة كالرموش الصناعية والباروكة والكورسيه والسوتيان؟ هل هذه هي كلماتها أم هي كلمات عمر الفسلطينى، وضعها على شفقتها فراح تترددها كالبيغاء؟ وعجب عندما تأكد من حرارة الكلمات وهي تخرج من شفقتها، من لمعان عينيها، من تعبيرات وجهها، إنها كلمات تخرج فعلاً من قلب الأميرة الجميلة ..

وتضاعف جمال الأميرة في عينيه ! الرجل يفتن بالمرأة الجميلة من الخارج ولكنه يخن بالمرأة الجميلة من الخارج والداخل معا ! وأحس بحسرة أن كل هذا الجمال ليس له .. إنه ملك عمر.. الممنوع من دخول مصر!

وعجب عادل لسخرية القدر. المرأة التى فى فراشه لا يملكها.. وإنما يملكها رجل بعيد جداً لا يستطيع أن يطاءً بقدميه أرض البلد الذى تقيم فيه.. ولم يعد يكره عمر كما كان فى أول اللقاء لم يعد يغار منه، بل أحس بشيء يشبه الإعجاب.. لقد استطاع هذا الشاب من وراء الحدود أن يفعل كل هذا بالأميرة الفاتنة ! ولم يكن إعجاباً خالصاً، ولم يكن حسداً خالصاً، وإنما كان مزيجاً من الحسد والإعجاب.. ولكن كمية الإعجاب كانت أضعاف كمية الحسد.. ووجد نفسه يقول بغير تفكير:

— لقد قررت أن أغير موقفى منك ! قالت الأميرة مبتهجة :

— ستدعنى أذهب إلى الصالون ! قال عادل :

— كلا.. سوف أساعد عمر على الحضور إلى مصر !

وأرتمت على صدره تعانقه وتقبله والدموع تنهمر من عينيها.

وأبعدها وهو يقول : إبعدى عنى.. حتى لا أغير رأى !

* * *

تطلعت قسمت إلى الأميرة وهى تدخل مع عادل إلى الصالون اختفت النظارة الكبيرة السوداء فوق عينيها النظرة التى أطلت منها، نظرة المرأة التى لا تخطئ أبدا عندما ترى رجلا وامرأة خارجين من غرفة نوم مغلقة !

ولكن النظرة أخطأت هذه المرة. وكانت قسمت معذورة فى خطئها. كانت الأميرة تبدو سعيدة سعادة غريبة. كأنها قادمة من السماء ! وما فراش المرأة العاشقة إلا السماء التى تحلق فيها ! وكانت فى وجهها حمرة لا تظهر إلا نتيجة عصير الشفاه لخدود النساء. وكان فى عينيها ذلك البريق اللامع الذى هو علامة مؤكدة على أن ماء الحياة أسكر جسد المرأة كله !

وفهمت الأميرة من البسمة التى ملأت وجه قسمت ما أخفته النظارة السوداء، فقالت لها :

لا يمكن أن تتصورى، ماذا كنا نفعل أنا وعادل فى غرفة النوم ؟!

— قالت قسمت ساخرة :

— إننى أتصور أنكما كنتما تلعبان لعبة « البصرة » !

قال عادل :

– في لعبة البصرة تتطابق أوراق اللعب وأوراقنا لم تتطابق.

قالت ضاحكة :

لعلها لعبة « شلح » .. إنها لعبة يشلح فيها الرابع اللاعب الذي أمامه من كل أوراقه.

قال عادل :

– فعلا كنا نلعب لعبة « شلح » ولكن الذي يدهشك أن الأميرة هي التي ربحت اللعبة وجردتني من كل شيء !

قالت قسمت :

– يا لك من لاعب متواضع إن معلوماتي أنك خير من يجيد لعبة « شلح » في القاهرة !

قالت الأميرة :

– لقد صدقت يا قسمت عندما قلت لي أن عادل هو أنبل رجل في مصر !

قال عادل :

– هذه شهادة ضدي .. وليست لمصلحتي ! إن باش أغا قصر عابدين هو أظهر رجل فيها ! إننا دخلنا غرفة النوم وأنا زئزئ نساء، وهي الأميرة التي وقعت في شباكي .. وخرجنا من غرفة النوم وهي الأميرة التي نجت من الشباك .. أما أنا فقد أصبحت باش أغا قصر الأميرة !

قالت قسمت :

– لقد نصحت الأميرة بأن تصارك بكل شيء.. هذه أعظم خدمة قدمتها لك !

قال عادل :

– إنها أسوأ خدمة قدمتها لى.. ليتها ما صارحتنى بكل شيء !

قالت الأميرة محتجة :

– ولكنك قلت لى : إن مهمتك فى الحياة هى البحث عن الحقيقة، فلماذا تضيق عندما ترى الحقيقة ؟

قالت قسمت وهى تشعل سيجارة :

– هذه هى عادة الرجال، يطلبون من المرأة أن تقول لهم الحقيقة، كل الحقيقة.. فإذا أظهرت الحقيقة ندموا لأنهم عرفوها، وتمنوا لو أنها استمرت تكذب عليهم وتخدعهم !

قالت الأميرة :

– الحقيقة بشعة ! إنها صورة بالأشعة ! تصورى لو نشرت الصحف صورة جسدى بالأشعة وقالت هذه هى آخر صورة للأميرة فلانة.. سوف ينسى الناس صورتى الفوتوغرافية التى تنشر على الصفحات الأولى، ولا يذكرون إلا صورة هيكلى العظمى !

قال عادل :

– كنت على استعداد لأن أحب صورتك بالأشعة.. لولا « الحُصاة » التى رأيتها فى قلبك !

قالت الأميرة وهي تضحك :

– هل تسمى عمر حصاة؟!

قالت قسمت:

– إنه ليس حصاة إنه سرطان!

قالت الأميرة:

– ولمكنه سرطان لذيد

قالت قسمت:

قالت قسمت:

– قلت لك ألف مرة: إننى لا أوافق على هذه العلاقة.

قالت الأميرة:

– أنت لا توافقين على أى علاقة بين أى رجل وأية امرأة!

قالت قسمت فى حماس:

– لماذا لا تقولين الحقيقة كلها!

لقد قلت لك إن الرجل الوحيد الذى يصلح لك هو عادل علاء الدين ! إنه الرجل الوحيد الكامل فى عالم من الناقصين.. إنه العملاق فى دنيا الأقزام. إنه الملاك فى دولة الشياطين ولم يصدق عادل أذنيه وهو يسمع قسمت التى لا يعجبها العجب تغمره بهذه الصفات والنعوت، فقاطعها قائلاً :

– هل أنت مريضة يا قسمت؟! لقد كنت أعتقد أنك عدوة كل الرجال! وكنت أسمع أنك تنصحين كل صديقة لى بأن تقطع علاقتها بى!

قالت قسمت وقد احمر وجهها وكلماتها ترتعش خجلى فوق شفيتها:

— كنت أعتقد يا عادل أن كل واحدة منهم غير جديرة بك !

قالت الأميرة :

— أشكرك يا قسمت، معنى ذلك أنني المرأة الوحيدة الجديرة بعادل ..
كأننى أحسن منهم جميعا !

قالت قسمت :

— إنك أقل منهم سوءا !

وأطفأ عادل سيجارته وقال :

— إننى اقتنعت بأن الأميرة تحب عمر، وقد وعدتها بأن أقف بجوارها
وسوف أساعدها. إننى احترم المرأة التى تخلص هذا الاخلاص للرجل
الذى أحبته. إننى لا أخطف الزوجات السعيدات، بل أخطف الزوجات
الشقيات لأحولهن إلى سعيدات، أخطف المحرومات من الحب لأذيقهن
حلاوة الحب.

قالت قسمت :

— ولكنها لا تحبه ! إن بيننا نحن النساء من تحب العذاب.. من تجد لذة
فى أن تذرف الدموع.. طعم الدموع فى شفاهنا أذ من طعم القبلات.. إنها
لا تحب إلا الرجل البعيد.. الرجل الغائب.. الرجل المستحيل.. فإذا اقترب
الرجل زهدته، وإذا عاد كرهته.. وإذا أصبح ممكنا.. نسيته !

قالت الأميرة :

— هل تصدقين أنه لو كان عمر فى القاهرة وليس فى القدس، لما أحببته
كل هذا الحب.

قالت قسمت :

– نعم ! إننى أتصور أنه إذا نجحت محاولات عادل لادخال عمر إلى القاهرة فسوف يموت هذا الحب الذى لا يشعله إلا الحرمان !

وسكنت قليلا ثم نظرت إلى عادل وقالت :

– ربما كان عادل علاء الدين أخبث مما تتصورين ! ربما كان يفهمك كما أفهمك، ولهذا قرر أن يبذل المستحيل ليجىء بعمر إلى القاهرة وبذلك يطفى الشوق الذى يملأ قلبك !

واحتج عادل قائلا :

– إنك لا تزالين عدوة الرجال ! منذ دقائق قلدتنى وسام النبل والشهامة، ويظهر أنك استكثرت على هذا الوسام.. فأسرعت تنزعينه من فوق صدرى، وتعديننى سافلا كباقي الرجال !

وتأملته قسمت طويلا ثم قالت :

– أنت على حق ! إنك وأنت رجل نبيل تبدو ثقيل الدم، كأنك تمثال.. إننى أفضل أن تحتفظ ببعض سفالة الرجل لتبقى خفيف الدم، لتتحول من حجر إلى لحم ودم !

– قال عادل :

– إذن أنت تعرفين أن سفالتنا نحن الرجال هى ترجمة لكلمة الحيوية فىنا ! أعداء الرجال يسمونها «سفالة».. وأصدقاء الرجال يسمونها «جاذبية» ! اختلاف النظرة هى التى تؤدى لاختلاف المعنى.. عندما ترى امرأتان نظرة شبق فى عيني رجل، تقول المرأة التى لا تحبه إنها نظرة سافلة، وتقول المرأة التى تعشقه إنها نظرة لذيذة. والنظرة واحدة فى

الحالتين. ولكن المرأة الأولى تجهل لغة الرجل والمرأة الثانية تفهمها!

قالت قسمت :

— أنا أجيد فهم كل لغات الرجال!

الحيوان فيهم هو الذى يتكلم دائما.

قال عادل :

— هذا يتوقف على نوع الجزء من جسدنا الذى يلتقط الكلمات ! ليست أذاننا وحدها هى التى تسمع ! إن عيوننا أحيانا تسمع خيرا من أذاننا ! وعندما تحب المرأة رجلا، لا تسمعه بأذنها فقط، إنما تسمعه بقلبها، بعينيها، برأسها، بجسدها كله.. ولهذا تسمع الكلمات أوضح كثيرا مما تسمعه بأذنيها.. وعندما لا تحب المرأة تصاب بالصمم فى كل مكان من جسدها، فلا تسمع الكلمة على حقيقتها. وتصاب بالغنى فلا ترى النظرة على حقيقتها. وتصاب بفقدان الاحساس فلا تشعر أصابعها بالحرارة وهى تلمس أصابع الرجل. وتفقد حاسة الذوق فلا تحس بحلاوة القبله فى شفثيها! الحب له حواس خمس غير الحواس الخمس التى خلقنا بها، حاسة البصر، وحاسة الشم، وحاسة اللمس، وحاسة السمع وحاسة الذوق تتحول إلى حواس جديدة، بقدرات جديدة. ولا يشعر بهذه الحواس إلا من عرف الحب الحقيقى !

قالت قسمت :

— هل تعتقد أننى فقدت هذه الحواس الخمس؟

قال عادل :

— إن هذه الحواس موجودة فى كل امرأة.. والذنب ليس ذنبها إذا لم

تتحرك هذه الحواس.. إنما هو ذنب الرجل الذى لم يعرف كيف يحرك هذه الحواس.

قالت قسمت :

— لقد وجدت أخيرا الرجل الذى حرك حواسي الخمس.

قال عادل :

— مادمت وجدت الرجل.. فإن المعجزة قد حدثت !

قالت قسمت :

— إن المعجزة لم تحدث بعد.. صحيح أننى وجدت الرجل، ولكن هذا الرجل لم يجدنى !

قال عادل فى دهشة :

— كيف لم يجدك ؟

قالت فى تلعثم :

— لأنه.. لأنه أعمى !

* * *

وكانت الأميرة تسمع الحوار دون أن تفهمه. وأحست فجأة بأن عادل وقسمت نسيا أنها موجودة فى الغرفة..

وبدأت تشك فى مغزى هذا الحوار.. وخيل إليها أن قسمت لم تجئ إلى الشقة لتطفئ حريق الأميرة.. وإنما جاءت لتشعل حريقها هى !

ولم تصدق أن من الممكن أن يخطر ببال امرأة قبيحة الخلقة.. مهلهلة

الثياب، مهوشة الشعر، أن تلفت نظر عادل...

وشعرت برغبة غريبة جديدة. كأنها تدخل في منافسة مع قسمت لتظفر بقلب عادل.. هذا القلب الذي لم يهزمها حتى وهى وحدها معه فى غرفة النوم..

ولكنها عندما وجدت أمامها غريمة.. أية غريمة.. أحست بحلاوة الزهرة التى تجاهلتها.. وأحست برغبة فى أن تمد يدها وتلتقط الزهرة عندما رأت يدا أخرى تمتد إليها.

وقررت أن تتدخل فى الحديث فقالت :

– الرجل لا يصاب بالعمى.. إلا عندما يرى امرأة لا يستطيع أن يحبها !

قالت قسمت، وكأنها تدافع عن طفل ولد فجأة فى قلبها :

– الرجل الذى أحببته.. مصاب بعمى الألوان، بعض الناس لا يفرقون بين الألوان، الأخضر كالأزرق فى عيونهم، الأحمر كالأصفر.. ولكننى أعتقد أنه مرض مؤقت يمكن أن يشفى صاحبه منه !

قالت الأميرة تتحداها :

– إنه مرض مستديم كالعامة المستديمة !

وصمتت قسمت. امتلأ قلبها باليأس، كأنها اقتنعت بأن مرض الرجل الذى أحبته غير قابل للشفاء. سيبقى أعمى. لا يراها على حقيقتها.. لأنه عاجز عن أن يميز بين الألوان.

وفجأة تكلم عادل. وأحست قسمت وهى تسمعه برعدة فى جسدها، كأنها

تسمع موسيقى لذيذة، الموسيقى التى عاشت تحلم بأن تسمعها فى يوم من الأيام.

وسمعه بأذنيها، وبعينيه، ويقلبها، ويجسدها..

قال عادل :

– إننى أشعر بشعور غريب.. يخل إلى أن المعجزة قد حدثت.. أصبحت لأول مرة فى حياتى أميز بين الألوان.. لا أعرف كيف حدثت هذه المعجزة.. لعلها حدثت عندما عرفت الحقيقة فى غرفة النوم.. لا.. إنها لم تحدث فى غرفة النوم.. إنها حدثت عندما رأيت الحقيقة وهى تدق بابى فى عنف وإصرار!

الفصل السابع

دخلت قسمت قصر والدها شاهين باشا عبد اللطيف، بحى جاردن سیتی في القاهرة. وصعدت درجات السلم الرخامی العريض بخطوات سريعة كأنها تعدو من جندی بوليس يحاول الامساك بها. لا شيء في مظهرها المسكين، ولا في ثيابها الباهتة. ولا في حذائها المعفر بالتراب، يدل على أنها ابنة صاحب هذا القصر الكبير ووحيدته. الذى يراها في تلك اللحظة يحسبها خادمة في القصر، ويأسف لبخل أصحاب القصر الذين لا يشترون ثيابا لائقة للخدمات اللاتى يعملن في هذا القصر الفخم!

وهول السفرجى ياسين.. بقامته الفارعة التى تشبه الرمح.. وببشرته السوداء اللامعة. وبعينيه النفاذتين كعينى الصقر. ويقفطانه الأزرق الفضفاض المزركش بالذهب. ويعمامته البيضاء المكورة.. هرول إلى الباب الحديدى المغطى بالزجاج يفتحه وينحنى بأدب واحترام لسيدة القصر الصغيرة.

ولم تلتفت قسمت لتحيته، ولم ترد عليه، بل بادرت بقولها:

— هل سأل أحد عنى؟

وأجاب ياسين بصوت خفيض يفيض مرارة إن أحدا لم يسأل!

وأحنت قسمت رأسها فى أسى وأبطأت فى مشيتها. واتجهت إلى الة

التليفون الموضوعة على مائدة في الردهة الواسعة. ورفعت السماعة. ووضعتها على أذنها. كأنها تتصور أن الحرارة انقطعت من التليفون. وكأنها كانت تبحث عن عذر للتليفون الذي لم يسأل عنها.. ووجدت الحرارة في التليفون، وزادت المرارة في قسماتها وأعادت السماعة إلى مكانها. وحملت آلة التليفون معها. وصعدت بها إلى غرفتها في الطابق العلوى، وأغلقت الباب.

وهز ياسين رأسه في عجب.. إنه يعمل في هذا البيت منذ عشرين عاما.. مذ كانت قسمت طفلة في الخامسة من عمرها. ولم يحدث مرة واحدة أن سأله قسمت: هل سأل أحد عنى؟ كان لا يهتمها أبدا إذا سأل الناس عنها أو لم يسألوا، بل لعلها كانت تفضل أن ينساها الناس ولا يسألوا عنها. ولكنها في الأيام الأخيرة تكرر هذا السؤال نفسه عدة مرات كل يوم.. إذا دخلت الحمام في الصباح وخرجت منه بعد لحظات تسأل ياسين: هل سأل عنى أحد؟ وتطرح هذا السؤال نفسه عندما تعود من ملجأ المتشردين بعد الظهر. ثم تسأل السؤال نفسه عند عودتها إلى البيت في المساء!

وإذا حدث أن دق جرس التليفون في الطابق الأول، وهى في الطابق العلوى، قفزت درجات السلم لتكون أول من يرد على رنين التليفون.. ثم أصبحت بعد ذلك تأخذ التليفون معها إلى غرفة النوم، وتصحبه معها إلى الحمام، وتضعه بجوارها وهى تتناول طعام الافطار!

وفي الأيام الأخيرة تغيرت قسمت التى كان يعرفها ياسين. لم تعد الطفلة التى كان يحملها على كتفيه ويلاعبها ويضاحكها. اختفت ابتسامتها الساخرة. التى كانت تسخر من كل شيء حتى من نفسها! كانت في الماضى لا تكاد ترى ياسين حتى تحييه بابتسامة جميلة. ثم تسأله عن صحته، كانت

تستفسر عن صحته ثلاث وأربع مرات في اليوم. وفي الأيام الأخيرة لم تعد تستفسر عن صحته. لا تستفسر عن شيء إلا عن أن أحدا سأل عنها في التليفون. ولم تعد تمد يدها لمصافحة ياسين. وإنما تمد يدها دائما إلى آلة التليفون، وتحملها معها إلى غرفة نومها وتغلق الباب!

وشعر ياسين بالاشفاق على قسمت. التليفون الذي تنتظره لا يدق أبدا. لابد أنها تنتظر رجلا، أي رجل ممكن أن يطلب سيده الصغيرة التي تبدو أشبه بالمتشردات؟ لقد لاحظ دائما في المآذب والحفلات الكثيرة التي يقيمها الباشا في القصر أن الشبان ينفرون من الحديث معها. ويتفادون الجلوس بجوارها، وهي تبادلهم نفس العداء. تهرب منهم ويهربون منها، تكرهمهم ويمقتونها، تنقلب سحنتها كلما رأت رجلا، ينطفئ وجهها، تختفى البسمة من شفتيها، سعادتها في أن تبدو دائما كالخرقة المهلهلة، بشعر باهت مهترئ، بوجه عابس مقطب، بنظارة سوداء كبيرة تزيد وجهها اكفهرارا.

وكثيرا ما لاحظ ياسين أن قسمت كانت تنسى نفسها، فتبدو في داخل القصر مقبولة بعض الشيء. في ثوب بسيط يناسب لون بشرتها السمراء. فإذا علمت أن والدها جاء بضيوف من الرجال لتناول الطعام في البيت، تسرع مهرولة إلى غرفتها، لا للتزين كما تفعل كل النساء في مثل هذه المناسبات، وإنما لتنكش شعرها في المرأة، وترتدي ثوبا أكثر هلهلة من الثوب الذي كانت ترتديه في أول الأمر، فإذا أرادت أن تغادر البيت حرصت على أن تقف في المرأة، لتخفي الجميل منها. وتبرز القبيح فيها، كأنها تخشى أن يعجب بها رجل. أو تستلفت نظر شاب!

وكان ياسين يرجع هذا الحرص إلى حشمة سيده ووقارها، وكراهيتها لمجارية فجور النساء في هذه الأيام وزينتهن الفاضحة. وكان يشبه قسمت

بنساء بلاده في النوبة اللاتي يرفضن أن يرى الرجال الأغراب فتنتهن وحسنهن وجمالهن الخلاب. فإذا أرادت واحدة منهن الخروج من دارها، تعمدت أن تخفى جمالها ورث قتها وأناقتها خلف حجاب أسود سميك. خبأت قوامها السمهرى في ثوب أسود فضفاض فتبدو أشبه ببالة القسطن عندما يسقط فوقها الماء والتراب، وبذلك تضمن المرأة النوبية أنها لا تثير في الرجل الحيوان فيه، وإنما تثير فيه الزهد والتقوى والصلاح !

ولكن الذى كان يستوقف نظر ياسين أن قسمت لم تكن تخجل من الرجال، ولم تكن تتحشم في الحديث معهم. بل كانت تنفر منهم، وتنتهز كل مناسبة لتسخر منهم وتلعنهم، وكثيرا ما كانت تنعتهم بالكلاب وبالدئاب وبالبالسة وبالشياطين. وكان يسائل نفسه ما الذى جعل قسمت تنفر من الرجال كل هذا النفور؟ وما الذى فعله الرجال حتى تكرههم قسمت هذه الكراهية التى سمعها تعبر عنها لصديقاتها. وهو يدير عليهن الاطباق في مآذب الغداء والعشاء؟

* * *

وقد حدث مرة أن قالت قسمت له :

— إن عيبك الوحيد يا ياسين أنك رجل ! ولو أنك كنت امرأة لأحببتك أكثر مما أحبك الآن ألف مرة !

واستعاذ ياسين من الشيطان الرجيم. وكاد طبق الفاكهة يسقط من يده عندما قالت له قسمت :

— إنهم يجرون الآن عمليات جراحية لتحويل الرجال إلى نساء.. فما رأيك لو أننى أجرى لك هذه العملية على حسابى ؟!

وذعر ياسين من عرضها هذا وتصور في أول الأمر أنها جادة فيما تقول. وكاد يستقيل من خدمة الباشا، خشية أن تخدره ست قسمت.. وتنقله إلى المستشفى، ويجرى به الأطباء هذه العملية، ثم يستيقظ في الصباح فيجد نفسه امرأة!

وليلتها لم ينام ياسين. أقفل باب غرفته طوال الليل بالمفتاح يحرس رجولته إلى الصباح..

ثم عرف أن ست قسمت كانت تداعبه.. وعندئذ اطمأن إلى أنه لن يصبح امرأة، واستمر في خدمة الباشا!

وتذكر ياسين أنه دخل في خدمة الباشا بعد وفاة زوجته بخمسة أعوام. ولم يسمع من الخدم الذين سبقوه أن أم قسمت كانت تكره الرجال، أو كانت تهمل مظهرها. صورها الفوتوغرافية المعلقة فوق جدران البيت تشير بوضوح إلى أنها كانت امرأة جميلة، وكانت أنيقة في اختيار ملابسها، وفي تصفيف شعرها الطويل، وفي ثيابها المزركشة.

إن الصورة الملونة المعلقة للمرحومة في الصالون تظهر عينيها الواسعتين الجميلتين غارقتين في هالة ملونة بألوان قوس قزح، فيها نظرة حلوة كأنها تنتظر حبيباً مجهولاً. طبقة خفيفة من الظلال تغطي جفنها الأعلى، كأنها ستار الواقع ينسدل على أجمل الأحلام.. شففتها ورديتان فيهما لمعان خافت كأنها تهمس بكلمات الهوى في أذن ذلك الحبيب المجهول. لن يصدق أحد أن هذه المرأة الجميلة الأنيقة هي أم قسمت. إن عيني أم قسمت في الصورة تناديان الرجال، كل الرجال ونظارة قسمت السوداء تطرد الرجال، كل الرجال!

تري من أين ورثت قسمت إذن كراهية الرجال؟

لا يمكن أن يكون شاهين باشا هو الذى جعل ابنته تكره الرجال.

إن ياسين يذكر كيف يدلل الباشا قسمت، ويهتم بها اهتماما كبيرا ويحرص على راحتها، حتى إنه أبى أن يتزوج بعد وفاة أمها، حتى لا يجرى إلى البيت بزوجة أب تعكر على قسمت حياتها، وتعتمد الأب أن تكون حياته الخاصة بعيدة عن البيت، حتى لا يجرح شعير ابنته أو يثير غيرتها. فالأب لم يظهر لقسمت إلا صورته كرجل وفى لذكرى أمها، لا يخونها حية ويتظاهر أنه لا يخونها ميتة. والمفروض أن تشب الابنة وهى تتصور أن كل الرجال على مثال أبيها، فكيف تحب قسمت أباه، وتكره جميع الرجال؟

وكثيرا ما سمع ياسين سعادة الباشا وهو يلوم قسمت على إهمالها لمظهرها، ويؤنبها على الأثواب الغريبة التى تختارها، ويوبخها على زهداها فى ارتداء الفساتين الأنيقة الغالية التى اشتراها لها من أكبر محلات الأزياء، فى رحلاته السنوية إلى روما ولندن وباريس.

وكم من المرات سمع الباشا يقول لقسمت إنه يجب أن تذهب إلى الحلاق ليصفف شعرها المهوش، أو ينصحها بضرورة تغيير نظارتها السوداء الكبيرة الكئيبة بنظارة أخرى. فكانت قسمت تجلس أمام أبيها تسمع نصائحه صامته، لا تعترض، ولا ترد كلمة واحدة، كأن الأمر لا يعنيه، أو كأن الباشا يوجه نصائحه إلى السفرجى ياسين بأن يذهب هو إلى حلاق السيدات!

مرة واحدة يذكرها ياسين، سمع قسمت تناقش والدها، وكان ذلك على مائدة الغداء، وكان الباشا يشرب حساء الطماطم.. وفجأة وضع الملعقة فى الطبق. والتفت إلى قسمت غاضبا وقال:

— لقد بح صوتى معك بلا فائدة ! إننى أصبحت أخجل من أن أظهر بجوارك في مكان عام، إننى أتصور أن كل الناس تشير إلى بأصابعهم ويقول هذا هو الأب الذى يبخل على ابنته بثوب جميل أو يدفع مصاريف ذهبها للحلاق، أو بشراء حذاء جديد لها. هذا الباشا الذى يركب سيارة كاديلاك ويترك ابنته الوحيدة تمشى كالمتشردات. ما دمت تصرين على أن تظهرى دائما بهذه الصورة البشعة فإن رجلا واحدا لن يتقدم إلى الزواج بك..

وقالت قسمت وهى مستمرة فى شرب حساء الطماطم :

— من قال لك إننى أريد أن أتزوج ؟

قال الباشا ثائرا :

— كل بنت فى سنك يجب أن تتزوج !

قالت له فى هدوء :

— ولكننى لا أريد أن أتزوج.

واهتزت شوارب الباشا سخطا وقال :

— لابد أنك مجنونة لأنك لا تريدين أن تتزوجى !

قالت قسمت : أعتقد أن المرأة المجنونة هى التى تتزوج !

قال الباشا : هل كانت أمك مجنونة عندما تزوجتنى ؟!

قالت باسمه : لو أنها سألتنى رأى لنصحتها ألا تتزوج ! ومن حسن

حظك أننى لم أكن موجودة وقتئذ !

ورمى الباشا الفوطة فوق المائدة، ولم يكمل تناول الطعام، وخرج من

الغرفة وهو يقول :

— إن رجلا واحدا لا يمكن أن يتقدم.. ويطلب يدك. وأنت في هذا المظهر المزرى!

وابتسمت قسمت ساخرة، واستمرت في تناول أصناف الطعام!

ولكن نبوءة الباشا أن أحدا لم يتقدم لخطبة قسمت لم تصدق.. فإن الكثيرين كانوا يتقدمون ويطلبون يدها..

وكان ياسين يعلم أن هؤلاء العرسان لا يطلبون قسمت، وإنما يطلبون نصيبهم في المائتي فدان التي يملكها الباشا. وكانت هذه الأرض من أجود مزارع الفاكهة في مصر، وكانت تدر على الباشا إيرادا صافيا يقدر بعشرات الألوف!

وكثيرا ما راقب ياسين وجوه الشباب الذين يترددون على القصر طالبين الزواج من الست الصغيرة، فيجد أنهم يحملقون في الأثاث الفاخر.. ويحملقون في اللوحات الزيتية الثمينة، ويدققون النظر في التماثيل المصنوعة من الجاد النفيس. ولا يحملقون في وجه قسمت. فهم جاءوا للزواج من القصر، لا من صاحبة القصر!

أما قسمت فقد كانت هي التي تحملق في وجوههم بلا خجل، بل بكل وقاحة، وتنظر إليهم من فوق إلى تحت، ومن تحت إلى فوق. وتتأملهم باهتمام غريب، وكانت تقول للسفرجي ياسين عقب انصرافهم إنها كانت تقارن بينهم وبين المتسولين الذين تجمعهم من شوارع القاهرة وأزقتها، للاقامة في الملجأ الذي تديره. وهي تحس بأنهم لا يفترقون كثيرا عن هؤلاء المتسولين شيئا، سوى أن المتسول العادي يتسول قرشا، وهذا الشاب الانيق جاء يتسول المائتي فدان التي تزرع فيها ثمرة المانجو!

وكما أن المتسولة تشحذ طفلاً لتشحذ به، فكذلك العريس يشحذ أحداً
أصدقاء الباشا ليوسطه.. وكما أن الشحاذ يعرض عاهته على المحسنين،
فالعريس يعرض خفة دمه على قسمت.

وكانت قسمت لا تقول أبداً للعrsan «لا» إنها تستطيع أن تقسم أنها لم
ترفض عريسا في يوم من الأيام، كان كل ما تفعله أن تتفنن في إظهار قبح
خلقتها، وفي اختيار أسوأ ثوب يناسبها، وفي العبث بشعرها..

فإذا لم يستطع كل هذا إقناع العريس بالهروب، لجأت إلى سلاحها
السرى الذى أثبت أنه سلاح بتار. فتحدثت عن اهتمامها بملجأ المتسولين،
وأنها تنوى عندما تترث والدها - بعد عمر طويل - أن تهب المائتي فدان
المزروعة مانجو إلى ملجأ المتسولين للانفاق عليه.. أما القصر فسوف يكون
مقرا للملجأ.. وأنه من الحماسة أن يعيش رجل وامرأة في مثل هذا القصر
الضخم الذى يصلح لمائتين وخمسين متسولا!

وما يكاد العريس يسمع هذا القرار الغريب، حتى يخرج من القصر،
ولا يعود أبداً!

ويدهش الباشا أن العريس لا يعود.. أما قسمت فلا تدهش أبداً!

عادت لذاكرة ياسين كل هذه الأحداث.. وهو يحاول أن يجد حلا للفرز
الذى يحيره منذ بضعة أيام.. وهو لماذا أصبحت قسمت تكرر جملة «هل
سأل عنى أحد»؟!

هل غيرت قسمت رأيها في الرجال؟

هل عدلت عن التبرع بالقصر والمائتي فدان لملجأ المتسولين؟

ترى من يكون هذا الرجل الذى استطاع أن يجعل قلب قسمت الميست

يبحث على قيد الحياة.. ويدق... في انتظار دقة تليفون...؟

ولماذا لا يريحها هذا الرجل المجهول. ويدق لها التليفون؟!

كانت قسمت في نفس الوقت جالسة في غرفة نومها. أمام التليفون الصامت، تفكر في نفس الأسئلة التي تشغل رأس السفرجى ياسين. ولكنها كانت تفكر بطريقة أخرى وب عقلية أخرى تختلف عن عقلية ياسين.

إنها ليست المرة الأولى التي تحب فيها رجلاً!

لقد أحببت عدة رجال. وكلما رأت واحداً منهم توهمت أنه حبها الأول والأخير. ثم لا تلبث أن تكره الرجل الذي أحبته، وتكره من أجله جميع الرجال. إلى أن تحب رجلاً جديداً!

ومصيبتها أنها لا تحب الرجل العادي، إنها لا تحب إلا فائن النساء.. الرجل الذي تتراعى النساء تحت قدميه. الفارس الذي يعرف كيف يغزو قلب المرأة. إنها تتمنى كل دونجوان، وكل كازانوفا، وكل فالنتينو، وكل زئير نساء في العالم!

وهي تعرف الزحام الذي حول كل واحد منهم. تعرف أن هؤلاء الغزاة من الرجال أشبه بالأفلام الناجحة في السينما، يجب أن تقف النساء في طوابير طويلة، حتى يجيء لكل واحدة منهن دورها في الدخول!

وهي لا تريد أن تقف في الطابور، تمقت الانتظار. تحلم بأن تسحق زئير النساء بلفتة واحدة كما يسحقها. أن تنقض عليه كما ينقض عليها. أن تخطفه من كل النساء كما يخطفها من كل الرجال. وهي في الوقت نفسه لا تستطيع أن تدفع ثمن تذكرة الدخول إلى الفيلم الناجح. إنها لا تريد

مقعدا واحدا، هي تريد الصلاة بأكملها. لا تريد أن تتفرج على الفيلم مرة واحدة، وإنما تريد أن تحتكر الفيلم لها وحدها، تعرضه كلما شئت في عرض خاص، بلا منافس ولا شريك!

وعيب زئير النساء أنه أشبه بالحدائق العامة، من حق كل امرأة أن تدخلها. حدائق بلا أبواب ولا حراس.. فهو يعتبر نفسه من الممتلكات العامة التي لا يجوز أن يملكها فرد. كالميادين العامة والطرق العامة ونهر النيل. وقسمت تريد الحديقة لنفسها، والميدان لنفسها، والطريق لنفسها، ونهر النيل لها وحدها. لا يشرب منه سواها، ولا يسبح فيه أحد غيرها، ولا تغرق فيه امرأة خلافا!

ولهذا أصبحت تكره كل الرجال لأنها تكره كل شيء عام!

وكان أكثر ما يخنقها أن كل رجل اهتمت به لم يشعر بها، ولم يحس بوجودها، ولم يترك لها الفرصة لتقول «لا»!

إن المرأة عندما تجلس وحدها تفكر أحيانا في عدد المرات التي قالت فيها «لا» في حياتها! وتستعرض قصة «لا» أمامها كأنها تستعرض مجوهراتها.. تتلذذ وهي تقلب «لا» بين يديها.. تارة تتمنى لو قالت «نعم»، وتارة تحمد الله لأنها قالت «لا»، تماما كما تجرب مجوهراتها أمام المرأة، إنه الشعور العجيب اللذيذ الذي يحس به الانسان عندما يزاوّل حقه في الاختيار. حقه في أن يقول «لا» وحقه في أن يقول «نعم». شعور لا يحس بحلاوته إلا هؤلاء المحرومون من حقهم في أن يقولوا «لا»!

«لا» كلمة من حرفين. ولكنها تطرب من قولها كأنها سيمفونية من أربع حركات! لا قاطعة ولا مترددة ولا بمعنى (نعم) ولا بمعنى (الرفض)، ولها دائما إيقاع عذب في أذن قائلها، كأنها تذكره بأنه حر. فالعبيد وحدهم هم

الذين لا يستطيعون أن يقولوا «لا» المكمة أفواههم. المغلوبون على أمرهم، كل هؤلاء محرم عليهم أن ينطقوا بالكلمة التي هي شعار الأحرار وحدهم!

وكانت قسمت حرة ولا تستطيع أن تقول «لا»! كل الرجال الذين تمنيتهم وحلمت بهم وعشقتهم في خيالها لم يعطوا لها لذة أن تقول لهم «لا». كانوا هم الذين يقولونها لها! يقولونها لها بأهمالهم إياها. بعدم شعورهم بوجودها كأنهم أخرجوها من حساب النساء. وجعلوها فوق مستوى شهواتهم وأطماعهم.

ولهذا أحست قسمت برغبة في أن تقول «لا» لكل شيء. ما دامت لا تستطيع أن تقول «لا» للرجل الذي تهواه.. وبدلاً من أن تلفت الرجل بأناقته أرادت أن تتحداه برفض الموضة، فإذا كان الرجل يحب المرأة الجميلة فلتكن قبيحة، وإذا كان يحب العينين الساحرتين فسوف تضع فوقهما نظارة كبيرة سوداء، وإذا كان يهوى المرأة التي تتغزل فيه، فهي تلعن كل الرجال!

وأقنعت قسمت نفسها بأنها بهذه الطريقة حمت نفسها من السقوط بين أيدي الرجال، وأنها بنت بينها وبينهم سدا منيعاً. وأرضت بذلك كبرياءها بعض الشيء. بأن تصرفاتها هذه هي كلمة «لا» تقولها بلغات مختلفة! وبأنها هي التي بدأت بكلمة «لا».. وليس الرجال هم الذين بدأوا بها!

ولكنها في لحظات كثيرة من حياتها قالت «نعم» قالتها بصوت عال.. صرخت بها.. ولم يسمعها الرجال الذين تمنيت أن يسمعوها. ربما لأن مظهرها الخشن يخفى المرأة الناعمة فيها. ربما لأن ثوبها المهلهل يخبئ قوامها الممشوق. ربما لأن نظارتها السوداء تغطي الأنثى التي تملأ عينيها،

وكلما قررت أن تعرى نفسها للرجل الذى أعجبها لا تجد الرجل أمامها..
كأنها تصل فى كل مرة إلى محطة الاستسلام بعد أن يتحرك القطار!

لعل السبب فى هذا أن زئى النساء الذى تختاره لا وقت عنده للانتظار..
إنه أشبه بقطار الديزل السريع الذى لا يقف إلا فى المحطات الكبيرة،
والمحطة الكبيرة بالنسبة إلى زئى النساء، هى ملكة جمال أو غانية مشهورة
أو ممثلة معروفة. وقسمت ليست واحدة من هؤلاء. إنها فتاة عادية. ليست
رائعة الجمال. ليست مثيرة للرجال، تعتقد أن فتنتها فى داخلها، فى الأنثى
فيها، تحت جلدها، فى أعماقها.. وكل هذه الصفات لا يراها صيادو النساء
المتعجلون الذين يكتفون بأن يلقوا نظرة سريعة على اسم المحطة.. باعتبار
أن وجه كل امرأة هو اسم محطتها، ولا يفكرون لحظة فى أن يحاولوا أن
يعرفوا ما خلف اسم المحطة المجهولة.. قد يكون فيها كنز. قد تكون فيها
ثروة من الجمال، قد تكون فيها طبيعة رائعة. كل هذا لا يهم الرجال الذين
لا يهمهم إلا وجوه النساء.. أى أسماء المحطات!

ولهذا كانت قسمت تترك اسم المحطة بغير طلاء، مكتوباً بحروف قبيحة،
مثيرة للشفقة أو للاشمئزاز.. كأنها بذلك تحتج على كل الرجال الذين
لا يجدون وقتاً للوقوف فى محطتها!

وقد مر أمامها عادل علاء الدين ذهاباً وإياباً. لم يتوقف مرة أمامها.
المرة الوحيدة التى وقف أمام محطتها لم يكن يقصدها... وإنما كان يتوقف
لتركب الأميرة الفاتنة. وقد رضيت قسمت لنفسها هذا الهوان.. أن تصحب
عادل إلى مائدة الأميرة فى حفلة الأميرة شويكار. وتجلس تشهد غزلاً صامتاً
بين الأميرة وعادل. ثم تقنع الأميرة بأن تذهب لزيارة عادل فى شقيقته، وتجلس
وحدها فى الصالون، بينما كان عادل والأميرة فى غرفة النوم.

رضيت بهوان أن تكون وصيفة في قلب الملك الذي تحبه، بدلا من أن تكون ملكة هذا القلب. رضيت بأن ترتب الفراش الذي سينام عليه معبودها مع امرأة أخرى. رضيت بأن تقف في شمس الحرمان المحرقة بينما الأميرة تستمتع بظل إعجاب عادل وهيامه !

ثم حدثت المفاجأة التي لم تتوقعها. .. أصيبت فجأة بشجاعة لم تشعر بها في يوم من الأيام. وانتهزت جلوسها مع الأميرة وعادل في شقته وصارحته بأنها تريده ! لم تخجل أن تقول هذا أمام الأميرة. لم تخف أن تغضبها. كانت تعلم في قرارة نفسها أن الأميرة تحب عمر الفلسطيني، ولكنها كانت تعلم أن الأميرة لا تمانع في أن تجعل عادل « العاشق الاحتياطي ». النساء الفاتنات أشبه بالسيارات الفخمة تحتفظ دائما بعجلة أو أكثر على سبيل الاحتياط، وتفضل أن تكون العجلة الاحتياطي جديدة! ..

ومع ذلك لم تأبه قسمت بمشاعر الأميرة التي تفهمها جيدا. وانقضت على عادل لتنتزعه لنفسها من أنياب الأسد !

ولم تفكر قسمت في تلك اللحظة في قوة أسلحة منافستها وفي ضعفها ! نسيت أن الأميرة فاتنة وهي قبيحة الخلقة. نسيت أنها مثيرة وهي منفرة. نسيت أنها أنيقة وهي رثة الثياب. نسيت أن عادل مفتون بالأميرة، وأنه فجع عندما رأى وجه قسمت عند الباب !

نسيت كل هذا ووجدت نفسها تنظر إلى عادل في حب ولهفة وعبادة. واعتقدت أن نظارتها السوداء تخفى مشاعرها عن عادل.. وأنه لا يرى النار التي التهب فيها فجأة.

ثم فوجئت بعادل يحس بها. كأنه شم رائحة « الشياطين » فيها، كأن جسدها وهو يلتهب، أخرج هذه الرائحة التي ملأت أنف عادل، فجعله يقول

كلاما فهمت منه أنه أصبح يحس بها. وأن جمال الأميرة الساطع لم يعم عينيه، وأنه استطاع أن يرى ضوء عود الثقاب أثناء سطوع الشمس.

وخفق قلب قسمت في تلك اللحظة أكثر مما خفق في أي يوم من أيام حياتها. وخشيت أن تقول شيئاً يضيع جمال هذه الكلمات التي نطق بها عادل. أو أن يقول عادل كلمة يصحح بها اتجاه الكلمات التي نطق بها، أو أن تدخل الأميرة معها في جولة جديدة تنتصر فيها، فأسرعت تقف مستأذنة في الانصراف، وكأنها تقامر بأن تترك الأميرة مع عادل وحدهما.. ولكن الأميرة قالت إنها ستنصرف معها.

ولم تتبادل الأميرة معها كلمة واحدة في الطريق. ولم تعرف قسمت إذا كانت الأميرة قد فهمت ما دار بينها وبين عادل، أو أنها تفكر في مدى صدق عادل في وعده بمساعدتها كي يدخل عمر إلى مصر خلسة، أو أنها كانت تفكر في أن تحدث انقلاباً في قلبها، فتعزل الملك القديم، وتضع عادل في قلبها كملك جديد. لم تهتم قسمت في تلك الدقائق التي قطعتها السيارة بين عمارة إيموبيليا ومركز جمعية ملجأ المتشردين بسؤال الأميرة عما يشغل بالها.. فقد كانت قسمت سعيدة بما شغل بالها هي، وبأن عادل علاء الدين استجاب إليها، وأنها لم تطعن الأميرة في ظهرها، وإنما انتصرت عليها في مواجهتها وأخذت عادل منها!

وعندما عادت إلى بيتها في ذلك المساء ولم يدق التليفون ويحمل لها صوت عادل شعرت بتعاسة لا حد لها.. قلقت أن تكون الأميرة عادت واستردت عادل منها.. لم تتركها تستمتع بانتصارها سوى لحظات. ربما تكون الأميرة بعد أن أوصلتها إلى دار الجمعية عادت إلى شقة عادل من جديد..

ربما تكون قد استطاعت أن تحقق في غيابها الانتصارات التي لم تستطع أن تحققها في حضورها. وما أضعف قلوب الرجال أمام النساء الجميلات! قلوب الرجال أشبه بالذباب، وعيون الفاتنات أشبه بالفليت! بخة واحدة من عيني الأميرة الفاتنة ويسقط عادل علاء الدين!

ومضت الأيام بغير أن يدق التليفون... وزاد شقاء قسمت. وتضاعف قلقها، وعادت تمقت الرجال أكثر مما كانت وكرهت عادل بالذات أكثر من جميع الرجال. ثم عادت تحبه وتعبد. كان حبه أشبه بالمalaria، تكرهه في الصباح وتحبه في الليل. تنخفض درجة حرارتها في النهار، وترتفع في المساء!

وانتظرت خمسة أيام كاملة. ولم يطلبها عادل في التليفون.

وفي كل يوم كانت تتضاعف وتنكمش. وتذوب وتموت!

في يوم لقائها الأخير مع عادل كانت تتصور أنها ملكة، وفي اليوم التالي أصبحت أميرة، وفي اليوم الثالث أصبحت عاشقة، وفي اليوم الرابع أصبحت امرأة مهزومة.. وفي اليوم الخامس أصبحت حشرة، حشرة حقيرة داسها عادل بقدمه، بل داستها الأميرة بقدمها..

* * *

وبدأت تشعر بشعور الحشرة.. بالرغبة في أن تقرص عادل وتسيل دمه.. وقررت أن تطلبه في التليفون لتلعنه، لتقول له إنها تشكره لأنه أثبت صدق نظريتها في سفالة الرجال.

ولم تجده في بيته، ووجدته في مكتبه. وما كادت تسمع صوته حتى نسيت كل اللعنات التي أعدتها لتقذفه بها!

وسألته في صوت ترتجف فيه الوحدة مع الشوق مع القلق :

— أين كنت يا عادل؟!

قال عادل في بساطة :

— كنت مسافرا ولم أعد إلا الآن فقط. إننى سافرت بعد خروجكما بساعة واحدة!

قالت قسمت في دهشة :

— إنك لم تقل لى إنك ستسافر

قال :

— لقد سافرت إلى فلسطين...

فقالت في حيرة :

— وماذا كنت تفعل في فلسطين؟

قال :

— كنت أبحث عن عمر! ألم أعد الأميرة بأننى سأساعدها في إدخال عمر إلى مصر؟!

قالت في مرارة :

— لم أكن أتصور أنك من أجل الأميرة تترك عملك وتتركنى خمسة أيام!

قال :

— إننى وعدت الأميرة، وأحب أن أنفذ الوعد الذى قطعته على نفسى.

قالت :

— وهل عدت بعمر؟

قال :

— لا، لم أجده.. قيل لى إنه فى دمشق، فسافرت إلى دمشق ولم أجده، ثم قيل لى — إنه عاد إلى بيروت فسافرت إلى بيروت ولم أجده أيضا.

قالت فى غيظ:

— أنا كنت واثقة أنك لن تجده.

قال عادل:

— ما سبب هذه الثقة؟

قالت فى سخرية:

— لأنى واثقة أنك لا تريد أن يحضر عمر إلى مصر حتى تنفرد بالأميرة'

قال :

— إنك تتهمين نزاهتى ! إننى بحثت عن عمر، ودبرت الطريقة التى يمكن بها دخوله إلى مصر بغير علم السلطات المصرية. لقد قلت للأميرة أمامك إننى لم أعد أفكر فى أية علاقة معها، وأننى سوف أساعدها ليعود إليها الرجل الذى تحبه !

قالت وهى تضغط على شفيتها:

— إننى أعرف تماما هذا النبل ! إنه المعطف الذى يرتديه الرجل ليخفى فيه سفالته ! إنك تريد أن توهم الأميرة أنك فعلت المستحيل من أجل أن

تجىء لها بعمر. وأنت فشلت.. ولهذا فسوف تقطع الأميرة الأمل وتفتح قلبها لك.

قال ضاحكا :

— إنك بدأت تغارين؟!

قالت ثائرة :

— أغار! لماذا أغار؟ هل أنا أحبك حتى أغار عليك؟

قال عادل في هدوء :

— نعم يا حبيبتي.. ولكنك جبانة وجبنك هذا هو الذى سيجعلك تفقديننى!

قالت في غضب :

— أنا لست جبانة! إننى أشجع مما تتصور!

قال :

— إذا كنت شجاعة.. فتعالى بغير نظارة!

قالت في دهشة :

— ولماذا تريد منى أن أخلع نظارتى؟

قال :

— لأننى أريدك عارية!

قالت ساخرة :

– كأنك تريد أن أحضر إليك بغير ملابس!

قال:

– لم أقل هذا.. كل ما قلته أنني إريدك بغير نظارة!

قالت:

– إننى لا أخلع نظارتى أبدا، إلا عندما أنام!

قال وهو يقهقه:

– ربما يكون هذا هو السبب الذى من أجله طلبت منك أن تخلعى

نظارتك!

الفصل الثامن

جلست الأنسة قسمت شاهين في مكتبها البسيط بإدارة جمعية ملجأ المتسولين، تضع الرتوش النهائية للتقرير الذي سيقدمه مجلس الادارة إلى الجمعية العمومية مرفقا بالميزانية.

وقرأت بصوت عال الفقرة في التقرير التي تقول :

ونجح مجلس إدارتكم في تدبير المال اللازم بحيث ارتفع عدد المتسولين والمتسولات الذين يأويهم الملجأ إلى ستين شخصا، وبذلك استطعنا المساهمة في القضاء على مشكلة المتسولين التي كانت سبة في وجه مدينة القاهرة، ونقطة سوداء تلتخ جمالها.

وتوقفت قسمت عن تلاوة التقرير عندما رأت السيدة نعمت شوقي، الكاتبة بالجمعية، تدخل بجسمها البض، ووجهها الضاحك وتقول :

— عم عبده هنا !

ورفعت قسمت رأسها بامتعاض وقالت :

— ماذا يريد ؟

— يريد أن يدخل الملجأ من جديد !

— ولكنه هو الذي هرب من الملجأ.

– يقول إنها آخر مرة يهرب فيها.. ويطلب سماحك !

– لقد عفوت عنه عدة مرات.. سامحته ست مرات. وفي كل مرة كان يهرب. ويعرضنا لفضيحة أمام الناس عندما يعرفون أن المتسولين هربوا من الجنة التي أقمناها لهم !

– إنه يقول إنه يعترف بأن الملجأ جنة فعلا. ولكن عيبه أن له اسوارا.. وهو لا يطيق الاسوار. ويقول إن الفرق الوحيد بين الجنة والنار .. أن النار لها أسوار، والجنة بغير اسوار !

– وهل هو يريد أن نحطم أسوار الملجأ التي كلفتنا خمسمائة جنيه.. حتى لا يهرب ؟

إننا لن نقبله في الملجأ مرة أخرى.. هذا قرار نهائي !

– إنه يقول إنه مضى عليه أسبوع كامل وهو يتضور جوعا. لو رأيته بنفسك لأشفقت عليه.

ورق قلب قسمت، وقالت :

– دعيه يدخل، الذنب ليس ذنبه.. إن آدم هرب قبله من الجنة.. واتهم حواء بأنها هي التي حرضته على الهرب !

ودخل رجل عجوز في السبعين من العمر، على رأسه طربوش قذر يسقط فوق جبهته، ويكاد يصل إلى عينيه الساخرتين، وله لحية بيضاء، وفي يده مسبحة، ويرتدى بنطلونا أكل عليه الدهر وشرب وارتداه أيضا !

وقال في صوت ناعم وقور :

– صباح الخير يا ست قسمت !

ورفعت رأسها تتأمله ثم قالت :

– صباح الخير يا عم عبده ما الذى جاء بك؟

– الجوع !

– إذن لماذا هربت؟

– الأسوار كلما رأيتها سمعتها تقول لى : اهرب من هنا يا عم عبده

– الاسوار تمنع الهرب ولا تدعو للهرب !

– إننى سعيد هنا. أناام مجاناً، أحصل على ملابس مجاناً، ومع ذلك لا اكاد القى نظرة على اسوار الملجأ حتى أشعر بالشقاء. اشعر اننى فقدت حرיתי. فيصبح الطعام بلا طعم ! واشعر بالبرد فى داخل ملابسى، ولا اعرف أن أناام فى فراشى.. اتصور ان هذه الاسوار تخنقنى، تكتم انفاسى. افضل أن أناام على رصيف الشارع، رصيف ليس له اسوار، على ان أناام فى سرير فى غرفة مغلقة بالمفتاح !

– وماذا فعلت فى المدة التى هربت فيها ؟

– كنت أتسول.

– لماذا تتسول؟

– لأكل !

– ولكنك تأكل هنا مجاناً !

– أكل داخل الاسوار ! واشعر أننى محبوس وأنا اضيق اللقمة فى فمى

فيتغير طعم اللقمة، تصبح فيها مرارة غريبة !

– ولكن طاهية الملجأ تطهو طعاما شهيا.. إننى أذوق طعامكم بنفسى، ولا يمكن أن تجد فى الخارج مثل هذا الطعام.

– ولكن بعيدا عن الاسوار اجد الحق فى الاختيار. هنا أنتم تختارون لى الطعام، أما فى الخارج فأنا الذى اختار طعامى. شعورى بأن لى حق الاختيار يجعل للطعام نكهة لذيذة فى فمى. الطعام المفروض، مهما كان لذيذا، فإنه يفقد شهيته فى الافواه!

– ونحن لا نستطيع أن نطهو لكل نزيل فى الملجأ الطعام الذى يريد.. ان هذا يكلف كثيرا.

– ولهذا فإن ثمن الحرية باهظ، نفقات العبيد دائما أرخص من نفقات الاحرار!

– ولكنك تعود بقدميك إلى الملجأ!

– لا أعود على قدمى.. وإنما أعود راكعا!

– ولماذا تركع؟

– لأكل.. لاقف على قدمى من جديد! فكلما وقفنا على اقدامنا فى عالم الحرية وجب أن ندفع ثمن تذكرة الوقوف! لابد أن يكون القرش فى جيبى لاستطيع ان أكون حرا. فإذا خلا جيبى من القرش فقدت حرىتى! ألم تلاحظى دائما أن البلاد الفقيرة هى التى تفقد حريتها، وأن البلاد الغنية هى التى تستمتع بالحرية، وكلما زاد الغنى فى بلد زادت الحرية فيه؟

– ولكن المانيا فقدت حريتها وهى ليست فقيرة!

– بل إنها فقدت حريتها لأنها فقيرة.. ولولا أن الحلفاء جردوها من كل

ثرواتها بعد انتصارهم عليها في الحرب العالمية الاولى لما استسلمت لهتلر
الازمة الاقتصادية في المانيا هي التي ولدت هتلر، والازمة الاقتصادية في
ايطاليا هي التي ولدت موسوليني ! الجوع هو الأب الشرعى للطغيان !

– أنت رجل عجيب يا عم عبده. شحاذ وعالم فمن أين حصلت على
ثقافتك؟

– تسولتها ! إبنى اتسول المعرفة كما أتسول لقمة العيش !

– لم اسمع أن المحسنين يحسنون على الناس بالثقافة !

– في عالم الشحاذين نتسول كل شيء ! الكتب، الصحف، المعلومات،
حتى النساء !

– كيف تتسول المرأة؟

– في شبابى احببتنى امرأة لله !...

– واين ذهبت؟

– اخذها... متسول اصفر منى سنا !

– لا بد أنها لم تكن تحبك.

– على العكس كانت تحبنى..

ولكنها كانت تحب مهنة الشحاذة اكثر منى ! لقد طلبت منها أن تتزوجنى
وتجلس في البيت، وأتولى التسول بالنيابة عن الأسرة كلها فرفضت، وقالت :
إننى أفضل أن أحصل على الطعام بمجهودى ! الطعام المجانى لا طعم له،
العرق هو الذى يعطى للطعام حلاوته ونكهته ومذاقه اللذيذ !

– ولماذ رفضت أن تستمر المرأة في التسول؟

– لأنها كانت جميلة ! وكان المحسنون يفضلون أن يضعوا نقودهم في صدرها، بدلا من أن يضعوها في يدها !

– إذا كنت خجلت أن تكون زوجتك شحاذا، فكيف تقبل أن تكون انت شحاذا ! إن الشحاذين هم الكسالى الذين لا يريدون أن يعملوا !

– على العكس ! المتسول يعمل اضعاف ما يعمله العامل المجد، ساعات العمل أطول ! المجهود الذهني أكبر، المجهود العضلي أكبر، نحن المتسولين لا نستمتع بأيام العطلة الاسبوعية، ولا بعطلة الأعياد، وليس لنا اجازة سنوية ولا اجازة مرضية، العمل عندنا يزداد في أيام الأعياد ! ولو كانت لنا نقابة محترمة لطالبت لنا ببعض الحقوق !

– التسول مهنة غير محترمة يا عم عبده !

– لو كانت مهنة غير محترمة.. لما عملت فيها سيدة محترمة مثل حضرتك !

قالت قسمت غاضبة :

– أنا متسولة؟ إنك قليل الأدب !

ولم يغضب عم عبده للاهانة، تمايل كالقصب الطويلة المحنية، وابتسم وقال :

– نعم انت متسولة يا قسمت هانم ! كل سيدات الاسر الكبيرة اللاتي يعملن في الجمعيات الخيرية متسولات ! جمعية ملجأ المتسولين تقوم بمهمة التحاذا ! لولا أن التسول مهنة لديننا لما قبلت نساء الطبقة العالية عليها هذا الاقبال !

- نحن نتسول من أجل الخير!
- ومن قال لك : إننا نتسول من أجل الشر؟
- نحن نعمل من أجل المجموع.
- ونحن الشحاذين نعمل من أجل المجموع. كل شحاذ منا له اسرة فيها حوالى عشرة أشخاص!
- الجمعيات الخيرية تنظم الاحسان
- إن كل ما فعلته الجمعيات الخيرية إنها اغتصبت مهنة المتسولين.. جعلت لها ملابس انيقة جميلة مثيرة! جددت في المهنة! كان من رأى قدماء الشحاذين أن الملابس الرثة الممزقة، والعاهات المستديمة تحرك قلوب المحسنين.. ثم جاءت مدرستكم الجديدة في الشحاذة ورأت أن جمال الشحاذة، واناقتها.. وجاذبيتها، واسم اسرتها الكبيرة.. تذيب القلوب المتحجرة فتسارع إلى الاحسان.
- إذن أنت تعتبرنا منافسين لك.. لا فضل لنا على الاطلاق!
- لا يمكن أن انكر فضلك وفضل زميلاتك! إن الجمعيات الخيرية النسائية ادخلت إلى عالم التسول نظرية جديدة! الذى بيننا وبينكم أننا جماعة من الحالمين وأنتن جماعة من الواقعيات.. نحن كنا نعلم بأن الانسان يرق قلبه ويدفع إذا رأى رجلا مريضا أو مسنا أو عاجزا ولسكنكن كنتن واقعيات أكثر منا، عرفتن أن قلوب الناس في هذا العصر قدت من حجر. وما كان يصلح لاثارة النخوة والمروءة في الماضى لا يصلح اليوم. وإن المرأة الانيقة، أو المرأة صاحبة النفوذ والسلطان قادرة على أن تخرج الجنيهاات من جيوب الرجال بدلا من القروش والملاليم! الناس الآن تتبرع

من أجل عيون النساء الجميلات اللاتي يدرن ملجأ العميان.. لا من أجل
العميان !

إذن أنت تعترف بأننا رفعنا إيراد أعمال الخير !

– المال الذي يجمعه الشحاذ يذهب إلى الغرض الذي جمع له، أما
الاموال التي تجمعونها في الجمعيات الخيرية النسائية فانتن تنفقنها أولا على
ايجار دار واسغة للجمعية، وعلى مرتبات موظفى الجمعية، وعلى مطبوعات
الجمعية، وعلى اعلانات في الصحف عن نشاط الجمعية، وعلى الحفلات
الساهرة التي تقيمها الجمعية.. وما بقى منها يذهب إلى المتسولين !

– انت تتهمنا الآن باننا نسرق الشحاذين !

– اننى اتهمكن بأنكن تردن أن تفتصبن مهنة المتسولين ! تردن
احتكارها لانفسكن ! تشترطن في الشحاذ أن يملك سيارة، وأن يرتدى ثوبا
أنيقا، وأن يتزين بالمجوهرات الغالية ! تعتبرن الشحاذين « عورة » يجب
اخفاؤها. فإذا وقف شحاذ يتسول في ميدان عام، سارعتن إلى الشرطة
تطلبن منها أن تقبض عليه. باعتباره يقوم بمنافسة غير مشروعة للجمعيات
الخيرية !

– إن منظر المتسولين بأثوابهم البالية، ووجوههم التذرة، وعوراتهم
المكشوفة يشوه منظر المدينة !

– جمال المدينة هو الذى يهم الجمعيات الخيرية، لا الافواه الجائعة
ولا البطون الخاوية ولا الاجسام العارية ! لو أننى نسولت في الأزقة
والحارات فجمال القاهرة بخير، أما إذا تسولت في ميدان الاوبرا فلن يرى
السياح دار الاوبرا وإنما سيرون عم عبده الشحاذ !

– إن من حق سكان المدينة أن يحافظوا على جمال مدينتهم ويخفوا كل ما يشوه جمالها.

– هذا مبدأ خطر! لو طبقناه فيسجىء يوم يصدر قرار يمنع النساء القبيحات الخلقة من السير في الشوارع، ولا يسمح إلا بظهور النساء الجميلات محافظة على جمال المدينة!

وامتنع وجه قسمت. اعتقدت أن عم عبده يقصدها بهذه الملاحظة.. يريد أن يقول إنه سيجيء يوم يصدر قرار بمنع ظهور قسمت شاهين في الشوارع محافظة على جمال مدينة القاهرة. وشعرت بمرارة أن رجلا في السبعين من عمره يهزأ بقبحها.

غاضت الابتسامة من شفيتها ثم قالت في صوت مسكين ملئ بالحسرة:
– الله خلقني فقيرة في الجمال ياعم عبده!

وفهم عم عبده بذكائه أنها تصبورت أنه يسخر من قبحها فقال:

– بالعكس! إننى أريد أن أقول لك إننى أرى فيك شيئا جديدا! إن شيئا فيك قد تغير يا ست قسمت.. قبل أن أهرب من الملجأ لم يكن.. فيك مسحة من جمال! ولكننى أرى أنك أصبحت جميلة. لا أقول ملكة جمال، ولكنك أصبحت أجمل مما رأيتك ألف مرة!

استردت قسمت بسمتها التى اختفت، وخدرها مديح عم عبده، كأن عاشقا يقبلها في كل مكان في جسدها وقالت مبتسمة:

– لعل بصرك ضعف أثناء هرويك!

– إن بصرى لم يضعف، بل ازداد حدة. البصر يضعف داخل السجن، ويقوى في الفضاء بغير أسوار. حتى العيون تقوى في الحرية. الضوء يزيد

أبصارنا والظلام يفقدنا كثيرا من قوة الابصار! إننى أشعر فعلا أنك ازددت جمالا! أن نظارتك السوداء لم تتغير، ملابسك القاتمة لم تتغير، طريقتك في تسريح شعرك لم تتغير، ولكن شيئا في داخلك قد تغير.. لست أعرف ما هو..

ثم صمت قليلا.. وقال:

— لعله الحب!

قالت ساخرة:

— إنك بدأت تخرف يا عم عبده!

— التخريف نوع من أنواع الفلسفة.. الذين يخرفون هم عادة أشخاص يرون أكثر مما نرى! يسبقون زمنهم، يعيشون الغد، رأسهم أعلى من رؤوسنا فيرون مسافات شاسعة لا تصل إليها عيون الأقزام!

إننى أرى أن التغيير الذى يحدث فيك هو أنك بدأت تحبين!

— اننى أحب عملى.. أعبدته! إننى أرهق نفسى فى عملى!

— العمل المرهق يشوه الوجوه! يزيذ التجاعيد! يحول الشعر الأسود إلى شعر أبيض، يطفىء اللمعان فى العيون! أما الحب فهو أعظم خبراء الجمال فى العالم! إنه قادر على أن يرسم وجوه النساء من جديد! يضع فى عيونهن سحرا عجيبا لم يصل إليه أى كحل فى العالم! يجعل البشرة أكثر نقاء. يحمل فى يده كل مساحيق البودرة والحمرة وكل زجاجات العطر والصبغة! الحب هو أكبر صانع للجمال!

— إنك بدأت تغارلنى يا عم عبده! إن آخر مرة رأيتك فى الملجأ كنت

مهدما مخطما مهزوما كسيرا.. ماذا جرى لك؟.. هل هربت من هنا لتأخذ حقنة لاعادة الشباب؟

— هواء الحرية فى الخارج يعيد الشباب، الايام التى أمضيتها خارج
الملجأ بغير رقيب، بغير مواعيد مقررة، بغير نظام قياس فى ساعات الأكل
والنوم، بغير أبواب مغلقة، بغير أن أقف فى الطابور.. كل هذا جعل الرجل
المحطم يجمع اشلاءه ويتحول إلى رجل صحيح، كأن هواء الحرية أسمنت
جديد يقوى البناء المتهدم! إن الحرية تخلق الانسان من جديد!

— أنت قلت من دقائق يا عم عبده إن الحب هو الذى يخلق الانسان من
جديد.

— الحب.. مثل الحرية! كل منهما فيه قوة الخلق! كل منهما فيه القدرة
على البعث.

— ولكن الحب فيه عبودية.

— من قال هذا؟! الحب هو أكبر حرية فى الدنيا! إننا نوهم أنفسنا بأننا
نحب برغم إرادتنا! وأننا نفقد حرياتنا عندما نعشق! إن هذا وهم، فالقلب
هو الجزء الحر الوحيد فى جسمنا والذى لا يخضع للشر والارهاب! من
الممكن أن أرغمك على أن تغضى عينيك، من الممكن أن ألوى ذراعك إلى
الناحية التى أريدها، من الممكن أن اضع يدي على فمك وأمنعك من الكلام،
من الممكن أن أقيد ساقيك وأمنعك من الحركة، ولكن ليس فى امكانى أن
اجعلك تحبين رجلا بالرغم منك!

— اننى فى دهشة من أن رجلا له مثل هذه الآراء يعمل متسولا! إنك
خبير نفسانى!

— الشحاذ الماهر هو خبير نفسانى ماهر!.. هو الذى يعرف متى يمد
يده هو الذى يعرف الشخص الذى أمامه، يدرسه بنظرة سريعة، ليعرف

ما هي الكلمة التي تؤثر فيه ! الشحاذ لا يتسول من كل إنسان إلا إذا كان شحاذًا مبتدئًا ! يجب أن يكون خبيرًا في قراءة الوجوه ! تمامًا كالصياد الماهر الذي يعرف متى يطلق بندقيته !

واسترخت قسمت وهي تستمع إلى حديث عم عبده المريح.. كان حديثه أشبه بكرسي طويل تتمدد فوقه ثم قالت :

– وبصفتك خبيرًا نفسانيًا، فماذا ترى من تغيير في وجهي؟

– وجهك لم يتغير ! إنما شيء في داخلك تغير ! اللبّة كما هي.. وإنما أضيف إليها الضوء ! إنني أرى في داخلك الضوء لأول مرة ! لا بد أن يد رجل ضغطت على زر المصباح ! أيدي الرجال وحدها هي التي تضئ مصابيح النساء المنطفئة !

– إنك تتخيل أشياء يا عم عبده.. أن رجلا لم يلمسني !

– ألم تسمعي عن أن الصوت أصبح يقوم الآن مقام الزر الكهربائي.. لقد قرأت في الصحف أنهم اخترعوا أبوابا من الحديد إذا سمعت صوت أصحابها تنفتح على مصراعيها.. ولكنها لا تنفتح أبدا إذا سمعت أي صوت آخر.. إن الله اخترع هذه الأبواب قبل أن يخرعها البشر.. أصوات معينة تفتح قلوبنا المغلقة.. أو نظرات معينة تفتح الأبواب الموصدة.. رب كلمة من رجل تحولت إلى أصابع تلمسك، وإلى جسد يضمك إليه. كهرياء الحب لا تختلف عن الكهرياء العادية، لا نحتاج إلى لمسها لنصعق بها ! ولقد استطاع ماركوني، وهو في يخته في جنوب إيطاليا، أن يضيء مدينة في أستراليا بغير حاجة إلى أسلاك، أو لمس !

– هل تتصور يا عم عبده أنك تستطيع أن تحب امرأة دون أن تلمسها :

— طبعا.. ولكن الحب مثل الطفل يحتاج إلى لمسة حنان ! الطفل يستطيع أن يعيش بغير أن نلمسه، ولكن لمسات أصابعنا تسعده.. تمنحه الدفء والحرارة، كأنها تعزف على جسده أنشودة حبنا، الحب أشبه بقصبة من الناي، إذا رميناها على الأرض فإن الرياح ستصفر فيها وتغنى ! ولكن إذا أمسكنا الناي بأصبعنا، ووضعناه في فمنا، وحركنا أصابعنا فوق ثقوبه، تحول إلى ناي يعزف أجمل الألحان !

— كلامك يا غم عبده كلام عاشق، لا كلام شحاذ.. كلام رجل درس الدنيا وفهمها.. كلام عالم فيلسوف.. ومن الغريب أنك برغم كل هذا الفهم تعترض على العمل العظيم الذي تقوم به جمعيتنا !

— أنا لا أعترض ! وإنما أقول إنكم تقومون بدور الوسيط بين المحسن والمتسول وأفضل الغاء الوسيط. العالم كله يتجه في اقتصاديات بعد الحرب إلى الغاء الوسيط !

— معنى ذلك أن حالة الشحاذين كانت في الماضي أحسن مما هي عليه الآن، بعد إنشاء جمعية ملجأ الشحاذين ؟

— طبعا، كانت أحسن.. إن المجسنيين يتصورون أنك قضيتن على مشكلة المتسولين ! كان المحسن في الماضي يخجل من أن يرد متسولا. ولكنه الآن يقول لي بوقاحة : اذهب إلى ملجأ المتسولين ! وهو لا يعرف أن الملجأ لا يتسع إلا لخمسين أو ستين متسولا.. بينما المطلوب إنشاء ملجأ يكفى لاضعاف هذا العدد

— هل تريد أن تقول إن عدد المتسولين في مصر ٢٠ مليونا ؟

— بل أريد أن أقول إننا شعب من المتسولين ! كل واحد في هذا الشعب

يتسول ! نحن الشعب الوحيد في العالم الذي يتسول حقوقه ! لا يستطيع فرد في هذا الشعب أن يحصل على حقه بغير أن يمد يده.. يرجو.. يتوسل.. يستعطف.. يسترحم.. إن الملف الذي أمامك الآن على المكتب مكتوب عليه « طلبات الوظائف ».. افتح الملف.. ستجدين كل من يطلب وظيفة يقول في طلبه أنا شاب فقير أعول أسرة من ثمانية أشخاص ! لا يوجد واحد منهم يقول إنه يستحق الوظيفة ولا إنه كفاء لها ! كلهم يطلب الوظيفة بطريقة الشحاذين !.. يترجمون كلمات « عشانا عليك يا كريم يارب » و « رينا يجعل بيوت المحسنين عمار » و « من قدم شيء بيداه.. التقاه » إلى طلبات استخدام في الوظائف الخالية ! الدولة نفسها تشحذ الاعانات الخارجية من الدول الأجنبية ! كبار الموظفين يتسولون نفوذهم وسلطانهم من الحاكم صاحب النفوذ والسلطان !.. مرشحو البرلمان يتسولون أصوات الناخبين.. فإذا انتهت الانتخابات تحول المتسولون إلى أثرياء، وأصبح الناخبون متسولين !..

— إنك تشكو من المزاحمة غير المشروعة !

— حتى أصحاب الملايين يزاحموننا الآن في عملية التسول ! الأميرة شويكار أغنى امرأة في مصر، تعمل الآن متسولة بصفتها رئيسة مبرة محمد على. تجمع القروش والملايين.. مع أن دخلها في شهر واحد يكفى لسلافها على عشر مبرات مثل مبرة محمد على ! هدى هانم شعراوي تملك هدى وأولادها ألوف الأفدنة، وهي تزاحمنا في عملنا وتجمع تبرعات لمشغل هدى شعراوي لليتيمات، بينما هي تستطيع أن تخصص واحدا من مائة من ثروتها للصرف على هذا المشغل ! حرم حسين سرى باشا رئيس الوزراء تطوف على الأغنياء تباع لهم بطاقات حفلة الهلال الأحمر مع أنها تستطيع بكلمة واحدة أن تجعل زوجها يصدر قرارا برفع إعانة الهلال الأحمر وخصم المبلغ من

بند الزينات التى تقام بمناسبة ويدون مناسبة فوق دور الحكومة ومصالحها !

– إن هؤلاء لا يتقاضين أجرا على العمل الذى يقمن به !

– يتقاضين ثمنا باهظا ! تنشر الصحف والمجلات صورهن.. يستطعن استغلال الآباء والأزواج فيخرجن من بيوتهن بحجة اجتماعات مجلس إدارة الجمعية الخيرية، وهن فى الواقع يذهبن إلى لقاء عشاقهن !

– إن فكرتك سيئة جدا يا عم عبده عن الجمعيات الخيرية ! نحن نبيع الخير.. وأنت تتصور أننا نبيع الحب ! تصور ماذا يحدث لو ألغيت الجمعيات الخيرية وتولت الدولة مهمتها.. أنت تعرف أن الدولة لا قلب لها !

– أنا لا أوافق على تأميم الشحاذة.. عندما تحتكر الدولة مهمة التسول تصبح شحاذا فى يده سوط.. ولكنى أرغب فى إباحة التسول ! ألا تطارد الدولة المتسولين الفقراء وتحتضن المتسولين الأغنياء ! أن يتولى المتسولون تنظيم مهنتهم بغير تدخل حكومى.. أن المتسولين يقسمون المدينة بينهم. يخصصون لكل متسول منطقة نفوذ، لا يجوز لمتسول أن يعتدى على شارع من اختصاص متسول آخر ! ليس بين المتسولين الصراع الذى تشهدينه بين الجمعيات الخيرية..

ودق جرس التليفون، ورفعت قسمت السماعه..

ولاحظ عم عبده أن وجه قسمت أضاء فجأة بضوء ساطع. كان فى داخلها لمبة قوة عشرين شمعة فأصبح فى داخلها فجأة عدة لمبات كل واحدة منها بقوة ألف شمعة..

– وأشارت قسمت بيدها إلى عم عبده أن يخرج من الغرفة.. وأسرع يخرج، وإن كان سمع كلمة : أهلا.. أهلا..

وبدا لعم عبده أن صوت قسمت تغير، كأن بلبلًا دخل فجأة في حنجرتها.
كانت كلمة « أهلا أهلا » ملحنة، ومنغمة، ولها موسيقى غريبة..

وخرج عم عبده وأغلق الباب وراءه دون أن تطلب منه قسمت أن يغلّق الباب. وفكر أن يقف خلف الباب ليستمع إلى حديث قسمت.. ثم وبخ نفسه لأنه فكر في هذه الفكرة.. ولكنه كان يحس في قرارة نفسه.. أن سكرتيرة مجلس الإدارة الحازمة الشديدة التي ترهبها جميع الموظفين، ويخشهاها جميع نزلاء الملجأ، بدأت تحب فعلا !

وكان عم عبده يؤمن بأن هذا التغير الذي حدث في قسمت سوف يؤثر في الملجأ كله، في طريقة الحياة فيه، في نظامه، في معاملة المشرفين.. لو قال خواطره في هذه اللحظة لاتهموه بالجنون..

قالت قسمت وهي تساوى شعر رأسها، وكأنها نسيت أنها تتكلم في التليفون

— إننى أنتظر أن أسمع صوتك منذ الصباح ! يومى لا يبدأ إلا عندما أسمع منك تحية الصباح..

قال عادل :

يظهر أنك تحبين صوتى، ولا تحبيننى.. إنك لم تبدى هذه اللفتة على لقائى !

— أنت الذى تضع العقبات في هذا اللقاء يا عادل !

— إننى لا أضع العقبات... أنا أزيل العقبات !

— ولكنك تضع شرطا صعبا للقاء بك..

- كل شرطى أن تخلعى النظارة..
- إننى بغير نظارة لا أستطيع أن أراك !
- إنك بغير نظارة تريننى جيدا . تريننى كما أنا.. بغير ماسكياج.. بغير زيف بغير خداع !
- إننى بغير النظارة أتحول إلى عمياء !
- إنهم يقولون إن الحب أعمى . وأنت تحاولين أن تضعى فوق عينيه نظارة !
- وبذلك يفقد الحب جماله.. لابد أن تخلعى هذه النظارة ! إننى أشعر كأن هذه النظارة تعميئى !
- إنها نظارة نظر.
- ليست نظارة نظر، إنها حزام عفة !
- ماذا تقصد ؟
- أقصد أنك تسجنين نفسك خلف هذه النظارة.. تحبسين مشاعرك الحقيقية.. تقيدين عواطفك !
- إننى لا أشعر بهذه القيود وأنا معك !
- المسجون بعد فترة يتعود على السلاسل.. ويتصور أنه ولد بها !
- لو كانت هذه النظارة تقيدينى لما أحببتك .
- إنها أشبه بالسلسلة فى قدم المسجون.. لا تمنعه عن الحركة وإنما تقيد خطواته !

إنك فعلا تعتبرين هذه النظارة حزام عفة ! كان الأزواج الغيورون في الماضي يحبسون الجزء الأسفل من المرأة في حزام من حديد، ويقفلونه بمفتاح ويأخذون المفتاح معهم في سفرهم ليضمنوا أن زوجاتهم لن تستسلم لرجال آخرين أثناء غيابهم !

— لابد أنه راجت في تلك الأيام صناعة المفاتيح التي تفتح بها كل أنواع الأقفال.

— إن « الطفاشة » التي يفتح بها اللصوص جميع الأبواب اخترعت في تلك الأيام !

— وهل لديك اختراع لخلع النظارة ؟!

— الحب يخلق كل شيء !

— لم أعرف أن الحب له أصابع !

— الحب يخلق أولا.. ثم تخلق له الاصابع التي تنتزع كل حجاب وتنتزع كل النظارات !

— إننى أفضل حبا بغير أصابع !

— الحب بغير أصابع.. كالجنين بغير أصابع.. مخلوق مشوه !

— مادام هذا الحب هو ابنى.. فيجب أن يكون مشوها مثل أمه !

— إن الحب الذى رزقناه مخلوق طبيعى.. لماذا تريدان أن يكون مشوها !

— إننى أشعر أنه ولادة غير طبيعية.. أشعر أحيانا كأنك انتزعته من أحشائى !.. كأنك استبقت الأمور.. لم تنتظر حتى يولد ولادة طبيعية، كأنك أجريت لى عملية قيصرية.

- إن الأطباء يستعملون الجفت في الحالات التي يتوقف فيها الجنين عن النمو

- ولذلك يجيء المولود مشوها !

- أبدا ! ما دام الجفت يستعمله طبيب ذو خبرة فلا خوف على الجنين

- كأنك حضرت ولادات كثيرة غير طبيعية للحب !

- نعم حضرت بعض ولادات للحب

- وهذه هي المرة الأولى التي أرزق فيها بالحب ! إنه مولودي الأول..
وهو بالنسبة لى كل حياتى.. أما أنت فقد رزقت الحب مئات المرات.. ولهذا
فأنا أخاف على ولدى من اللمس !

- أنت خائفة منى !

- لا.. إنما خائفة من نفسى !

- أفهم أن تخافى من الحب قبل أن تقعى فيه، ولكن كيف أفهم أن تخافى
بعد أن وقعت فيه !

- إننا نخاف من البحر ونحن نفوص فيه، أكثر مما نخاف منه ونحن
نقف على الشاطئ !

- إذا كنت خائفة.. فعودى إلى الشاطئ !

- المصيبة أننى لا أعرف كيف أعود !

- نحن لم نبدأ بعد !

- أنت لم تبدأ.. ولكننى انتهيت.

— مادست انتهيت فما الذى يخيفك.

— إنك مستعجل جدا. المفروض أن تعلمنى أولا السباحة على الشاطئ.. ثم بعد ذلك تأخذنى إلى وسط المحيط. ولكنك تريد أن تبدأ من وسط المحيط!

— السفن الكبيرة لا تسير قرب الشواطئ.. إنها تغوص فيها وتجنح!..

— ولكننى مازلت قاربا صغيرا!

— منذ ربطت قاربك بسفينتى.. أصبحت سفينة كبيرة!

— ماذا تريد منى أن أفعل؟

— اخلعى نظارتك!

— أخشى أن أخيب أملك إذا خلعت نظارتى.. ولم تعجبك عيناي!

— إننى أحب ما وراء النظارة!

— عيناي قبيحتان!

— ولكنى أشعر أنهما جميلتان!

— ولكنك لم ترهما!

— عندما يحب الرجل تزداد قوة بصره.. يرى أشياء لا يراها الذين لم يحبوا، الحب يزيد قوة إبصارنا.. والكراهية تعمينا!

— إنك تذكرنى بعم عبده!

— ومن هو عم عبده هذا؟

- إنه شحاذ عندنا هرب من الملجأ وعاد اليوم !
- وهل جاء يغازلك ؟
- لا تغر منه، إن عمره سبعون سنة !
- الحب لا يعرف حساب السنين !
- إنه فيلسوف غريب.. وقد قال لى : إنه لاحظ في الأيام الأخيرة أننى ازددت جمالا. وقال إنه يشك أننى أحب لأول مرة !
- وماذا قلت له ؟
- أنكرت طبعا !
- وهل خلعت أمامه نظارتك !
- هل أنت مجنون ؟.. إننى قلت : إننى لا أخلع نظارتى أبدا !
- ولكنك سوف تخلعين نظارتك لى.
- أعطنى وقتا.. أعطنى وقتا حتى أتعود عليك !
- لقد قلت لك أننى أحبك بغير نظارة !
- لماذا تكرمها كل هذه الكراهية !
- لأنها قناع تضعينه فوق وجهك !
- إننى أشعر إنها تحمينى !
- إذن أنت تعترفين أنها ليست نظارة نظر.. وإنما هى حزام عفة !
- تقصد أن رجلا آخر وضع هذه النظارة على عيني، وسافر. وأمرنى

بألا أخلعها حتى يعود؟

– لا.. إنما أقصد أنك اخترعت حزام عفة من نوع جديد.. حزاما مصنوعا من زجاج أسود. أنت التي تحبسين نفسك داخله. أنت المسجون والسجان معا وأنا أريد أن أطلق سراحك لكي أعرف كيف أحبك.. أريدك بغير هذا الحزام!

– لن أخلع النظارة!

– إما أنا.. وإما هذه النظارة!

ولم ينتظر عادل حتى يسمع إجابتها.. رمى السماعة بعنف..

وبقيت السماعة في يد قسمت ترتعش. امتلأت عيناها بالدموع.

وفتح عم عبده الباب، وأطل برأسه الصغير، فوجد قسمت تبكي.. وفي يدها سماعة التليفون. وخيل إليه أن السماعة تبكي معها!

ودخل عم عبده على أطراف أصابعه، ووقف أمام قسمت بجسده النحيف الرقيق، يتأملها بحنو عجيب. وتنبهت قسمت إليه عندما اقترب من المكتب.

وسارعت تجمع أشلاءها، وتتمالك نفسها، وتصورت أن نظارتها السوداء أخفت دموعها.

وفوجئت بعم عبده يقول لها:

– لماذا تبكين يا ست قسمت؟

وفزعت.. كأن عم عبده رآها عارية.. وأسرعت تقول:

– لا شيء.. لا شيء يا عم عبده.

ووقف عم عبده صامتا. كان أشبه بضوء سراج هبت عليه ريح فحولت
ضوءه الخافت إلى دخان!

— وأحست قسمت بأن نظرات عم عبده الحزينة تحولت إلى أصابع تربت
على كتفها في حنان أم ملهوفة على ابنتها. ثم تحولت هذه النظرات إلى
أكتاف تسند رأسها عليها..

ووجدت نفسها دون أن تدري تنهال بالبكاء!

وابتسم عم عبده وقال:

— ربما كانت النمرة غلط!

وفهمت أن عم عبده يريد أن ينقذها من حرجها، ويلفق لها سببا تبرر به
صمتها.. ولكنها شعرت برغبة غريبة في أن تكون صادقة مع الرجل العجوز
الذي أحست بكل صدقه في نظرات عينيه.. فقالت وهي تتنهد:

— المصيبة أنها أول مرة في حياتي لا تكون فيها النمرة غلط!

— إذن لماذا تبكين؟

— لقد طلب مني شيئا، ورفضت.. فأغلق السماعة في وجهي!

— يا له من مغفل! العشاق لا يطلبون وإنما يأخذون!

— إنه ليس مغفلا! إنه رجل ذو تجارب!

— ماذا طلب منك؟

— طلب أن أخلع نظارتي!

— تخلعين النظارة فقط؟

قالت قسمت في دهشة :

- نعم طلب مني أن أخلع النظارة فقط !

وضحك عم عبده.. وكانت ضحكته أشبه بشمعة تضيء فجأة ظلام الغرفة

ونظرت إليه قسمت بذهول.. وقالت :

- ما الذي يضحك في هذا؟

- لأنه طلب أن تخلعي النظارة فقط !

- وماذا كنت تظن أنه طلب مني !

- تصورت أنك تبكين.. لأنه طلب منك أن تخلعي كل شيء.. ما عدا

النظارة !

الفصل التاسع

حضرة صاحبة السمو الملكي الاميرة فضيلة.. وسعادة قرينها محسن باشا معروف.. يدعوان الدكتور عادل علاء الدين.. للتشرف بتناول العشاء على مائدتهما.. في الساعة الثامنة مساء يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢.. في قصرهما بالجزيرة.. الحضور بملابس الفراك.

امسك عادل بيده بطاقة الدعوة الانيقة، المكتوبة بماء الذهب، على ورق مصقول، وقرأها عدة مرات..

إنها اول مرة تدعوه الاميرة فضيلة إلى قصرها، لماذا حيرت الاميرة على أن توجه إليه الدعوة بهذه الطريقة الرسمية؟ لماذا لم تتصل به بالتليفون وتدعوه للعشاء؟ ثم لماذا لم تتصل به مرة واحدة بعد أن كانت معه في شقته بعمارة ايموبيليا؟

مرت عدة أسابيع منذ أن وعدها بأن يصبح صديقها بدلا من حبيبها، وبعد أن أكد لها أنه سوف يفعل المستحيل لاحضار عمر من فلسطين سرا إلى القاهرة. وقد سافر عادل إلى فلسطين عدة مرات، وفي كل مرة كان يبحث عن عمر في كل مكان ولا يجده. كان يبحث عنه باهتمام حقيقى ولا يتظاهر بالبحث كما اتهمته قسمت ولم يعرف طريقة ليتصل بالاميرة، من وراء ظهر زوجها، ليخبرها بنتيجة رحلاته الفاشلة، إنها لم تعطه رقم تليفونها الخاص

كما أعطته لعمر في سهرة الاميرة شويكار. ولم يشأ أن يسأل قسمت عن رقم تليفون الاميرة حتى لا يثير غيبتها، ويضايقها في أول علاقته بها. ولقد لاحظ أن قسمت لم تعد تشير إلى الاميرة بكلمة واحدة منذ حدثها عن سفره إلى فلسطين في المرة الاولى. بل إنه أخفى عن قسمت أنه سافر إلى فلسطين بعد هذه المرة كان يكذب عليها ويقول إنه سافر إلى بيروت حتى لا يثير ثائرتها !

ولكن ما الذي جعل الاميرة تتذكره فجأة بعد هذه الغيبة الطويلة؟ أتكون قد ينست من عودة عمر، ولهذا فكرت في العجلة الاحتياطي بسيارة قلبها؟ هل هي أرادت أن تدخله في قصرها من الباب الامامي في وجود زوجها، ليستطيع بعد ذلك أن يدخل القصر من الباب الخلفي؟..

وخطر بباله خاطر مفاجئ. ترى هل دعت الاميرة صديقتها قسمت إلى نفس مأدبة العشاء؟ لو كانت دعته فالدعوة إذن دعوة بريئة... أما إذا كانت الاميرة اغفلت دعوة قسمت، وبعد أن سمعت بأذنها قسمت تقول بوضوح إنها تهواه، فمعنى ذلك أن الاميرة تقصد أن تنشئ علاقة غرامية معه فوق جثة قسمت !

ومن يدرية، فقد تكون الاميرة قصدت بهذه الدعوة أن توقع بينه وبين قسمت، عندما تعلم أن الاميرة دعت له ولم تدعها. أو أنها تريد أن تعرف مدى العلاقة بينه وبين قسمت فإذا أخفى الدعوة عنها فمعنى ذلك أنه لا يأبه لهواها الذي صرحت به أمامها. وإذا أخبرها بأمر الدعوة فستطلب منه قسمت عدم الذهاب .. وهنا تعلم الاميرة أن العلاقة بينهما تطورت إلى علاقة متينة؟

ودهش عادل أن تلجا الاميرة إلى هذه الطريقة الغريبة للاتصال به أن

تطلب إليه أن يرتدى بذلة الفراك ويتشرف بحضور مأدبة عشاء رسمية لتقول له في حضور زوجها إنها قررت أن تبدأ علاقة غرامية به ! هل تحتاج الاميرة لكل هذه المراسم، ولكل قواعد البروتوكول، ولكل أنظمة التشريفات الملكية لتقول لرجل يعجبها : «أنا أحبك» !

وضحك عادل من سخافة الطريقة التي لجأت إليها الاميرة ! إنه رجل يحب الوضوح . يكره اللف والدوران وهو كمهندس يؤمن بأن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين، فلماذا تلجأ الاميرة إلى الطريق المعوج في التعبير عن عواطفها ؟

وشعر أنه يرغب في أن يحضر عشاء الاميرة. ولكنه أحس بوخزة من ضميره ! إن ذهابه إلى الاميرة هو خيانة لقسمت ! وعجب ان يشعر لأول مرة في حياته بهذه الوخزة ! كانت لذته أن يستغل النساء، أن يخونهن، أن يتنقل بينهن كما يتنقل من سهرة إلى سهرة، ومن مطعم إلى مطعم ! فهو لم يشعر أبدا أنه يخون فندق شبرد عندما يتعشى في فندق سميراميس. ولم يشعر أنه يخدع ملهى الاوبرج عندما يسهر في ملهى هليوبوليس بالاس ! كل مطعم يقدم صنفا مختلفا من الطعام. وكل ملهى يقدم برنامجا يتميز به ! وعلاقاته بالنساء كانت أشبه بعلاقاته بالمطاعم والملاهي. مع فارق واحد أنه يدفع ثمن ما يأكل في المطاعم، ولا يدفع ثمن ما يأكل من النساء !

ودهش أن يتحرك ضميره من أجل قسمت ! ولا يتحرك من أجل مئآت النساء الأخريات.. النساء الجميلات الفاتنات الشهيات ! قسمت التي لم يقبلها بعد، التي لم تخلع نظارتها بعد، التي لم يحدث بينهما إلا غزل يشبه غزل الشبان المراهقين من نوافذ الجيران !

ماذا جرى له ؟ هل جبن ؟ هل من المعقول أن يتردد في الاختيار بين

أميرة فاتنة تجرى وراءه، وبين فتاة مشوهة تجرى منه ! هل من المعقول أن يخاف غضب قسمت إذا ذهب إلى المأدبة، ولا يخاف غضب الاميرة إذا لم يذهب؟

* * *

وامسك بسماعة التليفون وطلب قسمت.. وسألها :

— ماذا تفعلين يوم ٤ فبراير؟

— لماذا تسألني هذا السؤال؟

— هذا السؤال إحدى علامات الحب ! كلما زادت الاسئلة زاد الحب !

— ليتك تسألني ألف سؤال !

— إننى أريد أن أعرف هل أنت مرتبطة بموعد فى ذلك اليوم؟

— لو كنت مرتبطة بمواعيد مع أعظم أقطاب العالم، فإننى سوف ألغىها من أجلك.. أنت موعدى الوحيد !

— إذن سارك يوم ٤ فبراير الساعة الثامنة مساء !

— ولماذا اخترت هذا اليوم بالذات .. وهذه الساعة بالذات؟

— لأن الاميرة فضيلة دعتنى للعشاء عندها فى هذا الموعد.. فقرررت أن اقابلك أنت فى الموعد نفسه !

— ولن تذهب إلى الاميرة؟

— لن أذهب ! تكفينى امرأة واحدة فى ليلة واحدة !

— ماذا حدث لك يا عادل.. هل أصبت فجأة بمرض عقلى؟

– لا.. أصبت في القلب !

– كنت أتصور أنك رجل بلا قلب.

– وأنا أيضا كنت أظن ذلك، ولست اعرف متى ولد قلبي، ومتى مرض..
كل شيء حدث بسرعة غريبة !

– أخشى أن يكون قلبك مرض من كثرة الاستعمال.. الرجل العادي
يتحرك قلبه مرة أو مرتين طوال الحياة .. أما قلبك أنت فهو مزدحم كسيارات
اللاوتوبيس !

– إنها المرة الاولى التى أحس فيها بأن قلبي تحرك فعلا.. وأنه ملئ
بالطموح !

– أطباء القلب يقولون إن الطموح الزائد يؤثر في القلب، إنه يزيد
احتياجات القلب إلى الاوكسجين !

– إذن.. عليك أن تقدمى الاوكسجين !

– سأحضر في الموعد..

– بنظارة أم بدون نظارة؟

– كما تريد يا عادل !

– كما أريد؟ هل جننت أنت أيضا؟ إنها أول مرة أسمعك فيها تسرددين
كلمة: « كما تريد » ! أول مرة أسمعك فيها تستسلمين بلا قيد ولا شرط.. لا بد
أنك أنت المريضة !

– إن مرض القلب مرض معد !

– إذن عندما كنت ترفضين خلع نظارتك، لم تكونى اصبت فى قلبك بعد ؟
– إننى أصبت بمرض القلب قبل إصابتك ! أنا التى أعطيتك العدوى
.. لا أنت !

– ولماذا كنت ترفضين قبل الآن خلع نظارتك ؟
– لأنك كنت تشحذ ! أنا لا أحب المتسولين ! المتسولون أضعهم فى
الملجأ.. ولا أضعهم فى قلبى !

– وكيف كنت تريدين منى أن أطلب إليك خلع نظارتك ؟
– كنت أتمنى ألا تطلب منى خلعها .. ان تتقدم وتنزعها ؟ أشياء كثيرة
لا يطلبها الرجل من المرأة، بل يأخذها.. إن هذا ليس رأى إنه رأى عم
عبده !

– وهل أصبح عم عبده مستشارك الخاص فى المسائل الغرامية ؟
– إنه طبيبى فى شئون القلب !

– إذن فمصيرى أصبح فى يد شحاذ !
– إنه متحمس لك . يحكم لصالحك دائما ضدى !

– شحاذ، ومستشار، وطبيب وقاضى غرام ؟.
– المثل يقول « سبع صنایع فى أيدينا.. والهم دایر علينا » !
– وهل أفتى عم عبده بأن تخلعى النظارة !

– أفتى بأن الحب هو عملية تغرية كاملة، يكشف كل طرف فيها عن كل
شئ ، ولا يخفى فيها أى شئ، يقول إن واجب كل طرف أن يحب الطرف

الآخر كما هو، بكل ما فيه من عيوب، ويعتقد أن العاشق لن يرى عيوب
المرأة التي يحبها لأن الحب أعمى!

– ولهذا سوف تخلعين النظارة

– نعم.. لقد أكد لي أن عيني المحب لن تريا إلا الشيء الجميل في
المرأة التي يحبها!

– ولهذا أنت مطمئنة؟

– جدا!

– إذن أنت واثقة أنني أحبك؟

– جدا!

– أخشى أن تكوني لم تعرفي أنني لم أحبك إلا عندما قلت لك إنني مدعو
للعشاء عند الاميرة فضيلة، وأنتى فضلت أن اقابلك أنت في يوم ٤ فبراير..
على أن أذهب إليها!

– قد يدهشك ان تعلم أنني غيرت رأيي!

– لن تخلعي النظارة؟

– لا.. لن أحضر في يوم ٤ فبراير

– لماذا؟

– لأننى سأحضر يوم ٣ فبراير!

– الشوق إلى اللقاء.. جعلك تقدمين الموعد يوما؟

– لو اطعت شوقى.. لجئت إليك الآن!

— إذن ما الذى جعلك تغيرين موعدنا؟

— لتذهب إلى الاميرة فى يوم ٤ فبراير

— يظهر أنك واثقة منى!

— لا.. إننى واثقة من نفسى!

اليوم ٣ فبراير.

جو القاهرة مكهرب.

وزارة حسين سرى باشا قدمت استقالتها إلى الملك. السبب المعلن هو قطع العلاقات بين مصر وحكومة فيشى. السفير البريطانى يلح فى قطع هذه العلاقات بناء على أوامر من تشرشل رئيس الوزراء. خصوم بريطانيا يعارضون قطع العلاقات. رأى العام المصرى ضد الانجليز. يتمنى أن يخسروا الحرب. كراهته للاحتلال البريطانى جعلته يفضل دكتاتورية هتلر على ديمقراطية الحلفاء الناس صدقوا أنه إذا انتصر هتلر فسوف تحصل مصر على استقلالها التام، وسوف يجلو جيش الاحتلال البريطانى عن البلاد. المحن التى تعرض لها الشعب المصرى على يد الاستعمار طوال ستين عاما بلبت عقله. جعلته يتوهم أن الغزاة الالمان سوف يخلصونه من الغزاة الانجليز، كأن الدول الكبرى جمعيات خيرية توزع الحريات على المحتاجين والضعفاء!

توقف العمل فى شركة الهندسة الكهربائية. جلس المهندسون فى مكتب عادل علاء الدين المدير العام. يتناقشون فى السياسة!

أشعل عادل علاء الدين سيجارته ونفخها فى الهواء، وقال:

— خسارة ! يستقيل حسين سرى.. إنه مهندس والبلد في حاجة إلى مهندس !

قال المهندس جورج اسحق :

— سقوط حسين سرى هو سقوط دولة المهندسين. إنها أول مرة في تاريخ مصر يرأس وزارتها مهندس، وأول مرة يصبح في وزارة واحدة أربعة من المهندسين. وسوف يعود الحكم للمحامين، سنعود إلى وزارات الكلام !

وأشعل المهندس خليل مدبولي غليونه وقال :

غلطة حسين سرى أنه نجح في أن ينال ثقة الانجليز وفشل في أن يحصل على ثقة المصريين ! لم يستطع أن يقيم جسرا بين الشعب المصرى والحلفاء.. والانجليز يريدون رجلا يكون هذا الجسر الذى يمشون فوقه !

قال عادل علاء الدين :

— أى رجل يتولى الحكم في هذه الظروف سوف يحترق.. الانجليز يريدون حاكما يسلم لهم على طول الخط.. والشعب يريد حاكما يقف ضد الانجليز. الاقلية تعتقد أن الحلفاء سيكسبون الحرب. والاغلبية تؤمن بأن هتلر سيكسب الحرب، لا عن اقتناع ولكن عن «تمن» !

قال مدبولي :

— وأنا أتمنى أن يأكل الاسدان بعضهما بعضا ولا يبقى منهما الا الذيل !

قال عادل :

— إننى علمت أن حسنين باشا رئيس الديوان الملكى يريد أن تتألف

وزارة قومية برئاسة مصطفى النحاس ويقف البلد كله صفا واحدا لمواجهة المستقبل، سواء انتصر الألمان أو انتصر الحلفاء.

قال مدبولي :

— ولكن الانجليز لن يوافقوا على مثل هذه الوزارة. سياستهم دائما تقوم على أساس مبدأ (فرق تسد) انهم يريدون أن يهددوا رئيس الوزراء كل يوم بأن يخرجوه ويجيئوا بأحزاب المعارضة. وبذلك يستنزفون منه ما يريدون تحت التهديد ! يريدون وزارة تهاجم خصومها بدلا من أن تهاجمهم، وتدافع عن نفسها بدلا من أن تدافع عن مصالح مصر.

قال عادل :

— لو اتحدت الأحزاب في هذه اللحظة وألفت وزارة واحدة، فسيمكنها أن ترغم الانجليز على أن يوقعوا وثيقة الجلاء عن مصر والسودان عندما يكسب الحلفاء الحرب، وعندئذ تتحول كراهة المصريين إلى صداقة.

قال جورج اسحاق :

— وعندئذ تعلن مصر الحرب على المحور، وتشترك قواتنا في الحرب مع جيوش الحلفاء، وسوف يسعد هذا الانجليز..

قال عادل :

— إن هذه أكذوبة رددناها طويلا حتى صدقناها ! إن الانجليز لا يريدون أن نعلن الحرب على المحور. ولا يريدون أن يدخل الجيش المصرى رسميا في الحرب ! الجيش المصرى يحارب فعلا ! ولكنه يحارب سرا ! المدفعية المصرية هي التي تحرس القناة والشواطئ والحدود، وهي التي تسقط طائرات الألمان والايطاليين.. ومصر تقدم للحلفاء التموين والمواصلات

كأنها تحارب فعلا. والانجليز يسيطرون على كل شيء في مرافقنا.. موانينا..
مطاراتنا.. حتى الذي يراقب الصحف المصرية هو انجليزى اسمه مستر
فرنس.. ولو كان الانجليز يريدون منا أن نعلن الحرب لارغمونا على إعلانها
من اليوم الاول!

قال مدبولى:

– إن الشعب عارض أحمد ماهر عندما طالب بإعلان الحرب ظنا منه ان
الانجليز هم الذين يطالبون بإعلان الحرب.. وأن شقيقه على ماهر هو الذى
يعارض فى إعلان الحرب. وأن هذا سر اخراجه من رئاسة الوزارة!

قال عادل:

– الانجليز اخرجوا على ماهر لأنهم اتهموه بأنه على علاقة بالمحور..
لا لأنه رفض إعلان الحرب... والدليل على ذلك أن وزارة حسن صبرى باشا
خلفته ولم تعلن الحرب. وأن حسين سرى باشا الف بعد ذلك وزارتين ولم
يعلن الحرب لقد قال لى الجنرال ستون رئيس البعثة العسكرية البريطانية
إنه فى رأيه ان بريطانيا استفادت استفادة ضخمة من عدم دخول مصر
الحرب، لانه لو كانت مصر اشتركت فى الحرب لعاملتها بريطانيا كحليفة
لا كمستعمرة ولا اضطرت بريطانيا إلى تسليح الجيش المصرى ولحسبت
لندن ألف حساب للقاهرة عندما يحين الوقت لبحث مشكلة فلسطين...

قال مدبولى:

– ولكننا جميعا لعنا أحمد ماهر عندما طالب بإعلان الحرب على المحور
سنة ١٩٤٠.

قال عادل:

– كما لعنا الشيخ محمد عبده عندما طالب بتحرير الدين من الخزعبلات.
وكما لعنا قاسم أمين عندما طالب بتحرير المرأة. وكما لعنا لطفى السيد
عندما قال إن مصر للمصريين، وكانت الوطنية وقتئذ أن تكون علاقة مصر
بتركيا علاقة التابع بالمتبوع !

قال مدبولى :

– كنت أوّمن دائما بأن الشعب لا يخطئ، إلى أن رأيت مظاهرة من
عشرات الالوف في سنة ١٩٢٦ تذهب إلى بيت الأمة وتطالب سعد زغلول
بشنق طه حسين لأنه ألف كتاب « الشعر الجاهلى » الذى ناقش فيه القرآن.
واضططر طه حسين أن ينشر بيانا في الصحف يعلن فيه أنه مسلم مؤمن بالله
وملائكته ورسله واليوم الآخر !

قال عادل :

– من عادة الشعوب أن ترجم المصلحين بالطوب ثم تقيم لهم التماثيل
بعد أن تدفنهم ! الذين قتلوا الامام على لا يزالون يكون عليه حتى الآن
والذين حرقوا جان دارك : منحوها لقب قديسة !

قال مدبولى :

– إن بلادنا تحتاج إلى الواقعيين والخياليين، الخياليون يحلمون،
والواقعيون ينفذون. عيب قادتنا أنهم إما مهندسون. وإما محامون المطلوب
رجل يهندس ويتكلم.. يعمل ويحلم !

قال عادل :

– إننى استعرض رجالنا فلا أجد فيهم سوى صفة واحدة من الصفتين
الذين يتكلمون لا يعملون ؟ والذين يعملون لا يتكلمون.

قال مدبولي :

– مكرم يحلم ويتكلم

قال جورج :

– وإسماعيل صدقي عقله فرنسي وقلبه ايطالي ولسانه اسبرانتو.. ولهذا.

قال عادل :

– وعلى ماهر لا يؤمن إلا بنفسه ! ولهذا يكفر به الجميع !

قال مدبولي :

– والنحاس رجل طيب.. وعييه أن مكرم يسيطر عليه !

قال جورج :

– إن يسيطر عليه مكرم الوطنى خير من أن يسيطر عليه السفير البريطانى الذى كان يسيطر على الكثيرين من رؤساء الوزارات المصريين، النحاس هو الشعب. ومادام يبقى خارج الحكم فمعنى ذلك أن الشعب محروم من حكم نفسه.

قال عادل :

– وأحمد ماهر حرق نفسه أمام رأى العام عندما طالب بإعلان الحرب على المحور ! كل أم فى مصر كرهته خشية أن يؤدى ذلك إلى تجنيد ابنها. لعنه الشبان لأنهم لم يجدوا رسالة يموتون من أجلها ! اعتبره الوطنيون خائنا لأنه يطالبنا بأن نحارب جنبا إلى جنب مع أعدائنا. الشعب لم يفهم قضية الديمقراطية التى يحارب من أجلها الحلفاء عيب الانجليز أنهم اعتبروا الديمقراطية بضاعة غير قابلة للتصدير ! كانوا يحاربون كل حكم

ديموقراطى فى مصر! كانوا وراء الملك فؤاد عندما حل أول مجلس نواب
مصرى.

كانوا وراء محمد محمود عندما عطل الدستور. كانوا وراء إسماعيل
صدقى عندما ألغى الدستور. ولم يصدق الشعب أن أعداء الديمقراطية فى
مصر يمكن أن يكونوا أنصارها فى أنحاء العالم!

قال مدبولى:

— معنى ذلك أن كل واحد من هؤلاء لا يصلح لكى يحكم البلد وحده.

قال عادل:

— ولهذا يجب أن تتألف وزارة منهم جميعا، يكمل بعضهم بعضا فيها.
ومن مجموع هؤلاء تتكون قيادة قوية تهندس وتتكلم.. تعمل وتحلم.

قال مدبولى:

— إن تشرشل يرأس وزارة من أحزاب المحافظين والعمال والأحرار.
وروزفلت عين اثنين من خصومه من زعماء المعارضة فى أهم منصبتين فى
الوزارة، وجعل أحدهما وزير الحربية والآخر وزير البحرية.. فى ساعات
الازمات يجب أن تكون الأمة كتلة واحدة.

قال جورج:

— ولكن النحاس يرفض أن يؤلف وزارة قومية..

قال عادل:

— لقد جرب النحاس الوزارة الائتلافية سنة ١٩٢٨ واستقال أربعة

وزراء... ثم أقيمت الوزارة في اليوم التالي... وهو رجل مؤمن لا يلدغ من جحر مرتين !

قال مدبولي :

– ولكننا الآن في سنة ١٩٤٢.. لقد مرت ١٤ سنة على هذه التجربة وفشل تجربة مرة واحدة لا يكون دليلا على فشلها دائما...

قال عادل :

– سمعت أن الملك دعا النحاس ومكرم لمقابلته، وهو يظن أن مكرم هو الذي يؤثر على النحاس برفض الوزارة القومية... وحسنين باشا يعتقد أنه سوف يقنع مكرم بقبول فكرة الوزارة القومية.

قال جورج :

– إن حسنين لا يعرف النحاس إن رأسه ناشف. ولا يمكن ان يقنعه ألف مكرم بقبول تأليف وزارة قومية... وليس من مصلحة مكرم أن تؤلف وزارة قومية، فإذا تألفت وزارة وفدية فسيكون هو رئيس الوزراء الحقيقي.

قال عادل :

– إن المحيطين بالنحاس يقولون إن مكرم لم يعد أقوى شخصية بجانب النحاس... إن أقوى شخصية هي زينب هانم زوجته !

ضحك مدبولي وقال :

– كان على الملك إذن أن يدعو زينب هانم لمقابلته !

* * *

وقفت قسمت أمام المرأة.

اليوم موعد لقائها مع عادل.

اليوم الذى عاشت له بأحلامها والذى انتظرتة طول حياتها. وهى سعيدة أن هذا اليوم جاء أخيرا. ومع ذلك فهى خائفة، كما لم تخف طوال حياتها ليست خائفة أن تخلع نظارتها. ولا هى خائفة أن تخلع كل ملابسها. ولا هى خائفة من الذئب الذى ينتظرها. فهى تعلم جيدا ان مواعدها الليلة مع ذئب. لم يخذعها مرة واحدة ويزعم أنه حمل وديع. كان دائما يذكرها بأنه ذئب. وبأنه مفترس. وبأنه سيبدأ معها بما ينتهى به سائر الرجال !

زئ النساء يجيد اصطياذ النساء لأنه ماهر فى اخفاء أنيابه. ابتسامته الحلوة تخبى نواياه. كلماته المعسولة فيها أفيون يخطر الضحية. ويجعلها تستسلم بلا مقاومة. هو طبيب بنج ممتاز يجرى العملية الجراحية والمريضة تتصور أنها لم تبدأها بعد. بل تقتنع بأنها ليست فى حاجة إلى إجراء عملية

أما عادل فلم يخف أنيابه. كان دائما يحذرهما من نفسه ! لم يطمئنهما مرة واحدة، وكأنه كان يقول لها فى كل حديث تليفونى أنا وحش... يجب أن تخافى منى... و « أنا ذئب... احذرينى » و « أنا سافل... وليس لدى أغراض نبيلة » !

لقد سمعت قبل ذلك عشرات القصص من صديقات لها وقعن فى الحب. كل واحدة منهن أقسم لها حبيبها أنه سيحافظ عليها كما يحافظ على أخته. كل واحد منهم أكد لحبيبتة أن غرضه شريف وأنه يحبها حبا عذريا بريئا. كل واحد منهم حرص على أن يرتدى ثياب الحمل الوديع ويضع للشيطان فيه أجنحة الملائكة !

حتى صديقتها أميرة عبد العاطى روت لها مفامراتها مع عادل نفسه...
بكل تفاصيلها ودقائقها... وقالت لها إن عادل كان يقول لها إنه يحبها حبا
شريفا.. وأنه عندما صاحبها في سيارته في موعدها الأول لم يحاول أن
يقبلها.... ولكنها لم تعرف ماذا حدث بعد ذلك، ولا كيف حدث، كل ما عرفته
أنها أعطت لعادل كل شيء!

فلماذا يخصصها عادل علاء الدين وحدها بهذه المعاملة الغريبة؟ لماذا لم
يحاول اغراءها؟ لماذا لم يحاول خداعها كما فعل مع كل امرأة أخرى؟
لماذا لم يلوح لها مرة واحدة بالزواج؟ انها كانت ستعرف أنه كاذب، ستعرف
أنه يخدعها، ليست طفلة حتى تصدق وعود الرجال، ليست ساذجة لتشرب
زجاجة البكاروزة الحمراء، التى تدعى كل فتاة أنها شربتها قبل أن تستسلم
للرجل الذى تحبه!

هل يقصد عادل بهذه الشروط القاسية أن يفزعها؟ أن يجعلها تهرب منه؟
هل هى طريقة مؤدبة لطردها من حريمه الملىء بالنساء الجميلات؟

الرجل عندما يريد امرأة يجعل لها « البحر طحينة ». يسهل لها كل صعب
يغلف نواياه بالورق المفضض: يفرش طريق الشوك بالورود والرياحين،
يخفى المر في زجاجة كبيرة مليئة بالسكر المذاب.. أما عادل فقد حرص
دائما على أن يقول لها إنه لا يأخذها إلى شاطئ البحر... وإنما يغوص بها
في أعماقه وأن عليها أن تذوق المر أولا لتستمتع بعد ذلك بالسكر المذاب!
ولو كان يريد بها أن تنجو بنفسها فقد كان لديه ألف طريقة وطريقة لوقف
هذه العلاقة قبل أن تبدأ. لما فضل أن يلقاها هى ولا يلقى الأميرة فضيلة.

وكل تجذيرات عادل لم ترعيبها. زادت من تعلقها به، ضاعفت من حماسها
لللقاء. ولو أنه طمانها لما اطمأنت بل لاحست بالخطر، لا بتعدت أيكون قد

فهمها؟ قد عرف أنها امرأة تختلف عن كل النساء. تحب الخطر وتكره الأمان، تعشق الذئاب وتزهد في الحملان؟ لقد كانت تكره الرجال لأنها تكره الكذب تعتقد أن جميع الرجال كذابون مخادعون، يقولون غير ما يبطنون. ألسنتهم تقول أشياء غير ما تقوله قلوبهم وأجسادهم وعيونهم. ولم يحدث مرة واحدة أن قال لها رجل أنه يريد لها. صحيح أن مظهرها لا يشجع على هذه الرغبة. ولكنها سمعت رجالا يقولون إنهم يريدون أن يتزوجوا بها، وهي تعلم أنهم يريدون الزواج بالمائتى فدان!

ولكن هذا الرجل الغريب قال لها ما لا يقوله أى رجل لى امرأة!

أىكون هذا السبب هو الذى جعلها تحبه كل هذا الحب؟ لا.. إنها أحبته قبل أن يصارحها بالحقيقة.. ثم عبدته بعد أن قال لها كل الحقيقة! إنها احترمتة عندما لم يقل لها أنها ستكون المرأة الوحيدة فى حياته. ولو كان قالها لا حتقرته. فهى تعلم أنها ليست فاتنة كالأميرة فضيلة.. وليست شائقة كاميرة عبد العاطى، وليست مثيرة كفاطمة عبد الرسول. ولا هى ملكة جمال كعصمت شفيق. ولا هى لعوب كزينب كامل، ولا هى ملكة ليل كاجلال فوزى ملكة الاغراء.. وغيرهن من النساء اللاتى دخلن قلب عادل علاء الدين!

لقد قالت له إنها راضية بأن تكون واحدة من جواريه، محظية فى بلاط سلطان الغرام!

كل ما قاله لها إنها تستطيع أن تحل محل هؤلاء جميعا لو استطاعت! وهى خائفة ألا تستطيع. خائفة ألا تعجبه. خائفة أن تسقط فى الامتحان! واليوم هو موعد الامتحان النهائى. امتحان ليس له ملحق. ولا دور ثان! وهى أشبه بتلميذ لم يفتح كتابا. لم يتلق دروسا خصوصية. لم يلتفت

للمدرسين في أثناء الشرح في الحصص.. ثم هوجئ بيوم الامتحان !

وارتعتت قسمت وهي واقفه أمام المرأة !

أطلت في المرأة، وخشيت أن تكون الصورة المرتسمة فيها، هي إجابتها في يوم الامتحان.. وهي إجابة لا تستحق إلا الصفر.. الصفر من عشر درجات ! ومشت أمامها أطياف الأميرة فضيلة وأميرة عبد العاطي وفاطمة عبد الرسول وعصمت شفيق واجلال فوزى..

إن كل واحدة منهن هي الاجابة الصحيحة على كل سؤال !

وفتحت دولاب ملابسها واستعرضت ثيابها فيه.. تبحث عن ثوب جميل أنيق !

وتذكرت أن كثيرا من الثياب التي أحضرها لها أبوها من روما وباريس ولندن قد وزعتها على الخادومات ! ابت أن ترتدى هذه الفساتين الانيقة المثيرة وفضلت عليها أثوابها الباهتة المسكينة التي جعلتها تبدو كالمتسولات !

وتذكرت ثوبا أعطته من أسابع لخادمتها كوثر. إنه فستان مصنوع من المخمل المضلع، المحلى بفصوص ذهبية، لونه الأحمر غريب ويلائم جسدها، ويظهر مفاتنها، ويتفق مع سمريتها، وياقته رمادية كلون طلاء شقة عادل.

وفكرت قسمت في أن تقترض الفستان من خادمتها كوثر. إنه آخر موضة ابتكرتها باريس لهذا الشتاء.

لعلها بهذا الثوب الأنيق.. ترفع درجتها في امتحان الليلة !

واسرعت تنادى خادمتها كوثر وتطلب منها أن تحضر الفستان..

وجاءت كوثر بالفستان..

وأمسكته قسمت وذعرت !

ولقد غيرت كوثر الفستان الانيق نزعت الياقة الرمادية ووضعت مكانها
ياقة زرقاء ! انتزعت الفصوص الذهبية ! حولت آخر موضة ابتكرتها باريس..
إلى آخر موضة ابتكرتها خياطتها أم على !

وأعادت قسمت بقايا الثوب الانيق في حسرة إلى خادمتها كوثر،

وعادت إلى دولاب ملابسها تبحث عن ثوب يليق بالمناسبة السعيدة !

ورأت ثوبا نسيت أن توزعه على الفقراء..

واسرعت ترتديه.. فوجدته يلتصق بجسدها، ويبرز مفاتنها كلها.. وهو
مصنوع من قماش الاورجنزى.

وأحست بأن هذا الثوب يكاد يجعلها عارية ! إنه يظهر صدرها ويلتف بها
التفافا عجيبا..

وشعرت لأول مرة في حياتها بأنها مثيرة !

ثم خلعت نظارتها..

ونظرت في المرأة..

وتضاعف ذعرها..

انها بدت أشبه بالغانية !

إن أجزاء مختلفة من جسدها تطل من هذا الثوب الضيق، كأنها تحاول

أن تنطلق منه، كأنها تصرخ، كأنها تنادى، كأنها تصيح !
وكلما اخفت بيدها مكانا في جسدها وكأنها تكتم صراخه بيديها، وجدت
باقى أجزاء جسدها تنطلق فى الصراخ !
ماذا حدث ؟ !

إن هذا ليس ثوبا !
أنه أشبه بمحطة اذاعة !
وأسرعت تضع النظارة فوق عينيها..
واخفت النظارة عينيها.. كانت أشبه بكمامة تمنع عينيها من الكلام.
ولكن بقيت أجزاء من جسدها تصرخ من خلف الفستان !
وخلعت الثوب بسرعة..
ألغته على الأرض..
وأسرعت ترتدى فستانا بسيطا واسعا، غامقا، باهتا..
وأطلت فى المرآة من جديد..
وأطمأنت..
لقد توقفت محطة الاذاعة فجأة عن الصراخ..
واسرعت فى طريقها إلى شقة عادل علاء الدين..

الفصل العاشر

أنهى عادل علاء الدين أعماله التي تراكمت منذ الصباح في شركة الهندسة الكهربائية، لينصرف إلى داره استعدادا للقاء قسمت.

عجيب أن يهتم بهذا اللقاء كل هذا الاهتمام. ما قسمت إلا امرأة كعشرات النساء اللاتي عرفهن. بل هي أقل منهن جميعا، أقل منهن جمالا، أقل منهن أناقة، أقل منهن رشاقة. ماذا فيها من جديد حتى يشعر بهذا الشعور الغريب؟

حتى اللذة التي يشعر بها الصياد وهو يطارد الفريسة الجامحة لا يشعر بها. إنه يعزف أنها استسلمت له قبل أن يقبلها. فهي أسهل امرأة عرفها في حياته. لم يحتج معها أن يشرع أسلحته، ولا أن يستعمل خبرته في فن المطاردة والاغراء.

المرأة الصعبة أشبه بقمم الجبال الشاهقة، مشقة الوصول إليها فيها لذة ومغامرة وبطولة. الأخطار التي تصادفنا تسكرنا. العقبات التي تواجهنا تثير فينا الحماس. المطاردة نفسها عملية شائقة. عندما تفلت الفريسة من بين أيدينا في اللحظة التي ننتهي فيها لالتهامها، في هذه اللحظة يتضاعف شوقنا وتزداد لهفتنا وتتحول المطاردة إلى سباق مثير، وتبدو الفريسة وهي تفلت من أيدينا أحلى مما كانت وهي بين أصابعنا.

كل هذه المشاعر الجميلة يفتقدونها عادل في الموعد الذي حددته للقاء قسمت. كأنها أول غزال يصطاده بغير أن يعدو خلفه، بغير أن يختبئ منه، بغير أن يداوره ويحاوره، بغير أن يطلق عليه رصاصة واحدة.

المنطق كان يقضى بأن يزهد في هذه الفريسة السهلة، أن يهزأ بها، ألا يحسب أى حساب لها. ولكن الغريب أنه يفكر كثيرا في هذا اللقاء، كأنه ليس موعد غرام وإنما زفافه الأول. كأن القادمة ليست عشيقة جديدة، وإنما عروس جديدة! وخيل إليه أنه يرى قسمت تدخل شقته في ثياب الزفاف، والطرحة البيضاء فوق رأسها!

واضطرب عادل. وتذكر أن قسمت عروس فعلا، وأن هذه ليلة زفافها هي أول عروس حقيقية في حياته. كل عشيقاته كن متزوجات، أو أرامل أو مطلقات. كان يهرب دائما من العذارى، يخافهن، لأنه يجد لذة في أن يذوق الهوى دون أن يدفع الثمن. وعلاقة مع عذراء قد تكلفه عمره كله!

وإذا بعذرائه الأولى هي قسمت شاهين التي كان يسميها «عذراء بالرغم منها»... التي كان يقول لصديقتها أميرة عبد العاطى إن سر احتفاظ قسمت بطهارتها لا يرجع إلى ارتفاع مستوى الفضيلة فيها، وإنما يرجع إلى مستوى الذوق في الشعب المصري!

وها هو ذا يثبت انحطاط ذوقه في تقدير الجمال، ويقبل على فتاة زهد فيها كل الشبان والرجال. ويشعر بأن في داخلها جمالا مخبوءا، بأن فيها شيئا ما يثيره، يجعله يتحرق إليها شوقا وهياما، شيئا مجهولا في داخلها لا يعرف ما هو، ولكنه يعرف أنه يغريه ويلهبه!

ونظر عادل إلى الساعة فوجدها السابعة مساء. بقى على موعدها ساعة كاملة..

وأسرع يفلق أدراج مكتبه، واتجه إلى الباب، وإذا به يسمع جرس تليفون مكتبه يدق. ومضى يفتح الباب. واستمر التليفون يدق. وخيل إليه أن هذا ليس صوت التليفون. إنه صوت نسمت يعتذر عن عدم الحضور في الموعد. وأحس بضيق شديد. كما خيل إليه أن رنين جرس التليفون هو رنين جرس الكنيسة عند دفن الموتى. وانقبض قلبه. وتصور أن الرنين هو اعلان عن جنازة موعده مع قسمت. وعاد إلى التليفون بخطوات ملهوفة، وأمسك سماعة التليفون بيد مرتعشة ثم انبسطت اساريه لأنه لم يسمع صوت قسمت، وإنما سمع صوت صاحب المعالي أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى يقول له :

— تعال عندى الآن يا عادل فى مكتبى فى القصر..

وتذكر موعده مع قسمت. فقال :

— هل من الممكن أن أحضر غدا؟

قال حسنين باشا بحزم :

— إنه أمر هام. لن يستغرق سوى خمس دقائق!

قال عادل :

— إننى قادم إليك فوراً. إن لى اجتماع مجلس إدارة فى الساعة الثامنة مساء.

قال حسنين :

— إن المسألة التي أريدك فيها لا تستغرق أكثر من خمس دقائق !

وركب عادل سيارته، ونظر إلى ساعته. إنها السابعة وخمس دقائق والمسافة بين مكتبه والقصر خمس دقائق. ولقاء رئيس الديوان خمس دقائق.. إن لديه الوقت الكافي ليكون في شفته قبل حضور قسمته.

وبينما كان يقود سيارته إلى قصر عابدين كان يفكر في حيرة في السبب الذي دعا رئيس الديوان الملكي لكي يستدعيه لمقابلته في أثناء الأزمة الوزارية الطاحنة.. فهو رجل لا يشتغل بالسياسة.. وليس من المعقول أن يستشير رئيس الديوان في الأزمة الخطيرة !

وابتسم ساخرا عندما خطر بباله، أنه ربما كان حسنين باشا هو الذي سيؤلف الوزارة الجديدة، وأنه استدعاه ليفرض عليه منصب وزير الاشغال أو منصب وزير المواصلات !

وضحك وهو يقول لنفسه انه يفضل مواعده مع قسمته على منصب الوزير ! ما أعظم الفرق بين سرير الحكم وسرير البيت ! إننا نتعري في كل واحد من السريرين ! ولكننا نرى في سرير البيت الأحلام ونرى في سرير الحكم الكوابيس ! سرير البيت مريح، وسرير الحكم متعب ! سرير البيت ثابت ! وسرير الحكم لا يكف عن الاهتزاز ! النوم في سرير البيت هو القاعدة، والأرق هو الاستثناء، والأرق في سرير الحكم هو القاعدة، والنوم هو الاستثناء ! إننا ننام في سرير البيت مع من نحب، ولكننا نعيش في سرير الحكم مع من لا نحب ولا نطيق !

وأبعد من رأسه فكرة إسناد أى منصب وزارى، فإن رئيس الديوان يعرف أنه يكره المناصب الحكومية وأن سعادته هي في العمل بشركة الهندسة

الكهربائية التى بناها حجرا حجرا، وجعلها من أكبر الشركات الهندسية فى البلاد.

وتذكر عادل أنه يعرف عن حسنين أنه شخصية خرافية، له قدرة خارقة على السيطرة على أعصابه. وأنه اعتاد فى أثناء الأزمات الخطيرة عندما يعجز عن الوصول إلى حل، ويجد الأبواب كلها مسدودة أمامه، أن ينتزع نفسه من الأزمة، وينشغل بموضوع لا علاقة له بالأزمة. وهو يذكر أنه عندما وقعت الأزمة بين الملك والانجليز بعد استقالة على ماهر باشا من رئاسة الوزارة، وتكهرب الجو وتلبد بالسحب وانذر بالأعاصير أن موظفى القصر فوجئوا برؤية نجيب الريحاني والفنان الضاحك سليمان نجيب والمغنى الكوميدي عزيز عثمان يدخلون القصر، ويتجهون إلى غرفة رئيس الديوان الملكى، ويفلق عليهم الباب، ثم ترتفع ضحكاتهم وقهقهاتهم.. وموظفو القصر يضربون كفا بكف أسفا على رئيس الديوان الذى يمضى وقته مع زعماء الكوميديا فى مصر، بدلا من أن يمضى وقته مع زعماء مصر..

وبعد ساعة كاملة انصرف أبطال الكوميديا.. وعندئذ فقط اكتشف حسنين الحل الذى أنهى الأزمة، فتولى حسن صبرى باشا الوزارة،

ربما يكون حسنين باشا أراد أن يهرب هذه المرة من الأزمة الخطيرة التى تهز أعصاب الجميع، إلى البحث مع عادل فى إحدى المسائل الاجتماعية!

لقد عرف حسنين بصفته رئيس جمعية الرواد التى هو عضو فيها، أنها جمعية مؤلفة من عدد من الشباب المثقفين، مهمتها دراسة المسائل الاجتماعية فى البلاد. تعلم أولاد العمال الفقراء فى حى زينهم، تجمعهم من الأزقة والحوارى، تحاول أن تحولهم من متشردين إلى مواطنين صالحين،

تمسك بأيديهم، تدريبهم على الرياضة، تعلمهم مبادئ القراءة تخلق منهم الانسان المصرى الجديد.. الشبان الذين يعملون في هذه الجمعية هم نواة لكثير من المؤسسات الاجتماعية الكبرى. لا يشتغلون بالسياسة، يدرسون ويتناقشون ويبحثون، يحاولون من خلال المناصب التى يتولونها أن يبعثوا وعيا اجتماعيا، شرطهم الوحيد أن يعملوا في صمت، كلهم متساوون، يتساوى رئيس الديوان الملكى مع أصغر موظف شاب في الدولة. يتساوى مدير جامعة القاهرة مع العضو الطالب في كلية العلوم. لا يجمعهم إلا أنهم تروس في مصنع يحاول أن يصنع الانسان المصرى الجديد !

لعل رئيس الديوان الملكى استدعاه ليحدثه في مشروعات جمعية الرواد في الوقت الذى تطحن فيه البلاد في زلزال سياسى خطير! لقد كان حسنين يقول إنه يعتقد أن مركز السياسة في المستقبل سيكون في حى زينهم بالسيدة زينب، لا في قصر عابدين !

* * *

ووصل عادل إلى القصر. فاستقبله الاستاذ محمد ياسين سكرتير رئيس الديوان، ولم يدعه ينتظر، بل قاده مباشرة إلى غرفة رئيس الديوان وهو يقول :

— معالى الباشا ينتظرك..

وما كاد عادل يدخل غرفة رئيس الديوان حتى تراجع إلى الخلف. رأى الملك فاروق جالسا فوق مكتب حسنين، وفي يده عصا صغيرة، بينما جلس حسنين في مقعد أمام المكتب.

وناداه حسنين قائلا :

– تفضل يا عادل !

ثم وقف، وقدمه إلى الملك، الذى حياه، وهو جالس فوق المكتب ودعاه لأن يجلس فى مقعد مجاور..

ولمعت عينا حسنين الصغيرتان خلف نظارته وقال :

– إننى استدعيتك يا عادل، لأننى أعرف أنك صديق للنحاس باشا.

– نعم، اننى أعرفه منذ كنت طالبا فى كلية الهندسة، وكنت عضوا فى لجنة الطلبة.

– وأعرف أنك تعرفه جيدا.

– طبعا أعرفه جيدا. اننى أزوره باستمرار ..

وقاطعه الملك وقال :

– هل أنت وفدى؟

قال عادل :

– إننى لا أشتغل بالسياسة، والعلاقة بينى وبين النحاس باشا علاقة شخصية، وأزوره فى المناسبات وهو يكلفنى دائما بكل الأعمال الكهربائية التى يريدونها..

وضحك الملك وقال :

– إذن، أنت خير من يوصل النور إلى النحاس باشا !

ولم يفهم عادل ما يقصد الملك..

ووضع حسنين يده فى جيبه، وأخرج ورقة أعطاها لعادل وهو يقول :

– اقرأ هذه الورقة !

وفتح عادل الورقة المطوية. فوجدها مكتوبة باللغة الانجليزية، وما كان يتم قراءتها حتى ارتعشت الورقة في يده ! لم يجد في الورقة سوى سطرين اثنين ولكنه قرأ في السطرين الاثنين أشياء كثيرة هزته من أعماقه !

قرأ : « إذا لم أعلم أن النحاس باشا ألف الوزارة حتى الساعة الثامنة من مساء اليوم، فسيكون الملك فاروق مسئولاً عما يحدث له »،

ولم يكتف عادل بقراءة الجملة مرة واحدة. قرأها عدة مرات وفي كل مرة كانت الحروف تكبر وتضخم أمام عينيه..

وقال حسنين في هدوء :

– هذا هو نص الانذار البريطانى الذى سيقدمه السفير البريطانى غدا إلى جلالة الملك. وقد أمكننى الحصول على نصه قبل موعد تقديمه بأربع وعشرين ساعة !

– قال عادل : هذا أمر خطير !

قال حسنين : أنا لم استدعك لأسالك رأيك في خطورة الانذار. اننى استدعيتك بصفتك صديقاً للنحاس، لأسالك سؤالاً واحداً : هل تعتقد أن صديقك النحاس يقبل أن يجرى إلى الحكم في ظل هذا الانذار البريطانى ؟ !

قال عادل : مستحيل أن يقبل تولى الحكم في ظل هذا الانذار. إننى أعرف النحاس جيداً، وأعرف أنه رجل وطنى مخلص، هذه مسألة بديهية لا تحتاج إلى أن تسألنى رأى فيها. أنا أؤكد لك أن النحاس سيرفض أن يتولى الحكم بعد أن يعلم بهذا الانذار. إن هذه حقيقة حسابية مثل واحد زائد واحد يساويان اثنين !

قال حسنين :

– اننى لست عالما مثلك فى الحساب ! اننى جاهل فى علم الحساب..
وجاهل فى علم السياسة.. ولكن على قدر معرفتى بالانجليز اعتقد أنهم
لا يجرؤون على تقديم هذا الانذار إلى ملك مصر إلا إذا كانوا على اتفاق
مسبق مع النحاس على قبول رئاسة الوزارة.. وإلا فسوف تعرض بريطانيا
سمعتها وكرامتها لفضيحة دولية، عندما يجيء النحاس ويرفض تولى الحكم
فى ظل الانذار البريطانى !

قال عادل فى حماس :

– النحاس يفضل أن يشنقوه على أن يتولى الحكم بهذه الطريقة !

وابتسم حسنين ساخرا وقال :

لماذا لا تذهب إلى النحاس وتخبره بأن الانجليز سيقدمون للملك غدا
هذا الانذار، وتعرف منه موقفه ! هل يقبل رئاسة الوزارة فى مثل هذه
الظروف أم يرفضها !

قال عادل فى غضب :

– اننى اؤكد لك أنه لا يقبل. أى رجل وطنى لا يمكن أن يقبل. والنحاس
قد تكون له أخطاء سياسية، ولكنه وطنى مائة فى المائة !

قال حسنين :

– أنا أعرف أنه وطنى مائة فى المائة.. ولكن ما الضرر فى أن تذهب
وتسأله ليطمئن قلبى !

قال عادل فى حماس :

— اننى مستعد أن أذهب إليه الآن، وأجىء لك بالجواب خلال نصف ساعة.

وكان الملك صامتا أثناء هذا الحديث، ينقل عينيه بين عادل وحسنين دون أن ينطق بكلمة واحدة.. كل ما كان يفعله أنه كان يضرب بعصاه فوق مكتب حسنين بحركة عصبية..

قال حسنين :

، إن الملك عرض على النحاس باشا رئاسة وزارة قومية.. والانجليز ينفذون الملك، إما أن يقبل وزارة وفدية برئاسة النحاس.. وإما أن يخلعوه من العرش ويولوا الأمير محمد على ملكا على مصر.

واهتز عادل وقال :

— لن يقبل النحاس هذا أبدا.. أبدا ! إننى سمعت النحاس بأذنى يقول مرة إن الأمير محمد على انجليزى أكثر من السفير البريطانى ! وأسرع عادل، واستقل سيارته إلى النادى السعدى..

كان يقود سيارته كالمجنون.. نسى كل شيء، نسى مواعده مع قسمت، نسى أن هذه هى الليلة الموعودة، كان مغيظا من حسنين. أنه سخر به أمام الملك. أنه لم يصدق تأكيدات أن النحاس لا يمكن أن يتولى الوزارة بانذار بريطانى. إن حسنين لا يعرف النحاس كما يعرفه عادل. لا يعرف صلابة هذا الرجل، لا يعرف ايمانه باستقلال بلاده، لا يعرف أنه كان يطلب من الملك أن يرفض مطالب الانجليز، أن يصمد لهم، إنه وعده بأن يقف وراءه إذا وقف ضد الانجليز. ولكن حسنين يعرف كل هذا، فلماذا يتجاهله أمام الملك. لماذا يوهم الملك بأن النحاس سيقبل تولى رئاسة الوزارة !

إن هذا الانذار هو اسفين يدقه الانجليز بين الملك وزعيم الاغلبية. إنهم
ذعروا من التقارب الذى حدث بينهما فى الشهور الأخيرة. إنهم يعلمون أن
وحدة الملك مع الشعب ستؤدى إلى الوقوف أمام مطالبهم التى لا تنتهى.
ولهذا قدموا هذا الانذار، ليعود الخلاف من جديد بين القصر والوفد.

ولكنه — هو عادل علاء الدين — سوف يفسد على الانجليز خططهم
الجهنمية وسيجىء للملك برد النحاس الحاسم على هذه الدسياسة
الخطيرة.. لا يمكن أن يكون النحاس على علم بهذا الانذار، ولكنه سيعلم
الآن، ولن يسكت. سيفضح الاعيب الاحتلال!

إن حنين ضعيف فى شئون السياسة. إنه كثيرا ما اعترف له بأنه
لا يفهم شيئا فى السياسة.. السياسة هى القدرة على الفهم وأى مهندس
يملك القدرة على الفهم فإن واحدا زائدا واحدا يساويان اثنين!



ووصل عادل إلى النادى السعدى وطلب مقابلة النحاس باشا، فقبل له إنه
فى اجتماع للوفد.

فكتب اسمه على ورقة وقال إنه يرغب فى مقابلة الزعيم دقيقة واحدة لأمر
خطير. وبعث بالورقة إلى النحاس داخل الاجتماع، وما كاد الزعيم يقرأ
الورقة حتى ترك الاجتماع، وأقبل على عادل مرحبا مهللا..

وقال عادل:

— هل سمعت رفعتك بأن الانجليز سيقدمون انذارا للملك يطلبون فيه أن
تتولى رئاسة الوزارة أو يخلعوا الملك؟

قال النحاس ببساطة : نعم سمعت !

وروى عادل للنحاس الحديث الذى جرى بينه وبين الملك وحسنين فقال
النحاس :

– سأقبل الحكم طبعاً.

– كيف تقبل ؟

– الانجليز يتدخلون لاقامة الديمقراطية فى مصر، وأنا أطالب
بالديمقراطية، فكيف ألومهم وهم يطالبون بما بح صوتى فى المطالبة به ؟

– ولكنهم سيجيئون بالأمير محمد على الانجليزى ملكاً على مصر !

– الذنب ليس ذنبى، انما هو ذنب الملك الذى ساند الحكم فى
الديكتاتورية !

– ولكن كيف تقبل الحكم من طريق غير شرعى ؟

إننى أقبل الحكم بصفتى زعيم الشعب.. إن كل ما حدث أن الانجليز
ينادون الآن بما ينادى به الشعب. إذا كانت لى قضية وحكم قاض ظالم
لمصلحتى.. فهل أقول له أنت قاض غير متخصص وأرفض حكمه ؟

– ولكن الملك يريد أن تؤلف أنت وزارة قومية برئاسة !

– أنا لا أولف إلا وزارة وفدية.

– لماذا لا تؤلف وزارة وفدية، وتأخذ معك زعماء الأحزاب وزراء دولة بلا
وزارات ؟

– كلهم لصوص ولا أقبل العمل معهم !

— إذن خذ معك بعض الزعماء المستقلين..

— إنهم ألعن من زعماء الأحزاب ! ولم يتم النحاس الحديث، بل صافح عادل في عجلة، ودخل إلى اجتماع الوفد.

وترك عادل واقفا في الغرفة مندهشا مشدوها !

* * *

.. تمنى عادل أن تنشق الأرض وتبتلعه. أحس بأنه لا يجرؤ أن يعود لحسنين ويخبره بما سمع من النحاس. رأى نفسه يتضاءل ويتضاءل ويتضاءل أمام حسنين. كان على حق في أن يسخر منه. ليس حسنين هو الضعيف في شؤون السياسة كما يدعى، بل إن عادل علاء الدين هو الضعيف. لن يعود إلى حسنين يحمل له خفى النحاس باشا، كذلك الخائب الذي حمل خفى حنين ! لن يتحمل أن يرى مرة أخرى الابتسامة الساخرة على شفתי حسنين !

وخطر بباله أن يذهب إلى صديقه انطون. الجميل بك رئيس تحرير «الأهرام». إنه رجل عاقل اعتاد أن يلجأ إليه الزعماء في الملمات. متخصص في إيجاد الحلول للمشاكل العويصة، بارد لا يثور، هادئ لا يغضب، يحاول دائما أن يجلس في برج عاجي فوق التطاحن الحزبي والخلافات السياسية. إنه في حاجة إلى رجل حكيم يستشير في الورطة التي أوقع نفسه فيها. ماله هو وبحر السياسة وزوابعه وطوفانه. كان من الواجب عليه أن يرفض المهمة التي كلفه بها حسنين، ويقول إنه لا يعمل في السياسة، ولا يحب أن يدس أنفه فيها، ولكن حسنين استدرجه، تحداه، جعله يندفع ويؤكد أن النحاس لن يقبل تأليف وزارة بانذار بريطاني..

وداح إلى انطون الجميل. وأضاء رئيس تحرير «الأهرام» اللبنة الحمراء

ليمنع دخول أحد إلى مكتبه، وروى له القصة كلها وذهل انطون، وقال إنه لا يصدق أن النحاس يقبل تولى رئاسة الوزارة بقرار من الحكومة البريطانية.. وأكد له عادل تصميم النحاس على القبول، وقال انطون:

– الحل أن نذهب فوراً ونقابل مكرم عبيد سكرتير الوفد. ونقنعه بأن النحاس ينتحر بهذا الموقف، أنا واثق من أن مكرم قادر على أن يقنع النحاس بالعدول عن رأيه.

قال عادل:

– سمعت أن مكرم فقد في المدة الأخيرة سلطانه على النحاس.

– لاتصدق هذا الكلام الفارغ.. إن مكرم هو شيطان النحاس.

– هل أنت واثق من أنه قادر على التأثير عليه؟

– واثق مائة في المائة. لقد كنت على صلة وثيقة بالمرحوم يوسف الجندي عندما كان زعيماً للمعارضة في مجلس الشيوخ.. وعرفت أن مكرم هو كل شيء.. هو الذي أخرج ماهر والنقراشي من الوفد. هو الذي حرم يوسف الجندي من زعامة المعارضة وفرض عليه على زكي العرابي. هو الذي يختار الوزراء.

وأمسك انطون الجميل بسماعة التليفون وطلب من دسوقي عامل تليفون «الاهرام» أن يوصله بمكرم باشا في النادي السعدي.

وعاد دسوقي يقول! مكرم باشا غادر النادي السعدي إلى داره بعد انتهاء جلسة الوفد.

فطلب انطون بك من دسوقي أن يبحث عن مكرم في أي مكان. وكان

دسوقى هذا أمهر عامل تليفون فى مصر، يستطيع أن يجد أى شخصية سياسية من تحت الأرض !.

وبعد دقائق كان انطون بك يقول لمكرم فى التليفون إنه يرغب فى مقابلته لأمر خطير جدا ومعه المهندس عادل علاء الدين..

وقال مكرم إنه فى منزل حرم مرقص حنا باشا والدة زوجته، وأنه سيكون بعد نصف ساعة فى داره فى منشية البكرى.

ودخل عادل مع انطون بيت مكرم.. الأنوار ساطعة فى أنحاء البيت..
الغرف مليئة بالوزراء الوفديين السابقين وأعضاء الوفد وأعضاء الهيئة الوفدية. كبار الموظفين هرعوا لتقديم فروض الطاعة للاله الجديد. فيهم حاسة شم عجيبة يعرفون أين تتجه الريح، فيغيرون اتجاههم.. ويسبقون الريح !

وابتسم عادل. وقال لانطون :

— لعل هؤلاء الموظفين يقولون عنى الآن إننى عضو معهم فى نادى المنافقين ! إن كل منافق يعتقد أن الشخص الآخر منافق مثله !

قال انطون :

المنافق يؤمن بأن الدنيا كلها نفاق. ويرى النفاق فى كل شىء.. تماما كالمدمن على الخمر الذى يرى صورة الكأس فى كل شىء، أو كما يقول الشاعر:

فكل شىء رآه ظنه قدحا وكل شخص رآه ظنه الساقى

وضحك عادل لأنه يعرف أن انطون الجميل يحب ادخال الشعر فى كل شىء. حتى أنه أول كاتب أدخل الاستشهاد بالشعر فى التعليقات السياسية !

وصحب مكرم الزائرين إلى الغرفة الوحيدة الخالية في البيت وهي غرفة الطعام، وجلس معهما وروى له عادل القصة كلها.. وقال مكرم:

— إن واجبنا أن نقبل الحكم لانقاذ البلد من الغرق.

قال انطون الجميل:

— إن هذا لا ينفذ البلد.. إنه يغرق الوفد كله!

قال عادل:

— كيف يمكن أن يتولى الوفد الحكم على حراب الانجليز؟ أفهم أن يقف الانجليز على الحياد، وتقودوا ثورة تخلعون بها الملك.. ولكن لا أفهم أن يشترك حزب الأغلبية مع الانجليز لمعاقبة الملك لأنه وقف ضد الانجليز!

وقال مكرم

— إنه يدفع ثمن استعانته بأحزاب الأقلية!

قال انطون:

— هذا ليس وقت دفع الحساب.. إن الذي سيدفع الحساب هو مصر!

قال مكرم:

— نحن أغلبية الشعب ومن حقنا أن نحكم وحرماننا من الحكم جريمة.

قال عادل:

— لايمكن إصلاح جريمة.. بجريمة أكبر!

قال مكرم:

إنها ليست جريمة.. إنما هي إعادة وضع مقلوب إلى أصله!

قال انطون :

— ما رأيك في هذا الحل : أن يؤلف الملك وزارة محايدة يختار النحاس أسماء أعضائها وتجرى انتخابات على الفور وينال الوفد الأغلبية ويتولى الحكم، وبذلك يجيء الوفد إلى الحكم بناء على إرادة الشعب لا أمر الانجليز.

قال مكرم :

— الانجليز يريدون وزارة برئاسة النحاس باشا قبل الساعة الثامنة من مساء غد ومادامت تسلم من الآن بأن الوفد هو صاحب الأغلبية، فلماذا تريد التأجيل ! إن شأنك شأن المحامي الذي يطلب تأجيل إصدار الحكم.. وهو يعلم أن الحكم في صالحه !

قال عادل :

— إن تولى النحاس الحكم بإنذار بريطاني سوف يسيء إلى سمعة النحاس.

قال مكرم :

— أعرف ذلك ولكن هذا الانذار سرى لا يعلم به أحد.

قال عادل :

وإذا انتشر أمر الانذار !

قال مكرم :

— في هذه الحالة انصح النحاس برفض قبول الوزارة.. ولكن ليس من مصلحة الملك أن يعرف الناس أنه خضع للانذار البريطاني !

وغادر عادل وانطون بيت مكرم وقد ارتسمت عليهما خيبة الأمل.. لقد فشلا في إقناع مكرم كما فشل عادل في إقناع النحاس..

وقدر عادل أن يعود إلى بيته ولا يواجه حسنين..

ووافق انطون على هذا الرأي.. وقال إنه يكره القيام بأدوار اليوم! وسكت عادل قليلا ثم قال:

– إننى لست جبانا! إن من واجبى أن أذهب لحسنين وأقول له إنه كان على حق! إننى رجل رياضى اعترف بالهزيمة.. ولحسنين كلمة يردها دائما تقول: رب هزيمة مع الشرف خير من نصر أشرف منه الهزيمة! قال انطون:

– إذن سأذهب معك.. وكما يقول الشاعر:

إذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تموت جبانا

وعندما وصلا إلى قصر عابدين قال لهما الأستاذ محمد ياسين سكرتير رئيس الديوان إن الباشا مشغول، وطلب إليهما الانتظار بضع دقائق!

وطال الانتظار ساعة كاملة.. ثم دعاهما السكرتير إلى مقابلة حسنين..

ووجد الملك جالسا فوق مكتب حسنين، في نفس الوضع الذى تركه فيه عادل منذ بضع ساعات.

وما كاد الملك يرى عادل حتى قال له:

– هيه.. سبع أم ضبيع؟

قال عادل وهو ينكس رأسه؟

– لا سبع ولا ضبع.. حمار يا جلالة الملك !

وضحك حسنين وقال :

– لست وحدك !

وروى عادل ما حدث بينه وبين النحاس. وروى انطون الجميل ما حدث بينهما وبين مكرم عبيد.

وقال انطون الجميل في نهاية القصة :

– إن مكرم باشا قال إنه إذا بقي الانذار البريطاني سرا فسيؤلف النحاس الوزارة، وإذا انتشر أمر الانذار فإن النحاس سيرفض رئاسة الوزارة.

ولمعت عينا حسنين فجأة وقال :

– هل قال مكرم باشا هذا ؟

قال عادل :

– نعم ! قاله بالحرف الواحد.

قال حسنين :

– إذن سيدعو الملك كل زعماء البلد غدا، بما فيهم النحاس، وسيقرأ لهم نص الانذار البريطاني !

قال عادل :

– عندئذ سيرفض النحاس تأليف الوزارة.

قال حسنين :

لا وحياتك.. وسيقبل مع هذا تأليف الوزارة!

وسكت عادل ولم يعترض، ولم يفتح فمه، لقد تعلم درسا بأنه ضعيف في السياسة. درسا لا يمكن أن ينساه. تعلم أن واحدا زائدا واحدا لا يمكن أن يكون اثنين بأي حال من الأحوال..

وانتحي انطون الجميل بحسنين باشا وحدثه بصوت خافت..

والتفت الملك إلى عادل وقال له :

— هذه أول مرة أراك فيها يا عادل.. ولكنى سمعت عنك كثيرا وأحنى عادل رأسه شاكرا لأن الملك سمع عن العمل العظيم الذى قام به فى شركة الهندسة الكهربائية، وكيف استطاعت أن تنافس الشركات البريطانية الكبرى فى المشروعات الهندسية.

وكاد عادل يسقط مغشيا عليه عندما سمع الملك يقول له وهو يضحك :

— سمعت أنك زئرنساء كبير، واضطرب عادل. توقع أن يقول له الملك أى شيء إلا هذه الكلمة..

وقال وهو يتلعثم :

— إن هذه شائعة كاذبة !

وقهقه الملك قهقهة عالية وقال.

— سمعت أن لك طريقة غريبة مع النساء لا تخيب أبدا !

ورفع عادل عينيه فى دهشة.. ومضى الملك يقول :

— سمعت أنك تصفع النساء على وجوههن !

وغادر الملك غرفة رئيس الديوان وصوت قهقهته العالية يدوى في أرجائها !

والتفت حسنين إلى عادل وقال له :

— لم أسمع ما قاله لك جلالة الملك !

قال عادل وهو يبلع ريقه :

— كان يقول نكته !

* * *

وانصرف عادل مع انطوان الجميل وأوصله بسيارته إلى جريدة (الأهرام)، ولم يسمع كلمة واحدة من تعليقات رئيس تحرير (الأهرام) عن الانذار البريطاني. كانت كلمات الملك أشبه بمطرقة هائلة تهوى على رأسه !

معقول أن يكون الملك قد سمع بسمعته كزئير النساء، فالملك يتردد على الحفلات الساهرة التي تقيمها الجمعيات الخيرية، ولا بد أنه رآه وهو يرقص مع بعض الفتيات الجميلات، ولا بد أن أحدا من حاشيته نقل إليه أن عادل يهوى النساء..

كل هذا معقول. ولكن ما هي حكاية صفع النساء على وجوههن التي أشار إليها الملك !

إنه طوال حياته لم يصفع امرأة واحدة سوى الأميرة فضيلة ابنة عم الملك. وصفعها في ردهة الطابق الثاني في فندق سميراميس، وكان خاليا في تلك اللحظة من الناس. هل رآه أحد جواسيس الملك وهو يصفع امرأة !

لا يمكن أن تكون الأميرة هي التي قالت للملك إن عادل صفعها على

وجهها. لو كانت قالت له هذا لما أحسن استقباله.. ولما داعبه.. ولفعل به ما فعل بعمر الفلسطيني الذي تحبه الأميرة!

وأحس برغبة شديدة في أن يذهب في اليوم التالي إلى عشاء الأميرة! ويبلغها ما قاله الملك، وليسألها كيف عرف الملك بأمر الصفقة التي لا يعرفها إلا هو وهي؟

ووصل إلى عمارة ايموبيليا.. ونظر إلى ساعته فوجدها منتصف الليل! وتذكر قسمت!

تذكر أن مواعده معها الساعة الثامنة مساء.

لقد نسي كل شيء عنها طوال هذه الساعات. أنساه الانذار البريطاني كل شيء عن الموعد الغرامي الذي كان يشغل تفكيره!

مسكينة قسمت. لعلها وقفت تدق جرس الباب نصف ساعة بغير انقطاع ولا من مجيب.

لقد صرف عادل خادمه من العصر حتى يخلو البيت له ولقسمت وحدهما!

وتخيل صوت التعاسة في وجهها! لن تصدق أن الانذار البريطاني هو الذي منعه من الحضور في الموعد. ستتصور أنه كان يهزأ بها، ويسخر منها عندما أعطاهم موعدا لن يأتي إليه. ستلعبه إلى الأبد.. ستعود عدوة للرجال أعنف مما كانت.. يجب أن يطلبها الآن في التليفون ويعتذر لها ويحدد لها موعدا آخر..

ولكنه يعلم انها لن تجيء في الموعد الآخر..

المرأة عندما تهان في كرامتها لاتنسى الاهانة، حتى ممن أحببت. إن أول

ماتفكر فيه هو الانتقام، هو الرد على الصفحة بمثلها!

ووصل به المصعد إلى الدور العاشر، وفتح باب المصعد، واتجه الى باب شقته ..

وماكاد يصل إلى باب الشقة حتى تراجع في دهشة! لم يصدق عينيه!

توقع أن يرى كل شيء، إلا الذي رآه فعلا!

كانت قسمت نائمة فوق « الدواسة » على باب شقته!

الفصل الحادى عشر

فتحت قسمت عينيها خلف نظارتها السوداء وقالت وهى تتثاءب !

— كم الساعة الآن؟

قال عادل :

— إنها بعد منتصف الليل؟

— لم تتأخر سوى أربع ساعات فقط :

— إننى أسف جدا . تصورت أنك انصرفت .

— كيف أنصرفت .. وقد انتظرتك طوال حياتى !

ومد يده إليها ليساعدها على الوقوف ، فدفعت يده وقالت !

— تعال اجلس بجانبى على الارض . الجلوس على الأرض لذىذ ..

— أى لذة فيه ؟ برد فبراير قارس .. والرطوبة على البلاط قاسية !

— الجلوس على البلاط لذىذ عندما نعرف أننا سنحلق بعد ذلك فوق

السحاب !

— اذن هيا بنا لنصعد إلى السحاب ووقفنا قسمت . وفتح عادل باب

شقيقته. ودفعها أمامه إلى الداخل !

والتفتت قسمت إليه وقالت !

أين كنت ؟

— كنت في القصر الملكي. هناك أزمة خطيرة. قابلت الملك وحسنين
ومكرم والنحاس وانطوان الجميل.. وجدت نفسي في دوامة لم استطع
الخلاص منها. لم استطع أن أستأذن خمس دقائق لأجىء وأعتذر إليك. أنت
تعرفين تقاليد البلاط !

— صدفه غريبة أن تكون أنت في البلاط الملكي.. وأنا جالسة على
البلاط :

— إننى أسف لا نتظارك الطويل.

— لا تأسف ! انتظار الحبيب.. جزء لذيذ من موعد الغرام !

وجدت قسمت نفسها في غرفة الصالون.

وابتسمت قائلة !

— أتعرف أنك نسيت أن تقبلنى ؟

— لم أنس ! إننى قررت ألا أقبلك !

قالت في فزع !

— لن تقبلنى ؟! إننى أعيش منذ أيام أحلم بهذه القبلة التى سنوف
تستقبلنى بها !

— إننى لن أقبلك.. وفوق عينيك هذه النظارة !

- إننى لا أضع النظارة فوق فمى !
- إنها فوق كل شىء فىك !
- إذن انزعها بيدك !
- الوقت متأخر الآن !
- سأبيت هنا !
- هل أنت مجنونة ؟
- نعم.. أنا مجنونة بك ؟
- هل سبق لك أن أمضيت ليلة خارج بيتك ؟
- لا... هذه ليلتى الأولى !
- ماذا سيقول أبوك عندما لا تعودين ؟
- سيبلغ البوليس !
- ستكون فضيحة !
- الفضيحة ستحدث إذا لم تقبلنى... هيا انزع نظارتى !
- إننى لن أنزع نظارتك وحدها !
- أعلم ذلك !
- كيف علمت ؟
- إننى امرأة !
- امرأة ؟

- نعم امرأة!
- من الذى حولك إلى امرأة!
- أنت!
- أنا؟ إننى لم ألمسك بعد!!
- حبك حولنى إلى امرأة! اغتصببنى:
- لقد صدقت أنك امرأة فعلا.. وتصورت أننى بذلك اختصرت تسعة أعشار المسافة إليك!
- إنك تفضل الملابس الجاهزة.. وتكره عملية التفصيل!
- إنك أول ثوب غير جاهز ارتديته!
- ولهذا لم تجد ثوبا على مقاسك!
- أنت تفكرين فى ارتداء الملابس وأنا أفكر فى خلعها!
- ولكنك متردد فى أن تنزع نظارتى!
- كنت أتصور أنك ستجيئن إلى هنا بغير نظارة!
- كنت سأشعر أننى أدخل شقتك وأنا عارية!
- وما الضرر فى ذلك؟
- لا أريد أن يرانى عارية الا رجل واحد هو أنت! هيا انزع نظارتى
- الوقت متأخر الآن.. إنها الساعة الواحدة صباحا.
- المفروض أن المرأة هى التى توجه هذا الاعتذار!

يظهر أننا تبادلنا الاماكن.. إنك تتكلمين الآن كأنك أنت ذئب النساء، وأنا الفريسة التى سوف يفترسها !

— أنا التى اخترتك ولست أنت ! الصياد هو الذى يختار الفريسة.. وليست الفريسة هى التى تختار الصياد !

— إنك قلبت لى كل برنامجى !

— ماذا كان برنامجك ؟

— أن أراودك عن نفسك.. وتتمنى.. أن أحاول إقناعك فتتراجعى.. أن أخذك بين ذراعى فتتظاهرى بالمقاومة.. ثم أخدرك بقبلاتى حتى تسترخى وتستسلمى !

— كنت تريد أن أنصب عليك !

— كل امرأة عرفتها فعلت هذا..

— ولكننى لست كل امرأة :

— أعرف أنك تختلفين عنهن جميعا . ولكننى لم أتصور أن تتصرفى كرجل كأنك أنت زئير النساء !

— هيا.. إلى غرفة النوم ؟

— كيف تقولينها بكل هذه البساطة ..

— لو لم أقلها أنا.. لقلتها أنت !

— هذه كلمة لا يقولها إلا الرجل لا تقولها المرأة أبدا !

— ومن الذى أعطى الرجل الحق فى أن يحتكر هذه الكلمة لنفسه

— التقاليد !

- التقاليد تمنع أن يأخذ رجل عزب فتاة عذراء إلى غرفة نومه؟
- إلا إذا كان يحبها!
- ومادام الحب يعطى للرجل الذى يحب هذا الحق فيجب أن يعطيه للمرأة التى تحب!
- إننى فى دهشة!
- لأننى استسلمت لك؟
- لا.. كنت واثقا من أنك سوف تستسلمين.. ولكن ليس بهذه الطريقة!
- أليس من حق القلعة أن تختار الطريقة التى تستسلم بها للغازى الفاتح!
- إن هذا هو المتبع فى الحرب بالنسبة للمدن المفتوحة. باريس فعلت هذا..
- استسلمت لهتلر بغير أن تطلق رصاصة:
- اذن أنا باريس:
- ولكننى لست هتلر!
- أنا أجد لذة فى الاستسلام. وأنت تجد نفس اللذة فى الصراع!
- إن تصويرك المسألة بهذه السهولة يجعلنى أراها صعبة جدا!
- أنا لا أقاومك!
- إن هذا نوع جديد من المقاومة السلبية! إننى أول مرة فى حياتى أشعر أننى خائف أمام امرأة!

- لأننى أحرمك من لذة الانتصار!
- لأنك قلبت الصورة أمامى ! جعلتنى لأول مرة فى حياتى أشعر بشعور غريب.. لأول مرة أشعر أنتى أضعف من المرأة التى أمامى!
- استسلامى جردك من قوتك!
- إننى أشعر كأنك جردتنى من رجولتى!
- إذن أنت تريد منى أن أمثل ! أن أظاهر بأننى أقاومك ! كأن المقاومة هى وحدها التى تثير الرجل!
- بالعكس.. إنك الآن تثيريننى أكثر مما أثرتنى فى أى وقت مضى.
- حتى بهذه النظارة؟
- نعم.. حتى بهذه النظارة!
- إذن أنت لم تعد متمسكا بأن أخلق النظارة!
- نعم...
- مادام الأمر كذلك فسوف انصرف الآن!
- لماذا؟
- لأن الوقت متأخر!
- ولكنك كنت تقولين لى إنك تريدان أن تبينى هنا!
- وأنت رفضت!
- ومتى سنلتقى؟

— غدا !

— في الساعة الثامنة مساء ؟

— لا.. هذا موعدك مع الاميرة فضيلة !

— بعد العشاء ؟

— لا.. في الساعة الثالثة بعد الظهر وسوف أتركك قبل الموعد بوقت كاف
لترتدى بذلة الفراك !

— ومشى معها عادل إلى الباب الخارجى .

وقالت له وهى تودعه !

— أخشى أن أكون حطمت أعصابك !

— إن الذى حطم أعصابى هو الانذار البريطانى !

وطوقها بذراعه . وحاول أن يقبلها فى شفيتها فأبعدته وهى تقول :

— إن موعدنا غدا !

الساعة الثانية من صباح يوم ٤ فبراير. الرياح تعصف. القاهرة نائمة
لا تشعر بما يدبر لها فى الظلام كل شىء هادى هدوءا مريبا

أنوار السفارة البريطانية بالقاهرة مضاءة. لا شىء غير عادى فى وقت
الحرب. قصر الدوبارة يعمل دائما فى النهار والليل. مكاتب السفارة أشبه
بخلية النحل. موظفون يدخلون ويخرجون من الغرف. أصوات الآلات الكاتبة
تحدث ضوضاء فى سكون الليل الهادئ السفير البريطانى سسير مايلز

لامبسون يجلس أمام مكتبه. بجسمه الضخم وقامته الطويلة التى تشبه قامة العملاق.. وبجوار المكتب عدد من مقاعد الجلد الوثيرة، يجلس فى أحدها الجنرال ستون قائد القوات البريطانية فى مصر، بجسمه الضئيل وابتسامته التى لا تفارقه فى أحلك الساعات. وعلى مقعد آخر يجلس مستر أوليفر ليتلتون وزير الدولة البريطانى فى الشرق الاوسط وعلى مقعد ثالث يجلس مستر والتر سمارت المستشار الشرقى للسفارة بقامته الطويلة وجسمه النحيل.. وفى مقعد رابع يجلس الادميرال كاننجهام قائد الاسطول، وفى مقعد خامس يجلس الايرمارشال قائد الطيران.

وقال السفير البريطانى وهو ينظر إلى ساعته !

— إن مستر بيزلى لم يحضر بعد وثيقة التنازل عن العرش.

قال سمارت وهو يبتسم ابتسامته الساخرة التى جمعت بين البرود الانجليزى والدهاء الشرقى !

— بصفته المستشار القضائى للسفارة، يحرص على أن تكون وثيقة التنازل محتوية لكل العبارات القانونية الدقيقة. القانونيون يكتبون دائما مذكراتهم كأنها مرافعة أمام محكمة !

وضحك السفير البريطانى وقال ساخرا :

— هل تظن أن الملك سيرفع علينا قضية ؟ الملوك عندما يفقدون عروشهم يفقدون حق التقاضى. لقد قلت لبيزلى إننى أريد أن تكون وثيقة التنازل مختصرة فى كلمتين !

— يجب أن نحتاط لكل هجوم علينا فى المستقبل كأن يقول أحد إن بريطانيا التى أعلنت الحرب لأن ألمانيا خرقت معاهدة، تخرق الآن معاهدة

الاستقلال بينها وبين مصر وتدوسها بقدميها !

— إننا لم نخرق المعاهدة إننا ننفذها ! المصريون لم يفهموا معاهدة سنة ١٩٢٦ عندما وقعوها معناها إننا نفعل سرا ما كنا نفعله علنا ! لقد طلبت إلى مستر بيزلى أن يشير إلى ذلك صراحة في وثيقة التنازل عن العرش !

ووقف مستر سمارت وقال :

— سأذهب لاتعجله !

قال مستر ليتلتون وزير الدولة :

— دعه يأخذ كل ما يريد من الوقت يجب أن تكون الوثيقة قانونية مائة في المائة !

وعاد مستر سمارت وجلس من جديد.

وساد الصمت في الغرفة من جديد.

ورفع لامبسون كأس الويسكى وقال :

— فلنشرب نخب معركة مساء اليوم ! المعركة التى سوف تثبت أقدام بريطانيا في مصر مائة سنة قادمة !

ورفع الجالسون كنوسهم يشربون نخب المعركة

ولاحظ وزير الدولة أن الجنرال ستون هو الوحيد الذى لم يرفع كأسه فقال له :

— لماذا لا تشترك في النخب يا جنرال ستون ؟ إنك ستكون قائد المعركة، والمفروض أنك أول من يشرب نخب هذا الانتصار..

قال ستون وقد اختفت الابتسامة الدائمة من فوق شفثفه .

– لأننى مازلت على رأى من أننا سنخسر هذه المعركة؟

قال لامبسون غاضبا :

– كيف نخسرها؟ إنها مضمونة مائة فى المائة !

قال الجنرال ستون !

– إننى أرسلت برقية سرية إلى وزارة الحرب البريطانية أعترض فيها على هذا القرار. وأقول فيها إن النحاس كان منذ أسابيع يهاجم انجلترا. ويناصر محور روما – برلين. وخطب فى رأس البروقال إن الجيش البريطانى جيش من السكارى، وإننى لا أفهم أن استخدم الدبابات البريطانية لعزل ملك مشكوك فى نواياه، وتعيين رئيس وزارة أعلن صراحة أنه ضد الانجليز.

– قال لامبسون :

– إنه ليس مشكوكا فى نواياه، الملك عدو صريح للانجليز!

قال الجنرال ستون :

– أنا لم أشعر منه إنه عدو الانجليز..

قال لامبسون !

– إنه فعل كل شىء لمحاولة القضاء على هبة بسريطانيا فى مصر. إنه يرفض سماع نصائحى. إنه يعتمد إهانتى باستمرار. لقد كانت الوزارات تفتح لى الباب الملكى فى محطة مصر فأمر بمنعى من الدخول من الباب الملكى ! كنت انتقل بقطار خاص، فمنع القطار الخاص.. كان موكبى يسير فى الشوارع يتقدمه موتوسيكلات فمنع هذه الموتوسيكلات.. إن الوزراء

المصريين اعترفوا لى بأن هذه أوامر الملك وليست أوامرهم :

قال الجنرال ستون !

– هذه تصرفات ضدك شخصيا. وليست ضد بريطانيا.

– أنا سفير بريطانيا فى مصر. وأى إنقاص من هيبتى هو إنقاص لهيبة بريطانيا فى مصر، ومحاولة للهبوط بمكانة الامبراطورية.

ومحاولة مساواة مركز بريطانيا بمراكز الدول الأخرى !

– ولكن هذا ليس سببا كافيا لعزل ملك عن العرش !

– هناك ألف سبب وسبب ! كلفتنى الحكومة البريطانية أن أطلب من الملك بعد دخول إيطاليا الحرب أن يطرد خدمه الإيطاليين أمثال بوللى وبيترو وجارو.. فإذا بالملك يقول لى إنتى مستعد أن أطردهم إذا طلقت أنت زوجتك.. فزوجتك كانت ايطالية قبل أن تتزوجها.

وخدمى كانوا ايطاليين قبل أن استخدمهم ! تصوروا هذه الوقاحة.. يقارن خدمه بزوجة السفير البريطانى فى مصر: إن ملك مصر أهان بريطانيا عندما ساوى بين زوجة سفيرها بحلاقه ومدرّب كلابه وتابعه. إنه ملك قليل الأدب.

وأسرع مستر سمارت لانقاذ رئيسه عندما رأى نظرات الاستغراب على وجوه القواد الثلاثة.. فقال :

– وليس هذا فقط. إن يوسف باشا ذو الفقار سفير مصر فى طهران يتصل بالمحور، وهو والد الملكة فريدة. ولدينا تقارير تؤكد أن ذو الفقار باشا يجتمع بالسفير الالمانى فى ايران. ولدينا تقارير كذلك بأن مراد سيد أحمد

باشا سفير مصر في روما على صلة وثيقة بالكونت شيانو وزير الخارجية، وعندما فاتح السفير البريطاني الملك في مسألة تصرفات حميه قال الملك ! أنا لست مسئولاً عن تصرفات حمى هل أنت مسئول عن تصرفات حميك وهو طبيب موسولينى الخاص؟

ولكنه لم يرد على تهمة اتصال سفيره بروما بالكونت شيانو وزير خارجية ايطاليا.

قال الجنرال ستون !

— أليس المفروض أن يكون سفير البلد على علاقة وثيقة بوزير خارجيتها؟

— ولكن شيانو ليس وزير الخارجية فقط إنه زوج ابنة موسولينى !

قال الاميرال كاننجهام قائد الأسطول !

إننى رجل غير سياسى.. ولكنى أعتقد أننا لو نشرنا فى انجلترا هذه الأمور وقلنا إنها سبب عزل ملك. فإن رأى العام البريطانى سيقول إذن لماذا لم نجرد الدوق وندسور من القابه.. وقد كان صديقاً حميماً لهتلر

قال مستر أوليفر ليتلتون وزير الدولة :

— إننا نمر بمرحلة خطيرة فى الحرب.. ويجب أن يتولى الحكم رجل نطمئن إليه.. كل الاطمئنان.. رجل لا يضرينا بخنجر فى الظهر.. واجبنا أن نؤمن ظهورنا.

قال قائد الطيران وهو يضحك !

— ألم نجد رجلاً نطمئن إليه إلا الرجل الذى قال : إن جيوشنا تتألف من

جنود من السكارى والمخمورين !

قال الاميرال كانتجهام :

— وماذا لو رفض النحاس تولى الوزارة؟

قال وزير الدولة !

— ستكون كارثة ! عندئذ سيطردنا تشرشل جميعا ويقول إننا تصرفنا بغير إذن منه؟

قال لامبسون :

— ولكنه أرسل برقية يؤيد مقترحاتى.

ضحك وزير الدولة :

— فى حالة الفشل سوف تختفى البرقية من الملفات ولن يوجد لها أثر !

قال لامبسون :

— ولكنى واثق أن النحاس سيقبل.

قال الجنرال ستون :

— هل قال لك النحاس إنه سيقبل؟

قال لامبسون :

— لا.. إننى لم أقابله.. أرسلت له أمين عثمان باشا فى الاقصر.. فعاد وقال لى إنه سيقبل.

قال الاميرال كانتجهام :

– هل عرف النحاس أننا سنعزل الملك؟

– لا.. إن أحدا لا يعرف الخطة سوانا!

قال قائد الطيران:

– وماذا يحدث لو قبل الملك تعيين النحاس؟

قال لامبسون:

– إنه لن يقبل. إنه ولد صغير ورأسه ناشف جدا.

* * *

وهنا دخل مستر بيرلى، المستشار القضائى فى السفارة، يحمل ورقة فى يده.

وقال للسفير:

– لقد أتممت كتابة وثيقة التنازل عن العرش!

– اقرأها للحاضرين..

وصمت الجالسون. وقرأ المستشار القضائى الوثيقة بصوت هادى وهو يضغط على بعض الكلمات:

– « أنا الملك فاروق. أعلن تنازلى عن عرش مصر وكل حقوائى فيه لحضرة صاحب السمو الملكى الامير محمد على توفيق ولى عهد المملكة المصرية، ونجل الخديو محمد توفيق والوارث الشرعى للعرش. وليس من حقى فى أى ظرف من الظروف، وفى أية حال من الاحوال، أن أعدل عن هذا التنازل أو أرجع فيه. وأنتهز هذه الفرصة لأعلن للملا إن بريطانيا نفذت

دائما معاهدتها مع مصر بصدق وشرف واخلاص. وقد وقعت على هذا
التنازل بمحض اختياري وبكامل حريتي»

وضحك لامبسون وقال :

— إنها أول مرة في التاريخ يشكر فيها الخروف الجزار!

وضحك وزير الدولة وقال :

— إن جملة «بمحض اختياري وكامل حريتي» لا يكتبها إلا المحامي
الضليع!

قال قائد الأسطول :

— وهل قبل الامير محمد على أن يتولى العرش بعد عزل الملك؟ إنه
سيبدو خائنا في عيون المصريين!

وضحك السفير البريطاني :

— إنه لم يقبل فقط.. قل لهم ياسمارت ماذا قال لك الامير عندما عرضت
عليه عرش مصر!

وابتسم سمارت وقال :

— أخذنى الامير بالاحضان، وقبلنى، وقال لى إنه يتعهد بأن يكون
السفير البريطانى سيرمايلز لامبسون مستشاره الوحيد.. ولن يحتاج معه
إلى رئيس ديوان.. إنه ملك مصنوع فى لندن!

— وهل وافق أن يعمل مع النحاس؟

— قال إنه يوافق على كل رجل يختاره السفير البريطانى. وإنه فى كل مرة

كان يقابل الملك فاروق كان يقول له : أنا في سن والدك، وأنصحك بأن تطيع السفير البريطاني. الانجليز هم الذين حافظوا على عرش أسرة محمد على أيام أبى الخديو توفيق. هم الذين عزلوا أخى الخديو عباس. هم الذين عينوا أباك الملك فؤاد. ولكن الملك لم يستمع لنصائحه، وكان يرفض مقابلته !

وهنا دخل سكرتير السفير البريطاني وقال :

— وصل الآن ضابط من القيادة العامة يحمل رسالة مستعجلة للقائد العام..

وطلب الجنرال ستون دعوة الضابط إلى الدخول.. واعتقد الحاضرون أنها أنباء عاجلة عن جبهة القتال.. ودخل ضابط شاب وأدى التحية العسكرية، ثم سلم قائد القوات البريطانية مظروفا مختوما بعدة أختام بالشمع الأحمر .. وانصرف على الفور.

وفتح الجنرال ستون المظروف، وقرأ الورقة وابتسم وقال :

— لقد وصلنى الرد على احتجاجى على استخدام الدبابات البريطانية في خلع الملك.

قال السفير البريطاني في لهفة :

— ماذا يقول رد وزير الحربية؟

ووضع الجالسون كنوسهم أمامهم، واتجهوا برؤوسهم إلى القائد العام البريطاني كأنهم علامات استفهام..

قال الجنرال ستون :

— إنها ليست برقية من وزير الحربية ! إنها برقية من مستر تشرشل رئيس
وزارة الحرب. يأمرنى فيها بأن أنفذ أوامر السفير البريطانى.

وسكت قليلا.. ثم التفت إلى لامبسون وقال له .

— ما هى أوامرك؟

قال لامبسون :

— أن تحاصر القصر بالدبابات، وتطوق الحرس الملكى، وتحتل المرافق
العامة، وتذهب إلى القصر وتقبض على الملك !

قال ستون :

— وهل ستذهب معى؟

قال لامبسون :

— إن هذا منظر تمنيت طوال سنوات أن أشهده !

قال ستون.

— وماذا أفعل بالملك بعد القبض عليه.. هل أحضره إلى السفارة
البريطانية؟

صرخ السفير البريطانى قائلا

— لا، لا، لا أريده هنا

قال وزير الدولة البريطانى :

— ننقله إلى مطار ابو صوير.

قال قائد الطيران :

— ليس في المطار مكان يصلح لاقامته !

قال الأدميرال كاننجهام قائد الاسطول :

— إن عندي مدمرة في السويس . أستطيع أن أضع فيها فاروق بعد عزله .

قال وزير الدولة وقد احمر وجهه المستطيل من كثرة ما شرب من
الوسكى .

— فكرة حسنة . يوضع فاروق في المدمرة ، وتتحرك المدمرة من الشواطىء
المصرية . وتدور المدمرة في البحر حول نفسها إلى أن تقرر لندن المكان
الذى يوضع فيه فاروق

قال الادميرال كاننجهام :

— هل لدينا قوات كافية بقرب المدن لتتدخل في حالة قيام ثورة في البلاد
بعد خلع الملك ؟

وضحك سمارت وقال :

— إننى أعرف مصر جيدا ! إنها لن تثور لخلع الملك ! إن مظاهرة واحدة
لم تحدث في مصر عندما خلعنا الخديو عباس من عرش مصر عام ١٩١٤ .

قال لامبسون :

— لو حدث شغب .. فقد تحدث حرب داخلية .. تقع معارك بين أنصار
الملك وأنصار النحاس ..

قال الادميرال كاننجهام :

— وعندئذ تتدخل قواتنا !

— لا تتدخل قواتنا في أول الأمر. توقف تتفرج على المصريين وهم يتقاتلون فيما بينهم. ويعد ذلك تتدخل... بعد أن نكون تخلصنا من الملك والوفد معا !
قال قائد الطيران :

— إننى أرى السياسى العبقري ميكيا فيلى يبعث على قيد الحياة !

وضحك لامبسون فخورا بهذه التحية وقال :

— إن ميكيا فيلى موجود دائما في مكتب كل سفير بريطانى !

ارتفعت قهقهة الجالسين. وبقي الجنرال ستون قائد القوات البريطانية وحده ساهما حزينا لا يشترك في الضحك مع الضاحكين
ولاحظ الأدميرال كاننجهام، قائد الاسطول، اصفرار وجه القائد العام فقال باسم :

— إن القائد العام غارق في هموم المعركة القادمة..

وتنهَّد الجنرال ستون وقال في صوت حزين :

— إن ضميرى كرجل شريف، غير مستريح للقيام بهذه العملية. لقد كنت منذ أيام قليلة موظفا عند هذا الملك الذى سأخلعه اليوم كنت رئيس البعثة العسكرية البريطانية في الجيش المصرى. إنها أول مرة في حياتى. يصطدم الجندى في داخلى مع الرجل الشريف.

قال قائد الاسطول :

— وماذا تنوى أن تفعل ؟

قال الجنرال ستون :

– لو لم نكن في حرب لقدمت استقالتي ! ولكنني الآن مضطر أن أقوم
بواجبي كجندى بريطاني، وأنفذ الامر العسكري الذي صدر لي من رئيس
وزارة الحرب في بلادي !

قال لامبسون، وهو يقترب من ستون، ويضربه بيده على ظهره :

– لا تكتئب أيها الجنرال ! هذا يوم مجيد في حياة الامبراطورية
البريطانية ! إنك ستفخر طول حياتك بأنك كنت قائد هذه المعركة المظفرة !

وهز الجنرال ستون رأسه في حيرة وقال :

لا أظن ! لا أظن ! أخشى ألا أخجل من هذه المعركة وحدي.. أخشى أن
تخل معي بريطانيا في يوم من الأيام !

* * *

ومضى الجنرال ستون إلى القيادة البريطانية يضع خطة الهجوم..

وانصرف المجتمعون، وخرج السفير البريطاني يسودعهم إلى باب
السفارة.. ثم عاد إلى مكتبه وفرك يديه مسرورا، وأفرغ ما بقي من زجاجة
الويسكي في كأسه وشربها وهو يتطلع في ابتهاج إلى الصور الزيتية المعلقة في
مكتبه..

هذه صورة اللورد كرومر الذي حكم مصر سنوات عديدة. هذه صورة
اللورد كتشنر الذي قضى على الحزب الوطني ! هذه صورة السير شيتهم
الذي أعلن الحماية البريطانية على مصر وخلع الخديو عباس. هذه صورة
الجنرال وينجت الذي قبض على سعد زغلول. هذه صورة اللورد اللنبى

الذى أخرج سعد من رئاسة الوزارة. هذه صورة اللورد لويد الذى منع سعد زغلول من أن يتولى رئاسة الوزارة بعد أن نال الاغلبية المطلقة فى الانتخابات!.

سيجىء يوم توضع صورته بجانب هؤلاء المندوبين الساميين العظام! سيقول التاريخ إنه ثبت النفوذ البريطانى فى مصر إلى مائة سنة قادمة! إنه بضرية واحدة سيقضى على الملك وزعيم الشعب معا؟ يطرد الملك ويحطم الزعيم!

ابتداء من اليوم سيصبح هو الملك الحقيقى! سوف يستعيد سلطات المندوب السامى البريطانى التى فقدوها. سيصبح مصدر كل السلطات! هو الذى عين الملك الجديد. هو الذى عين رئيس الوزارة الجديد. هو الذى أدخل المصريين إلى الجحور!

لن يستطيع ملك فى مصر، ولا رئيس وزارة أن يرفض أوامر السفير البريطانى! سيقبض على كل أنصار المحور! لقد طلب القبض على على ماهر باشا رئيس الوزراء السابق ورفض طلبه! طلب القبض على الامير عباس حليم ورفض طلبه. طلب القبض على محمد طاهر باشا ابن عمه الملك ورفض طلبه!

ثم القى لامبسون نظرة إلى جرس حديدى ضخيم بجوار مكتبه وقد نقشت عليه عبارات صينية..

إنه حصل على هذا الجرس الأثرى عندما كان سفيراً لبريطانيا فى الصين. وهو يتفائل به.. يدقه كلما حقق انتصاراً دبلوماسياً ضخماً!

مضت عليه مدة لم يدق هذا الجرس!

آخر مرة دق هذا الجرس منذ ست سنوات عندما تم توقيع معاهدة سنة ١٩٢٦.

الليلة سوف يدق هذا الجرس! بعد أن يخلع الملك، ويعين الملك الجديد، ورئيس الوزارة الجديد

إن ما سوف يفعله ليس نصرا سياسيا لبريطانيا فقط، إنه نصر حربي أيضا، إنه يؤمن ظهر الجيش البريطاني في المعركة ضد هتلر!

وارتجف السفير عندما خطر بباله اسم هتلر!

ماذا ستقول إذاعة برلين عندما تعلم بأن الحكومة البريطانية خلعت ملك مصر، ونصبت ملكا جديدا؟. سوف تدق الطبول وتتهم بريطانيا بأنها دولة استعمارية تعتدى على استقلال بلد بينها وبينه معاهدة صداقة وتحالف!

سوف تستخدم هذا الحادث لاثارة الشعوب العربية والاسلامية

وأسرع يستدعى مستر فرنس، نائب مدير الرقابة في مصر، إلى مكتبه ويقول له

— مطلوب منك أن تمنع خروج أى برقية من مصر فيها نبا عما سيحدث اليوم، اتصل بمستروب مدير التليفونات واطلب منه أن يحجز جميع برقيات السفارة التي ترسلها السفارات الاجنبية هنا إلى عواصم بلادها، مطلوب منك أن توقف كل البريد المرسل إلى الخارج ابتداء من الآن... يجب ألا تعلم إذاعة برلين بما حدث.. ويجب منع الصحف المصرية من ذكر أى شئ عن احتلال القصر لا تلميحا ولا تصريحاً.. هذه عملية عسكرية... تعتبر من الأسرار العسكرية الممنوع نشرها!

ونفذت الخطة العسكرية ببراعة عجيبة. وضعت لها خرائط عسكرية.

ومواعيد دقيقة كأنها عملية حربية واسعة..

خرجت الدبابات البريطانية من المعسكرات محمولة فوق سيارات ..
تحركت فرادى.. تفرقت في جهات بعيدة من المدينة. لم يشعر سكان
القاهرة، ولا أحد من المسؤولين بما يجري في الخفاء.. كأن هذه المعركة
هي الميدان الثانى الذى يتوقع العالم أن يفتحه الحلفاء في الحرب العالمية
الثانية !

وكان البوليس السياسى يتبع اللواء رسل باشا حكمدار العاصمة.. وكان
الحكمدار الانجليزى شريكا في الخطة السرية..

وهكذا كان حسين سرى باشا رئيس الوزراء، والحاكم العسكرى ووزير
الداخلية الذى كان يحكم، في انتظار تأليف الوزارة الجديدة، أشبه بالزوج
المخدوع.. آخر من يعلم !

ودعا الملك جميع الزعماء إلى اجتماع برئاسته في قصر عابدين، وتلا
عليهم أحمد حسنين باشا، رئيس الديوان، نص الانذار البريطانى، وطلب
إلى الزعماء أن ينصحوه بالموقف الذى يتخذه..

وأجمع الزعماء على أن يرفض الملك الانذار.. وألقوا خطبا حماسية بأن
هذا الانذار اعتداء على الاستقلال، وخرق للمعاهدة،

وقال النحاس إنه ينصح بقبول الانذار.. لأن رفض الانذار سيؤدى إلى
كوارث... وقال أحمد زيور باشا إن من رأيه قبول الانذار، وأنه يجب إطاعة
أوامر الانجليز في هذه الظروف الدقيقة. وأن الانجليز هم الذئب والمصريين
هم الشاة. وواجب الشاة أن تطيع الذئب !

وبعد مناقشات طويلة وافق النحاس على أن يوقع رفض الانذار وهو يقول :

– إننى سأوقع على الرفض.. ولكنى أحذركم من النتائج !

وكلف الزعماء حسنين باشا بأن يذهب إلى السفير البريطانى، ويبلغه قرار الزعماء بالاجماع برفض الانذار..

وقرأ السفير البريطانى خطاب الزعماء فى هدوء.. وقال :

– إننى سأجىء لمقابلة الملك فى الساعة الثامنة من مساء اليوم ومعى ردى !

ولم يكن السفير ينوى أن يذهب إلى الملك فى الساعة الثامنة مساء ولكنه قصد أن يضمن وجوده فى قصر عابدين عندما تحل ساعة الصفر وتحاصر الدبابات البريطانية قصر الملك !

وجاءت الساعة الثامنة ولم يحضر السفير..

وجاءت الساعة التاسعة ولم يحضر السفير..

وفى الساعة العاشرة تماما أحاطت مئات الدبابات البريطانية بقصر عابدين. سدت منافذ الشوارع حول القصر. احتلت ثكنات القصر الملكى. أحاط الجنود البريطانيون بأبواب القصر. نزعوا أسلحة ضباط الحرس وجنوده.

كانت عملية الاحتلال أشبه بالانقضاض من كل مكان ! تمت كلها فى خمس دقائق !

وأطل الملك من النافذة، ورأى ميدان عابدين غاصا بالدبابات والسيارات

المصفحة.. وحاول الملك أن يهرب من باب خلفى.. فوجد كل الابواب
محاصرة بالدبابات

رأى المدافع الكبيرة تنصب في الميدان وفوهاتها الضخمة تتجه إلى
القصر. وكان الملك ساهما مفكرا.

أحس لأول مرة في حياته بأنه أصبح فأرا في مصيدة!

وكانت الملكة فريدة واقفة إلى جواره ترتجف.. وقطعت الملكة لحظة
الصمت الطويلة القاسية وقالت:

— ماذا تنوى أن تفعل يا فاروق؟

قال الملك والعرق يتساقط من وجهه:

— سأتنازل عن العرش!

الفصل الثانى عشر

جلس عادل فى شقته ينتظر قسمت. لقد اضطر مرة أخرى أن يؤجل مواعده معها. اضطر أن يعتذر عن عدم حضور عشاء الأميرة فضيلة. بقى طوال يوم ٤ فبراير يتابع الأحداث السياسية. الجو السياسى الكئيب فى هذا اليوم جعله يحس بكآبة غريبة. كأن شيئاً عزيزاً يموت بين يديه. إنه لم يشغل بالسياسة منذ أن تخرج فى كلية الهندسة، وها هو ذا يجد نفسه الآن فى دوامة السياسة يتابع من مكتبه أخبار الأزمة.

الأنباء متناقضة.. الزعماء اختلفوا. لا، إنهم اتفقوا، بل أنهم اختلفوا! الأزمة حلت. لا أنها فى طريقها إلى الحل. لا أنها تفاقمت من جديد. كل دقيقة يجىء نبأ جديد. نبأ يخالف النبأ الأول ويناقضه.

كان ينتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، ليبدأ قصته مع قسمت، ليقابل بعد ذلك الأميرة فضيلة على العشاء كما أصرت قسمت، أكلتان شهيتان فى ليلة واحدة ثم أحس فجأة أنه فقد شهيته للحب. كان دائماً يتصور أنه مستعد أن يأكل من كل طبق يراه أمامه. لا مانع لديه أن يبدأ بالحلوى وينتهى بالمخللات!.. وفى هذا اليوم أحس بالقرف، بالقرف من كل شىء حتى من النساء، وأراد أن يؤجل موعد قسمت من الساعة الثالثة بعد الظهر إلى يوم آخر، ثم أشفق عليها أن يصدماها مرة أخرى بالتأجيل واكتفى بأن اتصل بها، وقال لها إنه ينتظرها فى بيته الساعة العاشرة مساءً، وإنه سوف يصحبها

في نزهة بالسيارة في طريق المعادى لأنه يحس بأنه يكاد يختنق ولم يظهر في صوت قمست أنها حزنت لأن ليلة زفافها قد تأجلت مرة أخرى. على العكس إنها رحبت بساعة تمضيها معه في سيارة واحدة، وكأنها ترحب بساعة تمضيها معه في غرفة واحدة. شعر أنها تشاركه الأسى حزنا على الموقف الخطير الذي تمر به البلاد في هذا الظلام.

أما الأميرة فضيلة فقد كانت على عكس قسمت تماما. لم يكد يقول لها في التليفون إنه يأسف لعدم استطاعته التشرف بتناول العشاء على مأدبتها في الساعة الثامنة من مساء اليوم حتى انزعجت، فسألته عن السبب، فقال لها إنه الانذار البريطاني!

قالت: وما علاقتنا بالانذار البريطاني؟!

قال لها: تصورت أن تلغى أنت العشاء بسبب الأزمة الخطيرة التي تجتازها البلاد.

قالت هازئة: مالى والأزمة الخطيرة، أنا لا أشتغل بالسياسة يجب أن تحضر، سوف أكون في انتظارك!

ودهش عادل للهفة الأميرة على لقائه في تلك الليلة وإصرارها على حضوره، وقالت له في صوت حزين:

— إنك ستنكد الحياة على هذه الليلة!

— لماذا؟

— إن عددنا على المائدة ١٤ شخصا.. وإذا تغيبت فسيكون عددنا ١٣، وأنا أتشاءم كثيرا من رقم ١٣..

ضحك عادل سخرية بنفسه ! لقد توهم في أول الأمر أن الأميرة تريده حبيباً، وإذا بها تريده عدداً !

قال لها : يمكنك أن تدعى أى أحد غيرى ليحل مكانى . إن الناس جميعاً يتمنون أن يتناولوا العشاء على مائدة الأميرة الفاتنة !

قالت في حسرة :

— إن الوقت متأخر.. ولا أستطيع الآن أن أدعو أحداً.. يجب أن تحضر، إننى أملك أن تحضر!

قال في حزم :

— لا أستطيع أن أحضر حفلة ساهرة ويلادى تحترق !

ووضعت الأميرة سماعة التليفون في عنف دون أن تجيبه !

ووجد عادل نفسه يقارن بين قسمت والأميرة فضيلة !

قسمت تريده ليملاً حياتها، وفضيلة تريده ليملاً مكاناً خالياً على مائدتها.. قسمت تشاركه في حزنه على وطنه، وفضيلة تتشاءم من رقم ١٣، ولا تتشاءم من الانذار البريطانى الذى قضى على استقلال مصر. قسمت تعتبره حياتها. وفضيلة تعتبره ضيفاً على مائدتها.. وما أكثر الضيوف على مائدة الأميرات !

وتذكر عادل أنه في هذه المقارنة نسى أن يقارن بين دمامة قسمت وفتنة فضيلة، بين بهدلة قسمت وأناقة فضيلة، بين نظارة قسمت وروعة فضيلة التى تبدو كأنها عارية تماماً، وهى في داخل فستانها !

وأحس بشعور غريب. كأن الجمال الحقيقى ليس في وجوه النساء.. إن

قسمت تثيره الآن أكثر مما تثيره فضيلة. إحساسها الكامل به يجعلها فاتنة. اندماجها بفكرها ومشاعرها مع فكره ومشاعره جعله يرى قسمت كأنها صورة امرأة عارية جميلة مثيرة، جسدها في لون الورد، كأنها أحد رسوم الرسام العالمى رينوار!

امرأة تستطيع أن تقوم بما يقوم به الرسام فتخلق من ألوان المشاعر عيوناً جميلة وجسداً مثيراً، وفما شهياً!

* * *

ودق جرس الباب..

وأسرع يفتح لقسمت، ولكنه لم يجد قسمت، وإنما وجد الأميرة فضيلة! كان يبدو على فضيلة الخوف والرعب. كان كل جزء في جسمها يرتعش. ولم تمد يدها إلى مصافحته وإنما اندفعت إلى داخل الشقة وهى تقول في جزع:

— أسرع! أسرع! أقفل الباب!

وأسرع يغلق الباب وراءها، وقالت له فى كلمات مرتعشة:

— أعطنى بسرعة كأساً من الويسكى!

ومد عادل يده إلى البار فى غرفة الصالون، وأمسك بزجاجة ويسكى وأفرغ جزءاً منها فى كأس..

فقالَت الأميرة:

— ضاعف الويسكى من فضلك.

وعاد عادل يفرغ كمية أخرى من الويسكى، ثم سألها :

— بالماء.. أم بالصودا؟

قالت وهي تقبض على الكأس بأصابعها :

— سأشربها كما هي.. لا ماء ولا صودا.

وأفرغت الكأس في جوفها دفعة واحدة..

ونظر عادل إليها في دهشة وقال :

— ماذا حدث؟

— جئت أختبئ عندك !

— من زوجك !

— لا، من الانجليز ! إنهم سيقبضون الآن على الملك وجميع الأمراء
والأميرات !

— من قال لك هذا !

— إنهم حاصروا الآن قصر عابدين بالدبابات.

— غير معقول ! الانجليز لا يمكن أن يرتكبوا هذه حماقة !

— الأميرة هان زاده حدثتني في التليفون منذ دقائق وقالت إنها رأت
الدبابات بعينها، وأن زوجها الأمير محمد على إبراهيم قال لها إن الانجليز
سيقبضون على جميع الأمراء والأميرات ! وما كدت أبلغ النبأ إلى المدعوين
عندى على مائدة العشاء حتى تركوني وحدي وهربوا بينهم أمراء وكبراء
وأصحاب ملايين.. كلهم هربوا.

- وزوجك !
- هرب أيضا !
- كيف هرب ؟ ..
- ذهب ليوصل الضيوف إلى باب القصر ولم يعد !
- إنه جبان !
- هذه كانت فضيلته الوحيدة !
- وماذا ستفعلين !
- أصبحت أشك في كل إنسان ! أنت الوحيد الذى أثق به ! لا أعرف لماذا ؟ .. وإنما لدى إحساس غريب بأنك لن تبلغ عني الانجليز !
- ثم ضحكت وقالت :
- وعلى كل .. فأنت المسئول عما حدث !
- أنا المسئول ؟ !
- نعم .. أنت الذى جعلت عدد المدعوين على مائدتى ١٣ شخصا .. ولهذا حدثت هذه المصيبة !
- يمكنك أن تجعلى هذا البيت بيتك !
- إنك الرجل الوحيد النبيل فى هذا البلد !
- أى مصرى مكافئ كان سيفعل ما فعلت .
- لا أظن !

– عيبكم أيها الأمراء أنكم لم تعرفوا المصريين.. ولم تحاولوا أن تعرفوهم!

– ليس الذنب ذنبنا.. هو ذنب أبائنا الذين علمونا أن المصريين أعداؤنا.
– إنهم ليسوا أعداءكم. إنهم أعداء الظلم والاستبداد. أعداء الذين يحاولون معاملتهم كالعبيد، وهم أسياد البلد!

– هل تظن أنهم سيشتقون الملك؟

– لا أظن.. ولكن يجب أن أذهب الآن وأرى بنفسى ما يحدث فى القصر؟
– ستتركنى وحدى؟!

– إننى أريد أن أطمئن على البلد كله!

– سيجيئون ويقبضون على هنا!

– إن أحدا لا يعرف أنك هنا.. وأنا معروف بأننى بعيد عن السياسة.
وعلاقتى بالانجليز طيبة فشركتى تتعامل مع القيادة البريطانية فلا خطر من أن يهاجم الانجليز هذه الشقة.. وتعالى أريك الشقة!

– إنك نسيت أننى أعرف غرفة النوم!

– لم أنس ذلك.. ولكنى سأرشدك إلى المطبخ فقد تحتاجين إلى أن تأكلى شيئا!

وصحبها إلى المطبخ.. وأشار لها إلى موقد البوتاجاز.. وقال:

– هنا يمكن أن تسخنى الطعام الموجود فى الفريجيدير!

قالت الأميرة ضاحكة.

– إننى لم أقم بطهى أى شىء فى حياتى !

– هذه فرصة ذهبية لتتعلمى الطهى !

– لو طهيت لك.. لمت مسموما !

– إننى سأتركك الآن.. ولن أغيب عنك طويلا !

– أرجوك ألا تتركنى وحدى طويلا !

– لن أغيب..

ومضى إلى الباب.. ثم تذكر مواعده مع قسمت، وعاد أدراجه إلى المطبخ،
ورأى الأميرة فضيلة، قد فتحت الفريجيدير ووقفت أمامه حائرة !

وابتسم عادل وقال لها :

– جاءت لك نجدة من السماء !

– هل جاء الطاهى ؟

– كلا.. إن قسمت شاهين ستجىء الآن..

– أخشى أن تبلغ عنى السلطات البريطانية عندما ترانى هنا !

– لا أريد أن تشكى فى كل الناس.. يمكنك أن تتقى بقسمت كما تتقين

بى !

– لأنها تحبك !

– لا.. لأنها فتاة مصرية.

– إننى أشعر بأنها تغار منى !

– لماذا تغار منك؟

– لأنها تخشى أن أخذك منها.. وهى تحبك!

– من قال لك هذا؟!

– عيناى!

– حتى ولو كانت تحببى، فإنها ستحافظ عليك كما أحافظ عليك أنا..
عندما تسمعين الجرس يدق.. إذهبي وافتحي الباب.. وقولى لها إننى قادم
بعد بضع دقائق وإننى ذاهب إلى قصر عابدين لأتأكد من وجود السدبابات
البريطانية..

* * *

دخل أحمد حسنين إلى مخدع الملك فوجده واقفا يرقب الملكة والخدم،
وهم يملأون بعض الحقائب المفتوحة بملابس الملك.

قال حسنين : ماذا تفعلون؟

قال الملك : أضع ملابسى فى الحقائب.

قال حسنين : لماذا؟

– لأننى قررت التنازل عن العرش، إن هذا هو قرارى الأخير ولا يمكن
لقوة فى الأرض أن تزحزحنى عن هذا القرار.

والتفت حسنين إلى الملكة فريدة والخدم وقال :

– أخرجوا من هنا. واتركونا وحدنا!

وخرجت الملكة والخدم وأغلقوا الباب خلفهم.

والتفت حسنين إلى الملك وقال .

— هل جنتت ؟

— لا يمكن أن أبقى على العرش بعد هذه الإهانة.

— إنك تهرب من المعركة !

— المعركة انتهت. ألم تر الدبابات تحيط بالقصر. ألم تر جنود الحرس وقد أصبحوا جميعاً أسرى؟! ألم يجردوا الحرس الملكى كله من سلاحه؟ لم يبق معى أحد!

— بقى الشعب!

— الشعب! إن زعيم الشعب هو الذى يفرضه الانجليز بالدبابات! يجب أن أتنازل عن العرش! لن أبقى بعد الآن ملكاً ولو دقيقة واحدة! سأتنازل.. سأتنازل.. سأتنازل!

كان الملك أشبه بالثور المذبوح يصرخ ويصيح فى حالة هستيرية ويكرر كلمات «سأتنازل! سأتنازل! سأتنازل» وهو يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً! احتقن وجهه حتى أصبح بلون الدم. شفثاه ترتجفان وهو يتكلم وكأن الدم يسيل من فمه.

وهنا تقدم منه حسنين، ودفعه بيده دفعة قوية أسقطته على مقعد كبير، وهو يصرخ فيه بعنف:

— أقعد هنا!

وسقط الملك على المقعد مذهولاً! إنها أول مرة فى حياته يضره أحمد

حسنين ! أول مرة يدفعه مصرى بيده ويوقعه ! أول مرة يشخط فيه أحمد
حسنين بهذه القسوة !

وتراجع الملك فوق المقعد . أذهلته المفاجأة . أخرسته الصدمة . واندفع
حسنين يقول له :

– اسمع يا فاروق ! أنا لا أتكلم معك كملك ! بل أتكلم معك كشاب مصرى
أردت أن أعلمه أن يكون ملكاً ! إنك لن تتخلي عن هذا العرش ! إن تنازلك
عنه هو استسلام للانجليز ! هو خيانة لمصر !

– خيانة لمصر !

– نعم ! لأن الانجليز يسيطرون الآن على كل شيء في البلد ! هم الذين
أعلنوا الأحكام العرفية ! هم الذين يشرفون على الجيش المصرى ! هم الذين
يكلمون الصحافة ! هم الذين يولون الآن رئيس الوزراء والحاكم العسكرى .
معنى هذا أن البلد كله في قبضة أيديهم ! إن صوتنا لن يرتفع بمعارضتهم !
كانك تهرب وتترك شعبك تحت رحمة الغزاة ! يجب أن تبقى في مكانك ..
تشارك شعبك مصيره .. تقاوم .. تحاول أن تحول الهزيمة إلى نصر !

– ولكننى سأتبقى كخيال المائة .. ملك بلا سلطة !

– فى استطاعتك أن تكون راية ! الراية قطعة قماش لا قيمة لها ، ولكنها
فوق الصارى تصبح علماً !

– دبابات الانجليز داست على هذه الراية ! تحولت من علم يرفع فوق
الرؤوس .. إلى خرقة تمسح بها أقدام الانجليز !

– قف بجوار الشعب .. تصبح العلم من جديد !

– الشعب سوف يستهين بى بعد أن رأى الدبابات البريطانية تحيط
بقصرى وتذلنى !

– لو كانت هذه الدبابات هى دبابات الجيش المصرى وجاءت تحاصر
قصرى، لنصحتك بأن تتنازل عن العرش فوراً.. ولكن هذه هى دبابات
الجيش البريطانى.. دبابات العدو!

قال فاروق والكلمات ترتجف فوق شفتيه :

– ماذا تريد منى أن أفعل؟

– اخضع اليوم.. وانتقم غدا!

– هل تريد منى أن أقبل الانذار البريطانى وأعيد النحاس رئيساً
للوزارة؟

– نعم..

– وأحنى فاروق رأسه ويكى..

واحتضنه حسنين كأنه ابنه.. وصحبه إلى الحمام وغسل له وجهه.

أقبلت سيارة السفير البريطانى ومعه الجنرال ستون القائد العام للقوات
البريطانية يتقدمها عدد من السيارات المصفحة وراكبى الموتوسيكلات
يحملون المدافع الرشاشة.

اقتربت السيارة من باب القصر الحديدى فوجدته مغلقاً..

تقدمت دبابة بريطانية ودفعت الباب الحديدى. أمامها فأنفتح على

مصراعيه ودخلت سيارة السفير البريطاني تتبعها العربات المصفحة إلى البهو الداخلى للقصر..

نزل السفير ومعه القائد العام وخلفه ثمانية من الضباط الانجليز يحملون مسدساتهم ومدافعهم الرشاشة.. إن هؤلاء الثمانية هم الذين عهد إليهم الأمر بالقبض على الملك.

تقدم إسماعيل تيمور باشا الأمين الأول للملك إلى السفير يدعوه للجلوس في غرفة الانتظار، دفعه السفير بيده وقال :

— أنا أعرف طريقى !

وصعد السفير ومعه الضباط إلى غرفة مكتب الملك مباشرة، وجرى تيمور باشا خلفهم وفتح الباب..

ووقف الملك وبجواره حسنين. ودخل السفير والقائد العام البريطانى وحدهما..

وانتظر الضباط الانجليز المسلحون أمام الباب..

ودعاهما الملك للجلوس. ووضع السفير البريطانى يده فى جيبه وأخرج ورقه التنازل عن العرش ودفع بها إلى فاروق.

قال حسنين ساخرا : إننى لم اقرأ المعاهدة جيدا.. هل فيها هذا التدخل المسلح، يا سير مايلز؟

قال مايلز لا مبسود بجفاء : إننى لم أحضر إلى هنا لاجيب على أسئلة !

وأمسك فاروق الورقة بيده.. وقال :

— إننى عندما أريد أن أتنازل عن العرش.. سأكتب التنازل باللغة

العربية.. لا باللغة الانجليزية !

وهمس حسنين في أذن فاروق..

واعتدل فاروق في مقعده وقال :

– كنت استطيع أن اصر على رفض الانذار البريطاني، فلتحول بلادى إلى بحار من الدم، ولكننى تجنبنا لهذا الدم البرىء ابلغك اننى قبلت الانذار البريطانى، وأننى موافق على تعيين النحاس باشا رئيسا للوزارة.

وبهت السفير، وتنفس القائد العام البريطانى الصعداء، وابتسم وقال هامسا للسفير البريطانى :

– الآن.. انتهت مهمتى !

ولكن السفير، وهو يعرف عناد الملك، مضى يتحداه ويقول :

– ولكن هل تعد بأن تتعاون معه ؟

– نعم، اعد بالتعاون معه ! وسوف استدعى الآن زعماء البلاد وأقول لهم : إننى قبلت الانذار البريطانى وعينت النحاس باشا رئيسا للوزراء.

وابتسم الملك وقال :

– أراكم مضطربين !.. سأطلب لكم بعض المرطبات !

ودق فاروق الجرس، وطلب من خادمة احضار « شريات » للسفير وللقائد العام !

وقال الجنرال ستون وهو يضحك :

– إن الجو بارد.. أظن أن الويسكى خير من المرطبات !

ودق فاروق الجرس مرة أخرى.. وطلب استبدال المرطبات بالويسكى.
وجاء خادمان، خادم يحمل أكواب الليمون، وخادم يحمل زجاجة ويسكى
— وعدة كنؤس..

وقال الجنرال ستون :

— لنشرب نخب النهاية السعيدة ورفع السفير لامبسون كأس الويسكى.
ورفع الجنرال ستون كأس الويسكى، ورفع حسنين كأس الويسكى..
ورفع فاروق كوب الليمون ! فقد كان فاروق خلافا لكل ما كان معروفا عنه،
لا يذوق الخمر!

وشرب الأربعة نخب النهاية السعيدة!

وكان عادل واقفا على قدميه في ميدان عابدين.. ولم ير «النهاية
السعيدة».. إنما كان يرى نهاية أى صداقة بين مصر وبريطانيا ! شعر بذل
لم يحس به طوال حياته.. هوان لم يتصور أنه سيراه بعينه في يوم من
الأيام. لقد كان يكره الانجليز. كان وهو طالب يهتف بسقوطهم في
المظاهرات ولكنه الآن يحقد عليهم. يحقد على كل انجليزى. يمقته. شعر
بعار غريب. شعر كأن أمه التى خرج من بطنها، تغتصب أمامه في ميدان
عابدين. وهو لا يستطيع أن يفعل شيئا. لا يستطيع أن ينقذها ! لا يستطيع
أن يقتل الذى اغتصبها. لا يستطيع أن يصرخ. لا يستطيع أن يبكى !

وكانت الغطرسه تبدو على وجه كل جندى بريطانى ! أحس بأن كل واحد
منهم يبصق في وجهه. يصفعه على قفاه ويقول له : أنت لست رجلا ! لو كنت
رجلا لقاومتنا.. ليس فيكم رجل واحد. كلكم أغوات. كلكم جبنااء... لو حدثت

عملية الاغتصاب هذه في أى بلد في العالم لتحول ميدان عابدين إلى مجزرة
مات فيها الوف الشبان ! ولكنكم تقفون جميعا مدهوشين، مبهوتين، مسمرين
في أماكنكم !

ثم اقبلت سيارة صاحب المقام الرفيع شريف صبرى باشا خال الملك،
وعضو مجلس الوصاية السابق.

ونزل من السيارة الانيقة في مهابة ووقار !

وتقدم منه جندى بريطانى يحمل مدفعا وصويه إليه وقال له وهو يلقي
عليه نظرة احتقار:

— قف هنا..

وتسمر خال الملك في مكانه في رعب وقال بالانجليزية :

— انا خال الملك.

ووضع الجندى البريطانى مدفعه في ظهر خال الملك، ودفعه أمامه إلى أن
وصل إلى ضابط بريطانى، عرف شخصيته، فأشار له بأصبعه أن يدخل !
واقبلت سيارة الدكتور أحمد ماهر رئيس مجلس النواب. وكان يومئذ
مصابا بشلل في نصف وجهه.. وغطى رأسه بغطاء من الصوف فبدأ أشبه
برجل ملثم..

ونزل من سيارته.

وتقدم نحوه جندى بريطانى يحمل بندقية في فوهتها سونكى.

وقرب الجندى البريطانى السونكى من بطن الدكتور ماهر الكبير.. وأمره
بالوقوف وطلب منه أن يرفع يديه !

ووقف ماهر ورقض أن يرفع يديه، وقال له :

— إننى رئيس مجلس نواب مصر!

ودفعه الجندى البريطانى وهو يقول ساخرا :

— الجيش البريطانى هو مجلس نواب مصر الآن!

ووقفت سيارة محمد محمود خليل بك رئيس مجلس الشيوخ ونزل منها..

وأسرع البه جندى وشخط فيه أن يقف، فوقف. وقال :

— إننى رئيس مجلس شيوخ مصر

وأمسكه الجندى البريطانى من ياقة جاكته، ودفع رئيس مجلس الشيوخ أمامه، كما يدفع جندى الشرطة، أى متسول أو متشرد.. ثم اتجه به وهو على هذه الصورة إلى محمود السيوفى بك التشرىفاتى الواقف على الباب وقال له :

— هل تعرف هذا الجدع؟

قال التشرىفاتى :

— نعم.. إنه رئيس مجلس شيوخ مصر!

ودفع الجندى البريطانى رئيس مجلس الشيوخ أمامه حتى كاد الرجل العجوز ينكفى على وجهه!

شعرت الاميرة فضيلة بالتعب والأرهاق. أحداث اليوم هزت أعصابها. خلعت ثوبها، ورقدت فى فراش عادل بملابسها الداخلية.

ثم أحست بالبرد فانزلت تحت اللحاف الوثير والبطاطين الصوفية..

وسرحت بأفكارها في مصيرها المجهول. ماذا تفعل إذا خلع الانجليز الملك وقبضوا على الأمراء والأميرات... كيف تعيش إذا أصبحت فضيلة فقط؟ لا صاحبة السمو الملكي؟ إنها وأثقة أن أول ما سيفعله زوجها عوني باشا معروف أنه سوف يطلقها. لقد تزوجها لأنها ابنة عم الملك. لأنها صاحبة سمو ملكي، لأنها صاحبة ثروة طائلة!.. ويوم يذهب كل هذا سيذهب معه زوجها.. بل إنه ذهب عندما سمع بإشاعة عزل الملك! إن فيه اخلاق الفيران.. لقد هرب من السفينة قبل أن تفرق.. لم تفاجأ بهروبه، كانت تفاجأ فعلا لو أنه بقي إلى جانبها. إنها رضيت بزواجه لأنه «طرطور» جميل، لا يضر ولا ينفع، تضعه على رأسها في الحفلات الراقصة، والحفلات التنكرية، ثم تخلعه بعد ذلك عندما تعود إلى قصرها!

هذا الزوج مثل زوج الأحذية الخاص بالسهرات، أنيق، مذهب، جميل. ولكن لا يصلح للمشى بين صخور الحياة. ولكي تسير في الزواجع يجب أن تخلعه من قدمها، وتحمله في يدها، حتى لا يعطلها عن السير وسط العواصف والزواجع والرياح!

ماذا تفعل إذن؟ إنها لم تتعلم تعليما كافيا لتعمل في وظيفة.. لا تعرف الكتابة على الآلة الكاتبة والاختزال لتصبح سكرتيرة.. لقد علمها أبوها لتكون أميرة.. كان رجلا متفائلا يتصور أن عرش مصر سيعيش ألف سنة على الأقل.. علمها كيف ترقص ولم يعلمها كيف تعيش. علمها كيف تأكل بالشوكة والسكين ولم يعلمها كيف تحصل على ثمن ماتأكله. علمها كيف تمد يدها في جلال للرجال لينحنوا لها ويقبلوا يدها في احترام، ولم يعلمها كيف ترغب الرجال على أن يحترموها لشخصها لا للقبها.. علمها الفرنسية والانجليزية والاطالية والتركية قراءة وكتابة! ونسى أن يعلمها اللغة العربية، لغة البلد الذي ستعيش بقية حياتها فيه!

بعد أن تجرد من لقبها وثروتها لن يبقى لها إلا جمالها.. ولكن إلى متى يعيش هذا الجمال؟ إنها تنفق خمسمائة جنيه في الشهر على جمالها! على عطرها، على مساحيقها، على تصفيف شعرها.. لن يمكنها أن تحتفظ بكل هذا الجمال إذا لم تجد نفقات صيانة هذا الجمال!

تستطيع أن تعمل ممثلة؟ ولكنها لم تدرس التمثيل؟ لابد أن تبحث عن مخرج سينمائي ليحبها، ويجعل منها نجمة من نجوم الشاشة!

ولكن أين تجد المخرج الفدائي الذي يخاطر ويحب ابنة عم ملك مخلوع! إنها تصلح أيضا أن تعمل «مانيكان» جسمها الرشيق يساعدها على أن تقوم بهذا العمل.. وهي فرصة لها كي ترتدي دائما الملابس الانيقة، إنها تعبد الفستان الجميل!

ولكن كم عمر المانيكان، إنه لا يزيد عادة على خمس سنوات، ثم تشحب.. وتبرز مانيكان شابة مكانها.. وماذا تفعل عندما تصبح غير صالحة لعمل المانيكان؟ سوف تموت جوعا!

الحل الوحيد أن تتزوج!

تتزوج رجلا، رجلا بمعنى الكلمة.. وليس طرطورا مثل عوني باشا معروف، رجلا يقف بجوارها في الأزمات، ويصمد وراءها في المحن، ولا يهرب كما هرب زوجها الجبان!

وخطر ببالها اسم عادل علاء الدين.. إنه رجل! والدليل على رجولته أنه وقف بجوارها عندما تخلى عنها ضيوفها! عندما تخلى عنها زوجها.. لم يخف من بطش الانجليز ترك لها بيته. خرج ليطمئنها عما يحدث في الخارج..

ثم تذكرت صديقها عمر الفلسطيني.. إنه هو الآخر ممكن أن يتزوجها..
ولكن فلسطين يحكمها الآن الانجليز، إذا طردوها من مصر، فلن يسمحوا لها
بدخول فلسطين..

وعادت تفكر في عادل علاء الدين من جديد !

وتخيلت نفسها زوجته !

وأحست بقشعريرة لذيذة، كأنه يرقد بجوارها الآن في فراشه

واغمضت عينيها لتحلم به.

ولم تلبث أن استغرقت في نوم طويل..

واستيقظت على صوت رنين جرس متواصل.

وفتحت عينيها، ونظرت حولها في دهشة !

نسيت عندما نامت أن تطفى النور..

وعادت تفتح عينيها مرة أخرى وتدير رأسها في انحاء الغرفة.

إنها لا تعرف أين هي.. كانت منذ لحظات في غرفة نومها في قصرها
بالجزيرة، كانت بين ذراعى عادل علاء الدين يغمرها بالضم والعناق
والقبلات، ثم سمعت جرسا يدق. واضطرب عادل.. وأراد أن يقفز من
الفراش.. وتشبثت به وأمسكته بيديها وقالت له :

— لا تخف يا عادل ! إنه زوجي :

وها هي ذى تفتح عينيها من الحلم اللذيذ. لا تزال تسمع صوت الجرس
الذى سمعته في الحلم.. لا يزال في شفتيها رحيق شفتيه.. لا يزال في جسدها

حرارة عناقه.. ولكنها لا تجد عادل فوق الفراش، إن هذا ليس فراشها،
ولا هذه هي غرفة نومها، لعلها لا تزال تحلم..
واغمضت عينيها من جديد.

مضت قسمت تدق جرس الباب.. تضغط على زر الجرس بعنف ثم برقة،
ثم بعنف من جديد..

إن انوار الشقة مضاءة مما يدل على أن عادل في داخل الشقة..
لابد أن المسكين كان ينتظرها، وعندما تأخرت بسبب إغلاق الطرق ومنع
المرور أغمض عينيها ونام!

ليت معها مفتاح الشقة، لو كان معها مفتاح، لدخلت على أطراف قدميها،
وتقدمت منه وبدأت تجرده في هدوء من ملابسه!

وتصورت عادل وهو يفتح عينيها في فزع، عندما يجد امرأة تجرده من
ملابسه في الظلام!

وابتسمت عندما تصورت الذهول في عينيها.. وتصورت نفسها تقبله.. قبله
طويلة طويلة طويلة تحول فزعه إلى اطمئنان!

لابد أنه تعب من أحداث اليوم ونام.. إنها لا تعرف ماذا كان يجري في
القاهرة هذه الساعة المتأخرة، كل ما رآته دبابات وسيارات مصفحة..

سألت سائق التاكسي فقال لها إنها امدادات بريطانية في طريقها إلى
ميدان القتال في الصحراء الغربية..

ومضت تدق جرس الباب.. الليلة ليلتها ! عادل يقول لها إنه سيصحبها في
نزهة في سيارته إلى ضاحية المعادي.. إنها لا تريد الذهاب إلى ضاحية
المعادي. انها تريد أن تبقى معه في الشقة !

تريد أن تضمه إلى صدرها كل دقيقة من ساعات اللقاء ! لا تريد أن تكون
عيناه مشغولتين بعجلة القيادة.. تريد أن تتفرغ يداه لها وحدها. تعانقها،
تلمسها، تلعب في خصلات شعرها، لا تريد أن يتجه بعينه إلى الطريق
كلها... إنها تريد عينيه متجهتين إليها وحدها، في عينيها في كل جزء من
أجزاء جسدها !

وعادت تدق الجرس من جديد.

وفتحت الأميرة فضيلة عينيها على صوت الجرس !

وعرفت أنها في غرفة نوم المهندس عادل علاء الدين.

وتذكرت أن عادل قال لها : إن قسمت شاهين ستحضر إلى الشقة وتدق
الجرس، وان عليها ان تفتح لها الباب..

وغادرت الفراش متثاقلة..

ومشت إلى الباب في ببطء، كأنها لا تزال تحلم !

كانت الأميرة حافية القدمين، بملابسها الداخلية، بشعر منكوش كان
أصابع عادل عبثت به في الحلم فعلا، أو كأن أصابعها هي التي عبثت
بخصلات شعرها نيابه عن عادل !

استمر الجرس يدق..

وفتحت الأميرة الباب.

ورأت قسمت الأميرة فضيلة أمامها.. حافية.. بملابسها الداخلية بشعرها المنكوش!

وشهقت شهقة عالية.. تراجعت مذعورة إلى الخلف.. اذهلتها المفاجأة.. فتحت فمها لتقول شيئاً، فإذا الكلمات مذبوحة فوق شفتيها، عاجزة عن الانطلاق..

وسقطت قسمت على الأرض.. مغشياً عليها!

الفصل الثالث عشر

امتلات قاعة الطعام في نادى السيارات الملكى بالقاهرة. اليوم يوم السبت. الطعام ممتاز بفضل طاهى النادى الفنان الذى يتقاضى مرتبا قدره مائة وخمسون جنيها في الشهر الواحد. وهو مرتب أكبر من مرتب كثير من وكلاء الوزارات في تلك الأيام!

الغداء فاخر جدا، ورخيص جدا، أرخص من المطاعم الكبرى المماثلة، ذلك لأن أغلب دخل النادى من موائد القمار ينفق على بطون الأعضاء!

مستوى الجمال عال. كأنك في شارع الشانزليزيه في باريس. أغلب «عضوات» النادى من فائنات القاهرة الساحرات، من مصريات خمريات، إلى سوريات شقراوات، إلى لبنانيات في لون اللبن الحليب. مواكب الاناقة لا تنتهى. بعض «العضوات» زوجات لأصحاب ملايين، أو عشيقات لأصحاب ملايين. أو في طريقهن إلى قلوب أصحاب الملايين!

كل من في النادى يضحك ويمرح، أو يرقص ويلعب، أو يهمس بنكتة مخلة بالآداب، أو يغازل امرأة جميلة، أو يهرب من امرأة كانت جميلة!

وكان عادل علاء الدين عضوا في نادى السيارات، وفي الوقت نفسه عضوا في نادى محمد على. وكان يذهب إلى نادى السيارات إذا أراد أن يرى الدنيا، ويذهب إلى نادى محمد على إذا أراد أن يرى الآخرة!

فنادى محمد على ناد متزمت. يجلس أعضاؤه وكأنهم يحضرون مأتما
بدأ منذ إنشاء النادي منذ عشرات السنين. ولم ينته حتى الآن!

باشوات على المعاش. وزراء على الرف. سياسيون عجائز يتخذون
النادى موقفا للوزراء أشبه بموقف عربات الحنطور أو سيارات التاكسى.. فقد
اعتاد الملك فؤاد أن يختار الوزراء من نادى محمد على. ومات الملك من
ست سنوات، ولا يزال السياسيون يجلسون فى أماكنهم بلا حراك فى انتظار
دعوتهم إلى الاشتراك فى أية وزارة جديدة.

وأعضاء النادي صنف غريب من البشر. إذا أرادوا أن يتكلموا همسوا،
وإذا أرادوا أن يقهقهوا ابتسموا وإذا أرادوا انتقاد الملك أو مهاجمة رئيس
الوزراء، أخذوا العضو الذى يتحدثون إليه، إلى غرفة بعيدة، وأغلقوا الباب
بالمفتاح، وأبدوا رأيهم، وهم يتلفتون حولهم خشية أن يكون للجدران أذان
وإذا أرادوا أن يتحدثوا عن ذكريات شبابهم تحدثوا عن عصر قدماء
المصريين!

والنساء ممنوعات من دخول النادي. مباح لهن دخول غرفة واحدة
يدخلنها فى استحياء، ويشترط أن تكون الداخلة امرأة أجنبية. أما المرأة
المصرية فهى ممنوعة من الصرف!

ولهذا كان النادي بلا روح. غرفة مخصصة للعب الطاولة فى أدب، أو لعب
البوكر فى وقار، أو لعب البلياردو فى هدوء، أو للقراءة بنفس الطريقة التى
يقرأ بها المشايخ على قبور الأموات..

وقد اضطر عادل أن يمر بنادى محمد على. ويبقى به بضع دقائق،
ليحدث مع المهندس علوان باشا عبد الحميد فى شأن عمل من أعمال شركة
الهندسة الكهربائية.. وحرص على أن يكون الحديث مختصرا، فقد كان

نادى محمد على ثقيلًا على قلبه . وكان نادى السيارات خفيفًا على قلبه ..
كأنه شاب مرح يرقص ويضحك ويقود السيارات، ويركب الطيارات، بينما
كان نادى محمد على أشبه بمحمد على باشا الكبير مؤسس الأسرة العلوية،
له شارب كبير مخيف، ولحية كبيرة وقور. وعمامة بيضاء أكبر من اللحية
والشارب ومحمد على باشا نفسه !

وفوق كل هذا... ليس فيه نساء !

وأسرع عادل إلى نادى السيارات وحيا الجالسين فى البار بابتسامة ومضى
ن طريقه إلى مائدة الطعام، وانضم إلى مائدة المهندس طاهر كريم حيث
اجتمع عدد من مهندسى شركة الكهرباء الهندسية.

وسأله طاهر:

— لماذا تأخرت يا عادل !

— كنت فى نادى محمد على !

— ما هى أخبار نادى محمد على ؟

— كلما دخلت النادى أحسست كأننى أقرأ صفحة الوفيات فى الاعداد
قادمة من جريدة (الاهرام) !

— ألم يكونوا يتكلمون عن الجو السياسى ؟

— كانوا يتكلمون عن البرد.. والانفلونزا !!

وشرب المهندس طاهر كريم جرعة من كأس البيرة التى أمامه وقال :

– الناس في مآثم بسبب حادث محاصرة الدبابات البريطانية لقصر عابدين، كلهم يرددون ما قاله الدكتور أحمد ماهر للنحاس أمام الملك والزعماء: « أنت يا نحاس تتولى اليوم الحكم على الحراب البريطانية. وفوق الدبابات البريطانية! »

قال المهندس شفيق عثمان:

– إن قلب مصر خفق أربع مرات المرة الأولى يوم شنق الانجليز الفلاحين في دنشواي. المرة الثانية يوم مات مصطفى كامل. المرة الثالثة يوم قبض الانجليز على سعد زغلول سنة ١٩١٩. والمرة الرابعة عندما مات سعد.. اعتقد أنه خفق يوم ٤ فبراير للمرة الخامسة!

قال المهندس طاهر:

– الناس فعلا في مآثم!

وقهقه المهندس خليل مدبولي وقال:

– أنت رأيك الناس في مآثم ولكني أنا رأيت الناس في فرح! كانوا يهتفون ويرقصون وكأن الجيوش البريطانية جلت نهائيا عن مصر.. ولم يبق على أرضها جندي واحد من جنود الاحتلال!

قال طاهر محتجا:

– مستحيل.. إننى قابلت اليوم مهندسين درسوا في انجلترا. كانوا مؤمنين بالحلفاء وكفروا بهم. كانوا متحمسين لانتصار الانجليز، وقالوا إنهم أصبحوا يلعنون الانجليز.. هذا هو صوت الشعب!

قال مدبولي وهو يمتد شفتيه!

— هؤلاء ليسوا الشعب أنا رأيت الشعب ! كنت في وزارة المالية صباح اليوم. ورأيت فناء مجلس الوزراء غاصا بعشرات الألوف من المتظاهرين. وخرج إلى الشرفة النحاس باشا رئيس الوزراء، ومعه سير مايلز لامبسون السفير البريطاني، وأمسك النحاس بيد السفير، ورفعاً أيديهما متشابكة للجماهير، فجنت الجماهير، ودوى هتافها للنحاس وللـسفير البريطاني. وسمعتهم بأذنى يهتفون هتافاً كالرعد : «تحيا بريطانيا العظمى» !

قال طاهر :

— إنها فضيحة.. المصريون يهتفون لأول مرة في تاريخهم بحياة
الامبراطورية التى تحتلهم وتستعبدهم !

قال مدبولى :

— ليس هذا فقط ! عندما خرج السفير البريطانى من رئاسة مجلس
الوزراء التفت حوله الجماهير الهاتفة.. وحملته على الاعناق، من باب رئاسة
الوزارة إلى باب سيارته !

فى تلك اللحظة أحسست كأننى أقرأ الصفحة الأولى من مسرحية أحمد
شوقى عن «مصرع كليوباترا».. إنها تبدأ بحوار بين اثنين من المصريين
يوم هزيمة الأسطول المصرى فى الاسكندرية. والمظاهرات تخرج تهتف
بحياة الانتصار العظيم !

فى تلك الصفحة يدور حوار أشبه بالنبوءة بين أحد المصريين واسمه
حابى وواحد اسمه ديون :

أسمع الشعب ديون ! كيف يسوحن إليه ؟

ملا الجو هتافا.. بحياتى قساتيه!
اثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
ياله.. من ببغاء عقله فى أذنيه!
فيرد ديون قائللا:

إنى سمعت.. كما سمعت وراعنى!
أن الرمية تحتفى بالرامى!
هتفوا بمن شرب السطلا فى تاجهم
وأحال عرشهم فى فرش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئا!
ولو استطاع مشى على الأهرام!

قال المهندس طاهر:

— لو أن الشاعر شوقى بعث على قيد الحياة وأراد أن يصف ما حدث
اليوم.. لما استطاع أن يقول أكثر مما قاله!

قال المهندس شفيق عثمان:

— هذه هى الجماهير!

وغمغم عادل وقال:

— لا تظلم الجماهير يا شفيق إنها لا تعرف ما حدث، إنها ضحية مؤامرة
الصمت التى فرضت عليها، لم تنشر كلمة واحدة فى الصحف عن حادث
الدبابات. لم تذع كلمة واحدة عن محاصرة القصر فى أى إذاعة من إذاعات
العالم. حتى إذاعة برلين نفسها التى اعتادت أن تهاجم الانجليز بالحق
والباطل. إذاعة الأعداء خدعها الانجليز! تصورت إذاعة برلين أن الذى

حدث هو أن الملك أرغم الانجليز على قبول عدو الانجليز مصطفى النحاس رئيسا للوزارة! فإذا كان الانجليز استطاعوا أن يخدعوا دولة كبرى كالمانيا في هذا الحادث، فهل نلوم الشعب المصرى أنه خدع أيضا؟

وتمدد المهندس جورج اسحاق في مقعده بعد أن انتهى من الأكلة الشهية وقال:

— لا تنسوا ما فعله مكرم! إنه عرف بذكائه أن عارا قد وقع.. واستطاع أن يمحو العار. حصل على خطاب من السفير البريطانى يؤكد فيه أنه لم يقصد مطلقا الاعتداء على معاهدة سنة ١٩٢٦. وأنه يحترم استقلال مصر.

وقهقه مدبولى بصوت عال، أشبه بالضجة التى تحدثها الصحون عندما تقع من يد السفرجى وقال:

— ما أشبه ما حدث برجل غريب يجرى ويغتصب ابنتك يا إسحق في ميدان عام! وتذهب إليه غاضبا، وتتصور أنك ستقتله انتقاما للشرف المذبوح، وإذا بك تجيء لنا متهللا لأنك أنقذت شرف الأسرة! فقد حصلت منه على خطاب بامضائه يقول فيه إنه لم يكن يغتصب ابنتك في الطريق العام. وإنما هو نزع ملابسها الداخلية بسبب الحر الشديد، وأنه لا يحمل للأسرة إلا كل الاحترام!

وانفجر الجالسون يضحكون!

قال طاهر ضاحكا:

— لو حدث هذا لوجب أن يعلق اسحق «سوتيان» ابنته فوق نافذة بيته ليطمئن الشعب المصرى إلى أن شرف الاسرة بخير!

وأحمر وجه إسحق وقال :

— ماذا يمكن أن أفعل؟ الفضيحة حدثت.. ويجب أن نسترها!

قال طاهر:

— ولكن لا داعى لأن نهتف بحياة الرجل الذى اغتصب ابنتنا، ونحمله فوق أعناقنا!

قال عادل وهو يشعل سيجارته :

— سمعت أن الانجليز يطلبون إغلاق نادى السيارات.

— لماذا؟

— لأن الاعضاء ينتقدون الانجليز فى النادى.. ولأن النبيل عباس حليم رئيس النادى شرب مرة نخب هزيمة الانجليز!

— ولكنهم سبق أن طلبوا فى الماضى اخراج عباس حليم من رئاسة النادى ورفض الاعضاء بالاجماع هذا الطلب.

— تغير الموقف الآن! كانوا فى الماضى يطلبون.. ولكن بعد أن هددوا الملك وقضوا على سلطته، وحرقوا زعيم الشعب، أصبحوا لا يطلبون.. وإنما يأمرون!

— ولكننا سنرفض كما رفضنا فى المرة الماضية!

— عندما تفقد الفتاة عذريتها.. لا يعود من حقها أن تقول لا!

— أتعنى أن مصر استسلمت بلا قيد ولا شرط؟

— أعتقد أنها لم تستسلم فقط.. وإنما هتفت بحياة الغزاة!

واعترض المهندس اسحق على الحوار الذى جرى بين عادل ومدبولى
وقال :

— لا أصدق أن الحكومة ستستسلم ! أعتقد أن الحكومة قبلت هذا
الوضع الشائن فى مقابل ثمن !

— ما هو الثمن ؟

— الثمن أن الانجليز وافقوا سرا على الجلاء التام عن مصر والسودان
بعد الحرب مباشرة.

— هل هذا خبر أم أمنية ؟

— أمنية !

وضحك مدبولى وقال له :

— إذن .. « اتلهى » !

كان عادل يراقص الأميرة فضيلة فى الحفلة الساهرة التى أقامتها فى
قصرها بالجزيرة مساء ١١ فبراير لمناسبة عيد ميلاد الملك.

كانت الأميرة فى أبهى جمالها. وأكمل زينتها، تتمايل على عادل وهى
ترقص معه، وكان على رأسها تاج من الماس عندما قال لها وهو يبتسم :

— الذى يراك اليوم.. لا يصدق أنك المرأة المفزوعة التى رأيتها منذ
أسبوع واحد فى شقتى !

— كان هذا أكبر زلزال حدث فى حياتى !

- أرجو ألا يكون الزلزال حطم أشياء كثيرة !
- حطم كل الأبنية القابلة للسقوط.. وقد اكتشفت أن كل من حولي كان
أيلا للسقوط !
- حتى أنا !
- إلا أنت !
- وكيف عاد زوجك ؟
- عندما تأكد أنهم لم يخلعوا الملك !
- ألم يعتذر عن تخليه عنك في ذلك الظرف العصيب ؟
- قال لي : إنك تعرفين أن خفة دمي في جبنى !
- دمه خفيف جدا !
- يعجبني فيه أنه صريح في سفالته !
- هل أنت صريحة في سفالتك ؟ !
- أنا لست سافلة ! أنا نبيلة جدا !
- الدليل على ذلك ما قلته لقسمت !
- أنا لم أقل لها شيئا ! أنا لم أكذب عليها !
- أنت سكت.. والسكوت أحيانا فيه من الكذب أضعاف ما في الكلام !
- إن كل ما فعلته أنه عندما رأتنى قسمت بالملابس الداخلية في شقتك
أغمى عليها. وحملتها إلى غرفة النوم، وأخذت أدلكها بماء الكولونيا حتى

أفاقت وسألتني لماذا أنا في شقتك. فلم أرد عليها! وعندئذ قامت من الفراش،
وخرجت من الباب!

— إنها رفضت أن تتحدث إلي منذ ذلك اليوم..

— لا ألومها.. لقد رأت امرأة في فراشك!

— ولكن كان يجب أن تقولى لها الحقيقة، كل الحقيقة..

— لم استطع أن أقول الحقيقة، كل الحقيقة..

— لماذا؟

— لأننى كنت أحلم اننى بين ذراعيك عندما دقت قسمت الجرس!

— أنا لا أنتظر أن تقولى لها عن أحلامك، أنتظر أن تقولى لها الواقع!

— الواقع كان سيضطرها إلى الانصراف أيضا!

— وما هو الواقع؟

— أننى أحبك!

— كصديق؟

— لا.. كعدو!

— أنا عدو؟

— لأننى أريد أن استسلم لك بلا قيد ولا شرط!

— ولكن لى شرطا واحدا.

— ما هو؟

— أن تخلعي التاج..

— هل يقف تاج الامارة في طريقك؟

— نعم.. سوف أحس كأنتى وأنا بجوارك أن الملك واقف معنا!..

— هل تخاف منه؟

— أنا لست خائفاً منه.. لقد قابلنى أثناء الأزمة وقال لى: إنه يعرف أنتى
ربى نساء.. واننى أصفع النساء على وجوههن!

— أنا التى قلت له هذا!

— لماذا؟

— لأبعد عنك الشبهات! إنه خبيث جداً! فإذا قلت له إنك رجل مستقيم
وطيب الاخلاق فسيعرف أنتى معجبة بك، وأريد أن أوهمه بأخلاقك الطيبة
لأفعل ما أشاء معك.. وهو يعلم أنتى أكره عنف الرجال.. وعندما قلت له إنك
تصفع النساء على وجوههن اطمأن على الفور، لأنك لست من صنف الرجال
الذين يعجبوننى!

— ولكنك أسأت إلى سمعتى!

— اننى حائرة معك.. فإذا لم أقل الحقيقة اعترضت على.. وإذا قلت
الحقيقة اعترضت على!

— اننى أريد أن تقولى الحقيقة!

— لا أستطيع! لأننى أعيش فى عالم من الكذب.. أما أن أتكلم بلغته؟
وأما أن أخرج منه!

— لماذا لا تخرجين منه؟

— فكرت يوم كنت نائمة في فراشك أن أخرج منه.. ولكنى وجدت أننى لا أصلح لشيء! فكرت ماذا يحدث لى لو فقدت ثروتى ولقبى.. فوجدت اننى سأموت جوعا!

— أن لديك رأس مال!

— لقد تصورت أن الانجليز سوف يصادرون مالى!

— لا أقصد مالك.. أقصد جمالك!

— حتى هذا الجمال فكرت فيه.. فوجدت أنه لا يساوى كثيرا فى السوق السوداء..

— على العكس.. المرأة الجميلة لا تحتاج إلى لقب ولا إلى ثروة! الرجل يحتاج إلى المركز والمال واللقب. عندما يدخل الوزير فى حفلة يضع فوق صدره نياشينه وأوسمته ليحظى الناس رؤوسهم له.. ولكن المرأة الجميلة لا تحتاج إلى مركز ولا إلى لقب ولا إلى ثروة ولا إلى نياشين ليحظى لها الناس رؤوسهم!

— ماذا يمكن أن يفعل لى الجمال؟

— الجمال رفع نساء فقيرات إلى العروش.. إلى زوجات أصحاب الملايين! الرجال عدة طبقات: أثرياء وفقراء مشهورون ومغمورون، كبراء يصعاليك، علماء وجهلاء! أما النساء فهن من طبقتين.. جميلات.. أو غير جميلات! الجميلات هن النساء اللاتى أعطاهن الله مفتاح الجنة!

— ولكن المفتاح الذى أعطاه الله لى، لا يفتح بابك!

- لانتنى الجحيم !
- انتنى أحب النار !
- لتطفئها !
- لا.. لازيدها اشتعالا !
- يبدو أن لك فى كل ليلة حريقا !
- تصور.. إننى فكرت أن أتزوجك إذا جردونى من لقب الامارة !
- وطبعاً.. أصبحت الآن لا أصلح زوجا !
- فعلاً.. أنت لا تصلح زوجا لأميرة..
- إنك بدأت تقولين الحقيقة !
- نصف الحقيقة !
- والنصف الثانى !
- أنك تصلح فقط عشيقا لأميرة !
- وما الفرق بين زوج الأميرة وعشيقتها !
- زوج الأميرة يجلس على يمينها وعشييق الأميرة يجلس على يسارها بجوار قلبها !
- هل يجب أن أقدم طلب استخدام للحصول على هذه الوظيفة !
- انك عينت فى هذه الوظيفة فعلاً !
- منذ متى ؟

– منذ أن صفعنتى على وجهى !

– ومتى استلم عملى !

– اليوم !

– اليوم ؟ !

– نعم .. الآن !

– أين ؟

– عندى

– ماذا تفعلين بزواجك !

– سأقول له ..

وتوقفت الأميرة عن الرقص، وأمسكت بيده، واتجهت به إلى غرفة يجلس فيها عونى باشا معروف يلعب لعبة البوكر مع بعض المدعوين ..

وانحنى الأميرة على زوجها وهو يلعب، وهمست فى أذنه بعض كلمات، وإذا بالباشا يلوح بيده ويقول للأميرة ولعادل باللغة الانجليزية :

– أتمنى لكما حظا سعيدا !

ووقف عادل مبهورا مسمرا فى مكانه .. ودفعته الأميرة بيدها إلى خارج الغرفة، ومشى بجواره فى دهاليز القصر ..

ومشى بجوارها مذهولا .. ثم سألها :

– ماذا قالت له ؟

— قلت له اننى ذاهبة معك إلى بيتك !.

وتوقف عادل في ذهول :

— مستحيل أن تقولى له ذلك !

— لقد وعدتك أن أقول لك الحقيقة دائما !

— وهل وافق ؟

— لقد سمعته بأذنك يقول إنه يتمنى لنا حظا سعيدا !

— إنه زوج عجيب !

— إنه يثق بى !

— يثق بك مع رجل غريب !

وضحكت الأميرة وهى تدفعه أمامها وتقول :

— قلت له إننى سأبحث معك قضية شراء أسهم فى شركة الهندسة الكهربائية، وأننى أريد أن انفرد معك لهذا الشأن فى بيتك !

— وماذا تفعلين إذا دخل فجأة !

— لن يجرى فجأة ! إنه لم يدخل منذ زواجنا إلى غرفة نومى فجأة ! هل نسيت أننى أميرة ؟

— هل يطلب موعدا ؟

— لا.. إنه يتحدث معى من تليفونه الداخلى بجوار فراشه إلى تليفونى الداخلى بجوار فراشى، ويستأذنى فى الحضور !

- هل كل الأميرات يعاملن أزواجهن بهذه الطريقة؟
- لا أعرف.. ولكن المفروض أن يفعل هذا كل زوج يحترم زوجته
الأميرة!
- إذا كنت تعاملين زوجك بهذه الطريقة.. فكيف ستعاملين عشيقك؟
- أعامله كأنه زوجي!
- هذا شرف عظيم!
- ألم تقابل امرأة مثلى؟
- نعم.. قابلت!
- من؟
- أجلال فوزى.
- من هى؟
- ممثلة السينما المشهورة.
- هل هى أميرة؟
- إنها صاحبة جلالة.. إنها ملكة الاغراء!

* * *

كان عادل سعيدا بعلاقته الجديدة مع الأميرة فضيلة. كان مبهورا بصباها، وفتنتها، ورشاقتها، واناقتها. وكان مبهورا أكثر بهذا الحب الغريب، الذى يختلف كل الاختلاف عن علاقاته السابقة بالنساء!

كان أزواج النساء اللاتي يعرفهن يطاردونه دائماً، يضيقون عليه الخناق، يقلقونه بغيرتهم. يشقونه برقابتهم، وكان يبذل مجهوداً جباراً في تعمية عيونهم، وفي اخفاء نواياه عنهم، وفي تضليلهم..

وكان أكثر ما يشقيه كيف يتصل بالزوجات في بيوتهن. كثيراً ما طلب الزوجة في التليفون فأجاب زوجها فاضطر أن يقول النمرة غلط.. كثيراً ما امتنع عن الرد على التليفون عندما يفاجأ بالزوج الغيور.. حتى اضطر آخر الأمر إلى استخدام الأنسة ماتليد الكاتبة على الآلة الكاتبة في الشركة في مهمة سكرتيرة خاصة، كل مهمتها أن تطلب هي بصوتها النساء في التليفون!

ولكن مع الأميرة فضيلة لم يصادف هذه المشكلة وإنما صادف مشكلة أغرب وهي أن زوجها سعادة عوني باشا معروف هو الذي كان يطلبه في التليفون وكان يلح عليه دائماً في الحضور إلى قصر الأميرة، فإذا اعتذر عادل عن عدم استطاعته الحضور لانشغاله في العمل، أو في اجتماع مجلس الإدارة، أو في لقاء مع أحد كبار رجال الأعمال، غضب سعادة الباشا الزوج، وهاج وماج وهدد وتوعد، أو توسل واسترحم!

وكانت شخصية عوني باشا تحير عادل علاء الدين.. هل هو يعرف أم لا يعرف؟ هل هو يجهل علاقته بالأميرة أو يتجاهل هذه العلاقة!

كان تصرف زوج الأميرة معه تصرفاً عادياً، لا يثير شبهة علمه بأي شيء مما يدور حوله. فهو رجل مدمن على لعب البوكر. إذا جلس على المائدة لا يتركها. وإذا أمسك ورق اللعب انغمس فيه. ولم يعد يرى بين الموجودين سوى الصور المرسومة على ورق اللعب. وإذا ربح يريد أن يبقى ليربح أكثر، وإذا خسر يريد أن يستمر ليعوض خسارته. وكانت مهمة الأميرة أن تجد له

اللاعبين الذين يشاركونه في اللعب، فإذا أفلسوا أقرضتهم ليدأوموا اللعب مع الزوج المقامر!

وفي أول الأمر أرجع عادل غفلة الباشا إلى ادمانه على القمار. ولكن حدث ذات ليلة أن كان عادل يرقص في بيت الأميرة.. وكان يجلس بين الأميرة فضيلة، وبين النبيلة نجوى إبراهيم ابنة الأمير محمد إبراهيم.. ودعا فضيلة للرقص، ورقص معها مرتين، ثم رأى أن يدعو النبيلة نجوى للرقص من قبيل اللياقة..

ورقص مع النبيلة نجوى ثلاث مرات..

وفوجئ عادل بعونى باشا معروف يقطع عليه الرقص، ويقول له إنه يريد أن يحدثه في موضوع هام..

وكان وجه عونى باشا محتقنا بالغضب، فقد كانت نظراته ملتهبة بالغيرة! واستنتج عادل على الفور أن عونى باشا اكتشف أن زوجته تخونه معه. فقد حدث في الليلة السابقة أن ذهبت الأميرة فضيلة إلى شقة عادل، وبقيت فيها إلى الساعة الرابعة من صباح اليوم!

وأوصلها عادل بسيارته إلى باب القصر، ونزلت من السيارة وهي تتسرع من شدة السكر..

ثم إن الأميرة فضيلة كانت تهمس في أذنيه همسات مثيرة، عندما كان يرقص معها هذه الليلة..

كل هذه أشياء يلمسها الأعمى.. ويعرف منها أن بين عادل والأميرة فضيلة علاقة غير عادية..

وأغلق عونى باشا الباب وقال لعادل في تهمهم:

– إننى فكرت أدعوك إلى المباراة!

– وسكت عادل فى انتظار انفجار القنبلة!

وبدأ يعد فى رأسه حججا وأسانيد يثبت بها أن لا علاقة له بالأميرة زوجته، وأنها صداقة بريئة، فوق مستوى الشبهات..

وحملق فيه الباشا بغضب وقال:

– إنك أهنت زوجتى الأميرة!

قال عادل:

– من قال لك هذا يا أفندينا!

وكان زوج الأميرة يصر على أن يناديه الناس بلقب « أفندينا »!

وأجاب أفندينا:

– أنا رأيت ذلك بعينى!

وأعتقد عادل أن أفندينا يقصد عندما كانت الأميرة فضيلة تسوشه فى أذنه وهو يراقصها الليلة، فقال:

– أؤكد لأفندينا اننى احترم صاحبة السمو الملكى الأميرة فضيلة.

قال أفندينا منفعلا:

– لو كنت تحترمها لما فعلت ما فعلت بها الآن!

– ماذا فعلت يا أفندينا؟

– إنك رقصت مع النبيلة نجوى ثلاث مرات.. ورقصت مع الأميرة فضيلة مرتين فقط؟

ولم يصدق عادل أذنيه فقال لمحمد باشا :

– لم أفهم ماذا تقصد يا أفندينا؟

– أقصد أن الأميرة تضايقت عندما رأتك ترقص مع هذه الفتاة التي تشبه الخادومات !

وابتسم عادل وقال :

– إننى مستعد أن أرقص مع الأميرة فضيلة كل رقصة، إن هذا يسعدنى كثيرا !

– ويسعدنى أيضا.. إنك الرجل الوحيد الذى أثق به هنا !

وأحس عادل بخجل.. إنه موضع ثقة الرجل الذى كان يخونه فى الليلة الماضية، وفى عدة ليال سابقة..

وقال هو يتلعثم :

– إننى.. اننى سعيد بثقة أفندينا !

– إن الأميرة تثق بك، ومادامت تثق بك فأنا أثق بك أيضا. ويوم لا تثق بك، فلن أثق بك، بل سأطردك من هنا !

وضحك عادل وقال :

– لا أظن أنك ستطردنى فى يوم من الأيام !

– إن الأمر متوقف على مزاج الأميرة !

– وهل مزاج الأميرة متقلب؟!

– الأميرة تحب الرجل الى أن تتبين نواياه السيئة!

– ماذا تقصد بنواياه السيئة يا أفندينا؟

– إذا خطر بباله أن يغازلها!

– أعوذ بالله!

– نعم.. كثيرون حاولوا أن يغازلوها فتركتهم في الحال!

– هذا شيء عظيم جدا يا أفندينا!

– إنها تعامل الرجل كأخ لها، فإذا انحرف عن هذا المكان قاطعته
الأميرة!

– أعدك يا أفندينا أن استمر كأخيها.. كما أنا الآن تماما!

قال أفندينا عونى باشا وهو يربت على كتف عادل:

– برافو عادل.

* * *

وعاد عادل إلى حلبة الرقص، وطلب الأميرة فضيلة لترقص معه من جديد، وضمها إلى صدره وهو يخطوبها أمام زوجها الذى كان ينظر إليهما بإعجاب وقال لها:

– هل تضايقت لأننى رقصت مع النبيلة نجوى؟

فرفعت رأسها نحوه باسملة وقالت:

- من قال لك هذا؟
- زوجك!
- ماذا قال؟
- كاد يدعوني للمبارزة!
- لأننى كنت أريد أن أقتلك!
- هل قلت له شيئاً!
- لم أقل.. ولكنه فهم من تعبيرات وجهى أننى غيرة!
- إذن هو يغار بالنيابة عنك!
- من حسن حظك أنه لا يغار منك!
- إنه يعتقد أننى أحبك كأختى!
- وهو سعيد جداً بذلك!
- لا يمكن أن يرى كل ما بيننا ويعتقد أن العلاقة التى بينى وبينك هى علاقة بين أخ وأخت!
- إنه يعتقد ذلك فعلاً!
- إن هذا يدل على أنه إما أنك ممثلة أولى، وإما أنه ممثل أول!
- أنا الممثلة الأولى!
- وهو؟
- متفرج.. تعجبه الرواية!

– ولهذا يريدنى كل ليلة فى رواية جديدة !

– إنه عندما يعجب برواية، يشهدا كل ليلة !

– أنا أعتقد أنه ليس مغفلا كما تتوهمين !

– إنه مغفل فعلا !

– أخشى ألا يكون هو المغفل !

– من إذن ؟

– أنا وأنت !

وسحبته الأميرة من يده، وخرجت من حلبة الرقص وهى تقول له
هامسة :

– سأتيت لك أنه المغفل الوحيد سأذهب إليه الآن، وأقول له إننى
سأرافقك إلى بيتك لاستأنف الحديث معك فى شراء أسهم شركة الهندسة
الكهربائية !

وتوقف عادل عن بعد..

ورأى الأميرة تهمس فى أذن زوجها فيبتسم ويقبلها، ثم يلوح له بيده
ويقول له بصوت عال بلغة انجليزية فصيحة، عبارته المأثورة :

– أتمنى لكما حظا سعيدا !

ثم يعود لاستئناف لعب البوكر من جديد !

الفصل الرابع عشر

وبعد أن وقع الملك المرسوم الملكي بتأليف الوزارة قال لحسنين وهو
يضحك :

— مبروك.. ذهب مكرم.. وأصبح من السهل بعد ذلك التخلص من
النحاس !

بدأ روميل هجومه على جيوش الحلفاء في الصحراء الغربية.
ودباباته تقطع الجيوش البريطانية كما تقطع السكين قطعة الزبد.
مواقع الانجليز تتساقط كأوراق الشجر في الخريف.
الانجليز يتقهقرون من خط إلى خط، لا يتوقفون في مكان حتى يرغمهم
روميل على الانسحاب إلى خط جديد.
القاهرة تشهد في ابتهاج فلول الجيش البريطاني المسحوق، وهي تجتاز
المدينة !

كانت السلطات البريطانية تحرص على نقل جرحاها في الليل حتى
لا يعرف المصريون بالهزيمة الساحقة. ولكن ساعات الليل لم تعد تكفى وبدأ

المصريون يرون كل ساعة من ساعات النهار سيارات نقل بريطانية مسدلة الستائر، تسير كأنها تشيع جنازة لا تنتهى، وتخرج من خلفها صرخات الجرحى والمشوهين، وتتبعها سيارات أخرى فيها جنود بلحى طويلة، وملابس قذرة، ووجوه مغطاه بالتراب، محطمون مقهورون، مذعورون، تائهون، صامتون، ولكن الهزيمة تنطق في ملامحهم وتصرخ وتصيح !

وبذلت السلطات البريطانية جهود الجبابة في إخفاء الهزيمة عن المصريين؛ فرضت على الصحف المصرية رقابة صارمة. ملأت نشرات إذاعة القاهرة بأنباء انتصارات مزعومة.

ولكن الهزيمة العسكرية لها رائحة لا يمكن إخفاؤها. إنها أشبه برائحة النار، يمكن أن تملأ أنفك برغم كل الأبواب المغلقة !

وكان المصريون يشعرون بشماتة لا حد لها في هزيمة الانجليز.. لم يفهموا من هذه الهزيمة إلا أنهم سيتخلصون من جيش احتلال بريطاني جثم على صدورهم ستين عاما !

هاهم أولاء يرون بأعينهم جنود الانجليز الذين هزمهم في موقعة التل الكبير، يتحولون إلى أشباح.. ملابسهم كالخرق البالية.. وجوههم الحمراء اسودت من الهزيمة.. قاماتهم العالية انحنت تحت ضربات هتلر.. مواكبهم التي كانت تتقدمها الطبول وتفزعهم دقاتها وهى تمشى في غطرسة في شوارع القاهرة، تحولت إلى جنازات صامته. الغزاة الفاتحون أصبحوا فئراناً هاربة.. الذين انتصروا علينا في معركة عابدين كأنهم أسود ضارية، أضحوا أمام روميل كالنعام.

أغلبية الشعب شامته ! لولا الخوف من بطش الدولة لخرجت المظاهرات تهتف بحياة الالمان المنتصرين. كما حدث في شهر فبراير عندما خرج طلبة

الجامعة يهتفون « إلى الأمام.. ياروميل »

المصلون يدعون سرا في الجوامع طالبين من الله أن ينصر هتلر على
القوم الظالمين !

بدأ الفلاحون يؤكدون أن هتلر مسلم، وأن انتصاره هو انتصار للإسلام !
وكان عادل يتشاجر كل يوم مع زملائه بسبب سعادتهم لانتصار جيوش
النازي !

وكان يعتقد أن هذا الانتصار هو كارثة على العالم، وكانوا يؤكدون أن
هذا الانتصار سيؤدي إلى تحرير مصر من الاحتلال !

وقال عادل لزميله المهندس خليل مدبولي :

– أفهم أن يفرح الجهلاء بانتصار النازي.. ولكني لا أفهم أن يفرح
مثقف مثلك بهذا الانتصار !

– إنني أقول لك بصراحة إنني أحمد الله لأنني عشت حتى رأيت جيش
الاحتلال وأحذية النازي تدوس عليه أمام عيوننا !

ولكن هل تعلم أنه إذا خرج الجيش البريطاني من مصر، فسوف يحتلها
الجيش النازي ؟

– أعلم ذلك !

– ومع ذلك أنت سعيد !

– سعيد جدا !

– أنا لا أفهمك يامدبولي !

— عندما كان الأتراك يحكموننا كانوا يعاقبون الفلاحين بوضعهم فوق الخوازيق ! وذات يوم وضع الضابط التركي فلاحا مصرية فوق خازوق في غرفة واسعة مليئة بالخوازيق..

وسمع الضابط التركي الفلاح يصرخ ويقول : يارب انقلني من الخازوق الذى فى أول الغرفة.. إلى الخازوق الذى فى آخر الغرفة !

ودهش الضابط التركى لهذا الدعاء الغريب. وذهب إليه وقال له : ألا تعلم أن الخازوق الذى تجلس عليه فى أول الغرفة هو نفس الخازوق الذى تطلب من الله أن ينقلك إليه فى آخر الغرفة ؟ فقال الفلاح المصرى : نعم أعلم ذلك جيدا. قال الضابط التركى : إذن لماذا تريد الانتقال من الخازوق الذى فى أول الغرفة إلى الخازوق الذى فى آخرها ؟ قال الفلاح المصرى ببساطة : لأستريح مسافة الطريق !

وضحك عادل وقال لمدبولى :

— إذن الشعب المصرى يريد أن يستريح فى المسافة بين الخازوقين !
— أعتقد ذلك :

— ولكن الفترة بين الاحتلالين هى أسوأ الفترات. البلد لا يحتل هذا الانتقال فى هذه الفترة تضيق القيم، وينتهز ضعفاء النفوس الفرصة للانتقام من خصومهم، ويتحول الناس إلى قطع من اللحم تعلق فى أسياخ المهزومين والمنتصرين، ويحرق المنسحبون المدن، ويدمر الغزاة ما بقى منها وسنركع للقادمين كما ركعنا للراجلين !! وسوف تكون بلادنا أشبه ببلاد تعرضت لزلزالين فى يوم واحد : كل شىء ستتناوله يد التدمير والتخريب.. حتى الناس !

– أنا أعرف تماما أن شعبنا لن يحتمل أن يسحقه الغزاة مرتين ولكننا
بشر من حقنا أن نفرح ساعة ونحن نرى مصرع الذين هزمونا ستين سنة !
– إن من حسن الحظ أن نصف زعماء البلد مع المحور ونصفهم مع
الانجليز!

– وما فائدة هذا !

– فائدته أن يكون أنصار المحور وسطاء لنا عند الغزاة الجدد.
– الغزاة لا يستعينون بالعملاء ! كل ما سوف يحدث لنا هو أن تتغير
وجوه المحتلين.. كانوا انجليزا فأصبحوا ألمانا وطيانانا.. السلاسل القديمة
مصنوعة في لندن، والسلاسل الجديدة مصنوعة في برلين !
– تجربتي أن الصناعة الألمانية أمتن من الصناعة البريطانية !
– وهذه مصيبة أخرى.. فإن التخلص من القيود الألمانية سوف يكون
أصعب من التخلص من القيود البريطانية !

* * *

وهنا دق جرس التليفون.. وسمع عادل صوت الأميرة فضيلة تقول له :

– هل سمعت..؟ إن الانجليز طلبوا من الملك أن يستعد للهرب معهم.

– إلى أين !

– إلى الخرطوم.. وهم يريدون إنشاء حكومة مصرية في المنفى !

– وهل وافق الملك !

– رفض.. واستدعى النحاس !

— وماذا قال النحاس

— قال : إنه مستعد أن يذهب إذا ذهب الملك. ومادام الملك لا يذهب،
فقد قرر عدم الهرب أيضا. وأنت هل ستهرب؟

— كيف أهرب؟ هذه بلدى!

— لو هربت .. فخذنى معك!

— لن أهرب ولا أظن المعركة انتهت!

— إن السفارة البريطانية تحرق الآن أوراقها!

— هل أنت متأكدة!

إننى أرى من نافذة بيتى الدخان وهو يتصاعد من السفارة!

— إنك متشائمة جدا!

— لقد قال لى الملك إن النحاس أبلغه اليوم أنه استدعى الجنرال ستون
قائد عام القوات البريطانية إلى مكتبه وقال له : سمعت أن روميل بدأ هجومه
على الاسكندرية ووصلتنا أخبار بأن الألمان سيهبطون بالمظلات على
كوبرى امبابية فى القاهرة، فإذا أطلق جنودنا المصريون الواقفون على
الكوبرى الرصاص على رجال المظلات الألمان فمعنى هذا أننا أعلننا الحرب
على المحور، ونحن لا نريد أن نعلن الحرب. أرجوك أن تنصحنى ماذا
أفعل؟.. فقال له الجنرال ستون : لك الحرية فى أن تأمر الجنود المصريين
بما تشاء. وكل ما يهمنى أن تقول لى ما هو هذا الأمر؟ حتى أضع جنودا
بريطانيين مكانهم، ليطلقوا النار على الألمان فى حالة اصدار الأمر إلى
جنودك بعدم اطلاق النار؟.. وهنا قال النحاس : هذا حل سعيد.. اطلقوا
أنتم الرصاص!

وضحك عادل وقال :

– هل هذا هو الحل السعيد؟!

– سأراك الليلة!

– إلا.. إذ احتل الألمان القاهرة!

– إذن سأجىء إليك الليلة! لقد تعودت أن أكون في شقتك في الأيام الخطيرة.

وما كاد عادل يضع السماعة حتى دق جرس التليفون مرة أخرى. وسمع صوت صديقه أميرة عبد العاطى تقول له بصوت مذعور ملهوف:

– الحقنى يا عادل.. البوليس جاء يقبض على قسمت!

قال عادل :

– قسمت من؟

لقد أنسته الأميرة فضيلة كل شيء عن قسمت!

قالت أميرة:

– قسمت! قسمت! قسمت شاهين!.. سكرتيرة جميعة المتسولين!

الفصل الخامس عشر

دفع عم عبده جنود الشرطة والضباط الواقفين أمام غرفة سكرتيرة مجلس إدارة ملجأ المتسولين، وتقدم نحو وكيل النيابة المحقق وقال:

— الأنسة قسمت بريئة!

— هذا ليس من شأنك..

— بل هو من شأنى!

— قلت لك اخرج من هنا!

— لن أخرج حتى أقول الحقيقة!

— وما هى الحقيقة؟

— إن الأنسة قسمت لا علاقة لها بهذه المنشورات التى وجدتموها فى مكتبها!

— كيف عرفت هذا؟

— لأننى أنا الذى وضعت هذه المنشورات بيدي فى مكتبها!

— ومن الذى سلمك هذه المنشورات!

— إنها منشوراتى أنا !

— ما هو اسمك ؟

— عم عبده !

— اسمك كله .. الاسم الأول والثانى !

— الاسم الأول « عم » ... والاسم الثانى « عبده » !

— وجدك ؟

— ليس لى أب . وليس لى جد !

— هل يوجد إنسان ليس له أب ؟

— اللقيط !

— ما هى صناعتك ؟

— شحاذ !

— شحاذ .. ويطبع منشورات !

— ويكتبها .. ويوزعها أيضا ..

— ومن أين جئت بالمال لشراء الورق اللازم لطبع المنشور ؟

— من الناس !

— الناس دفعوا لك نقودا لتكتب منشورا بعنوان « هذه فرصتكم » تطلب

فيه من الشعب أن ينتهز الفرصة وينقض على فلول الجيش البريطانى ،

وينسف الكبارى ويحطم السكك الحديدية ، ويقطع أسلاك التليفون

والتلغراف، لتصبح مصر مقبرة للغزاة؟

– نعم!

– هل دفعوا لك النقود لهذا الغرض أم دفعوها على سبيل الاحسان؟

– إنهم دفعوها ليدخلوا الجنة.

– وهل هذه المنشورات تدخلهم الجنة؟

– إننى أدعو فى هذه المنشورات إلى الحرية.. والحرية هى الجنة!

– هل الكلام المكتوب فى المنشور هو أفكارك؟

– لا.. ليست أفكارى!

– إذن من أين جئت بها؟

– تسولتها!

– هل الناس يحسنون على الفقراء بالمال أم بالأفكار؟

– المحسنون العاديون يحسنون عليهم بالمال، والمحسنون الممتازون
يجودون عليهم بالأفكار!

– أنت متهم بالتحريض على كراهية بريطانيا، حليفتنا؟

– لو كانت حليفتنا لما أحاطت قصر الملك بالدبابات!

– مالك وهذه الأمور.. إنها من شأن السياسيين وحدهم!

– إننى لا أشتغل فى السياسة.. وإنما أشتغل فى الوطنية!

– أنت شحاذ.. وليس من شأنك التدخل فى السياسة!

– لولا بريطانيا لما أصبحت شحاذا في بلدى !

– إذن أنت تكره الحليفة لسبب شخصى.

– لست الشحاذا الوحيد.. لقد أفقرتنا بريطانيا واغتنت.. جوعتنا وشبعت. حولت الكثير منا إلى عبيد.. والدليل على هذا أن رجلا مثقفا مثلك يعتبر الوطنى الذى يطالب بتحطيم قيود بلاده مجرما !

– إننى أطبق القانون !

– قانون كتبه لص ليطبق على الذين سرق أموالهم !

– إننى أقسمت اليمين على المحافظة على قوانين البلاد.. وواجبى أن أقبض على كل من يخالف هذا القانون !

– أليست معاهدة سنة ١٩٢٦ صدرت بقانون أقره البرلمان ؟!

– نعم !

– إذن لماذا لم تقبض على السفير البريطانى الذى خالف كل مادة في هذه المعاهدة ؟

– لم يتقدم أحد ببلاغ ضده !

– إذن اعتبر هذا المنشور بلاغا ضد السفير البريطانى !

– إننى سأقبض عليك !

– كيف تقبض على قبل أن تحقق بلاغى ؟.. هل سمعت أن النيابة قبضت على صاحب بلاغ قبل أن تحقق فيه ؟!

- أنا لا أستطيع التحقيق مع السفير البريطاني لأن له حصانة دبلوماسية !

- إذن فالشعب المصرى وحده.. هو الذى ليس له حصانة !

- إنك تضيع وقت العدالة بهذه الفلسفة !

- العدالة التى تقبض على القتل.. وتترك القاتل مطلق السراح !

وألقى وكيل النيابة سيجارته بعصبية على الأرض، وطلب من الضباط أن يقبضوا على هذا «المجرم» !

وأسرع رجال البوليس يضعون القيود فى يدي عم عبده، ويدفعونه أمامهم إلى خارج الغرفة..

ثم ألقى وكيل النيابة محضرا على كاتب النيابة.. خلا من كل أجوبة عم عبده !

واكتفى بأن قال : «وقد اعترف المتهم بأنه هو كاتب وطابع وموزع هذا المنشور، ولذلك أمرنا بالقبض عليه، وأمرنا بالافراج عن الأنسة قسمت شاهين عبد اللطيف سكرتيرة مجلس إدارة جمعية المتسولين» .

وطلب وكيل النيابة من الضباط أن يفرج عن قسمت التى كانت محجوزة فى غرفة كاتبة الجمعية تحت الحراسة المشددة.

* * *

ودخل الضابط الشاب إلى الغرفة التى كانت تجلس فيها قسمت تدخن سيجارة وقال لها :

- مبروك !

قالت :

– هل انسحبت الجيوش البريطانية من مصر؟

– أمر وكيل النيابة بالافراج عنك !

– إن معنى هذا أن البلد أصبح فيه حرية رأى، إن هذا أسعد خبر سمعته في حياتي ! كنت أتمنى أن يجيء اليوم الذى يستطيع فيه أن يعبر كل مصرى عن رأيه بصراحة دون أن يوضع فى السجن إننى أريد أن أشكر وكيل النيابة الشجاع !

– لقد ثبت لوكيل النيابة أنك بريئة !

– لابد أن الحكومة ستعرفت وكيل النيابة هذا !

– ولماذا ترفته الحكومة ؟

– لأنه أفرج عنى . لأنه لم يجد فى المنشور جريمة !

– إنه أفرج عنك لأننا ضبطنا المجرم !

– أنتم ضبطتموه !

– نعم .. بفضل تحرياتنا الدقيقة عرفنا المجرم الحقيقى .. راقبناه بدقة، تتبعنا خطواته، ضيقنا عليه الخناق حتى اعترف اعترافا كاملا بأنه هو الذى طبع المنشورات ووزعها وأخفاها فى مكتبك !

– ومن هو هذا المجرم ؟

– عم عبده !

– عم عبده من ؟

– عم عبده الشحاذ في الملجأ.. ظهر أنه مجرم خطير جدا.. ثوري متنكر
في زي شحاذ.. وقد اتخذ الملجأ وكرا لنشاطه الخطير.. إننى أشك في أن له
علاقة وثيقة بالألمان !

– أنت تمزح !

– لا أمزح. إن هذه هي الحقيقة.. لقد اعترف بنفسه بأنه هو الذى كتب
هذه المنشورات !

وانفتح الباب فجأة ودخلت أميرة عبد العاطى إلى الغرفة، وعانقت
قسمت وقبلتها وهي تقول :

– مبروك.. مبروك. أنا كنت واثقة مائة في المائة إنك بريئة ! إنها جريمة
عم عبده.. ذلك المتشرد الحقيير الذى أويناه وأطعمناه وجازانا على هذا بأن
أخفى المنشورات الخطيرة في مكتبك ! إنه رجل خائن !

– إن عم عبده ليس خائنا.. إنه وطنى.. إنه وطنى أكبر منى ومنك !
كيف تقولين هذا عن الرجل الذى كاد يخرب الجمعية ؟ إن ما فعله بنا
أشبه بمن وضع قنبلة في بناء الجمعية لينسفها، وينفسنا كلنا فيها.

– إنه رجل نبيل !

– نبيل ؟ إنك لا تتصورين ماذا كان سيحدث لنا جميعا لو لم يكشفوا
أمره ! كانت الحكومة ستغلق الجمعية بالضربة والمفتاح.. كان عشرات
المتسولين الذين نؤويهم سيتردون ويشردون في الشوارع ليموتوا جوعا..
كانت الحكومة ستنكل بأباء عضوات الجمعية وأزواجهن.

– إذن هو أنقذنا جميعا باعترافه ! كان في استطاعته أن يسكت !

– لم يكن يتسطيع أن يسكت ! ضابط الشرطة قال لى إنهم واجهوه بأدلة.
حاصروه بالحقائق الثابتة، فاسقط فى يده واضطر أن يعترف ! لقد أكد لى
ضابط الشرطة أنهم كانوا يتتبعون خطواته منذ وقت طويل. وأن لديهم
معلومات مؤكدة عن أنه يتقاضى أموالا طائلة من الألمان ليقوم بعمليات
تخريب.. وأنهم راقبوا المنشورات ولاحظوا أنها مكتوبة على آلة كتابة
معينة.. واتصلوا بشركات بيع الآلات الكاتبة فعرفوا أن حروف المنشورات
مكتوبة على آلة باعته الشركة لجمعية ملجأ المتسولين. وهكذا استطاعوا
أن يضعوا يدهم على المجرم.. إننى معجبة كل الاعجاب بذكاء ضابط
الشرطة.. إنه يشبه شخصية شرلوك هولمز التى نقرأها فى الروايات !

– فعلا ! إنها تشبه قصة من قصص شرلوك هولمز !

– إن غلطتك يا قسمت أنك عفوت عن عم عبده عندما كان يهرب من
الملجأ. لولا قلبك الطيب لما حدثت هذه الكارثة !

– إنها ليست غلطة.. إنه العمل الوحيد الصحيح الذى فعلته فى حياتى.

– عمل صحيح ! إنه عمل جنونى ! رجل لحم أكتافه من نقودنا، نؤويه فى
بيتنا، نطعمه من طعامنا، ثم يغدر بنا؟ إنه رجل لا وفاء له !

– إنه جعلنى أغير نظرتى إلى الرجال !

– جعلك تكرهينهم أكثر !

– كلا.. جعلنى أحبهم أكثر !

– أنت مجنونة !

– بل عاقلة جدا !

* * *

ودخل الغرفة المهندس عادل علاء الدين، وهو يتصبب عرقا، وما كادت تلمحه قسمت حتى اضطربت..

ومد عادل يده إليها وصافحها وهو يقول :

– لقد تصورت أنني سأجذك في السجن !

– كيف عرفت ؟

– أخبرتنى أميرة، فتركت عملي في الشركة وأسرعت إليك.

– لم أكن أعرف أنني مهمة لهذه الدرجة !

– لعلك عرفت الآن !

– جئت لتقنعني بأن الرجال نبلاء !

– لا أظن أن قوة في الأرض تستطيع أن تقنعك بهذا الرأي !

– قد يدهشك أن رجلا أقنعني أخيرا !

– أين هذا الرجل.. لأصنع له تمثالا ؟

– في السجن !

– من هو هذا الرجل ؟

– عم عبده !

– عم عبده الشحاذ الفيلسوف !

– لا.. الشحاذ النبيل !

– وقاطعتها أميرة عبد العاطي قائلة :

– إن قسمت اليوم غير طبيعية.. يظهر أن صدمة القبض عليها أثرت فيها.. تصوريا عادل إنها تسمى المجرم الذى كاد يقضى علينا جميعا بحماقته رجلا نبيلًا !

ونظر عادل فى دهشة إلى قسمت وقال :

– كيف تسمين مثل هذا الرجل رجلا نبيلًا ! لقد قرأت نص المنشور مع أحد الضباط الآن، وهو منشور ثورى، إنه أخطر من وضع قنابل فى السفارة البريطانية ! إن هذا الرجل مجنون !

وهل أعجبك المنشور؟

– إنه يقول كل ما يتمنى كل مصرى قوله.. ولكنه لا يجرؤ أن يقوله !

– ولهذا تعتبر الشجاع الذى يقول ما لا تجرؤ.. أن تقول، مجنونًا !

– هذا كلام يصح أن يصدر من الزعماء.. لا من شحاذا !

– وإذا سكت الزعماء، فهل نلوم الذين رفضوا السكوت؟

– لا ألومه.. وإنما هذا التصرف كان سيعرضك أنت للسجن !

– إن مصيبتنا أننا نخاف جميعا من السجن ! إن الناس من خوف السجن فى سجن كبير !

ونادت السيدة نعمت شوقى، الكاتبة فى الجمعية، أميرة عبد العاطى لتوقيع بعض أوراق الجمعية، بصفتها أمينة الصندوق، وتركت عادل وقسمت وحدهما.

وقالت قسمت لعادل :

– أشكرك لأنك جئت..

– إننى حاولت عشرات المرات أن أتصل بك، فكنت تهربين منى!

– وسوف استمر فى الهروب!

– إذن لماذا تشكريننى الآن؟

– لأنك لو كنت لم تجى إلى.. كنت سأحضر أنا إليك بنفسى!

– لتقولى لى إنك ظلمتنى!

– كلا.. أنا لم أظلمك، إنما ظلمت رجلا آخر!

– رجلا آخر؟ هل فى حياتك رجل آخر سواى!

– نعم.

– من هو؟

– عم عبده!

– لقد قلت لى إن عمره سبعون سنة!

– لا.. خمس وسبعون!

– أنت تحبين رجلا فى الخامسة والسبعين!

– أعبدته؟

– تحبين شحاذا؟

– لا، أحب بطلا.. لقد كنت بطلى حتى صباح اليوم.. ثم أصبح عم عبده

بطلى!

– لأنه كتب منشورا يهاجم الانجليز!

– إنه لم يكتب المنشور!

– من كتبه إذن!

– أنا..

– إذن هو الذى طبع المنشور!

– لم يطبع؟

– هو الذى كان يوزع لك المنشور؟!

– لا، لم يكن يوزعه.. لقد كنت أكتب عناوين المظاريف بنفسى على الآلة الكاتبة. وكنت أقيها بنفسى فى صندوق البريد!

– إذن ما علاقته بالمنشورات؟

– ليس له علاقة بها مطلقا!

– لماذا اعترف أمام وكيل النيابة بأنه هو الذى كتب وطبع ووزع المنشور!

– لينقذنى.. وينقذ الجمعية.. وينقذ الملجأ!

– ألم يطلب منه أحد من الجمعية أن يقوم بهذه التضحية؟ ألم يعده أحد بمكافأة مالية إذا تحمل مسئولية المنشور؟

– إن كل «عضوات» الجمعية وكل الموظفين يعتقدون أنه هو كاتب المنشور!

كل واحدة منهن شتمته! كل واحدة منهن أهانتته! كل من فى الملجأ قال

له : أنت خائن العيش والملح !

– انه بطل فعلا !

– ولهذا كنت أريد أن أقابلك.

– لماذا ؟

– لأقول لك إننى أريد أن أتقدم للنيابة، وأقول إن عم عبده برىء وإننى أنا صاحبة هذه المنشورات !

– إن هذا الاعتراف لن ينقذ عم عبده.. كل ما سوف يحدث أنهم سيقبضون عليك أنت أيضا، ويهدمون الجمعية، ويشردون المتسولين المقيمين فيها !

– لا أستطيع أن أرى بريئا فى السجن !

– برىء واحد فى السجن..خير من عشرات يموتون من الجوع !

– إن ضميرى يؤنبنى !

– سيؤنبك أكثر عندما ترين أنك هدمت هذا العمل العظيم الذى أمضيت أحلى حياتك فى تشييده !

– إذن ماذا أفعل !

– تقفين بجواره فى سجنه.. توكلين عنه محاميا.. ترسلين له طعاما كل يوم..

– هذا لا يكفى.. إننى أريد أن أذهب إليه فى السجن وأقبله !

— لا أعتقد أنهم سوف يسمحون لك بزيارته.. إنهم يسمحون فقط لأسرة المتهم.

— ولكنك بلا أب ولا أم.. ليس له أسرة ولا أولاد!

— سأبذل المستحيل لكي أحصل على إذن لك ولى بزيارته!

— ولماذا تريد أن تزوره؟

— لأقبله أنا أيضا.

فتح الشاويش إبراهيم باب الزنزانة في سجن، الاستئناف، وألقى نظرة على رجل مكور على الأرض وناداه:

— يا عم عبده!

وأفاق عم عبده من غفوته، فقال له الشاويش إبراهيم:

— قم.. زيارة!

— زيارة لى أنا!

— نعم زيارة لك.. أولادك جاءوا يزورونك!

— قال عم عبده فى ذهول.

— ليس لى أولاد!

قال الشاويش إبراهيم ضاحكا

— لابد أن زوجتك وضعت أثناء وجودك فى السجن!

— ولكننى لم أتزوج أبداً :

وهزه الشاويش إبراهيم بيده وقال :

— قم ! المأمور قال : أولادك جاءوا للزيارة.. ومادام المأمور قال هكذا فلا بد أن يكون لك أولاد ! كلام المأمور لا يفتل الأرض أبداً !

وقام عم عبده مستسلماً، ومشى خلف الشاويش إبراهيم إلى غرفة المأمور. كان يمشى كالحالم، وقد سيطر عليه خمول نفسى غريب..

ودخل غرفة المأمور، ومعه الشاويش إبراهيم..

وسمع الشاويش يضرب قدميه فى الأرض ويقول :

— تمام يا أفندم ! المسجون عم عبده !

ورأى المأمور يهب على قدميه واقفاً، ويمد يده إلى عم عبده ويقول :

— أهلاً عبده بك !

وأفاق عم عبده من ذهوله، ودار بعينه فى الغرفة ليجث عن « عبده بك » الذى يحييه مأمور السجن، فرأى شاباً طويلاً القامة.. انيق الملبس لم يره من قبل، واعتقد أن هذا الشاب المجهول هو عبده بك !

ثم التفت إلى جوار الشاب فرأى قسمت.. وتضاعفت دهشته !

ولم يمد يده إلى المأمور مصافحاً !

ولكن المأمور ترك مقعده وصافح عم عبده، وشد على يده عدة مرات وهو يقول :

— كيف تخفى علينا أنك قريب سعادة عادل علاء الدين بك المدير العام

لشركة الهندسة الكهربائية؟

وتضاعف ذهول عم عبده.. وفجأة وجد قسمت تنقض عليه، وهي تعانقه
وتقبله وتبكي وتقول:

— عمى.. عمى.. كيف حالك يا عمى؟

ثم انضم إليها عادل، وراح يهز يد عم عبده، ويضغط عليها ويقول له:

— كيف حالك يا عمى؟

ووقف عم عبده مبهورًا، ضاعت الكلمات من شفتيه لم يتوقع قط أن تجيء
قسمت إلى زيارته، أن تحتضن الشبهات، بعد أن حمل على كتفيه مسئولية
المنشورات،

وأراد أن يقول إنه لا يعرف هذه المرأة ولا هذا الرجل! ولكن المأمور لم
يمهله حتى يقول شيئًا، بل غادر الغرفة وهو يقول:

— سأترككم الآن مع عبده بك.. لتكونوا على حريتكم!

والتفت عم عبده إلى قسمت مؤنبا وقال لها:

— لماذا فعلت هذا؟

— قالت:

— أنا التي أريد أن أسألك لماذا فعلت كل هذا؟

— أنا لم أفعل شيئًا!

— أنت ادعيت أنك كاتب المنشور وطابعه وموزعه.

— لأنه منشورى.. كل ما فيه يعبر عن رأيي!

- أنت اعترفت بأنك كاتب المنشور قبل أن تعرف ما فيه '
- إننى رأيتهم يقبضون عليك '
- لماذا تضحي بحياتك من أجلى ؟
- أنا لم أضح بشيء.. كل ما حدث أتنى انتقلت من سجن إلى سجن !
- ولكنهم قد يحكمون عليك
- لا يستطيعون !
- لا يستطيعون.. إن المادة التى تطلب النيابة تطبيقها عليك تنص على السجن خمسا وعشرين سنة.
- ولكنى لن أبقى فى السجن ٢٥ سنة !
- ستهرب من السجن.. كما كنت تهرب من الملجأ !
- لا.. إن الهروب من هنا صعب.
- ماذا ستفعل إذن ؟
- لن أبقى فى هذا السجن سوى بضعة شهور، ثم أرغمهم على الافراج عنى !
- كيف سترغمهم !
- سأموت.. إن عمري الآن خمس وسبعون سنة.. ولن أعيش إلا بضعة شهور !
- ولهذا حلت محلى !

– نعم ' لأنك شابة من الممكن أن ييقوك في السجن ٢٥ سنة.. أما أنا
فإننى وحدى الذى أستطيع أن أسخر من حكم المؤبد !

– إنك لن تموت يا عم عبده ' إننى أحبك.

– أنت تعرضين الآن حياتى للخطر '

– لماذا ؟

– لو سمعك الرجل الذى كان يحدثك في التليفون، وجعل وجهك يضىء مثل
ثريات الكهرباء.. لقتلنى

– إنه سمعنى !

– كيف سمعك !

– إنه عادل علاء الدين الذى يجلس بجوارك الآن !

– وتهلل وجه عم عبده.. أصبح فجأة في الأربعين من عمره، مد يده إلى
عادل وهو يقول :

– لقد كنت أتمنى أن أراك قبل أن أموت !

– وأنا أيضا تمنيت أن أراك عندما حدثتني قسمت عنك وقررت أن أراك،
سمعت منها بموقفك البطولى !

– أنا لست بطلا، أنا مجرد شحاذ !

– ليتنا جميعا شحاذون مثلك ! الشحاذ يتسول المال ! وأنت تتسول
التضحيات !

– إننى في دهشة من أن تسموا ما فعلته تضحية '

– إنها بطولة !

– البطلة الحقيقية هي قسمت ! المرأة الوحيدة التي تكلمت عندما صمت كل الرجال !

– لقد أعدت للرجال كرامتهم !

– ولكن ستبقى بطولة قسمت أكبر من بطولتنا ! إننى قرأت نص المنشور لأول مرة وأنا جالس فى مكتب النائب العام !.. وتمنيت أن أقول كل كلمة فيه .. وعندما قلت للنائب العام إن كل هذا الكلام كلامى لم أكذب عليه ، كنت صادقاً معه ، وصادقاً مع نفسى !

– إننا سنوكل عنك أكبر المحامين فى البلد . الاساتذة محمد على علوبة باشا ، وتوفيق دوس باشا ، ومكرم عبيد باشا ، ومرقس فهمى بك .

– كم سيكلفكم هذا ؟ ! إن كل واحد من هؤلاء يتقاضى ألف جنيه فى المرافعة !

– أى مبلغ يدفع لك .. تأفه بالنسبة إليك !

– ولكنى أفضل أن تتبرعوا بهذه المبالغ لملجأ الشحاذين بشرط واحد !

– ما هو هذا الشرط ؟

– أن تهدموا السور الذى يحيط بالملجأ والذى يجعله أشبه بالسجن !

قالت قسمت وهى تجفف دموعها :

– أعدك يا عم عبده أننا سنهدم هذا السور غدا !

وتلفت عم عبده إلى سور سجن الاستئناف وتنهد وقال :

– ترى .. متى يهدم هذا السور أيضاً !

الفصل السادس عشر

أصبح سجن الاستئناف كله يطلق على عم عبده اسم (عبده بك)..
البكباشى يوسف البلحاوى مأمور السجن يقول له : صباح الخير يا عبده
بك ! الصاغ حمدى الجزماتى نائب المأمور يقول له : شرفتنا يا عبده بك :
الحراس يقولون له : تسمع يا عبده بك تدخل الزنزانة ؟..

المسجونون يوسعون له الطريق وينحنون له ويقولون : تفضل يا عبده بك !
لم يعد عم عبده يرى أمامه سوى التعظيمات والتحيات والانحناءات،
كأنه مدير عام مصلحة السجن جاء يفتش على السجن، لا شحاذ مجرم
مقدم إلى محكمة الجنايات بتهمة التحريض على كراهة الحليفة والتحريض
على القيام بعمليات تخريب وتدمير أثناء الحرب !

وعبثا حاول اقناع من فى السجن أنه لا يحمل رتبة البكوية. وعبثا حاول
إقناعهم أنه رجل بائس فقير صناعته الوحيدة أن يقف فى ميدان الأوبرا يمد
يده ويتسول قرشا من المحسنين !

عندما قال هذا ليوسف بك البلحاوى مأمور السجن قال له :

— العفو يا عبده بك.. إننا جميعا نعرف مقامك العالى !

أما حمدى الجزماتى نائب المأمور فقد تلفت يمينا ويسارا ثم قبل يد
المسجون عم عبده وهو يقول :

– كل ما أتمناه أن تذكرنى سعادتك عندما تدخل الوزارة القادمة !

وكان الحراس يدهشون من تواضع عم عبده ! إنهم يرون فى صباح كل يوم، وظهر كل يوم سيارة كريسلى فاخرة تقف امام باب السجن، وينزل منها سائق أنيق، يرتدى يونيفورم أزرق له زراير نحاسية، ويحمل سبتين كبيرين وعددا من الترامس، ويقول لحارس بوابة السجن .

– هذا طعام عبده بك !

ويحمل عدد من الحرس والمسجونين هذه الاطعمة، ويمشون فى طابور طويل إلى زنزانة عم عبده

ويفتح عم عبده السبتين فى الصباح، فيجد فيهما هلالات من الكعك فى كيس مكتوب عليه اسم محلات (جروبي) وكيكا من محلات (لاباس) وانواعا مختلفة من المربى من محلات (لوك) وكميات مختلفة من جبن الروكفور والدوبل كريم والجرافيز من بقالة (سيمونس) غير ترموس فيه قهوة باللبن، وترموس فيه شاي وترموس ثالث فيه كاكاو، وترموس رابع فيه قهوة مصرية .

وفى الظهر يجد عم عبده فى السلتين أربعة أزواج فراخ، وأربعة أزواج حمام، وقطعة فخذ كبيرة، وفطيرا بالجبن، واصنافا مختلفة من الخضراوات، وجميع أنواع فاكهة الموسم، وتورته تختلف باختلاف الايام، اليوم تورته تسوكلاته، غدا تورته مشمش بعد غد تورته ألف راق .

ولم يكن عم عبده يذوق شيئا من كل هذا الطعام الفاخر، كان يوزعه على الصباط والحراس والمسجونين

ويحضر على أن يجلس على الأرض يأكل فى (قروانة) السحر الخور
السسس المللى . بالسويس الذى يقدمه السحر للمسحوبين، وحيد (الحرارة)

الذى لا يفترق في لونه عن أسفلت السجن !

وكان المسجونون يتناقلون أن عبده بك هذا هو غاندى جديد ! وأنه رجل واسع الثراء، وأنه يرفض أن يرتدى بدلة محترمة قبل أن يرتدى جميع المصريين ملابس لائقة ! ويرفض أن يأكل الطعام الفاخر وملايين المصريين لا يجدون سوى الخبز والدريس !

وأصبح المسجونون يوقرون عم عبده، وينسبون إليه بطولات لم يقم بها، ومعجزات لم تحدث، واصلاحات لم تخطر بباله !

وكلما أنكر عم عبده الفضائل التى تنسب اليه زاد المسجونون إصرارا وإيمانا بهذه الكرامات والمعجزات !

ولم يعرف السر في كل هذا ! لم يعرف انه عندما ذهبت قسمت إلى السجن للمرة الثانية وقابلت المأمور يوسف البلحاوى وطلبت مقابلة عم عبده مرة أخرى، قال لها يوسف بك :

— إن عادل بك حدثنى في التليفون وقال لى إنك ترغبين فى زيارة عم عبده كل يوم. وتعليمات المصلحة أن المسجون تحت التحقيق يقابل أسرته مرة فقط كل أسبوع.

— أعلم ذلك.. ولكن عادل قال لى إنك وعدت ان تفعل المستحيل !

— إننى فكرت فى الأمر.. ووجدت طريقة تستطيعين بها مقابلة عم عبده كل يوم !

انك تحضرين إلى السجن صباح كل يوم. ولا تطلبى مقابلة عم عبده كل ما تفعلينه أن تقولى للحارس الواقف على الباب اسمك، وتطلبى مقابلة المأمور.

- ولكنى أرغب فى مقابلة عم عبده !
- إن الله مع الصابرين.. إنك ستدخلين غرفتى كأنك زائرة من أفراد أسرتى. وستجدين عبده بك دائما فيها !
- كيف سأجده فى مكتبك وهو موجود فى الزنزانة رقم ٢١ ؟
- سأجعله النوبتجى الخاص بمكتبى.
- وما معنى كلمة (نوبتجى) ؟
- إنه اسم المسجون الذى يتولى تنظيف مكتب المأمور !
- يعنى خادم ؟
- إنه ليس خادما ! سيكون اسمه (نوبتجى) فقط.. ولكنى لن اكلفه إلا بعمل سكرتير، يوضب الأوراق التى على المكتب. إن وظيفة نوبتجى مأمور السجن هى أهم وظيفة فى السجن بعد وظيفة المأمور
- أهم من وظيفة نائب المأمور ؟
- أهم بكثير إن نائب المأمور يتلقى أوامره عادة من نوبتجى مدير السجن
- لا أعرف كيف أشكرك !
- إن هذا أقل ما أفعله نحو رجل وطنى مثل عبده بك !
- إننى أحيى فىك شهامتك وجراتك !
- إن هذه المسألة يجب أن تبقى سرية بينى وبينك. لو عرفت بها المصلحة أو الوزارة فسوف يضعوننى فى زنزانة واحدة مع عبده بك !

– إن مصر تفخر بالرجال الشجعان أمثالك !

– وزيادة في الحيلة لا داعى لأن تذكرى اسمك لحارس بوابة السجن..
يحسن الاكتفاء بأول حرف من اسمك

– (كاف) !

– اليس (قسمت) هو اسمك ؟

– نعم..

– إذن، أذكرى أول حرف من اسمك

– أول حرف هو (كاف) !

وضحكت قسمت ! واكتشف المأمور ان قسمت لا تعرف أن تنطق حرف
(القاف)

وابتسم المأمور وقال :

– يكفى أن تقولى الآنسة قاف !

– سيصبح اسمى من الآن وصاعدا (الآنسة كاف) !

– إذن احضرى غدا.. لأننى يجب أن أعد الترتيبات اللازمة لأجعل
المسألة طبيعية.

* * *

وخرجت قسمت دون أن تقابل عم عبده..

واستدعى البكباشى يوسف البلحاوى مأمور السجن نائبه الصاغ حمدى
الجزماتى وطلب منه أن يخلق باب المكتب..

وأغلق نائب المأمور باب المكتب..

وقال المأمور هامسا!

– يظهر أن الجهات العليا مهتمة بالتوصية على عبده بك!

– مدير المصلحة؟

– فوق!

– وكيل وزارة الداخلية؟

– فوق!

– وزير الداخلية؟

– فوق وفوق!

– يا نهار أسود! رئيس الوزارة؟

– فوق كمان

– لا يوجد فوق رئيس الوزارة الا الملك.

– أنا لست في حل من أن أقول لك أى شيء!

– فهمت! فهمت!..

– وماذا نعمل؟

– نضعه فوق رأسنا! نفتح له باب السجن ليخرج!

– نضعه لا.. لا.. يا حمدي.. أنا مأمور السجن.. وواجبى أن أحافظ على

التعليمات والأوامر بكل دقة مسجون يعنى مسجون!

– إن عبده بك ليس مسجوناً عادياً إنه هو الذى يفسطرننا ويغديننا كل

يوم!

– أنا أرى الاكتفاء بأن أعينه نوبتجى لمكتبى!

– نوبتجى فقط؟.. أنا مستعد أن أجلسه على مكتبى.. وأصبح أنا

النوبتجى!

— لا.. لا يا حمدي.. واجبنا قبل كل شيء أن نراعى النظام والضبط والربط!

— أعتقد أن عبده بك لن يقبل وظيفة النوبتجي!

— إنه لن يقوم بوظيفة النوبتجي.. إنما هي طريقة ليبقى في مكتبي باستمرار، بدل أن يكون داخل الزنزانة! كل ما هو مطلوب منك أن تكتب ورقة تقترح فيها تعيين المسجون عم عبده نوبتجيا لمكتب الأمور.. وأنا أوافق عليه!

— أنا لو كتبت هذا القرار، فلن اكتب فيه (عم عبده)، سأكتب (عبده بك)!

— الأوراق يجب أن تحترم فيها الرسمية..

وأمسك الصاغ حمدي الجزماتى بورقة وراح يكتب بصوت عال: (سعادة مأمور سجن الاستئناف نظرا لما لاحظناه من كثرة السرقات في المكاتب، وما تبين لنا من أن نوبتجية مكتب سعادتكم يسرقون أطعمة المسجونين، فأنا أقترح تعيين عم عبده نوبتجيا لمكتب سعادتكم، لما عهدناه فيه من الشرف والامانة، والصدق والعفة، والذمة والأخلاص واحترام اللوائح، والمحافظة بكل دقة على التعليمات.

وتفضلوا سعادتكم بقبول فائق الاحترام:

وامسك المأمور الورقة وكتب (موافق) ووقعها بامضائه.

وقال نائب المأمور:

— دعنى أبلغ القرار لعم عبده بنفسى!

وصعد الصاغ حمدي الجزماتي إلى الزنزانة رقم ٢١، فوجد عم عبده
جالسا على الأرض وأمامه (قروانة الفول المدمس) ..

وصرخ الصاغ الجزماتي بصوت كالرعد :

— يا شاويش إبراهيم !

واسرع الشاويش إبراهيم وادى التحية العسكرية !

وصرخ فيه الصاغ الجزماتي :

— ألم أصدر لك امرا في اليوم الاول لدخول عبده بك إلى السجن أن
تجىء له بكرسى ومائدة؟

وسكت الشاويش إبراهيم ! إن كل ما يذكره أن الصاغ الجزماتي قال له
في ذلك اليوم (ضع ابن الكلب ده في أى داهية) !

وأنه طلب من الضابط أن يصرف له بطانية بسبب البرد القارس، ولأن
نوافذ الزنزانة بغير شبابيك.. وأن الصاغ الجزماتي قال له خسارة فيه
بطانية ! وان الشاويش إبراهيم هو الذى بحث عن بطانية قديمة ممزقة
وأعطاهها لعم عبده.. الذى أصبح بعد ذلك عبده بك !

وعاد الصاغ الجزماتي يصيح قل تكلم ! لماذا سكت ؟ هل حصل أننى
أمرتك باعطاء عبده بك مقعدا ومائدة وسريرا أم لا ؟

واضطر الشاويش إبراهيم ان يحنى رأسه ويقول :

— حصل يا سعادة البيه !

— انت شاويش مهمل ! سوف اصفح عنك هذه المرة، ولكن في المرة
القادمة ساحرر لك محضرا !

ورفع الشاويش إبراهيم يده وقال

– ربنا يخليك يا سعادة البك !

وعاد الصاغ الجزماتي يصرخ.

– مالك واقف كالصنم؟ اسرع واحضر كرسيا !

واسرع الشاويش إبراهيم، وعاد يحمل كرسيا وضعه في الزنزانة وطلب
الصاغ الجزماتي من الشاويش الانصراف.. واغلق باب الزنزانة ثم قال لعم
عبده:

– اتفضل اجلس على الكرسي يا عبده بك !

– تفضل أنت واجلس !

– مستحيل يا عبده بك أن اجلس على كرسي.. وانت تجلس على الأرض !
العين لا تعلو على الحاجب !

– اننى طول حياتي لا اجلس إلا على الأرض !

– العفو يا عبده بك !

– إننى أمضيت عمري جالسا فوق البلاط.

– البلاط الملكى؟

– لا.. البلاط الحقيقى.. الأسفلت.. التراب ! إنها أول مرة فى حياتي انام
فى غرفة وحدى !

– كنت تنام مع صاحبة العصمة حرمكم المصون طبعاً !

– أنا لم أتزوج !

وابتسم الصاغ الجزماتى ابتسامة ذات معنى ! لابد أن عبده بك كان ينام وحوله المحظيات والفوانى والجوارى وأراد أن يعبر عن ملاحظته هذه، فلم يجرو، ولم يلبث أن تأدب وتحشم وعاد يقول :

— إذا لم تجلس على الكرسي.. فسوف اضطر إلى الجلوس على الأرض بجوارك، وهذا ممنوع لأننى أرتدى ملابسى الرسمية !

— يمكنك أن تخلع ملابسك وتجلس على الأرض !

— إننى معجب جدا بسخريتك !

— لعلك تعرف برنارد شو !

— كلا.. ربما يكون دخل السجن قبل أن أحضر إلى هنا، ماذا كانت جريمته ؟

— جريمته أنه لم يصف سجنا مصرية !

— الذى اعرفه ان الأجانب لا يسجنون هنا، وانما يسجنون فى سجن الأجانب !

وسكت عم عبده، وراح يتأمل هذا الرجل الجاهل، الذى يتصور أن الكاتب العبقرى برنارد شو هو أحد مسجونى سجن الاستئناف !

وقال الصاغ الجزماتى :

— إننى اقترحت تعيينك فى منصب نوبتجى المأمور. إنه منصب شرفى لن تعمل أى شىء، ولكن ميزته انك تجلس كما تشاء فى حوش السجن وتتنقل كما تشاء !

— إننى مستعد أن أكنس وأمسح مكتب المأمور.

— إنك تقتلنا بتواضعك.. لو كان الأمر بيدي وحدي لأجلستك مكان
المأمور!

— إذن، ماذا أفعل؟

— كل ما هو مطلوب منك أن تشرفنا بطلعتك البهية!

— انك أول من وصف طلعتي بأنها (بهية).. أول فتاة أحببتها كان اسمها
بهية.

— بهية أمير لا شك.. الممثلة المشهورة!

— لا.. بهية مصقعة، الشحاذة في سيدنا الحسين!

— إن دمك خفيف يا عبده بك!

— انا لا أمزح! كان اسمها بهية (مصقعة).. وقد أطلقوا عليها هذا اللقب
لأنها كانت لذیذة وباردة جدا ولم تكن الفريجيدير موجودة في أيامنا وإلا
لأطلقوا عليها بهية فريجيدير!

— اننى كنت اتمنى لو كنت (نويتجى) في مكتبي.. لو حدث هذا فإننا لـ
نكف عن الضحك طوال اليوم.. ولكن حظى سيء!

ثم تلفت الصاغ الجزماتى حوله كأنه يبحث عن شىء.. ثم قال:

— ليس عندك مرآة في غرفتك، يجب أن نحضر لك مرآة!

— أنا لا أنظر في المرآة!

— مسجون مهم مثلك يجب أن يكون في غرفته مرآة، ويجب أن يكون لديه
حوض لغسيل الوجه.. أن المسئولين عندما بنوا هذا السجن لم يخطر

ببالهم أنه سيدخله شخصيات كبيرة مثل عبده بك !

كانت قسمت تذهب بسيارتها (البكار) كل صباح إلى سجن الاستئناف.
ولا تكاد تطرق باب السجن، وتقول لحارس البوابة إنها (الآنسة كاف) حتى
يسرع الحارس ويفتح الباب على مصراعيه !

وكان الحارس يقول لها إن فتح باب السجن على مصراعيه هو شرف
عظيم، وإن تعليمات مصلحة السجون ألا يفتح باب السجن على مصراعيه
ألا لسعادة البك مأمور السجن، وللبلغل الذي يجر عربة الزباله !

وكانت قسمت تضحك لهذا التشريف الغريب ! وكانت تدس في يد الحارس
عشرة قورش عند دخولها فيهرول أمامها يوسع لها الطريق إلى مكتب
المأمور.

وكانت تجد عم عبده دائما في انتظارها، بابتسامته الساخرة..

وذات يوم قالت له : إن عندي لك بشرى يا عم عبده.

— ستتزوجين عادل !

— لا.. إن المحامين الذين درسوا قضيتك يؤكدون أنه سنيحكم لك
بالبراءة !

— هذه ليست بشرى.. هذه كارثة !

— كارثة أن تخرج من السجن

— نعم كارثة كبرى !

– ولكنك تؤمن بالحرية !

– أنا سأخرج من سجن صغير إلى سجن كبير !

– ولكنه خير من هنا !

– إنه أسوأ من هنا.. أنا في السجن ملك، وخارج السجن شحاذ ! هنا الجنود يقفون لتحيتي وهناك يعدون خلفي ليضربوني ! هنا يناديني الضابط يا عبده بك وهناك سينادونني : يا كلب يا متشرد ! يا صعلوك ! هنا أحسن على الناس، ! وهناك اتسول الاحسان من الناس ! هنا أستطيع أن أطعم الفقراء المحتاجين، وهناك لا اكاد أستطيع أن اطعم نفسي ! هنا أمد يدي للساقطين على الأرض ليقفوا على أقدامهم، وهناك أمد يدي لاتسول !

– ولكنك كنت تضيق بسور الملجأ.. حتى إننا هدمناه من أجلك !

– ولكن في الملجأ لا اساعد أحدا بل أتلقى المساعدة !

– إن المحامين قالوا لنا أن رئيس دائرة محكمة الجنايات هو عبدالوهاب فهمى بك، وهو رجل شجاع لا يخاف من الانجليز، ولا يقبل أن يتلقى الأوامر من الحكومة

– سوف أطلب تأجيل القضية، لتجيء أمام قاض ظالم !

إن المسجونين هنا يتصورون أنني شخصية هامة ! يتصورون أنني إذا خرجت من هنا فسأفتح لهم أبواب السجن ! تصوري ماذا سيحدث لهم لو خرجت من السجن، ويقولوا هم في السجن ! سيموتون من اليأس والقنوط ما دمت أنا معهم، فالأمل يعيش معهم، وإذا خرجت من السجن خرج الأمل معي ! ولهذا سأبقى هنا !

– ممكن أن تساعدكم وأنت خارج السجن ! ممكن أن تتسول لهم
العدالة !

– عندما تتسول العدالة تتحول إلى ظلم !

– إننى أتعذب وأنا أراك فى السجن

– فى السجن ألوف مثلى، فإما أن نبقى معاً، وإما أن نخرج كلنا معاً !

– إنك متفائل أكثر من اللازم ! فى كل يوم يطلب الانجليز القبض على
عدد من المصريين.

إنهم فتحوا معتقلاً جديداً فى الزيتون.. فتحوا معتقلاً جديداً فى المنيا !

– إذن لماذا الاستعجال. ربما خرجت من السجن ودخلت المعتقل، كل
ما سوف أربحه من البراءة، أن يتغير رقم زنزانتي !

– يمكنك أن تعيش خارج السجن فى هدوء.. ولا تقول شيئاً يؤدي إلى
القبض عليك من جديد !

– كأنك تطلبين منى أن أكون أنا السجان.. بدلا من الحكومة ! أشرف لى
أن تضعنى الحكومة فى زنزانة، على أن أبنى زنزانتي بنفسى واضع القيود فى
يدي !

– غريب أن تقول هذا الكلام وأنت رجل مؤمن بالحرية.

– لأننى مؤمن بالحرية أقول هذا الكلام..

– إذا لم تترفق بنفسك فترفق بى إنبنى أشعر أننى مسئولة عن وجودك فى
هذا السجن !

- أنت لست مسئولة، أنت ضحية مثلى !
- إننى أريد أن أفعل لك شيئاً أى شيء !
- فى استطاعتك أن تفعل لى شيئاً يسعدنى.
- إننى على استعداد أن أفعل أى شيء تطلبه منى !
- حافظى على عادلى.. إننى أشعر أنه يحبك !
- وأنا أحبه أيضاً.
- أعلم ذلك.. ولكننى شعرت بأنه رجل ! الرجال قليلون جداً فى هذه الأيام !
- كيف عرفت أنه رجل ؟
- عندما رأيته يجرى إلى فى السجن معك. لم يخف على مصالحه مع الانجليز. لم يخش أن تبطش الحكومة به نسي أنه صاحب شركة لها أعمال مع الانجليز والحكومة، وأنا رجل متهم بمهاجمة الانجليز والحكومة.. لا يتردد أن يرسل سيارته لى مرتين كل يوم لتحمل لى الطعام ! يدعى أنه قريبى بينما أنا لا أعرفه ولم أر وجهه فى يوم من الأيام.. هذه صفات الرجل !
- ربما يكون قد فعل ذلك من أجلى.
- هذا يزيدنى إيماناً بأنه خير رجل لك !
- ألا يفعل الرجال جميعاً هذا، إنك فعلت لى أكثر مما فعل لك !
- أنا لم أكن أملك شيئاً أضحى به ° وهو يملك كل شيء ولم يتردد فى التضحية به !

- هل تكفى هذه الصفات فى الرجل ليسعد المرأة؟
- نعم.. تكفى!
- وإذا رآته مع امرأة أخرى؟
- تضرب المرأة الأخرى!
- وتبقى معه بعد بذلك؟
- نعم.. وإلا فهى تفسح الطريق للمرأة الأخرى!
- لعلك تريد منها أن تطرد المرأة الأخرى.. وتركع أمام حبيبها الخائن!
- لا تركع.. وإنما تعطيه أحلى مما أعطته المرأة الأخرى!
- ولا تعاقبه بأن تهجره حتى يتأدب!
- إن عقاب الصفع بين المحبين هو أقسى أنواع العقاب!
- إنك عدو لدود للمرأة يا عم عبده!
- إننى أعبد المرأة.. ولأننى أعبدها أمنحها صفات الآلهة.. وأولى صفات الآلهة القدرة على الغفران!
- لقد تصورت أنك تحبنى.. وإذا بى اكتشف أنك تحب عادل!
- إننى أحبه لأنه يحبك!
- إذا كنت تحبنى كنت تطلب منى أن أصفح عن رجل خاننى مع امرأة أخرى.
- هل رأيت يخنوك؟

رأيتها هي ! رأيتها في غرفته !

— هل كان معها في الغرفة ؟

— لا .. كانت وحدها .. وقد هرب عندما رأيته .

— رأيت بهرب

— لا .. ولكنني استنتجت هذا !

— الحب الكبير لا يؤمن بالاستنتاجات .. يؤمن بالحقائق فقط ! إنك

تفعلين بعادل ما فعله البوليس بي ! أنا هنا بسبب الاستنتاجات !

— أتريد أن تقول إنني كنت مغفلة كضابط البوليس الذي استنتج أنك

تعمل لحساب الألمان ؟

— أنا لم أقل هذا ، أنت التي قلته الآن !

— إنك محام قدير يا عم عبده ! لست في حاجة إلى كبار المحامين للدفاع

عندك لتحصل على البراءة !

* * *

خرجت قسمت من سجن الاستئناف .. وذهبت بلا موعد إلى عادل في

مكتبه بشركة الهندسة الكهربائية .

— قررت أن تروى له الحوار الذي دار بينها وبين عم عبده وتقول له إنها

قررت أن تعود إليه !

إنها طوال هذه الأيام الماضية لم تترك له فرصة ليتحدث عن علاقتهما

معا ، كانت تحرص دائما على أن تحصر الحديث في عم عبده وسجن عم

عبده !

ولكنها اليوم تشعر بالرغبة في أن تذهب إليه وتقول له :

— إننى أريدك!..

لقد أحست بأنها تريد عادل في هذا اليوم أكثر من أى يوم مضى.. أحست بأنها تغفر له كل شيء عندما سمعت عم عبده يقول لها في ختام الزيارة :

— انظري إلى هذه الأسوار الشاهقة إنها تسقط ظلالها على خارح السجن. تسقط على قلوب أهل المسجون وأصدقائه. تفتت القرايات، تحطم الصداقات، كأن هذه الأسوار تقوم على قلوب الناس. الزوجات يطلقن أزواجهن المسجونين. العشيقات يتخلين عن عشاقهن. الأخوة ينكرون أشقاءهم.. الأصدقاء ينسون أعز أصدقائهم.. هنا تظهر معادن الناس الحقيقية. لأن هنا النار التى تظهر كل معدن على حقيقته. هنا المقبرة الى تدفن فيها أحلى العلاقات وأنبى المشاعر. فإذا جاء رجل مثل عادل وصمد لكل هذه النيران، وأنشأ صداقة مع مسجون مثلى، منبوذ، لعنته الدولة وأعلن الاحتلال الحرب عليه، فهذا يدل على أنه رجل يختلف عن باقى الناس. رجل كامل بين ناقصين، رجل جميل بين مشوهين، مثل هذا الرجل تغفر له كل خطيئة، ويصفح عن كل ذنب. إننى أحسست وأنا أراه جالسا بجوارك في مكتب المأمور بأنه يحبك.. يحبك كرجل! إن عيني لا تخطئ أبدا! إننى أستطيع أن أفرق بين الماس الحقيقى وبين الزجاج!

أطربها عم عبده وهو يصف لها عادل! كانت كلماته أشبه ببساط سحرى يحملها إلى ذراعى الرجل الذى عبدته وهربت منه!

ودخلت شركة الهندسة الكهربائية وسألت عن مكتب المدير العام، فأدخلها الساعى إلى غرفة قال إنها غرفة الأنسة ماتيلد سكرتيرة عادل.

وأحست بكراهية غريبة للسكرتيرة. وجدتھا فتاة شقراء، طويلة القامة، ذات جمال رائع، وأنف دقيق، وعينين واسعتين نجلاوين.. لونهما أزرق رمادي، شفثاها مغریتان شهیتان. كانت تمشی وكأنھا ترقص.. لعلھا لا تزال مخدرة من قبلة المدير العام!

رأت قسمت في هذه المرأة شرا فائتًا، يأسر ويخيف، كأن الشيطان يتنكر في ثوب ملكة جمال!

وطلبت قسمت مقابلة المدير العام..

وردت السكرتيرة بغطرسة، وقالت إن المدير مشغول، ولا يستطيع أن يستقبل أحدا بغير موعد سابق.. وأنها تستطيع أن تحدد لها موعدا بعد أسبوع.

وأحست قسمت برغبة في أن تتغطرش على السكرتيرة فقالت لها في لهجة أمرة:

— اذهبي وقولي له «الآنسة كاف، تريدك فوراً»!

ونظرت إليها السكرتيرة بدهشة! ما هذه المرأة ذات النظارة السوداء الدميمة، رثة الثياب؟ إنها تعرف ذوق مديرها! تستطيع بنظرة واحدة أن تعرف المرأة التي يريد أن يقابلها المدير فوراً، والمرأة التي يقابلها على مضض بعد عام!

وقالت السكرتيرة ساخرة:

— آنسة كاف! إننى أعرف كل صديقات المدير، وليس بينهن اسم الآنسة كاف!

واشتد غيظ قسمت. واغتاضت من عادل أكثر مما اغتاضت من سكرتيته الحسناء. إنه لم يقل لها أبدا أن امرأة فاتنة تعمل في مكتبه. لعل هذا هو سر عشقه لعمله، لعل هذا هو سر بقاءه الساعات الطويلة في مكتبه بالليل والنهار، بلا أجازات وبلا عطلة أسبوعية !

ولم تتحرك السكرتيرة من مكتبها ومضت تدق بأصبعها على الآلة الكاتبة التي أمامها، وهي تنظر إلى قسمت نظرات استخفاف واستهزاء !

وقررت قسمت أن تعاقب عادل على جريمة استخدام سكرتيرة حسناء ! وقررت أن يكون عقابها له أن تخفى عنه الحوار الجميل الذي دار بشأنه بينها وبين عم عبده في سجن الاستئناف. لا يمكن أن تستسلم لهذا الرجل ! لن تطيع نصيحة عم عبده ! لن تنشئ علاقة مع رجل إذا دخلت شقيقته وجدت الأميرة فضيلة في غرفته، وإذا دخلت مكتبه وجدت السكرتيرة الحسناء في مكتبه !

وأفاق من خواطرها عندما رأت باب مكتب المدير يفتح، ويخرج عادل مندفعاً، ويتجه إلى مكتب السكرتيرة ، ويناولها ورقة وهو يقول :

— اكتبى ثلاث صور من هذه البرقية.. فوراً !

ولم تتحرك قسمت من مكانها في نهاية الغرفة. واستدار عادل ليعود إلى مكتبه، وراها أمامه، فتقدم نحوها وهو يقول :

— أهلاً.. أهلاً ! إنها مفاجأة سعيدة حقاً ! لا أعرف كيف أشكرك لأنك جئت !

واحتفظت قسمت ببرودها وقالت :

— إننى جئت من أجل عم عبده.

وأمسكها بيده وقال :

— إذن عم عبده هو الذى يستحق الشكرا

ومضى بها إلى غرفة جانبية وهو يقول :

— هذه الغرفة خالية. أما غرفة مكتبى فهى مزدحمة بالمهندسين.

وجلست قسمت فى مقعد، وحرصت على أن تختار مقعدا بعيدا عن المقعد الذى جلس فيه. تركت بينها وبينه مقعدين. وكأنها تضع فيهما بخيالها الأميرة فضيلة والسكرتيرة ماتيلدا !

وقال عادل :

— كيف حال عم عبده ؟

— إنه لا يريد أن يخرج من السجن.

— هذا أول رجل يرفض الخروج من السجن !

— يقول أنه يعيش هناك كملك.

— الحمد لله أنه مستريح هناك.

— إننى أمنت أن مصر بخير.. إن فيها أبطالاً فعلاً.

— نعم، عم عبده بطل حقيقى.

— وليس وحده.. إن مأمور السجن بطل أيضاً !

— مأمور السجن ؟ !

— فعل المعجزات، خالف كل التعليمات. داس على اللوائح، هزأ بكل

القوانين من أجل عم عبده.

— أنا مسرور أنه نفذ تعهداته لى !

— إنك كنت تقول لى إن الحرب تقضى على الرجال وتقهرهم الأحكام العرفية تفسد أخلاقهم، وتحولهم إلى أنصاف رجال ! هذا الرجل، مأمور السجن، رجل لم تفسده الحرب ولم تحطمه الأحكام العرفية، رجل وطنى جريء، لا يهاب أحدا. رجل شريف، نزيه، يخالف كل القوانين من أجل رجل خالف القوانين !

— هل قال لك المأمور هذا ؟

— كلا.. لم يقل لى شيئا.. ولكننى استنتجت هذا من تصرفاته.

— إنك مدهشة فى قدرتك على الاستنتاج !

— أحمد الله أنك اعترفت بنفسك بهذه الحقيقة ! إننى فعلا استنتجت أنك كنت مع الأميرة فضيلة فى الغرفة عندما جئت لك فى الموعد الذى حددته للقائنا.. ثم هربت أنت من الباب الخلفى حتى لا أراك وأنا اليوم استنتجت من نظرة واحدة أن السكرتيرة ماتيلد هى إحدى عشيقاتك !

— ان استنتاجاتك ليست دائما صحيحة !

— مثلا ؟

مثلا.. استنتاجاتك المدهشة عن نزاهة يوسف بك البلحاوى مأمور سجن الاستئناف !

— هل تشك فى نزاهته ؟

— الفرق بينى وبينك أنك تشكين. أما أنا فمؤكد !

— متأكد من أنه ليس بطلا !

— متأكد من أنه يفعل كل هذا لأننى عينت شقيقه الذى لا يحمل أى شهادة دراسية موظفا عندى فى شركة الهندسة الكهربائية بمرتب قدره ثلاثون جنيها فى الشهر. وبهذا وفرت على المأمور العشرة الجنيهات التى كان يدفعها شهريا لأخيه العاطل عن العمل.

— قد أصبح عم عبده، عبده بك؟

— نعم..

— ولو كنت عينت شقيق المأمور بمرتب أربعين جنيها؟

— كان عبده بك.. سيصبح عبده باشا!

— هذه رشوة!

— إنها لغة العصر!

— ألم يكن فى إمكانك إقناعه إلا بهذه اللغة؟

— فى عهد الظلام، العملة الوحيدة التى يتعامل بها الناس هى العمل

الذى لها بريق!

الفصل السابع عشر

استيقظت الدولة صباح أحد أيام صيف ١٩٤٢ لتكتشف أن ملايين الجنيهات الذهبية التي أودعتها في البنك الأهلي في القاهرة قد اختفت.. فكيف اختفت؟

رئيس الوزراء لا يعرف.. وزير المالية لا يعرف.. وكيل المالية المسئول عن احتياطي الدولة لا يعرف..

موظفو البنك الأهلي لا يعرفون.. كل الذى عرفوه أن المسئول عن خزائن البنك، فتح الخزائن في الصباح فلم يجد مليما فيها من عشرات ملايين الجنيهات الذهبية التي أودعتها الحكومة!

وتسربت أنباء اختفاء الذهب المصرى، واضطربت الدولة. هل جاءت عصاة مسلحة في الليل واقتحمت البنك الأهلي، واستولت على خزائنه، إن الحراس الواقفين حول البنك الأهلي لم يبلغوا عن شيء من هذا!

وعرفت الدولة بعد ذلك الفضيحة! السفير البريطانى في القاهرة أصدر أمرا إلى محافظ البنك الأهلي المصرى، وهو انجليزى، بتسليم كل ما في البنك الأهلي المصرى من ذهب وعملات وودائع إلى الجيش البريطانى!

وفي ظلام الليل وقفت سيارات الجيش البريطانى في الحارة المجاورة للبنك الأهلي. ودخل الجنود الانجليز وحملوا كل صناديق الذهب والودائع،

ووضعوها في السيارات، وتحركت السيارات إلى قشلاق قصر النيل حيث كان يقف قطار بضاعة عسكري. ووضعت الصناديق في عربات القطار، الذي تحرك إلى محطة مصر، ثم إلى محطة الجيزة.. في طريقه إلى الخرطوم!

كل ذلك حدث بغير أن تعلم حكومة مصر ما حدث!

وأُسرع وزير المالية إلى السفير البريطاني..

وقال السفير البريطاني إن هذا إجراء احتياطي اتخذته الحكومة البريطانية، خشية أن يدخل الالمان مدينة القاهرة، ويقع الذهب في يد الالمان!

وتم الاتفاق على تغطية الفضيحة بأن تكتب الحكومة المصرية خطاباً توافق فيه على نقل الذهب يؤرخ في يوم سابق على وصوله إلى الخرطوم! فقد خشيت الحكومة أن تثير المعارضة هذه الفضيحة التي لم يسبق لها مثيل، في البرلمان!

* * *

سمع عادل هذه القصة فلم يصدق أذنيه. وانتهاز فرصة زيارته للكولونيل سمسون نائب رئيس سلاح المهندسين في الجيش البريطاني ليحدثه في شأن مشروع توصيلات كهربائية لمعسكر الجيش البريطاني في الهرم، وهو المشروع الذي رسا عطاؤه على شركة الهندسة الكهربائية انتهز هذه الفرصة ليسأل عن واقعة سرقة الذهب

وكان الكولونيل سمسون قصير القامة، ضخم الجثة، كبير الرأس منتفخ الوجه، يتدلى بطنه، فيهتز إذا ضحك، ويتمايل إذا غضب وكان عادل يعرفه منذ كانا طالبين في كلية الهندسة في جامعة برمنجهام بانجلترا، وتجددت هذه

الصداقة عندما وصل سمسون إلى القاهرة أثناء الحرب وتولى منصب نائب رئيس سلاح المهندسين في الجيش البريطاني.

وكان سمسون رجلا صريحا، فإذا شرب كأسا من الويسكى قال كل شيء قال كل شيء حتى الاسرار العسكرية !

وكان صديقا حميما لمستتر سمارت السكرتير الشرقي في السفارة البريطانية بالقاهرة، وبحكم هذه العلاقة الوثيقة كان يعلم كل ما يدور وراء الستار.

ودهش عادل عندما دخل إلى مكتب سمسون فوجده مخمورا. لم يكن من عادته أن يبدأ في الشرب إلا في المساء !

وقام سمسون وهو يترنح يحيى عادل ويقول له :

— اننى قابلتك اليوم.. لا لاتفق معك بشأن مشروع معسكر الهرم.. وإنما لابلغك أننا قررنا الغاء الاتفاق !

— انت اتصلت بى أمس وقلت أنكم فى عجلة لتنفيذ المشروع.

— تغير الموقف بين أمس واليوم

— ماذا حدث !.

— روميل سيدخل الاسكندرية بين يوم وآخر !

— ألا تنوون الدفاع عن الاسكندرية ؟!

— ولا عن مصر كلها !

— إن معنى ذلك نهاية الحرب !

- لا.. معناه بداية الحرب !
- كيف ذلك ؟
- سنحارب من السودان ومن فلسطين !
- هل ابلغتم الحكومة المصرية ذلك !
- لم نبلغها.. سنأخذها معنا !
- ولكن معلوماتي تفيد أن الحكومة المصرية لم توافق على الانتقال إلى الخرطوم !
- سنأخذها.. كما أخذنا ذهب البنك الأهلي !
- إنك تمزح ولا شك !
- إننى لا أمزح ! لقد قررنا أن نخطف الملك ومجلس الوزراء. نقبض عليهم ونضعهم فى قطار بضاعة ونشحنهم إلى الخرطوم !
- وزعماء المعارضة ؟
- إنهم لا يساوون شيئاً.. سنتركهم لروميل ليشنقهم بالنيابة عنا !
- ولكن هذه عملية قرصنة !
- فى الحب والحرب كل شىء مباح !
- وماذا ستأخذون معكم أيضاً ؟
- كل كنوز توت عنخ آمون !
- ماذا تفعلون بها !

— نبيعها وننفق منها على كسب الحرب ! سنأخذ من مصر ما فيها من كنوز ! سنخطف أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، وكل المطربين المشهورين . سمارت وضع قائمة باسماء كل رؤساء تحرير الصحف والمجلات المصرية وسنخطفهم أيضا !

— ماذا تفعلون بهم ؟

— من رأى سمارت أن كل هؤلاء كنوز لا تقل أهمية عن ذهب البنك الأهلى وكنوز توت عنخ آمون .. فإذا وقع الفنانون والكتاب المصريون فى يد المحور فسوف يستخدمونهم فى اذاعة برلين .. ونحن نريد أن نحرم المحور من هذه الأسلحة !

— إنك تتكلم كما لو أن كل شيء قد انتهى !

— هذه هى ساعاتنا الأخيرة فى مصر ! ولكن لن يعرف روميل مصر عندما يدخلها !

— ماذا ستفعلون ؟

— سوف ننسف جميع القناطر والجسور .. وسنغرق الدلتا ! سوف ننسف كل شيء له قيمة حتى المصانع !

— هل هذا جزاء مصر التى تركتكم تستولون على كل شيء !

— سنفعل نفس الشيء إذا دخلت جيوش النازى إلى انجلترا ..

— ستخربون البلد كله !

— هذه معركة حياة أو موت !

— هل أخبرتم الحكومة بنواياكم هذه ؟

— أعتقد أن السفير البريطانى لمح بهذا لرئيس الوزراء.

— وماذا قال رئيس الوزراء!

— فزع!

— لا يمكن أن يقبل رئيس الوزراء هذا!

— إننا لم نطلب موافقته.. أخطرناه فقط بقرارنا!

— ولكن ليس فى المعاهدة التى بيننا وبينكم ما يبيع لكم هذا:

— فى وقت الحروب توضع جميع المعاهدات فى سلة المهملات!

* * *

خرج عادل قانطا حزينا من مكتب الكولونيل سمسون. ركب سيارته ومشى فى شوارع القاهرة على غير هدى، يملأ عينيه بالمدينة الجميلة، وابنيته الشاهقة، ومناظرها الرائعة، وكأنه يودعها قبل أن تتحول إلى خراب!

وعندما وصل إلى مكتبه فى الشركة قال له زميله المهندس خليل مدبولى إن مجلس النواب سيجتمع بعد ظهر اليوم، وأنه كان مجتمعا مع عثمان محرم باشا وزير الاشغال، وأن الوزير قال له إن جلسة مجلس النواب ستكون جلسة هامة وخطيرة.

قال عادل:

— يجب أن نشهد هذه الجلسة. إننى أتوقع أنها ستكون جلسة تاريخية!

— ماذا سيبحثون فيها!

— إننى أتوقع أن يبحث فيها النواب قرار السلطات البريطانية بتدمير كل
شء فى مصر، والانسحاب للسودان !
— لا يمكن أن يفعل الانجليز هذا.
— الهزيمة افقدتهم عقولهم !
— وماذا تتوقع أن يقرر البرلمان !
— مطالبة الانجليز بالانسحاب.. والدفاع عن مرافق البلاد، ومنعهم من
تدميرها !

* * *

وجد عادل علاء الدين بمشقة بطاقتين لحضور جلسة مجلس النواب
حصل على البطاقتين من صديقه الشاعر على محمود طه المهندس، ومدير
مكتب رئيس مجلس النواب.
وجلسا فى الشرفة يتابعان مناقشات المجلس فى اهتمام..
وفوجئ عادل بأن المجلس لا يناقش موضوع خطورة الموقف الحربى،
ولا قرار الانجليز بتدمير كل المرافق فى مصر، وبإغراق الدلتا بالمياه..
وإنما كان يناقش استجواب مكرم عبيد باشا عن الاستثناءات ونسزاهة
الحكم !

الشرفات غاصة بالزائرين. جميع النواب حضروا الجلسة. الوزراء فى
مقاعدهم يتقدمهم النحاس رئيس الوزراء. شرفة الصحافة مزدحمة بكبار
الصحفيين وصغارهم. كل هؤلاء مشغولون بمتابعة المعركة بين النحاس

رئيس الوزراء ورئيس الوفد وبين مكرم عبيد وزير المالية السابق وسكرتير
الوفد !

النواب يتتبعون المعركة وكأنهم يشهدون مباراة في الملاكمة. ضربة من
مكرم. ولكمة من النحاس. وانقضاض باللكمات والضربات. والنواب يصفقون
ويهللون ويصفرون ويقاطعون شتائم متبادلة. كلمات قاسية تنطلق كالقذائف.
نائب حكومي يقف ويتجه إلى مقاعد المعارضة ويصفع أحد نواب المعارضة
على وجهه. تصفيق متواصل للنائب الذي صفع المعارض ! مكرم يقول : أنا
سكرتير الوفد. النحاس يقول : لم تعد سكرتير الوفد. هزة في المجلس.
الزعيم المعبود أقبال الزعيم المحسود بكلمة واحدة. المناقشات تستمر
ساعات طويلة. هجوم ودفاع. ضرب في إلفاض وضرب في المليان.

وعجب عادل مما يشهد. إن بعض هؤلاء المتحمسين يعرفون أننا على
أبواب كارثة لم يحدث لبلادنا مثلها في التاريخ. مصر مهددة بأن تحترق كلها،
وزعمائها يتشائمون ويتضاربون سوف يضرب بنا المثل في يوم من الأيام
عندما كانت روما تحترق ونبيرون يغنى، أو عندما كان العدو يرتحف على
مدينة بيزنطة وأهلها يتشاجرون ويتناقشون هل الملائكة ذكور أم إناث !

وخرج عادل من جلسة مجلس النواب، وذهب إلى نادى محمد على ثم
إلى نادى السيارات، وإذا بموضوع الحديث بين الجميع هو الحرب العظمى
بين مكرم والنحاس، والاتهامات التى قالها النحاس.. لم يتكلم أحد عن
المصيبة التى تهدد مصر كلها. لم يفكر أحد فى أن هذا الوقت ليس وقت
تبادل اتهامات وبدائية انقسامات، إنما هو الوقت الذى تضم فيه الصفوف،
وتتوحد الأحزاب، لمقاومة العدو الذى فى الداخل، والعدو الذى يدق على
باب مدينة الاسكندرية..

وبدأ اليهود يهربون من مصر. يبيعون املاكهم بأبخس الاثمان. العمارة التي ثمنها مائة ألف جنيه بيعت بعشرة آلاف جنيه. السيارة الـرولزرويس التي اشتراها المليونير داود عدس بخمسة آلاف جنيه باعها بمائتي جنيه. المقاولون المصريون الذين كانوا يتعاونون مع الجيش البريطاني نقلوا ثرواتهم بأسماء أخرى اندفع المودعون إلى البنوك يسحبون أموالهم، ويخفونها تحت البلاط. تكونت ثروات. ضاعت ثروات. بدأ المتحمسون للانجليز يلعنونهم علناً. أنصار المحور الذين كانوا يهمسون بأرائهم وهم يتلفتون حولهم ذعرا اندفعوا يصرحون بأرائهم في المنتديات. ضابط الشرطة الذي كان يتولى حراسة على ماهر باشا في معتقله في السرو، أسرع يقبل يده، ويسمح للزائرين بمقابلته مستهيناً بالأوامر والتعليمات. الاشاعات تؤكد أن على ماهر باشا هو الذي سيرأس الوزارة بعد دخول المحور إلى مصر. مجلس الوزراء اجتمع برياسة النحاس، وكلف عبد الخالق حسونة باشا محافظ الاسكندرية بأن يركب سيارة، ويذهب إلى الماريشال روميل يحمل له رسالة من النحاس يرحب به، ويقول له إن مصر كانت دائماً محايدة ورفضت أن تعلن الحرب ضد المحور!

الجماهير خرجت تمزق صورة تشرشل التي الصقتها الدعاية البريطانية على جميع جدران مدينة القاهرة. أصحاب المحلات التجارية اخفوا صور تشرشل التي كانوا يضعونها في واجهات محلاتهم لتشجيع الضباط والجنود الانجليز على الشراء

وتسربت أنباء هزيمة الانجليز إلى الريف.. وفرح الفلاحون سيتخلصون من جيش الاحتلال الذي جثم على صدورهم ستين سنة، الذي يشتري الآن قطنهم ومحاصيلهم بأبخس الاثمان، المسئول عن الغلاء الفاحش إنهم يجلسون كل ليلة بجوار الراديو يستمعون للمذيع يونس بحري يصف لهم

هزائم الانجليز على أيدي الألمان بنفس الأسلوب الذي تروى به قصص
الزناتى خليفة ومغامرات الزير سالم !

وذاع بين الفلاحين أن هتلر أشهر إسلامه، وأنه أطلق على نفسه (الشيخ
محمد هتلر). وأنه ولى من أولياء الله الصالحين، له كرامات وله معجزات،
وما هذه الانتصارات إلا بعض الكرامات والمعجزات !

والملك فاروق سعيد بهزيمة الجيش البريطانى. هذه الهزيمة ستخلصه
من السفير البريطانى سير مايلز لامبسون الذى يتصرف كأنه الملك
الحقيقى، ومن النحاس زعيم الشعب الذى فرضه الانجليز عليه بالدبابات،
ويخرج الانجليز سوف يصبح الملك هو وحده صاحب النفوذ والسلطان فى
البلاد !

ولم يعرف هؤلاء جميعا أنه فى الوقت الذى كان الانجليز يفكرون فيه فى
تدمير مصر من أولها إلى آخرها، كان الخلاف قائما على أشده بين هتلر
وموسولينى. هل تكون مصر مستعمرة ألمانية أم مستعمرة إيطالية ؟ كان
موسولينى يصر على أن يدخل القاهرة فوق حصان أبيض، كما دخلها
الاسكندر الأكبر، وكما دخلها نابليون بونابرت. وكان يصر على ضم مصر
إلى امبراطوريته لأنها كانت جزءا من الامبراطورية الرومانية.. وهو قد دخل
الحرب لإعادة مجد الامبراطورية الرومانية !

وكان هتلر يرى أن مصر يجب أن تكون مستعمرة ألمانية، لأن الجنود
الألمان هم الذين حققوا هذا النصر، وكان على استعداد أن يعطى
موسولينى سوريا ولبنان.. ويحتفظ لنفسه بمصر وفلسطين والعراق !

وانتهى الخلاف بين الدكتاتورين بأن يقيما حكما مشتركا فى مصر،
فيتولى حكم مصر حاكم عسكرى إيطالى، وله نائب ألمانى. ويكون أحد

الجنرالات الايطاليين حاكما لمدينة الاسكندرية وأحد الجنرالات الالمان
حاكما لمدينة القاهرة!

وهكذا كان المصريون مأكولين في خطة الانجليز، وفي خطط الالمان
والايطاليين..

وكان المصريون يجهلون ما يدبر لهم في الخفاء.. فالتاريخ لم يعلمهم أن
الدول الكبرى لا تصادق الدول الصغرى إلا صداقة الذئب للشاه!

أرسل البكباشى يوسف البلحاوى مأمور السجن أحد الحراس ليستدعى
عبده بك من الزنزانة رقم ٢١.

ودخل عم عبده إلى مكتب المأمور وهب المأمور واقفا، وتقدم إلى تحيته،
وانحنى يضافحه ويقول:

— أهلا سعادة عبده بك!

ودهش عم عبده. إن المأمور لم يكتف بأن ينعم عليه بلقب صاحب العزة،
بل أصبح يناديه بصاحب السعادة!

ورأى سيدة طويلة القامة، ممثلة الجسم، انيقة، فاتنة الصورة، حلوة
التقاطيع، جميلة العينين، رآها تبسّم وتتقدم نحوه مادة يدها له.

وقال المأمور:

— هذا هو صاحب السعادة عبده بك الذى تلحين على فى أنك تريد
التشرف بمقابلته.. وهذه هى زينات!

وأمسكت السيدة بيد عم عبده في نعومة وقالت :

— إننى تشرفت بمقابلة سعادتك !

— سعادتى أنا ؟

— نعم.. إنها لحظة العمر أن أقابل هذه الشخصية العظيمة !

— أنا رجل غلبان !

— أنت متواضع يا عبده بك ! إننى سمعت عن قصة بطولتك ! وحدثنى يوسف عنك.. وعندما رأيت صورتك أصررت على أن ألقاك !

— صورتى ؟ إننى لم أتصور مرة واحدة فى حياتى !

وتدخل المأمور وقال :

— أنها رأت صورتك التى التقطها مضور السجن يوم حضورك !

— لعل الرقم الضخم المكتوب على صدرى هو الذى أعجبها !

قالت زينات :

— الصورة نفسها.. إنك تشبه فيها الرئيس روزفلت رئيس جمهورية أمريكا..

— روزفلت مرة واحدة ؟! الشبه الوحيد بينى وبين روزفلت أنه مشلول.. وأنا كسيح !

— إنك متواضع جدا يا عبده بك !

وقال المأمور :

— اجلس يا سعادة عبده بك بجوار زينات، إنها تريد أن تتحدث إليك.

وأراد عم عبده أن يجلس في مقعد بعيد..

وأشارت زينات إلى الكنبه التي تجلس فيها وقالت له :

— تعال إجلس بجوارى..

وتردد عم عبده، ولكن المأمور جذب به من يده وأجلسه بجوار زينات على نفس الكنبه.. وجلس عم عبده على طرفها..

وقال المأمور:

— إننى أتركك مع زينات وسأقوم بمرور في السجن وأعود بعد دقائق
وخرج المأمور وأقفل الباب. وإذا بزينات تترك مكانها في الكنبه وتقرب
منه حتى تلتصق به، وتمسك بيده وتقول:

— أنا اليوم أسعد امرأة في العالم أن أجلس بجانب بطل!

— أنا لست بطلا! أنا صعلوك!

— إن الزعيم غاندى يقول أيضا إنه صعلوك! إنه في السجن مثلك تماما!

— ولكن غاندى وراءه مئات الملايين. وأنا ليس ورائى أحد!

— أنا وراءك! إننى أعتقد أن البلاد عندما ستعرف قصتك ستحملك فوق
الاعناق!

— أخشى لو عرفت قصتى الحقيقية أن تضربنى بالنعال!

أنت رجل رائع! عظيم! عبقرى! إن فيك جاذبية غريبة. شيئا ساحرا..
ما كدت أرى صورتك مع يوسف حتى قلت يجب أن أتعرف بهذا الرجل
العظيم!

– إن يوسف بك رجل عظيم ويظن أن كل الناس مثله.. أنا أعمل هنا
نويتجى مكتب يوسف بك !

– إن يوسف قال لى إن هذه الوظيفة للتعمية.. وإن مركزك معروف إنه
يحترمك أكثر مما يحترم وزير الداخلية !

– إنه رجل طيب !

– ولكن عندما رأيت شخصيتك عرفت أن يوسف لم يقل الحقيقة !

– فعلا لم يقل الحقيقة !

– لأن شخصيتك أعظم بكثير من الوصف الذى قاله يوسف. تصور أننى
حلمت بك أمس !

– فى الكابوس طبعاً !

– فى أجمل حلم حلمت به فى حياتى.. كنت مرتدياً ملابس التشريفة
الكبرى، وفى صدرك الأوسمة والنياشين. كنت واقفاً فى ميدان الأوبرا !

– لابد أننى كنت أمد يدي وأتسول !

– كنت تخطب فى الجماهير، كما يفعل الزعماء.. وكنت واقفة وراءك..
وعندما انتهيت من خطابك التفت نحوى وقبلتنى !

– لقد كنت قليل الأدب فى الحلم !

– أتعرف ماذا حدث عندما قبلتنى فى الحلم !

– صفعتنى طبعاً على وجهى !

– لا.. هتفت الجماهير بحياة عبده باشا مع زينات !

- إن الجماهير عقلها فارغ :
- إن صوت الجماهير من صوت الله !
- إنك مثقفة جدا !
- كنت طالبة في كلية الآداب !
- هل تخرجت ؟
- لا، تزوجت !
- هل زوجك مسجون معنا ؟
- لا.. إننى مطلقة !
- لابد أنه رجل أعمى لكى يطلق امرأة بهذا الجمال.
- إنه رجل بلا شخصية.. وأنا أعجبني الرجل صاحب الشخصية..
مثلك !
- مثلى أنا ؟! إنك فى حاجة إلى نظارة !
- إن نظرى ستة على ستة !
- ودخل البكباشى يوسف البلحاوى مأمور الشجن، فابتعدت زينات عن عم عبده، وقال المأمور:
- ما رأيك فى سعادة عبده بك يا زينات ؟
- إنك خدعتنى يا يوسف ! إنه أعظم كثيرا مما أخبرتنى ! إن كلامه أشبه بالدرر والحكم !

ثم نظرت إلى ساعتها.. ووقفت وهو تقول :

— أسفة إننى مضطرة للانصراف الآن، ولو كان الأمر بيدى لبقيت معك
فى السجن طول حياتى !
ووقف عم عبده مبهورا أمام مديحها وإطرائها.. مصعوقا أمام جمالها
ودلالها.

وضغطت زينات على يده وهى تقول :

— إننى سأراك مرة ثانية !

— إننى أقف على ناصية الأوبرا وشارع إبراهيم !

— لا.. إننى سأراك هنا، لابد أن أراك !

* * *

وخرج المأمور خلف زينات يودعها.. ووقف عم عبده مشدوها فى وسط
الغرفة. من هى هذه المرأة الشهية ؟ أحس كأنها كانت تغازله بعينيها، تكاد
تأكله بهاتين العينين الواسعتين الجميلتين... أتكون قسمت وعادل
علاء الدين أرسلوا له هذه الزائرة الجميلة كما يرسلان له الأطعمة الشهية
والحلوى الفاخرة والفاكهة اللذيذة ؟ إن الذى يحدث له داخل السجن شىء
لم ير له شبيها خارج السجن ! لقد أصبح السجن جنة فيه ما تشتهى
الأنفس.. حتى الحوريات !

وعاد المأمور متهللا وقال له :

— هل أعجبتك زينات ؟

— أعجبتنى كلها !

- ما أكثر ما أعجبك في زينات؟
- إن وجهها ينطق ببعض حروف من اسمها!
- لا أفهم!
- في وجهها الزين والنون والالف... (زنا)!
- زنا؟ إنها أختي؟
- أقصد أنها مثيرة!
- تقصد أنها قليلة الأدب!
- أقصد أنها مغرية!
- تقصد أنها مبتذلة!
- أقصد أنها ظريفة جدا!
- ولكنك قلت أن فيها الحروف الثلاثة التي تتكون منها (زنا)!
- لا أقصد بالكلمة معناها.. أقصد أن فيها ثلاثة حروف من اسمها حرف الزين يعنى (الزهد) وحرف النون يعنى (النبيل) وحرف الالف.. يعنى.. يعنى.. يعنى (الأدب)!
- إنك تتكلم بلغة الفلاسفة التي لا أفهمها!
- إنها حروف الهجاء.. أول ما يتعلمه الأطفال في المدارس..
- ولكنك تكون من الحروف كلمات غريبة!
- الحروف هي الزنانات التي تسجن فيها المعانى!

- المهم أنك أعجبت زينات جدا !
- إنها تشبه بهية المصقعة !
- تقصد أنها باردة !
- بالعكس إنها ساخنة !
- ولكنك شبهتها بالمصقعة !
- لأنها لذيذة !
- هل تحب المصقعة ؟
- سمعت عنها ولم أكلها !
- إن زينات طاهية ماهرة وسأطلب منها أن تصنع لك طبق مصقعة !
- سأستغنى به عن صورتها الفوتوغرافية !
- إنك تحب الطعام الجيد.. ولكي تحصل على الطعام الجيد دائما يجب أن تتزوج !
- لا يمكن أن أجد من ترضى بزواجي !
- إن زينات قالت إنها تتمنى أن تتزوجك !
- إن عمري ٧٥ سنة !
- وعمرها ٢٥ سنة !
- أي الفرق بيني وبينها الآن نصف قرن.. وبعد عام سسيصبح الفرق بيني وبينها قرنين !!

- إنك تطعن في شرف أختي !
- إنتي أطعن في صلاحيتي للزواج !
- أنا يسرنى أن أصاهر أسرة عريقة مثل أسرتك !
- أنا رجل بلا أسرة !
- سنكون نحن أسرتك.. أسرة البلحاوى أسرة عريقة جدا في الشرقية..
- كان جدى يملك كل أشجار النخيل بها، ولذلك أطلقوا عليه اسم البلحاوى !
- أما أسرتى فلم تكن تملك النواة.. ولهذا بقى اسمى عم عبده..
- فقد استنكروا على حتى النواة.
- إننى أصدقك أنك فقير، وأنت معدم، وأنت بلا أسرة، ومنع ذلك يشرفنى
- أن تتزوج أختى، بعد خروجك من هنا !
- إننى سأخرج من هنا على محكمة الجنايات !
- أقصد بعد خروجك من محكمة الجنايات !
- سأخرج من الجنايات على ليमान طره !
- إنه يشرفنى أن تتزوج أختى، حتى وأنت مسجون فى سجن طره !
- هل بينك وبين أختك عداة؟
- بالعكس أنا أحبها.. وهى أقرب اخوتى إلى !
- إذن، لماذا تريد أن توقعها فى هذه المصيبة ؟
- إن هذه ليست مصيبة ! إنه أكبر شرف تناله أسرتنا !

— أى شرف أن تصاهر متسولا فى السبعين أقصد فى الخامسة والسبعين؟

— إنها تحبك!

— ليس فى ما يحب

— بطولتك!

— إننى بطل، على سبيل الخطأ!

— لماذا تخاف الزواج.. هل تخشى أن يكون الزواج سجنًا؟

— الذى يدخل السجن لا يخاف أى سجن آخر!

— إذن دعنى أحضر المأذون ونعقد القران هنا فى السجن!

— دعنى أفكر!

— لابد أن زينات لم تعجبك!

— بل أعجبتنى!

— لقد قلت لى إنها جميلة ورائعة.

— ربما هذا هو السبب فى ترددى!

— سأعطيك مهلة ساعة!

— ساعة لا تكفى.. أعطنى ٢٤ ساعة... يجب أن أستشير أقاربى قسمت

وعادل علاء الدين!

عاد عم عبده إلى الزنزانة في زهول ! إنه في حلم ! خلال بضعة أسابيع تحول من شحاذ إلى بطل ! ومن صعلوك إلى سعادة عبده بك، ومن رجل لا يكاد يجد قوت يومه إلى وجيه تحمل له سيارة أنيقة طعامه من جروبي وشبرد ولاباس ! من عجوز يستعد ليزف إلى قبره، إلى عريس يرشحونه للزفاف من امرأة حسناء !

وتطلع إلى جدران غرفته يبحث عن المرأة التي وعده بها الصاغ حساند الجزماتى نائب المأمور.. شعر برغبة في أن يرى وجهه في المرأة لكى يرى الشبه بينه وبين الرئيس روزفلت !

وأسرع عم عبده ينادى الشاويش ابراهيم وقال له في لهجة أمره :
- إذهب إلى الصاغ حامد الجزماتى واسأله أين المرأة التى وعدنى باحضارها؟

ودهش الشاويش ابراهيم من اللهجة الحازمة الأمرة الى يسمعها لأول مرة من عبده بك !

لأول مرة أصبح عم عبده يتحدث كالبهوات !
وهرول الشاويش ابراهيم إلى الصاغ الجزماتى...

وهرول الصاغ الجزماتى يحمل مرآة كبيرة ويعلقها بنفسه على جدران الغرفة...

ولم يشأ عم عبده أن يتطلع في المرأة حتى يخرج الصاغ الجزماتى من الغرفة..

ولم يخرج الجزماتى، بل ابتسم وقال :

— ألف مبروك !

ودهش عم عبده، كيف عرف نائب المأمور بحكاية الزواج !

وتمالك عم عبده نفسه وقال :

— إنها مسألة قديمة !

— ولكننى لم أعلم بها إلا اليوم. البلد كلها فرحانة، ترقص فى الشوارع !

— وهل عرفت البلد ؟

— عرفت من إذاعة برلين !

— وهل وصل الخبر لاذاعة برلين ؟

— طبعا.. كل الاذاعات فى العالم أذاعت الخبر ما عدا إذاعة لندن !

— الانجليز قلبهم أسود ! إنهم يكرهوننى !

— إن الانجليز حاولوا إخفاء الخبر... ولكن مصر كلها عرفت أن الجيوش
البريطانية تفر أمام روميل.. وأن الألمان سيكونون فى القاهرة خلال يومين !

— ولهذا تقول لى مبروك !

— طبعا.. إذا لم أهنئك أنت بانتصار الألمان فمن نهى ؟ إن البك
المأمور قال لى هذا الصباح أنك ستخرج من سجن الاستئناف مباشرة إلى
الوزارة !

— أنا أصبح وزيرا !!

— أعرف أن من حَقك أن تكون رئيس الوزارة.. ولكنهم يقولون إن على
ماهر باشا هو الذى سيؤلف الوزارة !

– ولماذا يختاروننى وزيرا؟

– لأنك دعوت فى منشورك لمهاجمة الانجليز والانقضاض عليهم.. كنت أبعد نظرا من جميع الزعماء.. إن سعادة المأمور يقول إنك بكلمة واحدة سوف تستطيع أن ترقيه من منصب مأمور سجن الاستئناف إلى منصب مدير مصلحة السجون!

– وأنت.. ألا تريد أن تترقى؟

– إننى أترك الأمر بين يدي سعادتك!

– هل لك أخت؟

– لا.. والله!

– خسارة!

– خسارة لماذا؟

– لقد كنت أريد أن أعينك مأمورا لسجن الاستئناف!

– إن زوجتى لها أخت!

– مظلقة؟

– لا.. متزوجة!

– خسارة!

– نطلقها يا سعادة البك! نطلقها..! نطلقها يا أفندم!!

وضحك عم عبده.. واستمر يضحك ويضحك!

وخرج نائب المأمور من الزنزانة ولا يزال عم عبده يضحك !
وأغلق عم عبده باب الزنزانة وراح يضحك !
ولم ينظر عم عبده بعد ذلك للمرأة أبدا ! .

الفصل الثامن عشر

الساعة الثالثة صباحا. الليل والبرد والظلام ابتلع الناس. شارع النيل في الجيزة غارق في نوم طويل. مياه النهر استرخت بلا حراك الأشجار المفروشة على جانبي الطريق تهتز كأنها ترتعش من البرد.. حفيفها له صوت القشعريرة. القصور والعمارات والبيوت المظلة على النيل مطفأة الأنوار، كأنها اغمضت عيونها لتحلم بالدفء القمر شاحب، لم يظهر منه سوى ربه الأخير اختفى ثلاثة أرباعه وراء سحب الليل، كأنه يغطي وجهه بملفحة سوداء!

سيارة عادل واقفة وحيدة على شاطئ النهر. الضباب غطى زجاج السيارة. كأنه يسدل ستارا يخفي العاشقين عن عيون الفضوليين. واقتربت الأميرة فضيلة من عادل الجالس أمام مقعد القيادة وقالت له في صوت عذب!

- عانقني... أكاد أموت من البرد!
- كنا في الدفء.. وأصررت على أن نخرج إلى البرد.
- إنني لا أستطيع أن أبقى في مكان واحد مدة طويلة!
- كنا نرقص معا في حفلة جمعية تجسين الصحة. فقلت لي : هيا نذهب

إلى شقتك. ذهبت إلى شقتي فقلت لى : هيا نذهب إلى شاطئ النيل كأنك
تبحثين عن شيء ضائع منك..

– أبحث عن نفسي!

– هل وجدتها!

– لم أجدها!

– إذن سأعود بك إلى بيتك!

– لا أستطيع أن أنام وحدى في البرد.

– إن في غرفة نومك جهاز تدفئة من آخر طراز!

– الرجل خير جهاز تدفئة في العالم!

– لماذا لا تنامين مع زوجك في غرفة واحدة؟

– كيلا أموت من البرد!

– إننى فى دهشة من علاقتك بزوجك.. أنت تحبينه وتكرهينه فى وقت
واحد.

– أحبه أمام الناس.. وأكرهه عندما أكون معه وحدنا!

– وماذا سيقول زوجك وهو يراك الآن تسهرين وحدك كل ليلة؟

– إنه يعرف أننى أفكر فيه دائما!

– تفكرين فيه وأنت بين ذراعى رجل آخر؟

– ألم تلاحظ أننى لا أذكر اسمه إلا وأنا بين ذراعيك!

- لعل العناق هو الذى يذكرك به !
- إننى أحبه وأنا بين ذراعى أى رجل آخر. وأكرهه وأنا بين ذراعيه !
- أنت امرأة غريبة !
- لأننى أقول الحقيقة !
- لأنك غير طبيعية ! المفروض عندما تكون المرأة بين ذراعى رجل أن تنسى فيهما الدنيا كلها !
- أنا الطبيعة.. الطبيعة بغير مكياج ! الرجل عندما يخون زوجته يهملها، والمرأة عندما تخون زوجها تضاعف الاهتمام به !
- لتضله !
- لا.. لتعوضه عما تسلبه منه، المرأة تشعر دائما أنها معتدى عليها.. ولكن عندما تخون المرأة زوجها تحس بأنها معتدية.. بأنها الأقوى والأقوياء يملكون أن يكونوا نبلاء. والنبيل هو الانسان الذى يشفق على المهزوم. ولهذا فأنا لا أهمل زوجى !
- إننى أتصور أنك لم تهملى زوجك فى يوم من الأيام.. لم تهمليه من اليوم الأول !
- ماذا تقصد ؟
- أقصد أنك خنت زوجك فى ليلة زفافك !
- من قال لك هذا ؟
- أنت قلت لى إنك أخذت موعدا غراميا من المسيو أرمان المصور. الذى جاء يصورك ليلة زفافك !

– كنت سكرى !

– كنت سكرى عندما قلت لى هذا... أو عندما أخذت موعدا فى ليلة الزفاف؟

– فى المرتين !

– وتسمين نفسك بعد هذا امرأة طبيعية؟!

– نعم امرأة طبيعية !

– ومن تكون المرأة غير الطبيعية؟

– التى لا تعطى موعدا لمسيو ارمان !

– ماذا أعجبك فيه؟

– جراته ! لقد جاء مسيو ارمان بصورتى فى يوم زفانى.. التقط لى عدة صور مع زوجى.. ولا حظت أنه يأكلنى بعينه ! الرجل فيه كان أقوى من الفنان، أحسست بأن عينيه تلتقطان صورا لما تحت ثوب الزفاف. بينما عدسة آلة التصوير اكتفت بأن تلتقط صورا لثوب الزفاف. واستأذنت زوجى بأن يلتقط ارمان لى عدة صور وحدى، وأذن زوجى. وصحبت المصور ارمان إلى غرفتى. وأغلق الباب. والتقط لى عدة صور فى أوضاع مختلفة.. ووجدتنى استسلم له وأنا فى ثوب الزفاف !

– وماذا أعجبك فى هذا الأرمنى؟

– أعجبنى أنه حافظ على ثوب زفانى فلم يرتعش !

– إنك أميرة الكذب، بل إنك ملكة الكذب !

– أنا لم أكذب عليك !

– لقد قلت لى فى بداية علاقتى بك إنك لم تحبى سوى اثنين.. الضابط
نجم الدين.. وعمر الفلسطينى !

– قلت إنهم ثلاثة !

– من الثالث ؟

– الحصان !

– وفى كل يوم أعرف اسم رجل جديد.. كلما شريت كأسا ذكرت لى اسما
جديدا !

– لقد وعدتك بأن أقول لك الحقيقة كلها.. أنت الذى طلبت منى أن أقول
لك كل الحقيقة !

– ولكنك تكذبين. إنك تقولين الحقيقة بالتقسيط، الحقيقة بالتقسيط هى
سم بطيء !

– ولهذا لا أريد أن أقول لك الحقيقة جرعة واحدة حتى لا أفقدك مرة
واحدة !

– ولكنك تفقديننى بالتقسيط !

– خير من أن أفقدك دفعة واحدة.. ومع ذلك أتحداك أن تقول لى إننى
كذبت عليك مرة واحدة.

– لقد قلت لى إنك أحببت ثلاثة... وإذا بالثلاثة يصبحون ثلاثين !

– هذا ليس حبا !

– هذا ألعن.. إنها علاقات كاملة !

– نعم..

– إنك أشبه بدورة مياه عمومية للرجال !

– إننى اعتبر الجنس شيئاً عادياً.. لا علاقة له بالحب !

– إننى أؤمن بأن القلب هو الباب الملكى للجسد !

– الملوك يفضلون كثيراً أن يدخلوا من الباب الخلفى.. ولا يستعملون الباب الملكى إلا فى المناسبات الرسمية !

– لقد كنت اعتقد أن جسد المرأة هو كتاب مقدس.. وأنت جعلت من جسدك دفتر تليفون !

– الكتاب المقدس ليس فيه اسم الله فقط، بل فيه أسماء أخرى !

– نعم... يتكرر اسم الشيطان فيه كثيراً.. بعد اسم الله !

– وجسدى أيضاً...

– إننى أدهش أن تمنح امرأة نفسها لرجل لا تحبه.

– هل أنت أحببت كل امرأة أعطيتها نفسك؟

– لا !

– ولماذا تحرم على ما تبيحه لنفسك؟

– لأننى رجل !

– هل الزائدة الدودية التى منحتها اياكم الطبيعة، تبيع لكم حقوقاً تحرمها على المرأة؟

- المرأة مخلوق مقدس !
- ولهذا تصلبونها؟!
- لنعبدها !
- ولتبقوا أحرارا.. تبحثون في كل يوم عن صلب جديد !
- إننا نضع المرأة فوق نصب عال... نجعل قدمها فوق رؤوسنا !
- كي تتفرجوا على جسدها العاري من خلال ثوبها !
- لا... كي نركع أمامها !
- لماذا لا نتبادل الأماكن؟ اجلسوا أنتم الرجال فوق قاعدة التمثال..
واتركونا أحرارا على الأرض !
- عجباً لك... ترفضين السماء التي نريد أن نرفعك إليها، وتنزلين إلى الأرض !
- السماء مقر الأرواح، أما الجسد فمكانه الأرض.. في الأرض جاذبية تدفعني إليها !..
- أنت مجنونة !
- أنت رجل تعيش في الأمس.. وأنا امرأة أعيش في الغد !
- هل تتصورين أن امرأة الغد ستكون على شاكلتك؟
- إنني أعتقد أن الغد سينظر إلى الجنس على إنه إشباع طبيعي كالطعام. ألبست تأكل الآن عندما تجوع؟
- نعم !

— وإذا فرض أن رأيت أمامك الآن صنفا لذيذا فهل تأكله، أم تنتظر حتى تذهب إلى بيتك؟

— أكله طبعاً!

— وكذلك سيكون الجنس غداً!

— تتصورين أننا سنعود حيوانات كما كنا!

— اتصور أن الغد سيتخلص من أشياء كثيرة نعتبرها حقيقة مقررة الآن، حقائق لا نقبل مناقشتها! إن الرجال ينظرون الآن إلى الطرابيش الحمراء ذات الأزوار السوداء كحقيقة لا تقبل مناقشة، تضعونها فوق رؤوسكم كما وضعها أجدادكم، وأجداد أجدادكم... كل ما تصنعون بها أن تطيلوها تارة وتقصروها تارة، أن تعوجوها على اليمين أو على اليسار.. ولكنها تبقى دائماً كما هي فوق رؤوسكم، لا تجرؤون على تغييرها! لم يخطر ببال واحد منكم أن ينزع هذا الزر الأسود الذي لا فائدة منه! لم يخطر لأحد أن يغير لون الطربوش الأحمر.. سيجيء يوم يتغير شكل هذا الطربوش الذي تعتبرونه اليوم رمزا لكرامتكم! الرجل منكم يغضب إذا ضربه رجل آخر في بطنه، ولكنه يثور إذا رمى طربوشه على الأرض! أنتم الآن تضعون كرامتكم في هذه الطرابيش، كما تضعون كرامتكم في الجنس.. وسيجىء يوم تخلعون فيه الطرابيش!

— وتخلع المرأة برقع الحياء!

— سوف يصبح الجنس كالطعام!

— ولكنك امرأة نهمه.. لا تشبع أبداً!

— أراهنك على أن الرجال الذين عرفتهم أنا أقل من النساء اللاتي

عرفتهن أنت !

— إذن أنت تريد أن تتساوى بى فى كل شىء !

— فى كل شىء.. أنت دون جوان بين الرجال.. وأنا دون جوانه بين النساء !

— أنك بذلك تقضين على نفسك !

— لماذا يحترم الناس الرجل الذى يعرف نساء كثيرات ويسمونه دون جوان، ويحتقرون المرأة التى تعرف رجالا كثيرين ويسمونها (دون) فقط؟ لماذا تكون أنت نبيلة وأنا سافلة، ونحن نفعل نفس الشىء؟

— لأننى رجل !

— عدنا لحقوق الزائدة الدودية !

— لماذا لا ترتدين بنطلونا ..

— سيجىء يوما يرتدى فيه النساء البنطلونات

— ويرتدى الرجال الفساتين؟

— لا.. سنتساوى فى الزى، وفى الحقوق، وفى كل شىء !.

— ولا يبقى للرجال سوى شواربهم !

— سوف نخيركم إما أن تحلقوا شواربكم أو نضع نحن شوارب مستعارة !

— سيكون عالما مجنونا !

— جنون اليوم هو عقل الغد ! فلاسفة اليوم كانوا مجانين الأمس !

- ولكن الحب سوف يفقد لذته وطعمه !
- عند اكتشاف الشامبانيا كانت الشامبانيا طعام الملوك وحدهم فهل
فقدت طعمها بعد أن أصبحت في أفواه الملايين؟
- إننى أنظر إلى الجسد نظرتى إلى شراب غال كالشامبانيا، وأنت
تريدين أن تجعليه رخيصا كالكوكولا !
- ولكننا لا نعيش عليها !
- نشربها عندما نعطش !
- ونجدها في كل شارع !
- إذن أنت تريد مشروباً لا يشربه سواك !
- لا أحب أن أشرب من زجاجة فانت على شفاة كثيرة !
- ولكنك تحبنى !
- أنا لا أحبك.. أنا أدمن عليك !
- كالأفيون.
- تماماً !
- هذا دليل أنك تحبنى !
- إن المدمن على الأفيون يمقت الأفيون !
- ولا يستغنى عنه !
- أفضل أن أكون الأفيون على أن أكون حقنة البنسلين التى اكتشفوها
أخيراً !

– البنسلين يشفى !

– ولكن يضيع مفعوله إذا أكثرنا من استعماله !

– إننى حاولت كثيرا أن أغيرك ففشلت ! إن الشرقى فيك تحت جلدك !
كأنك ترتدى العباءة البدوية تحت الجاكّة والبنطلون !

– ماذا كنت تريد أن تغيرى فى !

– نظرتك للمرأة !

– إننى أنظر للمرأة كإلهة !

– ولماذا تكره أن يعبدوها غيرك؟ إنك تريد إلها خاصا بك لا يعبد
سواك، فإذا عبده سواك تحول إلى صنم يجب تحطيمه !

– فرق أن أعبد الآلهة من بعيد.. وأن يصحبها كل رجل إلى غرفته !

– ولكنك قلت إنك تؤمن بالمبادئ الاشتراكية !

– الاشتراكية لا تؤمن بالمبادئ لا تؤم النساء، ولا تعتبر كل امرأة
قطاعا عاما !

– والشيوعية تلغى الآلهة !

– إذن أنت أميرة شيوعية !!

– قلبى رأسمالى.. وجسدى شيوعى !

– لماذا بدأت بجسدك.. لماذا لم تبدئى بتوزيع ثروتك على الناس !

– بدأت بأغلى ما أملك !

- وجعلت أغلى ما فيك أرخص ما فيك !
- أنت تغار من الماضى !
- انا أفكر فى مستقبلك كأميرة !
- ليس لى مستقبل كأميرة !
- تعتقدين أن هتلر سوف يقضى على جميع الملكيات فى العالم ؟
- أعتقد أن نهاية الحرب ستكون نهاية الملكيات، سواء انتصر المحور أو انتصر الحلفاء !
- ولهذا لا يهتمك سمعتك كأميرة !
- لهذا أستمتع بكل لحظة فى حياتى قبل أن أعلق فوق مشنقة.. هل تتصور أنه إذا قامت ثورة فسوف يشنقون الأميرات الفاجرات.. وينطلقون سراح الأميرات الورعات !
- ولكنك تحملين اسم (فضيلة).
- وانت تحمل اسم (عادل).. وانت ظالم !
- انا لم أظلمك !
- ظلمتنى عندما طلبت منى، وأنا بشر، أن اتصرف تصرف الآلهة !
- إننى لم أطلب منك إلا أن تكونى امرأة عادية ! المرأة العادية عندما تحب تخلص للرجل الذى تحب !
- وانا مخلصه لك.. أنت تعلم أننى لك وحدك !
- أنا أثق بك وأنت معى.. ولا أثق بك عندما تتركيننى دقيقة واحدة

- أذن ابق معى دائما !
- انت تريدین عاشقا متفرغا، لا عمل له إلا أن یحبك بالنهار واللیل !
- لأننى احبك !
- وماذا أفعل فى عملی ؟.. انك تغضبین إذا قلت لك إننى مشغول أو إن عندى مجلس إدارة، أو إن لدى موعدا مع عمیل !
- مادمت تريد ان أصبح كل شىء لك.. فیجب أن تكون كل شىء لى !
- وأموت جوعا !
- إن لديك أسهما كثيرة فى شركتك !
- ولكنى يوم اهل شركتى سوف تصبح هذه الاسهم بسعر التراب !
- إننى املك ثروة !
- تريدین أن أعیش على حسابك !
- ليس بین المحبین حساب !
- وإذا جاء يوم زهدت فى ! أو إذا جاء يوم أردت أن تعودى إلى تطبیق نظریتك الاشتراكية، فماذا أفعل ؟ !
- لن یجىء هذا الیوم وأنت معى.. تزوجنى !
- لیرسم لنا مسیو ارمان صورة الزفاف !
- أنت تطالبین بأن أكون صریحة معك، فإذا صارحتك بالحقیقة حاکمتنى مستندا إلى صراحتى !

– لقد حكمت عليك منذ وقت طويل !

– حكمت على بماذا ؟

– بانك مجنونة !

– لأننى أعيش فى الغد !

– جسدك وحده هو الذى يعيش فى الغد !

– ورأسى !

– يعيش فى الأمس فى عالم الجوارى والمحظيات !

– عقلية جارية ؟

– لا.. عقلية سلطان يريد أن يكون له مئات الجوارى والمحظيات !

* * *

ودعاها عادل لأن تغادر السيارة وتمشى بجواره على شاطئ النهر، وترددت فضيلة خوفا من البرد، ثم قبلت، ومشت بجواره جنبا إلى جنب يرقبان الخيط الأول من خيوط النهار.

وضحكت فضيلة وهى ترى الدخان الأبيض الذى يحدثه تنفسها، وقالت :

– الضباب يخرج منى !

– إن فى داخلك ضبابا كثيرا.

– ولهذا لا ترانى على حقيقتى !

– الضباب يعميك أنت وحدك !

- لماذا لا تحاول أن تكون الضوء في حياتي؟
- كلما أضأت عودة من الثقب أطفأه ماضيك!
- لماذا تنظر إلى الظلام ولا تنظر إلى ضوء الفجر؟
- لأنني فشلت أن أكون الشمس في حياتك..
- إنك الشمس فعلا
- ولكنك في حاجة إلى شمس لا تغيب!
- في استطاعتك أن تكون شمسا لا تغيب!
- لو تزوجتك!
- نعم!
- إن زوجك معروف باشا لم يستطع ان يغيرك!
- لأنني أنا التي غيرته!
- وستحاولين أن تغيريني أنا الآخر!
- إنني أحببتك لأنني فشلت في أن أغيرك!
- أما أنا فإنني أخاف منك.. لأنني فشلت أن أغيرك!
- إنك لم تحاول أن تغيرني!
- حاولت.. طلبت منك كثيرا أن تغيري نفسك فلم تتغيري!
- احببني أكثر!!
- الحب يغير الناس أكثر مما يغيرهم الأوامر!

- اننى لا استطيع أن أخلقك من جديد، لست إلها !
- الحب إله يخلق العاشقين من جديد، أنا أمامك فاصنع بى ما تشاء !
- كلما حاولت أن أصنع منك شيئا اصطدمت بماضيك !
- هذا دليل على أنك لم تحبنى حبا كافيا ! حبك لا يزال بشرا ! ويوم يرتفع هذا الحب ويصبح إلها يتصرف كما يتصرف الآلهة. يقبل التوبة ويسمح بالغفران !
- فى بعض الأحيان أشعر أنك لست بشرا ولا إلها !
- مزيج من البشر والآلهة والشياطين !
- متى أكون بشرا ؟
- وأنت تمشين بجوارى !
- ومتى أكون آلهة ؟
- وأنت ترقددين بجوارى !
- ومتى أكون شيطانة ؟
- وأنت بعيدة عنى !
- كائنك تريد ان أكون دائما إلى جوارك !
- كلا.. إننى أتمنى أن تكونى واحدا من الثلاثة، إما بشرا، وإما إلهة، وإما شيطانا !
- كل امرأة فيها هؤلاء الثلاثة معا !

– إننى عرفت نساء كثيرات، ولم أر فى واحدة منهن هؤلاء الثلاثة
مجتمعين إلا فىك أنت وحدك !

– لأننى كنت صريحة معك !

– لقد عرفت قبلك نساء صريحات !

– ربما لأننى عريت لك نفسى أكثر مما عرتها امرأة قبلى !

– ولا هذا .. إن نبرة الشيطان فىك أعلى من نبرة الشيطان فى أى امرأة
أخرى !

– ونبرة البشر !

– عالية جدا !

– ونبرة الالهة !

– خافتة جدا !

– اذن تريد أن أكون صاحبة السمو.. إنك قلت إنك تحبنى كامرأة
وتكرهنى كاميرة !

– أريد أن تكونى أشبه بهذا الطائر الذى يطير الآن فوق رؤوسنا ويمسد
رأسه، ويفرد جناحيه..

أريد أن أرفع رأسى لأراك !

– وتسدد بندقيتك لى وتصطادنى !

– لا.. إننى أريد أن أحلق معك !

– أنت تجد لذة فى أن تضع المرأة فى قفص وتتفرج عليها، مثل كل

الرجال.. ولا مانع لديك أن يكون في بيتك عصفور في قفص، وإلى جواره
ببغاء في قفص، وإلى جوارهما نسناس في قفص.. ثم تمضي وقتك في التنقل
بين العصفور والببغاء والنسناس !

— إننى لا أحب النسناس !

— إن صديقتك قسمت تشبه النسناس، وصديقتك أميرة عبد العاطى
تشبه الببغاء، لا تكف أبدا عن الكلام !

— وانت العصفور !

— لا.. انا الببل الذى لا يغنى إلا إذا كان مطلق السراح.. إن قسمت
وحدها هى التى تصلح لأن توضع في قفص.. النسناس يمرح داخل القفص
كما يمرح في الغابة !

— إننى في دهشة من أنك تغارين من قسمت أكثر من أى امرأة أخرى !

— لأننى أشعر بأنها تحبك أكثر من أى امرأة أخرى !

— ولكن قد يدهشك أن تعلمى أن ليس بينى وبينها أى علاقة ! كل ما
بينى وبينها صداقة قوية !

— الصداقة القوية بين الرجل والمرأة تنتهى بالحب.. أما الحب فلا
ينتهى أبدا بصداقة قوية !

— ولكن هذا لا يبرر أن تكرهها كل هذا الكره !

— في قلب كل امرأة جهاز يشبه جهاز الرادار، إنه يميز طائرات العدو قبل
اقتربها.. وأنا احس دائما بأن قسمت خطر على ! أنا أجمل منها ألف مرة،
أنا أرشق، أنا أكثر أناقة.. ومع ذلك فأنا أخشى منها، ولا أعرف أن أفسر

سبب خوفي منها !

— إنها هي التي ألحت عليك أن تجيئى إلى شقتى !

— أعلم ذلك.. ويرغم هذا فأننى اعتقد أن شيئاً ما بينك وبينها !
تصور أنها أول امرأة أغار منها فى حياتى !

— إنها لا تذكر بكلمة واحدة !

— هذا يجعلنى ازداد خوفاً منها !

— سوف يضحك الناس إذا عرفوا أن الأميرة الفاتنة تغار من فتاة دمية
مثل قسمت شاهين !

— ولكنك أنت لن تضحك إنك فى يوم من الأيام فضلتها على.. ولا أستطيع
أن أنسى هذا اليوم أبداً !

— متى كان ذلك ؟

— يوم جاءت قسمت إلى شقتك وكنت أزورك للمرة الأولى.. لقد وجدت
فجأة تنصرف بكليتك إلى الحديث معها وتنسى أننى معكما فى نفس الغرفة..
وهذا شيء لا يمكن أن تنساه المرأة أبداً !

— ولكن فى هذا اليوم قلت لى إنك مازلت تحبين عمر الفلسطينى وأنت
لا تستطيعين أن تحبى رجلين فى وقت واحد !

— ولو ! المرأة تضيق عندما ترى رجلاً راقصته.. وقد احتضنته امرأة
أخرى !

— إنها لم تحضنى !

— كانت عيناها تحتضنانك !

— كانت على عيناها نظارة سوداء !

— المرأة ترى كثيرا من خلال النظارة السوداء !

— مالك ترتعشين ؟

— الحديث عن قسمت جعلنى أشعر بالبرد.. إن اسمها يطفىء النار التى
تدفئنى !

* * *

وعاد عادل بفضيلة إلى السيارة وقاد عادل السيارة إلى قصر الأميرة
فضيلة فى الجزيرة، ولاحظ أنها جلست بعيدة عنه . كانت شاردة طوال الوقت،
لم تفتح فمها بكلمة واحدة.

وعاد عادل إلى بيته، وهو يفكر فى هذه المرأة الغريبة التى تغار كل هذه
الغيرة من قسمت ، وتتصور أنها وحدها هى التى تستطيع أن تنتزعه منها !
فى كل مرة يلتقى فيها بالأميرة تتحدث عن قسمت وحدها دون سائر
النساء !

ما الذى فى قسمت يجعل امرأة مثل فضيلة تخشى منها على حبيبها ؟ لقد
قالت له فضيلة كلمة أحس إنها ندمت عليها بعد أن نطقت بها . قالت له ان
قسمت تحبه أكثر من أى امرأة أخرى !

لقد كان يبحث دائما عن سر قسمت .. كان يتساءل ماذا فيها حتى يجعله
يهتم بها، ويفكر فيها؟ .. وكان لا يجد هذا السر !

ولكنه وجده الآن !

وجد ما كان يبحث عنه من وقت طويل بغير جدوى !

وصل إلى عمارة ايموبيليا، وهو يفكر في قسمت !

ربما تكون هى العلاج الوحيد من الأفيون الذى يعذبه الادمان عليه.. من
الأميرة فضيلة !

إنه يشعر أن فضيلة تريد فعلا أن تتزوجه ! تريد أن تطلق زوجها، لتكون
له وحده !

وهو لا يريد أن يتزوجها، لا يقبل أن يكون زوجها لأميرة.. ولا يقبل أن
يكون زوجها لامرأة عرفت ثلاثين رجلا قبله.. امرأة تؤمن بأن المرأة هى
منافع عمومية كالحدائق والطرق والجسور !

ومع ذلك فهو يخشى أن يضعف أمامها.. فى كل يوم يقرر أن يقطع علاقته
بها، ثم يسمع صوتها فى التليفون، فينسى قراره القاطع ويجد نفسه ينتظرها..
تماما كما يفعل المدمن مع حقنة الأفيون

ووصل المصعد إلى الطابق العاشر !

واتجه ليفتح الباب، فسمع جرس التليفون يدق فى شقته.. وعجب من
الذى يطلبه فى هذه الساعة المبكرة فى الصباح !

إنها الآن الساعة الرابعة صباحا !

وأضاء نور الشقة وأسرع إلى التليفون ورفع سماعة التليفون، وسمع
قسمت تقول له بصوت ملهوف :

— أين كنت ؟

— ماذا حدث !

— لقد مضى على ساعتان أطلبك في التليفون ! إننى قمت مذعورة من النوم
على كابوس !

— من رأيت في الكابوس !

— الأميرة فضيلة في شارع النيل بالجيزة !

— وماذا يدهشك في هذا ؟

— لا يدهشنى شىء.. وماذا كانت تفعل الأميرة فضيلة في شارع النيل
بالجيزة ؟

— كانت في سيارة ؟

— سيارة.. سيارة من ؟

— سيارتك !

— سيارتى ! أنا ؟ !

— نعم سيارتك أنت !

— وماذا حدث ؟

— كادت تدوسك وهى تقود السيارة

— هل داستنى في الحلم ؟

— لا أعرف، فإننى استيقظت من النوم مذعورة ! إننى رأيتك في الحلم
وانت جالس في سيارتك مع فضيلة في شارع النيل، ورأيتك وأنت تنزل معها
من السيارة وتمشيان معا على الشاطئ !

– هل أنت متأكدة عندما رأيت هذا أنك كنت في فراشك.. أم في شارع النيل في الجيزة!

– كنت في فراشى!

– غريبه لقد كنت فعلا مع فضيلة في هذا الوقت بسيارتى.. كنا في شارع النيل في الجيزة.. وغادرنا السيارة ومشينا على الشاطئ!

– وهل داستك؟

– لن تدوسنى!

– من يدريك؟

– لأننى لن أراها بعد اليوم!

– لماذا؟

– لأننى سأراك.. سأراك أنت وحدك!

– ما الذى غيرك؟

– لأننى لأول مرة في حياتى.. عرفت طريقى!

الفصل التاسع عشر

استلقى عادل في فراشه يفكر في القرار الذي أصدره بقطع علاقته بالأميرة فضيلة. شعر أن القرار ليس سهلاً. صحيح أن هذا ليس أول قرار في حياته يصدره بقطع علاقته بامرأة يعرفها، إنما فعل ذلك ليخرس امرأة غيورا وفعله ليتفادى فضيحة، وفعله ليرضى كبرياءه الجريح. قطع العلاقات مع النساء أشبه بقطع العلاقات مع الدول. الدول تسحب سفراءها والمرأة تسحب خطاباتها الغرامية.. الدول توقف الاتصال، والعشاق يوقفون اللقاء.. وفي بعض الأحيان ينتهى قطع العلاقات باعلان الحرب، ولكن عادل كان يحب دائما أن يقطع علاقته بالمرأة في هدوء، وبغير فرقة.

كان يحرص وهو يجرح المرأة ألا يسيل دمها، ولهذا لم يحدث مرة واحدة أن أعلنت امرأة هجرها الحرب عليه. إذا ثارت عليه بحملها، وإذا هاجمته جاملها.. كان دائما يترك شعرة بينه وبين المرأة التى تركها، لا يقطعها. يدافع عنها خلف ظهرها، ويساعدها في أزماتها، ويوهمها دائما بأنها هى التى تركته وليس هو الذى هجرها.

ومن طبيعة المرأة أن تغضب بسرعة، وأن ترضى بسرعة، مادامت كرامتها لم تجرح. كل جروحها تلتئم إلا جرح كرامتها الذى ينزف مادامت على قيد الحياة. ومن هنا كان عادل يحرص وهو يقطع علاقته بالمرأة، أن يضمن كرامتها من الهوان.

وحار عادل كيف يبلغ فضيلة قراره بقطع علاقته بها ! كيف يضع السم في برشامة ! كيف يلف السكين الذى سيقطع به هذه العلاقة الغريبة بورق مفضض حتى تحسبه باقة من الورد الجميل !

كان يشعر بأنه يجب أن يهرب منها. كان يخشى أن ينزلق إلى عالمها الذى يكرهه. لقد بدأ يهمل عمله فعلا، وهو يتبعها من سهرة إلى سهرة، ومن حفلة إلى حفلة. إن عمله هو حبه الأول، هو حياته وقد أحس في الأسابيع الأخيرة بأنه يخون عمله من أجلها. كان يؤجل البت في مسائل هامة ليلتقى بفضيلة. كان يترك بعض الاجتماعات الخطيرة في منتصفها ليكون جالسا في شقته ينتظرها. كان ينسى بين ذراعيها مواعيد ارتباط بها مع عملاء شركته، وهو الذى حرص طوال حياته على أن يحافظ على مواعيد عمله كما يحافظ الجندي على موعد الطابور !

كان العشق ترفا، فجعلته الأميرة ضرورة حياته. كان على هامش اليوم، فأصبح يستغرق اليوم كله والليل كله ! كان يملا به فراغه فإذا هو يملا به دنياه ! فهو اليوم لا يقطع علاقته بأمرأة، وإنما يقطع علاقته بحياة لا يطيقها، بجو يكرهه، بعقليات لا يحبها، بعالم كان يهزأ به ويمن فيه، وإذا به يكتشف نفسه غارقا فيه !

من أجلها، كان يحتمل آراء زوجها التافهة في السياسة الدولية يهز رأسه موافقا على تفاهات وسخافات، وكأنه يستمع لآراء تشرشل وأفكار ستالين !

من أجلها، اضطر أن يجالس عددا من الامراء والنبلاء الذين تدعوهم فضيلة إلى العشاء: تماثيل من الشمع، على رؤوسها تيجان من ذهب. أطفال لهم شوارب ولحي، أكوام من الاقزام داخل صناديق ملكية ! كان عليه أن يتظاهر باحترام من يحتقرهم، وأن يضحك لنكات ثقيلة الدم لم تكن تستحق

إلا أن يصفعهم على قفاهم. كان عليه أن يستمع ساعات طويلة لاحاديث عن الصيد والقنص.. وهى الرياضة التى يمقتها، ولا يطيق أن يرى أمامه حيوانا مذبوحا،

إنه لا ينسى كيف أصرت الأميرة فى يوم من الأيام على أن يصحبها فى رحلة صيد البط فى الفيوم. يومها رأى مواكب الطيور تنطلق فى السماء، جميلة فاتنة ساحرة، تمشى فى مواكب، وكأنها ترقص على لحن الطبيعة السحرى الأخاذ!

وفجأة أمسكت الأميرة ببندقيتها وأطلقت الرصاص على طائر جميل، ورأى الرصاص وهو يمزق الطائر ويهوى، بينما زميلاته تصرخ وكأنها تبكى وتولول وتندب الطائر الجميل إلى أن أخرستها رصاصات أخرى.. فخلت السماء من الطير الجميل ولم يبق فيها إلا بقايا رائحة الموت والبارود!

وسمع رفقاؤه فى الصيد يهللون ويكبرون ويتبادلون التهاني ويرقصون، وكأنهم أصبحوا وحوش الغابات الذين يرقصون ويهللون ويدورون حول الأسير الذى وقع فى أيديهم!

وفى تلك اللحظة أحس عادل بأن كل هؤلاء الذين يحملون البنادق هم الوحوش والقتلة والسفاحون وأن هؤلاء أنفسهم لن يترددوا فى أن يقتلوا البشر بنفس القسوة التى يقتلون بها الطيور.

وتمزق قلبه لأنه يعشق قاتلة! رآها تقتل أمام عينيه! رآها ترقص فرحة أمام جثث الموتى. وتمزق قلبه أكثر، عندما دعت الأميرة فى نفس الليلة ليأكل البط الذى قتلته أمامه!

وجلس يومها إلى مائدتها، وأبى أن يأكل القتل، ولم يذق طعاما!

وأحس وهو جالس معها ويرأها تأكل بشرامة ولذة البطة التسي
اصطادتها، بأنه سيجيء يوم يصبح فيه هو «عادل علاء الدين» في أحد
الاطباق الفضية، مكان البط القتل !

واعتقد في ذلك المساء أنه لن يرى الأميرة بعد ذلك، بعد أن رأها تقتل،
وتأكل ما قتلته ! وتصور أنه سوف يتقزز إذا هو قبل شفتي قاتلة، سوف
يحس بالقرب إذا عانق قاتلة !

ولكنه في اليوم التالي كان يقابل القاتلة في شقته، وأنسته قبلتها الحارة أن
أحمر شفتيها هو دم البطة القتل، وأنساه عنساقها أن الذراعين اللتين
تحيطان بجسمه هما الذراعان اللتان حملتا البندقية القاتلة !

أنساه جمالها جريمتها، بل إنه استمتع به في ذلك اليوم أكثر مما استمتع
به في أي يوم آخر، وكأن الدم الذي رآه بالأمس آثار كل مشاعره.

وعندما تركته في ذلك اليوم أحس بأنه يحتقر نفسه، واستنكر أنه نسي
منظر البطة القتل، ولم يذكر إلا الجمال الحى المثير الذى أمامه. وأحس
بذل عجيب، إنه أمامه يضعف ويتلاشى وينسى كل شيء، إلا جمالها الفتاك..

كثيرا ما قاومها، ولكنه كان دائما يقاوم ثم يستسلم.. يبدأ بكلمة «لا»
عالية مدوية، ثم تخفت الـ «لا» تدريجا حتى تتحول إلى «نعم».. لقد
أصبح يقبل ما كان يرفضه. وجد في هذه المرأة سحرا طاغيا يسلبه إرادته
ويجرده من أسلحته. وجد أنه يحتقرها، ثم يركع تحت قدميها. يلطمها على
وجهها ثم يقبل يدها. يلعنها ثم يعبدها. يصفها بأقبح النعوت وأقذر الصفات
فتضحك، وتضع شفتيها فوق شفتيه وكأنها تمسح اللعنات.

كان يغيظه منها أنها تعلم أنه لن يستطيع أن يستغنى عنها، وأن شتائه

تخرج من لسانه وغزله يخرج من قلبه.. وكان يعجب لأنها تحتل منه كل إهانة، وكأنها تعلم أنه يهينها لأنه يعشقها. وأنه أصبح سجين جمالها، ومن حق المسجون أن يلعن السجان وكانت واثقة دائما بأنها قادرة، بسحرها على أن تحول جحوده المؤقت إلى إقبال دائم.. فهي تترك له حرية الصراخ وهي واثقة أنها سلبته حرية الحركة !

وكان يرى في هذا خطرهما. إنها امرأة خطيرة فعلا، لأنها استطاعت أن تستدرجه إلى عالمها، وهي توهمه أنها هي التي تدخل عالمه. قبلت أن يقول لها إنه يحبها كامرأة ويكرهها كأميرة، ثم اكتشف أنه أصبح عشيقا للأميرة المرأة، والمرأة الأميرة في وقت واحد. فهي لم تنزع تاجها لتدخل حياته، بل نزعت التاج ووضعت فوق رأسه.. وعندما دخل حياتها وجد نفسه أسيرا داخل هذا التاج !

وعندما أخبرته أنها تريد أن تتزوجه فزع. فمن طبيعتها أن تتوسل لتأمر، وأن تعانق لتخفق، وأن تركع تحت قدميه لتقيدهما بالسلاسل والاغلال ! صحيح أنه رفض عرض الزواج، وسخر منه، ولكنه يذكر أنه رفض قبل ذلك أشياء كثيرة وسخر منها، ثم قبلها بعد ذلك، دون أن يعرف كيف قبل ولماذا قبل، ومتى قبل ما كان يرفضه ويأباه !

عارض بشدة أن يحضر السهرات التي تقيمها الأميرة في قصرها، ووجد نفسه بعد ذلك مسوقا إلى هذه السهرات. يوهم نفسه أنه يذهب إلى هذه السهرات ليحرسها وهو في الواقع يذهب إليها لأنه لا يطيق أن يكون بعيدا عنها !

رفض أن يقبل دعوات أصدقائها. الأمراء والنبلاء، ثم أصبح مضطرا أن يحضر هذه المآدب، ليرى فضيلة ويرقص معها.. لم يعد يكفيه أن يعانقها في

خلوة، بل أصبح يجد لذة في أن يعانقها أمام الناس !

أراد أن يرغمها على أن تتوقف عن شرب الويسكى . وتظاهرت بالخضوع له، وانتهى الأمر به أن أصبح هو يشرب الويسكى معها أكثر مما اعتاد أن يشرب !

ما يدريه أن يجيء يوم يسلم فيه لها، ويتزوجها دون أن يدري كيف تزوجها، تماما كما استسلم لها في كثير مما قاومه ورفضه بشدة وإصرار !
إنها امرأة مخيفة فعلا . تستسلم لتقاوم، وتتقهقر لتتقوض، وتنهزم لتحقيق نصرها الكبير. توهم الرجل أنها خاتم في أصبعه يحركه كيف يشاء، ثم يكتشف الرجل أن الخاتم هو الذى يحرك الرجل، وليس الرجل هو الذى يحرك الخاتم !

وعض عادل على شفتيه . واشعل سيجارة .. ونظر إلى السيجارة بين أصابعه . هو يتصور أنه يحرق السيجارة بينما السيجارة هي التى تحرقه يتوهم أن السيجارة في يده، بينما الواقع أنه عبد لهذه السيجارة !

وخطر بباله خاطر أقلقه ! ماذا لو أصبح قراره بقطع علاقته بالأميرة فضيلة أشبه بالقرارات التى كان يصدرها بالاقلاع عن التدخين !!

كان يدخلن عشرين سيجارة في اليوم وذات يوم قرر أن تكون السيجارة التى في فمه هي آخر سيجارة يدخلنها في حياته .

ونزع السيجارة من فمه وألقاها على الأرض وداسها بقدمه .. ومضت بضعة أيام دون أن يدخلن سيجارة واحدة .. ثم عاد يدخلن سيجارة واحدة .. ثم عاد يدخلن خمسا وعشرين سيجارة كل يوم !

أصدر بعد ذلك عشرات القرارات بالاقلاع عن التدخين. كان ينقطع يوما، أو ثلاثة أيام، أو أسبوعا، أو شهرا، ثم يعود ليدخن بشراهة أكثر مما كان قبل أن يصدر قراره النهائي بالامتناع عن التدخين.

وهكذا أصبح يدخن الآن ستين سيجارة في اليوم، بفضل القرارات النهائية التي أصدرها، ثم رجع عنها!

وتأمل عادل دخان سيجارته الذي يتصاعد في دوائر وحلقات، وساءل نفسه: ترى كم يعيش قراره النهائي بقطع علاقته بالأميرة فضيلة؟ ترى هل يعود إليها بشراهة، كما عاد إلى السيجارة بشراهة؟

وانتفض.. تصور لو أن عشرين فضيلة في اليوم تحولت إلى ستين فضيلة في اليوم.. لو أنه هجر فضيلة كعشيقة ثم عاد إليها كزوج.. نفس النسبة التي رفعت عدد السجائر التي يدخنها من عشرين سيجارة إلى ستين سيجارة!

وتخيل نفسه زوجا للأميرة!

سيصبح معروف باشا.. الثاني!

وسوف يجيء بعده معروف باشا الثالث.. والعاشر، والعشرون!

وخيل إليه أنه يسمع نكتة أطلقها عليه صديقه المهندس خليل مدبولي المشهور بطول اللسان.. سوف يسميه عادل الحادي والثلاثين فهذا ترتيبه الرسمي في عدد العشاق الذين تقبلوا الأميرة الحسناء!

وتصور أنه يسمع ضحكات عالية إنه يعرف أصحاب هذه الضحكات إنها ضحكات أصدقائه المهندسين في شركة الهندسة الكهربائية!

ورأى أمامه صورة المهندس جورج اسحاق وهو يضحك، وصورة

المهندس طاهر كريم وهو يبتسم ابتسامته الصفراء، وصورة صديقه المهندس خليل مدبولي وهو يقهقه قهقهته العالية التي لها طابع خاص.. ثم رأى صورة سكرتيرته ماتيلدا والدموع تملأ عينيها من شدة الضحك.. ثم خيل إليه أن الشعب المصري كله يضحك من الاسكندرية إلى أسوان!

وأغمض عيني، وسد أذنيه بكفيه، ومع ذلك استمر يسمع الضحك، ويرى وجوه الضاحكين الساخرين!

ووجد نفسه يضحك هو الآخر.. يسخر من صورته في ثياب زوج الأميرة!

وتصور نفسه جالسا يلعب البوكر في الدور الأول من قصر الأميرة بينما الأميرة مشغولة في المفاوضات على شراء أسهم شركة أخرى مع شباب آخر في شقتها!

وعاد يسمع الضحكات من جديد وأحس بخجل من نفسه!

ما الذي جعله يهوى إلى هذا الحضيض الملكي!.. لقد عرف قبل الأميرة عشرات النساء، ولكنه لم يشعر بالهوان الذي يشعر به اليوم، لم يحس بأنه في خطر، كان شعوره الدائم أنه في أمان، كأن ذراع المرأة التي يعرفها هما مخبأ يخفيه من الغارات الجوية... ولكنه مع الأميرة لا يشعر أنه يختبئ في مخبأ.. إنه يختبئ في قنبلة.. ويتوقع أن تنفجر القنبلة في أي لحظة وتحسوله إلى رماد!

وشعر كأن القنبلة انفجرت فعلا وهو في داخلها.. أحس بأنه يمتلىء بالنار والالام والدوى والاختناق والدمار والموت!

هل أضاعته هذه المرأة فعلا؟ هل هو جالس فوق انقاضه! هل حنولته إلى شظايا! هل سممت حياته، فأصبح لا يستطيع أن يعيش إلا على هذا

السم الذى تنفثه من جسدها وفمها!.. إنه لا يزال يعشقها، وهو يسكرها،
لا يزال يحن إليها وهو يهرب منها.

* * *

ودق جرس الباب..

وأسرع يفتح الباب لقسمت، ورأها وفى يدها لفافة!

ورأى النظارة السوداء فوق عينيها...

واستراح لرؤيتها. لم يغضب لأنها جاءت بالنظارة السوداء.. بل على
العكس خيل إليه أن قسمت حملت إليه نسيمًا منعشًا. إنها أول مرة تتعطر،
إن عطرها يملأ أنفه، اختفت من أنفه رائحة الخوف التى كان يشمها منذ
دقائق!

وأراد أن يصحبها إلى الصالون

ودفعته بيدها وقالت وهى تبسم:

— إن موعدى معك فى الداخل وتقدمته إلى الداخل!

وأراد أن يقبلها.. فأفلتت منه وهى تقول:

— لن تقبلنى إلا بعد أن أخلع النظارة!

ومد يده لينزع النظارة فتراجعت إلى الخلف، وقالت:

— لقد غيرت رأى!

— لن تخلع النظارة!

— لا.. سأخلعها بنفسى!

ثم سألته : أين الحمام؟

وأشار إلى باب الحمام.

وفتحت حقيبتها وترددت قليلا... ثم أغلقت الحقيبة وفتحت اللفافة التي في يدها...

وأخرجت بيجاما من الحرير الأبيض...

قال عادل في دهشة :

— هل أحضرت بيجاما معك؟

— إنها ليست بيجامتي !

— بيجامة من؟

— بيجامتك أنت... هل نسيت إن الليلة هي موعد زفافك؟ التقاليد جرت أن العروس تشتري بيجامة الزفاف للعريس !

وفتح عادل فمه في دهشة... همومه مع الأميرة فضيلة أنسته كل شىء عن أن الليلة هي الليلة الموعودة. مضت أيام وأحداث على حوارهما عن لقائهما الأول.. كان مصرا أقبل ذلك على أن يبدأ معها من النهاية. كان يلح عليها أن تخلع نظارتها. كان يغضب إذا جاءت بهذه النظارة السوداء.. كان يريد أن يبدأ الحب من أوله. كان يريد أن يمضى السهرة يحدثها عن قرارة النهائى بقطع علاقته مع الأميرة فضيلة، ويشرح لها الأسباب التي جعلته يتخذ هذا القرار وسيقول لها إنه قرر أن يبدأ علاقته معها، وسوف يقبلها طبعاً وسوف يحاول أن يجعلها تخلع نظارتها !

ولكنه لم يكن مهياً ذهنياً لتكون هذه الليلة هي ليلة زفافه.. كان عقله

مشغولا بـدفن غرامه مع الأميرة.. وكان يقدر أنه سيقوم في قلبه مأتما... ولم يتخيل أنه سيحتفل أثناء تشييع جنازة حب بزفاف جديد !

ولم تفهم قسمت سبب دهشة عادل وقالت له :

– مالك واقفا هكذا ؟ لماذا لا ترتدي البيجاما، حتى أعرف إذا كانت على مقاسك ؟

وأمسك عادل بالبيجاما ووقف مبهورا واستطاع أن ينطق ويقول :
– إنها بيجامة جميلة !

– ستكون أجمل وأنت فيها !

– أظن أن المفروض أن أشتري لك قميص الزفاف !

– يبدو أن هذا هو زفافك الأول.. العروس هي التي تشتري قميص زفافها !

– ومتى تشتري هذا القميص ؟

– اشتريته إنه معي !

– هل ارتديته تحت ثوبك ؟

– لا... إنه في حقيبة يدي.

– هذه الحقيبة الصغيرة تتسع لقميص نوم ؟

– ماذا تظن أنني سأرتدي لك.... ناموسية ؟

– إنك استعددت لكل شيء !

— هذا زفافي الأول.

وعادت قسمت تنظر إليه بدهشة وتقول :

— مالك لا تتحرك.. لماذا لم ترتد البيجاما؟

— سأرتديها !

— إن وجهك يا عادل احمر فجأة! الذى لا يعرفك يتصور أن هذا هو زفافك الأول.. وأننى لى سوابق فى حفلات الزفاف!

— إننى لم أتصور أن يتم كل هذا بهذه السرعة!

— إنك الذى أصررت على أن نبدأ القصة من آخرها!

— ولكننى كنت أود أن أقلب بيدي الصفحات.. حتى أصل إلى الصفحة الأخيرة!

— إننى أشعر أنك وصلت إلى الصفحة الأخيرة منذ مدة طويلة!

— منذ متى؟

— من يوم أن رقصنا معا فى سهرة الأميرة شويكار.. فى تلك الليلة استسلمت لك!

— لم تقولى لى هذا فى تلك الليلة، بالعكس كنت تهاجمين الرجال!

— لم يكن هجوما، كان زغاريد تطلق عادة ليلة الزفاف!

— وما الذى جعلك تنتظرين حتى الآن؟

— أنت اللى جعلتنى أرملة.. فى ليلة زفافي!

– ولعنتنى.. طبعاً !

– لعنت نفسى !

– لماذا ؟

– لأننى لم أخلع النظارة فى اليوم الأول !

– وستخلعينها الليلة ؟

– سأخلعها ليلة زفافى !

– الليلة فقط !

– ستكون كل ليلة معك هى ليلة زفافى !

ومشت قسمت بخطوات سريعة إلى مائدة التواليت، وأخذت مشطاً وفرشاة، وأسرعت إلى الحمام. وقبل أن تغلق بابه أطلت برأسها وهى تقول :

– سأغيب عنك نصف ساعة !

– لماذا نصف ساعة ؟ !

– سأستغرق نصف ساعة فى خلع نظارتى....

وأغلقت قسمت باب الحمام..

* * *

ووقف عادل وسط الغرفة يحمل البيجاما فى يده، وهو لا يتحرك من مكانه !

لقد غيرت قسمت الغرفة.. منذ لحظات كان يملأ هذه الغرفة جو ثقيل..

كان يشعر منذ بضع دقائق أنه رجل مسحوق مستسلم، مقهور، حفنة من تراب بقايا رجل !

وإذا به يرى جسمه ينتصب من جديد . كأنه خلع قناع المهزوم، ووضع على وجهه قناع المنتصر... كأن جثة عشقه للأميرة فضيلة اختفت فجأة من غرفته. وتحول الموت إلى حياة جديدة !

وبدا يخلع ملابسه، ويرتدى البيجاما الجديدة..

ونظر إلى المرأة، ودهش عندما رأى كتفيه المنحنيتين انتصبتا فجأة، ورأى عينيه اللتين أضناهما السهر عاد إليهما البريق.

عجبا ! استطاعت هذه المرأة الدمية، الرثة الثياب، أن تبعثه من جديد على قيد الحياة، كأن هذه المرأة غسلته بكلمة واحدة.. لم تذكر إلا أن الليلة هي ليلة زفافها !

قالت هذه الكلمة بلهجة ساحرة، صوتها الناعم أضفى جمالا على وجهها الكئيب، إن صوت المرأة يغير ملامحها، يعمى عيوننا فلا ترى إلا جمال هذا الصوت وما فيه من رقة وسحر ونعومة تنسينا حتى لون بشرتها !

وانفتح باب الحمام..

ولم تدخل قسمت شاهين.. دخلت امرأة أخرى..!

لا... مستحيل أن تكون هذه قسمت شاهين !

وتراجع عادل إلى الخلف مبهورا .. رأى امرأة رائعة الجمال تدخل في قميص نوم أزرق شفاف، وقد أسدلت شعرها الجميل على كتفها.

رأى عينين لم ير أجمل منهما في حياته.

عينين ناعستين حالمتين واسعتين غارقتين في كحل أسود بخط عريض
حول العينين على الجفنين الأعلى والأسفل.

رأى ظلالا ساحرة حول العينين، اللون الأبيض على الجفن الأعلى،
والأخضر على المنطقة تحت الحواجب!

ماذا فعلت هذه المرأة حتى جعلت عينيها بكل هذه الفتنة والسحر
والاغراء؟ إن كل ما في عينيها جميل.. الحواجب، الرموش، لون العينين،
لمعانهما العجيب.

ونظر إلى شفتيها!

ورأى فما مكتنزا رسمت حدوده بالقلم الأحمر الداكن..

لم تكن امرأة، وإنما كانت الجمال مجسما!

كيف استطاعت أن تخفى هذا القوام الجميل خلف ملابسها الرثة؟

إنه يرى صدرها لأول مرة.. صدرا بارزا، كفاكهة شهية تدعو الأيدي إلى
اقتطافها!

ثم يرى ساقيهما وكأنهما منحوتتان بأصابع فنان تخصص في رسم
السيقان المثيرة للنساء!

ولم يفتح عادل فمه. أخرسته الدهشة. كل ما فعله أنه عض على شفتيه،
وكانه يندم على الأيام التي مضت دون أن يستمتع بكل هذا الجمال!

ومالت قسمت برأسها إلى الخلف وقالت:

— يظهر أنني لم أعجبك؟!

- إننى لا أصدق عينى !
- هل تفضلنى بالنظارة ؟
- إننى سأحطم هذه النظارة !
- لن تحطمها... لو حطمتها فكأنك حطمتنى !
- لماذا ؟
- لأننى سأعود إلى النظارة !
- مستحيل !
- المستحيل أن يرانى الناس بغير هذه النظارة !
- لماذا تريد أن تخفى هذا الجمال ؟
- كنت أبحث عن رجل يحبنى لشخصى.. لا لجمالى !
- كنت تعاقبين الرجال !
- كنت أمتحنهم !
- ولكن، ما الذى جعلك تتخفين وراء قناع من الدمامة، وتصرين على أن تضعى نظارة سوداء على عينيك وترتدى ملابس رثة ؟
- أمى !
- أمك هى التى طلبت منك أن تفعلى ذلك ؟
- كانت أمى جميلة جدا... وكان أبى يعبدها.. ثم احترق وجهها فشوها، وبدأ أبى يخونها.. ولم تحتمل هذه الحياة، فانتحرت !

— ومن قال لك هذا؟

— قرأت مذكراتها!

— ولهذا قررت أن تشوهى نفسك!

— لكيلا يحدث لى ما حدث لأمى!

— ولهذا كرهت كل الرجال؟!

— نعم!

— إنك تعذبين نفسك عندما تحبسين كل هذا الجمال داخل قناع كئيب!

— أنا لا أعذب نفسى... إنما أعذب الرجال!

* * *

قال عادل وهو يعانقها:

— هل أنت سعيدة؟

قالت قسمت:

— إننى لم أولد إلا الليلة!

— أما أنا فمازلت أتصور أننى أحلم!

— كل ما أتمناه أن أجعل هذا أطول حلم فى حياتى!

— سوف يصبح حلمى الوحيد!

— لا أصدق، الرجال يحلمون كثيرا. أما المرأة فإنها تحلم مرة واحدة فى

حياتها!

– كانت أحلامى كابوسا !

– ولكن لى شرطاً !

– هذا هو عيب النساء.. ينتهزن اللحظة التى يكون فيها الرجل مخدرا
ليملين شروطهن !

– يقولون إن العناق هو خير مناسبة لاملأء الشروط !

– أعرف شروطك مقدما وموافق عليها !

– أنت لا تعرف شروطى !

– أنا أعرفها جيدا !

– ما هى ؟

– أن أقطع علاقتى بالأميرة فضيلة !

– لا...

– أن أقطع علاقتى بكل النساء.

– لا..

– إذن ما هى شروطك ؟

– أن تستمر فى علاقتك بالأميرة فضيلة ويسائر النساء !

الفصل العشرون

كان عم عبده جالسا في زنزانته يقرأ في جريدة (الصباح) أخبار الحرب. اعتاد منذ دخوله السجن أن يقرأ صحف الصباح في الليل بعد أن يقرأها جميع زملائه المسجونين. لم يكن مهتما بأن يقرأ الصحف في موعد صدورها فهو يرى بصمات يد الرقيب على كل خبر. المصريون أصبحوا كالزوج المخدوم آخر من يعلم ما يجرى فوق أرض بلادهم.

الانجليز منعوا نشر الخرائط حتى لا يعرف المصريون أن الالمان يحتلون جزءا من أرضهم، وأنهم يقتربون من مدينة الاسكندرية. لولا الشاويش إبراهيم الذى يواظب على سماع اذاعة برلين لما عرف عم عبده حقيقة ما يحدث في ميدان القتال. كل ما في الصحف أكاذيب. الصفحة الوحيدة الصادقة في الجريدة هي صفحة الوفيات. وأحيانا تمتد يد الرقيب إلى هذه الصفحة وتحذف منها اسم مكرم عبيد إذا كان المتوفى أحد أقاربه!

وكان عم عبده يقرأ تصريحاً لفهمى بك ويصا وزير الوقاية، يقول فيه إن مدينة القاهرة أصبحت مدينة منيعة، بفضل دفاعها العسكرى ودفاعها المدنى..

وما كاد يصل عم عبده إلى نهاية التصريح الخطير حتى دوت صفارات الانذار. وأسرع يطفىء النور.. وسمع صيحات ترتفع في داخل العنبر تصيح «اقفل النور يا ابن الكلب»!

ثم سمع صوت انفجارات متتالية. وأحس بأن الزنزانة تهتز. وتوالت طلقات المدافع.. وأطل عم عبده من نافذة الزنزانة فرأى أنوار المصابيح الكاشفة يجرى شعاعها في السماء خلف طائرة، والحائرة تحاورها وتداورها، والاشعة البيضاء حائرة تتجه إلى اليمين وإلى اليسار كأنها طفل وضع على عينيه عصابة سوداء، ويلعب لعبة الاختفاء في السماء!

وسمع صوتاً يرتفع من الطابق الأول يقول:

— يارب طريقها يارب!

وصاح آخر:

— اجعل عاليها سافلها!

وصاح ثالث:

— جاء الفرج يا أولاد!

وابتسم عم عبده.. هؤلاء التعساء يرون الوسيلة الوحيدة للخلاص مما هم فيه أن يهدم كل شيء يتصورون أن قنابل الألمان سوف تفتح لهم أبواب السجن.

واستمر الدوى. ونظر إلى قضبان نافذة الزنزانة فبدت في الظلام كسيوف مضيئة. البريق يملأ الأفق، إنه بريق طلقات المدافع المضادة. السماء تتلون بألوان بيضاء وحمراء، مسجون يصرخ ويقول: قنبلة سقطت فوق السجن!

* * *

ويسمع صوت مفتاح يدور في باب زنزانته، ورأى شبحاً يدخل، وعرف من صوته أنه الصاغ حامد الجزماتى نائب المأمور، سمعه يقول هامسا:

– أخرج بسرعة يا عبده بك !

وأسرع يتبع نائب المأمور. واعتقد أن الانسان في الجزماتى تغلب على الحيوان فيه، وأنه سيفتح الاقفاص التى يقيم فيها المسجونون لينزلوا إلى الدور الأرضى، ولكنه فوجئ بأن الصاغ الجزماتى لم يفتح لمسجون سواه، وسأله هامسا :

– الا تنوى أن تفتح لباقى المسجونين ؟

قال نائب المأمور :

– التعليمات تمنع ذلك !

– ولماذا فتحت لى ؟

– أنت شىء آخر !

– ولكن لو وقعت قنبلة على السجن وشبت النار، فسوف يحترق هؤلاء الالوف فى زنازينهم !

– هذا شىء لا يهم المصلحة. كل ما يهمها إلا يهربوا.

– يموتون، ولا يهربون !

– هذه هى الأوامر !

واجتاحت السجن هزة عنيفة. واهتز السلم الحديدى الذى ينزل عليه عم عبده خلف نائب المأمور. وخيل اليه أن الجدران تهتز، كأن زلزالا عنيفا وقع !

واستند عم عبده إلى الجدار وتوقف..

وجذبه الصاغ الجزماتى من يده وقال :

— أسرع .. قد ينهدم السجن !

— أين سنذهب ؟ إلى المخبأ ؟

— لا .. لا يوجد مخبأ هنا .. سنجلس فى جامع السيدة صفية الموجود فى الطابق الأول .

— وياقى المسجونين ؟

— ما لنا وما لهم ؟

— إنهم زملائى !

— أنت عبده بك .. هم صعاليك !

— أنا صعلوك مثلهم .

— العفو يا عبده بك !

ووصل عم عبده إلى جامع السيدة صفية، ووجد فيه كل الحراس والصولات .. وسمع أحد الصولات وأحد الحراس يتحدثان :

— نحن فى أمان هنا !

— نعم لأن الالمان لا يضربون الجوامع !

— هل هم مسلمون ؟

— هتلر أسلم .. وهذه هى تعليماته للطيارين .. لم يحدث مرة واحدة أن أصابت قنبلة مسجدا من المساجد !

- لعلها بركات الأولياء المدفونين في المساجد !
- أخطأ مرة طيار ألماني وألقى صاروخا على جامع سيدى العباس .. فما كان من سيدى العباس ألا أن أخرج يده من الضريح وأبعد الصاروخ .. وعندما سمع هتلر بما فعله الطيار الألماني أعدمه رميا بالرصاص !
- وتدخل عم عبده في الحديث وقال للصول .
- هل أنت متأكد أن القنابل لا تصيب المسجد .
- متأكد مائة في المائة !
- إذن لماذا لا تجيء بالمسجونين وتضعهم في المسجد ؟
- هؤلاء مجرمون !
- هل هم محكوم عليهم بالاعدام ؟
- لا ..
- إذن لماذا تدعونهم يموتون في زنازينهم، وتختفون وحدكم في مسجد السيدة صفية .
- لاننا الحكومة !
- تعيش الحكومة ويموت الشعب ؟
- هؤلاء ليسوا من الشعب، إنهم مجرمون !
- مجرمون من الشعب !
- نعم .. ولكن المحكوم عليه يفقد كل حقوقه !

— حتى حقه في الحياة!

— حقه في أن يذهب إلى المخبأ.. لو كانت الحكومة ترى أن من حق المسجونين أن يلجأوا إلى المخبأ لبنت لهم في السجن مخبأ.. ومادامت لم تنشئ لهم مخبأ فمعنى ذلك أنها ترى أن لا مانع من أن تسقط عليهم القنابل ويموتوا!

وتضاعف دوى المدافع..

وتعالى صراخ المسجونين داخل زناناتهم.

وقال الصول ل أحد الحراس:

— اذهب إليهم وقل لهم إن أى واحد منهم سيفتح فمه سوف نجلده غدا!

قال عم عبده ساخرا:

— قد لا يجيء الغد أبدا.. قد تسقط قنبلة الآن علينا وتتولى جلدنا جميعا!

وارتعش الصول وكأنه رأى الموت يقترب من عنقه لأول مرة، وخشى إذا مات أن يحاسبه الملكان على أمره بجلد المسجونين فقال للحارس:

— لا داعى لأن تذهب وتهدرهم الآن!

وأقبل الصاغ حامد الجزماتى وجلس إلى جوار عم عبده وقال له هامسا:

— يظهر أن الالمان سيدخلون القاهرة الليلة؟.. إن هذا الهجوم الجوى هو تمهيد لدخولهم العاصمة سيدخلون الليلة، وستصبح أنت وزيرا غدا. لا تنس وعدك لى بتعيينى مأمورا لسجن الاستئناف!

– أنت تفكر الآن في الترقية.. وأنا أفكر هل ستسقط علينا قنبلة أم لا

– لن تسقط علينا قنبلة !

– لاننا في مسجد السيدة صفية !

– لا.. لأن الالمان يعرفون بالطبع أنك هنا.. ولا يمكن أن يلقوا قنبلة على صديقهم !

– أنا صديقهم؟

– سعادة المأمور قال إنك صديق شخصي لهتلر!

– وكيف عرف ذلك؟

– إنه قرأ المنشور الذي هاجمت فيه الانجليز!

– وهل من يهاجم الانجليز يصبح صديقا لهتلر؟

– هكذا قالت النيابة!

– هل تحب الانجليز؟

– أحبهم ماداموا يحكموننا.. وأكرهم عندما يخرجون من بلادنا!

– أليس لك رأى؟

– أنا موظف!

– وهل الموظف يخلع رأيه على باب الوظيفة؟

– القانون المالى ينص على هذا

– عندما يدخل الالمان سوف تصبح نصيرا للالمان؟

- من يتزوج أمى أقول له يا عمى !
- لابد أن تكون أمهاتنا من الغوانى.. لكثرة عدد الغزاة الذين دخلوا بلادنا !
- هذا مثل شعبي !
- إنه مثل أطلقه العبيد ليعتذروا به عن عبوديتهم واستخذائهم !
- إننى عبد المأمور !
- وماذا سيحدث لك إذا سقطت الآن قنبلة على السجن وقتلت ألف مسجون، لانك تركتهم مقفلا عليهم داخل الزنازين !
- لن يحدث شيء ! كل ما سوف يحدث أن مدير المصلحة سيجيء ويحصى عدد الجثث، فإذا وجدها مطابقة لعدد التمام فسيهنئنى !
- على أنك قتلت ألف مسجون !
- لا.. سيهنئنى على أن أحدا منهم لم يهرب من السجن !
- هل هذا هو ما تعلمته من الانسانية ؟
- هذا ما تنص عليه تعليمات المصلحة !
- أن يموت المسجون.. ولا يهرب !
- ألا يحققون معك إذا مات أى مسجون هنا !
- لا، مطلقا.. تقوم الدنيا وتقع إذا هرب مسجون واحد.. ويحرم المأمور من الترقية عدة سنوات.. وربما يرفق من وظيفته !
- وإذا مات ألف مسجون !

– لا يجرى أى تحقيق.. إلا فى حالة واحدة؟

– ما هى هذه الحالة؟

– إذا مات وكان فى ذمته عهدة لم يسملها!

* * *

دخلت الانوار الكاشفة غرفة نوم عادل من النافذة المفتوحة كأنها بوليس
الآداب يضبط عاشقين فى الطريق العام!

وأضاءت الانوار الغرفة وكانت قسمت بين ذراعى عادل يتبادلان الحب..
وفتحت قسمت عينيها المغمضتين

وسمع العاشقان صوت مراقب الوقاية يصيح من الدور الارضى
– اقفل النور!

وقال عادل:

– لماذا تخالفين تعليمات مصلحة الوقاية وتضيئين النور؟

– اننى لم أضيء النور!

– انك فتحت عينيك.. فخرج منهما النور!

– هل تريد منى أن أضع نظارتى على عيني أثناء الغارة؟

– اننا مجانين حقا لاننا فضلنا أن نبقى فى غرفتنا على أن نذهب
للمخبأ!

– لأنك أنت مخبئى الوحيد!

- وماذا سيقولون عنا إذا سقطت علينا قنبلة الآن؟
- سيقولون مات فيها.. وماتت فيه!
- ستكون فضيحة لرب السماء!
- لا تهمنى الفضيحة.. مدمت لن أسمعها!
- إنها أول مرة في حياتي أبقى فيها مع امرأة أثناء دوى القنابل واطلاق المدافع!
- أنا لم أسمع القنابل وأنا بين ذراعيك.. لم أسمع إلا دقات قلبك!
- لم تكن هذه دقات قلبي.. كانت صفارة الانذار!
- عندما أكون معك لا أسمع إلا صوتك.. ولا أرى سواك!
- ألم تشعرى بالخوف؟
- لم أشعر بالامان.. إلا في تلك اللحظات!
- ألم تفكرى في الموت؟
- فكرت في الحياة!
- إن أعصابك قوية!
- حبي.. أقوى من أعصابى!
- إنها ليلة جميلة فعلا. السماء صافية والقمر بدر، إنها ليلة للحب.
- يظهر أن ليالى الحب هى ليالى الحرب.. ألم تلاحظ أن الطائرات الألمانية لا تجيء لنا إلا في الليالى الصافية الجميلة؟

- لعلمهم يقصدون أن يعكروا ليالى العشاق!
- ربما يكون العشاق جميعا مثلنا!
- لا أتصور أن العشاق فى هذه الليلة يفضلون البيوت على المخبأ!
- لو عرفوا الحب كما عرفناه.. لما فكروا فى المخابىء!
- حالة الجنون!
- الحالة التى يسمع العاشق فيها دقات قلب من يحب، وتعلو على صوت المدافع ودوى القنابل!
- سوف أبقى أذكر هذه الليلة طوال حياتى!
- وستقول إننى أكبر مجنونة عرفتها!
- سأقول إنك ألد امرأة عرفتها!

* * *

ودوت صفارات الامان..

وأضاء عادل المصباح الكهربائى الذى بجواره، ورأى عينى قسمت
الحالمتين، وصدرها الجرىء، وبشرتها اللامعة. وضمها إلى صدره وهو
يقول:

- أنت رائعة فى الظلام، ورائعة فى النور.. رائعة فى كل وقت!

- حتى بالنظارة؟

- أعوذ بالله، لاتذكرينى بالنظارة!

– ولكنك قلت لى إنك أحببتنى وأنا بالنظارة؟

– كنت فدائيا !

– إذن لن تصافحنى إذا رأيتنى بالنظارة !

– أصفحك، ولكنى لا أقبلك.. إننى أتمنى أن تتركى هذه النظارة إلى
الابد..

– لقد وعدتك بأن أخلعها معك فقط.. وأنا أخلعها وأنا (الآنسة كاف)
وأضعها على عيني وأنا (قسمت شاهين). لا أريد أن يعرف (الآنسة كاف)
إلا رجل واحد هو أنت ! أما قسمت فهى لكل الناس !

– ولكن مأمور سجن الاستئناف يسميك (الآنسة كاف) !

– اننى معك (كاف) أخرى ! إننى سعيدة بأن أعيش بشخصيتين،
شخصية لك وشخصية للعالم كله.. معك الحبيبة، ومع الناس العدو، عدوة
كل الرجال ! معك الحبيبة ومعهم الطاهرة ! معك المرأة ومعهم سكرتيرة
مجلس إدارة ملجأ المتسولين !

– ولكنى أتمنى أن يراك الناس جميلة كما أنت فى الحقيقة !

– سأكون للناس بالنظارة وبالثوب المحتشم.. وسأكون لك بلا نظارة
وبلا ثياب، لا أريد أن يرانى كما أنا إلا الرجل الذى أحبه !

– ولكنى أريد أن أصحبك إلى كل مكان، أن أرقص معك فى شبرد.. أن
أتعشى معك فى سميراميس.. أن نذهب معا لنسهر فى الاوبرج !

– أنا لا أريد أن أراك إلا هنا.. فى هذه الشقة !

– ولا تخرجين معى !

– يمكنك أن تخرج مع الأميرة فضيلة !

– ولكنى لا أريد أن أخرج إلا معك !

– إننى أريد أن أكون ما بسك الداخلية، لا ملابسك الخارجية.. ملابسك الداخلية هى التى تلتصق بجلدك.. أما ملابسك الخارجية فللناس جميعا !

– أن الذى يعشق انسانا يحب أن يكون معه فى كل مكان !

– ولكنى أحبك وأنت وحدك. لا أشعر برغبة فى أن استعرض حبنى أمام الناس. لا يهمنى أن يقولوا إن عادل علاء الدين يحب قسمت شاهين إننى أريد الباب الخلفى لقلبك، وأترك لغيرى الباب الامامى !

– أنت امرأة غريبة. أمنية كل امرأة أن تحمل اسم الرجل الذى تحبه. أن تظهر بجانبه أمام العالم. هناك نساء كثيرات يتحملن خيانة أزواجهن فى سبيل أن يحتفظن بالمظاهر يرضين ألا يأخذن من الرجل إلا اسمه، تاركات ما بقى منه لنساء أخريات.

– ولكننى اختلف عن كل امرأة أخرى. لو كنت مثل كل امرأة أخرى لما وضعت هذه النظارة السوداء على عيني طوال هذه السنين. أريد رجلى من داخله لا من خارجه !

– ولكنى أريدك من الداخل والخارج معا !

– أنت أشبه بالرجل الذى يأكل الموز بقشره ! أنا أريد ثمرة الموز نفسها.. وأرمى قشرة الموز للناس !

– ليتزحلقوا فيها !

– لا أقصد ذلك ! وإنما أنا أجد لذة فى أن احتفظ بسعادتى لنفسى.. هناك

من يملك مليون جنيه ويمشى فى الشوارع يعلن أنه يملك مليون جنيه، ويكتب فى الصحف أنه يملك مليون جنيه. وإذا قابل غريباً قدم نفسه بقوله : أنا المليونير فلان.. وهناك من يملك مليون جنيه، ويستمتع بها دون أن يعلن للناس أنه مالك الملايين. توجد نساء يرتدين ملابس أنيقة ليغظن السيدات الأخريات لا لتستمتع هى بالثوب وبجماله.. توجد نساء يتعطرن ليشم الناس عبيرهن لا ليستمتعن بهذا العبير. أنا متعنى أن ارتدى الثوب لنفسى، واتعطر لنفسى، وأحب لنفسى!

— تخافين حسد المحرومين!

— أنا لا أومن بالحسد. أنا أخاف أن أجرح إحساس المحرومين. أن يعرفوا أنني سعيدة وهم أشقياء. أن يرونى غنية وهم فقراء. أن يشهدونى اتبخر فى أغلى الملابس وهم شبه عرايا.. أن يلمسوا هنائى فى الحب وهم محرومون من نعمة الحب!

— وإذا ابتليتكم بالمعاصى فاستتروا

— وإذا أنعم الله عليكم بنعمة فاستتروا أكثر!

— بالعكس.. وأما بنعمة ربك فحدث..

— إننى أتحدث بنعمة الله مع الرجل الذى أحبه.. ولكنى أعطى دائماً عذراً للطبيعة البشرية! إننى موضع سر نساء كثيرات لانهن يعتقدن اننى امرأة دميمة لاحظ لها مع الرجل. ولو عرفت أى واحدة منهن أن فى مسحة من جمال لما وثقت بى واحدة منهن! لهذا أعرف كيف تستقبل سيدات المجتمع نبأ أن واحدة منهن سعيدة فى حبها! مثل هذا النبأ يحول السيدات إلى حيات كل واحدة منهن تريد أن تقتل بسمها العاشقة السعيدة! كل

واحدة منهن تشتري سكيناً لتغمده في المرأة السعيدة أو في الرجل السعيد !
كل منهن تطلق الاشاعات والأكاذيب على هذا الحب.. فإذا لم يمت مقتولا
بالسكاكين مات مختنقا بغازات الاكاذيب الخانقة !

— ان رأيك سيئ في نساء المجتمع !

— لأننى أعرفهن جيداً !

— إذن أنت تعيشين بينهن متنكرة خلف نظارتك السوداء لتخدعيهن !

— أنا لا أخدعهن بدمامتى... أنا أسعدهن بهذه الدمامة ! أنا الآن امرأة
خفيفة على قلوبهن جميعاً.. أنا خارج المباراة ! لا أنافس أى امرأة أخرى !
أى امرأة تستطيع ان تأتمنى على حبيبها أو زوجها ! لولا ذلك لما ائتمنتنى
اميرة عبد العاطى عليك !!

— ماذا تفعل أميرة لو عرفت أننى أحبك ؟ .

— سأصبح أشبه (بالتشلكتس) في فم المجتمع ! كل امرأة منهن ستمضغ
سمعتى، ستلوث اسمى.. ستطلبك نساء في التليفون، وستقول لك كل واحدة
ان قسمت شاهين كانت عشيقة فلان، وهى الآن تخونك مع علان ! لن تصدق
في بداية الامر، ولكن الطرق المستمر على الباب يفتح الباب.. سوف تشك
فى.. وفى الوقت نفسه ستتصل بى صديقات لى، وتروى كل صديقة حكاية
عنك.. وسوف أبدأ أشك فيك... وهكذا يموت الحب !

— ماذا تفعل أميرة لو عرفت إننى أحبك إلى هذه الدرجة ؟

— الحب يجعل عقول العشاق فارغة ! الحب يحولنا إلى اطفال نصدق كل

شئ !

— الحب ثقة !

– إلى ان تضع الناس أنوفهم فيه.. الحب هو جرح مفتوح في القلب..
وكثرة الايدي التي تعبت بالجرح تسممه.. حتى ولو كانت هذه الايدي أيدي
الاطباء!

– إذن تريدان إخفاء حبنا!

– كما أخفى مجوهراتي! أنا اضعها في البنك، ولا أترين بها أبدا!

– لآنك تخشين اللصوص!

– أخشى اللصوص.. وأخشى ان أعذب الناس بسعادتي!

– ولهذا ستبقين أمام الناس جميعاً عدوة الرجال!

– ومعك سأكون حبيبة الرجال.. كل الرجال.. لأنني أرى أنك انت وحدك
كل الرجال!

– ولكني أخشى عليك أن تتعبي من هذا التمثيل!

– أنا لا أمثل هذه هي طبيعتي إنني لم أشعر أنني امرأة الا معك وحدك
ولا أشعر بهذا الشعور أمام أي انسان آخر.. لا رجل.. ولا امرأة!

– وبهذه الطريقة تحافظين على سمعتك!

– إنني أحافظ على سمعتك أنت! سوف تفقد سمعتك كدون جوان وزنبر
النساء وكازانوفاً اذا عرفت النساء عنك أنك عشيق قسمت شاهين، المرأة
الدميمة رثة الثياب، صاحبة النظارة السوداء!

– إنني زهدت في حياتي كزنبر نساء: لأول مرة في حياتي أشعر أن
سعادتي في امرأة واحدة!

– إننى امرأتان فى امرأة واحدة. «الآنسة كاف» .. «وقسمت شاهين» !

– سأحتمل قسمت من أجل الآنسة كاف !

– نصفى شوك.. ونصفى ورد ! !

– لا ورد بلا شوك !

– ولكننى مصممة على أن تمضى فى حياتك.. أن ترى الاميرة فضيلة كما كنت تراها.

– لم أعد أستطيع !

– يجب ان تستمر فى علاقتك بها !

– إننى فى دهشة من أن تقول امرأة لرجل تحبه أنها تريده أن يكون على علاقة بامرأة اخرى !

– إننى أفل أن تراها بموافقتى. على أن تراها من وراء ظهرى !

– لقد حاولت الاميرة أن تتصل بى عدة مرات وكنت أهرب منها.. وكذلك اتصل بى زوجها معروف باشا وهربت منه !

– لا تهمنى أخبارها !

– غريبة ! ألا تشعرين بالغيرة منها ؟

– لا أشعر بوجودها !

– ولكنها تغار منك !

– إن من حقها أن تغار منى.

– لماذا !

– لأننى أخذتك منها.. وهى لم تأخذك منى !

– إن المرأة تغار من كل امرأة قبلها.

– لا.. بل من كل امرأة بعدها !

– إن أم كلثوم لها أغنية تقول فيها على لسان الشاعر احمد رامى « غاير من اللى قبلى.. حتى ولو كنت جاهلة » !

– لو طبقت عليك هذه القاعدة يا عادل لوجب على أن أغار من نساء مصر جميعا !

ان رأيك سيئ جدا.. انت تتصورين اننى عشقت نساء مصر كلها !

– إن رأى فى النساء سيئ جدا !

– لأن ذوقهن سيئ !

– لأن ذوقهن مثل ذوقى ! سوء حظى إننى أحببت رجلا تحبه كل النساء !

– ومع ذلك تقولين إنك لا تشعرين بالغيرة ؟ ما رأيك أننى أغار عليك !

– مادامت هذه النظارة السوداء على عيني.. فسوف تحمينى من الرجال ! إننى أصبح بفضلها فوق مستوى الشبهات !

– الرجل لا يغار من الرجال فقط ! انما يغار على المرأة التى يحبها من كل شىء.. من عملها الذى يأخذ بعض وقتها، من صديقاتها اللواتى تأتمنهن على أسرارها من المرأة التى تطيل الوقوف أمامها أكثر مما تطيله فى وجه حبيبها، من الثوب الذى يلتصق بجسدها !

– من النظارة؟

– ومن النظارة أيضا.. كنت أفضل أن أتولى أنا حمايتك بدلا من هذه النظارة!

– إنك لا تستطيع أن تحمينى من ألسنة الناس.. ولكن هذه النظارة السوداء تحمينى من ألسنتهم السوداء!

– وماذا يخيفك من ألسنة الناس؟

– سمومها.

– ما من سيدة محترمة في هذا البلد إلا وتناولتها ألسنة الناس بالحق وبالباطل!

– الألسنة تذبج كما تذبج السيوف!

– الألسنة أشبه بالغبار. ترتفع ثم تهبط على الأرض وتداس بالاقدام!

– ولكن الغبار يترك أثرا.. الماء فوق الغبار يحوله إلى طين!

– دموعنا هي التي تحول هذا الغبار إلى طين! لولا اهتمامنا بهذه الألسنة لما تحول التراب إلى طين! الألسنة لم تحول القديسة إلى فاجرة، ولا الشيطانة إلى ملاك!

– إننا في الشرق نحسب حسابا كبيرا لألسنة الناس!

– إننا نخاف من ألسنة الناس أكثر مما نخاف من الله! ولهذا نشأت كل تقاليد مجتمعنا رعبا من ألسنة الناس!

– ربما ألسنتنا في مصر أحد من ألسنة الناس في البلاد الأخرى.

– الألسنة واحدة في كل الافواه! طول اللسان في مصر مثل طوله في انجلترا أو فرنسا أو سويسرا أو السويد أو النرويج. ولكننا نحن نشجع الألسنة بخوفنا منها، نجعل لهذه الألسنة قوة القانون وسلطة الآلهة!
– إننا فعلا جعلنا من ألسنة الناس ضمائرنا التي نخشاها!

– نحن نفعل كل ما يفعله غيرنا في البلاد الأخرى، مع فارق واحد. هم يضيئون النور ونحن نطفىء النور.. هم يتكلمون بصوت عالٍ ونحن نهمس بنفس الكلمات.. إن الطبيعة الانسانية واحدة في كل مكان.

– ربما خوفنا من ألسنة الناس هو الذى يجعلنا نتردد في ارتكاب الخطايا!

– الظلام هو الذى يشجع على الجريمة. الخطايا في الظلام أكثر من الخطايا في النور.. إن المرأة في بلادنا تخاف أن تمشى مع رجل غريب في الشارع، ولا تخاف أن تنام بجواره في فراش في غرفة مغلقة الأبواب.. نحن لا نخاف الله.. ولا نخاف القانون.. ولا نخاف ضمائرنا. وانما نخاف ألسنة الناس!

– إننى أتمنى أن أعيش في مجتمع بلا ألسنة!
– هذا ما يريده الطفلة. هذا هو نظام دكتاتورية هتلر وموسوليني، نظام قطع ألسنة الناس!

– هل الناس في ايطاليا وألمانيا لا يتكلمون؟
– انهم يخافون من الكلام!
– ولكن المحور استطاع بقطع ألسنة الناس أن يكسب الحرب!

– لن يكسب الحرب !

– الناس يؤكدون أن جيوش المحور ستدخل القاهرة غدا.

– لن يكسب المحور الحرب.. حتى ولو دخلت جيوشه القاهرة !

– من الذى سيكسب الحرب ؟

– الشعوب الحرة..

– هل لديك أخبار خاصة ؟

– لا.. إنها نظرية هندسية. الشعوب المقيدة لا يمكن ان تهزم الشعوب الحرة ! الطاقة المقيدة لا تهزم الطاقة المنطلقة. قد تكسب الدكتاتورية معركة ومائة معركة، ولكن النازيين لا يمكن أن يكسبوا الحرب !

– ولكن النازيين ينتصرون في كل مكان، في روسيا، في البلقان، في أوروبا وفي افريقيا.

– ولكنهم سينهزمون في بلادهم !

– إن جيوش الدكتاتورية أقوى من جيوش الديمقراطية !

– ليكن.. ومع ذلك فسيكون النصر للديموقراطية..

– كيف تنتصر الديمقراطية وهي مهزومة في كل معركة !

– إنها تنتصر دائما في المعركة الحاسمة.. المعركة الاخيرة !

– كنت أتمنى هزيمة الانجليز !

– سوف يكسب الانجليز الحرب !

– لو كسبوا الحرب فستكون مصيبة كبرى على مصر.

– لماذا؟

– لاننا يومئذ لن نستطيع أن نطرد المنتصرين من بلادنا!

– اننا ثرنا على الانجليز يوم أن انتصروا في الحرب العالمية الاولى! يوم خرجت بريطانيا أقوى دولة في العالم! الامبراطورية التي لا تغرب الشمس عن أملاكها. سيدة البحار! أعلن النصر البريطاني يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ وبدأت ثورة مصر على المنتصرين يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٨.. بعد النصر العظيم بثمان واربعين ساعة كانت مصر أول أمة في العالم ثارت على بريطانيا عقب انتصارها العظيم!

– ولهذا تريد أن ينتصر الانجليز في هذه الحرب لنثور عليهم!

– نعم، لأن شعبنا لا يعرف أن يثور.. إلا على الأقوياء! هذه صفة غريبة يمتاز بها شعبنا إنه لا ينقض على مهزوم! هو نوع من الكبرياء غريب. هذا الشعب مثلاً ثار على نابليون في جبروته، وخضع في أثناء الحرب العالمية الاولى أمام جنرال بريطاني هلفوت اسمه الجنرال ماكسويل! أعلن الانجليز يومها الحماية البريطانية علينا فلم نتحرك خلعوا الخديو ولم نتحرك أوقفوا الجمعية التشريعية التي كانت أشبه ببرلمان صغير فلم نغضب نهبوا مزرعاتنا واستولوا على ماشيتنا، وسخروا شبابنا في ميادين القتال بغير أن نفتح أفواهنا!

ألم نفعل أى شئ ضد الجنرال ماكسويل قائد القوات البريطانية الذى أذل بلادنا كل هذا الذل؟

— لا شيء أبدا.. الا أن احمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى الحالى، كان شابا فى تلك الأيام واستطاع أن يوقع زوجة الجنرال ماكسويل فى شباكه، وعشيقته عشقا جنونيا، وكانت تطارده علنا فى نادى الجزيرة! والشباب المثقفون فى تلك الأيام كانوا سعداء بهذا الغرام.. وتصوروا بعقليتهم التى تعتقد أن الشرف فى العضو التناسلى للمرأة أن الشاب احمد حسنين انتقم لشرفهم جميعا عندما لوث شرف القائد العام لقوات الاحتلال!.. ولكن كل هذا الذل قد تغير فى اليوم الذى انتصرت فيه جيوش بريطانيا وانقض هذا الشعب المستسلم على جيوش الاحتلال! خضعنا لجيش الاحتلال ٣٧ سنة عندما كان عدد القوات البريطانية خمسة آلاف جندي! وثرنا على جيش الاحتلال عندما أصبح عدد قوات الاحتلال مائتى ألف جندي!

— إذن، نحن شعب لا يعرف متى يضرب ضربه، لا نعرف كيف ننتهز الفرصة!

— إننا لا نضرب خصومنا الا وهم واقفون! اذا ركعوا على الارض ركعنا بجوارهم!

— هذه غفلة!

— بعض المؤرخين يسمون هذه الصفة (غفلة). وبعضهم يسمونها فروسية وشهامة.. وبعضهم يسمونها سوء توقيت أو عدم تقدير للعواقب.. وغيرهم يسمونها غرورا.. وأنا اعتقد أننا ورثنا مدنيات كثيرة. مدنيات الدول التى غزت بلادنا عبر التاريخ. حاربناها وورثنا بعض صفاتها. مدنيات كثيرة فيها الغفلة، وفيها الشهامة، فيها التهور، وفيها التردد، فيها الغرور وفيها

عدم الثقة بالنفس، فيها عذوبة النيل وجماله، وفيها عواصف البحر الابيض
وعمق البحر الاحمر فيها نسيم الوادي وفيها أعاصير الصحراء. كل هذا
فينا ! وأحسن ما فينا يظهر عادة في أسوأ أوقاتنا، وأسوأ ما فينا يظهر في
أجمل أوقاتنا !

الفصل .. الواحد والعشرون

دقت الساعة الثامنة صباحا، ولم يفتح الشاويش إبراهيم باب زنزانه عم عبده في سجن الاستئناف! دهش عم عبده. لابد أن الشاويش إبراهيم في أجازة طارئة.. لابد أن الحارس الجديد لا يعرف أن الشاويش إبراهيم اعتاد أن يفتح باب زنزانه عم عبده في الساعة السابعة من صباح كل يوم، قبل أن يفتح باب أى زنزانه أخرى في الطابق الثانى.

كان الشاويش إبراهيم يفعل هذا كل يوم، فإذا كان اليوم التالى، يوم راحته الاسبوعية، نبه على الحارس الجديد بأن تكون زنزانه عم عبده هى أول زنزانه تفتح في الدور.

وكان هذا الامتياز اليومى يبيع لعم عبده أن يخرج من زنزانه، ويذهب إلى الحمام المفتوح للمسجونين، ويستحم على انفراد.. ويغلق عليه الباب، وبذلك يتحول الحمام العام إلى حمام خاص، لا يزاحمه فيه المسجونون الآخرون الذين يهرولون إلى الحمام ويتزاحمون ويتضاربون ويتعاركون لأن كل واحد منهم يريد أن يسبق الآخر إلى دخول دورات المياه القليلة العدد. وعندما كان ينتهى عم عبده من حمامه اليومى ويعود إلى زنزانه كان الشاويش إبراهيم يفتح زنزانات باقى المساجين فيتدافعون إلى الحمام.

ولكن اليوم فقط يسمع عم عبده صرير المفاتيح في أبواب الزنزانات

الأخرى، ويسمع أصوات المسجونين الصاخبة وهى تندفع إلى دورة المياه، ولا يزال باب زنزانته مغلقا بالضبة والمفتاح !

وزادت دهشة عم عبده عندما سمع صوت الشاويش إبراهيم وهو يسب ويصخب، وسباب الشاويش إبراهيم هو السلام الملكى الذى يفتتح به يوم السجن. فيلعن آباء المسجونين وأمهاتهم ، ويهددهم ويتوعددهم بالويل والثبور. وهذه هى طريقته اليومية فى أن يقول للمسجونين : « صباح الخير »... ويعد أن يلعن الشاويش إبراهيم آباء المساجين وأمهاتهم يتجه إلى عم عبده ويقول له : « ألف نهار أبيض يا عم عبده » !.

إذن فالشاويش إبراهيم ليس فى إجازة.. إنه موجود فى السجن ولم يفتح باب زنزانة عم عبده. لابد أن حدثا هاما قد وقع وانسى الشاويش إبراهيم أن يفتح باب زنزانته، وأن يقول لعم عبده : ألف نهار أبيض يا عم عبده بك !

كيف نسيه الشاويش إبراهيم فى ذلك اليوم ؟

وسمع عم عبده صوت الشاويش إبراهيم يصيح « انتباه »... ثم سمع وقع قدميه وهو يهرول إلى ناحية باب زنزانته، ويفتح الباب، ويضرب حذاءه فى الحذاء الآخر ويرفع يده بالتحية العسكرية ويقول : « تمام يا أفندم » !

ثم رأى عم عبده الصاغ الجزماتى نائب المأمور يدخل الزنزانة، وهو متجهم الوجه، حاد النظرات، وفوجئ به يقول فى جفاء :

— الم تسمع كلمة « انتباه » يا مذنّب ؟!

وأعتقد عم عبده أن نائب المأمور يوجه الحديث إلى مسجون آخر.. لم يسبق لنائب المأمور أن ناداه « يا مذنّب » كان دائما لا يناديه الا « يا عبده بك » أو « يا سعادة عبده بك » !

ولم يجد عم عبده في الزنزانة سواه، وسوى نائب المأمور.
وبقى عم عبده جالسا فوق سريره، وقد امتلأ وجهه بالدهشة والاستغراب.
وأذهلته المفاجأة.. فبقى مشلولا في مكانه بغير حراك.
واتجه إليه نائب المأمور، ومد يده نحوه، وجذبه من قميصه بعنف وصرخ
فيه :

— هل أنت أطرش !

— لا.. إننى أسمع جيدا !

— الم تسمع كلمة « انتباه » ؟

— سمعتها.

— لماذا لم تقف ؟ مفروض أن تقف عندما تسمع كلمة « انتباه » وترى
أمامك أحد الضباط !

— إننى مسجون منذ عدة شهور ولم يطلب منى أن أقف عندما أسمع
كلمة « انتباه » !

— كل مذنب يجب أن يقف عندما يسمع كلمة « انتباه » !

— ولكننى لست مذنبا !

— أنت مجرم !

— أنا متهم.. ولم تصدر المحكمة بعد حكمها بإدانتى !

— كل من يدخل السجن مجرم إلى أن تثبت براءته !

— فى كل العالم كل متهم برىء إلى أن تثبت إدانته !

– اخرس.. انت تنتقد قوانين حكومة جلالة الملك !

فوجيء عم عبده بالشاويش إبراهيم يهجم عليه ويقول :

– اخرس يا مجرم !

وتلفت الصاغ حامد الجزماتى حوله فى غضب وصرخ :

– من هو الحمار الذى سمح لهذا المسجون بأن تكون فى زنزانته مائدة؟
وكرسى؟ وسرير؟.

وكاد عم عبده يرد عليه ويقول له : ان الحمار الذى أصدر هذه الاوامر هو
سعادتك.. ولكنه أمسك لسانه عندما رأى الشرر يتطاير من عيني نائب
المأمور :

وقال الشاويش إبراهيم :

– إنها غلطتى يا أفندم !

وصرخ نائب المأمور فى غضب :

– غلطتك؟ إنها ليست غلطة ! إنها جريمة ! إنها مخالفة صريحة. الاوامر
والتعليمات ! سوف اثبتك فى دفتر البلاغات ! سوف احبسك ! سوف أخرب
بيتك !

– لن تتكرر هذه الغلطة مرة أخرى !

– إن هذه المخالفة عقوبتها الجلد.. ألا تعرف القوانين العسكرية
يا حماز؟

– أعرفها يا أفندم !

وذهل عم عبده! كيف يعترف الشاويش إبراهيم بجريمة لم يرتكبها. كيف يقبل أن يصبح حمارا!.. والمأمور ونائب المأمور هما اللذان أمرا بالسرير والمائدة والكرسي!

إن من قواعد النظام في السجون الطاعة التامة. فإذا قال رئيسك أنك حمار، فأنت حمار فعلا، وواجبك أن تركب ذيلا في مؤخرتك وأن تنهق كما يفعل الحمار، فإذا اعترضت على هذا فهو مخالفة للضبط والربط! وهو تطاول على مقام الرؤساء، وهو عصيان عن تنفيذ الأوامر!

وعاد نائب المأمور يصرخ ويقول للشاويش إبراهيم:

— ألا تعلم أن هذا المذنب ليس من حقه أن يكون في زنزانته لا سرير ولا كرسي ولا مائدة؟

— المتهمون تحت التحقيق مباح لهم هذه الأشياء!

— أنا قلت إن هذا ليس من حقه!

— إذن، فهذا ليس من حقه!

— لماذا تقف كالحمار؟! تحرك! نفذ التعليمات!

— سوف نخرج السرير والمائدة والكرسي من الزنزانة فوراً!

ثم تلفت نائب المأمور حوله، ووقعت عيناه على المبراة المعلقة على الجدار فصرخ وكأنما لدغته أفعى:

— ومراة أيضا؟ والله عال!..

إن هذا لم يعد سجنًا.. إنه أصبح فندق شبرد.. اسحب هذه المراءة فوراً يا شاويش!

— أمرك يا أفندم !

ومد الشاويش إبراهيم يده ونزع المرأة من الحائط..

ولم يفتح عم عبده فمه.. حملت عيناه الصغيرتان في وجه الصاغ حامد الجزماتى.. كان يبحث في وجهه عن حمرة الخجل، فلم يجد لها أثرا.. إن الصاغ حامد الجزماتى هو الذى حمل له هذه المرأة. وهو الذى ثبتها بيديه فوق الحائط. وهو الذى غضب لان الزنزانة ليس فيها مرآة تليق بمكانة عبده بك. وهو نفسه الذى يغضب الآن لوجود المرأة، وهو الذى يأمر بنزعها من الحائط. وراح الصاغ الجزماتى يصيح :

— هذه فوضى ! هذه ممنوعات ! هذه مخالفة صريحة للائحة ! هذا خروج على القانون ! أنا لا يمكن أن اتسامح في أى عدوان على القانون ! لابد أن أحقق مع المسؤولين ليلقوا جزاء ما صنعت أيديهم !

اندفع إلى داخل الزنزانة عدد من الحراس والمسجونين يفكون السرير، ويحملون أجزاءه، ويحملون الكرسي، والوسادة والمرتبة، والمائدة، وحوض الغسيل، والرف الخشبي الذى كان يضع عم عبده فوقه الصابونة ويعيئون بملابسه، ويلقونها على الأرض.

كل هذا والصاغ حامد الجزماتى يقف في وسط الزنزانة، وقد وضع يده خلف ظهره، يهدد بالأوامر والتعليمات، وقد اتخذ لنفسه وقفه نابليون بونابرت وهو يقود معركة حربية.

وأدار الصاغ الجزماتى عينيه في الغرفة التى خلّت فجأة من كل شىء وقال :

— هل أخذتم كل شىء ؟

وابتسم عم عبده ساخرا !.

لم يبق في الزنزانة من أثاث سواه وتوقع أن يأمر نائب المأمور بحمله هو الآخر خارج الزنزانة، ولكن نائب المأمور اكتفى بأن خرج وأمر باغلاق باب الزنزانة !

* * *

وجلس عم عبده على الأرض يتأمل غرفته الجرداء في ذهول... لم يبق في الزنزانة أى شيء !

وهز عم عبده رأسه في عجب وراح يفرك عينيه بيده لابد أنه يحلم غير معقول أن يفعل به الرجل الطيب الصاغ حامد الجزماتى كل هذا اليس هو الرجل الذى كان ينحنى على يده ويقبلها كلما رآه !! اليس هو الذى كان يتزلف اليه صباح مساء ويشيد بوطنيته وعبقريته ؟ اليس هو الذى فتح له باب الزنزانة، دون جميع المسجونين، في يوم الغارة الكبيرة على مدينة القاهرة، وقال له إنه تجب المحافظة على حياتك لتكون ذخرا للبلاد ؟ ألم يقل له عند انتهاء الغارة إن حياتك يا عم عبده هي أثمن شيء في هذا الوطن ؟ كيف رخصت حياته فجأة وأصبحت بسعر التراب ؟ كيف تحول فجأة من كنز إلى صفيحة زبالة ؟ كيف هبط فجأة من سعادة عبده بك.. إلى مذنب ومجرم أثيم ؟

لقد ارتفع من قبل من شحاذ إلى بك بلا سبب يدرية، وها هو ذا يهبط من سعادة البك إلى هلفوت بنفس السرعة ! كأن حياته تحولت إلى مصعد يرتفع إلى الطابق الأعلى ثم يهوى به إلى الطابق الأسفل.. وهو لا يعرف من الذى يضغط على الزر، من الذى يعبث به كل هذا العبث !

لقد كان راضيا بمركزه كمتسول .. كان سعيدا بفقره وحرمانه وجوعه .
ولكنه عندما أصبح فجأة موضع الاجلال والاحترام شعر بدهشة في أول
الأمر، ثم تحولت الدهشة إلى رضا، ثم تحول الرضا إلى سعادة..

وعندما هبط فجأة إلى مكانه القديم أحس بتعاسة لم يشعر بها في حياته .
كأن هذه الأيام القليلة التي كان فيها موضع اجلال واحترام هي حياته كلها،
وكأنه نسي فيها عمرا من التسول والتشرد والبؤس والفقر والحرمان !

لقد كان من قبل يجد راحة لا حد لها في النوم فوق الرصيف.. كان
لا يبرد عندما ينام بلا غطاء ولا تغطية إلا رياح الشتاء!.. كان يحس بالريح
كأنها تعبت بجسمه النحيل، وتداعبه.. لم يشعر يوما بأن العواصف
تصفعه.. كان يشعر كأنها تقبله.. ولكنه الآن يفتقد السرير الذي كان ينام
عليه، ويفتقد المرتبة، ويفتقد البطاطين.. بل هو لأول مرة في حياته يشعر
ببرودة الاسفلت!

هل الشهور القليلة التي امضاها فوق السرير وتحت البطاطين جعلت
جسمه حساسا للبرد.. أضعفت مقاومته، هل الشيخوخة لا تجيء للناس
الذين يعيشون في العراء، وانما هي تبحث عن سقف غرفة تعيش تحته؟

في أول الأمر كان عم عبده يضيق بلقب «عبده بك»، يسخر منه، ولكن مع
الأيام التصق به اللقب، وعندما انتزعه نائب المأمور منه أحس كأنه ينتزع
قطعة من جسمه!

وشعر عم عبده بخجل من نفسه.. انه لم يفقد في هذا السجن حرية فقط،
وانما فقد قدرته على المقاومة.. فقد فلسفته!

واستيقظ عم عبده من خواطره على صوت صيحة عالية مدوية تصرخ
« انتباه »..

كانت هذه « الانتباه » أعلى كثيرا من « الانتباه » الأولى التى أعلنت مقدم
نائب المأمور.

لقد علم السجن عم عبده ان درجة الصوت فى كلمة « انتباه » تعنى
درجات المسئولين فى السجن .. تلو وتهبط مع درجات مناصبهم..
« فالانتباه » العالية تعنى قدوم أحد الضباط، و « الانتباه » الصارخة تعنى
نائب المأمور، و « الانتباه » المدوية تعنى البك المأمور أما « الانتباه » التى
تشبه صفارة الانذار بغارة جوية، فهى التى يطلقها الشاويش عند حضور
سعادة مدير مصلحة السجن !

وفهم عم عبده من كلمة « انتباه » المدوية ان البكباشى يوسف البلحاوى
مأمور السجن جاء ليعتذر اليه عن وقاحة نائبه، وقلة أدبه، وليعيد اليه
المائدة والكرسى والسرير!..

وانفرجت أساريره عندما سمع خطوات الشاويش إبراهيم وهو يعدو نحو
باب زنزانته ويفتح الباب..

ودخل المأمور يتبخر..

وقام عم عبده من الأرض ورفع يده بالتحية، وقد تهلل وجهه لوصول
المنقذ المنتظر، ولكن المأمور لم يرد التحية...

ونظر المأمور إلى الشاويش إبراهيم وقال له :

— هل نظفتم الزنزانة

قال الشاويش إبراهيم

— تماما يا أقندم!

وتطلع المأمور بأشمئزاز إلى الجدران وقال:

— إنها ليست نظيفة!

— ننظفها!

— احضر المبيضين فوراً.

— ليبيضوها بالجير!

— لا.. تبيض أولاً بالجير، ثم المصيص، ثم تدهن بالزيت!

— بالزيت؟

— نعم بالزيت!

— والاضاءة في هذه الزنزانة ليست كافية!

— اللمبة قوة ٢٥ شمعة!

— استبدلوها فوراً بقوة مائة شمعة.. والنافذة الخشبية مكسورة!

— نصلحها فوراً!

— لا.. توضع نافذة جديدة هنا حتى لا يدخل منها الهواء!

وتلفت المأمور إلى الغرفة الخالية وقال:

— اريد ان تكون هذه الزنزانة أحسن زنزانة في السجن خلال ساعتين!

— سنجعلها احسن زنزانة!

— لا يكفى أن تكون أحسن زنزانة .. أريدها أن تكون أحسن من غرفة نائب المأمور!.. قولوا لكل النقاشين والمبيضين والنجارين ورجال الكهرياء في السجن أن يتركوا كل الأعمال التى فى أيديهم ويتفرغوا لهذه الغرفة !
— سننفذ أوامرك فى الحال..

— وأريد ان تضعوا هنا سريرا جديدا، ومرتبة جديدة، ووسادة جديدة، وملايات جديدة، وكرسيا جديدا، ومائدة جديدة..
— فورا !

— ولا تنس ان تضع فوق الجدار مرآة مناسبة.. يوجد فى غرفة نائب المأمور مرآة كبيرة انزعها من هناك واحضرها وضعها فوق جدار هذه الزنزانة..

— امرك يا سعادة البك !

واحس عم عبده برغبة فى ان يهجم على البكباشى يوسف البلحاوى مأمور السجن، ويعانقه ويقبله ويحيى فيه نبلة وشهامته ورجولته

ولكنه تملك نفسه واكتفى بأن ينظر إلى المأمور النبيل نظرة تفيض شكرا وعرفانا.. لقد اعاد له المأمور اعتباره.. صان كرامته التى داسها نائب المأمور بقدميه.. عاقب نائب المأمور على وقاحته بان أمر بنزع المرآة التى فى غرفة نائب المأمور. لتوضع فى زنزانة عم عبده الذى نزع منه نائب المأمور المرآة منذ دقائق !

لم يكن عبده يتصور أن المأمور بهذه الرجولة.. كان يعتقد أن المأمور سيكتفى بأن يعيد له المفروشات التى سحبها منه نائب المأمور.. ولكن المأمور الشهم لم يتركه ليشكو، بل بادر باصدار أوامره بطلاء الغرفة

بالزيت، وبتجديد أثاثها، وبتجديد جميع المسجونين الفنيين في السجن للعمل
في إصلاحها وتزيينها!

ورفع عم عبده يده إلى رأسه شاكرا في صمت..

ولكن المأمور النبيل لم يرد على الشكر، كأنه أراد أن يقول لعم عبده:
لا شكر على واجب!

واستنتج عم عبده أن المأمور يقصد أن يتجاهله، لكي يظهر أمام
الحراس بأنه يصدر أوامر رسمية مقصودا بها ادخال تحسينات في غرف
السجن، ولا يقصد أن يرعى باهتمام مسجوننا معيننا بالذات!..

وخرج المأمور من الزنزانة وترك عم عبده سعيدا.. وقد شعر أن المأمور
وضع في قلبه سريرا ومائدة وكرسيا ومرتبة ووسادة!

وشعر عم عبده برغبة في أن يصاهر البلحاوى بك مأمور سجن
الاستئناف، لأم نفسه لأنه تردد في أن يتزوج زينات شقيقة المأمور.. إذا كان
المأمور بهذا النبيل وهذه الأخلاق الفاضلة وهذا الوفاء، فلا بد أن تكون
أخته صورة منه!

لقد أخطأ في الحكم على البلحاوى بك عندما رفض أن يتزوج زينات.
ولكن الذنب ليس ذنبه وحده. إنه سأل قسمت شاهين عندما زارته عن رأيها
في هذا العرض، فحذرت من هذا المأمور. وقالت له إنه رجل انتهازي، وأنه
أراد أن يصاهره اعتقادا منه أنه من كبار أنصار الألمان في مصر، وأنه
سيكون وزيرا عندما يدخل الجيش الألماني مدينة القاهرة. واقتنع عم عبده
برأى قسمت، لأنه يثق في آرائها، وذهب إلى المأمور وقال له إنه لا يفكر في

الزواج وهو مسجون. وكان المفروض أن يغضب المأمور، لكنه لم يغضب، ولم يشأ أن يخلط بين المسائل الشخصية والمسائل العامة وقد أثبت بتصرفه أنه رجل نبيل..

وبدت زينات أمام عيني عم عبده أكثر جمالا !

وسمع عم عبده المفتاح يدور في الباب.. واطل الشاويش ابراهيم برأسه وقال :

— هات نمرتك يا عبده.

عبده؟! ألم يسمع الشاويش ابراهيم ما قاله المأمور؟ ألم يسمع الأوامر التي أصدرها المأمور بأن تكون زنزانته أكثر أناقة من غرفة نائب المأمور؟ كيف يسميه الشاويش ابراهيم « عبده » فقط بعد أن أعاد له المأمور كرامته، واعتذر على رؤوس الاشهاد عن وقاحة نائب المأمور!

وعاد الشاويش ابراهيم يكرر:

— هات نمرتك يا عبده؟

— ليس لي نمرة!

نمرتك.. يعني البطانية!

— لقد أخذتم البطانية!

— يعني ملابسك ! يعني كل شيء لك في الزنزانة!

— لماذا؟

— لأنك نقلت إلى الطابق الرابع؟

— حتى يتم طلاء غرفتي واصلاحها؟

— لا.. نهائيا !

— كيف انقل من غرفتي نهائيا ؟ ألم تسمع بأذنك المأمور يأمر بأحضار النقاشين والمبيضين والكهربائيين والنجارين ؟ ألم تسمع المأمور يأمرك بأحضار أثاث جديد لي ؟

— ليس لك !

— لمن اذن ؟

— لهذه الزنزانة !

— ولكنى أنا صاحب هذه الزنزانة !

— لم تعد صاحبها نقلوك منها !

— نقلنى نائب المأمور !؟

— لا.. نقلك المأمور !

— لا يمكن أن يكون المأمور هو الذى نقلنى : إنه مقلب ضدى دبره نائب المأمور ! لابد أن ذهب الان وابلغ سعادة المأمور أنكم تكسرون أوامره !

— المأمور شخصيا هو الذى أصدر هذا الامر:

— ماذا قال لك ؟

— قال : انقلوا المجرم عبده من زنزانتة إلى الدور الرابع :

— مستحيل أن يقول هذا.. إن هذه زنزانتي !

- إنها لم تعد زنتانتك.. إنه أمر بهذه الاصلاحات من أجل سجين آخر
- من هو هذا السجين؟
- الحاج دعبس أبو نظيرة!
- من هو دعبس هذا؟
- هل يوجد في مصر من لا يعرف الحاج دعبس أبو نظيرة؟
- مسجون سياسى؟
- لا.. أكبر تاجر مخدرات في مصر!
- وهل هو مسجون هنا؟
- لا.. وصلت التعليمات أنه سينتقل إلى هنا بعد ساعتين!
- ولهذا أمر المأمور بطلاء الزنزانة واعدادها لتاجر المخدرات؟
- هذا أقل ما يجب!
- هل فرشتم له الرمل أمام السجن؟!
- هل أنت تسخر من الحكومة!
- هل الحكومة هى التى طلبت أن يقيم فى زنتانتى؟
- الحكومة قالت إنه يجب أن يقيم فى أحسن زنزانة!
- إذا كانت الحكومة مهتمة براحة الحاج دعبس كل هذا الاهتمام فلماذا تضعه فى السجن؟
- لأنه يبيع مخدرات

- ولماذا تحتفل به كل هذا الاحتفال؟
- لأنه يملك عشر عمارات!
- وهل هذا السجن إحدى عماراته؟
- هذا ليس شغلك
- هل له كرامات؟
- طبعا له كرامات : إنه ولي من أولياء الله الصالحين.
- ولهذا يتاجر في المخدرات!
- هو رجل صالح.. محسن وهو يحسن على الفقراء:
- يبيع لهم الحشيش بالنقد ويوزع عليهم الطعام مجانا!
- هو يبيع الحشيش للقادرين.. ويعطى الطعام للمحتاجين:
- هذا شيء عظيم:
- إنه يشبه شخصية اللص الشريف الذي كان يسرق الأغنياء ليطعم الفقراء:
- وهل يوجد في السجن حشيش؟
- سوف يوجد فيه حشيش بعد تشريف الحاج دعبس!
- وهل سيبيع الحاج دعبس الحشيش للمسجونين!
- الحاج دعبس يوزع الحشيش مجانا على المسجونين والحراس والضباط إنه رجل محسن كبير!

- يظهر أنك تعرفه جيدا.
- طبعا أعرفه. لقد جاء إلى هذا السجن ثلاث مرات قبل هذه المرة!
- وكيف كان يخرج كل مرة؟
- في كل مرة يبيع عمارة ويخرج!
- ثم تعود الحكومة وتدخله السجن من جديد
- كلما احتاجت الحكومة إلى قرشين وضعت الحاج دعبس في السجن!
- ولهذا أخرجني البكباشى البلحاوى من زنزانتي!
- أنت تقيم هنا مجانا! أما الحاج دعبس فهو يدفع أجر الغرفة كما يدفعها في فندق شبرد أو فندق سميراميس!
- ويدفع البقشيش طبعا للخدم .. وللسفرجية.. وللمتردوتيل البلحاوى!
- اخفض صوتك ياعم عبده والافسأدخل السجن معك!



ما كاد عم عبده يصل إلى الطابق الرابع حتى تسمر في مكانه. وجد نفسه في زنزانة طولها عشرة أمتار وعرضها أربعة أمتار. وحشر فيها مائتا مسجون. كأنها علبة سردين أو أوتوبيس في ساعة خروج الموظفين وجوه كالحة لحى طويلة أجساد عارية ملابس ممزقة، روائح كريهة. السجن له رائحة غريبة، مزيج من رائحة الدم والدموع. رائحة جنث واشباح. ورائحة أنصاف الموتى وهى تختلف عن رائحة الأحياء. رائحة فيها عفونة. فيها طعم الهواء المحبوس. وهى في الطابق الرابع أثقل من الرائحة في الطابق الثانى كأن زحام جنث الأحياء جعل الرائحة نفاذة. أو كأن للجوع والحرمان والفقراء

رائحة كريهة أكثر مما لرائحة الموت وفقد الحرية !

لقد رأى عم عبده خارج السجن ألوانا وأشكالا من الفقراء والحرمان نام في عشش الترجمان حيث يتكدس الناس في جحور كالقبيور. نام في عزبة الصفيح حيث يتكوم السكان في غرف الصاج، فوق الطين والوحل، في بيوت لها نصف سقف ولها نصف جدار. نام في لوكاندة الجنة بسيدنا الحسين هذا الفندق الغريب الذي يملكه الخواجا أنستاس اليوناني، ولا يكاد يرى الزبون حتى يسأله غرفة بسرير أو بغير سرير ! السرير بخمسة قروش وبغير سرير بقرشين. ويختار الزبون غرفة بسرير. ويدخله صاحب الفندق في غرفة أنيقة فيها سرير. ولا يكاد يستغرق في النوم، حتى يجيء صاحب الفندق مع خادمه ويحملانه من الفراش ويضعانه فوق الأرض ويتكرر هذا مع كل زبون. فإذا استيقظ الزبائن في الصباح وجدوا سبعة عشر منهم على الأرض. بينما الخواجا أنستاس اليوناني صاحب الفندق نائم في السرير الوحيد في الفندق ! ولكن الزنزانة رقم ٤٠١ في الطابق الرابع في سجن الاستئناف كانت تختلف عن كل ماراه عم عبده في حياته ! كانت أشبه بسفينة العبيد التي راها ذات مرة في فيلم « الكونت دي مونت كريستو » في سينما أولومبيا بعابدين !

كان المسجونون مكдسين فوق بعضهم البعض. لم يكونوا نائمين، إنما كانوا مدفونين. كانت أفواههم مفتوحة كالغرقى واجسادهم متصلبة كالأخشاب. فقدت عيونهم بريقها. على وجوههم قطرات لا تعرف هل هي عرق أم دموع ! بعضهم مقطوع الأيدي، بعضهم مقطوع الساق. بعضهم أعمى أو نصف أعمى، مجموعة من المشوهين الذين لم يتشوهوا من الخارج، بل تشوهوا من الداخل، الحرمان والاهمال داخل السجن حطمهم. حولهم الى بقايا رجال.. الجدران مزينة ببقع الدم والقاذورات وبقايا

البصاق. ثم رأى على الجدار الذى بجواره جيوشا لاعدد لها من الحشرات والهوام.

وتنهدهم عبده حسرة على هذه الحشرات، ما الذى جاء بها الى الطابق الرابع؟ انها هنا سوف تموت من الجوع كما يموت هؤلاء البؤساء من الجوع. هنا لا يصل الى المسجون البائس إلا أقل من الكفاف. طعام المسجونين يسرقه الحراس والمسجونون المحظوظون ويبيعونه للمسجونين القادرين، ويتقاسمون الارباح. ولا يبقى لمئات المسجونين المنبوذين إلا العيش الحاف. لن تجد هذه الحشرات الغبية ماتمسك به رمقها. ما أغباها، إنها لم تعرف بحاستها أين تجد الطعام.

ثم اكتشف عم عبده أنه هو الغبي لا الحشرات. لقد وجد طوابير من هذه الحشرات فوق اجساد المسجونين، كانها وجدت في هذه الاجسام شبه الميتة مايكفيها من غذاء وشراب!

ولم يحتمل عم عبده أن يبقى في هذه الزنزانة اكثر مما بقى، أحس أنه كاد يختنق، وخرج يستنشق في الردهة الخارجية بعض الهواء النقي. ورأى امامه الشاويش ابراهيم يسأله ضاحكا:

– هل السجن الكبير أحسن من السجن الصغير!

– إن هذا ليس الطابق العلوى من السجن.. انه الطابق السفلى!

– الدنيا تمشى الان بالمقلوب!

– ولكنى لا أعرف أى جريمه أرتكبتها حتى يتقلنى المأمور إلى هذا الجحيم!

– إن المأمور لم ينقلك!

— من الذى نقلنى؟

هتلر!

— هتلر هو الذى أخرجنى من زنزانتى؟

— هتلر هو الذى خلا بك! ألم تعرف الاخبار؟

— أى أخبار؟

— الجنرال مونتجمرى انتصر فى موقعة العلمين. هزم جيوش روميل فى الصحراء.. وهى تفر أمامه الآن كالفيران!

— متى حدث هذا؟

— فى الليلة الماضية! الاخبار مكتوبة فى كل الصحف!

— ربما تكون دعاية بريطانية؟

— كل إذاعات العالم أكدت هذا

— وإذاعة برلين؟

— قالت إن روميل انسحب ليقصر خطوطه.

— ربما انسحب.. ليهاجم من جديد!

— لو حدث هذا فسوف تعود إلى زنزانتك الأولى من جديد.. وتصبح

«عبده بك» مرة أخرى.. كل شىء متوقف على ما سوف يفعله هتلر!

— وما علاقتى بهتلر؟

— المأمور قال إنك صديق هتلر.

ـ ولكنى لأعرف هتلر.. ولم أره طوال حياتى !

ـ هل تريد أن أصدقك أنت.. وأكذب سعادة البك المأمور؟

ـ هل أنت واثق أن المأمور نقلنى من زنزانتى بسبب هتلر.. أم بسبب
الحاج دعبس تاجر المخدرات؟

ـ إن المأمور ما كاد يقرأ أنباء انتصارات الانجليز فى صحف الصباح
حتى استدعانى وقال لى ياشاويش ابراهيم يجب أن تعلم أننا نؤمن
بالمساواة التامة، وليس عندنا خيار ولا فاقوس، وأن النظام هو النظام،
ويجب أن تعامل عم عبده كمسجون عادى!..

ـ وهل المساواة أن يضع الحاج دعبس فى زنزانتى، ويضعنى فى الطابق
الرابع؟

ـ لقد قال لى المأمور إنه ظهر أن عم عبده رجل نصاب، وأنه لا يحمل
لقب البكوية !

ـ ولكن المأمور هو الذى اطلق على لقب «عبده بك» !

ـ أنا أنفذ التعليمات !

ـ ولهذا لم تفتح لى باب الزنزانه فى الصباح؟

ـ أنا عبد المأمور !

ـ وهل كانت التعليمات أن تفتح لى باب الزنزانه قبل المسجونين
بساعة؟

ـ كانت جيوش الالمان ستدخل الاسكندرية.

– وما العلاقة بين دخول الالمان الاسكندرية وخروجى أنا من الزنزانه ؟

– هذه دائما قاعدة معاملة السياسيين عندنا فى السجن ! إذا قويت الحكومة أسأنا معاملتهم.. وإذا ضعفت أحسنا معاملتهم.. اذا بقيت الحكومة أبقيناهم فى الزنزانه، وإذا خرجت الحكومة أخرجناهم من الزنزانه.

– وأدخلتهم الحكومة فى السجن !

– طبعا هذه هى تعليمات السجن دائما . وأنا أعمل فى المصلحة من ١٧ سنة !

– وإذا انتصر الالمان غدا ؟

– فستصبح بطلا !

– وإذا انتصر الانجليز ؟

– ستصبح مجرما !

– وماذا أنا الان !

– أنت الآن مجرم.. مجرم جدا !

الفصل الثانى والعشرون

كان مطعم نادى «سبورتنج» بالجزيرة مزدحماً بالآكلين، الموائد غاصة بضباط انجليز وأمريكيين وفرنسيين ويوغوسلافيين ويونانيين. عدد الطرابيش قليل جداً بين الجالسين. كأن المصريين خجلوا أن يظهروا أنهم أصحاب البلد على أرض بلادهم، فخلعوا طرابيشهم ووضعوها على مقاعد بجوارهم.

المعروف عن هذا النادى أنه يرحب بالعسكرى الانجليزى ويتأفف من الباشا المصرى. أى صعلوك انجليزى يقبل على الفور، وكبار الموظفين المصريين يقفون فى طابور طويل فى انتظار أن تقبل عضويتهم فى هذا النادى المقام على أكبر أرض مصرية فى عاصمة مصر! إدارة النادى تتسامح عادة مع المصريين الذين تخرجوا فى جامعات انجليزية، ولذلك لا يبقون فى قائمة الانتظار أكثر من عام أو عامين!

نساء جميلات فاتنات تنائن حول الموائد. وكأنهن أوان ملونة من الورد وضعت على الموائد لتفتح شهية الآكلين. ولكن الطعام الفاخر يمسلاً كل الأطباق. مائدة ذات عدة رفوف تمشى فوق عجل صغير، وتحمل أطباق «الهورديفر» فاتح الشهية، وتدور على الآكلين. سفرجية نوبيون بقفاطين بيضاء محاطة بأحزمة حمراء وفوق رؤوسهم عمامات بيضاء كبيرة، يتحركون فى خطوات رشيقة فى قاعة الطعام وكأنهم يرقصون الباليه.

وزارة التموين التى توزع الطعام على الشعب المصرى بالقطارة، تصاب بكرم حاتمى عندما تتعامل مع نادى سبورتنج الذى يتردد عليه ضباط جيوش الحلفاء. وكلما زادت انتصاراتهم فى ميدان القتال ضاعفت الوزارة كميات ما يحصل عليه النادى من الجافيار الروسى والنبىذ الاسكتلندى والكونياك الفرنسى.

وفى ركن فى قاعة الطعام جلس المهندس جورج اسحاق و خليل مدبولى وطاهر كريم و ابراهيم حسن يتناولون الغداء، وأمامهم زجاجة ويسكى «جون هيچ» وزجاجة كونياك «كورفوازييه» لم يبق منهما سوى قطرات. وكانوا قد انتهوا من التهام طبق السلاطة الروسية الذى قدم اليهم مع أصناف الهورديفر. وكانوا يتحدثون عن مستقبل مصر بعد أن انتصر الحلفاء فى العلمين..

وقطع المهندس خليل مدبولى حديثهم وقال :

— لا تنظروا وراءكم الآن ! إن عادل علاء الدين يجلس هنا على مائدة مختفية خلف أحد الأعمدة.. ومعه سيدة لا أستطيع أن أرى وجهها من المكان الذى أجلس فيه. وتظاهر المهندس طاهر كريم بأنه يلتفت خلفه لينادى السفرجى، ثم أدار وجهه إلى زملائه وقد بدت عليه الدهشة وقال :

— غير معقول !

قال المهندس ابراهيم حسن :

— هل هى الأميرة فضيلة ؟

قال المهندس مدبولى وهو يضحك :

— الأميرة فضيلة ! إنها عفريته صورة الأميرة فضيلة !

ومال المهندس ابراهيم حسن برأسه ليرى وجهه السيدة وقال :

— أعوذ بالله ! لقد قضى عادل على سمعة شركة الهندسة الكهربائية. كان المهندسون مشهورين بأنهم ذواقون في النساء.. لو أن المساهمين في الشركة رأوا هذه المرأة الدميمة مع مديرنا، لباعوا أسهمهم في الشركة !

وعاد المهندس مدبولي يحملق في السيدة ويقول
إنها سيدة تضع فوق رأسها القناع الواقى من الغازات الخانقة !

وابتسم المهندس جورج وقال :

— إنه ليس قناعا واقيا من الغازات الخانقة ! هذا هو وجهها الحقيقى !
ألا تعرفونها؟ إنها الآنسة قسمت شاهين. سكرتيرة مجلس إدارة ملجأ المتسولين !

وضرب مدبولي كفا بكف وقال :

— ماذا جرى لعادل حتى يخرج مع هذا النسناس إلى مكان عام !

قال ابراهيم حسن :

— هل هذا معقول؟ بعد الأميرة فضيلة الفاتنة يخرج عادل مع هذا
القرء؟

قال طاهر :

— لعله أراد أن يخزى العين. إنها «خمسة وخميسة» يحملها معه ليقاوم
الحسد.. لقد حسده الرجال عندما كانوا يرونه طوال الشهور الأخيرة يلزم
الأميرة فضيلة ويراقصها في كل مكان !

قال ابراهيم حسن :

— إن عادل علاء الدين مشهور بأنه يعيش في المستقبل. يحسب دائما حساب الغد ! لعله سمع الاشاعة التي تقول إن هتلر لديه مخزن من الأسلحة السرية اسمه «المخزن ١٣» وأنه لو فتح باب هذا المخزن فسوف تخرج مفرقات تشوه وجوه البشرية كلها ! ولذلك أراد أن يجرب امرأة مشوّهة.. حتى يتعود من الآن على نساء المستقبل المشوهات !

ورفع المهندس جورج كأس الويسكى التي أمامه وقال :

— اعتقد أن عادل مل مصاحبة الفاتنات من ملكات الجمال، واشتاقت نفسه إلى ملكات البشاعة... كما يمل المليونير الب دراوى باشا عاشور أكل الخرفان والديوك الرومى كل يوم ويشتاق إلى طبق فول مدمس... أن لسون قسمت شاهين يشبه لون الفول المدمس !

صاح مدبولى :

— هذا ليس فولاً مدمساً، إنه فسيخ !

لم أعرف أبدا عن عادل أنه يحب الفسيخ !

— ولم يجى بعد موعد شم النسيم !

— اعتقد أنه دعا هذه المرأة للغداء متورطا !

— واجبنا أن ننقذه.

— ولكنه لم يستغيث بنا !

— فلنتظر حتى يستغيث بنا !

— يالكم من أوغاد ! لو رأيتم زميلا لكم فى الشركة يقع فى حفرة فهل

تتقدمون لانقاذه أم تنتظرون حتى يصرخ ويقول : الحقونى !

— إنها ليست حفرة.. إنها بالوعة مصلحة المجارى !
— انظروا إليه.. إنه يجلس أمامها صامتا.. كأنه فقد النطق !
— عندما يقع الانسان فى هوة يفقد النطق !
— ألا ننتظر حتى ننتهى من تناول الطعام... ثم بعد ذلك نذهب وننقذه "
— لو انتظرنا فقد لا نلحقه على قيد الحياة ! إننى أعرف أن عادل يصاب
بشبه اغماء عندما يرى امرأة قبيحة. إنه يعيش على الجمال..
— إنه يختنق إذا جلس خمس دقائق مع امرأة بشعة !
— إذن تعالوا ننقذه الآن...
وقام المهندسون الأربعة من مائدتهم، واتجهوا إلى المائدة التى يجلس
إليها عادل مع قسمت، وتقدموا لمصافحته...
وقام لتحيتهم، وقدمهم واحدا واحدا إلى قسمت.. وسحبوا أربعة مقاعد
وجلسوا فيها قبل أن يدعوهم عادل إلى الجلوس..
وبدت على عادل الدهشة... وهمس مدبولى فى أذنه :
— الصديق لوقت الضيق !
ولم يفهم عادل ماذا يقصد مدبولى.. والتفت مدبولى إلى قسمت وقال لها
ضاحكا :

جئنا يا أنسة قسمت ننقذك من مديرتنا العام !

— تنقذونى من عادل ؟ لماذا ؟

— لقد خيل لنا أننا نسمع صوت استغاثة... وكان مصدر الاستغاثة من

هذه المائدة، فجئنا على الفور بصفتنا بعثة إنقاذ !

وابتسمت قسمت وقالت :

— لعل عادل هو الذى استغاث ! قال عادل ضاحكا !

— إنهم جاءوا يفرقوننى لا لينقذونى ! على كل حال لقد جنتم فى الوقت المناسب !

وظهرت على طاهر كريم علامات الرضا عن نفسه ! لقد كان هو صاحب اقتراح بعثة الانقاذ !

وعاد عادل يقول :

— كنت أقول لقسمت إنه بعد انتصار العلمين سيبقى النحاس رئيسا لوزارة مصر خمس سنوات.. وكانت تعارضنى فى هذا رأى.

قال جورج :

— سيبقى عشر سنوات !

قال طاهر :

— سيبقى يحكم مصر إلى آخر يوم فى حياته... إننى مستعد أن أراهنىك على هذا.

قالت قسمت :

— سوف تخسر الرهان.

— إن الانجليز لن ينسوا خدمات وزارة الوفد أثناء هزيمتهم.

– الانجليز ليس لهم أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون، وإنما لهم مصالح دائمة !

– هل تعنين أن النحاس لن يبقى في الحكم إلى نهاية حرب اليابان؟
– ولا إلى نهاية حرب ألمانيا !

قال إبراهيم حسن :

– كنت أتصور أن نهاية هتلر وموسوليني ستكون نهاية على ماهر واسماعيل صدقي، لأنهما راھنا على الحصان الخاسر وهو انتصار المحور، وأن المستقبل سيكون، للنحاس وأحمد ماهر اللذين كانا يؤمنان بانتصار الديمقراطية.

قالت قسمت وهي تشعل سجارة :

– إننى ألاحظ أنكم تتكلمون عن المستقبل بلغة الماضي ! تتصورون أن ممثلى ما قبل الحرب هم الذين سيمثلون روايات ما بعد الحرب. إن نهاية الحرب ستكون نهاية كل الوجوه المعروفة على مسرح السياسة المصرية ! سوف يظهر ممثلون جدد في روايات جديدة !

قال عادل معترضا :

– ولكن الحرب لم تخلق طبقة جديدة من الزعماء في مصر.

قالت قسمت :

– من يدريك؟ لعل هذه الطبقة تولد الآن تحت الأرض.. وفجأة سوف تنشق الأرض ويخرج منها رجال جدد لم نرهم ولم نسمع عنهم، إننى أعتقد أن الحرب تغير كل شيء ! إنها لا تدك المدن فقط، إنها تدك الشخصيات

السياسية أيضا.. بعد الحرب ستبنى مدن جديدة وسيبنى رجال جدد.

— ولكننا لم نشترك في الحرب ... ممكن أن يحدث هذا في بلاد العالم التي حاربت، ولكننا في مصر عشنا في مقاعد المتفرجين!

— الحرب تغير كل شيء! الذين يحاربون والذين يتفرجون. في الماضي كانت الحرب لا تؤثر إلا في المقاتلين وحدهم، ولكن الحرب الحديثة غيرت هذا المفهوم. ضحاياها في المدن أكثر من ضحاياها في ميدان القتال. وسوف يحدث نفس الشيء بالنسبة للزعماء والقيادات، للذين يحاربون والذين يتفرجون. قنابل الحرب ستدمر المنتصرين والمهزومين والمتفرجين على حد سواء..

— المدافع تفتك بالجنود.

— وتشوه القواد!

— حتى القائد المنتصر؟

وضحك المهندس طاهر كريم ساخرا من تأكيد قسمت وقال:

— أظن أن الحرب ستقضى على ستالين وتشرشل لو انتصرا فيها!

— إن إنجلترا أسقطت لويد جورج رئيس وزرائها الذي كسب الحرب العالمية الأولى. وفرنسا أسقطت بطلها كليمنصو الذي كسب لها النصر في تلك الحرب، وضنت عليه بأصواتها ليكون رئيس الجمهورية الفرنسية.

— الانجليز والفرنسيون مشهورون بنكران الجميل.

والألمان أيضا.. بعد أن انتصر بسمارك في حرب السبعين وجعل ألمانيا فوق

الجميع، فوجى بامبراطور ألمانيا يحيله إلى المعاش وسط تصفيق الجماهير..

— قال ابراهيم حسن :

— إن الانجليز ينظرون إلى تشرشل كنبى !

من عادة الشعوب أن تضرب الأنبياء بالطوب. والنبى الذى لم يضرب بالطوب ليس نبيا. إنما هو مدعى نبوة !

— ولكن تشرشل هو أول من نبه شعبه الغافل إلى نوايا هتلر العدوانية !

— الشعوب تعجب بالرجل الذى يرى أبعد مما ترى. ولكنها لا تحبه ! إنها تفضل دائما رجلا طيبا مثلها. على نياته مثلها. يمكن استغفاله مثلها. إنها تقدر العباقة بعد أن تدفنهم وتطمئن إلى أنها وارتهم التراب، ولهذا لا مستقبل لأنبياء الأمس في عالم الغد، كل شيء في عالم اليوم سوف يتبدل غدا.. حتى الملوك !

قال المهندس مدبولى وهو يهز رأسه :

— إنك على حق يا أنسة قسمت إن الملك فاروق قال أمس وهو يلعب البوكر في نادى السيارات، إنه بعد الحرب لن يبقى في العالم سوى خمسة ملوك : ملك انجلترا، وملوك الكوتشينة الأربعة !

قال طاهر :

— كيف يتغير كل شيء وبريطانيا دخلت الحرب ليبقى كل شيء في العالم على ما هو عليه ؟ العالم سوف يتغير إذا انتصر هتلر، وسوف يستمر كما هو إذا انتصر الانجليز.

قال جورج اسحاق :

— إننى أوافق الأنسة قسمت على وجهه نظرها. الحرب تغير الناس. كل الناس، تغير أفكارهم، تبدل تقاليدهم، تهز معتقداتهم، تقضى على قاداتهم وزعمائهم. وإننى أتصور أن يكون العالم فى المستقبل على صورة المنتصرين. العالم سيكون ابن المنتصر أيا كان. ولهذا سيكون على شاكلته. لو انتصر الألمان والايطاليون لأصبحت دول العالم فاشستية ونازية. ولو انتصرت أمريكا وانجلترا وروسيا فسوف تصبح دول العالم صورا فوتوغرافية للمنتصرين. بعضها جمهوريات ديمقراطية كالولايات المتحدة، وبعضها ملكيات دستورية كانجلترا، وبعضها شيوعية كالاتحاد السوفيتى.

وضحكت قسمت وقالت :

— العالم سيكون له ثلاثة آباء أو أبوان اثنان.. ولهذا سيكتسب من كل أب ملامح مختلفة ! قد يرث من أمريكا جنونها، ومن روسيا استبدادها، ومن انجلترا حب السيطرة !

— سيكون عالما مشوها !

— عالم ابن حرام... مادام المنتصر ليس واحدا بل عدة أشخاص !

قال المهندس طاهر :

— لا يهمنى شكل العالم.. الذى يهمنى هو شكل مصر ! ماذا ستنصبح نحن فى مصر.. هل ستنصبح مثل أمريكا ؟ أم مثل روسيا ؟ أم مثل بريطانيا ؟

وابتسم مدبولى وقال :

— ستنصبح مثل المهزومين ؟ مثل هتلر وموسولبنى ! إن مصيبتنا أننا نقلد الدول الكبرى، فى خيبتها دائما فىنا « خيبة أبيل » مثل « السكس أبيل ».

وقهقه المهندس طاهر، وقال :

إن كلمة « خيبة أبيل » تذكرنى بأننى كنت فى طهران سنة ١٩٣٩ أثناء زفاف الأميرة فوزية أخت الملك فاروق للأمير شهابور ولى عهد إيران. ومشيت فى تلك الأيام مع عدد من المصريين الذين كانوا فى طهران لهذه المناسبة. ولاحظنا فى أحد الشوارع الكبرى لافتات مكتوب عليها « خيبة مصر » ! وذهلنا أن نجد بعد كل خطوات فى الشارع لافتة تعلن (خيبة مصر) وتصورنا أن الشعب يرى فى هذا الزواج خيبة لمصر ما بعدها خيبة !.. ثم علمنا بعد ذلك أن خيبة مصر باللغة الايرانية معناه شارع مصر.. وأن حكومة إيران أرادت أن تكرم مصر بمناسبة الزفاف الملكى فأطلقت اسم مصر على أكبر شارع فى طهران.. وهكذا تكرر اسم « خيبة مصر » فى كل مكان فى الشارع الكبير.

قال المهندس جورج :

— إن الموضوع الذى كنا نتكلم فيه لا يحتمل المزاح ! ماذا تتصورون أن تكون صورة العالم بعد الحرب.. أى مذهب سيسود العالم ؟

قال طاهر كريم بلهجة التأكيد :

— طبعا سوف تنتشر الفوضوية.

واعتمدت قسمت فى جلستها، وتكلمت وكأنها تلقى درسا على تلاميذ وقالت :

— الفوضوية مذهب ظهر فى أواسط القرن التاسع عشر وأول من وضع مبادئه هو عامل مطبعة فرنسى اسمه بيار جوزيف برودون.

قال طاهر ساخرا :

— متى ولد عامل المطبعة هذا..

وتجاهلت قسمت سخريته وقالت :

— ولد في باريس سنة ١٨٠٩ ومات سنة ١٨٧٥ وكان يدعو إلى تحطيم السلطة، ويدعو إلى مجتمع فوضوي، تغيب فيه السلطة السياسية. ولكن الزائد الحقيقي لمبدأ الفوضوية هو بوكانين الروسي، الذي دعا لقيام الدولة الفوضوية، والذي أعلن العداء لكل حكومة، ولكل سلطة للدولة، وكل نظام حكم، والذي كان يقول : إن من رأيه أن الشعب سيكون سعيدا إذا زالت كل سلطات الدولة. لا دين، ولا ملكية، ولا جمهورية، ولا حكومة، ولا بوليس، ولا جيش.

وصمت الجالسون دهشة من سعة اطلاع قسمت.. كانت تشرح النظريات السياسية وكأنها تقرأ في كتاب، تذكر التواريخ، وتستشهد بأقوال الفلاسفة، وتضايق المهندس طاهر كريم من أن هذه الفتاة الدميمة ذات النظارة السوداء سيطرت على المجلس، وأنها تحفظ النظريات السياسية كما يحفظ هو نظريات الهندسة، فقاطعها قائلاً :

— كل ما تقولين يا أنسة معروف جيداً.. إن هذه نظرية كارل ماركس وانجلز!

قال قسمت :

— على العكس، إن كارل ماركس هاجم نظرية بوكانين في الفوضوية. وقد وضع رسالة اسمها «رسالة من ماركس إلى بولت» هاجم فيها أفكار بوكانين، وقال إنه لا وجود لبوكانين كعقائدي.

قال طاهر متحدياً :

— بوكانين عاش شيوعيا ومات شيوعيا.

قالت قسمت :

— لقد تم فصل بوكانين في مؤتمر الشيوعية الدولية المنعقد في مدينة
لاهاى سنة ١٨٧٢.

وأرتج على المهندس طاهر كريم، وقهقه المهندس مدبولى وقال له :

— إنك طبعا لم تفهم كلمة واحدة مما قالته الآنسة قسمت ! إنها تريد أن
تقول لك باللغة العربية إنك حمار !

وضحك المهندسون الجالسون، واحمر وجه المهندس طاهر كريم، وأراد
عادل أن ينقذ الموقف فقال :

— إن المهندسين هم الذين سيرسمون صورة المستقبل !

قالت قسمت :

— أصحاب النظريات السياسية هم الذين سيرسمون صورة المستقبل..
ويتولى تنفيذها المهندسون !

قال مدبولى :

— يبدو أنك ياآنسة قسمت خبيرة في السياسة.

— لست خبيرة.. إننى أقرأ في وقت فراغى !

— قولى لنا أنت ما هى صورة العالم في المستقبل.. أى نظام سوف يسود
العالم بعد الحرب ؟

وأخذت قسمت رشفة من كوب الماء الذى أمامها وقالت :

— هذا سؤال صعب ! كأنك تسألني عن أى موضة للفساتين سوف تسود
بعد الحرب ؟

قال مدبولى :

— إنها أول مرة أسمع فيها أن الأنظمة السياسية تشبه فساتين
السيدات !

— النظام السياسى هو زى يختاره الشعب، وترتديه الدولة ! والشعوب مثل
النساء تحب أن تغير أزياءها !

— إن موضة الفساتين تتغير كل عام !

— وموضة الأنظمة السياسية تتغير عقب كل حرب.. أو فى كل جيل !
الموضة الجديدة تحرق الموضة القديمة دائما.

— ولكن نساء العالم لا يتبعن زيا واحدا !

— وكذلك دول العالم. بعض النساء محافظات، يرتدين فى القرن العشرين
الفساتين التى ترتديها جداتنا فى القرن التاسع عشر... مثل انجلترا التى
لا أتوقع أن تغير زياها بعد الحرب.. سوف تتمسك بالخطوط الكلاسيكية
التقليدية، وتحدث تغييرات قليلة فى شكل الثوب ولكن دون أن تبدل أساس
الفساتين نفسه !

— ومن هم ملوك الموضة السياسية فى العالم يا أنسة !

— إنهم المفكرون والسياسيون والكتاب. وهؤلاء يشبهون ملوك الأزياء فى
باريس. ملك الموضة لا يفرض إرادته ولا نزواته على فستان المرأة. إن
ما يفعله هو أنه يحس الرغبة الدفينة فى المرأة ويسبقها إليها. يضع

احتياجاتها وأحلامها وأفكارها داخل الفستان. والمفكر أيضا ليس طاعية يفرض فلسفته على الشعوب، وإنما هو يلبي طلبات الشعوب قبل أن تنطق بها. فهو يقوم بنفس ما يقوم به ملك الأزياء الذى لا يحمل سوطا يرغم به المرأة على اختيار موضة معينة، وإنما يقرأ أفكار المرأة وأحلامها وشهواتها وأمانيتها ويسطرها فى خطوط تتحول إلى فستان! وكما أن ملوك الموضة يقصرون الفستان ويطولونه، ويضيقونه ويوسعونه، فكذلك أصحاب الأفكار السياسية يفعلون بالحرريات ما يفعله مقص ملك الموضة بقماش الفستان، يضيقون الحريات على الشعوب، أو يوسعونها، يطولونها حتى تجرجر على الأرض، أو يرفعونها حتى تظهر عورات الشعوب!

قال المهندس جورج :

— كنت أظن أنك خبيرة فقط فى السياسة وإذ بك خبيرة فى الموضة.. ولكن ما رأيك، هل تتصورين أن فستان الديمقراطية هو موضة الشعوب بعد الحرب؟

قالت قسمت :

— ما دامت نساء العالم لا يخضعن لموضة واحدة، فلا يمكن لشعوب العالم أن تخضع لزي واحد من أزياء الحكم! كل جسم له موضة تناسبه! ما يناسب القصيرة لا يناسب الطويلة! وما يجعل النحيفة جميلة، يجعل البدينة مضحكة! فالديمقراطية مثلا هى فساتين واسعة تبيع للشعب أن يتحرك فيها بسهولة، والدكتاتورية فساتين ضيقة محزقة تزيد المظهر الخارجى للمرأة جمالا، ولكنها تكتم أنفاسها وتمنعها من الحركة.. وأما موضة الفوضوية..

وقاطعها المهندس مدبولى قائلا :

— أن تسير المرأة عارية بلا فستان !

وضحك مدبولى واستطرد :

— أموت فى الفوضوية !

وقهقه الجالسون وابتسمت قسمت ونظرت من وراء زجاج نظارتها
السوداء إلى عادل الذى فهم نظرتها وأسرع يقول :

— والشيوعية ؟

— الشيوعية هى فستان مفتوح من الصدر والظهر. ضيق عند اليدين.
ضيق عند الساقين. مقفل عند العنق. من السهل أن ترتديه. لكن من الصعب
أن تخلعه. يقيك برد الشتاء ويحميك من حرارة الصيف. ولكنه يمنعك من
الحركة. تستطيع فى داخل هذا الفستان أن تنحنى، ولكنك لا تستطيع أن
ترفع رأسك. ويمتاز عن فستان الديمقراطية أنه يظهر مفاتن المرأة ويخفى
عيوبها.

— وفستان الرأسالية ؟

— هو فستان يحمى جزءا من الجسم ويعرى باقى الأجزاء، يغطى الجزء
الأعلى فلا يصاب بالبرد، ويعرى الجزء الأدنى فيصاب بالروماتيزم أو
الكساح ! له فراء يدفئ الرأس.. فلا يصاب الرأس بالزكام. ولا فراء على
الذيل الذى لا يحمى السيقان من العواصف والرياح. الفستان جميل أنيق
أشبه بثياب الجوارى فى حريم السلطان، له ذيل طويل.. يحتاج دائما لمن
يمشى وراء صاحبة الفستان ليحمل لها الذيل، فإذا داست قدم غريبة على
ذيل الفستان سقط الفستان، وأصبحت صاحبه شبه عارية، وهو فستان
يصلح للمرأة التى تعيش فى قصر. ولا يصلح للمرأة التى تعمل فى المصنع.

يصلح للركوب في عربات الرولزرويس الفاخرة، ولا يصلح للفقيرات اللاتي يتعلقن في سيارات الأوتوبيس وعربات الترام ! إنه زى رائع جدا للقرن الثامن عشر، ولكنه لا يصلح للقرن العشرين، إلا للدول صاحبة الملايين.

— والاشتراكية؟

— هي موضوعة البنطلونات. تظهر أنوثة المرأة، وتسمح لها بحرية الحركة. تجعلها قادرة على الجرى والقفز. وقيمة هذه الموضوعة في أنها عملية واقتصادية.

قال المهندس جورج :

— أخشى ما أخشاه أن تسود فكرة الحكومة الدينية.. وتصبح موضوعة العصر القادم في بلادنا هي الجبة والقفطان ! إننى ألاحظ أن الجمعيات الدينية نشطت في أثناء الحرب.

قالت قسمت :

— من الطبيعى أن يلجأ الناس في الحرب إلى الدين ! إنه الملجأ الوحيد الذى يحميهم أثناء سقوط القنابل.

* * *

كان عادل يرقب الحوار صامتا. كان معجبا بقوة شخصية قسمت ودقة معلوماتها وسعة اطلاعها. كأنها وهى تتكلم قد خلعت نظارتها السوداء، وتجردت من ثيابها، وبدت له كما تبدو وهى بجواره في شفته. المرأة الذكية لها سحر خاص. الذكاء يكسب أحيانا وجه المرأة ملاحظة وفتنة، كأنه يركب لها رموشا صناعية. كأنه أمهر حلاق في العالم يتقن في تصفيف شعرها. كأنه خبير مكياج يطلى وجهها بالألوان والمساحيق التى تخفى عيوب

تقاطيعها. كأنه يعطرها بعطر مثير..

وكان عادل يحملق في وجوه زملائه ليرى تأثير حديث قسمت فيهم. وكان المهندس جورج اسحق يفتل شاربته بيده، وهذه طريقته عندما يسمع أغنية تعجبه أو موسيقى تطربه.

وكان خليل مدبولي يرمى برأسه إلى الوراء، وينفث سيجارته في الهواء، وهذه عادته عندما ينتشى بعد أن يشرب زجاجة كاملة من الويسكي.

وكان المهندس ابراهيم حسن يتطلع إلى قسمت مبهورا، ويلعب بأصابعه في أذنه اليسرى، وهذه طبيعته عندما يرى امرأة فاتنة تمر أمامه..

وكان المهندس طاهر كريم يجز على أسنانه. إن هوايته الكبرى إدهاش الناس بما لديه من معلومات ولكنه فوجئ بامرأة تعرف الأجوبة على كل الأسئلة وخاصة الأسئلة التي لا يعرف هو أجوبتها. وكان يتصور أنه يستطيع أن يتصدر كل حديث ببعض «الحداقة»، «والفهولة».. وإذا به يرى أن كل السهام التي أطلقها قد تحطمت أمام سعة اطلاع قسمت.

وحدث عادل نفسه قائلا :

ماذا سيفعل هؤلاء لو خلعت قسمت نظارتها السوداء.. لو رأوا عينيها الجميلتين الساحرتين.. لو شهدوا جسمها الرائع الفتان.. وأحس برغبة في أن تخلع قسمت نظارتها، لتضاعف دهشتهم... وقال لها ضاحكا :

— لماذا لا تخلعين يا قسمت نظارتك؟

واحمر وجه قسمت، ونظرت إلى ساعتها وقالت :

— إننى تأخرت. عندى الآن اجتماع مجلس إدارة جمعية المتسولين !

ووقفت، وقال عادل وهو يخرج محفظته ليدفع الحساب :

— إننى ساجىء معك لأوصلك !

وصافحتهم قسمت وخرج معها عادل.

وقال المهندس جورج :

— إنها أنستنى طول الوقت إنها امرأة دميعة الخلقة !

قال المهندس مدبولى :

— إنها نجحت فى أن تجعلنا نصاب جميعا بالعمى .. فتسحرنا بحديثها وتنسينا أنها تشبه أم قويق.

قال المهندس ابراهيم حسن :

— إنها امرأة ساحرة فعلا.. إن الله عندما يعطى المرأة الذكاء يسلب منها الجمال ! وعندما يعطى المرأة قوام الغزال يعطيها عقل الحمار ! وإذا أراد أن يجعل امرأة خفيفة الدم جعلها تشبه القرد

قال المهندس طاهر كريم :

— إنها امرأة مثقفة.. ولكنى لا أستطيع أن أنام فى فراش، وبين أحضانى . دائرة المعارف البريطانية !

* * *

ومشى عادل إلى جوار قسمت، فى طريقها إلى باب النادى، وقبل أن يصل عادل إلى سيارته قال لها بصوت فيه زعشة :

– هل أنت ذاهبة إلى اجتماع مجلس إدارة؟

– لا .. إنتى ذاهبة إلى البيت !

– ولماذا كذبت وقلت إنك ذاهبة إلى اجتماع مجلس إدارة؟

– إننى اضطررت عندما طلبت منى أمام أصدقائك أن أخلع نظارتى.. شعرت برغبة فى الهروب.

– إذن لنهرب إلى الشقة !

– ولكن ليس هذا هو موعدنا، إن موعدنا فى العاشرة مساء، إن الذى حدث لى الآن وأنت تتحدثين هو شىء غريب. شىء لم يحدث لى قبل الآن... إنى أفهم أن تثيرنى ذراع امرأة عارية أفهم أن يهزنى صدر امرأة مكشوف، أفهم أن أنتشى من ساقى امرأة مكشوفتين.. ولكنى لأول مرة فى حياتى، أشعر بتلك التشنجات الغريبة، تلك الرعشات المثيرة، هذا النداء المجنون وأنا أرى امرأة تكشف عن ذكائها ! إننى شعرت وأنا أجلس إليك أستمع إلى آرائك برغبة فى أن أضمك إلى صدرى. كأنك لا تشرحين أفكارا سياسية، كأنك تنادينى قائلة : تعال نمارس بعض الحب يا حبيبى ! أحسست برغبة فى أن أضمك إلى صدرى، فى أن أحتضنك بين ذراعى، إن العقل له فتنة عجيبة مثل الجسد تماما، فيه إثارة، فيه نداء صارخ، فيه نوع من العرى المفضوح.. هيا إلى الشقة الآن.

– بشرط؟

– ما هو الشرط !

– أن استمر فى شرح نظرياتى السياسية..

وقرصها عادل في ذراعها، وكأنه يعبر عن رأيه في الشرط الذي فرضته !

انفلتت من يده وهي تضحك وقالت :

— ما أكذبكم أيها الرجال عندما تتحدثون عن ذكاء النساء فقط !

الفصل الثالث والعشرون

ضغط عادل على الزر الداخلى لمصعد عمارة ايموبيليا المشير إلى الطابق العاشر، وتحرك المصعد إلى أعلى، ومد عادل يده يحاول انتزاع نظارة قسمت.

وتراجعت قسمت برأسها إلى الخلف وقالت، وهى تبعد عادل عنها :

– انتظر حتى نصل إلى الشقة !

– لا أستطيع الانتظار.

– لا تستطيع أن تنتظر دقيقة؟

– أريد أن أقبلك الآن.

– إنك دائما فى عجلة

– أريد أن أعوض السنوات التى فاتت من عمري بغير أن أقبلك !

– ألم تكفك ألوف الشفاه التى قبلتها، وتركت بصماتها على شفتيك؟

– قبلة واحدة منك محت كل هذه البصمات.

– كم امرأة قبلى قلت لها هذه الجملة نفسها؟

– قلتها ألف مرة.. ولم أصدق سوى هذه المرة!

– وكيف أعرف أنك صادق هذه المرة.

– سلى قلبك!

– قلبي مغرض يحكم لمصلحتك باستمرار!

ووصل المصعد إلى الطابق العاشر، وانفتح الباب، ثم انغلق أوتوماتيكيا، وعاد المصعد يهبط من جديد ولم يحس العاشقان المتعانقان بانفتاح الباب وانغلاقه إلا عندما بدأ المصعد في الهبوط انفلتت قسمت من بين ذراعى عادل وقالت:

– انظر ماذا فعلت؟! المصعد يهبط بنا إلى الطابق الأرضي من جديد.

– لا بد أن المصعد غضب لأنك رفضت أن تقبليني!

– ألم يكف المصعد أن رآني بين ذراعيك!

– إننى أريد أن أقبلك فى كل مكان، فى الشارع. فى السيارة فى المصعد، فى البيت، فى الأرض وفى السماء!

ووصل المصعد إلى الطابق الأرضي وانفتح بابه أوتوماتيكيا، وبعد لحظات عاد يغلق ويصعد من جديد. ثم توقف امام الطابق العاشر، وخرجت قسمت، وخلفها عادل الذى أسرع يخرج مفتاحه ويفتح باب الشقة ثم حمل قسمت فوق يديه، ومشى بها فى الصالة.

وصاحت به قسمت محتجة:

– إلى أين تذهب بى.

- إلى الداخل !
- دعنى إننى أريد أن أحدثك أولا فى أمر هام !
- الشقة هى خير مكان لبحث الموضوعات الهامة !
- هذا موضوع لا يصلح للبحث إلا على الأرض.
- لقد اعتاد الحكام والملوك فى الماضى أن يحكموا بلادهم من السرير..
ولعل هذا هو السبب الذى جعلهم يسمون مركز الحكم «سرير الملك» !
- نحن لسنا ملوكا !
- إنك ملكة على قلبى !
- احذر ان تجعلنى ملكة ؟ فهذا عصر انهيار الملوك !
- ان عرشك مستقر لأنه فى قلبى !
- قلوب الرجال أشبه بصينية اللونا بارك التى تقذف الواقفين فوقها..
دعنى أتحدث معك أولا !
- أنا أعرف الموضوع الذى تريد أن تتحدثى فيه، وهو مصير العالم !
- أنا أريد أن أحدثك عن مصير رجل واحد !
- أنا طبعاً !
- لا.. عم عبده !
- لعن الله عم عبده. إنه دائماً يجيء إلينا فى الوقت غير المناسب
- لقد جاء فى الوقت المناسب عندما تقدم وادعى أنه صاحب المنشور
الذى كتبته ضد الانجليز.

وتوقف عادل، وأجلس قسمت على مقعد في الصالة، وجلس على الأرض تحت قدميها، وقال ساخرا:

— ألا يستطيع عم عبده أن ينتظر حتى ينتهى لقائنا؟

— كيف أنام وعم عبده نائم على الاسفلت؟

— الاسفلت ليس بالشىء الجديد على عم عبده.. لقد أمضى طوال حياته ينام فوق الاسفلت.

— إنك نسيت إنه في السجن بسببى.

— لم أنس ذلك.

— ونسيت إنه تحمل عنى جريمتى

— إننى أقدر تضحيته.

— كيف تريدنى إذن أن أتركه نائما فوق الاسفلت وأمضى وقتى معك.

— الغارة لم تمنعك من موعدنا معا.

— ولكننى الآن لا أستطيع أن أنام بعد أن علمت بالمعاملة السيئة التى يلقاها عم عبده في سجن الاستئناف!.. ويعد أن رفض مأمور السجن أن يسمح لى بمقابلته.. ويعد أن رفض قبول الطعام الذى أحمله له.

— لقد اتصلت بمأمور السجن تليفونيا ووعدنى بأنه سيمر على فى بيتى بعد انتهاء عمله فى السجن.

* * *

ودق جرس باب الشقة، وفتح عادل الباب وقال:

– كنا في سيرة القط.. جاء ينط!
ودخل البكباشى يوسف البلحاوى مأمور سجن الاستئناف، وصافح قسمت
وهو يقول لعادل:

– لم أكن أعرف أنك تسكن في السماء!

قالت قسمت ساخرة:

– الملائكة وحدهم هم الذين يصعدون إلى السماء!.

قال البلحاوى وهو يتخذ مجلسه على أحد المقاعد:

– تقصدين أننى أول شيطان صعد إلى السماء.

– قال عادل:

– إن قسمت ساخطه عليك لأنك أسأت معاملة عم عبده!

– وأنا ساخط عليك لأنك أسأت معاملتى!

– أنا أسأت معاملتك! لقد تصورت أنك ستشكرنى!

– إنك فصلت أخى من شركة الهندسة الكهربائية!

– لأنه اختلس سبعمئة جنيه من أموال الشركة!

– مادمت عاملت شقيقى كمجرم فأنا عاملت عم عبده كمجرم!

– ولكن عم عبده لم يختلس أموال السجن.

– ارتكب جريمة أكبر! خان الوطن! هاجم حلفاءنا الانجليز!

– إنك كنت تناديه يا عبده بك بعد أن هاجم الانجليز.. فما الذى تغير

الآن!

— انتصر الانجليز!

— هل هذا هو السبب الوحيد!

— أحد الأسباب.

— وبقيّة الأسباب!

— أنك رقت أخى من الشركة.. ولم تجاملنى!

— لقد جاملتك بما فيه الكفاية. لم أبلغ النيابة. اكتفيت بفصله، وسددت مبلغ السبعمئة جنيه من جيبى لخزانة الشركة. كيف كنت تريد منى أن أجاملك أكثر من هذا!

— ان تبقيه فى الشركة!

— كيف تطلب منى أن أبقى لصا فى الشركة؟

— إنه ليس اللص الوحيد فى الدولة الذى يشغل منصبا.

وتدخلت قسمت وقالت:

— إن البك المأمور على حق.. الدولة مليئة باللصوص!

— المفروض أن يكون اللصوص فى السجن لا فى المناصب.

قال المأمور:

— عندى فى السجن اللصوص الصغار.. أما اللصوص الكبار فهم فوق العقاب.. إننى وبخت أخى وشتمته وصفعته على وجهه عندما علمت بحادث الاختلاس!

— لأنه سرق سبعمئة جنيه.

- لانه لم يسرق سوى سبعمائة جنيه !
- كنت تريد أن يسرق أكثر !
- كنت أريد منه أن يشرف الأسرة ويصبح أحد كبار اللصوص !
- هل تظن أنه لو سرق من الشركة عشرة آلاف جنيه كنت أسكت عن جريمته .
- كنت سترقيه !
- وإذا سرق مائة ألف جنيه !
- كنت ستجعله عضوا في مجلس إدارة الشركة !
- من قال لك هذا ؟
- إنه العرف في أثناء الحرب.. والعرف له قوة القانون !
- ماذا كنت أقول للمساهمين في الشركة لو عرفوا أنني أبقىست موظفا مختلسا في خدمة الشركة ؟
- كنت تقول لهم إنه قريب أحد الوزراء.. وكانت الجمعية العمومية ستصدر قرارا بشكرك لأنك حافظت على مصالح الشركة بتعيين أحد أقارب الوزراء موظفا فيها !
- إن واجبي نحو الشركة التي عينتني مديرا أن أبعد الموظف الذي يختلس أموالها !
- وأنا واجبي كمأمور عينته الحكومة أن أنقل العدو الذي هاجمها من الطابق الثاني في السجن وهو طابق البهوات، إلى الطابق الرابع وهو طابق الحشرات !

— ماذا تعنى؟

— أعنى إذا أعدت أخى إلى الشركة.. أعيد عم عبده إلى الطابق الثانى مع كل الامتيازات التى كان يستمتع بها!

وتدخلت قسمت فى الحديث وقالت غاضبة للمأمور:

— فهمت الآن لماذا قلت إنك لا تعرف سيدة باسم «الآنسة كاف» ولماذا لم تفتحوا لى الباب الكبير الذى لا يدخل منه الا البغل والمأمور.. ولماذا قلت للشاويش إنه ليس من حقى زيارة عم عبده الا مرة فى الاسبوع ومن خلال السلك كما تزور القرد فى حديقة الحيوان.

— ما دام عادل بك ينفذ قانون الشركة، فأنا مضطر أن أنفذ قانون المصلحة!

— ولكن، هل قانون المصلحة أن تعامل المسجونين كالحيوانات!

— أقل من الحيوانات! العجل المذبوح الذى يدخل السجن تستقبله لجنة برئاسة ضابط. ويستقبله طبيب، ونحمله فوق رؤوسنا إلى المطبخ.. أما المسجين فهو لا يرى الضابط إلا ليصفعه على وجهه. ولا يرى الطبيب إلا ليعطيه العلاج دون أن يكشف عليه!

قال عادل:

— إننى وجدت حلاً للمشكلة.. وهو أن أدفع لك كل شهر المرتب الذى كان يتقاضاه شقيقك من الشركة.. بغير أن يعود إلى عمله!

— وكرامته؟ وشرفه. وسمعته؟

— أدفع لك خمسة جنيهات فوق المرتب بدل كرامة وشرف وسمعة!

— إذن اتفقنا.. ابتداء من غد سيعود عم عبده إلى السطابق الثاني،
وسيكون له سرير ومرتبه ومائدة وكرسی ومراه..

— وسيصبح اسمه عبده بك.

— لا.. سيكون عبده باشا!

قالت قسمت محتجة:

— انا لا أقبل ان ينفذ الاتفاق من الغد.. يجب ان ينفذ من اليوم.

— ولكننا أغلقنا السجن ووضعنا التمام وأغلقنا بابه بالشمع الأحمر!

— افتح السجن بأى ثمن!

— هذا سيتكلف مصاريف!

وأخرج عادل محفظته، وأخرج منها ورقة مالية ودسها في يد البلحاوى
بك..

وضحك البلحاوى بك وقام من مقعده وقال:

— مادام المفتاح في يدنا.. فإننى ذاهب لافتح باب السجن الآن!

وانحنى البلحاوى بك وهو يودع قسمت ويقول:

— سنفتح غدا باب السجن على مصراعيه عندما تدخل الأنسة كاف!

وابتسمت قسمت وقالت:

— إننى في ذهول.. لم أكن أتصور أن الفساد وصل في البلد إلى هذه
الدرجة!

— ان هذا من طبيعة الحرب.. الحرب تفسد كل شىء !

— حتى الذمم؟

— أول ما تفسده هو الذمم !

— إنها أول مرة فى حىاتى أرى رجلا يبيع ذمته.. إنه يبيع ذمته ببساطة وكأنه يبيع رطلا من البلح !

كنت أتصور أن الذى يبيع ذمته ينظر حوله فى قلق لأنه يرتكب جريمة ولكن البلحاوى كان يتكلم وكأنه يتفاوض فى صفقة مشروعة !

— فى أثناء الحرب يحدث ظلام تام !

— وفى ظل هذا الاظلام تحدث السرقات !

— من عادة اللصوص الكبار ان يختفوا فى النهار، وينتشروا فى الظلام !

— هذه نتيجة وجود الرقابة ووجود المعتقلات ووجود الاحكام العرفية، وكل وسائل الاظلام.

— إن الحكمة فى هذا الاظلام التام ألا يرى العدو المواقع الهامة !

— ولكن هذا الاظلام التام مقصود به ألا يرى الشعب الصفقات الهامة والسرقات الهامة والرشاوى الهامة والجرائم الهامة !

— الظلام يشجع على ارتكاب الجرائم، لصوص الخزائن لا يعملون إلا فى الظلام.. لصوص الفراخ وصغار النشالين هم وحدهم الذين يسرقون فى النهار !

— إذن فالحكومة بهذه الاجراءات هى التى تشجع على السرقة !

- إنها هى التى تطفى الأنوار.
- ولكنك قلت لى إن رئيس الحكومة نزيه.
- إنه نزيه شخصيا، وأنا مؤمن بطهارته واستقامته.
- كيف إذن يسمح بهذه السرقات؟
- إنه مجنى عليه مثلنا، إنه لا يعرف؟
- كيف لا يعرف؟
- لأن هناك رقابة صحفية وأحكاما عرفية.
- ولكنه هو الحاكم العسكرى الذى فرض الأحكام العرفية والرقابة العسكرية.
- الانجليز هم الذين فرضوها!
- ليخفوا جرائمهم؟
- ليشجعوا الضعفاء منا على الجريمة، ليفسدوا رجالنا حتى يسهل القضاء عليهم!
- ولكن رئيس الحكومة عندما كان زعيما للمعارضة كان يطالب بإلغاء الرقابة على الصحف، وبإلغاء الأحكام العرفية.
- عندما يجلس الزعيم عادة فوق مقعد الحكم ينسى كل ما قاله فى المعارضة!
- ومتى يعود ويتذكر أقواله؟
- عندما يخرج من الحكم!

وأخرج عادل علبة سجائره، وقدم سيجارة لقسمت، والتقط سيجارة
وسبحا مع الدخان وهو يسبح في الغرفة.

وفجأة قالت قسمت:

— لقد خرجنا عن الموضوع الأصلي.

— إننا في صميم الموضوع!

— خطرت ببالي فكرة.. مادام كل شيء في أثناء الحرب أصبح يشتري
بالمال، فلماذا لا نحاول أن نشتري حرية عم عبده بالمال؟

— تريد أن نتفق مع مأمور السجن على أن يهربه

— كلا.. لماذا لا نبحث عن مسئول نساومه على أي مبلغ من المال
لتحفظ قضية عم عبده؟ إنني مستعدة أن أبيع كل مجوهراتي ليخرج من
السجن!

— القضاء في بلادنا هو الحصن الوحيد الذي لم يقع بعد في يد الفساد!

— لا أقصد القضاء، أقصد الدولة. ما دمنا لا نحصل على حقنا من
العدالة مجاناً، فلماذا لا نحاول أن نشتريها بالمال؟

ووقفت قسمت فجأة وقالت لعادل.

— هل تذكر يا عادل عندما استولى الجيش البريطاني على الكابلات من
شركتك؟ إن هذه الخسارة جعلتك تتحرك فوراً، وتذهب إلى وزير المالية وإلى
رئيس الوزراء لتتقذ شركتك من هذه الخسارة! لماذا لا نفعل الآن نفس
الشيء؟ مصر الآن معرضة للخسارة، وأنت لك أسهم في هذا البلد كما لك
أسهم في شركة الهندسة الكهربائية!

• - ماذا تريد منى أن أفعل !

- تذهب إلى صديقك رئيس الوزراء وتبصره بكل ما يحدث !

- وما الفائدة !

- أنت قلت لى إنه مجنى عليه مثلنا، ولا يعرف ما يفعله الذين حوله، فما الذى يمنع من أن تقول له بصراحة كل ما تسمع.

- لقد قالها له كثيرون قبلى وغضب عليهم وفصلهم من مناصبهم.

- ولكنك لست موظف حكومة .. إنه ليس فى قدرته أن يفصلك من عملك !

- إنه قادر على أنه يعطل كل مصالح الشركة مع الحكومة .. ويفلسها !

- ليكن !

- وقد يضعنى فى السجن.

- ليكن !

- وربما أصبح مع عم عبده فى زنزانة واحدة.

- ليكن .. وبعد ذلك يتقدم غيرك ويفعل نفس ما فعلته ويدخل السجن ..

وبعد ألف رجل مثلك سوف يرى الحاكم الحقيقة !

وأين نجد الألف رجل ؟

- اضرب المثل .. ويتبعك الألف !

- لقد ضرب عم عبده المثل، ولم يتبعه أحد !

* * *

مضت عدة أيام اختفت فيها قسمت عن عادل.

تخرج من بيتها في ساعة مبكرة من الصباح وتعود إليه في ساعة متأخرة من الليل. كل ما عرفه عنها أنها تزور عم عبده في سجن الاستئناف بانتظام.

ولما تصادف أن عثر عادل على قسمت في التليفون أجابته إجابات مقتضبة بأنها مشغولة في أمر هام وأنها تحبه ولكنها مضطرة للانقطاع عن زيارته !

واعتقد عادل أن قسمت مشغولة في جمع تبرعات لملجأ المتسولين. أو أنها تبحث عن طريقة تشتري بها الافراج عن عم عبده !

وكان يعجب لهذه الفتاة الغربية. إنها إذا انصرفت إلى شيء أعطته كل تفكيرها، وكل روحها، وكل اهتمامها، وكل أيامها ولياليها !

هي في مكتبها بملجأ المتسولين راهبة، وفي بيته غانية !

— وهي بالنظارة السوداء وفيلسوفة وبغير النظارة السوداء فاجرة !

في غرفة البصالون حكيمة وفي غرفة مكتبه مجنونة، كأن ثوبها ونظارتها السوداوين يغيران شخصيتها ويحولانها من النقيض إلى النقيض.

الآنسة قسمت امرأة جادة وهبت نفسها للناس، كرست حياتها للخدمة العامة عصبية المزاج، تتحدث وكأنها تحارب، أشبه بدائرة معارف في السياسة والاقتصاد والأدب والعلم ملابسا مشوشة كملايس الفلاسفة والعلماء !

والآنسة كاف امرأة كلها أنوثة، يكشف جسدها العاري عن كل أسرار الجمال، كل شيء فيها يصرخ بالعاطفة والحب، شعرها الأسود، رموشها،

عينها، أنفها، فمها، أسنانها، ذقنها، عنقها، صدرها، عطرها، الذى يشبه العطر الذى ينبعث من رسالة غرام، صوتها الذى يشبه أنغام موسيقى راقصة مثيرة، كلامها الناعم الذى يشبه المخمل، كأنها ولدت للحب ولا تعرف فى الحياة شيئاً إلا ممارسة الحب.

وكان عادل يحاول أن يعرف أى الشخصيتين هى الشخصية الحقيقية وأيهما الشخصية الزائفة. هل المرأة هى الأصل والنظارة السوداء هى القناع.. أم أن قسمت هى الحقيقة والآنسة كاف هى الاسم المستعار؟

ولكنه كلما اقترب من إحدى الشخصيتين خيل له أنها الشخصية الأصلية. إنها ليست دكتور جيكل ومستر هايد، شخصية للخير وشخصية للشر. على العكس إن فيها صفة بارزة فى الحب. إنها تحب ملجأ المتشردين كما تحب عادل. تتحدث عنه كأنه حبيبها الأول. وهى تعشق مصر عشقا مبرحا، كأن هذا العشق هو غرامها الوحيد. وكل حب لها هو حب جبار جبار يستولى على فكرها، ويسيطر على حياتها، ويسرى كالدم فى عروقها!

هل يستطيع القلب أن يحبها بثلاثة أنواع مختلفة من الحب فى وقت واحد؟

هل المرأة تختلف عن الرجل؟

الرجل ممكن أن يعشق عمله ويحب امرأة فى وقت واحد. وبعض الرجال يضحون بعملهم من أجل امرأة، وبعضهم يضحى بامرأة من أجل مستقبله. لا بد أن تتميز عاطفة عن عاطفة، وينتصر حب على حب. فالقلب ليس فيه إلا مقعد واحد من مقاعد الدرجة الأولى.. ويمكن للقلب أن يتسع بعد ذلك لبعض الواقفين!

ولكن هذه المرأة في قلبها ثلاثة مقاعد للدرجة الأولى. في مقعد يجلس
عشيقها، في مقعد ثان يجلس وطنها، وفي المقعد الثالث يجلس ملجأ
المتشردين !

وهي قادرة على أن تعطى كل واحد من هؤلاء نفس الحب، ونفس العشق
ونفس الاستعداد للتضحية والفداء !

في قدرة بعض الغانيات أن يعشقهن ثلاثة رجال في وقت واحد. إن تعطى
الواحدة منهن كل عاشق من العشاق الثلاثة نفس الوقت ونفس الاهتمام
ونفس الهناء.. ولكنها في قرارة قلبها تفضل واحدا منهم.. وينتهى بها الأمر
أن تحتفظ بواحد منهم وتطرد الاثنين من حياتها !

أما قسمت فهي تحتفظ بالثلاثة معا !

لقد سألها عادل مرة :

– لو خيرتك أن تختارى بينى وبين ملجأ المتسولين.. فمن تختارين ؟

وسكتت قسمت قليلا وقالت :

– اختاركما انتما الاثنين !

وسألها عادل من جديد :

– أنت تحبين مصر وتحبيننى.. لو قضت مصلحة الوطن أن تتخلى عنى
فماذا تفعلين ؟

– اتخلى عنك..

ثم أضافت وقالت في تأكيد :

– وبعد ذلك أطلق على رأسى الرصاص !

وأحس عادل بأنها كانت فعلا تعنى ما تقول. وأنها امرأة لا تعيش لحب واحد.. وإنما هي تعيش لثلاثة أنواع من العشق في وقت واحد !

الفصل الرابع والعشرون

ذهب عادل إلى نادى السلاح فى حديقة الأزبكية ليشهد مباريات الشيش. كان يهوى هذه الرياضة عندما كان فى كلية الهندسة وانقطع عن ممارستها بسبب كثرة مشغوليّاته، ولكنه استمر يحضر المباريات التى تقام فى نادى السلاح من وقت لآخر..

ودهش عادل عندما رأى بين اللاعبين أحمد محمد حسنين باشا رئيس ديوان الملك، وقد ارتدى ملابس الشيش البيضاء، ووضع على وجهه القناع الأسود، وأمسك سيفه بيده. دهش كيف استطاع هذا الرجل الغريب أن يجد وقتاً لممارسة اللعبة التى كان أحد أبطالها العالميين فى شبابه.

وبارز حسنين شاباً من أبطال اللعبة وانتصر عليه. ثم بارز لاعباً ثانياً وانتصر عليه. وتقدم لاعب ثالث ورابع وخامس وانتصر عليهم الرجل العجوز جميعاً. وتعادل مع السادس !

وراقبه وهو يبارز، إنه يتقهقر بسيفه، ويتظاهر بالدفاع، ويتلقى الضربات، ويلف ويدور وتحسب أنه حوصر من خصمه. وفجأة ينقض بسيفه على الخصم بالضربة القاضية..

وانتهت المباريات، وخلع حسنين القناع، وبدأ يجفف العرق المتساقط من رأسه، ورأى عادل أمامه فابتسم وقال :

– انتهيت يا عادل ! أصبحت عجوزا !

– إذا كنت تعتبر نفسك انتهيت بعد أن انتصرت على خمسة شبان في سن أولادك وتعادلت مع السادس.. فماذا يقول هؤلاء الشبان عن أنفسهم !
– منذ سنوات قليلة كنت أستطيع أن أهزم عشرة أبطال دون أن تسقط منى قطرة عرق واحدة.

– إننى لاحظت أنك تلعب بالسيف بنفس الطريقة التى تلعب بها فى السياسة، تحاور وتناور، تتأخر وتتقهقر، تلف وتدور، تتظاهر بأنك كدت تسقط مستسلما تحت وقع الضربات، وفجأة تنقض على خصمك فى اللحظة التى يتصور فيها أن المباراة قد انتهت بانتصاره !

– إن فشلى الدائم هو سر نجاحى فى الحياة ! حياتى مجموعة من الفشل ! عندما اكتشفت واحة فى الصحراء ادعت امرأة انجليزية أنها هى التى اكتشفتها. ودعتنى لأحضر الحفلة التى أقيمت تكريما لها بمناسبة هذا الاكتشاف !

– وهل حضرت الحفلة !

– طبعا حضرتها !

– لأن هذه الرحالة الفاتنة كانت عشيقتك أثناء الرحلة !

– لأننى لم أقل فى حياتى عن امرأة إنها كاذبة !

– وتركتها تنعم وحدها بهذا الانتصار !

– لا.. ذهبت إلى الصحراء واكتشفت واحة أكبر وأهم من الواحة الأولى.

– وهل أخذت معك الرحالة الانجليزية؟

– لا.. أخذت معي صورتها!

ومضى حسنين إلى غرفة الملابس ليبدل ملابس الشيش بعد أن طلب من عادل أن ينتظره..

وبعد لحظات خرج حسنين من غرفة الملابس أنيقاً، وقد اختفى الفارس، وظهر رئيس الديوان الملكي، بشعره الفضي، وقامته التي تشبه الحربة، وتقدم نحو عادل ووضع يده على كتفه وقال له:

– ما هي أخبار الأميرة فضيلة؟

وذهل عادل. لقد التقى قبل ذلك عدة مرات برئيس الديوان في سهرات مختلفة ولم يطرح عليه هذا السؤال! إنه لم يسأله هذا السؤال عندما كان يظهر معها في المجتمعات وعندما بدأت الناس تلوك علاقتهما.. فما الذي يجعل رئيس الديوان الملكي يوجه إليه هذا السؤال، بعد أن مضت عدة أسابيع على انقطاع علاقته بها..

ولاحظ أن حسنين يركز عينيه الصغيرتين الذكيتين في وجهه، وكأنه يريد أن يقرأ الجواب في عينيه..

وشعر كأن حسنين يحاصره بسؤاله.. فقال:

– لماذا تسألني هذا السؤال؟

– لأنك الوحيد الذي تعرف الجواب!

– إنه شرف لا أدعيه... وتهمة لا أدفعها!

– إننى لاحظت أن الأميرة فضيلة اختفت فجأة عن جميع المجتمعات..
وظننت أنك السبب!

– لماذا أكون السبب؟

– قد تكون أمرتها بألا تظهر في المجتمعات!

– هل معقول أن أصدر أمرا لامرأة!

– الأميرات لا يخضعن لأوامر الملك.. ويخضعن عادة لأوامر الرجال
الذين يحببنهم!

– إن أخبار معاليك قديمة!

– لا يهمنى أن تكون أخبارى قديمة أو جديدة.. كل ما يهمنى أن تقطع
علاقتك بها!

– هل الملك غاضب لهذه العلاقة؟

– الملك لا يحدثنى في مثل هذه المواضيع.

– إذن معاليك تحدثنى بصفة شخصية.. لا بصفة رسمية!

– بصفتى عضوا معك في جماعة الرواد...

– إذا كان الأمر كذلك، فإننى أقول لك إننى قطعت علاقتى بها.

– إننى أهنتك!

– هل كنت تخشى أن يقطع الملك رأسى إذا علم بعلاقتى بها؟

– إننى لا أخشى عليك من الملك.. إنما أخشى عليك من الأميرة!

- إن رأيك في الأميرة فضيلة سيئ
- على العكس، إن رأيي فيها أنها أميرة جميلة جدا وذكية جدا.
- وخطرة جدا!
- إنك وجدت الوصف المناسب!
- إنني أشكرك على هذه النصيحة... ولو أنها جاءت متأخرة!
- إن عيبي أن تفكرى ببطيء!
- إنك أشبهه بسلحفاة تتنقل بطائرة، البسطاء هم الذين يرون السلحفاة، والخبثاء هم الذين يرون الطائرة!
- لو كنت أضع عقلي في طائرة لانقضضت عليك في أيام علاقتك بالأميرة فضيلة، ونصحتك بأن تبتعد عنها!
- أنا أعرف أنه ليس من طباعك أن تضرب الحديد وهو ساخن!
- من عادتي أن أترك أصدقائي يتعلمون من أخطائهم.. إنك لن تعرف النار إلا إذا لسعت أصابعك!
- ولكن نار الأميرة لم تلسعني بعد..
- بعض الناس لا يشمون رائحة الحريق إلا بعد أن يتحولوا إلى رماد!
- يبدو أنك لا تصدقني عندما أقول لك إنني لم أر الأميرة فضيلة منذ حوالي شهرين.
- لا أستطيع أن أصدقك وأكذب نفسي!
- لا أفهم.

– منذ شهر واحد كنت أتناول العشاء على مائدة الأمير يوسف كمال في قصره بالزيتون، وتصادف أن مكاني على المائدة بجوار الأميرة فضيلة، وطلبت مني أن استأذن الملك في أن يوافق على طلاقها من زوجها معروف باشا لأن طلاق الأمراء والأميرات لا يتم إلا بموافقة الملك.

– وما شأني بطلاقها؟

– سألتها عن السبب في طلبها الطلاق فقالت إنها تحب عادل علاء الدين.. وأنها قررت أن تتزوجه!

– ولكنها لم تخبرني بشيء من هذا.

– إن بعض الأميرات يتصورن أنهن يستطعن الزواج والطلاق بأوامر ملكية... الأميرة تصدر أمرها بالزواج.. وعلى الرجل الطاعة والخضوع!

– ولكنك تعرفني... أنا لست الرجل الذي يخضع لمثل هذه الأوامر.

– وأعرف الأميرة.. إنها أشبه بالقضاء والقدر!

– تقصد إنها تستطيع أن تستصدر أمرا ملكيا بالزواج، ويجيء رجال الحرس الملكي، ويكتفونني ويرغمونني على الزواج بها؟

– المرأة الذكية ليست في حاجة إلى سلاسل لتدخل الرجل إلى زنزانه الزواج.

– أدهشني أن تتقدم الأميرة بهذا الطلب إلى الملك بعد أن قطعت علاقتي بها!

– لعلها وجدت أن هذه هي الطريقة لاستعادتك!

– وهل أبلغت رغبتها للملك؟

– كلا... إننى اعتدت أن أضع مثل هذه الرغبات فى درج مكتبى.. ولو
أننى أبلغت الملك بكل رغبات الأميرات والنبيلات لأصبحت جميع أميرات
مصر مطلقات !

– وماذا تنصحنى أن أفعل ؟

– لا تعد إلى لقاءها. إن أزواج الأميرات هم أتعس الأزواج فى العالم !

– وقلت لحسنين باشا :

– ولكنك متزوج من ابنة أمير. الأميرة شويكار.

– كانت زوجتى لطيفة سيدة ممتازة ولولا أنها ابنة أميرة لما افترقنا
أبدا !

– لقد سمعت أن زواجكما كان نهاية قصة حب !

– كانت أكبر قصة حب فى حياتى، كانت ابنة سيف الله باشا يسرى سفير
مصر فى أمريكا. وكنت أنا السكرتير الأول للسفارة. وولد حبنا فى واشنطن.
ولم أكن أرى فيها سوى فتاة رائعة. كانت أمها الأميرة شويكار مطلقه من
سيف الله باشا ومطلقة من الملك فؤاد. وكانت أفقر أميرة فى مصر. وكان
الملك فؤاد يطاردها. ومع ذلك لم أهتم بكل هذا وتزوجتها.

وعشنا حياة جميلة. ولكن كانت هذه الجنة تتحول إلى جهنم بسبب
أقاربها ! حدث مرة أن كنت مع الملك فؤاد فى باريس، وكنا فى فندق جورج
سانك، وإذا بالأميرة فوقية ابنة الملك وشقيقة زوجتى من أمها تقول لى أمام
كل الموجودين بلهجة أمرة : حسنين ! إصعد إلى جناحى فى الطابق الثالث،
واحضر فرائى ! صعد الدم إلى رأسى، إن شقيقة زوجتى تعمدت إهانتي

وتكليفى بمهمة لا يقوم بها إلا خادم لأننى أعمل أميناً أول فى قصر أبيها كأنها اعتبرت كل موظفى القصر خدماً عند أبيها. وتمالكت نفسى ولم أصفعها على وجهها. وناديت خادماً من خدم الفندق وطلبت منه أن يصعد إلى الطابق الثالث ويحضر فراء الأميرة. وعندما جاء الفراء حملته ووضعته بنفسى على كتفها وقلت لها هامساً: لو لم تكونى امرأة لصفعتك على وجهك. ولكنى لا أصفع إلا رجلاً مثلى... ولهذا يمكنك أن تقولى للكونت شامبلياس إننى سوف أصفعه على وجهه فى أى مكان أراه!

— من هو الكونت شامبلياس!

— كان عشيقها!

— لماذا لم تهددها بأن تصفع زوجها بمجرد فخرى باشا سفير مصر فى باريس؟

— لأننى أعرف أن زوجها لا يهتمها وكان يسعدها أن أصفعه على وجهه ولم تستطع أن تشكونى إلى أبيها الملك. لأنها كانت تخشى أن يعرف بعلاقتها بالكونت الأسباني. ولقد ذهبت الأميرة فوقية إلى عدد من الأمراء والأميرات وقصت عليهن أننى أهنتها أمام كبار رجال الدولة فى فندق جورج سانك!.. وغضبوا على.. ولم يغضبوا على الأميرة المصرية التى تعشق شاباً أسبانياً!

— ولكنك لم تصفع المرأة الانجليزية مسز روزينا فوريس التى سرقت منك المجد فى رحلتك الأولى للصحراء، اكتفيت بأن تصفعها بأنتصار آخر.

— الأميرات يختلفن عن الرعية، أى امرأة من أى شعب يمكن أن

تصفعها بنظرة! أما جلود الأميرات فهي جلود سميكة يجب أن تغمد
الخنجر فيها لتشعر الواحدة منهن بوخزة الدبوس!

- إن آراءك في الأمراء غريبة! لا يصدق أحد أن الرجل الذي تزوج ابنة
أميرة. وعاش طوال حياته يعمل في قصر الملك تكون هذه آراءه في الملوك
والأمراء!

- إننى ابن بولاق، وأعطى ابن بولاق ببدة التشريف الكبرى الموشاة
بالقصب والمغطاة بالأوسمة والنياشين. والذين لا يعرفوننى يتحدثون إلى
البدة التى أرتديها، والذين يعرفوننى جيدا يتحدثون إلى ابن بولاق
المختفى داخل البدة الموشاة بالقصب!

- وهل أنت فى السياسة ابن بولاق أم ابن القصر؟

- عندما انجح أكون تصرف كابن بولاق.. وعندما أفشل أكون تصرف
كابن قصر عابدين!
- ومع النساء؟

- اتصرف مع الملكة كأنها ابنة بولاق.. واتصرف مع ابنة بولاق كأنها
ملكة!

- وبهذه الطريقة استطعت أن تبهر الانجليز!

- اننى أخاطب الانجليز بأسلوب البدوي الذى تعلمته فى رحلاتى إلى
الصحراء.. الانجليز يشبهون الصحراء يتوه فيهم الانسان.. هم احيانا
اشبه بالرمال المتحركة من يعتمد عليهم يغوص! وهم احيانا اشبه بالواحة،
تصلح لان تكون محطة فى الطريق، ولا تصلح للاستقرار، فيهم عمق
الصحراء وسحرها، وفيهم غدرها وعواصفها والصحراء صديقة من يعرف

مسالكها وعدوة من يجهل طرقها، وعود الانجليز هي سراب من الصحراء
خدعت كثيرين وضللت الكثيرين ! وفي بعض الاحيان اشبه المرأة بالصحراء،
لا تغضب حتى ترضى، ولا تثور حتى تهدا. تحب من يصبر عليها، تعاند من
يضيق بها. كل قدم عليها تترك اثرا، في كل منهما فتنة وسحر وغموض !

— لعل هذا السبب في انك تحب المرأة والصحراء معا !

— ان امنية حياتى ان اعتزل منصب رئيس الديوان الملكى واقيم بقية
حياتى في خيمة وسط الصحراء

— مع اميرة فاتنة ؟

— لا، مع غجرية.. ان الاميرة لا تعرف انصاف الحول. اما ان تضع
الرجل تاجا فوق راسها، واما ان تضعه حذاء في قدميها.. وأنا لا احب ان
اكون تاجا ولا أحب أن اكون حذاء.. احب المرأة الغجرية التى تنتقل معى
من مكان إلى مكان حافية القدمين، تجهل التقاليد، وتحقر قواعد
البروتوكول، ولا تعرف آداب الجلوس.. ان اجمل امرأة هي الطبيعية. ولقد
التقيت في رحلاتى في الصحراء بنساء غجريات.. تصلح الواحدة لأن تكون
من كواكب هوليوود الفاتنات !

— عاد عادل إلى مكتبه وهو يسبح في دوامة من الأفكار. لقد اجاب
حسنين على كثير من الاسئلة التى شغلته في وقت من الاوقات، ولكنه ترك
اسئلة اكثر اهمية بالنسبة له بغير جواب.

— كانت الاميرة فضيلة قد قالت له مرة إن افراد الاسرة المالكة المصرية
في زهول كيف استطاع هذا الرجل احمد حسنين أن يسيطر سيطرة كاملة

على الملكة نازلى، فتحبه ترهبه، وتعشقه وتخشاها، وتبدو أمام الناس كأنها الملكة، وتظهر أمامه كأنها جاريته ! لقد عاشت نازلى ١٧ سنة سجيئة فى قصر الملك. لا تغادر جناحها الا بأذن الملك. ولا تخرج من القصر الا بأمر الملك. يتدخل الملك فى اختيار صديقاتها وانتقاء وصيفاتها. منعها أن تخرج مكشوفة الوجه الا عندما تسافر معه إلى اوريا. وحدث أن نشرت لها بعض الصحف الأوروبية صورة تظهر وجهها فأمر الملك فؤاد بمنع دخول هذه الصحف إلى مصر.

وكان فى بعض الاحيان يمنع شقيقها الصغير شريف صبرى من رؤية اخته عدة سنوات . وحدث مرة أن قال حسن انيس باشا وكيل الوزارة فى مجلس الوزراء انه رأى وجه الملكة. فما كان من الملك الا أن احوال وكيل الوزارة إلى المعاش، ومنعه من دخول القصر إلى آخر يوم فى حياة الملك. ولكى يمنع الملكة من أن تظهر أمام الرجال منع حضور النساء المصريات فى مأدب القصر حتى لا يضطر إلى اظهار الملكة !

وكانت الملكة شابة، مليئة بالحياة وحسب الحياة. تحب الرقص ولا تستطيع أن ترقص. تعشق الحفلات ولا تستطيع أن تحضرها، تحب المرح واللهو ولا تراهما الا فى افلام السينما التى تعرض فى سينما القصر.

وما كاد يموت الملك فؤاد حتى انطلقت الملكة وكأنها حصان جامع كان مسجوناً فى اسطبل، وما كاد يرى باب الاسطبل مفتوحاً حتى انطلق كالسهم. اذا ضربته بالسوط اندفع يشق طريقه. وإذا ربت على رأسه تردد لحظة ثم وثب. لقد انطلق إلى الغابة. ولن يقبل ان يعود إلى الاسطبل من جديد. حاول شقيقها شريف صبرى أن يكبح جماحها فرفسته. حاول الامير محمد على بصفتة رئيس مجلس الوصاية أن يمسك بزمامها فداسته. حاول ابنها

الملك أن ينبطح على السرج. فألقته على الأرض. كانت تريد أن تعوض حرمانها الطويل. المرأة المحرومة من الحرية لا تكفيها قطرة من الحرية، إنما هي تلتهم الحرية حتى تشرق بها.

وساعد على اندفاع الملكة أن الدم الفرنسي الحار يجرى في دمها، وقد ورثته عن جدها لامها الكولونيل سيف الفرنسي أحد قواد نابليون الذي أسلم وتسمى باسم سليمان باشا .

وكان حسنين في ذلك الوقت رائد الملك، وخيل إليه أنه يستطيع أن ينسى نازلي أنها امرأة ويذكرها أنها ملكة. وإذا بنازلي تقع أسيرة هواه.. تجن بالرجل الأسمر الطويل جنونا كاد يفقدها عقلها. وإذا بهذه المرأة التي لا تخضع لأحد تخضع لهذا الرجل. وتتحول من حصان جامح إلى قط وديع. تستأذنه في الثوب الذي ترتديه. تخاف أن تضحك ضحكاتها المثيرة في حضوره. تتوقف عن الانطلاق إلى الحياة المجنونة. التي أرادت بها أن تعوض سنوات حرمانها.

وتسربت قصة الغرام الملكي إلى الشارع. وخرجت أغنية شعبية تقول !

فاروق يانور العيين
أمك تحب اثنين
على ماهر وأحمد حسنين!

ولم يكن على ماهر عشيق الملكة !

ولكنه كان عدوا للوفد فأرادت اللسنة أن تحرقه أيضا.

وفوجئ الملك فاروق بأمه تقول له أنها قررت أن تتزوج من حسنين لأنه

ابى ان يكون عشيقها. وكان عليه ان يختار بين أن يوافق على زواج أمه من رائده، أو ان يتركها على حل شعرها، ووافق على هذا الزواج على مضض. وتولى الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر عقد هذا الزواج، وإذا بحسنيين يمارس كل حقوقه كزوج، زوج من اولاد البلد. وإذا بهذه المرأة الثائرة تهذا وتستكين. تنسى معه انها ملكة، بل تعامله كأنه اله. تطلب ثوابه وتخشى عقابه، إذا اخطأت ركعت تحت قدميه تستغفره. وإذا غضب عليها امضت الليل تبكى وكأن ابواب السماء اغلقت في وجهها.

وكان الملك يغار من حسنيين، كما يغار كل ولد من زوج امه، ولولا سلطته على الملكة الوالدة لامتلأت صحف العالم بأنباء مغامراتها..

وكانت الأميرة فضيلة وكل المتصلين بالقصر يسألون عن سر سحر هذا الرجل إنه زثر نساء عالمى .. له قدرة غريبة على سحر النساء. شخصيته تشبه شخصية رجل خرج من قصة ألف ليلة وليلة. فقد سحر نساء لندن في شبابه. وعندما كان سكرتيرا أول للسفارة المصرية في واشنطن كانت صحف امريكا تتحدث عنه كأنه عمر الخيام الجديد. ولكن كل هذه الصفات التى اشتهرت عنه في شبابه. لا يمكن أن تبقى ملتصقة به بعد أن جاوز الخمسين .

ولكن كلمة واحدة قالها حسنين لعادل جعلته يعتقد أنه وضع يده على مفتاح اللغز.. لقد قال إنه يعامل الملكة كأنها بنت بولاق ويعامل بنت بولاق كأنها الملكة !

اذن. فقد سحر هذا الرجل ملكة مصر عندما عاملها كأنها فتاة ترتدى الملاءة اللف السوداء، وتطرقع بشبشبها وهى تمشى فى حوارى بولاق !

الملكة اعتادت ان ترى رجالا ينحنون امامها. يقبلون يديها، يسارعون إلى تلبية رغباتها، يتنافسون فى تملقها... وإذا بها ترى بين هؤلاء جميعا

رجلا يختلف عنهم. ينسى انها ملكة ولا يذكر الا انها امرأة. لا يجرى وراءها وانما يتركها هي تجرى وراءه. يأمرها كأنها جاريتها. يعاملها كأنها دونه مركزا ومقاما. المرأة بطبيعتها تعشق في شبابها الرجل الذى يشبه اباها. ولكنها عندما تكتمل انوثتها تحب الرجل الذى لا يشبه احدا عرفت من قبل. رجلا لا شبيه له. رجلا يختلف عن كل الرجال. تماما كما تحب ان ترتدى ثوبا يختلف عن الثياب التى ترتديها النساء الاخريات. ويزيد في قيمة هذا الرجل عندما يكون معشوق النساء. عندما تسمع أن اجمل نساء المدينة يطارده، فهي عندما تأخذه لنفسها إنما تحرم كل نساء العالم من الرجل الذى يحلمن به فهي تجد في الظفر بمثل هذا الرجل انتصارا لها على كل امرأة في الدنيا.. أن هذه شهادة لها بأنها اجمل منهن جميعا. واكثر انوثة منهن جميعا. ولهذا فإنه فضلها هي عليهن جميعا!

وابتسم عادل ساخرا من نفسه، انه يشغل راسه بمشكلة حسب نازلى لحسنين، وينسى مشكلته هو، مشكلته مع الاميرة فضيلة!

لم تكن الاميرة فضيلة مشكلة الا عندما قال له حسنين انها ارادت أن تستأذن الملك في الطلاق من زوجها، والزواج من عادل!

انها مشكلة تحيره فعلا. لقد تصور انه طوى إلى الابد قصته مع الاميرة عندما غير رقم تليفونه السرى في مكتبه، وعندما غير رقم تليفونه في شقته، وعندما توقف عن الذهاب إلى اى مكان يعرف ان الاميرة تتردد عليه..

وقد تصور أن الاميرة ينست منه وبدأت قصة غرام جديدة. ولكن حسنين اكد له ان حديث الاميرة عن رغبتها في الزواج منه كان بعد اسابيع من انقطاع هذه العلاقة.

ماذا تقصد هذه الاميرة من بعث قصتها التى طويت إلى الحياة من

جديد؟ اى امرأة قطع عادل علاقته بها قبل هذه المرة او همها انه يقطع علاقته بها لمصلحتها، أو انه اكتشف انه لا يصلح لها. وانها ملاك وهو شيطان، أو انه يخشى ان تتسرب أنباء هذه العلاقة فتسبب إلى سمعتها التي يحرص عليها، أو انه لم يستطع ان يوفق بين رغبته في ان يراها كل يوم وبين ان يذهب إلى عمله كل يوم. فتتصور المرأة التي يتركها انه يضحي بقلبه في سبيل سعادتها، ويدوس على عواطفه من أجل هنائها!

وقد خرج من كل علاقة قبل هذه العلاقة، وعلى رأسه هالة الملائكة الأبرار. ما من مرة طعن امرأة في كبريائها. كان دائما يضع كمية كافية من البنج المخدر في المرأة قبل ان يمسك سكينه ويفصل بينه وبينها..

ولكنه مع الاميرة فضيلة لم يستطع ان يجرب طريقته في عمليات الفصل الجراحية. كأنه كان يشعر بأنها اذكى من ان يخدعها بمخدر.. أو انها اخطر من ان يتبع معها وسائله في احالة العشيقات إلى المعاش أو إلى التقاعد أو إلى الاستيداع! لقد لجا معها إلى طريقة لم يلجأ إليها مع أى امرأة اخرى.. وهى ان يهرب منها!

لأول مرة في حياته شعر أنه جبان لا يستطيع ان يواجه المرأة بحكم الاعداء! كان يعرف أنه لن يستطيع مقاومة سحرها، لن يجرؤ على أن يتلو عليها الحكم الذى أصدره بإنهاء علاقته بها..

وقد يكون السبب في ترده هذا أنه لم يصدر هذا القرار! إن حبه للأنسة كاف هو الذى انقذه من الاميرة! هو حلقة النجاة التى القيت إليه وهو يغرق في بحر هذه الاميرة الخطرة. لولا اندماجه العجيب بقسمت لما استطاع ان ينجو من براثن الاميرة الفاتنة.

لقد عرفت قسمت كيف تعالجه من هذا المرض العضال. انها لم تشتط

عليه أن يقطع علاقته بالاميرة، بل على العكس الحت عليه في أن يداوم الاتصال بها لو انها الحت عليه ان يقطع علاقته لتثبت بهذه العلاقة لان كل ما هو ممنوع مرغوب.. ولكنه زهد في الاميرة عندما اتاحتها قسمت له. صمم ان يقاطعها. عندما رأى قسمت تلح عليه في أن يلتقى بها!

لقد وجد في الأنسة كاف أو في قسمت الجديدة اشياء كثيرة كان يبحث عنها. اشياء كثيرة لم يجدها في الاميرة ولا في أى امرأة أخرى عرفها.. عرف قبل ذلك نساء صحيات كالطعام المسلوق.. المرأة منهن سهلة الهضم، ولكن لا طعم لها!

وعرف نساء كطبق الملوخية.. لذيزات ولكن يوجعن البطن!

وعرف نساء اشبه بالمخللات.. حراقات، يلهبن الشفه.. يتعبن المصران الغليظ!

وعرف نساء اشبه بطعم لحم الخنزير.. شهيات الطعم، ولكن الاكثار من أكلهن يؤدي إلى الاصابة بالدودة الشريطية!

كل امرأة عرفها لها طعم طبق واحد. لها نكهة خاصة بها. لها مذاقها المستقل.

ولكن قسمت هي مائدة عامرة بكل ألوان الطعام. فيها طعم كل نساء العالم فيها الطبق الحراق، والطبق الشهى، والطبق الصبحى والخلوى والفاكهة. معها لا يشعر لاول مرة في حياته بالرغبة في التغيير! انها الفول المدمس والكافيار معا! الطعام الشعبى الرخيص والطعام الفاخر الثمين. الرجال يتنقلون بين النساء لان معدتهم تحب تغيير انواع الطعام، التغيير يفتح شهيتهم. قليل من الرجال هم الذين يقنعون بطبق واحد لا يأكلون

سواه. لعلهم المرضى بالمصارين. أو لعلهم من المتصوفين الذين يجدون في التمسك بطبق واحد دليلا على الزهد في الحياة!

وقبل أن يحب قسمت كان شرها يأكل كل يوم صنفا. وأحيانا يأكل صنفا في الغداء وصنفا مختلفا في العشاء!

لقد وجد في الأميرة فضيلة في وقت من الاوقات طبق الكافيار الروسى الثمين. وتصور انه قادر على أن يفطر بالكافيار، ويتغدى بالكافيار ويتعشى بالكافيار!

وإذا به يجد في قسمت طعام الكافيار.. وطعم عشرات من الوان الاطعمة التى يحبها!

ربما يكون قد عشق قسمت، لانه الوحيد الذى ذاق طعامها! ربما لانها اول عذراء في حياته.. ولكنه كان طوال عمره لا يطيق طعام العذراوات!

وهو لم يحب قسمت عندما كانت الانسة قسمت.. لقد عشقها عندما أصبحت السيدة قسمت!..

أىكون قد أحب طعامها لانه هو الذى ظاه بيده؟ هو الذى اختارها نيئة؟ هو الذى وضعها على النار؟ هو الذى قلبها بيديه وهى تحترق؟ هو الذى ذاقها بعد أن أصبحت فوق قرن هواه؟

انه في بعض الاحيان يتصور انه هو الذى خلق الانسة كاف! اودع فيها روحه وحبه وشوقه واحلامه وخياله عن المرأة، فجاءت هذه المرأة التى تختلف في طعامها عن أى امرأة اخرى مرت في حياته! الخالق يعشق المخلوق لانه يجد فيه صوره!

الفنان يجن باللوحة التى رسمها بيده!

المثال يذوب هوى في التمثال الذى نحتة من الحجر!
الشاعر يبكى وهو يسمع قصيدة الغزل التى نظمها!
الطاهى يترنج وهو يذوق الطعام الذى صنعه!
الملحن يتأوه وهو يشنف اذانه بموسيقاه!
كل واحد من هؤلاء يعيد نفسه فيما خلقه. يجد فيه بعض ملامحه وبعض
صوره وبعض روحه وبعض انفاسه..
ولكن عادل لم يخلق قسمت. هى التى خلقت الأنسة كاف عندما نزلت
نظارتها السوداء.. وكانت اشبه بالاجابة على كل اسئلته اشبه بصورة
جمعت كل احلامه عن المرأة التى يتمناها ليهواها!
هل اكتشفت الاميرة فضيلة حقيقة العلاقة التى بينه وبين قسمت،
فأرادت ان تنتقم منه..
واختارت طريقة القصور فى الانتقام!
اللغة الوحيدة المعترف بها فى القصور هى لغة الدسائس والمؤامرات
والمقالب وتدبير المكائد!
فى القصر لا يحارب احد احدا فى النور. كل من فى القصر لا يكف عن
الابتسام. وكل من فى القصر يحمل خنجرا وراء ظهره!
سكان القصور لا يعرفون طريقة المواجهة. ولا يؤمنون بأن الخط
المستقيم هو اقرب مسافة بين نقطتين كما يعتقد المهندسون. انهم يلفون
ويدورون. ويراوغون ويدهنون ويتعانقون وهم يغمدون فى ظهور بعضهم
البعض السكاكين!

لماذا لا تكون الاميرة فضيلة قصدت بطلبها من رئيس الديوان الملكي
أن يستأذن الملك في الموافقة على طلاقها من زوجها معروف باشا وزواجها
من عادل علاء الدين لكي تنتقم من عادل علاء الدين وتقضى عليه؟

إن عادل عرف ما حدث لعمر الفلسطيني الذي احبته الاميرة فضيلة
عندما التقت به في مدينة القدس، وكيف ان الملك طرده إلى خارج الحدود،
وحرمه من دخول الاراضي المصرية لانه علم بقصة غرامه بالاميرة ابنة عمه؟

إذا كان الملك فعل كل هذا بالشباب الفلسطيني من اجل مغامرة صغيرة،
فماذا سيفعل بعادل علاء الدين، عندما يعلم ان الاميرة لا تحبه فقط، بل
هي تطلب الطلاق من زوجها معروف باشا لكي تتزوج من المهندس عادل
علاء الدين!

المنطق يقول إن الملك سوف يبطش بعادل! إنه قادر بنفوذه، وسلطانه
على أن يطارده في كل مكان أن يضع شركة الهندسة الكهربائية في القائمة
السوداء، أن يحرض رجاله الموجودين في المناصب الكبرى على أن يقطعوا
هذه الشركة!

لا يمكن ان تكون الاميرة قصدت بحديثها مع حسنين باشا أنها ترغب في
ان تتزوج من عادل!

لا يمكن أن تكون اعتقدت أن عادل ابتعد عنها لأنها متزوجة.. فإذا
تطلعت من زوجها عاد إليها!

انها المدرسة التركية القديمة في الدسائس!

كان السلطان عبد الحميد يلقي بخصومه في البوسفور لتأكلهم الاسماك!

وكان رجال القصر يكتفون بأن يوصلوا إلى السلطان «دسيسة» ضد أى
خصم من خصومهم !

لا يقولون للسلطان ان فلانا يتآمر عليه، بل يكتفون بالقول ان فلانا رفع
رأسه إلى النافذة التى تطل منها بنت السلطان !

ويسرع السلطان ويأمر بالقبض على العاشق ويلقيه فى البوسفور.. ثم بعد
ذلك يبدأ التحقيق !

* * *

عاد حائرا إلى مكتبه ولغز الاميرة فضيلة يحتل كل تفكيره

ثم سمع تليفونه يدق دقا متواصلا ورفع سماعة التليفون وسمع صوت
معروف باشا زوج الاميرة يقول له :

— مبروك يا عادل ! الف مبروك ! عندي لك خبر سعيد لك ؟! كلفتني
صاحبة السمو الملكى الاميرة فضيلة ان ابلغك انها حامل !

الفصل الخامس والعشرون

لاحظت السكرتيرة ماتيلدا الوجوم والاكتئاب والارتباك على وجه عادل، عندما انتهى من محادثته التليفونية مع معروف باشا، أصفر لسان وجهه. وضع سيجارة في فمه. أشعل السيجارة بيد مرتعشة. وسأله السكرتيرة في لهفة :

— أخبار سيئة؟

— جدا!

— خاصة بشركتنا؟

— لا .. خاصة بشركة أخرى.

— هل أنت مساهم فيها؟

— كنت مساهما فيها!

— وماذا يهمك أن تفلس شركة بعد أن تركتها؟

— عندما تفلس شركة .. يقبضون على المساهمين القداماء!

— ولكنك غير مسئول!

— أرجو ذلك!

– إنها أول مرة منذ عملت معك أرى خبراً يهزك !

– مصدر الخبر هزنى.. أكثر من الخبر نفسه !

وخرجت السكرتيرة وتركت عادل مع هواجسه . ماذا تقصد الأميرة فضيلة من إبلاغه أنها حامل ! هل قصدت أن تقول له أنها حملت منه ؟ ولماذا اختارت أن تبلفه هذا النبأ بواسطة زوجها ؟ هل هي تريد أن تهدده ! هل تريد أن تغريه بالعودة إليها !

ولكن متى حملت إنه لم يرها منذ شهرين ! أتكون حاملاً من شهرين ! ايكون هذا هو السبب الذى جعلها تطلب من حسنين باشا أن يستأذن الملك فى طلاقها من زوجها لتتزوج عادل والد الجنين الذى فى بطنها ؟ ايكون حملها هو سبب اختفائها من الحفلات والاماكن العامة فى الاسابيع الأخيرة !

– واضطرب عادل عندما خطر بباله أن حسنين كان يعلم بقصة الحمل هذه عندما أخبره باعتزام الأميرة فضيلة على الطلاق . وأنه كرجل نبيل ، يجب الا يجرح اصدقاءه ، لم يشر إلى هذا النبأ ، وإنما اكتفى بأن يحذره من علاقته بالأميرة الخطيرة !

وعجب للمصادفة الغريبة أن يسمع بنبأ حمل فضيلة بعد دقائق من سماعه برغبتها فى الطلاق من زوجها ، والزواج منه !

لابد أنها كاذبة . لابد أنها تدعى الحمل لكى تنتقم منه ، ولكى تعاقبه على أنه هجرها ، لكى تجعله يعود إليها ذليلاً يتوسل إليها أن تتخلص من حملها .

إنه طوال علاقاته النسائية كان يحرص أول ما يحرص عليه الا تحمل امرأة منه . كان لا يريد هذه المشاكل . كان يرتجف من خاطر أن يكون له ابن حرام . ابن لا يحمل اسمه ، ولا يعيش معه ، ولا يراه . ابن من لحمه ودمه

يدمغه طابع العار، يصمه بالوصمة التى تلتصق به طوال حياته.

كان طوال حياته يشعر بعطف غير عادى على اللقطاء. وكان يحمل الرجال المستهترين مسئولية هؤلاء الضحايا الابرياء.. وكان يتبرع دائما لملاجى اللقطاء. كأنه يدفع ضرائب متأخرة بالنيابة عن امثاله من الذئاب الذين قبضوا ارباح الجسد، وتهربوا من دفع الضرائب المقررة على هذه الارباح !

وكان فخورا بينه وبين نفسه أنه على كثرة ما عرف من نساء لم يترك فى واحدة منهن أثرا من آثار جريمته.. كان أشبه باللص المحترف الذى يرتدى دائما قفازا فى يده، حتى لا يترك بصمات فى مكان الجريمة !

ولم يخطر بباله ابدا أن يتخذ هذه الاحتياطات مع الأميرة فضيلة فهى متزوجة من عدة سنوات، ولم ترزق اولادا، وهى ليست مبتدئة فى عالم العشق، فقد اعترفت له أنها عرفت ثلاثين رجلا قبله.. وأنه الرقم الواحد والثلاثون !

ولم يتصور عادل أن من الممكن الا تحمل الاميرة من كل هؤلاء، وتحمل منه هو دون سواء !

ولقد سمعها تقول له مرة أنها لم ترزق اطفالا لأنها لا تطيق الاطفال، لأنها تعتقد أن عملية الولادة تشوه جمال جسدها الذى تحرص عليه أكثر مما تحرص على كل ثروتها !

وأحس عادل برأسه يلتهب بما يشبه الحمى، عندما تخيل أن أم ابنه ستكون امرأة عرفت ثلاثين رجلا قبل ابيه !

لا.. مستحيل أن يكون هذا الجنين ابنه ! لابد أن الأميرة دخلت فى

مغامرة جديدة بعده، وأن هذا الجنين هو نتيجة المغامرة الجديدة!

لا.. إنها امرأة كاذبة ! إنها لم تحمل أصلاً. وإنما اخترعت هذه القصة لتتكبر عليه حياته ولتشغله بالتفكير فيها، واختارت زوجها المغفل ليقوم بدوره في هذه المسرحية!

واستراح عادل لهذا الاحتمال وبدأ يقلب أوراق الشركة التي فوق مكتبه، لينسى فيها هذه الوسوس والاهام.

ولم يستطع أن يقرأ الكلمات التي أمامه ! اختفى اسم «شركة الهندسة الكهربائية ليمتد» المطبوع في أعلى الورقة وخيل إليه أنه يقرأ اسم «شركة فضيلة ليمتد»...

لم يعد يستطيع أن يقرأ الأرقام المدونة في العطاءات.. وجلس يحسب على أصابعه المدة التي مضت من يوم آخر لقاء مع فضيلة حتى اليوم، كأنه يحسب كم أصبح عمر الجنين في بطن فضيلة!

- ووجد نفسه يفكر كيف يقنع الأميرة فضيلة بالتخلص من الجنين أي طبيب يمكن أن يآتمنه على هذا السر ويتولى عملية الاجهاض...؟

وشعر فجأة بالرعب ! إنها أول مرة في حياته يفكر في ارتكاب جريمة قتل ! أنه لا يطيق أن يرى فرخة تذبح أمامه ! أنه ثار على الأميرة فضيلة لأنها اصطادت بطة في الفيوم وقتلتها برصاص بندقيتها. إنه اقشعر عندما تصور أنه سيلمس يد القاتلة ! ها هو ذا الآن يفكر في أن يقتل أنسانا لا بطة، إنسانا من لحمه ومن دمه !

وعاد يندم على علاقته بالأميرة فضيلة ! ليته ما عرفها. ليته ما عشقها. لقد كان سعيدا بعلاقاته مع بنات الشعب. بنات طبيبات. لا يعرفن الدسائس،

لا يدبرن المكائد. لم تحاول واحدة منهن أن تضعه أمام الأمر الواقع وتدعى الحمل.. لم تستطع واحدة منهن أن تفسده.. حتى الممثلة اجلال فوزى ملكة الاغراء، كانت امرأة نبيلة معه، لم تحاول أن تستغل علاقتها به. لم تفاخر يوماً بأنها صديقتها خشية أن تلوث سمعته!

ولكن هذه الأميرة جعلته قاتلاً.. جعلته يفكر في ارتكاب جريمة قتل! صحيح أن عمليات الاجهاض عمليات منتشرة ومعترف بها، ولكنه يمقتها.. إنه لا يحرم على الآخرين حقهم في الاجهاض، ولكنه هو نفسه يحس ببشاعتها. وخاصة أن يشترك في قتل ابنه.. ابنه هو

وحار ماذا يفعل! هل يتجاهل النبأ أم يتحراه؟!

ربما لا يكون هذا الجنين ابنه. ربما أن الأميرة سعيدة بأنها حملت فكلفت زوجها بان يبلغ جميع أصدقائها نبأ الحادث السعيد، وخطر ببال معروف باشا أن يبلغ النبأ لعادل، باعتباره من أصدقاء العائلة، وسوف يفرح لسعادة الأسرة بالحادث السعيد!

إنه رجل متفائل بطبيعته. من عادته أن يرى اشتداد ظلمه الليل علامة أكيدة على قرب ظهور الفجر. ماله الآن يخرج على طبيعته، ويفترض أسوأ الأمور. لعل مخاوفه كلها لا أساس لها. لعل تحذير حسنين له هو الذى جعله يعيش في عالم اسود من التشاؤم!

لماذا يحمل جملة «الأميرة حامل» أكثر مما تحمل!

ربما تكون دعاية من الأميرة!

إن دعابات الملوك والأمراء ثقيلة الدم عادة!

ثم ما هو السبب الذى جعل معروف باشا ينهى المحادثة بسرعة..

ولا ينتظر حتى يقدم له عادل التهانى بمناسبة الحادث السعيد؟
لابد أنه مقلب من الأميرة! لابد أن زوجها الغبى خشى أن يفتضح
المقلب أمام اسئلة عادل فاسرع ينهى المحادثة..

ورأى عادل فى هذا الاحتمال الجديد ضوء شمعة فى ظلام أفكاره
ولم تلبث الشمعة أن انطفأت عندما تذكر حديث حسنين عن رغبة الأميرة
فى الطلاق والزواج منه!

لا يمكن أن يكون هذا أيضا دعاية! لن تجرؤ الأميرة فضيلة على ادخال
رئيس الديوان، بل الملك نفسه، فى دعاية من دعاياتها السخيفة!
طوى عادل كل الأوراق التى أمامه..

وتصور أنه طوى معها الأميرة فضيلة نفسها!

وما كاد يختفى شبح فضيلة من خياله، حتى برز له شبح قسمت! هل
يروى لها ما حدث! هل يخفى عنها ما حدث؟ هل يذكر لها قصة تفكير
فضيلة فى الطلاق ويخفى قصة الحمل أم يروى قصة الحمل ويخفى قصة
استئذان فضيله فى الطلاق لتتزوج منه!

لقد اعتاد أن يقول لقسمة كل شىء، منذ أن أحبها فتح لها قلبه لم يكذب
عليها مرة واحدة وهو يجد لذة فى الصدق مع هذه المرأة أكثر مما كان يجد
لذة فى الكذب على باقى النساء اللاتى عرفهن!

ترى ما هو رد فعل قسمت اذا عرفت الحقيقة كلها.

المصيبة الكبرى أن تكشف اسراره وتعرف أخباره وتتبع خطواته. ولقد

تصور في وقت من الأوقات أن كل نساء مصر أصبحن عيوناً لها، يعملن في خدمتها.

والمرأة قليلة الثقة بنفسه ، تلجأ عادة إلى هذه الوسائل متوهمة أنها الطريقة الوحيدة لتحفظ مكانها في قلب من تحب.. وهي لاتفهم أن خوفها الدائم على مكانتها هو الذي يشجع على الانقضاض عليها. أن كثيراً من هذا النوع من النساء هو الذي كان يشجع عادل على خيانتهم. فطبيعة الإنسان أن يجد لذة في أن يفلت من أى حصار مضروب عليه. ولولا الحصار لما فكر في أن يخترقه. لولا الباب المغلق لما خطر له أن يقفز من النافذة تماماً كما يؤدي خنق الحريات فوق الأرض إلى قيام الجمعيات السرية تحت الأرض.. لقد خان عادل عصمت شفيق أكثر مما خان أى امرأة قبلها، فما من امرأة تعقبته، وضيق عليه الخناق، كما فعلت عصمت معه..

أما قسمت فقد تركته حراً، فوجد لذة لا حد لها في أن يخلص لها. قبلته كما هو بكل نقائصه وعيوبه. ولم تحاسبه حساب الملكين كما تفعل باقي النساء كأنها تشعر أنها أقوى من كل امرأة. أى امرأة في العالم لو واجهت مثل هذه الظروف ستغضب سيلعب الغار في عبا ،ستهتز ثقتها في الرجل الذي تحب، ستملوها المخاوف والشكوك.. الشك لا يحيى الغرام – كما تقول أم كلثوم في أغنيتها القديمة – إنما هو بقتله ويدفنه في التراب.

ولكن قسمت ليست أى امرأة ما يغضب النساء التافهات لا يغضبها. لا تضيق وقتها في إثارة مشاكل الغيرة الصغيرة. كل امرأة عرفها كانت تغار من كل امرأة قبلها. تخلق أى مناسبة لتحدث عن ماضيه.. كانت زينب كامل تغار من وراء البحار! إنها تحاسبه في القاهرة سنة ١٩٤٢ عن الفتيات اللاتي عرفهن في انجلترا سنة ١٩٣٠. فاذا كانت بجانبه ومرت شقراء

انتفضت وسألته هل الشقراء تذكرك بالفتاة التي عرفتھا في لندن من عشر سنوات وأمضت اللقاء كله تحاول أن تستنطقه، وكأنه موعد غرام مع النائب العام، لا مع زينب كامل !

وعصمت شفيق كانت تخطط بين الحب وأعمال المخابرات ! لذتها قبلها، فنحن لا نغار ممن هم دوننا إنما نغار ممن نعتقد أنهم يتفوقون علينا. قد تغار السيدة من خادمتها لأنها تعتقد أن فيها أنوثة أكبر من أنوثتها ! قد يغار الشاب من الشيخ، لأنه أغنى منه. فلا بد أن تعبر الغيرة عن شعور بالنقص في ناحية من النواحي. وفي بعض الأحيان تصبح غيرة المرأة من امرأة أخرى هي جهاز تنبيه لرجل غافل لم يشهد في المرأة الأخرى الجمال المخبوء إلى أن تنبيهه إليه امرأته الغيور. فإذا كانت غيره المرأة من امرأة أخرى تعميها فإنها تفتح عيون الرجل !

إن عادل لا ينسى ذات ليلة كان يجلس فيها مع الممثلة اجلال فوزى ملكة الأغراء في قاعة الطعام بفندق هليوبوليس قبل قيام الحرب.

واشارت اجلال إلى الهام حافظ وهي ترقص الفالس مع زوجها وقالت لعادل :

يظهر أن هذه المرأة كانت عشيقتك !

قال لها ساخرا :

— إنها المرة الأولى في حياتي التي أراها فيها.

— اذا لم تكن عشيقتك في الماضي ..فهي عشيقتك في المستقبل

— أنت تغارين من خيالك

— إننى لست حمارة ! أنها تنظر اليك نظرات حب وأعجاب ! تكاد تأكلك بعينها !

ولم يكن عادل قد لاحظ شيئاً من هذا، ولم تكن الهام حافظ قد استترعت نظره. ولكن غيرة الممثلة اجلال فوزى كانت اشبه بضوء كشاف جعله يرقب الهام، ويتابعها بنظراته المختلصة، ليعرف ما هى هذه المرأة التى تريد أن تأكله بعينها كما قالت ملكة الأغراء..

ومنذ ذلك اليوم بدا عادل يطارد الهام، حتى تعرف بها، واحبته واحبها.. وذات ليلة كانت بين ذراعيه وراحا يستعيدان قصة الحب من أولها وقال لها عادل : النظرة التى صوبتها إلى وأنا جالس مع اجلال فوزى فى فندق هليوبوليس .. هى التى فتحت قلبى !

قالت له الهام بدهشة : ولكنى لم ارك فى تلك الليلة ! رأيت اجلال فوزى ولم ار احدا بجوارها !

قال عادل فى ذهول : ولكنك كنت تنظرين إلى بحب وأعجاب .. حتى ان اجلال قالت لى ان عينيك تكادان ان تأكلانى !

وضحكت الهام وقالت : كنت انظر إلى الممثلة اجلال فوزى. كنت قد رأيتها فى الليلة السابقة فى فيلم «عمر من الحب» وسحرتنى بجمال تمثيلها وفتنتها.. فما كدت اراها فى مطعم فندق هليوبوليس حتى اخذت املاً عيني بصورتها !

وسكت عادل ولم يقل لالهام انه لولا ان اجلال فوزى نبهته إلى هذه النظرة لما تعقبها، وانه مدين بهذه العلاقة لغيرة امرأة أخرى.

* * *

مرت هذه الذكريات امام عادل، وهو يقارن بين قسمت وبين كل النساء..

لو أن قسمت كانت امرأة كباقي النساء، لما خطر بباله ان يروى لها ما دار بينه وبين أحمد حسنين رئيس الديوان عن رغبه الأميرة في الطلاق والزواج منه، ولما ذكر لها تلميحا أو تصريحاً أى شيء عن الحادث المنتظر للأميرة فضيلة..

وقرر ان يذكر لها القصة كاملة .. ثم عدل وقرر ان يذكر لها القصة على مرتين، وبذلك يقسم المصيبة على يومين ثم عدل وقرر ان يكتفى بذكر حكاية رغبته في الطلاق ولا يذكر شيئاً من رغبته في الزواج !

ولم يلبث ان عدل عن جميع هذه القرارات، قرر ان يصمت لا يقول شيئاً.. يجب ان ينتظر أولاً حتى يتأكد من حكاية الحمل، وبعد ان يتأكد يستطيع ان يتصرف.. ماذا يدعو له لان يفتح الباب الان للعاصفة قبل ان تدق عليه الباب !

فليسكت ! لقد علمته الايام ان خير طريقة ليحتفظ الرجل بالمرأة الا يقول لها شيئاً !

وعندما التقى عادل بقسمت في المساء وجد نفسه، بغير تفكير، يروى لها القصة بكل تفاصيلها ودقائقها، كأنه يجلس امام كاهن على كرسى الاعتراف.

وبقيت قسمت تسمعه وهى صامته. لم تسأله سؤالاً. لم تطلب ايضاحاً. لم تقاطعه. وكأنها تسمع قصة لا تعنيها..

وانتهى من روايته، ورفع عينيه إلى وجهها، ليرى اثر المصيبة عليها،

فوجد وجهها تحول إلى قناع من الشمع، اختفت منه كل التعبيرات والانفعالات ..

واستمرت في صمتها..

وسألها في لهفة :

— ما رأيك !

قالت في هدوء :

— رأيي ان فضيلة مؤلفة مسرحية بارعة، ومخرجة مسرحية ابرع !

— اذن انت تعتقدين انها اخترعت الحمل !

— اعتقد انها قصدت ان تحمل منك !

— اذن فانت تظنين ان قصة الحمل حقيقية ؟

— متأكدة !

— لماذا ؟

— لأن معروف باشا اتصل بي ايضا وأبلغنى تليفونيا النبا السعيد كما ابلغك.

— ولماذا لم تقولى لى هذا ؟

— انتظرت حتى اسمع القصة منك !

كما أبلغنى، فمعنى ذلك انه لا علاقة لى بهذه المسألة.. وان المقصود هو ابلاغ البشرى لجميع الاصدقاء !

- اعتقد ان فضيله قصدت ان أعرف الخبر.. لا ستنتج على الفور
انك والد الجنين، وبذلك اقطع علاقتى بك!
- هذا اخراج مسرحى فعلا!
- وماذا تنوى ان تفعل؟
- انوى ان انتظر
- حتى تضع مولودها!
- حتى اعرف الحقيقة..
- وكيف تعرف الحقيقة وهى فى بطنها؟
- شعورى انها كاذبة!
- وشعورى انها صادقة!
- ان هذا مستحيل
- فى مثل هذه العلاقات، المستحيل هو الذى يحدث دائما!
- وماذا تريد منى ان افعل؟
- أذهب اليها!
- ولكنى قطعت علاقتى بها
- الدليل انها تعتبر علاقتك بها قائمة انها ابغتك نبأ الحسادث
السعيد!
- انها ابغتنى لتثير فضولى!

- وأبلغتني لتثير ثأرتي.. عليك!
- ذهابي اليها في هذه الظروف دليل على انها نجحت في خطتها.
- ابلاغك بنا الحادث السعيد هو دعوة لك في الحضور. لتقديم التهاني على الاقل.
- لماذا لا تذهبين انت اليها وتعرفين الحقيقة؟
- المرأة لا تقول للمرأة الحقيقة.. انها تقولها دائما لرجل!
- إذا فشلت فساذهب أنا!
- هل أنت خائف من أن تواجهها؟
- لست خائفا.. انما انا اغلقت هذا الباب ولا اريد ان افتحه!
- ولكنه مفتوح الان على مصراعيه
- ذهابي اليها اعتراف مني بأن الجنين ولدى
- هل تنكر انه ولدك؟
- أننى حائر!
- تتمنى ان يكون (لا) ..
- وتخشى ان يكون (نعم)
- لا أستطيع ان انكر أو اعترف!
- أشياء كثيرة في داخلي تقول: (لا يمكن ان يكون هذا صحيحا) .. وأشياء أخرى تقول: (ربما كان هذا صحيحا) اننى اعيش في لحظات من الشك!
- ان الشك ليس في مصلحتك!

– يقولون ان الشك دائما في مصلحة المتهم!

– في هذه الجريمة لا يوجد متهم ومجنى عليه. كل منكما متهم ومجنى عليه في وقت واحد..

– لماذا تسميها جريمة.. انها ليست جريمة.. انها اصابة خطأ!

– ولكنك تريد ان تحولها من جنحة اصابة خطأ إلى جريمة قتل.. قتل مع سبق الاصرار!

– انك تتكلمين عن فضيلة.. كأنها فتاة قاصر غررت بها!

– اننى لا اتكلم عن فضيلة.. وانما اتكلم عن تفكيرك في اجهاضها

– اننى لم اقل اننى قررت ان اجهاضها. اننى قلت لك عن خاطر مر ببالى.. وقد قلت لك اننى ضد الاجهاض!

– وضد ان تلد لك هذه المرأة ابنا!

– لا اطيع ان تكون هذه المرأة بالذات اما لابنى!

– اباء كثيرون كرهوا أمهات أبنائهم ولم يفكروا في قتل هؤلاء الابناء!

– كل ما اريد ان اتأكد منه ان هذا الجنين ليس ابنى!

– وإذا تأكدت انه ابنك

– سأجن! لقد عشت طوال حياتى اكره الاسرة المالكة.. فإذا بأول

ابن من صلبى يصبح من الاسرة المالكة! فإذا لعنت الاسرة المالكة كنت

العن ابني. وأذا حاربتها كنت احارب ابني. لقد احببتك لانك تكرهين هؤلاء الامراء!

— وساكرهم الان اكثر!

— وكيف تكون حياتي إذا ولد ابن، وحرمت ان اراه، وحرمت ان اشترك في تربيته، وشب كاولاد الامراء منحلا جاهلا تافها.

— ان الاميرة فضيلة امرأة ذكية جدا. كانت تعلم جيدا ان هذا سيكون شعورك عندما تعلم انها تنتظر حادثا سعيدا.. وكانت واثقة انك لن تتخلى عن ابنك منها!

— وماذا يفيدها كل هذا الذكاء

— لن تجد أمامك الا سبيلا واحد لكى تحافظ على هذا الولد.

— ما هو

— ان تتزوجها!

— انها مجنونة!

— بالعكس، انها عاقلة جدا

— ولكننى انا لست مجنونا!

— لقد قلت لى منذ لحظات انك ستجن إذا تأكدت ان هذا الجنين ابنك!

— كنت اعتقد يا قسمت انك تعرفيننى جيدا.. انا لست الرجل الذى يرتكب هذه حماقة!

- انبنى اعرفك جيدا.. وأعرف الاميرة فضيلة جيدا أيضا!
- ووقفت قسمت فجأة تنهيا للانصراف..
- ونظر اليها عادل في دهشة وقال:
- لماذا تنصرفين الآن؟
- لتذهب إلى الأميرة فضيله
- سأذهب غدا. الوقت الآن متأخر..
- افضل ان تذهب الآن
- اننى اريد ان امضى هذه الساعات معك.
- لن تكون معى، بعضك سيكون معى، وبعضك سيكون مع الجنين الذى فى بطن الاميرة فضيلة.. وقد تعودت عندما اكون معك، ان تكون لى وحدى!
- قلقى يضايقك!
- يضايقنى ان اراك ابا للمرة الاولى!
- عجبا! انت لم تغارى من فضيلة فى وقت من الاوقات!
- اننى لا اغار من فضيلة.. وانما اغار مما فى بطنها!
- هل كنت تتمنين لو كان الجنين فى بطنك انت؟
- نعم كنت اتمنى ذلك!
- لم يفت الوقت!

– فات الوقت !

– العمر كله امامنا

– كنت اتمنى ان يكون لدى منك هو ولدك الاول.

– ما الفرق بين الولد الاول.. والولد الأخير؟! اننى لست ملكا يرث العرش ابنى الاول.. ولست فى انجلترا حيث يرث الولد الاكبر اللقب والثروة وكل شىء، ولا يرث باقى الاولاد شيئا!

– المسألة التى تهمنى ليست مسألة ميراث.. المسألة اننى كنت اتمنى ان يخفق قلبك بشعور الابوة لأول مرة، لابن من دمي لا من دم غريمتى!

– ولكنها ليست غريمتك.. انت اخذتنى منها!

– وهى اخذت ابنك! اننى فى هذه اللحظة اتمنى ان اعيدك لها.. واحتفظ بابنك فى بطنى!

– اننى منحتك يا قسمت قلبى وحياتى، فكرى وعمرى. اننى تصورت اننى اسعدتك بحبى.

– جعلتنى اسعد امرأة فى العالم.. ثم جعلتنى اشقى امرأة فى العالم!

– أنت تعلمين ان هذا حدث قبل ان تبدأ علاقتنا بأسابيع!

– ولو كان حدث قبل علاقتنا بالف سنة!

– انا لم اخنك مع فضيلة

– انك اعطيتها ما لم تعطه لامرأة أخرى.. حتى انا.. انت اعطيتنى

صورة فوتوغرافية لك من ورق، واعطيتها هي صورة لك من لحم ودم!

— أنت اخذت الرجل.. وهي اخذت الجنين!

— سوف يصبح الجنين رجلاً!

سوف يبقى منك فيها أكثر مما يبقى منك في!

— أنت تتكلمين كأنك واثقة ان هذا الجنين ابنى.. انتظري حتى

نعرف الحقيقة!

— اننى عرفت الحقيقة كلها حيرتك قالت الحقيقة. قلقك قال الحقيقة!

رعدة صوتك وانت تتحدث عن الجنين في بطن الأميرة فضيلة قالت كل

الحقيقة! انت تعيش وسعيد في وقت واحد! انت تعيش انت تتمنى ان

تكون فضيلة كاذبة، وتتمنى في الوقت نفسه ان تكون صادقة! انت تريد

ان تحتفظ بى.. وتحتفظ بالجنين!

— انك تتخيلين اشياء غير حقيقية!

— انت الذى تتخيل اشياء غير حقيقية! انا افتح عينى لارى

الحقيقة.. وانت تغمض عينيك حتى لا تراها. اذهب الان وانظر إلى

المرأة.. سوف تجد نفسك قد تغيرت.. لست انت عادل علاء الدين زئير

النساء! الدون جوان! المغامر! الذئب! ان فيك صورة جديدة، صورة

الأب!

— تعجبك هذه الصورة!

— اكرهها!

ومضت قسمت في طريقها إلى خارج الشقة، وجرى عادل خلفها

ليمنعها من الخروج، فدفعته بيدها وقالت :

– أرجوك.. دعنى وشأنى !

– ان شيئاً جرى لعقلك !

– ان شيئاً جرى فى قلبى !

– ماذا جرى؟

– الم تسمع صوت شىء ينكسر هذا هو حطام قلبى !

* * *

جلس عادل، عقب خروج قسمت، ساهما !

ماذا جرى لهذه المرأة؟! هل هو الذى تغير أم هى التى تغيرت؟
هذه المرأة الحكيمة العاقلة، المتزنة التى كان يعجب بقوة أعصابها،
التي وجد فيها كل ما لم يجده فى أى امرأة أخرى، التى لم تشعر بأى
غيرة نحو عشرات النساء اللاتى عرفهن قبلها، التى كانت تجرّضه على
ان يحتفظ بعلاقته بالأميرة فضيلة مع استمرار علاقته بها، التى ضحت
من أجله بكل شىء.. هل من المعقول ان تغار من جنين لم يولد بعد
لا يعرف حتى الآن هل هو ابنه... ام انه لا علاقة له به !

لا يمكن انها تشك فى ان ما حدث قد حدث بعد ان أحبها، وبعد ان
اسلمت نفسها له. لا يمكن ان تتصور انه كان يخونها خلف ظهرها مع
الأميرة فضيلة. انه لم يلاحظ انه أصبح يتحدث عن الجنين كأب... لم
يعتبر ما حدث حادثاً سعيداً وانما هو يعتبره مصيبه وقعت عليه من
السماء ! انه اشبه برجل خرج من بيته إلى مكتبه فداسه الترام، فهو لم

يعرف قبل خروجه من البيت ان الترام سيدوسه، ولو انه عرف لما خرج من البيت. وملايين الناس يخرجون من بيوتهم ويذهبون إلى مكاتبهم ولا يدوسهم الترام!

وما حدث له هو حادث قضاء وقدر! لا ذنب له فيه. لم يفكر في يوم من الايام ان يكون ابا، ولا يريد حتى الآن ان يكون ابا!

ولكن كلمات قسمت جعلته يبحث في مكنونات نفسه! لعلها قرأت في داخله ما لم يشعر به بعد.. صحيح انه منذ ان سمع بقصة حمل الأميرة انشغل بها عن كل شيء آخر. وراح يفكر هل سيكون الجنين بنتا أو ولدا... وتمنى ان يكون ولدا!

وتمنى ان يكون طويل القامة مثله ومثل الأميرة، وتمنى ان يكون له لون عينيها وسمار وجهها!

ولكنها خواطر مرت عليه بسرعة خواطر ابعداها عن رأسه ولم تبق فيه سوى بضع ثوان ولم تتكرر هذه الخواطر. نسي انها خطرت بباله، ولم يذكر هذا الا بعد حديث قسمت.

صحيح انه استبعد فكرة الاجهاض لانه لا يحبها لذاتها، بل لانه يمقت القتل.. يمقت اعدام القاتل، يمقت منظر الطير المذبوح، يهرب من رؤية جثة ميت. لعل السبب في هذا انه يحب الحياة ويكره الموت يحب الخلق ويكره العدم.. كانت هذه أفكاره دائما قبل ان يعرف ان له ولدا في بطن الأميرة فضيلة!

ولكن قسمت استنتجت من كل هذه المشاعر انه أصبح ابا، وانه اب لولد ليس من دمها، وان هذا الولد سوف ينتزعه منها! أو أنه جاء

ليشاركها فيه كل ذلك قبل ان يولد الولد ! قبل ان نعرف إذا كان ولدا أو بنتا، قبل أن نتأكد انه ابن عادل أو ليس ابنه !

لابد ان هناك لحظات معينة تصاب فيها المرأة بجنون مفاجيء ! هناك أشياء تفقد احكم امرأة في العالم صوابها ! في لحظة واحدة تختفى من المرأة العبقريّة والحكمة والموهبة والذكاء وتصبح كأي امرأة جاهلة، إذا عرفت ان ضررتها انجبت ولداً لزوجها تفقد عقلها، وتتصرف كالبلهاء، وتتكلم كالمجانين، وتفكر كالمعتوهين !

المرأة تصمد كالجبل، وتثبت امام العواصف، وتتجلد امام المحن... ثم تنفجر فجأة بشكة دبوس إذا وصل رأس الدبوس إلى روحها !

ان روح المرأة هي عبارة عن بالون في داخلها. قلبها ووجدانها وشعورها وعواطفها.. وشكة الدبوس قادرة على ان تفجر هذا البالون !

ولكن الضرب بالمطرقة فوق راسها يزيد ثباتا. والضربة الهائلة في ظهرها تجعلها تندفع في طريقها ولا تنكفي على وجهها. والزوابع التي تهب عليها من كل مكان تضاعف صلابتها وعنادها !

- إنها تتحمل كل شيء إلا شكة الدبوس هذه !

وتأكد عادل ان قصة حمل الأميرة فضيلة كانت هي شكة الدبوس !

* * *

كانت الساعة العاشرة مساء عندما وصل عادل إلى قصر الأميرة فضيلة في الجزيرة، ولقد ذهب إلى هناك على الرغم من انه قال لقسمت انه لن يذهب الا في الصباح ولم يهتم بأن يذهب في هذا الموعد المتأخر..

- وفتح له الشماشرجى الباب وحياء باشتياق..
- وسأل عن الأميرة فقال الشماشرجى انها فى الطابق العلوى، وان الباشا فى مكتبه...
- وقاده إلى الصالون الكبير..
- وبعد لحظات أقبل معروف باشا فتح ذراعيه وهو يقول:
- أهلا.. أهلا!
- اننى أسف اننى جئت فى هذا الوقت المتأخر..
- على العكس أننى سعيد أنك جئت لأشكرك بنفسى.
- تشكرنى على ماذا؟
- على الحادث السعيد! اننى اعرف ان الذى حدث كان بفضلك!
- وربت بيده على كتف عادل وهو يقول ضاحكا:
- هل تظن ان الأميرة تخفى عنى شيئا!!..
- انا لا أفهم شيئا!
- ان الأميرة اخبرتني بكل شىء.. كل شىء!!

الفصل السادس والعشرون

وضع معروف باشا ذراعه حول كتفى عادل علاء الدين فى اعزاز، واتجه به إلى السلم المؤدى إلى الطابق العلوى فى قصر الاميرة.. وعندما اقتربا من الدرجة الأولى من السلم، وضع الباشا أصبعه على فمه وقال لعادل هامساً:

— تعال نصعد على أطراف أصابع أقدامنا حتى نفاجئ الأميرة!

وعجب عادل للطلب الغريب، ولم يستطع أن يعترض أو أن يسأل عن السبب، فمئذ أخبره زوج الأميرة أن حملها قد تم «بفضله»، وأن الأميرة أخبرته بكل شىء، وهو مشدوه، يمشى وكأنه منوم تنويمًا مغناطيسياً، بتحاشى أن يستفسر أو يوجه سؤالاً، بل يحرص على ألا تلتقى عيناه بعيني الزوج الذى يعلم كل شىء!

وكان مما يضاعف ذهوله تصرفات الباشا الزوج معه. فاليد التى كان يتصور أنها ستلكمه بعنف فى وجهه تربت فى حنان على كتفه. والرجل الذى دنس فراشه هو نفسه الذى يصحبه إلى غرفة نوم زوجته!

ومضى عادل يصعد درجات السلم مستسلماً على أطراف أصابعه.. واتجه به الباشا إلى غرفة نوم الأميرة التى يعرفها جيداً.. ثم طرق بأصابعه على الباب طرقات خفيفة، ولم يفتح الباب حتى سمع صوت الأميرة يقول له بالفرنسية: «أدخل»!

وأزاح الباشا عادل بجانب الباب، وأشار إليه بأصبعه أن يختفى، ثم فتح الباب وأطل برأسه وقال :

— عندي مفاجأة لك يا حبيبتي !

— أى مفاجأة؟

— المفاجأة التى تسعدك.

وإذا بالأميرة الراقدة فى مخدعها تصيح بصوت يزغرد :

— لابد أنه عادل علاء الدين !

وتسمر عادل فى مكانه عندما سمع اسمه. كيف عرفت الأميرة أنه هو! كيف توقعت أنه سيحضر إليها؟ إنه هو شخصيا لم يقرر الذهاب إليها إلا منذ خمس دقائق!

دفعه الباشا بيده إلى داخل الغرفة، وقال هو يضحك :

— تماما.. إنه عادل بك.. مصدر سعادتنا!

سمع عادل باب الغرفة يغلق خلفه. ولم يصدق أذنيه. ونظر وراءه فوجد أن الزوج فعلا لم يدخل معه إلى غرفة نوم زوجته، بل أغلق الباب وتركه معها!

وبقى عادل واقفا فى مكانه، كأن الأحداث المفاجئة المتتالية شلت ساقيه. وألقى نظرة على الفراش الكبير، ورأى الأميرة فى قميص نوم وزدى شفاف يكشف عن مفاتن جسدها، وقد رقدت فوق الفراش وأسندت رأسها إلى عدد من الوسائد، وتركت بعض خصلات شعرها تسقط فوق وجهها فتخفى نصف الوجه، وتظهر النصف الآخر، كما تفعل السحب السوداء عندما تغطى جزءا

من نور القمر، فيضيء الجزء الباقي أضعاف ما كان يضيء!

وبدت الأميرة أكثر فتنة وشبابا مما رآها في يوم من الأيام. كانت أشبه بتفاحة ناضجة في طبق من الفضة تنادى الآكلين، أكثر مما كانت امرأة راقدة في فراش. إنها لم تكن بكل هذا الجمال في آخر مرة التقى بها. هل هو الحادث السعيد الذي ملأها بكل هذه الحيوية، أم أن الأيام التي امتنعت فيها عن السهر هي التي جعلت لبشرتها كل هذه الفتنة الصارخة!

ومدت الأميرة يدها إليه كأنها تدعوه.. وتقدم نحوها وهو يتعثر، وهو يقسم نظراته بين وجهها الرائع وبطنها وكأنه يتصور أنه يستطيع بنظرة أن يرى ما في داخل بطنها!

ووضعت الأميرة يدها في تراخ بيد عادل، وتركت يدها في يده، وكأنها نسيتها بين أصابعه. وأحس بيدها تلتصق بيده وكأنها تقبلها، ثم تزداد التصاقا وكأنها تعانقها، ثم أحس بأن يدها لا تكتفى بالقبلة والعناق، بل أنها تسلط على جسده كله كهرباء لذيدة..

وأحس بيده تتخدر في كفها تخديرا لذيذا، وأيقظه من هذه الاغفاءة الحالمة صوت الأميرة الناعم الساحر وهو يقول:

— كنت واثقة أنك ستجىء!

وضايقته ثقتها بنفسها فقال لها متظاهرا بالبرود:

— ما الذي جعلك واثقة كل هذه الثقة؟

— قلبي!

— ماذا قال لك قلبك؟

– إنك لابد أن تجيء.. لن تعرف اننى حامل حتى تسرع فى الحضور.

– لاطمئن عليك!

– لتطمئن على ولدك!

– ولدى؟

– هل تشك أنك الاب الوحيد؟

– متى حدث هذا؟

– فى الليلة التى كنا نقف فيها معا بشارع النيل فى الجيزة!

– كيف عرفت؟

– الدكتور نجيب باشا محفوظ طبيب الملكة!

– قال إنه ابنى!

– حدد اليوم.. وكنت أخشى أن يحدد الساعة!

– ما يدريك.. أن هذا الحمل ليس من زوجك؟

– بل هو منك أنت..!

– وماذا فعل زوجك عندما عرف أنك حامل؟

– رقص من الفرحة!

– إن زوجك قال لى أن هذا الحادث السعيد تم بفضلى..

– إنها الحقيقة.. وأنا مستعدة أن أقولها فى كل مكان!

– فى كل مكان؟ هل أنت مجنونة؟

- إننى أعقل مما تتصور!
- لو كنت عاقلة لما فضحت الدنيا!
- هل هى فضيحة أن أصبح أما؟
- كيف تكونين عاقلة، وتقولين لزوجك إنه لولاي لما حملت!
- لآنك علمتني أن أكون صريحة!
- هذه ليست صراحة.. أنها حماقة!
- ماذا كنت تتصور أن أفعل؟
- أن تخفى الجريمة!
- كيف أخفيها وهى تكبر كل يوم فى بطنى؟
- الا تذكرى اسمى!
- لم أتعود أن أخفى اسم صاحب فضل على!
- اننى أفضل أن أكون فاعل خير!
- ماذا يضايقك أن أشيد بفضلك!
- يضايقنى اننى لا أستطيع أن أضع عينى فى عينى زوجك!
- ولكنه الآن يحبك أكثر!
- لا يهمنى أن يحبني أكثر اننى أشعر بخجل غريب منه! لقد أحسست أنه قتلنى عندما عانقنى! وذبحنى عندما تركنى وحدى معك فى غرفة النوم وأغلق الباب!

– هذا دليل على الثقة !

– ثقة الزوج المخدوع بعشيق زوجته تجعل العشيق تغيثا إذا كان صاحب ضمير !

– ولكنه لا يعرف أنك عشيقى ؟

– كيف لا يعرف أننى عشيقك.. وهذا الجنين هـ هو ابنى !

– ما أجمل صوتك عندما تنطق بكلمة « ابنى » ! إنها أحلى كلمة سمعتها منك فى حياتى !

– أنا لا أفهم ماذا قصدت بأن تقولى لزوجك كل شىء !

– أنا لم أقل له كل شىء...

– قلت له إن هذا الحمل تم بفضلى.. ولولائى لما حملت !

– نعم قلت له هذا..

– وبعد ذلك يأخذنى بالاحضان !

– إن هذا أقل مما يجب أن يفعله !

– أنه زوج نموذجى..

– أنه فعل ما يجب أن يفعله أى جنتلمان !

– جنتلمان، الجنتلمان يقتل عشيق زوجته !

– ولماذا يسمونه جنتلمان ؟

– لانه لم يقتل الزوجة الخائنة !

- انك لم تفهمه !
- بل افهمه جيدا !
- انه يحترمك جدا..
- يحترمنى لاننى جعلتك ترزقين ولدا؟
- نعم !
- لقد سمعت عن أزواج مغفلين، ولكن زوجك هذا هو الاول من نوعه !
- ان ما حدث له حدث لكثيرين غيره !
- إنها المرة الاولى التى أسمع قصة كهذه !
- هل كل المشكلة التى تضايقك هى أن زوجى عرف أنك أب الجنين الذى فى بطنى؟
- نعم !
- إذن فلا مشكلة هناك !
- كل هذا الا تسمينه مشكلة !
- إن زوجى يعتقد أن هذا الجنين هو ابنه هو !
- ولكنه قال إن الحمل تم بفضلى !
- لاننى قلت له أنك احضرت لى دواء من انجلترا، وأن هذا الدواء هو الذى جعلنى أحمل !
- ولكنك قلت إن هذا الحمل منى !

- بل قلت له إن هذا الدواء يطيل مدة الحمل
- وصدقك؟
- طبعا.
- وإذا طلب منك أن يرى الدواء؟
- أقدم له أحد مساحيق التجميل التى عندى!
- انك امرأة خطيرة.
- كل امرأة فى مكانى ستفعل ما فعلت!
- إن قدرتك على الكذب عجيبة!
- الحب يعلمنا كيف نكذب!
- ما يدرينى أنك تكذبين على أيضا كما كذبت عليه، وأن هذا الجنين ليس ابنى؟
- لا يهمنى أن تصدق أنه ابنك أو لا.. كل ما يهمنى أنه ابنى أنا!
- من حقى أن أعرف!
- ما دمت تعتقد أنه ليس ابنك فلا حقوق لك!
- ماذا تعنين!
- أعنى اننى لم أطلب منك أن تعترف به. لم أطلب منك نفقة. لم أطلب منك أن تتحمل أى مسئولية!
- إذن لماذا دعوتنى إلى الحضور؟

– لاننى تصورت أنك ستسعد إذا عرفت أنك ستصبح أبا!

– اننى أب من منازلهم! أشبه بالتلاميذ الذين يتقدمون إلى الامتحان دون أن ينتسبوا إلى مدرسة اننى أعرف شعور الابن غير الشرعى. ولكنى لم أعرف قبل الآن شعور الاب غير الشرعى!

– وماذا يمنعك أن تكون أبا شرعيا؟

– كيف ذلك؟

– ان تتزوجنى!

– وما فائدة هذا الزواج؟

– تعيش مع ولدك فى بيت واحد!

– وعندما يبلغ عمره سبع سنوات يأخذه معروف باشا طبقا للقانون!

– اننى استطيع أن أحصل منه على تنازل عن حضانة الولد!

– إذن لقد فكرت فى كل شيء!

– نعم.. وعندما أخبرنى الدكتور نجيب محفوظ اننى حامل، طلبت من حسنين باشا رئيس الديوان الملكى أن يستأذن من الملك بأن يوافق على طلاقى لاتزوجك!

– وهل أخبرته أنك حامل؟

– نعم!

– ولماذا لم تخبرينى قبل أن تخبرى رئيس الديوان؟

– فضلت الا اخبرك بأى شىء حتى يتم طلاقى، فلا تتصور أننى أخرجك
للتزوجنى !

– وماذا قال لك حسنين؟

– نصحنى أن اتخلص من الجنين !

– وماذا قلت له ؟

– قلت له اننى أفضل أن افقد لقب الامارة على أن افقد ابنى !

– ولماذا لم تحاولى الاتصال بى قبل الآن ؟

– لاننى مشغولة بحب جديد !

– هل من حقى أن أعرف اسم العاشق الجديد !

– ان من حقك أن تعرفه لانك تعرفه جيداً !

– عمر الفلسطينى ؟

– لا .

– من هو إذن ؟

– ابنى !

– ابنك ؟

– اننى أعيش الآن فى قصة غرام لم أعش مثلها طوال حياتى ! ولا معك !
لأول مرة فى حياتى أشعر اننى أمتلك رجلاً ! وهذا الرجل فى بطنى ! إنه لى
وحدى لا يشاركنى فيه أحد .

– وكيف عرفت أنه ولد ؟

– الدكتور نجيب محفوظ قال إنه ولد – ٨٠ في المائة أنه ولد !
– ولكن الاطباء لا يستطيعون الجزم في مثل هذه الأمور !
– أنه هو الذى قام بتوليد أمى .. وقال لها قبل الولادة بثمانية شهور اننى
سأكون بنتا !

– الم تفكرى فى التخلص من الجنين ؟
– لم أفكر لحظة واحدة !
– لأنك خشيت من عملية الاجهاض على حياتك .
– بالعكس ، لقد قال لى الدكتور نجيب محفوظ إنه يخشى على من عملية
الولادة ، وقلت له إننى أفضل أن أموت ويعيش ابنى !
– انك تغيرت كثيرا !

– أصبحت أما !
– وهذا هو السبب الذى جعلك تمتنعين عن الحفلات الراقصة
والسهرات !
– من أجل غرامى الجديد !

– ولكنى ألاحظ أن حبك لى قد فتر .. حتى عرضك فكرة الزواج منى
عرضتها على وكأنك تدعينى إلى حفلة شاي .. وتتركين لى الحرية فى أن
أحضرها أو اعتذر عن عدم الحضور !

– لأن قلبى لا يتسع لرجلين فى وقت واحد !
– إذن لم يعد يهمك أن أتزوجك أو لا أتزوجك .

– لم يعد يهمنى أبى شىء سوى ابنى !

– ومتى مات حبى ؟

– عندما ولد الجنين !

– إذن دعوتنى اليوم لتقولى لى إن حبك لى قد مات !

– لا.. دعوتك لأقول لك اننى اعترف بفضلك، واننى لن أنسى ما فعلت لى مدى حياتى.. وأن من حقك أن تتزوجنى إذا أردت أن تكون قريبا من ولدك.. ومع ذلك فاننى لن أغضب إذا رفضت أن تتزوجنى اننى أعلم أن لديك اسبابا وجيهة تمنعك من زواجى !

– ما هى هذه الأسباب الوجيهة ؟

– أعلم أنك فى دوامة ! أعلم أنك فكرت فى أن تجهضنى، ثم ترددت فى أن تقتل طفلا بريئا لا ذنب له فيما فعلنا !

– فكرت فى كل هذا فعلا !

– وأعلم أنك قلت لنفسك لا يمكن أن اتزوج هذه المرأة بعد أن اعترفت بلسانها بكل ماضيها.. ربما لو كنت كذبت عليك، وقلت لك إنك أول رجل فى حياتى لتزوجتنى !

– انك تقرئين أفكارى.

– أصبحت أفهمك أكثر عندما أصبح ابنك فى احشائى، وأعرف اننى لن أكون سعيدة معك إذا تزوجتك.

– كنت تقولين لى فى الماضى إنك ستكونين أسعد امرأة إذا أصبحت زوجك.

– كان ذلك قبل أن أقع في حبي الجديد اننى الآن لن استطيع أن أعطي
أى رجل إلا جزءاً قليلاً من حبي واهتمامى ! لقد وجدت الرجل الذى كنت
أبحث عنه .. وجدت ابنى !

معنى هذا أنه لن يكون لك عشاق بعد اليوم !

– كل هذا انتهى، ستكون كل أيامى وليالى لولدى !

– كانت حياتك فى أن ترقصى كل ليلة !

– لن أرقص بعد اليوم !

– تخافين على الجنين ؟ !

– أخاف على سمعة ابنى لا أريد أن يشير إليه الناس بأصابعهم
ويقولون هذا ابن الأميرة العابثة !

– وماضيك ؟ وعشاقك الثلاثون ؟

– الواحد والثلاثون .. لقد نسيت نفسك !

– نعم، ماذا سيقول الناس عنهم ؟

– عندما يكبر ابنى ويصير فى الواحدة والعشرين من عمره سيكون الناس
قد نسوا كل شىء عن الأميرة العابثة . الجرائم تسقط بعد عشر سنوات .
والجنح تسقط بعد خمس سنوات ، والماضى كله يسقط بعد ٢١ سنة .

– لا أصدق أنه يمكنك أن تغيرى من طباعك وأفكارك ومغامراتك ونزواتك
لأنك أصبحت أما !

– سترى بنفسك ! تعال فى أى وقت لتتأكد أننى تغيرت !

.. ولكنك تقولين أنك لن تعرفي الرجال بعد اليوم.. فكيف تستقبلينني الآن؟

.. باعتبارك والد ابني.. هذا حقك الشرعي!

.. لن تسمحى لى بأن أقبلك!

.. تستطيع أن تقبلنى فى جيبينى!

.. إنك تمزحين!

.. لم أكن فى حياتى جادة كما أنا اليوم!

.. إذن قررت أخيرا أن تخلصى لزوجك،

.. سأخلص لابنى!

.. بقاؤك بلا عشاق هو إخلاص لزوجك!

.. سأخونه كلما نظرت إلى ابنى!

.. إننى لا أفهمك!

.. لأنك لم تكن أما فى يوم من الأيام!

.. المفروض أننى أب.. ومع ذلك لا أفهمك!

.. لن يمكنك أن تفهمنى.. للأمومة رائحة لا تشمها إلا أنف الأم إنه عطر غريب له رائحة لذيذة. رائحة تفوح من داخلى.. أشمها وحدى إنها أجمل من كل روائحى وعطورى، إنها تخدرنى.. تسحرنى.. تحملنى إلى سماء جديدة.

.. إنك أصبحت شاعرة، لعلك تضيعين وقتك فى قراءة الشعر!

— لا وقت عندي للشعر إننى أضيع وقتى فى حياكة الملابس لابنى !

— أنت الأميرة فضيلة تمضين وقتك فى حياكة ملابس طفلك ؟

* * *

ومدت الأميرة يدها تحت السرير وأخرجت عددا من ملابس الأطفال التى صنعتها بيديها، واختارت منها «بلوفر» أزرق من الصوف وأمسكته بفخر واعتزاز وضمته إلى صدرها وقالت :

— سيحتاج إلى «بلوفر». لأنه سيولد فى الشتاء.

ثم مدت يدها تحت السرير، وأخرجت «بلوفر» أزرق من نفس الصوف، وأمسكته فى يديها..

وقال عادل ضاحكا :

— هذا «بلوفر» رجل كبير. هل تحيكين مختلف المقاسات للمولود حتى سن الواحدة والعشرين ؟!

قالت وهى تحنى رأسها فى حياء :

— لقد صنعت هذا «البلوفر» لك ؟

— لى.. أنا ؟

— نعم. لقد بقيت كمية من الصوف فصنعت لك «بلوفر»..

— المفروض أن تصنعى «بلوفر» من المقاس الكبير.. فإذا بقى صوف زيادة تصنعين منه «بلوفر» للطفل الصغير !

— إننى أبدأ بولدى أولا.. وما يفيض منه أقدمه لك.

— وهذا ما سوف تفعلينه بعواطفك !

— عواطفي له وحده.. دعنى أرى هل « البلوفر » يناسب مقاسك ؟ اخلع
الجاكتة.

وخلع عادل الجاكتة وارتدى البلوفر فوجده مقاسه تماما ، فقال فى دهشة :

— كيف عرفت مقاسى ؟

— ذراعى اللتان عانقتاك طويلا حفظتا مقاس صدرك !

— إنك تذكريننى بقصيدة لعباس محمود العقاد.. صنعت له حبيبتة
« بلوفر » بيديها فكتب يقول :

ألم أنل منك فكرة ؟

فى كل شكة ابرة ؟

وكل عقدة خيط ؟

وكل جرة بكرة ؟

نسجته بيديك ؟

على هدى ناظريك

إذا احتوانى فإنى

ما زلت فى أصبعيك !

— ولكنك لم تعد فى أصبعى !

— ولا فى قلبك ؟

— فى ابنى فقط!

— بدأت أغار من ابنى!

— إنك تعترف الآن أنه ابك.

— الجنين الذى يغيرك كل هذا التغير لابد أن يكون ابنى!

— لأنه يتحكم فى!

— لأنه حولك من مجنونة إلى عاقلة وهذا ما فشلت فيه!

— ربما أكون أول امرأة تتشكل بصورة ولدها!

— لو أنك كنت بهذه الصورة التى أراها الآن لتغير وجه التاريخ!

— تاريخ مصر؟

— لا.. تاريخى أنا!

— لتزوجتنى؟

— طبعاً!

— ولكن، كان من المستحيل أن أصل إلى هذه الصورة التى وصلت

إليها، دون أن أمر فى كل المغامرات التى مررت بها!

— السر أنك كنت تبحثين دائماً عن رجل تملكينه. ولعلك فى تبديك

وتغييرك الرجال كنت تقلبين الرجال بين يديك، باحثة عن رجل يكون لك

وحدك.. تتولين تربيته وتنشئته، وتهذيبه، وتأديبه، وضربه فى بعض الأحيان!

ولم تجدى هذا الرجل حتى. أنك عندما تزوجت تعمدت أن تختارى رجلاً

بلا شخصية، يمشى خلفك، يطيع أوامرك، يستمد وجوده منك، ومع ذلك لم

تجدى فى زوجك ما تبحثين عنه... وعندما وجدتنى أمامك خيل إليك أنك
قادرة على أن تصنعى هذا الرجل الذى تملكينه. الطين الذى تصنعين منه
التمثال الذى تحلمين به.. ولكن التمثال لم يلبث أن ثار على المثال..
وعندما حملت تصورت أن الجنين الذى فى بطنك هو العجينة الطيبة التى
تتشكل فى يدك كما تريدان، فعشقت العجينة قبل أن تصبح تمثالا.

– إنك نسيت أننا بدأنا علاقتنا بصفعة منك على وجهى، يظهر أن الذين
يصفعون ينسون ما فعلت أيديهم، والذين ينالون الصفعات على وجوههم هم
وحدهم الذين يذكرون الصفعات دائما!

– أنا لم أنس الصفعة! ولعلك وجدت لذة فى ترويض هذا المتوحش
وتحويله إلى حيوان أليف! إننى أعرف سيدة هولندية كانت تقتنى أسدا
صغيرا خلعت أنيابها، وكانت نجد لذة فى أن تجره وراءها ككلب مطيع.

– أنا لم أحاول خلع أنيابك فى يوم من الأيام! لقد كنت أحب هذه
الأنياب!

– حتى عندما أغرسها فى جسدك!

– كانت لذتى الكبرى أن تغرسها فى جسدى! كنت أسعد بك وأنت
تشتمنى كأنك تغمرنى بكلمات المديح! كنت أطلع إلى الاحمرار الذى تركته
صفعتك على وجهى، وكأنه بصمات شفتيك على خدى!

– إنك لم تقولى لى كل هذا وأنت تحبيننى!

– عندما يجتمع العاشقان لا يحتاجان إلى كلمات!

– ولهذا تتكلمين الآن.. لأن العشق قد انتهى!

– نعم !

– وسوف تنسيننى مع الأيام !

– أنا المرأة الوحيدة الى لا أستطيع أن أنساك، ولو حاولت أن أنساك،
عندما يهجر العاشق امرأة فإنها تقلب خطاباته القديمة، تخرج صورته،
وتبحث عن كلمة الاهداء الأخيرة.. تذهب إلى الشجرة التى حفرها عليها
اسميهما فى الحديقة.. أما أنا فليس عندى خطاب منك، ولا صورة لك،
ولا شجرة حفرت عليها اسمك مع اسمى فى صورة قلب.. إنك كتبت أبلغ
خطاب حب يكتبه رجل لامرأة، تركت أجمل صورة، حفرت اسمك فى أجمل
مكان.. تركت ابنك فى جسدى.

– إنك تعذبيننى بهذا الكلام !

– لأن الحقيقة تحرق أصابعنا دائما !

– إننى أكره أن تتحدثى دائما عنى بالفعل الماضى، كأننا لن نرى بعضنا
بعد الآن !

– أنا وأنت أشبه بعاشقين حجزا غرفة لاثنتين فى غرفة واحدة، غرفة
واحدة ستبقى لنا طول الحياة. هذه الغرفة هى ابنى وابنك !

– ولكنك قررت أن تبقينى خارج الغرفة !

– أنت فى هذه الغرفة دائما شئت أم لم تشأ ! أنت مقيم دائما فى ولدك
الذى اعتقد أنه سيكون صورة منك !

– قد يكون ولدا جميلا.. ويصبح صورة منك أنت !

– لقد قررت أن يكون شبك وسيكون شبك !

– إنك عدت تتكلمين لغة الأميرة.. لغة الأوامر! إنك الآن تصدرين أمرا إلى القدر!

– إننا عندما نصلى نستعمل فعل الأمر ونقصد به الرجاء! ألا تقول ارحمنى يارب! انصفنى يارب! احمنى يارب!

– كأنك تصلين أيضا!

– بدأت أصلى منذ اليوم الأول الذى عرفت فيه أنى حامل!

– أنت تمزحين!

– إننى رأيت الله!

– أنت أول كباريه فى حياتى رأيتَه يتحول إلى مسجد!

– إن المصيبة الكبيرة تجعل بعض المؤمنين يكفرون.. والنعمة الكبرى تجعل الملحدين يؤمنون!

– أعرف أن الحب يصنع المعجزات! يشفى المريض، ينطق الأخرس، يحول الرجل العادى إلى عبقرى، ولكنى، لم أعرف قبل اليوم أن جنينا فى بطن امرأة يفعل فيها كل ما فعله فيك.. وينجح فيما فشل فيه الرجال!

– لا أشعر أن فى بطنى جنينا.. أشعر أن فيه حياة!

– أنت تتكلمين كأنك أصبحت طاهرة.

– وهذا الابن.. معبدى!

– إن حبك تحول إلى جنين!

– قد تظن أننى مجنونة إذا قلت لك إننى أسمع منذ الآن نبض ابنى

وأتصور أنه يكلمنى.. وأمضى ساعات من يومى أتحدث مع هذا النبض،
أناديه، أدله، أحاوره، وأقص عليه مشروعاتى له.. قلت له ذات يوم «إننى
تبت عن حياتى الماضية»، واعتقد أنه سمعنى. وأننى ارتبطت أمامه بوعده
شرف لا يمكن أن أخل به.. قلت له إننى سأكون عاقلة من أجله.. فاضلة من
أجله.. سأحاول أن أصبح «فضيلة» مثل اسمى.. بعد أن كنت أسخر من
اسمى، وأقول إنهم أطلقوا على هذا الاسم كما يطلقون على الزنجية اسم
«قمر» وعلى العبد اسم «سيد».. وعلى الظالم اسم «عادل»!

— إذن أنت تعتقدين أننى ظلمتك؟

— نعم ظلمتنى.. لأنك لم تظهر فى حياتى قبل الآن بعدة سنوات!

— تندمين على ما فعلت!

— لا.. أندم فقط لأننى لم أصبح أما منذ وقت طويل.

— إنك مفتونة بهذه الأمومة.. ربما تشفين منها بعد أن تضعى ولدك..

وربما تضعين بنتا!

— سيكون ولدا!

— وإذا كانت بنتا!

— سوف استدعيك مرة أخرى!!

الفصل السابع والعشرون

دخل الشاويش ابراهيم زنزانة عم عبده يحمل نسخة من جريدة «المقطم» وناولها إياها وهو يقول:

— اقرأ «المقطم» إن فيه أخبارا هامة.

— قال عم عبده وهو يتصفح الجريدة:

— هل انتهت الحرب.

— قال الشاويش ابراهيم:

— كلا.. أعلنت الحرب! أعلنوا الحرب عليك!

— من الذى أعلن الحرب؟

— الحكومة طبعاً.

وانصرف الشاويش ابراهيم، وراح عم عبده يقلب صفحات جريدة «المقطم»، ثم قفز من فوق فراشه، وأمسك الجريدة في يده يقرأها، وهو يمشى في زنزانته ذهاباً وإياباً.. كانت عيناه تتسعان من الدهشة. يتوقف لحظة ويعيد قراءة السطور من جديد ويستأنف السير بعد ذلك.

إنه وجد في الجريدة صفحة كاملة عن قضيته. عناوين بالحروف الكبيرة

تعلو الصفحة. وبهت عم عبده كلما مضى في القراءة. إنهم ينسبون إليه اعترافات لم يدل بها. يقولون على لسانه تصريحات لم يقلها. يلفقون له عدة تهم لم يسمع بها.

وعاد عم عبده يقرأ من جديد وهو لا يصدق عينيه. لا بد أنهم يتحدثون عن قضية. أخرى غير قضيته.. وعن عم عبده غيره!

الاسم اسمه. والسن المذكورة هي سنه. وصفاته الجسمانية مضبوطة. كل ما قيل عن طوله وعرضه، ولون بشرته، وتقاطيع وجهه صحيح لا شك فيه. والمنشور الذي اتهموه بطبعه ويحرض على كراهة الانجليز صحيح أيضا.

ولكن الاعترافات المنسوبة إليه لا أساس لها من الصحة. إن جريدة «المقطم» تقول إن المتهم عم عبده اعترف بأنه يعمل لحساب هتلر، وأنه متصل بالألمان، وأنه أخذ منهم الرشاوى ليعمل لصالحهم، وأنه تواطأ مع الألمان ليدخلوا القاهرة على حين غفله من أهلها، وأنه قام باتصالات سياسية عرضت أمن الدولة للخطر إذ تخاير مع الأعداء في وقت الحرب، وأن مهمته هي العمل على خراب مصر وإثارة الفتنة فيها لتصبح مستعمرة ألمانية تابعة للمحور!

ذهل عم عبده لهذه الاتهامات الكاذبة والاعترافات المختلقة، إن هوى بعض الناس ألا يهاجموا إلا المقيدين في السلاسل الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. لذتهم أن يتحدوا المكتمين الذين تمنعهم كماماتهم أن يفندوا التهم الباطلة، يشبهون الضباع التي لا تأكل إلا جثث الموتى!

كيف يستطيع أن يدافع عن نفسه وهو في زنزانته؟ إنه لا يستطيع أن يكتب خطابا إلى الجريدة يفند فيها هذه التهم ويرد على هذه الأكاذيب! القانون يمنع كل انسان حق الرد على ما تنشره أى صحيفة. يوجب عليها أن تنشر

الرد في نفس المكان، وفي نفس المساحة، وألا تعرض رئيس التحرير
للسجن !

ولكن في ظل الأحكام العرفية يصبح هذا القانون حبرا على ورق ! الرقيب
الذي تعينه السلطات العسكرية يصبح رئيس التحرير الحقيقي، هو الذي
يسمح بالنشر ويمنع النشر. هو القانون، هو الاله الذي يعز من يشاء ويذل من
يشاء وما دام الرقيب قد أمر بنشر هذه الصفحة ضد عم عبده، فمعنى هذا
أنه أمر الهى لا يقبل مناقشة، ولا يجوز لأحد أن يعترض عليه !
تذكر عم عبده كيف أن الرقيب كان يفرض على الصحف المصرية أن
تنشر اتهامات لزعماء المعارضة وتتحداهم أن يردوا.. فإذا أرسل الزعماء
ردودهم وفندوا هذه الاتهامات، منع الرقيب نشرها.. وتبقى هذه التهم معلقة
فوق رؤوس الأبرياء، ثم تجيء الحكومة في اليوم التالي وترغم الصحف على
نشر بيانات تقول : تحديناكم أن تردوا على الاتهام فعجزتم عن الرد أيها
الجبنة !

ولكن إذا كانت الحكومة تتبع هذه الأساليب الملتوية مع الزعماء، فما
قيمة هذا الرجل الضعيف المتشرد، حتى تعبى الحكومة قواها وتهاجمه في
زنانته ؟

هل يمكن أن تخشى الحكومة القوية هذا السجين في زنانيته ؟ هل
الحاكم القوى الجبار عندما يظلم الأبرياء، يخاف منهم وهم في قيودهم، أكثر
مما يخاف منهم وهم في عالم الأحرار؟ هل للمظلومين قوة سحرية تهز
المقعد من تحت الظالم، هل يمكن أن يتحول انينهم الخافت إلى ضوئ
الرعد في أذنه، ولهذا يسارع ليطش بهم في أعماق زناناتهم ليخرس حتى
هذا الأنين ؟

ومضى عم عبده يقرأ تاريخ حياته المنشور في جريدة «المقطم». تفاصيل كثيرة من حياته ليس فيها كلمة واحدة صحيحة.

الجريدة تقول إنه كان موظفا في مصلحة البريد، وفصل منها بتهمة مخلة بالشرف!

وابتسم عم عبده ساخرا. إنه لم يكن موظفا في مصلحة البريد، ولم يدخل في حياته مصلحة البريد، بل إنه لم يرسل في حياته خطابا بالبريد، بل إنه لم يفكر أن يتسول أمام مصلحة البريد أو أمام أى مكتب بريد.

لقد كانت منطقة نفوذه في التسول مقتصرة على ميدان الأوبرا، والمسافة بين ميدان الأوبرا وميدان العتبة الخضراء حيث تقع مكاتب مصلحة البريد حوالى كيلو متر، وهذه المنطقة هى منطقة اختصاص الشحاذ عم برهومة وأولاده المسئولين عن ميدان العتبة الخضراء!

بل هو لم يعمل في يوم من الأيام في أية وظيفة حكومية، ولم يفكر في أن يتسول أمام أى إدارة حكومية لأنه يعرف أن أغلب الموظفين يعيشون حياة تشبه حياة المتسولين، وأغلب المترددين على مكاتب الحكومة هم متسولون مختلفو الأشكال والأحجام.. ولم يكن طبيعيا أن يتسول من المتسولين، أو أن يبيع الماء في حارة السقايين!

ما الذى جعل جريدة تعينه بدون مناسبة موظفا في الحكومة؟ لعلها عينته لتفصله من خدمة الحكومة بتهمة مخلة بالشرف!

ولكن، ما هى الجريمة المخلة بالشرف التى تشير إليها جريدة «المقطم» إنها تركت التهمة عائمة ليفسرها كل قارئ على هواه. سوف يقول اللصوص إنه نصاب، وسوف يقول النصابون إنه لص.. سوف يقول قارئ إنه مزور،

وسوف تقول قارئه إنه هتك عرض قاصر. وسوف تعتقد الأغلبية أنه كان يدير بيتا للدعارة السرية !

الرقابة على الصحف علمت القارئ المصرى أن يقرأ بين السطور، فإذا كان الخبر فى سطر واحد قرأ بين الكلمات ! وهو يعتقد أنه مادامت الصحف مقيدة، فلا يمكن أن تقول كل الحقيقة. فلو أن الحكومات أرادت أن تقول الصحف الحقيقية، لأطلقت لها الحرية، ولما فرضت عليها الرقابة والقيود. ولهذا، فإن القارئ يقرأ الصحيفة بخياله أو بذكائه أو بالفهلوة، ولهذا يقرأ كل قارئ الخبر الواحد بطريقة مختلفة، فالذى يؤيد الحكومة يقرأ نفس الخبر على عكس ما يقرؤه القارئ الذى لا يؤيد الحكومة !

وتذكر عم عبده كيف أن حكوماتنا هى التى تكذب وليست الصحف. عندما كان رئيس الحكومة يقول إن وزارتى لم تكن فى يوم أقوى مما هى الآن، كان القراء يعرفون على الفور أن الوزارة على وشك الاستقالة ! وعندما كان صدقى باشا يقول أن المفاوضات قادمة لا ريب فيها، كان القراء يتأكدون أن الانجليز لن يفاوضوا صدقى باشا ! وعندما تصدر الحكومة بلاغا رسميا تنفى ما نشرته جريدة يقطع قراء الجريدة بأن ما نشرته هو الخبر الصحيح.. ولو أن كاتباً فكر فى أن يجمع جميع تصريحات رؤساء الوزارات والوزراء ويضعها فى كتاب لشعر مسيلمة الكذاب أنه لا يستحق هذا اللقب فى كتب التاريخ !

ولكن ماذا يهم عبده لو صدق الناس ما نشرته جريدة «المقطم» أو لم يصدقوه؟ إنه لا يهمه رأى الناس. يهمه شخص واحد هو الأنسة كاف !

لن تصدق قسمت هذه الأكاذيب إنها تعلم أنه برىء وأنه لا يعمل لحساب هتلر، ولا يدعو لتصبح مصر مستعمرة ألمانية.. إنها وحدها تعلم أنه لم يكتب هذا المنشور !

ولكنه يخشى أن تصدق أنه كان يعمل في مصلحة البريد وفصل منها
بتهمة مخلة بالشرف.. لا بد أن يقول لقسمت في أول لقاء معها بأنه لم يكن
يعمل في مصلحة البريد !

وعاد عم عبده يقرأ بقية الموضوع المنشور. وقرأ تحت عنوان «حياته
الخاصة»، ما يأتي !

«وقد دلت التحريات الواسعة الدقيقة التي قام بها سعادة الحكمدار
اللواء رسل باشا، وسعادة الأميرالاي أبلت بك نائب الحكمدار والأميرالاي
سليم زكى بك رئيس القسم السياسى وكبار معاونيه من الضباط الأكفاء
المشهود لهم بالمهارة في التحقيقات في القضايا السياسية الكبرى، أن
المتهم كان يمضى لياليه في الأندية الليلية والمواخير. وقد اعترفت راقصة في
صالة بديعة مصابنى أنها كانت على اتصال بالمتهم، وأنه كان ينفق عليها
عشرات الجنيهات في الليلة الواحدة وأنه أخبرها بأنه يعمل لحساب هتلر،
ويتأمر لدخول الجيش الألماني إلى مصر، وأنها ما كادت تعرف هذه
الحقائق عنه، حتى قطعت على الفور علاقتها به، وضحت بكل الأموال التي
ينفقها عليها عندما تأكدت أنه يتأمر على سلامة الوطن» !

وقهقه عم عبده بصوت عال !

تري ، من هي هذه الراقصة الوطنية التي داست بقدمها على منات
الجنيهات من أجل مصلحة الوطن ؟

أنه بحكم عمله في ميدان الأوبرا حيث تقع صالة بديعة، كان يعرف وجوه
كل الراقصات وأسماءهن، بل وتاريخ حياتهن وأسماء عشاقهن !

كان يراهن عندما يلتحقن بصالة بديعة، وعندما يتحولن إلى كواكب

ونجوم. رأى بعضهن يدخلن الصالة حافيات. ويخرجن منها في سيارات فاخرة! يدخلن وليس معهن أجر الترام ويخرجن ومعهن ألوف الجنيهات! يدخلن دميمات ويخرجن ملكات جمال!

كانت صالة بديعة هي مصنع الجمال في تلك الأيام. وكان للسيدة بديعة مصابنى صاحبة الصالة قدرة عجيبة على أن تخرج من الفسيخ شربات! كأنها تحمل عصا سحرية لا تضعها على رأس الفتاة الكسيرة، الخجول، الصامته الرثة الثياب، حتى تتحول إلى امرأة ترقص، وتكشف عن مفاتها وتتكلم السبع لغات!

وكانت بديعة لها نظرة غريبة في المرأة، بنظرة واحدة تستطيع أن تعرف من تصلح لتكون غانية ومن لا تصلح إلا لتكون ست بيت! المرأة القادرة على أن تجلب الزبائن والمرأة التي تطفش الزبائن! الفتاة التي تصلح لترقص في مكان آخر!

وكان ضباط الحلفاء وجنودهم يجيئون إلى القاهرة في اجازاتهم من ميدان القتال في الصحراء عطاشا للخمر، جوعى للنساء، وكانوا يترددون على صالة بديعة.

وربحت بديعة أموالا طائلة، ولولا إسرافها وحبها للبذخ وكرمه لأصبحت من صاحبات الملايين وكانت تعشق الرجال أضعاف ما تعشق المال. وكانت تحب قاضيا شابا يصغرها بثلاثين سنة. وفي سبيل هذا الهوى الجارف أهملت الإشراف بنفسها على شئونها المالية. وسرقها بعض موظفيها، وأصبحوا أكثر ثراء منها، ولم يهملها هذا فقد كانت كل سعادتها في الرجل الذي عشقته وأخلصت له الحب وفضلته على كل رجال العالم... وبعد ذلك تركها وتزوج فتاة لا علاقة لها بالفن أو بالرقص!..

وأضت بديعة باقى سنوات حياتها تبكى على الحب الضائع، ولا تبكى على الملايين التى سرت منها.

وكان عم عبده يتابع من بعيد قصة غرام بديعة.. ويتابع من بعيد أيضا قصص غرام عشرات الراقصات اللائى يعملن معها... ولكن من تكون الراقصة التى شهدت ضده، والتى اختلفت الروايات عن علاقته بها!

إن الراقصة الوحيدة التى يعرفها معرفة شخصية من هؤلاء السراقصات جميعا هى الراقصة المشهورة «نشوى عبده»

إنه يذكر يوما كان واقفا يتسول فى مكانه المعتاد فى ميدان الأوبرا.

كان جو القاهرة صيفا، والوقت ظهرا وحرارة الشمس طردت الناس من ميدان الأوبرا، كأنهم ذابوا فى أشعة الشمس الحارقة. ورأى عم عبده أمامه فتاة ترتدى ملاءة لف سوداء، وفى قدمها شبشب، وبدت متهالكة، ذابلة، واجتمع عليها الفقر والبؤس والهزال. وتقدمت نحوه فى ذلة ومسكنة وسألته فى صوت هامس مرتجف، وهى تنظر فى فزع حولها!

— أين صالة بديعة؟

وعجب عم عبده أن تسأل فتاه ضائعة مسكينة عن صالة بديعة فسألها!

— لماذا تسألين عن صالة بديعة؟

— قالت فى صوت متهالك:

— أريد أن أشتغل راقصة!

— هل أنت مجنونة؟ أتعرفين ما معنى راقصة؟ معناها أن تتعري من كل

ثيابك!

— أعرف ذلك !

معناها أن تحترقى في هذه الأضواء وتذوي كما تذوب الشموع وتبيعى شبابك الحقيقى بينكنوت مزيف. تسهرين حتى تصابى بالسسل وتشربين الخمر حتى تتحولى إلى قدح مكسور!

— أعرف كل ذلك !

— أنت فتاة صغيرة لا تعرف ماذا تفعل !

— إننى أريد أن أعمل !

— أنصحك أن تعملى خادمة في أحد البيوت.. هذا أشرف لك من أن تكونى راقصة !

— إننى أعمل خادمة في أحد البيوت !

— ولماذا تريد أن تتركى عملك ؟

— إن صاحبة البيت تضربنى كل يوم !

اعملى خادمة في بيت آخر !

— كل صاحبات البيوت سواء الخلاف الوحيد بينهن أن واحدة تضرب بالمقشة، والثانية تضرب بالشبشب، والثالثة تضرب بالقبقاب !

— وكيف ضربتك السيدة التى تعملين عندها الآن !

— تضربنى بيد الهاون !

وكشفت الفتاة عن ساقها، وأصيب عم عبده بالرعب عندما رأى علامات زرقاء وحمراء وسوداء على ساق الفتاة !

وأشفق عم عبده عليها، ولكنه تردد أن يشير إلى مكان حالة بديعة وقال لها :

— مالك وحياة الراقصات، إنها حياة الظلام !

وبكت الفتاة وقالت :

— حياة الظلام أهون من حياة العذاب !

— إنك سوف تتعرضين كل ليلة لما هو أسوأ من الضرب !

— لو ذقت الضرب بيد الهاون ! لما قلت هذا الكلام !

وشهقت الفتاة بالبكاء، وانهمرت الدموع من عينيها، كانت تتكلم وهنى ترتعش من البرد. ترتعش في جو شديد الحرارة كانت الكلمات تخرج من شفيتها بصوت منقطع.. تتساقط كأنها بقع من الدم !

وارتجف عم عبده أمام دموعها، وأمسكها من يدها، ومضى بها إلى صندوق عم عبدون بائع الكازوزة وأمسك إناء به ماء بارد، وغسل به وجهها، ليخفي آثار الدموع من عينيها، وطلب منها أن تخلع ملاءتها السوداء، فخلعتها. ورأى أن ثوبها لا بأس به، فقام يفك باصابعه ضفائرها، وترك شعرها الطويل يسقط وراء ظهرها، فبدت أجمل كثيرا مما كانت..

ومشى بها أمام محل كوداك، ورأى في واجهة المحل امرأة فطلب منها أن تنظر إلى نفسها الآن في المرأة !

فصرخت الفتاة وهى تقول : لقد أصبحت الآن جميلة جدا !

وصحبها عم عبده إلى الباب الخلفى لصالة السيدة بديعة.. ثم توقف لحظة وقال :

— ما اسمك؟

— شلبية!

— شلبية؟! انه اسم فلاحى جدا!

— انتى فلاحه من مطاى فى مديرية المنيا.

— وما اسم ابيك؟

— ياسين!

— ياسين؟ إن هذا اسم سفرجى! المفروض أن يكون والد الراقصة باشا

أو بك ليرتفع سعرها فى السوق. وما اسم جدك؟

— اسمه الوحش!

— هذا الاسم لا يتفق مع اسم ياسين!

— كان جدى رجلا طيبا مؤذن جامع القرية!

— إذا احتفظت باسم الوحش فسوف يهرب منك الزبائن! المفروض أن

تكون كل راقصة كالوحش تفتك بالزبائن، ولكن تخفى انيابها تحت اسم مستأنس!

— إذن ماذا اسمى نفسى؟

— نسميك (أميرة)

— مستحيل أن اتسمى باسم أميرة!

— لماذا؟ انه اسم جميل.. ولا توجد راقصات بهذا الاسم!

- إن الست صاحبة البيت التي ضربتني بيد الهاون اسمها أميرة!
- عاشت الاسامى!
- ابحث عن اسم آخر!
- ما رأيك في اسم «نشوى»؟
- ما معنى هذا الاسم؟
- لا أعرف بالضبط.. إنه الشعور الذي يحس به شارب الخمر بعد أن يسكر!
- إذن هذا اسم حرام!
- وهل تظنين أن الرقص حلال؟
- إذن سيكون اسمى «نشوى».. نشوى الوحش!
- أعوذ بالله! أن نشوى الوحش تكون عادة بعد أن يفتك بالفريسة! لقد قلت لك إن نجاح الراقصة الحقيقى هو أن تخفى عن الزبون انيابها!
- ما هو اسمك؟
- اسمى عم عبده.
- إذن سيكون اسمى الجديد «نشوى عبده»!
- ابحثى لك عن اسم ارستقراطى!
- هذا الاسم هو الوحيد الذى يعجبني.. نشوى عبده!
- وظن عم عبده يومها أن الخادمة شلبية تداعبه. بقولها إنها اختارت

اسمه، ومشى معها إلى الباب الخلفى لصالة بديعة وهو يحمل ملاءتها
السوداء، وتركها تدخل الصالة وحدها. ووقف أمام الباب ينتظرها. وطال
انتظاره. ومضى ربع ساعة، ثم نصف ساعة، ومضى ربع ساعة، ثم ساعة،
وفجأة خرجت شلبية تقول لعم عبده:

— ان ست بديعة تريد أن تراك؟

— ترانى أنا؟

— نعم، إنها تنتظرك الآن!

— هل تريد بديعة أن تعيننى راقصة عندها؟

— إنها رفضت أن تعيننى راقصة بحجة أنى صغيرة، وتخشى أن أكون
هاربة من أهلى، ويجىء أهلى ويطالبون بى، أو أن أكون تحت السن
القانونية، وهى تقول إنها لا تريد مشاكل، فكذبت عليها وقلت لها أننى جئت
مع أبى، وهو ينتظر أمام الباب، فطلبت منى أن أدعوك لمقابلتها!

— ماذا تريد منى أن أقول لها؟

— تقول انك أبى!

— أرتكب جريمة تزوير!

— إذا لم ترتكب أنت جريمة تزوير فسأرتكب أنا جريمة قتل!

— تقتليننى؟

— لا.. أقتل نفسى!

— أنا لا أقبل أن تكون ابنتى راقصة؟

– ولكننى لست ابنتك !

– أنت تطلبين أن أكون والدك !

– لمدة خمس دقائق !

– وإذا زادت عن خمس دقائق !

– تبرأ منى !

– إن صناعتى شحاذ، لا والد راقصات ! ابجثى لك عن أب آخر !

وبكت شلبيه. انهمرت من عينيها الدموع بغزارة.. وتحرك قلب عم عبده فقال لها :

– ان عينيك أشبه بحنفية المياه ! تفتحينها فتسقط الدموع، وتغلقينها فتتحبس الدموع ! ماذا سيقول الناس إذا راوك تبكين فى الشارع ! سيتصورون اننى ضربتك !

– ليتك ضربتنى ! انك جرحتنى !

– أنا لم أجرحك. كل ما قلته اننى لا أريد أن أرزق راقصات فى هذه السن !

– انك تخليت عنى. كلمة واحدة منك تنقذنى من ضرب السبت أميرة كل يوم !

– يا ابنتى أنا رجل متسول !

– ما أجمل كلمة « ابنتى » من شفتيك. كل ما أريد منك أن تقول هذه الكلمة أمام السبت بديعة !

— مستحيل !

— أليس من حقي أن أتسول منك ؟ لو كان المحسنون قساة القلوب مثلك
لمت من الجوع !

— إذن، سأقبل، شرط أن تكون هذه آخر مرة أكون فيها أباك !

* * *

ودخل عم عبده إلى الصالة، فوجد السيدة بديعة مصابنى جالسة على
مقعد وهي تدخن الشيشة.

كانت يومها في الأربعين من عمرها. السهر الطويل والخمر الكثيرة لم
يفقدا بشرتها نضارتها. الحب الدائم كان يمحو ما يكتبه العمر والسهر
والخمر. كانت محتفظة بجمالها وأنوثتها ورشاقتها، ولها ابتسامة ساحرة
ترقص فوق شففتيها..

وقالت بديعة :

— لم أوافق على قبول ابنتك «نشوى» لأنها صغيرة السن.

— إن عمرها ٢١ سنة !

— إنها تبدو في السابعة عشرة !

— وأنت يا ست بديعة تبدين كأنك في العشرين !

واهتزت بديعة طربا من كلمة الاعجاب التي قالها الرجل العجوز، كأنها
شربت زجاجة من الويسكى.. وقالت وهي تعيد النظر إلى جسم شلبية،
وكأنها تعريها بنظراتها من ثيابها :

– ان ابنتك نشوى جسمها جميل. سوف أعينها بمرتب جنيهاين في الشهر!

وصاح عم عبده محتجا.

– جنيهاان؟! هذا غير معقول!

وجذبتة شلبية من قميصه وكأنها تطلب منه أن يقبل العرض.

وصرخ عم عبده في شلبية بغضب.

– اخرسى! هذه مسائل لا تفهمين فيها! عندما يتكلم الكبار يجب أن يسكت الصغار!

وخرست شلبية..

وقالت بديعة:

– لا أستطيع أن أدفع أكثر من جنيهاين!

– لقد كنا الآن في «صالة بيا» وقالت لنا السيدة بيا عز الدين إنها مستعدة أن تدفع لها خمسة جنيهاات!

وما كادت بديعة تسمع اسم منافستها بيا عز الدين حتى صرخت كان عقريا لدغتها!

– عرضت عليها بيا خمسة جنيهاات.

– ولم أقبل لان الوسط لم يعجبني.. وقلت إننى أفضل أن تأخذ نشوى أربعة جنيهاات وتتعلم الرقص من أستاذة الرقص في الشرق!

– من أجل خاطرك سأعطيها أربعة جنيهاات!

قال عم عبده باشمئزاز:

— أربعة جنيهاً فقط؟

وابتسمت بديعة وقالت:

— وسأعطيها عمولة خمسة وعشرين في المائة عن كل مشروب يفتحه الزبائن لها. إن عندي راقصات يربحن ٣٠٠ جنيه في الشهر من عمولتهن على المشروب!

وتظاهر عم عبده بأنه يقبل هذا الاتفاق على مضض..

وخرجت شلبية مع عم عبده وهي تكاد تطير من الفرح..

وعند الباب انحنت شلبية، وأخرجت من ثنية جورها جنيهاً، وقدمته إلى عم عبده، وهي تقول:

— أنا معى مائة قرش هي كل ما أملك.. هذا هو أجرك على قيامك بدور أبى! لقد كنت ممثلاً بارعاً، أبرع من يوسف وهبى في الأفلام. اننى في لحظات صدقت أنك أبى فعلاً!

ودفع عم عبده يدها التى تحمل الجنيه وقال:

— اننى تقاضيت أجرى كاملاً!

— أنا لم أر الست بديعة تعطيك شيئاً!

— أنت التى اعطيتنى أجرى وزيادة!

— أنا؟

— يكفينى اننى رأيت هذه الابتسامة على شفئك.. إنها تساوى عندى ألف جنيه!

وأرادت شلبية أن تقبل يد عم عبده، فدفعها محتجا، فهجمت عليه وعانقته والدموع في عينيها!.

* * *

ومضت الأيام.

واختفت الخادمة شلبية!

وظهرت الراقصة نشوى عبده.. وتابع عم عبده نشوى وهى تصعد درجات السلم، واحدة بعد واحدة!

كان يحرص على أن يراقبها من بعيد، فإذا اقتربت منه أخفى وجهه، أو أطلق ساقيه للريح. وراها وهى تخرج من الصلاة بعد انتهاء العرض وهى ماشية على قدميها ترتعش من البرد، ثم رآها وهى تركب عربة حانطور، ثم رآها وهى تركب عربة سيارة أجرة، ثم رآها وهى تستقل سيارة بويك مع أحد أصدقائها، ثم رأى عدة سيارات انيقة تتزاحم عند باب الخروج، وكل صاحب سيارة يحاول أن ينال شرف توصيل الراقصة نشوى عبده إلى دارها!

ورآها وهى تدخل الصلاة في ثوب مهلهل، ثم في ثوب أنيق، ثم في ثوب فاخر، ثم في معطف من الفيزون الثمين!

ورأى اللوحة الزجاجية التى توضع فيها صور الراقصات في واجهة صالة بديعة، وقد خلت من صورتها. ثم رأى صورة صغيرة لها محشورة بين الصور الكبيرة للراقصات المعروفات، ثم بدأت الصورة تكبر وتكبر حتى أصبحت أكبر صورة من صور الراقصات في صالة بديعة.. لا توجد صورة أكبر منها إلا صورة بديعة نفسها!

ورأى اسم نشوى عبده فى الاعلانات التى تعلق على الجدران. بدأ اسمها مكتوبا بحروف صغيرة.

لا تكاد تستطيع أن تقرأ حروفه إلا بنظارة مكبرة. ثم بدأت الحروف تكبر وتضخم حتى أصبح اسم نشوى يحتل مكان الصدارة فى اعلانات صالة بديعة !

ورأى المجلات المسرحية تنشر صورها، وتهتم بأنباء مغامراتها، وتتحدث عن التغييرات التى تحدث فى قلبها بنفس الاهتمام الذى تتحدث فيه الصحف عن التغييرات الوزارية.. وذات يوم رأى مع بائع الصحف مجلة « الصباح »، أكبر مجلة مسرحية فى تلك الأيام، ووجد صورة نشوى عبده تحتل الصفحة الأولى !

وكان فى جيب عم عبده يومها قرش صاغ وحيد احتفظ به ليشترى عشاءه، وأخرجه من جيبه، واشترى مجلة « الصباح » ودفع فيها القرش الوحيد..

وبات ليلتها بغير عشاء.. ولكنه أغمض عينيه وأصابه تحتضن هذا العدد من المجلة التى على غلافها صورة الفتاة التى كان والدها لمدة خمس دقائق !

وكانت سعادة عم عبده الكبرى أن يرى الجماهير تتزاحم أمام الباب الخلفى لصالة بديعة لترى الراقصة نشوى عبده وهى خارجة أو داخلة. وكان يحرص على أن يقف فى الصفوف الخلفية بحيث لا تراه، وكان يطرب عندما يسمع الجماهير المعجبة وهى تتحدث عن جمالها، وتطرى رشاققتها وتتنهد منتشية بسحرها وجاذبيتها وانوثتها.

ولم يفكر مرة واحدة فى أن يشهدها وهى ترقص. كان لا يريد أن يراها

عارية على المسرح. كان لا يطيق أن يلمحها جالسة مع زبون مخمور وهو يحاول أن يعيث بصدرها أو يميل برأسه على رأسها. كان يحس بشعور عجيب، كأنها مازالت ابنته.. كأن الخمس دقائق التي مثل فيها دور الأب امتدت وامتدت كل هذه السنين !

وكان في استطاعته أن يدخل إلى صالة بديعة ويشهد الرقص إذا شاء شولح بائع الفزدق في الصالة والذي يقوم بوظيفة « المطيياتى » ويقود التصفيق والهتاف ويلعلع صوته بصيحات الأعجاب لبعث الحماس في المتفرجين، هو صديقه القديم، وكثيرا ما الح عليه أن يدخل معه ليتفرج على « الهلس » كما كان يسميه شولح..

ولم يشأ عم عبده أن يرى نشوى في « الهلس ».. كان يكفيه أن يستدرج شولح من وقت إلى آخر فيعلم منه أن الراقصة نشوى طفت على جميع الراقصات.. ولم يبق بينها وبين أن تصل إلى مكانة الراقصة الاولى تحية كاريوكا إلا ثلاث زجاجات شامبانيا في الليلة الواحدة وكانت مكانة الراقصة وقتها تحسب بعدد ما يفتحه لها الزبائن من زجاجات الشامبانيا !

وتغيط عم عبده من تحية كاريوكا ملكة الراقصات في مصر، وتمنى أن يجيء يوم تزيج نشوى عبده الملكة وتجلس على العرش مكانها ! وكلما سمع الناس تمدح تحية كاريوكا أحس كأنها تشتمه هو !

وذات يوم رأى شبه مظاهرة في ميدان الأوبرا، ورأى الناس تحيط بسيدة وتصفق لها وعرف على الفور أنها نشوى عبده، وجرى نحو المظاهرة، وإذا به يكتشف أنها تحية كاريوكا.

وأحس بخيبة أمل شديدة، ووجد نفسه يصيح في الجماهير:

— ماذا جرى لعقولكم ؟ تصفقون لراقصة ؟

وإذا بال جماهير تنهال على عم عبده ضربا وصفعا وركلا ! وخرج عم عبده من المظاهرة أشبه بمشوهى الحرب !

وشعر بالخجل من نفسه . إنه يستحق فعلا هذه العلقة . كان يعتبر هتاف الجماهير لنشوى عملا عظيما ، فإذا هتفوا لمنافستها اتهم الجماهير بالفسق والفجور والضلال ! كل ما يفعله الذين نحبه هو حلال أو كل ما يفعله الذين لا نحبه هو الحرام !

ومع كل هذا التعصب للراقصة نشوى لم يفكر عم عبده في لقائها أو في أن ينتفع بثمن هذا الحماس . وكم من أيام مضت عليه وهو يتلوى من الجوع ، أيام يضرب فيها المحسنون عن الاحسان ، كأنهم يتآمرون عليه ليموت من الجوع .. ومع ذلك لم يخطر بباله أن يذهب إلى الراقصة المشهورة نشوى عبده ويطلب منها أن تعطيه الجنيه الذى رفضه في يوم من الأيام !

* * *

.. وذات صباح ، كان عم عبده يقف يتسول على ناصية ميدان الأوبرا وشارع عدلى ، ورأى سيارة سوداء كبيرة طولها ستة أمتار ، وبغطاء أبيض ، تقف أمامه فجأة ، وتحدث فراملها صوتا أشبه بالصراخ .

وتقفز منها الراقصة نشوى عبده وتعدو نحوه ، وتفتح ذراعيها ، وتهجم عليه وتعانقه وتقبله وتقول له في صوت يرقص فرحا :

— عم عبده؟ عم عبده؟ أين أنت يا عم عبده !

وذهل عم عبده لهذه المفاجأة التى لم يتوقعها . وماتت الكلمات فوق شفتيه ، وتساقطت الدموع من عينيه وتجمع الناس حول الراقصة نشوى ،

وأخذوا يشيرون باصابعهم في دهشة إلى الراقصة المعروفة التي تقبل
الشحاذ في الطريق العام!

وأمسكته نشوى من يده وقالت:

— تعال معي!

— إلى أين؟

— إلى بيتي.. انني أبحث عنك في كل مكان! لا يمكن أن أتركك! تعال
اركب معي في سيارتي!

— إن ملابسي غير لائقة، ستوسخ السيارة!

— إنها ستشرفها!

— إنني أعدك بأن أحضر إلى زيارتك بعد انتهاء عملي!

— متى ينتهي عملك؟

— الساعة الخامسة مساء!

— انني انتظرك في بيتي، عنواني عمارة سيف الدين، بجاردن سيتي على
النيل، كل الناس يعرفون أين أسكن إلا أنت. لن أترك بيتي إلى أن تجيء!
وفتحت حقيبتها، وأخرجت كل ما فيها من نقود وحاولت أن تعطيها له
فأبى وقال باسمًا!

— لا تخجليني أمام الناس. سأخذها عندما القاك في بيتك اليوم.

— هل تخجل أن تأخذ نقودًا من راقصة؟

وسكت عم عبده ولم يرد. وأخذت الراقصة نشوى تنظر إلى ملابسها

الأنيقة، إلى فرائها الثمين إلى مجوهراتها الغالية، إلى سيارتها الفاخرة الفارهة.. ثم ألقت نظرة على عم عبده، في ملابسه الرثة، إلى رأسه الأشيب، بنظرة الرفض الحازمة.

وتنهدت نشوى وقالت وكأنها تحدث نفسها :

– إن كل شيء تغير يا عم عبده!

– فعلا تغير كل شيء يا ست نشوى!

– ولكنك أنت وحدك لم تتغير.. مازلت كما أنت!

الفصل الثامن والعشرون

كان عم عبده يتمنى ان تنشق الأرض وتبتلعها. كان فخورا بأن الراقصة نشوى عبده تذكّرت بعد كل هذه السنوات. كان سعيدا ان تغمره بكل هذا العطف والحنان والاهتمام أمام الجموع المذهولة الواقفة في شارع عدلى باشا.

ولكنه يريد ان ينهى هذا الموقف بأسرع ما يمكن، حتى لا تفتضح الحقيقة، فتقول نشوى ان عم عبده المتسول هو الذى اخذها من يدها ألى صالة بديعة، وانها كانت ذات يوم تعمل خادمة، وتضربها الست أميرة بيد الهون !

نعم، ان هذه الحقيقة تشرفه، وترفع من قدره، ولكنها بلا شك، سوف تسىء إلى مكانة الراقصة المعروفة التى أصبح يشار إليها بالبنان !

لا يمكن ان تقبل الجماهير ان تحمل على اكتافها امرأة كانت خادمة وتضرب بالمقشة والشبشب ويد الهون !

الجماهير عندما تحب فنانة تتصور انها أحيت ملكة.. وتنسى في غمرة حبها وإعجابها ماضى هذه الفنانة.

وأغلب الفنانات عندنا، في تلك الأيام، كن يتبارين في اخفاء أصولهن عن الجماهير. فالتى بدأت على مسارح روض الفرج تشطب هذه الفترة كلها،

وتدعى انها بدأت الفن على مسرح رمسيس عندما انشأه يوسف وهبى بك !
والتي ولدت فى زقاق يتفرع من حارة فى قسم عابدين، تزعم انها كانت مولودة
فى قصر يجاور قصر عابدين، والتي كان ابوها ماسح أحذية معروفًا فى شارع
عماد الدين، تقسم اغلظ الايمانات بأن بابا كان يملك مصنعا لصنع الاحذية
يعمل فيه عشرات العمال !

ما من فنانة كانت ترضى فى تلك الأيام بأن تعترف بخروجها من أسرة
فقيرة أو من أسرة متوسطة، أو تقبل بأن تكتب عنها مجلة أنها اضطرت
لاحتراف الفن لأنها كادت تموت من الجوع !

إذن، فلا يجوز ان تعرف الجماهير المحتشدة حقيقة العلاقة بين
الراقصة المشهورة والمتسول والصعلوك !

وتوسل عم عبده إلى الراقصة نشوى بأن تتركه وتعود إلى سيارتها
وقبلت أن تنصرف بعد الحاح، وقالت وهى تنصرف :

— اننى انتظرك يا عم عبده !

وعادت نشوى إلى سيارتها بين صفوف المعجبين وطالبي التوقيع على
الأتوجرافات، وانطلقت بسيارتها وهى تلوح لعم عبده حتى اختفت
السيارة !

وتتنفس عم عبده الصعداء... وانزوى فى حارة جانبية، هربا من فضول
الجماهير وأسئلتهم واستيضاحاتهم. وما كاد يبتعد عن الجموع، حتى وجد
امامه رجلا متوسط العمر، محدودب الظهر، فى وجهه اثار مرض جدرى
قديم..

وتوقف الرجل امامه، وكأنه يقطع عليه الطريق، وسأله بلهجة أمرية:

— ما اسمك؟

— عم عبده!

— ماذا تفعل؟

— على باب الله!

— من أين تعرف الراقصة الكبيرة نشوى؟

أُصدم عم عبده بهذا السؤال الفضولي، وتضايق من طريقة الرجل المجهول في توجيه السؤال أنه لا يريد أن يعرف أحد أين عرف نشوى، ولا كيف عرفها. هذا هو السر الذي لا يعرفه سواه وسواها!

وهو يجد لذة في أن يحتفظ بهذا السر له وحده. أن أحلى الأسرار، في نظرنا، هي التي لا يعرفها سوانا!

ولم يجب عم عبده..

وعاد الرجل يطرح السؤال نفسه، بنفس الصفاقة والسماجة!

ونظر إليه عم عبده في تأفف واشمئزاز وقال له:

— وما شأنك أنت؟

— إن هذا من صميم عملي!

— هل أنت مخبر في البوليس؟

ونظر إليه الرجل في احتقار وقال له:

— أنا الاستاذ كامل زقزوق مندوب جريدة «المقطم» الفني!

— وماذا يهم جريدة المقطم. إذا صافحت راقصة في الطريق العام؟

— هذا حادث هام ساكته غدا في جريدة «المقطم».. ويهمنى ان أعرف من انت.. هل انت قريبها؟

وذعر عم عبده! قريبها؟ ماذا سيقول الوسط الفنى إذا قالت جريدة «المقطم» الغراء ان قريب الراقصة العظيمة هو رجل صعلوك! يا للمصيبة الكبرى التى ستحل على سمعة نشوى عبده! ان هذا الخبر سنوف يهدم الملكة، التى أجلسها على العرش.. سيعرف الجمهور انها من أسرة من الصعاليك! يا فرحة تحية كاريوكا!

وابتسم عم عبده وهو يستعيد ذلك اللقاء الذى تم بينه وبين الراقصة المشهورة نشوى عبده فى شارع عدلى، وتلك القبلة التى طبعتها على خده فى الطريق العام، وذهول الجماهير وهى ترى الراقصة الفاتنة تعانق الشحاذ الصعلوك، والاحراج الذى احس به من أسئلة الأستاذ كامل زقزوق المندوب اللوح لجريدة «المقطم»!

لقد كره يومها جميع الصحف وجيفع الصحفيين. كان كامل زقزوق مزيجا من وكيل النيابة وضابط المباحث والملكين اللذين سيتوليان حسابنا بعد الموت.. كانت الاسئلة تخرج من فمه كما يخرج الرصاص من المدفع الرشاش!

وحاول عم عبده ان يحاور الصحفى الفضولى ويداوره، والصحفى يحاصره ويضيق عليه الخناق، وأخيرا قال له ::

— سأقول لك الحقيقة بشرط ان تعدنى بأن تكتم السر!

— اعدك بأننى لن أكتب الا ما نتفق عليه!

— لقد كنت اعمل طاهيا عند الباشا والد الراقصة نشوى عبده

– هل أبوها باشا؟!

– هذا هو السر!

– لن يعرف أحد هذا السر!

– لو نشرت اسم والدها فسوف يقتلها الباشا والدها، وستكون أنت
المسئول عن جريمة قتل!

– أعدك بأننى لن انشر اسمه.. اننى اريد ان اعرف الاسم لمعلوماتى
الشخصية فقط.

– ان اسمه عبده باشا.

– عبده باشا ماذا؟

– إننى لم اسمع بهذا الاسم.

– ألم تذهب إلى حى العباسية؟

– نعم.

– ألم تسمع عن ميدان اسمه ميدان عبده باشا؟

– نعم ، سمعت..

– انه هو الرجل الذى سمي الميدان باسمه ! انه يملك عمارات طائلة !
وقد تبرأ من نشوى بعد ان اشتغلت راقصة !

وانصرف الاستاذ كامل زقزوق سعيدا بأنه حصل على سر خطير..

وفي اليوم التالى، استلف عم عبده نسخة من جريدة «المقطم» من بائع
الصحف فى ميدان الأوبرا، وقرأ فى الصفحة الأخيرة نبا بعنوان «تواضع

راقصة معروفة « جاء فيه :

تجمهر المارة صباح أمس في شارع عدلى باشا، عندما راوا الراقصة المعروفة نشوى عبده الراقصة بصالة بديعة، تقف فجأة بسيارتها الفارهة ماركة « كرايسلر » وتقفز منها لتعانق رجلا بئسا رث الثياب يقف امام محل « جروبى » الحلوانى المشهور.

« وتبين ان هذا البائس كان يعمل منذ سنوات طاهيا عند سعادة والد الراقصة الكبيرة. »

وقد نفحته بمبلغ من المال كما هو معروف عنها من الكرم والسخاء والعطف على الفقراء والمحتاجين.

وأبدت الجماهير الواقفة في الشارع تأثرها الشديد لتواضع الراقصة المعروفة، ومروءتها، وانسانيتها، مما يدل على أنها انسانة عظيمة، كما هي راقصة عظيمة، تظهر فنها الاصيل ورقصها الشرقى الساحر كل ليلة في كازينو بديعة بميدان الأوبرا.

ولا يذيع « المقطم » سرا إذ يقول ان المعروف عن الراقصة نشوى انها من اسرة ارسقراطية كبيرة معروفة وأنها اخفت ذلك، بسبب عدم موافقة اسرتها على احترافها الرقص، مع انه يعتبر في أوروبا من ارقى الفنون وأعظمها !

ويومها قهقه عم عبده من غفلة الصحفي الاستاذ كامل زقزوق الذى صدق، بسذاجته الأكذوية التى اخترعها عن عم عبده باشا والد الراقصة نشوى. ولكنه ما كاد يعيد قراءة الخبر مرة بعد مرة حتى اكتشف انه هو المغفل وليس الاستاذ زقزوق.. لقد استطاع الاستاذ زقزوق ان يحول هذا

الخبر البريء إلى ورقة بنكنوت فقد كتبه بطريقة يستطيع بها ان يقبض من الاستاذ وديع سعد صاحب توكيل « كرايسلر » الفاخرة التي تركيبها الراقصة الكبيرة، وان يقبض من محل « جروبي » أجر إعلان لأنه ذكر اسمه في الخبر ، ويقبض من كازينو بديعة اجر اعلان عما ذكره عن رقص نشوى في كازينو بديعة . ثم يقبض من نشوى نفسها ثمن المديح الذي غمرها به، و ثمن سكوته عن عدم ذكر اسم والدها سعادة عبده باشا عبده ! وستدفع نشوى بسطبيعة الحال.. ولن تكذب انها ابنة باشا يملك ميدانا في حي العباسية اسمه ميدان عبده باشا ! واكتشف عم عبده أن الصحف والمجلات صدقت الأكذوبة المنشورة في جريدة « المقطم » وأصبحت تطلق على نشوى « الراقصة الارستقراطية » !

ولم يذهب عم عبده ليزور الراقصة نشوى في شقتها الفاخرة في عمارة سيف الدين. كان يحس بأنه لو قبض ثمن الخدمة التي اداها لها في أول عملها بالرقص، فسوف يفقد اللذة التي كان يحس بها. لقد كان فخورا بما فعل.. بأنه جفف دموع امرأة. بأنه مد يده لمخلوقة استنجدت به. كان سر هنائه انه اشترك في زراعة بذرة، وأنه رأى البذرة تتحول إلى وردة، يراها من بعيد.. غيره يلمسها.. غيره يشم عبيرها، غيره يقطفها.. ولكنه هو يختلف عن كل هؤلاء بأنه أعطى ولم يأخذ. انه زرع ولم يطلع !

وسمع عم عبده خطوات تقترب من باب الزنزانة، فطوى جريدة « المقطم » بسرعة، واخفاها تحت وسادته. ولم تلبث الخطوات ان اختفت وعاد عم عبده يفكر في نشوى..

ثم تنبه إلى نفسه. وسخر من قلة عقله. أنه يفكر في الراقصة نشوى، وينسى المصيبة التي نشرتها جريدة « المقطم » عن قضيته.

عاد يفكر فيمن تكون تلك الراقصة الكاذبة التي ادعت انه قال لها انه يعمل لحساب هتلر!

ولم يستطع ان ينام في تلك الليلة. كان يدور في زنزانته. كأنه نمر في قفص. نمر طعن بحربة والدم ينزف منه، ولا يستطيع ان يفتح قضبان القفص، ليقي على الذين طعنوه.

إنه برىء! صحيح انه احتضن تهمة ظالمة بأنه طابع المنشور، ولكنه فعل ذلك من أجل الأنسة قسمت. هناك فرق بين ان يتحمل راضيا ذنبا لم يرتكبه، وبين ان يفرض عليه ذنب جديد. كأنهم لم يكتفوا بأن يحبسوه، ويصروا على ان يشنقوه! لا يكفيهم اتهامهم اياه بأن يقولوا انه هاجم البلد كله!

سوف يطلب من قسمت عندما يلتقى بها في الزيارة صباح اليوم التالي ان تذهب الى جريدة (المقطم) وتقابل رئيس التحرير، وتعرف منه سر هذا الهجوم الذي أنهال عليه فجأة، وتحاول ان تنشر تصحيحا للوقائع.

سوف يطلب إلى قسمت ان تذهب وتقابل الراقصة نشوى، وتطلب منها ان تبحث من بين زميلاتهما من الراقصات في صالة بديعة عنمن قبلت ان تقوم بتمثيل دور شاهدة الزور في قضيته.. ان نشوى الان صاحبة نفوذ في الصالة، وهى قادرة على ان تعرف هذه المجرمة، وقادرة على ان تهددها بالفضيحة إذا مضت في طريق الزور. ان القانون يعاقب بالسجن مرتكب شهادة الزور، ولا بد ان نشوى سترحب بأن تقوم بهذه المهمة. لقد احس عندما قبلته في شارع عدلى انها تعامله كأنه لا يزال اباها.. كانت تعانقه والدموع في عينيها!.

لاحظ عم عبده عندما جاءت قسمت تزوره في غرفة المأمور أنها حزينة

شاحبة. كان اللمبات الكهربائية التي كانت تضيء في داخلها انطفأت فجأة، وتحرك ساقها وهي جالسة في عصبية.. وسألها .

– هل قرأت جريدة المقطم؟

– نعم..

– هل صدقت ما قالوه عني؟

– كيف أصدق وأنا كاتبة المنشور؟ معنى المكتوب اننى انا قسمت شاهين اجيرة، وعميلة، وأعمل لحساب هتلر، واريد ان تكون مصر مستعمرة المانية!

– وهل صدقت اننى كنت عشيقا لراقصة في صالة بديعة انفق عليها عشرات الجنيهات كل ليلة؟

– ان السجل الموجود في ملجأ المتسولين ينفى كل هذا الكلام الفارغ!

– ولكنك وحدك التي تعلمين اننى برىء!

– لن يصدق احد هذا الكلام. عندما تقول الحكومة عن رجل انه مجرم يعرف الرأي العام على الفور انه برىء!

– ولكن بعض السذج سوف يصدقون!

– التافهون وحدهم هم الذين يصدقون التافاهات.

– ولكن التافهين أغلبية ساحقة!

– قد يدهشك ان تعلم انهم اقلية مسحوقة. شعبنا شعب ذكى!

– حتى لو ضللوه!

- ان ذكاءه لا يلمع الا عندما يرى حملات التضليل !
- اذن تريدني مني ان أسكت !
- كلا.. إذا سكت انت فلا يمكن ان اسكت انا.
- ماذا نفعل ؟
- ذهبت إلى مكرم باشا وقال ان من رأيه ان نرفع قضية على جريدة «المقطم» !
- وماذا اكسب من هذه القضية ؟
- مكرم باشا يقول انك تستطيع ان تحصل على تعويض كبير !
- انا لا اريد تعويضاً، انا اريد شرفي !
- الرجل الشريف لا يفقد شرفه بمقال تنشره جريدة !
- إنني أريد ان تذهبي إلى جريدة «المقطم» وتعرفي سر هذه الحملة !
- انني أعرف سرها دون ان أذهب !
- وما هو سرها ؟
- ان الحكومة عندما وجدت ان ليس لديها ادلة ضدك قامت بهذه الحملة. لو انها كانت واثقة من ادانتك لا انتظرت حكم القضاء !
- ولهذا جاءت بشاهدة زور لا اعرفها !
- الا تلاحظ اننا في المناقشات العادية عندما نجد ان حججنا ضعيفة نبدأ في الشتائم والسباب ؟

– هل تعرفين الراقصة نشوى عبده؟

– أعرفها جيدا.. لقد اشتركت في احياء بعض الحفلات الخيرية التى اقامتها الجمعية، ورفضت ان تتقاضى أجرا.

– انها سيدة نبيلة.

– ولكن تحية كاريوكا انبل منها !

ووجم عم عبده. المظاهرة التى تهتف بحياة تحية كاريوكا تتبعه في كل مكان حتى إلى سجن الاستئناف .. كان يحتمل ان يثنى كل الناس على تحية كاريوكا ولكنه لا يحتمل أن تثنى عليها قسمت، الفتاة التى يحترمها ويعجب بها، الفتاة التى ضحى بحريته من أجل ان يفقدى حريتها..

ولم تلحظ قسمت وجوم عم عبده فمضت تقول :

إن نشوى عبده ترقص لملجأ المتسولين مجانا، ولكن تحية كاريوكا ترقص لنا مجانا، وتتبرع للجمعية، وتبيع تذاكر حفلاتنا الخيرية. وعندما تكون مفلسة وهذا يحدث لها كثيرا، تخلع ساعتها الذهبية المرصعة بالماس من يدها وتقول لنا : خذوها وبيعوها واصرفوا الثمن على المتسولين، بشرط ألا يعرف أحد أنني فعلت ذلك !

– إن تحية كاريوكا تربح أكثر من نشوى !

– نشوى تنشر اعلانا في الصحف تدفع ثمنه لتقول إنها أحييت مجانا حفلة ملجأ المتسولين الخيرية !

– إنك متحيزة !

– هل تعرف تحية كاريوكا؟

– كلا... أعرف نشوى.

– تعرفها جيدا؟

– قابلتها مرتين في حياتي!

– أين؟

– في الشارع!

– وهل تستطيع أن تحكم على الناس من الشارع؟

– مهنتي أن أقف في الشارع، ومن فوق الرصيف أحكم على الناس!

– بما يدفعون؟

– نعم..

– إنك لا تستطيع أن تحكم على الانسان بما يدفع!

الدليل على ذلك أنك حكمت على تحية كاريوكا بما دفعت!

– لو كنت تعرف تحية، وعرفت أنك في السجن، لجاءت وزراتك، واقتحمت
الأبواب حتى ولو كان يحرسها الجيش البريطاني كله.

– إن نشوى لا تعرف أنني مسجون!

– ماذا تريد مني، أن أقول لها؟

– أن تطلبى منها أن تبحث عن الراقصة التي ستشهد ضدي... وسوف
ترين بنفسك أنها امرأة عظيمة!

– إنى أفضل أن أكلف بهذه المهمة تحية كاريوكا.

- ولكننى لا أعرفها !
- إنها تخدم الذين لا تعرفهم أكثر من الذين تعرفهم !
- أنا أفضل أن تذهبى لنشوى !
- إننى لا أحب أن أذهب إليها.
- إذن فاطلبى من عادل أن يذهب إليها.
- أنا لا أتحدث إلى عادل !
- هل أنتما متخاصمان ؟
- نعم.. للأبد !
- ماذا فعل ؟
- إنه ينتظر مولودا !
- هل أنت حامل ؟
- لا.. هو.
- هو الحامل ؟!
- لا.. إن امرأة أخرى حملت منه.
- كيف عرفت ؟
- هو الذى أخبرنى !
- لولا أنه يحبك لما أخبرك !
- ما زلت تدافع عنه بعد أن علمت بجريمته.

- أعتقد أنه يحبك.
- هل الذى يحب امرأة يرزق بولد من امرأة أخرى.
- هل خالك معها؟
- خائنى.. قبل أن تبدأ علاقتى به!
- هذه ليست خيانة.. مسئولية الرجل تبدأ بعد العلاقة بالمرأة التى يحبها!
- لو كان يحبنى حقيقة لأجهضها.
- ربما رفضت أن تجهض نفسها!
- لا توجد امرأة تستطيع أن تقول لرجل تحبه لا!
- هل هى تحبه؟
- لا أعتقد.
- إذن، فهى تستطيع أن تقول له : لا!
- ولكنه أصبح يحب الجنين الذى فى بطنها، تصور شعورى عندما أعرف أن الرجل الذى أحبه، يحب شيئاً فى بطن امرأة أخرى.
- تغارين من جنين؟
- أغار من كل كف يصافحها، من كل نظرة يلقيها على غيرى، من كل كلمة يقولها لامرأة سواى عن ماضيه، من حاضره، من مستقبله.
- ولهذا تعاقبينه بالقطيعة؟

— نعم..

— ألا تعرفين أنك تعاقبين نفسك؟!

إننى عندما رأيتك اليوم تصورت أنك صدقت ما هو مكتوب عنى فى جريدة
«المقطم». رأيتك شاحبة، حزينة، مريضة!

— إننى لست مريضة.. أنا ميتة!

— ولكنك أنت التى حكمت على نفسك بالموت.

— هو الذى حكم على حبنا بالموت!

— حبك لم يمت.. الموتى لا يتكلمون ولا يتعذبون!

— إننى أول ميت يتعذب!

— دعينى أحدث معه!

— لا فائدة. لقد أصدرت قرارى الأخير!

— كيف تحاربين الطغاة وتتشبهين بهم؟ أحكام الطغاة دائما نهائية!

— أرجوك ألا تكلمنى فى هذا الموضوع.

— ولكنى سأكلمه هو!

— إذا كلمته أنت فيمكنك أن تكلفه بأن يتحدث مع الراقصة نشوى فى
موضوع قضيتك، لأنه يعرف نشوى.

— يعرفها جيدا؟

— كانت عشيقته فى وقت من الاوقات!

— ولهذا تحبين تحية كاريوكا !

— ولهذا أكره نشوى !

* * *

ذهبت قسمت إلى جريدة « المقطم ». سألت عن الأستاذ خليل ثابت بك رئيس التحرير، فقليل لها إنه مشغول في كتابة مقاله اليومى، وأحالها على الأستاذ فرنسيس يعقوب سكرتير التحرير.. واستقبلها رجل فى الستين من عمره.. محدودب الظهر، فسكرتير تحرير جريدة « المقطم » شأنه شأن سكرتيرية التحرير يحمل الجريدة فوق ظهره، ولكن الأستاذ يعقوب كان يبدو أنه يحمل جبل المقطم فوق ظهره لا جريدة « المقطم ». وحدها.

اشتعل رأسه بالشيب، ونزع الزمن مساحات من شعر رأسه، وحفر الدهر خطوطا وتجاعيد فى وجهه. ويبدو أن الزمن كان يعبث بالأستاذ يعقوب، فقد حرص على أن ينزع شعره بغير نظام، فأصبحت الأمكنة الخالية فى رأسه من الشعر أشبه بالبقع الصفراء !

فى عينيه الواسعتين مائم دائم، إنه أشبه برجل يمضى طوال حياته فى تقبل العزاء.

وشعرت قسمت وهى تدور بعينيها فى الغرفة أنها تجلس فى شىء قديم. كل ما فى الغرفة فيه رائحة الماضى، رائحة لها طعم غريب، مزيج من رائحة القبور ورائحة السرايب. المكتب مهشم المقاعد أشبه بملجأ لمشوهى الحرب بعضها ينقصه أرجل، وبعضها ينقصه أيدى.. الجدران ملأى بالشقوق والحفر، وكأن الأستاذ يعقوب غطى جدران غرفة مسكته بصوره الفوتوغرافية !

قالت قسمت :

لقد نشرت جريدة « المقطم » أمس تحقيقا عن قضية عم عبده كله أكاذيب !

وخرج من قم الاستاذ يعقوب صوت رهيب كأنه يخرج من قبر قائلا :

— إن « المقطم » لا ينشر إلا الحقائق.

— ولكن المنشور في الجريدة عن هذه القضية كذب مائة في المائة !

— أنا واثق أنه صحيح مائة في المائة !

— كيف تثق ؟

— لأن هذا هو كلام الحكومة والحكومة لا تكذب !

— يدهشنى أن يقول صحفى قديم مثلك أن الحكومة لا تكذب ! ألم تقل

الحكومة أن أسعار المأكولات ستنخفض فإذا بها ترتفع ؟ ألم تقل الحكومة

إنها اتخذت الاحتياطات لحماية القاهرة من الغارات، وإذا بالغارات تنهال

علينا ؟ ألم تؤكد الحكومة أنها ستلغى الرقابة على الصحف، وإذا بها تجعلها

أشد وأقسى مما كانت ؟

— هذه ليست أكاذيب ! هذه تصريحات سياسية. الكذب المفيد نوع من

الصدق ! الحكومة تكذب لمصلحة الشعب ! تماما عندما أكذب على ابنى

وأقول له إن الغول سيأكله إذا لم يغسل يديه وساقيه كل مساء قبل النوم.

— إذن فالحكومة تعامل الشعب كأنه طفل صغير !

— نعم.. ولهذا فإن « المقطم » عندما يكتب عن رجال الحكومة يسميهم

« أولياء الأمور » !

— ولكن ما كتبتموه عن عم عبده هو كذب فى كذب.

– الكذب عندما تنطق به الحكومة يصبح صدقا !

– لقد تعلمنا في طفولتنا أن الصدق منج .

– الصدق ينجي الأفراد وينكب الحكومات ! لو أن الناس عرفوا الحقائق كما هي لأمسكوا في زمامة رقبة الحكام وأصبحت الدولة فوضى !

– إذن فأنت نشرت معلومات عن هذه القضية، وأنت تعلم أنها معلومات كاذبة !

– لم أفكر أنها كاذبة أو صادقة . كل ما فكرت فيه هو أن هذه معلومات رسمية أم غير رسمية ؟ إذا كانت غير رسمية فواجبى أن أتأكد من صحتها، أما إذا كانت معلومات رسمية فمستولية نشرها تقع على الحكومة !

– إذن، لماذا لم تقولوا في أول المقال أن هذه المعلومات جاءت من الحكومة ؟

– الحكومة ترفض أن تنسب لها هذه المعلومات . الذى حدث أن الرقيب جاءنى أول أمس بهذه المعلومات مكتوبة على الآلة الكاتبة، وأمرنى أن أنشرها حرفيا فنشرتها كما هي، حتى بأخطائها اللغوية .. لأن الرقيب لم يسمح لنا حتى بتصحيح الأخطاء .. وقال لا يجوز لصحفى أن يصحح لغة الحكومة !!

– حتى عندما تخطئ الحكومة في اللغة، تصبح الأخطاء اللغوية هي اللغة الصحيحة !

– طبعا .. إن العالم اللغوى سيبيوية لا يملك سلطة، ولا حول له ولا قوة . كل ما يستطيع أن يفعله أن يلعبنا وهو في قبره .. أما الحكومة فإنها تستطيع، إذا غضبت، أن تضعنا في السجن، تلفة، لنا تهمة نعتف بها !

- كنت أظن أن مهمة الرقيب أن يحذف ما لا تريد الحكومة نشره!
- ومهمته أيضا أن ينشر ما تريد الحكومة نشره!
- ولكن ما مهمة الصحفي إذن؟
- مهمة الصحفي أثناء الرقابة أن يطيع تعليمات الدولة!
- أنت منحاز انحيازاً كاملاً إلى جانب السلطة!
- ما دامت الدولة هي التي تستطيع أن تغلق أى صحيفة، وأن تخرس كل فم، فأكون مجنوناً إذا وقفت ضدها، لو وقفت ضدها فسأقف وحدي!
- ستقف مع الشعب!
- الشعب يحتاج لمن يقف معه!.. ماذا فعل الشعب للصحف إلى عطلها اسماعيل صدقي ومحمد محمود وغيرهما؟ ألوف المحررين والعمال فقدوا أرزاقهم ولم يفعل لهم الشعب شيئاً!
- إذن أنت تقف مع السلطة لأنك تخافها!
- أننى أقف بجانب السلطة بكل قوى عن اقتناع.
- إذن أنت مقتنع بكل ما تفعله السلطة!
- كلا.. أنا مقتنع بأنها الشئ الباقي الدائم.
- هل تظن أن هذه الحكومة دائمة؟
- لا.. تتغير الحكومات وتتبدل الوزارات.. ولكن السلطة تبقى دائماً!
- كنت أتصور أن الحكومة ترشوكم لتقفوا معها.. أو أنها تهددكم لتدافعوا عن تصرفاتها.. ولكننى لم أتصور أننى سألتقى بصحفى مقتنع بأن

- يدافع عن السلطة سواء أخطأت أو أصابت !
- إننى أعتقد أن المظالم والجرائم التى ترتكبها الحكومة ضرورات يؤسف لها، ولكن الحكومة تضطر إليها من أجل المحافظة على سلامتها !
- ولهذا فإنك توافق على ظلم عم عبده. ما دام فى مصلحة هذا البلد.
- تماما.. الدولة فى أحيان كثيرة تهدم البيوت لتنشئ شوارع جديدة !
- وماذا تكسب الحكومة من هدم عم عبده ؟
- لابد أنها تكسب شيئا. وإلا لما طلبت تخصيص صفحة كاملة من «المقطم» لمهاجمة عم عبده !
- ولكنك ظلمت عم عبده يا أستاذ يعقوب !
- أنا لن أظلمه، ولكن الحكومة هى التى ظلمته !
- ولكنك اشتركت فى هذا الظلم، كنت الخنجر الذى أغمدته الحكومة فى ظهر برىء !
- القانون لا يعاقب الخنجر.. وإنما يعاقب من أمسك بالخنجر !
- إنكم قلتم إن عم عبده كان موظفا بالبريد وفصل من وظيفته لأسباب مخلة بالشرف.. أن هذا كله كذب !
- الحكومة من اختصاصها تعيين الموظفين وطردهم وهى عندما قالت هذا الكلام، استعملت حقها، فعينت عم عبده ثم طردته.
- ولكنه لم يرتكب جرائم مخلة بالشرف.
- الحاكم من حقه أن يحدد الجرائم المخلة بالشرف، وأن يغيرها

ويبدلها كما يغير ويبدل أسماء الشوارع !

— إن هذه فلسفة انهزامية لم اسمع بها من قبل الآن !

— الجريمة الواحدة يتغير اسمها طبقا لما يراه الحاكم. حكومة يوسف باشا وهبة اعتبرت المصريين الذين يقطعون خطوط السكك الحديدية في ثورة ١٩١٩ خونة يحكم عليهم بالأعدام.. وحكومة سعد زغلول اعتبرتهم أبطالا يجب أن يعينوا في وظائف الحكومة ! حكومة صدقي اعتبرت رجال الادارة الذين زوروا الانتخابات موظفين أكفاء يتسحقون الترقيات الاستثنائية، وحكومة النحاس اعتبرتهم مجرمين وقدمتهم إلى محكمة الجنايات ! الحكومة في عهد الخديو عباس اعتبرت من يقول «يسقط الخديو» مجرما يدخل السجن، والحكومات في عهد الملك فؤاد اعتبرت من يقول «يحيا الخديو» مجرما يحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة ! وهكذا فجرائم اليوم هي فضائل الغد، وحسنات اليوم هي ذنوب الغد.

— معنى ذلك أنك لا تريد أن تكتب تكذيبا لهذه الأكاذيب !

— من حقه أن تكتبى التكذيب، ولكن الرقيب سوف يحذفه !

— ربما يوافق على نشره !

— الرقيب لا يسمح أبدا بمعارضة أى رأى تقوله الحكومة !

— إذن، فهذا الذى نشرتموه هو حكم لا يقبل استئنافا ولا نقضا !

— أحكام الحكومات نهائية ولكنها عادة تسقط مع سقوط الوزارة !

— إننى أدهش أن تنزل الحكومة إلى درجة أن تلفق تهمة لبرىء تصور

أنكم قلتم أن عم عبده له عشيقة تعمل راقصة فى صالة بديعة وأنها شاهدة

الأثبات ضده، ونشرتم كلاما لا أساس له على لسانها.. مع أن هذه الراقصة
المزعومة شخصية خرافية لا وجود لها!

— لا.. أن الراقصة موجودة فعلا!

— كيف عرفت أنها موجودة فعلا!

— أنا واثق أنها موجودة!

— وأنا واثقة أنها مخترعة!

— لقد كان اسم الراقصة مكتوبا في المقال في أول الأمر.. ثم جاء الرقيب
بتعليمات جديدة بحذف اسم الراقصة، فحذفنا الاسم في المطبعة:

— ما هو اسمها؟

— إنها راقصة معروفة جدا!

— من هي؟

— نشوى عبده!

— نشوى عبده؟ هل أنت متأكد إنها نشوى عبده؟

— متأكد.. متأكد جدا!

الفصل التاسع والعشرون

اشفقت قسمت أن تحطم قلب عم عبده، أن تقول له أن معبودته هي قاتلته، إنها المرأة التي كان يعتمد عليها، لتنقذه من التهمة الملفقة، هي شاهدة الأثبات عليه !

لم تشأ أن تعود إليه وتبلغه بما أخبرها به سكرتير تحرير جريدة «المقطم» من أن الراقصة نشوى عبده هي التي ادعت أن عم عبده قال لها إنه يعمل لحساب الألمان، لم تجرؤ أن تصارحه بأن بطلته التي كان يتشاجر في الشوارع من أجلها، والتي تحمل الركل والصفعات والشتائم والضرب في ميدان الأوبرا من أجل حماسه لها هي نفسها التي ركته وصفعته واغمدت في ظهره الخنجر المسموم، أن الصفة التي تصيبنا من إنسان لا نعرفه تؤلمنا، والتي تصيبنا من إنسان نعرفه تجرحنا، والتي تصيبنا من إنسان نحبه تقتلنا !

منذ ساعات قليلة هاج عم عبده عليها وماج، لأنها فضلت الراقصة تحية كاريوكا على الراقصة نشوى عبده، كأنها كبرت بالله. كأنها اشركت به.

وفي أول الأمر لم تلاحظ اصفرار وجه عم عبده عندما أثنت على الراقصة تحية، ولكنها أحست في نهاية الحديث من اختلاج صوته، من رعشة يده، من امتقاع وجهه من طريقة نطقه باسم نشوى إنه فجع في أن قسمت لا تشاركه

كل اعجابه بالراقصة التي لم يرها الا مرتين في الشارع !

وتمتت قسمت كأنها تحدث نفسها. الرجل لا يفهم المرأة كما تفهم المرأة المرأة، إنها مذ رأت الراقصة نشوى للمرة الأولى لم تحبها، ولم تعرف لماذا لم تحبها، ولكن في المرأة حاسة تشبه حاسة الشم عند القطط. كأن لكل امرأة رائحة مميزة. شيئاً فيها لا تشمه الا امرأة مثلها. وعندما شعرت أنها لا تحب الراقصة نشوى لم تكن تعرف يومها أنها كانت احدى عشيقات عادل علاء الدين، ولم يكن يهمها في ذلك الوقت عادل، ولم تكن أحبته حتى تكره نشوى. وهى بعد أن أحبته لم تكره عشيقاته، ولو كرهت كل عشيقاته لكرهت كل صديقاتها ومعارفها !

إنها لا تعرف لماذا لم تحب الراقصة نشوى في ذلك الوقت، لم تكرمها لأنها راقصة. فتحية كاريوكا راقصة ومع ذلك هى مفتونة بها . ولم تكرمها لأنها لم تتعاون مع جمعية ملجأ المتسولين. إنها على العكس تبرعت بالرقص مجاناً في بعض حفلات الجمعية الخيرية، ومع ذلك كانت تجد أن تحية رقصت في الحفلات لتساعد المتسولين، بينما رقصت نشوى لتعلن عن نفسها. كل من الراقصتين فعلت نفس الشيء، ومع هذا لقد رقصت تحية من قلبها ورقصت نشوى من جسدها ! وما كادت نشوى تنتهى من دورها حتى خرجت من حفلة الجمعية الساهرة مسرعة، بينما بقيت تحية، ووقفت في البار تباع كنوس الويسكى بأثمان غالية مساعدة للجمعية واستطاعت بفتنتها الطاغية أن تنتزع من جيوب الباشوات البخلاء مئات الجنيهات تبرعا لجمعية.. ثم أصرت على أن تزور في اليوم التالى الملجأ، وترقص للعجائز والمشوهين، وتقبلهم وتعانقهم، واستطاعت في هذه الدقائق أن تزرع الحياة في قلوب ميتة، وأن تعيد الابتسامة الى شفاه تعسة، أن تقول كلمة حلوة لكل

محروم من كلمة حنان ! ففى قدرة كل واحد منا أن يصنع الخير، ولكن قليلين منا يعرفون كيف يصنعون الخير، كيف يتقدمون به. فرق أن أقدم لك وردة، وأن أقبلها قبل أن أقدمها إليك ! فرق أن انزع ما فيها من شوك قبل أن أقدمها إليك وأن أقدمها بكل ما فيها من شوك. فرق أن أقدم لك أجمل وردة فى الحديقة، وأن أقدم أى وردة فيها !

الوردة هى دائما وردة، ولكنها تختلف من يد إلى يد. هناك أصابع تقبض على الوردة وكأنها تخنقها، وأصابع تمسك الوردة كأنها تعانقها !

وقد كان الأجر الذى تبرعت به الراقصة نشوى، هو نفس الأجر الذى تبرعت به الراقصة تحية كاريوكا، ولكن قسمت أحست بأن نشوى تبرعت للجمعية ببضعة جنيهات، وأن تحية تبرعت بألوف الجنيهات، وذلك لأن تحية عرفت كيف تمسك الوردة، وكيف تقدمها !

ولكن هذا الخلاف فى طريقة الراقصتين لم يكن وحده السبب فى أن قسمت لم تسترح الى نشوى عبده..

ربما يكون الاعلان المأجور الذى نشرته نشوى بعد الحفلة الخيرية هو الذين ضايق قسمت، إنها لم تنتظر حتى تشكرها الجمعية على تبرعها، مع سائر الفنانات، وإنما نشرت فى الصحف خبرا مستقلا قالت فيه إن الراقصة المعروفة اشتركت فى إحياء حفلة جمعية ملجأ المتسولين، ورفضت أن تتقاضى اجرا، وأصرت على أن تدفع أجر التخت من جيبيها الخاص، والمعروف أنها تتقاضى فى الحفلة الواحدة مائة جنيه !

وكانت قسمت تعرف جيدا أن أجر الراقصة نشوى وتختها هو ثلاثون جنيها ! ولكنها أرادت أن ترفع سعرها على أكتاف المتسولين ! وكأنها أرادت أن تسترد التبرع بأن ترفع أجرها عن الحفلات المقبلة !

وحتى هذا التصرف الصبيانى لا يكفى لكى يجعل قسمت لا تستريح
لنشوى، بل هو شىء لا يمكن أن تحدده، لا يمكن أن تضع أصبعها عليه.

لعل فى داخل كل واحد فينا قارئ كف، أو قارئ فنجان، أو ضارب ودع،
أو فلكىا يحسب النجوم. أى فى داخل كل أنسان محطة رادار، قادرة على أن
ترى الغارة المعادية على مسافات طويلة، وربما قبل سنوات طويلة، وهى
تنبهنا وتنذرنا، وأغلبنا لا يسمع صفارة الإنذار، وإذا سمعها يسخر منها ثم
يتذكر أنه سمع صفارة التنبيه بعد أن تكون سقطت القنابل فوق رأسه !

لابد أن قسمت عندما رأت الراقصة نشوى لأول مرة سمعت جهاز الرادار
فيها يحذرهما منها. وكأنه يرى أنه بعد عدة سنوات ستكون هذه الراقصة
شاهد الأثبات ضد عم عبده الذى تحمل بالنيابة عنها مسئولية المنشور
المضبوط.



وقد قررت قسمت أن تذهب إلى نشوى وتقابلها، وتحاول أن تقنعها بأن
تعدل عن شهادة الزور.

واتصلت من مكتب الجمعية. تليفونيا ببيت الراقصة المشهورة. وقالت
خادمتها اعتدال إن الست فى البروفة وأنها ستكون فى البيت بعد ربع ساعة.

واستقلت قسمت سيارتها، وأسرعت إلى شقة نشوى فى عمارة سيف الدين
المطلّة على النيل فى حى جاردن سيتى الأنيق.

وفتحت الخادمة اعتدال باب الشقة، ومن نظرة واحدة ألقتها قسمت على
اعتدال عرفت أنها ليست خادمة الراقصة فقط، إنها هى سكرتيرتها، ومديرة
أعمالها، وكاتمة أسرارها، وكبيرة الياوران !

امرأة في الأربعين من عمرها، كل شيء فيها يبتسم ويرحب، ويقول « اتفضلوا! ». لها ضحكة رنانة يختلط صوتها مع صوت صرير الباب عند فتحه. مكورة الجسم، مدورة الوجه، تمشي وكأنها تدور حول نفسها. وعندما سألتها قسمت عن الراقصة نشوى قالت لها: تفضلي! ودعتها للدخول ولم تفهم قسمت من كلمة « تفضلي » هل نشوى موجودة أو غير موجودة..

وقادتها إلى صالون. وفوجئت بالصالون مزدحم. وخيل اليها من أول نظرة أن عدد الجالسين في الصالون أكثر من خمسين شخصا، ثم تبينت بعد أن جلست في أحد المقاعد أنهم لا يتجاوزون عشرة أشخاص. كلهم من الرجال. وكانت قسمت المرأة الوحيدة بينهم. ورأت الجالسين يتأملونها. عشرون عينا في وقت واحد تتجه اليها، تقيس طولها وعرضها، تحلق فيها تحاول أن تخرق جلدها.

واعتقدت في أول الأمر أنهم أفراد تخت الراقصة. وحاولت أن تمتحن ذكاءها فأخذت تبحث فيهم عن حامل الطبل، وعن عازف القانون وعن لاعب الكمان، ثم تبينت من الحديث الذي بدأ يدور حولها أنهم ليسوا أعضاء الفرقة الموسيقية للراقصة. إنهم أعضاء الفرقة الغرامية للراقصة! كلهم زبائن في صالة بديعة اعطتهم مواعيد مختلفة، حتى لا يلتقي أي واحد منهم بالآخر، وإذا بالراقصة تتأخر في العودة إلى بيتها، وتختلط المواعيد، ويتصادم العشاق، كما تتصادم السيارات عندما تتوقف علامات المرور!

وكانت الخادمة اعتدال تدخل كل خمس دقائق وتخدر العشاق المنتظرين، مؤكدة أن الست في الطريق!

وبدت العصبية على رجل قصير القامة، وله كرش مستدير، وعلى عينييه نظارة طبية، وقال للخادمة اعتدال محتجا:

— مضت عليك ساعتان وانت تقولين إن الست في الطريق!

قالت الخادمة اعتدال في دلال:

— هل مللت من ساعتين ياموسى بك؟

— أنت تعلمين أنني رجل مشغول جدا ويظهر أن الست نشوى نسيت موعدها معى..

وضربت اعتدال صدرها بيدها وقالت:

— كيف تنساك ست نشوى إنها تقول أنها تذكرك دائما كلما دخلت محل الأدب!

وضج الجالسون بالضحك، ولم تفهم قسمت ما هى النكتة التى يضحكون لها، وتصورت فى أول الأمر أن موسى بك هو مدير مصلحة المجارى أو موظف كبير فيها. وبعد لحظات انطلقت ضحكة مدوية من رجل طويل القامة، أزاح طربوشه إلى الوراء فظهرت خصلات من شعره الأحمر..

ومال عليه رجل بدين وقال له:

— ما الذى يضحكك الآن يا علوى بك!

وقال علوى بك وهو لا يزال يضحك:

— لم أفهم نكتة اعتدال إلا الآن!

لقد نسيت أن موسى بك كون ثروته عندما جمع فى أول الحرب كل أوراق التواليت من المدينة، عندما كان ثمن اللفة قرشين، وأخفاها فى مخازنه، ولم يبيعها إلا عندما وصلت قيمة لفة ورق التواليت إلى عشرة قروش.. وهكذا استطاع باستغلال أحقر أنواع الورق أن يصبح صاحب مئات الألوف من

الجنيهات، وأصبح الآن مقاولا يبنى البيوت والعمارات !

وابتسم الرجل البدين وقال هامسا :

— ملك الملوك إذا وهب، لا تسألن عن السبب ! الله يعطى من يشاء، فقف على حد الأدب !

وحاولت قسمت جاهدة أن تخفى ابتسامتها، وهى تتأمل موسى بك تاجر ورق التواليت.. الذى استطاع أن يدخل إلى قلب الراقصة نشوى عن طريق دورة المياه !

وتلملم رجل يجلس بجانبها، يرتدى جبة وقفطانا وعلى رأسه طربوش طويل، ووضع ساقه اليمنى فوق ساقه اليسرى، ثم عاد وأنزل ساقه اليمنى، يرفع فوقها ساقه اليسرى. وأخرج منديلا ملونا كبيرا من جيبه، ومخط فيه بصوت يشبه صفارة الانذار، وتأمل فى مخاطه باعجاب، ثم طوى المنديل يوضعه فى جيبه، وصاح بصوت أجش : يا اعتدال !

وأقبلت الخادمة اعتدال عليه، وهى تهتز، فقال لها هامسا، ولكن صوته لأجش وصل الى اذن قسمت :

— قولى لى بصراحة.. هل ستحضر الست أم أنها لن تحضر؟

— قالت اعتدال فى حماس

— بشرفك يا نعمان بك .. إنها قادمة فى الطريق :

— أرجوك الأ تقسمى بشرفى !

— إذن أقسم بشرفى أنا :

— شرفك أنت مثل شرفى أنا :

– إذن أقسم لك برأس الست نشوى !

– هذا فعلا قسم مصدق !

– إنها فى الطريق إلى هنا :

ممکن أن تكون فى الطريق إلى هنا وتصل بعد أربعة أيام : كأن تكون فى أوربا مثلا : وممكن أن تكون فى الاسكندرية وتصل بعد ثلاث ساعات : وممكن ..

إنها ليست فى أوربا، وليست فى الاسكندرية، إنها فى مصر فى صالة بديعة.

– ولكن المسافة بين صالة بديعة فى ميدان الأوبرا وبين هذا البيت فى جاردن سيتى هى خمس دقائق فى التاكسى، وعشر دقائق فى العربة الحانطور ونصف ساعة مشيا على الأقدام. وقد مضى على ثلاث ساعات وأنت تقولين لى الست فى الطريق !

– ولماذا نسيت أن تذكر المسافة التى تستغرقها عربة كارو؟

– أنا لا أحب الهزار يا اعتدال !

– وهل يعيبك أنك ملك العربات الكارو فى مصر؟ أنا وحياتك أفضل ركوب العربة الكارو على السيارة الرولز رويس :

– الله يحفظك يا اعتدال !

– إن العربة الكارو تحرك عاطفة المرأة. إنها تهز المرأة أكثر مما تهزها زجاجة ويسكى كاملة !

– ربما لو ركبت نشوى عربة كارو لرق قلبها !

- إن قلب الست نشوى ابيض مثل اللبن الحليب !
– ولكنى لم أذق قطرة من هذا اللبن !
– أنت رجل متعجل جدا يا نعمان بك !
– إننى أفتح لها فى الصالة منذ شهر !
– إن الحب الصحيح هو الذى يركب عربة كارو... أما الحب الذى يركب
طيارة فهو الحب الطيارى !
– لو كنت أركب عربة كارو لكنت وصلت منذ زمن طويل !
– بشرفك يا نعمان بك إنها قالت لى اليوم فقط أن نعمان هو أول رجل
حقيقى عرفته فى حياتها !
– قلت لك أرجوك ألا تقسمى بشرفى !
– إذن بشرف ست نشوى !
– العز !

- ودق جرس الباب، وقطعت اعتدال حديثها الهامس مع نعمان بك. وقالت :
– إنها الست.. وسوف تخبرك بنفسها !
وأسرعت تعدو إلى الباب. ولم تدخل نشوى، إنما دخل شاب أنيق طويل
القامة، أشقر الشعر، أنيق الملبس، حلو الصبورة، قال وهو يرفع يده
بالتحية !
– السلام عليكم.

ولم يرد أحد من الجالسين التحية، وتظاهر كل واحد منهم بأنه يهمس في أذن الجالس بجواره. وعاد الشاب الأنيق يقول :
— السلام عليكم.

ولم يرد أحد. كأنهم يصرون على تجاهله. واتخذ مقعدا بجوار موسى بك بائع ورق التواليت، وقال بصوت عال !
— أهلا موسى بك !
وهز موسى بك رأسه ولم يقل شيئا !

والتفت الشاب الأنيق إلى الجالسين، وراح يحيى كل واحد منهم برأسه، وهم يتمتمون أو يهزون رؤوسهم، أو لا يجيبون على الاطلاق..
ودهشت قسمت لهذه المقابلة الباردة التى أجمع عليها جميع الجالسين. ولم يظهر على الشاب الأنيق أنه فوجئ بهذا اللقاء الجاف وكأنه متعود عليه، ونظر إلى ساعته وقال :
— نونو.. ستحضر حالا !

وتوقعت قسمت ان الجالسين سوف يسعدون بهذه البشرى السارة ولكنهم أطبقوا أفواههم، كأن وجود الشاب الأنيق نكد عليهم حياتهم جميعا !
وتطلعت قسمت إلى وجوههم الصامتة، ورؤوسهم المنكسة، وأحست بأن كل الجالسين يحبون الراقصة ويكرهون بعضهم البعض ولكنهم يمقتون هذا الشاب الأنيق أكثر مما يمقتون بعضهم بعضا.

ومال نعمان بك ملك العربات الكارو، الذى كان يجلس إلى جوار قسمت، على رجل أشيب، تبدو عليه العصبية من طريقة تدخينه لسجارتته. وقال له هامسا :

- إذا جاءت الشياطين هربت الملائكة !
- وهل نحن جميعا ملائكة ؟
- طبعا نحن ملائكة بالذنب لهذا الشيطان !
- لأنه يستمتع باللحم.. ونحن لا نذوق سوى المرق !
- بل لأننا نحن ندفع.. وهو يقبض !
- هل تظن أنه البنك الذى تضع فيه نشوى أموالها ؟
- إن قماش البذلة التى يرتديها أنا الذى أهديته لنشوى لتصنع منه (تايير) !
- الساعة التى فى يده هى التى أهداها موسى بك لنشوى !
- إن لحم أكتافه من أموالنا !
- وهو صفيق لا يخجل من أن امرأة تنفق عليه !
- ألم تلاحظ أنه يتصرف وكأنه صاحب البيت ؟
- إنه دق الجرس عند قدومه .. ومعنى ذلك أن نشوى لم تعطه المفتاح !
- ما يدريك أن هذه حركة قصد منها أن نفهم ما فهمته ؟ إذا لم يكن معه مفتاح الشقة .. فلا بد أن معه مفتاح الغرفة الأخرى !
- أراهن أنها بلا مفتاح !
- لأنها لا تريد أن تضيع الوقت فى قفل الباب وفتحه !
- كم مضى عليك تفتح لها فى الصلاة !

— ستة أشهر!

— ولم تدخل الغرفة بعد؟!

— لم أدخل ألا هذا الصالون!

— لقد مضى على شهر أفتح لها وأشعر أننى لا أستطيع أن أصبر أكثر مما صبرت!

— إنها تستغل أننا نحبها!

— إننى أشعر برغبة بأن أمسك هذا الشاب المخنث (أسامة) من يديه ورجليه وألقيه من نافذة الدور السادس!

انك تقرأ أفكارى!

— لماذا لا نثور عليها إنها تستغل سكوتنا، إنها تلهو بنا جميعاً، تضرب كل واحد منا بالآخر، لو أننا اتفقنا كلنا عليها لما استطاعت أن تفعل بنا كل ما تفعله. ولكنها توهم كل واحد منا أنها تحبه وهى لا تحب أحداً!

— إنها تحب أسامة!

— ولا أسامة! إنها تحب نفسها فقط!

— إنها ليست مسئوليتها إنما هى مسئولية المغفلين الذين يصدقونها!

— اننى انفقت عليها حتى الآن ثلثمائة جنيه!

— وأنا انفقت خمسمائة جنيه.

— فى شهر واحد؟

— فى ٢٩ يوماً!

– نحن مغفلون فعلا !

– نحن الصعيدي الذي اشترى الترام !

– المدهش أنها هي الصعيدية.. وكأنها تنتقم من أهل القاهرة الذين باعوا الترام للصعيدى.. وتسترد المال الذى فقده كل مغفل جاء إلى القاهرة من الصعيد !

– ولكنهم يقولون إن والدها هو عبده باشا صاحب ميدان عبده باشا في العباسية !

– وأمها من الصعيد !

– يظهر أن أباه اشترى الترام عندما تزوج أمها !

– إن هذا هو آخر يوم أدخل فيه هذا البيت يا نعمان بك.

– وهذه آخر مرة أذهب فيها إلى صالة بديعة يا مرتضى بك.

وشعرت قسمت أن الثورة انتشرت في الصالون ! كان دخول الشاب الانيق أسامة حرك النخوة فجأة في العشاق العشرة. بدأ كل واحد منهم يخرج ساعته الذهبية ويفتحها وينظر إليها ويحتقن وجهه، ويغلقها، ثم يضعها في جيبه في غضب. علوى بك يضغط على شفته وكأنه يعض أسنانه. مرتضى بك العصبى تضاعف عدد المرات التي يهز فيها ساقيه في الثانية السواحدة ! نعمان بك وضع أصبعه في فمه وراح يقضم أظافره. موسى بك راح يمدق الأرض بقدمه. ورجل خامس يشبه الكرنبة يلعب بعصبية في عقدة رباط رقبته. وسادس بدأ يهرش في رأسه بهدوء، ثم زأخ يهرشه بعنف، وكأنه يشد شعره. وسابع له وجه خنزير وقد أخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة ولكنها في مجموعها لعنات على اليوم الأسود الذي ذهب فيه إلى الصالة وعرف

الراقصة نشوى. وثامن عجوز يسعل باستمرار، وقد بدا عليه قرف عجيب، كأنه تحول فجأة إلى تمثال لرجل قرفان، في بيت ليس فيه ليمونة واحدة. وتاسع وعاشر يتهامسان في حدة، والشر يتاثير من عيونهما.

وأحست قسمت بأنها تشهد مولد ثورة في صالون الراقصة نشوى، المعجبون أفاقوا فجأة من النشوة، وتبينوا أن خمر هذه الراقصة هي خمر مغشوشة! وأسعدها أنها ستشهد مصرع شاهدة الاثبات ضد عم عبده. إنها رأت في وجوههم جميعا كأنهم اكتشفوا خداعها، وعرفوا تضليلها، وتبينوا زيفها.. وأنهم جميعا يحملون شيكات بلا رصيد.. شيكات على بنك وضعه الشاب المخنث أسامة تحت الحراسة، وعين نفسه حارسا على أموال الاعداء، وناظرا للوقف له الشروط العشرة دون سواه! وأن في وجودهم سخطا مكتوما، ويخارا محبوسا يستعد للانفجار، وتمردا على واقع قبلوه على مضض:

كل واحد منهم كان يتصور أنه يلعب الدور الأول على مسرح نشوى ولكن ظهور الشاب المخنث أسامة على المسرح، وتأخرها في الحضور جعلهم يحسون بأنهم يقومون بدور (الكومبارس). إنهم الاصفار على يمين العدد الذى تضاعفت قيمته.. إنهم المغفلون الذين تستغلهم الراقصة كل ليلة، وتسرق ما في جيوبهم، لتملأ بها جيوب الشاب المخنث الرقيق الذى فضلت عليهم جميعا.

ونقلت قسمت عينيها بين الثائرين العشرة، لتعرف من منهم الذى سيتولى الثورة ضد الملكة الغانية ورأت في قسمت وجوههم أن كلا منهم ثائر، غاضب، يستعد للانقضاض!

ودق جرس الباب.. ثم دخلت الراقصة نشوى، وعلى شفيتها ابتسامة
فاجرة، وفوجئت قسمت بالثوار العشرة يتخاذلون ويتضاءلون ويتسابقون إلى
تحيتها، وتقبيل يدها، وتهنئتها بسلامة الوصول!

وقالت نشوى بصوت يذوب دلالا:

— تأخرت عليكم؟

وصاح العشاق العشرة في وقت واحد: أبدا.. أبدا!

كأنهم يرددون هتافا متفقا عليه، وكأنهم جميعا لم يصلوا إلى بيت نشوى
إلا قبل وصولها بدقيقة واحدة!

وقال مرتضى بك الذى قال من دقائق إن هذه آخر مرة يدخل فيها هذا
البيت:

— اننى كنت مستعدا أن انتظرك إلى الصباح يا نشوى!

وقال نعمان بك:

— لم أفهم أغنية أم كلثوم التى تقول (أنا فى انتظارك)!

أنا فى انتظارك خلّيت!

نارى فى ضلوعى وحطيت!

أيدى على خدى وعديت!

بالثانية غيابك ولا جيت!

واحتج موسى بك وقال:

— إن أم كلثوم تقول بعد ذلك (ياريتنى عمرى ما جيت) هل معنى ذلك

أنك تندم يا نعمان بك على حب نشوى؟

وصرخ نعمان بك :

— ابعد عني يا موسى بك ! أنت تريد بأى ثمن أن تـدس بينى وبين
نشوى.. إننى ندمت على اننى اضعـت السنوات الكثيرة من حياتى لاننى لم
أحب نشوى قبل الآن !

واعتقد الرجل الذى له وجه يشبه الخنزير أن هذه فرصته ليذبح موسى بك
باعتباره أخطر العشاق، لانه يحتكر ورق التواليت فقال :

— انت اعترفت الآن بانك لم تفهم أغنية (أنا فى انتظارك) إلا وأنت تنتظر
نشوى. معنى ذلك أن الأغنية تنطبق على شعورك ساعة الانتظار !
إن أم كلثوم تقول فى آخر أغنيـتها :

تواعدنى سنين وأيام

وتجبنى بحجج وكلام !

وتسلم وتمر قوام

أو تخلف، وتقول لى نسيت !

وانطلق موسى بك نحو نشوى يقول لها متوسلا :

— هذه مؤامرة ضدى ! هذه دسيسة ! كلهم يغارون منى !

أنا لم يخطر ببالى أبدا هذا الكلام الذى تقوله أم كلثوم.

— ولكنك قلت انك لم تفهم أغنية (أنا فى انتظارك) إلا اليوم،

— اختلط على الأمر ! أنا لا أقصد أغنية (أنا فى انتظارك) أنا أقصد

أغنية «الاهات».

— هذا العن ! أن أم كلثوم تقول فى هذه الأغنية (يا اللى أسست

وهديت).؟ يا اللى عمرت وأخليت) !

وتدخل علوى بك وقال :

— يا نهار أسود ! تجرؤ وتقول لست نشوى (يا اللى أسست وهديت) ؟
انت رجل مقاول مبان.. وتعرف معنى هذا الكلام الخطير !

وشعر موسى بك بأن العشاق التسعة تجمعوا عليه، يحاولون الوقية بينه
وبين نشوى. لابد أنهم يموتون كمدا وحسدا منه عندما سمعوا الخادمة
اعتدال تقول إن نشوى تذكره كلما دخلت التواليت !

وقطع الشاب المخنث أسامة سيل الاتهامات الموجهة إلى موسى بك،
وقال :

— انت تأخرت فعلا يا نونو.. لقد قلت انك ستكونين فى البيت الساعة
الثالثة بعد الظهر والآن الساعة الثالثة وخمس دقائق !

ونزلت هذه الجملة كالصاعقة على العشاق العشرة ونسوا الخلاف الذى
بينهم ! وتذكر موسى بك أن نشوى حددت له الساعة العاشرة وتذكر علوى بك
أنها حددت له العاشرة والنصف وتذكر مرتضى بك أنها حددت له الساعة
الحادية عشرة. وتذكر نعمان بك أن مواعده كان الحادية عشرة والنصف
وتذكر كرنبة بك — أى الرجل الذى يشبه الكرنبة — أن نشوى حددت له
الساعة الثانية عشرة ظهرا تماما.

إذن فهى قد خدعتهم جميعا ! لطعتهم جميعا ! تركتهم ينتظرونها عدة
ساعات. جعلتهم يعلنون رضاءهم عن هذا التأخير والاهمال !

أما الرقيع أسامة فهو وحده الذى كان يعلم الموعد الحقيقى لعودتها إلى
بيتها، وهو يلومها لأنها تأخرت خمس دقائق !

وأحست نشوى بذكائها أن وجود أسامة في الصالون يسمم الجو على عشاقها، فقالت له بلهجة أمرة، وهي تخرج خمسة جنيهاً من خقيبة يدها، وتعطيها إياه!

— أسامة اذهب إلى جروبي وأحضر لي دسته جاتوه.. أننى أريد أن اتغذى اليوم جاتوه..

وصدع أسامة بالأمر وخرج،

وتنفس الموجودون الصعداء كأن حجراً ثقيلاً كان يضغط على قلب كل واحد منهم. وتولت نشوى ازاحتها!

وبدأوا من جديد يهاجمون موسى بك تاجر أوراق التواليت!

كل هذا ولم تشعر نشوى بأن قسمت في الغرفة. فقد أحاط العشاق بنشوى يغمرونها بكلمات الملق والمديح والاعجاب..

والتفتت نشوى نحو قسمت وقالت في دهشة:

— انت هنا يا قسمت هانم؟! اننى لم أرك!

وأقبلت عليها تصافحها بشوق وتقول:

— لابد أنك جئت بشأن فرح:

— لا، بشأن ماتم!

— ماتم؟! هل أصبحت الراقصات تحيي الماتم الآن؟

— إنها وصية الفقيد.. وأنا مضطره أن انفذها!

— هل طلب في وصيته أن أحيى أنا ماتمه؟

— أنت دون سواك !

— لست أفهم.

— إنها قصة طويلة أحب أن اتحدث معك فيها على انفراد !

— إذن، انتظري حتى انتهى من الزبائن !

وضحكت نشوى وقالت للعشاق المنتظرين :

— سأحدث في التليفون وأعود اليكم فوراً !

* * *

وجلس العشاق العشرة ينتظرون. ضحكات وپسمات الراقصة خدرتهم جميعاً. تحول الثوار الغاضبون إلى مستسلمين راضين. تاجر ورق القواليت راح يمسح حذاءه في بنطلونه كما يفعل التلاميذ عند حضور ناظر المدرسة. علوى بك أخرج مشطاً من جيبه وراح يصرح شعر رأسه. كرنبه بك نظر إلى منديله الذى يتدلى من جيب جاكته اليسرى، وضاعف من المساحة التى تتدلى من المنديل الخارج من الجيب. نعمان بك عدل الجبة التى يرتديها وراح ينفذها من رماد السيجارة الذى سقط عليها.

كل واحد من العشرة كان يتهاى لموعد الغرام. كل واحد منهم نسى فى هذه اللحظات أن له تسعة شركاء آخرين، وأن العاشر سيجىء بعد وقت قليل يحمل دسته جاتوه من جروبي. كأن الراقصة عندما صافحت كل واحد منهم قالت له كلمة سر ! كأنها قالت لكل واحد منهم أنه وحده هو الذى سينتظر وأن الباقين سينصرفون !

وعجبت قسمت لبراءة نشوى، لقدرتها العجيبة على استغفال الرجال،

لأنها استطاعت أن تستقبل عشرة عشاق في وقت واحد، وتوهم كل واحد منهم أنه الحبيب الوحيد !

وبعد دقائق أقبلت الخادمة اعتدال وهمست في أذن الرجل الذي يشبه الخنزير همسة، سمعها الموجودون الذين صمتوا جميعاً عندما دخلت الصالون، سمعوها تقول له :

— عونى بك.. يطلبونك في التليفون !

وقفز عونى بك من مقعده، وخرج من الغرفة ! وأخرج مرتضى بك ساعته من جيبه. وكأنه يريد أن يحسب طول المحادثة التليفونية، وهل هي ثلاث دقائق.. أم أنها مكالمة خارجية !

وتغامز الجالسون. لقد فهموا على الفور أن التليفون الذى يطلب عونى بك الخنزير هو نشوى بنفسها ! لماذا بدأت به ؟ ! إنه ليس الأكبر سناً، وليس الأكثر ثروة، وليس الأكثر «فتحا» لزجاجات الشامبانيا في الصالة. إنه أقبحهم خلقه وأحقهم مظهراً.

وتضايق موسى بك من أن الخنزير كان أول الذين يتشرفون بالمقابلة السنية. إنه هو الذى قال على لسانه أغنية أم كلثوم « أنا في انتظارك » التى تقول فيها « تواعدنى بسنين وأيام.. وتجينى بحجج وكلام » ! انه لاحظ أن نشوى ضحكت من كل قلبها وهى تسمع دعابة الخنزير الثقيلة. هل أعجبتها خفة دمه ؟ هل هى تريد أن تغيظ موسى بك بأن تبدأ باستقبال الخنزير دون الجالسين جميعاً ؟

وبعد دقائق رأوا عونى بك يمر أمامهم، في طريقه إلى باب الشقة، كان ماشياً يترنح. كأنه لم يشرب لأول مرة الويسكى المغشوش !

وامتلأت وجوه العشاق التسعة بالكآبة. وتصور كل واحد منهم بخياله ماذا كانت المحادثة التليفونية التي جرت بين الخنزير بك وبين الراقصة نشوى! المتشائمون ظنوا أنه صبر وظفروناال المنى. والمتفائلون ظنوا أنها أعطته موعدا الليلة! والواقعيون اعتقدوا أنه سعيد كل هذه السعادة لانه لم يدفع شيئا!

ثم دخلت الخادمة اعتدال ودعت نعمان بك، وامتلا وجه نعمان بك بالسعادة والهناء عندما قال في خبث: تليفون؟

قالت الخادمة اعتدال!

— لا.. أن سائق سيارتك يريد أن يكلمك!

وخرج نعمان بك صاحب العربات الكارو منطلقا بسرعة تاكسى!

ولاحظ مرتضى بك أن الحديث طال ومضت ثلاث دقائق، وست دقائق وعشر دقائق، ولم يظهر نعمان بك.

وضحك مرتضى بك ضحكة ساخرة وقال:

— يظهر أن سائق سيارة نعمان بك يفأئ في الكلام!

— ان نعمان بك بطيء في الكلام مثل عرباته الكارو!

— لا تنسوا أن نعمان بك بدأ حياته عربجيا!

— أخشى أن «يسوق» فيها!

وضج الحاضرون بالضحك، ثم رأوا نعمان بك وهو يمشى أمامهم في الصالة في طريقه إلى الباب الخارجى يخب في جيبه وقفطائه، ثم يتوقف أمام باب الصالون ويرفع يده بالتحية قائلا!

– تصبحوا على خير!

ووجم الجالسون ماذا يقصد نعمان بجملة «تصبحوا على خير؟» لعله يقصد أنه بقى مع الراقصة من العصر حتى المساء! لعله أراد أن يسخر منهم! إنه يبدو سعيدا هنيئا كأنه طاف العالم مع نشوى فوق عربة كارو!

ورأت قسمت الخادمة اعتدال، وهى تستدعى العشاق واحدا واحدا، وكل واحد منهم يبقى دقائق مع نشوى، ثم ينصرف وهو يكاد يطير من الفرح! وامتلات قسمت بشعور الفضول، كانت تريد أن تعرف ماذا تفعل نشوى أو تقول خلال هذه الدقائق، ما هى الكلمة السحرية التى تحول هؤلاء الاغبياء المغفلين إلى منتشين، فرحين، سعداء! كأنها تحقنهم بحقنة أفيون.. أو كأنها تعطيهم نفسا من سيجارة حشيش!

وتصورت قسمت كأنها جالسة فى عيادة طبيب مشهور، هؤلاء العشاق هم الزبائن. الخنزير بك ونعمان بك دفعا أجر كشف خاص، فدخلا قبل غيرهما، والخادمة اعتدال هى الممرض الذى يخدر المرضى، والراقصة نشوى هى التى تكتب الدواء!

ولكن ما هو هذا الدواء العجيب سريع المفعول الذى يحول المرضى إلى أصحاء!

وبعد ساعة كاملة كانت نشوى انتهت من الكشف على العشاق العشرة، وأرسلت فى استدعاء قسمت..

واستقبلتها نشوى فى غرفة النوم، وقد أرتدت قميص نوم يكشف عن مفاتها! وما كادت نشوى تراها حتى تقدمت إلى قسمت تحاول أن تقبلها!

وتراجعت قسمت إلى الوراء!

وقالت لها نشوى وهى تضحك !

— من كثرة ما أعطيت اليوم من قبلات.. وجدت نفسى أحاول أن أقبلك أنت أيضا !

وابتسمت قسمت وقالت :

— إن هذا يذكرنى بما حدث مرة للدكتور عبد العزيز اسماعيل باشا الطبيب الباطنى المشهور. إن من عادته كلما رأى مريضا أن يقول له : اخلع ملابسك ؟ ثم يتركه فى غرفة، ويذهب إلى غرفة أخرى ليكشف، على مريض آخر، وعندما ينتهى منه يعود للمريض الذى خلع ملابسَه ويكشف عليه ! ويتركه ليرتدى ملابسَه، ويدخل غرفة ثالثة فى العيادة ويطلب من المريض الثالث أن يخلع ملابسَه وهكذا !.. وذات مرة رأى رجلا فى العيادة فقال له : اخلع ملابسك !

قال الرجل : ولكن..

قال الدكتور : لا تقل « ولكن ».. اخلع ملابسك فوراً !

وتركه الدكتور عبد العزيز إسماعيل فى الغرفة يخلع ملابسَه وذهب يكشف على مريض آخر، ثم عاد إليه فوجده عاريا، فسأله :

— ماذا عندك ؟

— عندى تلغراف !

— تلغراف !

— نعم اننى عامل التلغراف جئت أسلمك برقية !

— لماذا لم تقل لى هذا ؟

— أنت لم تترك لى فرصة لاتكلم، أصررت أن أخلع ملابسى فخلعتها،

وضحكت نشوى وقالت :

— ولكنى لا أطلب من زبائننى أن يفقدوا عقولهم !

— لعلك تكتفين بفقد عقلك !

— أنا لم أفقد عقلى مع واحد منهم !

— ولكنى رأيتهم يخرجون من عندك كالسكارى !

— إن دخولهم عندى يساوى نصف زجاجة الويسكى !

— والنصف الآخر؟

— أقبلهم قبلة خاطفة !

— هل هذا وحده هو الذى يسكرهم؟

— واشتم فى التسعة الباقين.. وأقول إنهم ثقلاء.. ولولا وجودهم
لاستمتعنا بوقت طيب !

— ولا شىء غير هذا؟

— لا شىء أبدا !

— إنك امرأة خطيرة !

— ان قلبى طيب !

— انك تبيعين قلبك للمشتريين !

— اننى أبيع قصورا فى الجنة

- ولهذا تدخلين الزبائن إلى النار
- لذة الرجل في العذاب.
- عذاب الانتظار؟
- لذتهم الكبرى أن يقفوا أمام باب القصر ويتزاحمون!
- ومتى تسمحين لهم بالدخول
- عندما يموتون!
- كنت مثلك أكره الرجال ولكن بعد أن عرفتهم أصبحت أعتقد أنهم لا يستحقون هذا التعذيب!
- أنا لا أكرههم. على العكس اننى أحبهم. ومن كثرة حبى لهم، لا أحبهم إلا بالجملة
- ولهذا تأخذين ما في جيوبهم بالقطاعى!
- أنا لا أضع يدي في جيب الرجل أبدا.
- هو الذى يضع جيبه في يدك!
- الرجل يدفع بسخاء للمرأة التى لا تطلب منه أن يدفع، ويساوم المرأة التى تطلب منه شيئا!
- إنك أستاذة في علم الرجال!
- الرجال هم الذين علمونى كيف أعاملهم! إذا أعطتهم المرأة كل شيء لا يعطونها شيئا! وإذا لم تعطهم شيئا، أعطوها كل شيء... وكل الذين رأيتهم عندى اليوم أعطونى كل شيء دون أن اطلب منهم أى شيء، أو أعطى أحدا منهم كل شيء!

- أظن أن سر المهنة يمنعك أن تقولى كم ربحت فى هذه الساعة؟
– ألف جنيه !
- ألف جنيه فى ساعة واحدة؟! إن الكاتب العالمى برنارد شو يتقاضى
خمسين جنيها فى الساعة !
- عمر الكاتب مائة سنة، وعمر الراقصة خمس سنوات فقط !
- يبدو أنك تحبين المال !
- المال لا يهمنى !
- مادمت لست فى حاجة إلى المال، فلماذا ترتكبين جريمة من أجل
الحصول على المال؟
- جريمة؟ أى جريمة؟
- لهذا جئت لمقابلتك. لحدثك فى شأن شهادة زور أدليت بها من أجل
المال !
- أنا لا يمكن أن أشهد زورا، ولو بمليون جنيه.
- ولكنك شهدت زورا ضد رجل برىء اسمه عبده، وقلت إنه أبلغك أنه
يعمل لحساب الالمان !
- هذه ليست شهادة زور. إنها شهادة حق املاها ضميرى !
- إنها كذب !
- اننى لا أكذب ! اننى معروفة باننى امرأة صادقة !
- انت تكذبين على عشاقك !

– هذا ليس كذبا ! الكذب هو من صفات العشاق !

– ولكن هذا الذى كذبت عليه ليس عشيقك !

– كان عشيقى !

– إنه لم يرك إلا مرتين فقط فى حياته.. وفى الشارع !

– عندما يقول الرجل أنه رأى امرأة مرتين.. فمعنى ذلك أنه عرفها طوال حياته !

– اننى اعتقد أن الحكومة هى التى جعلتك تؤدين هذه الشهادة الكاذبة !

– أنا لا تهمنى الحكومة ! اننى لبيت أمر ضميرى ! اننى لا أعرف أحدا من رجال الحكومة !

– وهنا دخلت الخادمة اعتدال وقالت :

– الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى فى الصالون !

وبدأ على الراقصة نشوى الارتباك ! اصفر وجهها. تلعثمت فى الحديث، ومدت يدها إلى قسمت تودعها ورفضت قسمت أن تمد يدها !

وقالت قسمت ساخرة :

– اننى أتركك الآن.. لضميرك !

– ضميرى !

– نعم اننى أصبحت أعرف اسم ضميرك ! اسمه الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى.. الضابط فى القسم السياسى. المتخصص فى تلفيق القضايا السياسية الكبرى !!

الفصل الثلاثون

أسرعت الراقصة نشوى، تبذل قميص نومها الوردى، وارتدت قميص نوم من « الشيفون ترجال » الأبيض، المطرز بالترتر الفضى الكبير، انه أغلى قميص نوم عندها. تحتفظ به لمقابلة الحكام والناس العظام!

انه القميص الحادى عشر الذى ترتديه اليوم! لقد حرصت أن تقابل كل واحد من زبائننا بقميص نوم بلون مختلف، حتى إذا ثرثر واحد منهم أمام الآخر بأن نشوى قابلته بقميص نوم مشجر، عرف أنه يكذب لان نشوى استقبلته بقميص نوم سادة! وهكذا يتصور كل واحد من العشاق العشرة، أنه وحده، دون سواه الذى استقبلته نشوى بقميص النوم!

وهزت نشوى رأسها، وهى تقف أمام المرأة، وقالت وهى تحدث المرأة وتضحك: أنها احتياطات ضرورية، للمحافظة على سمعتها، فسمعتها هى رأس مالها!

وفكت شعرها الاسود الطويل، ومشطته بمشط فضى، وانسدل على ظهرها شبه العارى، كما ينسدل ستار الماضى على ذكريات جميلة!

واختارت أغلى عطر عندها، وراحت تسكبه تحت كتفيها، وعلى صدرها، وفى ثنايا شعرها.. ثم استدعت خادمتها اعتدال وقالت لها

هامسة، وهى فى طريقها إلى الصالون .

– عندما يجرء اسامة قولى له اننى خرجت.. ان لدى موعدا هاما
يمكنه ان يحضر إلى الصالة بعد منتصف الليل..

ودخلت إلى الصالون وكأنها ترقص ... وما كادت ترى الصاغ
عند الفتاح الشبهاوى بقامته المديدة، وشاربه الصغير، ونظراته التى
تشبه نظرات الصقر، حتى اندفعت إليه وقد فتحت ذراعيها، وارتمت
تقبله وتعانقه فى لهفة وشوق.

وجلسا فى أريكة واسعة، ومدت نشوى ذراعها وأحاطت بها الشبهاوى
الذى قال فى جفاء .

– من كان هنا

– أنسة اسمها قسمت شاهين. سكرتيرة جمعية ملجأ المتسولين.

– لا أقصد الأنسات والسيدات.. أقصد الرجال

– لا أحد...

– كان هنا حوالى عشرة رجال!

– أنهم رجال التخت!

– لم يكونوا من رجال التخت!

– هل تضعنى تحت المراقبة؟

– ان نوع السجائر التى فى منافض السجائر من نوع أرقى كثيرا مما
يدخنه رجال التخت! فى المنافض بقايا سجائر لاكى سترايك، وسجائر

- شستر فيلد، وسجائر كاميل.. وهذه انواع لا يعرفها رجال التخت !
- انهم، كما تعلم، يأخذون سجائر من كل نوع من زبائن الصالة
- رجال الفرق الموسيقية عندنا يدخلون سجائر سمسون !
- أنت تتهمنى فى الوقت الذى كنت ادافع فيه عنك !
- من كان يشتمنى؟! !
- كانت هنا قسمت شاهين ولامتنى لاننى سأشهد فى قضية العميل
الالمانى !
- وكيف عرفت أنك سوف تشهدين؟ اننى امرت بحذف اسمك من
الجريدة !!
- لا أعرف كيف عرفت !
- وما الذى جاء باسمى فى هذا الموضوع؟
- لا أعرف.. وانما هى قالت لى انها تعلم أن هذه قضية لفقها
الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى !
- ساقطع لسانها !
- وقالت ان الرجل مظلوم !
- لابد انها عضو فى العصابة.. ان هذه معلومات سوف تفيدنا كثيرا
فى القضية !
- اننى بصراحة خائفة من شهادة الزور هذه.
- من قال أنها شهادة زور؟! انها قضية مضبوطة مائة فى المائة. كل

ما هناك انك ستقولين المعلومات التي تأكدنا منها بانفسنا...

– ولكنى لا أعرف هذا الرجل!

– هذا غير مهم!

– وماذا يحدث اذا جاء امام المحكمة .. ووضعه القاضى بين عدد من الناس .. وطلب منى أن أخرج لهم عبده هذا؟

– ان كل هذا حسبنا حسابه!

– ماذا افعل عندئذ؟

– ساجيء لك بصورة فوتوغرافية للمتهم!

– الصورة لا تكفى.

– ساجيء لك بجميع اوصاف المتهم وهو عار من ملابسه! فإذا انكر انه يعرفك قلت للمحكمة ان فى جسمه توجد علامات مميزة.. توجد مثلاً آثار جرح قديم طوله اربعة سنتيمترات تحت الصرة! وعندئذ سيطلب منه القاضى ان يخلع ملابسه.. فيجد الجرح فى المكان الذى حددته!

– ولكن هذه الحكاية سوف تهدمنى أمام الناس!

– لقد وعدتك بالا يعرف احد بأمر شهادتك. وان الرقابة ستمنع ذكر اسمك.

– ولكن قسمت شاهين عرفت اننى شاهدة اثبات!

– سوف نضعها فى السجن.. ونعلمها الا تفتح فمها!

– اننى خائفة يا عبد الفتاح!

— كنت اتصور اننى سأتزوج امرأة شجاعة!

— لماذا لا تتزوجنى الآن ؟

— قلت ان زواجى الآن يضر بالقضية! سوف يقول المحامون ان
شاهدة الاثبات الوحيدة هى زوجة ضابط فى البوليس السياسى!

— وسوف يقولون هذا بعد الحكم!

— بعد الحكم لن يجرؤ احد ان يفتح فمه!

— وماذا لو حكموا ببراءة هذا الرجل؟

— لن يجرؤ اى قاض على الحكم فى هذه القضية بالبراءة. أنها
قضية امن الدولة. قضية تهم الحكومة كلها. لقد وعدنى اللواء رسل
باشا الحكمдар بأن يرقينى ترقية استثنائية بعد الحكم..

— اننى اخاف أن ينهال على المحامون بالاسئلة!

— اننا اخترناك لانك اذكى راقصة .. لا اجمل راقصة فقط؟ ثم ان
المحامين لن يجرؤوا على أن يفتحوا أفواههم عندما نفاجئهم باعتراف
المتهم!

— لكن قسمت تقول أنه لم يعترف!

— والمتهم نفسه لا يعرف انه اعترف!

— كيف لا يعرف؟

— لقد قال فى التحقيق جملة كفيلا بأن تضع رأسه فى المشنقة!

— ماذا قال؟

— قال ان هدى هو خيانة الوطن!

— هل قال ذلك فعلا؟

— أنه لم يقل ذلك بالضبط.. قال «أن هدى هو صيانة الوطن»
واتفقنا مع كاتب التحقيق على أن يغير كلمة «صيانة» بكلمة «خيانة»..
تغيير حرف واحد في التحقيق! ولكن حرف الصاد الذى تحول إلى
حرف «الخاء» خرب بيت المتهم!

— انك عبقري في التزييف!

— ليس هذا تزييفا.. هو وضع النقاط فوق الحروف! عندما يفعل
واحد من الشعب هذا يسمونه تزييفا أو تزويرا.. ولكن عندما تفعله
الدولة فإنما هى تحمى الوطن؟

— ولكن الجريمة واحدة!

— ابدأ.. الجريمة تختلف باختلاف مرتكبيها.. عندما يضع رجل يده
في جيب رجل آخر ويأخذ ما في جيبه من نقود يسمى القانون هذا الفعل
«سرقة» أو «نشلا»! ولكن عندما تضع الحكمة يدها في جيب المواطن
وتأخذ ما فيه فهذه اسمها «ضرائب».. وعندما يضرب مواطن مواطنا
آخر فهذه جريمة اعتداء على حياة مواطن، ولكن عندما أضرب أنا هذا
المواطن فهذا عمل مقصود به المحافظة على الأمن العام! وعندما يفتح
مواطن خطاب مواطن آخر، أو يتجسس على احاديثه التليفونية، فالقانون
يعتبره مجرما يعتدى على حقوق المواطنين، ولكن عندما ترتكب الحكومة
نفس الشيء فهى تحرص على سلامة الدولة! وعندما يرفع تاجر سعر
اللحم مليما فهو مجرم يتلاعب بالاسعار، وعندما ترفع الحكومة ثمن علبة

السجائر خمسة قروش فهي توازن الميزانية ! الجرائم كلها مباحة عندما ترتكبها الحكومة وهي كلها ممنوعة ومعاقب عليها عندما يرتكبها الشعب !

— ما أجمل أن يكون الانسان هو الحكومة !

— ستكونين الحكومة عندما نتزوج !

— أى زبون فى الصالة يرفض أن يدفع الحساب فهو يسرق أموال الحكومة !

— طبعاً !

— وأى راقصة تشتمنى تكون بذلك تشتم الحكومة !

— ونقبض عليها.. ونضعها فى السجن !

— وماذا نفعل لو قلدتنى جميع الراقصات وتزوجن من ضباط بوليس ؟

— ليس كل ضباط بوليس هو الحكومة ! صاحب النفوذ فقط هو الحكومة.. فى مصر عشرة آلاف ضابط بوليس.. ولكن فيهم عشرة فقط من أصحاب النفوذ !

— انت واحد منهم ؟

— هذه القضية ستجعلنى واحدا منهم !

— ولهذا تريدنى ان اشهد فى القضية ؟

— أنا اريدك ان تشهدى لتصبحى بطلة أمام سعادة الحكمدار ! لو طلبت أن اتزوجك الآن فسوف ينقلنى الحكمدار من البوليس السياسى... ولكن بعد شهادتك سيفرح سعادة الحكمدار انى تزوجت بطلة.. ساعدت

البوليس والعدالة وخدمت الوطن.. ووضعت خائناً في السجن!

— هذا يستدعى أن أشهد في قضايا أخرى!

— هذه القضية ستفتح لى أبواب الترقيات الاستثنائية!

— وسوف يشنقون هذا الرجل طبعاً!

— هذا اقل ما يجب!

— اخشى أن أرى جثته دائماً معلقة في فراش نومنا!

— اننى شنقت كثيرين.. ونسيت حتى اسماءهم!

— وماذا تفعل لو سقطت هذه الوزارة وجاءت وزارة أخرى؟

— سوف تستعين بى الوزارة الجديدة لشنق خصومها؟

ما كادت قسمت تذهب في اليوم التالي إلى سجن الاستئناف وتخبر عم عبده عن أن شهادة الاثبات ضده هي نشوى عبده، وأنها قابلتها، وحاولت أن تقنعها بالعدول عن الشهادة فأصرت على أن تشهد، وكيف انها اكتشفت ان الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى هو الذى يتولى تليفق القضية معها.. ما كاد عم عبده يسمع كل هذه التفاصيل حتى جلس صامتاً مشدوهاً!

— لا يمكن أن تفعل نشوى هذا!

— لقد فعلته فعلاً!

— لا يمكن ان تفعله معى أنا!

– المرأة التي تقبل ان تشهد زورا ضد رجل لا تعرفه.. مستعدة ان تفعل ذلك مع رجل تعرفه!

– ولكنها إذا عرفت اننى أنا عم عبده فلن تقبل الشهادة!

– انك مخدوع فيها!

– أنا قابلتها مرتين في الشارع! وهى تعلم اننى احبها!

– وأنا قابلتها في بيتها ورأيتها كيف تعامل الذين يحبونها! كيف تخدعهم، كيف تعبت بهم، كيف تسرقهم جميعا!

– ولكن هؤلاء يريدون شيئا منها .. وأنا لم أرد أى شيء! أنا احببتها بلا غرض! أنا رفضت أن أخذ منها مائة قرش.. ورفضت أن أخذ منها كمية من البنكنوت قد تصل إلى مائة جنية! لا يمكن أن تكون قلوب الفنانات مختلفة عن قلوب البشر!

– انها ليست-فنانة.. انها غانية!

– وما هو الفرق بين الفنانة والغانية؟

– الفنانة لها قلب. والغانية لها جسد.. الفنانة تحرق نفسها لتضئ للناس النور، والغانية تحرق الناس لتضئ لنفسها الطريق... فراش الفنانة قطاع خاص، وفراش الغانية قطاع عام.. الفنانة تعشق الرجل، والغانية تعشق ما في جيب الرجل.. الفنانة تبذل نفسها للرجل.. والغانية تخلع فستانها لتشتري فستانا جديدا.. الفنانة تتعري لتصب، والغانية تتعري لتعيش.. الصفة البارزة في الفنانة هو الاخلاص. إذا احترفت الفن هوته وقدرته، وإذا احبت رجلا عشقته وألته. والصفة البارزة في الغانية هو الغدر. تدوس زميلاتها لترتفع، تخون الرجال اخلاصا لذاتها،

الوفاء عندها نوع من العبط، والصدقة عندها هي الاستغلال!

— لا يجوز أن تصدر حكما مطلقا على الناس! لا نستطيع أن نقول عن فئة أنها مخلصه، وفئة أخرى أنها خائنة. رب ملاك فيه اخلاق الغواني، وغانية لها اخلاق الملائكة.. ان قلبي يقول لى أن نشوى لا تعلم اننى المتهم فى هذه القضية!

— لابد انها قالت أنها تعرفك ليجعلوها شاهدة ضدك.

— أرجوك ان تذهبى إليها مرة أخرى.

— لا أريد ان أرى وجهها ثانية

— استحلفك بأن تضغطى على أعصابك. أن تقولى لها أن عبده المتهم هو عم عبده.. الذى منحها اسمه عندما كانت الخادمة شلبية ياسين الوحش! انه هو الذى ذهب معها إلى الست بديعة.. الذى كذب على الست بديعة!

— الغانية دائما ضعيفة الذاكرة!

— لا يمكن أن تنسى هذا اليوم!

— انها تنسى اسماء عشاقها!

— لا تظلمها!

— ما أعجب الرجل عندما يحب امرأة يدافع عنها حتى ولو كان خنجرها فى ظهره!

— أذهبى لها من أجل خاطرى!

— لولاك.. لما قبلت هذه المهمة الثقيلة!

* * *

— خرجت قسمت من سجن الاستئناف..

— وخرج عم عبده من غرفة نائب المأمور في طريقه إلى الزنزانة، وسمع ضجة في فناء السجن، ورأى عددا من المسجونين يحملون زميلا لهم، ملفوفا في بطانية سوداء.. ويتجهون به إلى طبيب السجن، وهرب عم عبده خلفهم، يسألهم في لهفة عما حدث. قال المسجونون في صوت متهدج يذرف دمعا. أن المسجون مسعود حسب الله سقط على الأرض فجأة بلا حراك..

— ووضع المسجونون زميلهم على مائدة بيضاء في العيادة، وتجمعوا حول المائدة، كل واحد فيهم يفتى في سبب ما حدث..

— وزمجر رجل ضئيل الجسم. ضامر الوجه، قاسى التقاطيع، وقال في عبارات متدافعة كرصا ص المدفع الرشاش!

— اسكت اخرس! ولا كلمة! هذه عيادة وليست سينما اخرجوا من هنا فورا!

وتردد المسجونون في مغادرة العيادة. انهم يريدون أن يبقوا جميعا ليطمئنوا على زميلهم مسعود

وبرز الممرض المنشاوى، وهو رجل عجوز يشبه المومياء، وفي عينيه قسوة جزار، وصرخ في المسجونين بصوت يشبه الرعد، ارتجت له جدران العيادة الصغيرة!

— من لا يخرج فوراً سوف نجلده!

وارتعش المسجونون من التهديد. أن وظيفة المنشاوى المكتوبة هى ملاك الرحمة! ولكن وظيفته الحقيقية فى السجن هى سوط العذاب!

وأسرع المسجونون يخرجون وأخلوا العيادة.

— وتحرك الدكتور كامل قاسم طبيب أول السجن فى ثقاقل، وأزاح البطانية السوداء من فوق المسجون مسعود، وكشف عليه فى ثوان، ثم رفع رأسه وقال بغير اهتمام!

— مات!

ومد يده وغطى وجه المسجون مسعود بالبطانية السوداء، بلا مبالاة. والتفت إلى زميله الدكتور عطوة وقال له وهو يضحك:

— قل لى مرة أخرى النكتة التى كنت ترويها أن ضوضاء المسجونين عند دخولهم منعتنى من سماع آخر النكتة!

وقهقه الدكتور عطوة وقال:

— اننى لا أقول النكتة مرتين!

قال الدكتور كامل مشيراً إلى الجثة المغطاة وهو يضحك:

— ان المرحوم دخل فى الوقت غير المناسب!

— النكتة عندما تقال للمرة الثانية تصبح سخيفة!

— إذن سأقول لك آخر نكتة سمعتها!

وبدأ الدكتور قاسم يروى آخر نكتة بذيئة سمعها، وضحك الدكتور عطوة

بصوت عال. وقهقهه الدكتور قاسم.. وابتسم الممرض المنشاوى تأديبا!
فالناس درجات فى كل شىء، حتى أمام النكت (فإذا قهقهه طبيب أول. يكتفى
الطبيب الثانى بالضحك، ويكتفى الممرض بالابتسام!

ومضى الطبيبان يتبادلان رواية آخر النكت البذيئة، بينما أخرج الدكتور
كامل قاسم قلمه الحبر، وبدأ يكتب فى التذكرة الطبية الخاصة بالمسجون
مسعود عدة عبارات باللغة العربية واللغة الانجليزية ملخصها أنه مات
بالسكتة القلبية!

وناول الدكتور كامل التذكرة إلى الدكتور عطوة فوقع عليها بأنه كشف
على المسجون فوجد أنه مات بالسكتة القلبية..

ثم توقف وقال:

— ولكن التذكرة فاضية!

وأصرع الممرض يقول:

— سنملاها فوراً يا دكتور!

— ان لجنة الجرد ستجىء غدا لجرد الادوية فى صيدلية السجن.

— فاهم يا دكتور!

وعاد الدكتور كامل قاسم يقول:

— انقلوا الميت إلى زنزانته.. وتخطر المصلحة والحانوتى لاتخاذ
اللازم!

وأصرع الممرض المنشاوى يفتح باب العيادة، وطلب من عدد من
المسجونين المتجمعين حول باب العيادة أن يحملوا المرحوم، ويضعوه فى

الزنزانة المجاورة لغرفة الاعداء، على أن يفلق الشاويش باب الزنزانة حتى لا يعبت أحد بالجثة ! إن الموتى يجب أن يكون لهم احترامهم حتى ولو كانوا مسجونين !

وأجهش المسجونون بالبكاء. وتقدموا يحملون جثة المرحوم مسعود في رفق، وهم يتلون آيات من القرآن، ويستمطرون الرحمة عليه.

وصرخ فيهم الدكتور كامل قاسم،

— ما هذه الضجة ؟ كلب ومات !

دعونا نعمل في هدوء ! هذا مكان عمل.. لا ماتم ولا محزنة !

وصمت المسجونون. ومضوا يحملون جثة زميلهم. ويمشون في هدوء !

وفتح الممرض المنشاوي أحد الادراج، وأخرج عشر تذاكر طبية بيضاء.. وتناول قلما، وبدأ يدون في التذاكر جميع الادوية التي سرقها من الصيدلية منذ آخر جرد، وجميع الادوية التي أخذها الاطباء لزبائنهم خارج السجن. وجميع الادوية التي أخذها مأمور السجن ونائب المأمور والضباط من أدوية المساجين لمعالجة عائلاتهم !

وأثبت الممرض في التذاكر تواريخ وهمية ادعى أنه تم فيها صرف هذه الادوية للمسجون مسعود، وأضاف أن المريض كان مريضا بالذبحه الصدرية. وبالسكر، وبالاملاح، وبالضغط، وبالمصران الاعور، وبالمصران الغليظ، وبالاثنى عشر، وبالصفراء، وبالانفلونزا، وباسنانه، وبعينيه.. وبكل الامراض التي سرقت أدويتها من صيدلية السجن !

ثم أثبت في التذاكر أن الدكتور كامل كان يكشف على مسعود يوميا، وأنه حلل البول ٣٩ مرة، وحلل الدم ١٣ مرة، وكشف بالاشعة ٧ مرات..

وفي دقائق كان قد ملأ التذاكر العشر البيضاء وقدمها للدكتور كامل قاسم
الذى وقع على التذاكر عشرات الامضاءات وهو يقول :

— لقد قمنا بواجبنا نحو هذا المسجون خير قيام !

— وأصبحت عهدة الصيدلية مضبوطة !

— سوف نتلقى خطاب شكر من لجنة الجرد !

— وخطاب شكر من الادارة الطبية.

— وسيقول مدير المصلحة في تقرير لوزير الداخلية إن السجون مهتمة
بصحة المسجون كمستشفيات الدرجة الأولى !

وجلس الممرض المنشاوى يعد كتابا يبلغ فيه مصلحة السجون نبأ وفاة
المسجون مسعود حسب الله. ويعدد أمراضه وما بذله الاطباء من جهود
جبارة لانقاذ حياته. وما صرفوه له من أدوية تبلغ مئات الجنيهات !

ووقع الدكتور كامل الخطاب وناولته إلى الممرض وهو يقول :

— هذا الخطاب يجب أن يرسل حالا إلى المصلحة .. ينتقل به جندى على
الفور وعلى وجه السرعة .. لا تعتمد على أحد يا منشاوى. اذهب وتأكد
بنفسك أن الحارس الذى يحمل الخطاب خرج من السجن إلى المصلحة
مباشرة !

دخل الشاويش فتوح برهومة إلى الزنزانة المجاورة لغرفة الاعداء، ليقرأ
الفاتحة على روح الفقيد..

ووقف في خشوع يقرأ الفاتحة أمام جثة الميت.

ثم انحنى على الجثة، ومد يده إلى جيبه الداخلى. وأخرج حافظة نقوده، وفتح الحافظة وهو يتلفت حوالیه..

وتهلل وجهه، وجد في الحافظة أربع ورقات من فئة الخمسة الجنيهات.. وخمس ورقات من فئة العشرة القروش..

وأخذ الخمسين قرشا ووضعها في جيبه. ثم أعاد العشرين جنيها إلى محفظة النقود، وأعادها إلى جيب الفقيد..

وعاد يقرأ الفاتحة على روح الميت من جديد، وزاد خشوعه. وتضاعفت العبارات التى يترحم بها على الفقيد

وعاد ينظر حوالیه، وعندما تأكد أن احدا لا يراه، انحنى من جديد على الجثة، ومد يده إلى المحفظة وفتحها، وأخذ منها خمسة جنيها، وأعاد الباقي إلى المحفظة، ثم وضعها في جيب الفقيد الكريم!

ووقف الشاويش فتوح في خشوع من جديد، وقرأ الفاتحة مرة أخرى، وأضاف إليها سورة ياسين..

واعتقد الشاويش فتوح أن من حقه بعد أن قرأ على الفقيد سورة ياسين، أن يتقاضى أجرا، فمد يده إلى الجثة. وأخرج المحفظة وأخذ منها خمسة جنيهاً أخرى.. وانتظر قليلا وتلفت حوالیه.. وأخذ خمسة جنيهاً ثالثة.. وانتظر نصف دقيقة وأخذ آخر خمسة جنيهاً في محفظة الفقيد..

ومد يده بالمحفظة الخالية ليدسها في جيب الفقيد. ثم توقف. أنبه ضميره. تحركت فيه روح انسانية.. أشفق على الفقيد أن يذهب إلى الآخرة مفلسا!

مد يده إلى جيبه وأخرج الخمسين قرشا التى سرقها فى أول الامر.
ووضعها فى داخل المحفظة، وأعادها إلى جيب الفقيد، وغطاه بالبطانية
السوداء فى احترام شديد.

وشعر الشاويش فتوح بالرضا عن نفسه. لقد اثبت أنه رجل قنوع. لم
يضعف أمام اغراء المادة.. اكتفى بأن سرق من الفقيد عشرين جنيها.. وترك
له خمسين قرشا.. قد يحتاج إليها عندما يذهب إلى الآخرة!

وسمع الشاويش فتوح وقع أقدام تقترب من الزنزانة، فأسرع يبتعد عن
الجثة، ووقف فى خشوع يتظاهر بأنه كان يقرأ الفاتحة على روح الفقيد..
ودخل الباشجاويش فهمى قريطم وقال:

— هل فتشت المسجون؟

— لا.. لم أفتشه!

— يجب أن تفتشه.. فقد تكون معه ممنوعات!

— لو وجدنا ممنوعات فلا يمكن معاقبته بعد أن مات!

— على كل يجب أن نؤدى واجبنا

وانحنى الباشجاويش فهمى قريطم على جثة الفقيد.. ورأى فى يده ساعة
ذهبية تلمع. فخلعها من يده وتأملها ليتأكد أنها ذهبية وعندما اطمأن لذلك
دسها فى جيبه بسرعة وغطى الجثة وهو يقول:

— لا داعى للتفتيش، يجب احترام الموتى!

ثم خرج من الزنزانة وهو يقول فى تأثر:

— اغلق الزنزانة يا فتوح، وأمن عليها، حتى لا يسرق أحد شيئاً من المرحوم.. انت تعلم أن المسجونين كلهم من اللصوص، وهم لا يرحمون الأموات والاحياء!

وأسرع الشاويش فتوح، يغلق باب الزنزانة، ويدير المفتاح عدة مرات في القفل، وهو يلعن المسجونين اللصوص!

وما كاد ينصرف الباشجاويش فهمى قريطم ومعه الشاويش فتوح، حتى أقبل الصول شحاته ومعه أحد الحراس

وفتح باب الزنزانة في هدوء.. ودخل الصول.. بينما وقف الحارس يحرس الطريق!

وانحنى الصول شحاتة على الجثة، ودس يده في جيبه، واخرج المحفظة، وفتحها، فوجد فيها الخمسين قرشا، وعاد يقلبها في احتقار ثم التفت إلى الجثة وقال:

— خمسون قرشا فقط يا ابن الكلب؟ انت مسجون صعلوك فعلا!

وتطلع الصول شحاته إلى «البول أوفر» الصوف الذى يرتديه الفقيد وتردد قليلا. ثم مد يده وامتنح نوع الصوف فوجده من النوع الفاخر، وتذكر أنه يصلح لولده وحيد، فانحنى على الجثة.. وجردها من «البول أوفر».. واخفاه داخل سترته العسكرية!

وتنهياً للخروج، ثم توقف. فقد وقعت عيناه على حذاء الفقيد. فوجده حذاء جديدا. أن مقاسه قريب من مقاس حذاء نجله توفيق!

وأسرع الصول شحاته، وجرد الفقيد من حذائه، ثم جرده من الجورب الذى يرتديه!

واستبطأ الحارس خليل رفاعى الصول شحاته فدخل الزنزانه وقال :

— سبيع.. أم ضبيع ؟

— فأر !

— ألم تجد معه أى شىء ؟

— انه مفلس !

— الله يلعنه !

— لم أجد سوى حذاء !

— إذن ساخذ أنا بنطلونه ! إنه من الصوف الثمين !

— أنت أولى من الحانوتى

وجرد الحارس خليل رفاعى الفقيد من بنطلونه ! وأعجبته، الفانلة، التى يرتديها، وحملق فيها. ثم بدأ ينزعها..

وصاح فيه الصول شحاته :

— اترك الفانيلا !

— ان ثمنها حوالى الجنيهين.

— ماذا نقول لو دخل المأمور الآن ووجده عاريا ؟

— نجىء له ببذلة ميرى من بذلات المسجونين !

وهرب الحارس رفاعى إلى الخارج، ثم عاد يحمل بذلة زرقاء ممزقة من بذل المسجونين. وتعاون الصول والحارس على تجريد الفقيد من كل

ملابسه. وألبسوه بذلة السجن الممزقة!

وقبل أن يخرج الصول ركل الجثة بقدمه وهو يقول في حسرة!

— لماذا لا يموت المسجونون الاغنياء؟ إن كل الذين يموتون من
المسجونين الفقراء المعدمين!

وأغلق الصول شحاته باب الزنزانة.. وما كاد الصول والحارس يبتعدان
عن الزنزانة بضع خطوات حتى سمعا دقا متواصلا!

وتوقف الاثنان.. واتسعت حدقات عيونهما.. وأشار الخارس بأصبع
ترتعش إلى الزنزانة التي فيها الميت!

وتسمر الاثنان في مكانهما من الرعب!

وعاد الدق من داخل باب زنزانة الميت من جديد..

وأطلق الصول شحاته ساقية للريح وهو يصرخ:

— عفريت.. عفريت!

وجرى الحارس رفاعي خلفه وهو يردد في رعب:

— عفريت.. عفريت!

وتجمع المسجونون والحراس على صوت الصراخ.. وقالوا إنه عفريت في
غرفة تنفيذ الاعدام!

وقال الصول شحاته وهو يتصيب عرقا:

— انه عفريت المسجون مسعود حسب الله!

ولاحظ المسجونون أن الصول شحاته يحمل حذاء بيديه ويشير بفردتى الحذاء بحركات عصبية!

ولاحظ الصول شحاته أن المسجونين ينظرون إلى الحذاء، فأخفاه وراء ظهره. ثم عاد يحاول أن يدس كل فردة من فردتى الحذاء فى جيب من جيوب بنطلونه، ثم اشتد به الفزع فرمى الحذاء على الأرض!

وتجراً مسجون، وتقدم على أطراف قدميه إلى الزنزانة التى ينبعث منها الصوت، وقال فى صوت مرتعش:

— من أنت؟

وسمع المسجونون والحراس صوتاً يخرج من داخل الزنزانة يقول فى كلمات متقطعة:

أنا.. أنا.. أنا مسعود!

مسعود من؟

أنا مسعود حسب الله!

ووجم المسجونون والحراس من الرعب الميت يتكلم!

وقال أحد المسجونين وهو يبتلع ريقه:

— ان هذه الزنزانة مليئة بالعفاريت.. لأنها بجوار غرفة تنفيذ الاعدام!

— إن روح المحكوم عليهم بالاعدام تخرج أحياناً.. أن إحدى الأرواح دخلت زنزانتي وأنا نائم وسرقت سجائري!

– ولكن هذا لا يشبه صوت مسعود حسب الله ! إن صوته أجش قوى !
وهذا صوت ضعيف :

– ان صوت عفريت الانسان يختلف عن صوت الانسان !

– لأنه يخرج من تحت الارض !

وأقبل الصول شحاتة ومعه الممرض المنشاوى وعدد من الحراس .. وقال
الممرض المنشاوى ساخرا :

– أين هو العفريت ؟!

– داخل الزنزانة !

– إن العفاريت في رؤوسكم !

– لقد سمعنا صوتا ينبعث من الزنزانة.

– انكم تتخيلون أصواتا .. الموتى لا يتكلمون ..

وأزاح الممرض المنشاوى المسجونين ودخل إلى الزنزانة ..

وفوجيء برؤية الميت مسعود حسب الله واقفا على قدميه . واصفر وجه
الممرض . وارتعشت ساقاه . وقال بصوت متلعثم :

– من أنت ؟

– أنا مسعود حسب الله !

– ولكن مسعود حسب الله قد مات !

– أنا حي .. أنا لم أمت !

– هل أنت يا جاهل تفهم أحسن من الدكتور كامل قاسم طبيب أول السجن؟

– ماذا قال؟

– قال إنك مت!

– ولكنى لم أمت.. أنا هو.. أنا الكلمك!

– أنك مت في الاوراق الرسمية! المصلحة تعلم الآن أنك ميت، وقد حذفنا اسمك من كشف المسجونين!

– إذن افرجوا عنى!

– نفرج عنك ميتا.. لا حيا

– ولكنى حى فعلا!

– وأنت ميت رسميا!

– يجب أن تصدقنى!

– كيف أصدقك أنت المسجون وأكذب الطبيب الأول! كيف أكذب الاوراق الرسمية؟

– إذن افرجوا عنى!

– أنت الآن ميت فعلا! إن حياتك سوف تسبب اشكالات لا حد لها! سوف تلخبط الدفاتر! سوف تلخبط السجلات! سوف تبوظ نظام السجن!

– وماذا تريد منى أن أفعل؟

– أن تموت!

- كيف أموت !
- هذه مشكلتك أنت.. وليست مشكلتنا !
- اننى أطلب مقابلة المأمور !
- سوف يظن المأمور اننى مجنون عندما ادعوه لمقابلة رجل ميت !
- اننى أكاد أجن !
- خير لك أن تموت عاقلا من أن تعيش مجنونا !
- اننى سأفصح الدنيا !
- خير لك أن تسكت وتغلق فمك.. وتترك لى حل المشكلة !
- لا تتركنى هنا مدة طويلة !
- اعتمد على.. كل ما عليك أن تفعله أن ترقد كما كنت وتغطى وجهك بالبطانية السوداء !
- واغلق الممرض الباب فى هدوء، ومشى يتعثر فى خطواته، ورفض أن يجيب على اسئلة المسجونين عن العفريت، وذهب إلى العيادة، وأغلق بابها خلفه، وقال للدكتور كامل قاسم، هامسا :
- مسعود حسب الله عاد إلى الحياة !
- لا يمكن ! أنا واثق أنه مات !
- وأنا واثق أنه حى !
- انت لا تفهم فى الطب.. انت ممرض فقط !

— كان واقفا في الزنزانة على قدميه .

— مستحيل !

— وكان يتكلم !

— هذه مصيبة !

— مصيبة كبرى !

— لقد قررت في السجلات الرسمية أنه مات . وكتبنا شهادة رسمية بوفاته .. وأبلغنا المصلحة أنه مات ! سوف أحال إلى مجلس تأديب !

— ولكنى أنا سأدخل السجن ! إن لجنة جرد الادوية ستزور السجن غدا .. إن رئيس اللجنة رجل رذيل .. وعندما سيجد هذه الكمية الهائلة من الادوية التى سجلنا فى الدفاتر أننا صرفناها للمسجون مسعود حسب الله سوف يستدعيه ويسأله .. وسنذهب جميعا فى داهية !

— انك تعجلت فى ارسال الخطاب إلى المصلحة !

— انت يا دكتور الذى طلبت منى أن ارسل الخطاب على وجه السرعة !

— ربما لم يخرج الحارس الذى يحمل خطابى بعد .. اسرع الحق به !

— اننى صحبت الحارس إلى باب السجن ، وتأكدت بنفسى من خروجه مع خطابك .. إن هذه كانت أوامرك !

يجب أن نستنجد بالمأمور !

— انه فى نفس المصيبة !

وقف المأمور ، ونائب المأمور ، والصول شحاتة مذهولين !

كيف يعود المسجون مسعود حسب الله فجأة إلى قيد الحياة، ياله من مسجون قليل الادب، قليل الحياء، عديم الذوق، يزعج السلطات، ويعبث بالسجلات الرسمية، ويخرج على اللوائح والانظمة والقوانين !

— لقد كتب البكباشى يوسف البلحاوى، مأمور السجن، بخط يده على شهادة الوفاة، انه انتقل بنفسه وعاین جثة المسجون، وتأكد أنه فارق الحياة، وليس فيه اصابات.. والورق وصل الآن إلى المصلحة، فالمسافة بين السجن والمصلحة لا تزيد عن عشر دقائق !

صحيح أن المأمور لم ينتقل من مكتبه. ولم يعاین المسجون، ولكنه اعتمد على شهادة الطبيب الاخصائى الذى أكد أن مسعود قد مات !

والصاغ حامد الجزماتى. نائب مأمور السجن، حانق على المسجون مسعود لانه تجرأ وعاد إلى الحياة إنه ما كاد يسمع بوفاة، حتى ذهب إلى الزنزانة التى كان يقيم فيها، وجمع كل ما فيها من سجاثر وملابس ومعلبات طعام وارسلها مع سجان إلى البيت ! ولقد راه المسجونون وهو يجمع هذه الأشياء، وقال لهم إنه يجمع حاجات مسعود ليسلمها إلى أسرته !

والصول شحاته. فزع أيضا بعودة مسعود إلى قيد الحياة. سوف يضطر أن يعيد اليه البلوفر والحداء، والجورب، والخمسين قرشا !

والباشجاويش فهمى قريطم مفجوع من نبأ عودة مسعود من الآخرة إلى الدنيا ! لابد أن مسعود راه، وهو ينزع من يده ساعته الذهبية ! ياله من ميت مخادع كذاب ليس له كلمة !

والشاويش فتوح صعق عندما علم بأن مسعود حي ! ماذا سيفعل فتوح إذا ابلغ مسعود عن سرقة العشرين جنيها ؟ لقد كان هو المسئول عن حراسة الزنزانة التى بها جثة الميت !

والحارس رفاعى منكوب هو الآخر يبعث مسعود من الموت ! إنه رجل
سيئ الحظ لم يكد يتسلم البنطلون المسروق والملابس الداخلية التى
تساوى ثلاثة جنيهات.. حتى عاد الميت إلى الحياة ليطالب بها !

والمرضى المنشاوى يضرب كفا بكف ! إنه رجل منحوس فعلا ! الرجل
الذى مات اليوم خصيصا لينقذه من لجنة الجرد، خلا به، وعاد إلى قيد
الحياة !

والدكتور كامل نسي النكت البذيئة كلها، وجلس حزينا كئيبا تعسا !
ما أغرب القدر ! الأطباء يفرحون إذا شفى أحد مرضاهم.. ومستقبله هو
مهدد بالخطر إذا عاد مريضه الميت إلى قيد الحياة !

واتفق الجميع على أن عودة مسعود إلى الحياة، هى قلة ذوق لا تغتفر،
وهى دليل جديد على أنه مجرم فعلا ! وهى فوق ذلك مخالفة صريحة لجميع
اللوائح والقوانين وخاضعة لائحة مصلحة السجون !

وصاح المريض المنشاوى فجأة :

— ما لكم كان على رؤوسكم الطير ! مادام الطبيب الاخصائى قد قرر أن
مسجوننا قد مات، فيجب أن يموت !

ونظر الموجودون إلى بعضهم البعض فى دهشة !

— واتجه المريض حامدا المنشاوى إلى الزنزانة..

ومشى خلفه المأمور، ونائب المأمور، والطبيب الأول، والصول شحاتة،
والباشجاويش قريطم والشاويش فتوح، والحارس رفاعى.

وفتحوا باب الزنزانة التى فيها مسعود..

واغلق الممرض باب الزنزانة خلفه..

وابتسم الممرض المنشاوى في وجه مسعود حسب الله وقال له في رقة
بالغة :

– ان الادارة كلها مهتمة بصحتك !

– صحتى جيدة والحمد لله !

– ولكنها ستكون أحسن بفضل هذه الحقنة !

– ما هى هذه الحقنة ؟

– حقنة فيتامينات !

– لست فى حاجة إلى فيتامينات !

اعتمد على ! أقسم لك بالله أنك لن تبقى فى السجن ٢٤ ساعة أخرى !

ومد المسجون مسعود ذراعه مستسلما إلى الممرض المنشاوى..

وحقنه الممرض بحقنة كانت فى جيبيه..

وبعد دقائق كان مسعود قد تخدر تماما.. وسقط على الأرض !

وأطبق الممرض يديه الخليطتين على رقبة مسعود حتى اسلم الروح.

وانحنى عليه بعد ذلك، وفتشه تفتيشا دقيقا، ولم يجد سوى المحفظة
الخالية، وهز رأسه فى مرارة وقال :

– بلد ليس فيه اخلاق.. يسرقون ميتا !!

وفى هدوء فتح الممرض المنشاوى باب الزنزانة، وقال مبتسما للمأمور :

— انه ميت يا سعادة البك !

— هل أنت متأكد !

— متأكد جدا.. مادام الطبيب أول قال إنه مات فمعنى ذلك أنه مات !

— إذن فكل شيء مضبوط !

— كيف يكون السجن تحت إدارة سعادتك.. ولا يكون كل شيء فيه مضبوطا !

وتنفس المأمور الصعداء !

وابتسم الطبيب أول اعجابا بتقدم الطب في مصلحة السجن !

وهز نائب المأمور رأسه معجبا بالعناية والرعاية التي يلقاها المسجونون !

وتحسس الصول شحاة الخمسين قرشا التي في جيبه.. ومشى يبحث عن الحذاء الذي رماه أمام الزنزانة !

ووضع الباشجاويش فهمى قريطم يده في جيبه وتأكد من وجود الساعة الذهبية الثمينة.

— ونظر الشاويش فتوح إلى حذائه الذي يخفى فيه العشرين جنيها !

وألقي الحارس رفاعى نظرات خاطفة إلى بنطلونات المسجونين تحت التحقيق، وتمنى لو ماتوا جميعا ليأخذ جميع بنطلوناتهم !

الفصل الحادى والثلاثون

مشى عم عبده فى فناء السجن كالمجنون، زائغ العينين، مضطرب الخطوات. لقد رأى بعينه عدة جرائم ترتكب فى وضح النهار. جرائم سرقة وتزوير وقتل. رأى الممرض المنشاوى وهو يملأ تذكرة المسجون مسعود الطبية بعشرات الأدوية التى لم تصرف له. رأى الحراس يجردون مسعود من أمواله وملابسه. رأى الممرض المنشاوى وهو يخنق مسعود بيديه. ينفذ فيه الاعدام بلا حكم، بلا جريمة، بلا ذنب!

لم ير وحده هذه الجرائم كلها .. رآها معه عشرات من المسجونين والحراس. رأوا ملاك الرحمة الممرض يتحول إلى شيطان للعذاب .. يستولى لنفسه على كل سلطات عزرائيل!

رأى الرجال الذين تنحصر وظيفتهم فى حراسة القانون يدوسون بأقدامهم على القانون. الحراس الذين يحرسون المجرمين يتحولون إلى شركاء فى الجريمة ومتسترين عليها .. لقد رأى مأمور السجن وهو يصافح القاتل، بعد أن أتم جريمته .. كأنه يثنى على بطولته، ويشيد بشهامته. رأى نائب المأمور الذى سرق معلبات السجن القتل وسجائره .. وهو يضرب بيده على ظهر القاتل. وكأنه يقول له : « أكثر الله من أمثالك فى مصلحة السجن » .. رأى الدكتور كامل قاسم، وهو ينظر إلى الممرض القاتل فى إعجاب، كأنه أحيًا ميتًا ولم يقتل حيا .. رأى الصول شحاته وهو يعانق القاتل، والباشجاويش

قريطم وهو يقبله، والشاويش فتوح وهو يقول في حماس : « لم أعرف فائدة وجود الممرضين في السجون إلا الآن »

كيف يحدث هذا ؟ لقد أصبح المنشاوي عريس السجن . الحراس يزفونه . كأنه أنقذ السجن من مصائب لا عدد لها، كأنه رد الحياة إلى الذين ماتوا رعبا . عندما علموا بأن المسجون مسعود عاد إلى قيد الحياة !

وتطلع عم عبده في وجوه زملائه المسجونين، الذين رأوا ما راه، حاول أن يقرأ في عيونهم بشاعة الجريمة التي شهدوها . حاول أن يسمع من أفواههم رأيهم في هذه الجناية الوحشية، وفوجئ بعيونهم صامتة، وشفاهم مطبقة . كأن الأمر لا يعنيهم، كأن القتل ليس واحدا منهم . انصرفوا إلى شؤونهم كأن جريمة قتل لم تقع أمام أعينهم ! بعضهم يتشاجر على نصيبه في الأكل . بعضهم يحاول أن يملأ قروانته بأكثر مما يستحق من الفول المدمس المليء بالسوس . الباعة من المسجونين مضوا ينادون على بضائعهم المهربة . يبيعون الشاي الممنوع، يتاجرون في الزيت الذي نهبوه من الفول المدمس، يساومون في ثمن اللحم الذي سرقوه من المطبخ . عاد السجن إلى حياته العادية . كأن جريمة قتل لم تحدث أمامهم . كأن زميلا من زملائهم لا يرقد في زنزانة مخنوقا بيد ممرض السجن !

ورأى بعض المسجونين يضحكون ... لعلمهم لم يجزؤوا على البكاء . فالتجأوا إلى الضحك هاربين من الدموع، إن المقيد بالسلاسل عندما تنهال عليه الضربات، ولا يستطيع أن يردّها، يصاب بحالة هستيريا تجعله يضحك بدلا من أن يلعن جلاديه ... يقهقه وهو يريد أن يصرخ . ينكت بدلا من الندب والنواح .

ورأى ثلاثة من المسجونين يلعنون القتل ويثنون على القاتل. ولم يدهش عم عبده لأن هؤلاء المسجونين بالذات يقفون هذا الموقف المخزى من الجريمة. إن الثلاثة هم من جواسيس الادارة. مهمتهم أن ينقلوا إليها ما يفعله زملاؤهم، وفي مقابل هذا تبيع لهم الادارة أن يتاجروا بالممنوعات. تصرح لهم بمخالفة القوانين بحجة أنهم يساعدون على تنفيذ القوانين. بينما الحقيقة أن المسجونين أبرياء من التهم التي يلفقها لهم الخباصون وإنما هو الدخان الأسود الذى يعمون به الادارة، ليستطيعوا في ظله أن يعتدوا على القانون! فالخباصون في كل سجن هم المجرمون الحقيقيون فيه. يبلغون عن المخالفات ليرتكبوا الجرائم، يتهمون مسجوننا فقيرا بأنه يبيع الدخان للمسجونين، من أجل أن يباح لهم بيع الحشيش والافيون!

* * *

ولم ير عم عبده فائدة من أن يتحدث إلى الخباصين، كل كلمة يقولها لهم، سوف يبيعونها للادارة ويبيعون عم عبده معها! وتركهم واتجه نحو الحاج دعبس أبو خطوة تاجر المخدرات الكبير، وكان الحاج دعبس يشرب كويا من الشاي الساخن، بصوت مرتفع، وتقدم نحوه عم عبده وقال:

— هل رأيت؟

— لم أر شيئا!

— لقد كنت واقفا بجوارى.

— لم أر شيئا!

— أنت رأيت كل شيء كما رأيت أنا تماما!

— إن نظرى ضعيف!

- إن نظرك قوى جدا.. ستة على ستة !
- فى هذا المكان يجب أن تكون أعمى وأصم وأبكم، لتعيش !
- ولكننا لا نعيش هنا !
- أفضل أن أعيش أعمى على أن أموت مفتوح العينين !
- إنك رأيت جريمة قتل تقع أمامك !
- إنها ليست الجريمة الأولى ولن تكون الأخيرة !
- هل رأيت من قبل ممرضا يقتل مريضا ؟
- رأيت ذلك كثيرا .
- فى السجن ؟
- فى السجن وخارج السجن !
- ولم يعاقبوا القاتل ؟
- عاقبوا الذين شهدوا ضد القاتل !
- ماذا فعلوا بالذين شهدوا على مثل هذه الجريمة ؟
- إذا كانوا رحماء جلدوهم، وإذا كانوا قساة قتلوهم !
- وماذا يفعلون بالقاتل ؟
- يمنحونه ترقية !
- ولكنى لن أسكت .
- لن يصدقك أحد .

- سوف يشهد معى كل المسجونين.
- سوف يشهدون ضدك !
- ولكنى أَدافع عنهم.
- ولهذا سيتهمونك !
- كل واحد منا معرض أن يقتلوه كما قتلوا مسعود !
- إلا إذا دفع ثمننا لحياته !
- ولكن أغلب المسجونين من الفقراء المعدمين.
- الفقير لا حق له فى الحياة !
- هذا ظلم !
- إنه ليس الظلم الوحيد ! فى هذا المكان الظلم هو القاعدة... والعدل هو الاستثناء..
- ولكن هذا اعتداء على حقوقنا !
- المسجون فى السجن ليس له أية حقوق ! إنه يترك حقوقه عند بوابة السجن مع ساعته وخاتمه !
- وكيف نحصل على حقوقنا ؟
- نشتريها !
- لماذا لا يتقدم جميع المسجونين بشكوى جماعية يوقعونها ؟
- لائحة السجن تمنع الشكاوى الجماعية.

- والشكاوى الفردية؟
- يجلد أصحابها، حتى يعدلوا عن رأيهم!
- سوف أثير هذه الجريمة في الصحف!
- سوف يحذفها الرقيب!
- ولكن هذه مسألة لا علاقة لها بالحرب.
- ستقول الحكومة أن الأعداء سوف يستفيدون بها ويشهرون بالحكومة!
- ماذا نفعل إذن؟
- نتلهى.. ونسكت!
- إنى أخطأت بالحديث معك!
- لماذا؟
- لأنك تاجر مخدرات صناعتك تخدير الناس!
- وأنت تريد أن توقظهم!
- أنت رجل واسع الثراء.. تستطيع أن تشتري الأيدي التى تخنق المسجونين.
- وأجعلها ترتفع لى.. بالتحية العسكرية!
- المأمور محسوبك. والحراس يعيشون على البقشيش الذى تنفقه بسخاء!
- إننى أشتري حياتى!

– كل شيء أصبح يباع !

– حتى الحرية ؟

– ولا يمكن لصاحب النفوذ مثلك أن يعرض زملاءه أصحاب النفوذ !

– الكلاب لا تعض بعضها بعضا !

– إننى سوف التجئ إلى الفقراء مثلى، هم وحدهم أصحاب المصلحة في العدالة.

– العدالة غالية الثمن في هذه البلاد، لا يستطيع الفقراء دفع ثمنها !

– إنهم يستطيعون أن ينالوا العدالة بالصراخ... الصراخ مجانى في هذه البلاد !

– إن ألسنة الفقراء مقطوعة ! المذبوحون لا يستطيعون الصراخ !

– إنك تكسر مجاديفى !

– أخشى أن تبتلعك الحيتان !

– أنا أعرف أن لا مصلحة لك في دخول العدالة إلى هذا المكان، لو دخلت العدالة إلى هنا لحرمت من كل امتيازاتك، لما دخلت لك زجاجات الويسكى، لما استقبلت صديقاتك كل يوم في غرفة المأمور بعد اغلاق السجن، أنت صاحب مصلحة في بقاء الظلم !

وأشعل الحاج دعبس أبو خطوة سيجارة حشيش، ونفخ دخانها في وجه عم عبده، ثم مد يده بالسيجارة إليه وهو يقول :

– خذ نفسا !

– لكى أفقد الوعي؟!

– كلا... لتصبح مثل باقى المسجونين!

– هل تقصد أنهم كلهم حشاشون!

– كلنا فقدنا ارادتنا.. ولكن نوع الحشيش يختلف! بعضنا يخدره الحشيش، وبعضنا تخدره التجارب، وبعضنا يخدره الخوف وبعضنا يخدره الجوع!

– ولكنى لا أزال صاحباً!

– إلى أن تصادف نوعاً من الحشيش الذى يخدرك!

– إن الجريمة التى جئت بسببها إلى هنا أننى حاولت أن أنبه الغافلين، وأوقف النائمين، وأنبه المخدرين!

– إنها أكبر جريمة فى القانون!

وتذكره عم عبده يائسا من اقناعه بأن يشهد معه، ولمنع المسجون طه أبو العلا، هذا المسجون المسحوق الذى يعطف عليه دائماً لبؤسه وفقره ومرضه. إنه يعمل فى تنظيف دورة المياه فى الطابق الثانى..، يحفل جرادل المسجونين القادرين فى مقابل سيجارة. بهذه السيجارة يستطيع أن يأكّل، طعام السجن الذى لا يشبع طفلاً. بهذه السيجارة يفتدى نفسه من صفعات الحراس وركلاتهم كلما التقوا به. رآه فى ثيابه الممزقة، فى قدميه العاريتين فى لونه الأصفر الذابل، فى عينيه المليئتين بحزن دائم، جعله يبدو دائماً كتمثال رجل مسحوق، رجل بال فوقه الحراس والمسجونون على حد سواء.

رجل مصلوب بلا صليب. رجل مضروب بلا سياط.

ولهذا كان عم عبده يحس باشفاق دائم على المسجون طه أبو العلا - يدعوهُ أحياناً لمشاركته طعامه الفاخر الذي تحمله له الأنسة كاف. لقد منحه مرة «بول أوفر» جميلاً أرسله له المهندس عادل علاء الدين. ليقويه برد الزنزانة القارس. وفوجئ بطله وقد باع «البول أوفر» الذي يبلغ ثمنه خمسة جنيهات بخمس سجانر! وغضب عم عبده على طه لهذه الحماقة. وقال طه والدموع في عينيه أن الممرض المنشاوي رفض أن يسلمه دواء الصدر الذي أمر به الطبيب إلا إذا دفع خمس سجانر، ولاحظ عم عبده أنه كلما قدم سيجارة إلى طه أبو العلا أنه كان يتنفس نار السيجارة أكثر مما كان يهف دخانها! كانت رثاء تحترقان مع كل نفس. يسعل دماً، يبيع اللبن الذي يصرف لمريض الصدر مقابل سيجارة. يبيع البرش الذي ينام عليه وينام على الأسفلت ليحصل من الممرض المنشاوي على جرعة دواء. الدواء يصرف للمسجون على الورق فقط، الطعام الصحي يملأ دفاتر السجن الرسمية، وتخلو منه قروانة المسجون المريض. كان طه يحقد على الممرض المنشاوي. يرى فيه الظلم مجسماً كأنه اجتمعت فيه كل شرور البشرية، وقسوتها، وطفغانها، وجبروتها!

إذن، فإن طه خير شاهد يمكن أن يستعين به عم عبده على اثبات جريمة القاتل.. واقترب منه، وأعطاه سيجارة، ثم سأله:

— هل رأيت جريمة خنق مسعود؟

— رأيتها من أولها إلى آخرها!

— وهل عرفت القاتل؟!

- المنشاوى... —
- وهل ادّهشك ما رأيت؟ —
- لم أدّهش طبعاً.. لقد رأيت من قبل وهو يقتل المسجونين بالجملة... رأيت هذه المرة وهو يقتلهم بالقطاعى!
- وفيما فكرت عندما رأيت يرتكب هذه الجريمة؟ —
- فكرت فى ان اقتله.. واخلص المسجونين منه!
- إن القانون هو الذى سيتولى عقابه.
- القانون يقتل الابرياء.. ولا يقتل القتلة!
- سأقدم ببلاغ إلى النائب العام
- ماذا ستقول فى البلاغ؟
- سأقول ان الممرضين يقتلون المرضى.
- النائب العام يعرف ذلك.
- لا يمكن ان يعرف النائب العام ان هذه الجرائم ترتكب فى السجن.
- لو كان يعرفها فلماذا لا يحقق فيها؟
- كيف يحقق فيها، وهو لا يعرفها؟
- انه يرسل إلى هنا كل شهر رئيس نيابة يزور السجن!
- ومن اين يعرف رئيس النيابة مادام المسجونون لا يتكلمون؟
- انه يمر ومعه ضابط

– ولماذا نخاف من الضابط؟

– الويل لمن يفتح فمه ويقدم شكوى لرئيس النيابة !

– هل يعرف رئيس النيابة هذا؟

– طبعا.

– إذن لماذا يزور السجن؟

– ليكتب في الدفاتر انه زار السجن ووجد ان كل شيء يسير طبقا للقانون.

– الا يرى بعينه ان كل شيء في السجن مخالف للقانون؟

– العيون أحيانا تخاف ان ترى ان تمثال العدالة هو امرأة معصوبة العينين، وبعض رجال العدالة ينزعون العصا ويضعونها على عيونهم لكيلا يروا، ما لا تريد الحكومة ان يروه!

– حتى ولو كانت جريمة قتل؟

– مادام القاتل موظفا في الحكومة !

– ولكن عندى شهود راوا الجريمة بأعينهم..

– لن تجد من يشهد معك !

– أنت سوف تشهد معي !

– أنا لا يمكن أن أشهد ضد إدارة السجن.

– ولكنك قلت لى من دقائق انك كنت تريد ان تقتل القاتل !

– اقتله.. ولا أشهد ضده!

– كأنك لا تخاف المشنقة.. وتخاف الإدارة!

– لو شهدت ضد الإدارة فسوف يحرموننى من وظيفتى!

– وظيفتك؟ هل تهلك هذه الوظيفة الحقيمة؟

– انها وظيفة خفير مراحىض الطابق الثانى!

– كنت أظن انك تخاف على وظيفتك إذا كنت وزيرا!

– المسائل نسبية فى الحياة. المسجون الذى يحرس دورة المياه فى السجن يشعر ان وظيفته لا تقل عن وظيفة وزير الاشغال الذى تتبعه مصلحة المجارى!

– ولكنك قلت لى مئات المرات انك تائر على الظلم الموجود فى السجن!

– نعم.

– وترفض ان تشهد بالحقيقة؟

– أشهد بها امامك... ولكن لا استطيع ان أشهد بها أمام الإدارة!

– ان خوفنا من ان نواجه الكبار بالحقيقة هو الذى يجعلنا نعيش صفارا!

– لقد قلت الحقيقة مرة واحدة فى حياتى.. ودفعت ثمنها!

– ما هو الثمن؟

– وجودى فى هذا السجن. لقد كنت خفيرا فى نقطة بوليس قرية ابو حسن فى مديرية المنوفية ورأيت ضابط النقطة يطلق الرصاص من بندقيته ويقتل

الفلاح إبراهيم حزين. كان الضابط يحب زوجة الفلاح عطيات. ويريد أن يزيل زوجها من طريقه. وطلب منى الضابط أن أشهد ان القاتل هو سمير العدوى. وهو فلاح فقير ورفضت أن أؤدى شهادة الزور. وشهد زميلى الخفير توفيق السيد بما أراد الضابط. واعدم الفلاح المظلوم. وبعد اسابيع لفق لى الضابط تهمة قتل أخرى، وجاء بالخفير توفيق السيد وشهد ضدى وحكم على بالاشغال الشاقة !

— وماذا حدث لشاهد الزور؟

— عينه الضابط شيخا للخبراء !

— ولهذا لا تريد ان تشهد على الممرض المنشاوى !

— لو شهدت عليه لحكم على بالأعدام !

وضرب عم عبده كفا بكف. القادرون لا يريدون ان يشهدوا بالحقيقة خوفا على مصالحهم، والمعدمون لا يريدون ان يقولوا الحقيقة خوفا على أعناقهم ' كان الحقيقة أصبحت بغير انصار ! أصبحت كالمنبوذين فى الهند الذين يخاف الناس أن يلمسوهم حتى لا يصابوا باللعنة : كان الحقيقة مسجونة فى سجن الاستئناف هى الاخرى، أو كأنها مخنوقة كما خنقوا المسجون مسعود، وملقاة بجوار جثته فى الزنزانة المجاورة لغرفة الاعدام !

ولكن الممرض المنشاوى هو الذى خنق مسعود. فمن هو الذى خنق الحقيقة ؟ هل خنقها المسجونون الخائفون، أم خنقها المجتمع الذى لا يعرف قيمة الحرية، الذى يتصور ان الحرية هى ترف لا قيمة له من أجل لقمة العيش — كأنهم لا يعرفون ان الحرية هى حياة كل واحد منهم. لو كانت هذه الحرية موجودة، لما سرق الحراس اطعمتهم، لما تهب الممرضون

ادويتهم، لما عاشوا في زناناتهم كما تعيش الحيوانات ! ان هؤلاء المساكين لا يعرفون ان الحرية هي شهادة ميلاد لكل واحد منهم، وبغيرها لا يعتبر الانسان على قيد الحياة. الذين يتصورون ان لقمة العيش اهم من الحرية واهمون، والذين يتوهمون ان القادرين اكثر شجاعة في الدفاع عن حريتهم من المعدمين مغفلون. الاستبداد يحول القادرين والمعدمين إلى عبيد ضعفاء متخاذلين، يشغل الفقير بالبحث عن لقمة العيش، ويشغل القادر بالدفاع عما يمتلك. كل واحد منهم مشغول بنفسه، الاستبداد جعل كلا منهم يتضائل إلى مرتبة الدابة. التي لا يهتمها من يركبها، كل ما يهتمها ان تجد طعامها ! الفرق بين المعدمين والقادرين في دنيا العبودية كالفرق بين حمار بغير بردعة، وحمار ببردعة موشاة بالقصب. حمار يحمل على ظهره السباخ وحمار يحمل على ظهره صاحب العزبة ! يتساوون بأنهم جميعا من الحمير. كل واحد منهم يضرب على رأسه ! ما الفرق بين العصا التي يحملها الفلاح الذي يسير وراء السباخ، وبين العصا التي يحملها صاحب العزبة ؟ الم الضربات واحد في الحالتين ! حمار السباخ بلا كمامة، وحمار البك صاحب العزبة له كمامة مذهبة وله مقود من الجلد الانيق. ولكن كلا من الحمارين يشعر انه فاقد ارادته، فاقد حريته، لا يستطيع ان يسير الا في الطريق الذي اختاره له راكمه !

ولكننا لسنا حميرا اننا آدميون نحن بخضوعنا واستسلامنا نلغي عقولنا، ونتحول إلى حمير تساق. نحن بسكوتنا نضع الكمامات في أفواهنا، كمامات غير منظورة. الخوف هو الذي يفرضها على أفواهنا. حكامنا يفعلون بنا ما كان يفعله الفلاح ليلة زفافه، يجيء بقطعة بريئة ويذبحها امام عروسه، فتصاب بالرعب طوال حياتها، وتسير خلف زوجها مغمضة العينين !

واحس عم عبده بأنه احد هذه القطط التي يريد الحاكم ان يذبحها

ليخيف الشعب، ويمشى وراءه مغمض العينين !

* * *

وفوجى عم عبده بيد تضرية على ظهره، وكأنها توقظه من أفكاره. والتفت خلفه فوجد زميله السجين ماهر نجيب، المحامى المتهم فى قضية قتل من أجل الشرف.. وسمعه يقول له بصوت عال :

— هل رأيت جادث القتل؟! هل يمكن ان نسكت على هذه الجريمة؟ لو سكتنا فسيكون مصيرنا جميعا مصير مسعود..

وارتجف عم عبده. ان ماهر نجيب يقول بصوت مرتفع نفس الكلمات التى كان يهمس بها، ولم يجد لها صدى فى الحاج دعبسى ابو خطوة تاجر المخدرات، أو فى طه ابو العلا نوبتجى دورة المياه. اىكون العلم هو الذى جعل ماهر نجيب المحامى، يرى ما لا يراه تاجر المخدرات أو حارس المراحيض هل العلم يجعلنا اشجع من الجهلاء؟ وتذكر عم عبده انه لا يحمل شهادة ومع ذلك فقد تشجع ولعن الجريمة، ومأمور السجن ونائبه والطبيب الأول والطبيب الثانى يحملون شهادات عليا، ومع ذلك فانهم لا يسكتون فقط على الجريمة، وانما هم شركاء فيها.

واحس عم عبده بسعادة لأنه وجد له حليفا على الظلم، وأقبل على ماهر نجيب يشد على يديه، وكأنه يشكره لأنه تكلم والمسجونون سكوت وتحرك وهم سكون، ووقف وهم قعود. أحس بسعادة انه وجد شجاعا بين متخاذلين، جريئا بين جبنا، وقال له :

— إذن أنت مستعد للشهادة.

— مستعد جدا!

هل توقع معنى بلاغ للنائب العام!

- إننى مستعد أن أوقع بلاغا إلى الملك أيضا.

- إذن اكتب البلاغ. فانت محام تعرف صيغة مثل هذه البلاغات.

- ماذا اكتب؟

- اكتب اننا رأينا جريمة قتل.

- من هو القاتل؟ هل هذا سؤال؟ لقد رأيته بعينيك!

- يجب ان نتفق أولا على من هو القاتل!

- هذه المسألة ليست فى حاجة إلى اتفاق.. انت رأيت الممرض المنشاوى وهو يخنق مسعود..

- ولكن ليس معنى هذا أن المنشاوى هو القاتل!

- كيف لا يكون قاتلا.. وقد رأيته بعينيك يخنق مسعود؟

- قد يكون المنشاوى هو القاتل وقد لا يكون! قد يكون القاتل هو الذى منح هذا الممرض مرتبا قدره أربعة جنيهاً فى الشهر، وله ثمانية أولاد، وبذلك اضطره ان يسرق أدوية المساجين ليطعم أولاده.

واضطره ان يقتل مسعود ليخفى جريمة السرقة ولينقذ حياة أولاده الثمانية من الموت جوعا! وقد يكون القاتل هو الوزير الذى وضع لائحة السجون، واعتبر المسجونين منبوذين، محكوما عليهم بالموت المدنى، محرومين من كل حقوق الانسان!

وقد يكون القاتل هو المجتمع الذى جعل من كل موظف مهما صغر شأنه

الها يملك في يديه حق الحياة وحق الموت ! وقد يكون القاتل هو نظام التمريض في بلادنا الذي جاء بعدد من الوحوش واطلق عليهم لقب ممرضين ! وقد يكون القاتل هو انا وانت وغيرنا من المسجونين الذين سكتنا على ظلم أقل، فاصبنا بظلم أكبر. فالظلم يبدأ صغيراً ثم يكبر بفضل خضوع المظلومين وخنوعهم ! وقد يكون قتلة مسعود هؤلاء جميعاً !

— إننى أطلب منك ان تشهد على جريمة قتل واحدة وانت تريد ان تحولها إلى عدة جرائم قتل !

— انا مستعد ان أشهد في كل الجرائم التي رايتها.. لا في جريمة قتل واحدة؟

— كأنك لا تكتفى ببلاغ للنائب العام !

— ان الامر يحتاج إلى كتاب !

— إننى جئت هنا في تهمة كتابة منشور من صفحة واحدة..

— منشور واحد لا يكفى.. نحن في حاجة إلى كتاب !

— وما هو الحل؟

— ان نحطم اقفاص السجن !

— ولكننا في داخل هذه الاقفاص.

— التاريخ يقول ان كل الذين حطموا الاقفاص هم الذين ذاقوا مرارة هذه الاقفاص !

الفصل الثانى والثلاثون

تسللت أشعة انشمس من نافذة غرفة نوم قسمت، كما يتسلل العاشق إلى نافذة الحبيب، وتسربت من خلف الستائر الخضراء، وزحفت في بطء إلى الفراش الواسع الذى كانت تنام فيه. وألقت ضوءا خافتا على الجسد شبه العارى، الذى فشلت في أن تخفى جماله الغلالة الحريرية الشفافة، بل كان قميص النوم الأحمر تأمر مع الضوء الخافت ليظهر فتنة المرأة النائمة في الفراش.

وحركت قسمت رأسها فوق الوسادة في نشوة امرأة سكرى، وكان شعاع الشمس طبع على شفتيها قبلة ساخنة، وارتسمت على الشفتين الشهيتين الناضجتين ابتسامة، كأن قبلة الشمس بللت الشفتين برحيق الحب، واستنشقت قسمت نفسا طويلا، وحركت أنفها وكأنها شممت رائحة عطر نفاذ انساب إلى كل جزء من جسدها.. وكان أشعة الشمس حملت معها هذه الرائحة الجميلة التى امتزجت فيها أنفاس الورود في حديقة البيت مع نسيم الصباح..

وفتحت قسمت عينيها نصف فتحة وألقت نظرة حاملة على الفراش ثم مدت ذراعها في تراخ، وراحت تتحسس المرتبة، ومضت أصابعها تتحس الفراش، كأن أصابعها الخمس هى خمسة من العميان يبحثون عن شيء ضاع منهم في الظلام.

أين ذهب هذا الرجل؟ وقفزت من فراشها في هلع، ونظرت حولها في دهشة، وكأنها اكتشفت عندما رأت أثاث غرفتها أنها ليست هي الغرفة التي أمضت فيها ليلتها.. وعضت على شفتيها، وكأنها تلعن أشعة الشمس التي اقتحمت نافذتها، وأيقظتها من الحلم اللذيذ، الذي عاشت فيه عدة ساعات!

كانت تحلم بعادل علاء الدين.. أمضت ساعات طويلة بين ذراعيه في شقته بعمارة إيموبيليا.. لا تزال حرارة قبلاته في شفتيها.. لا تزال حلاوة ضماته في صدرها.. لا تزال تشعر بيديه تضغطان على ذراعيها، لا تزال تشعر بأصابعه تلعب في خصلات شعرها..

إنها أول مرة في حياتها تحلم بعادل علاء الدين. كثيرا ما تمنيت أن يجيء إليها في الحلم، ولم يجى مرة واحدة. كأنه اعتاد أن يعربد في الليل مع عشرات النساء ولم يجد وقتا ليجيء إليها في موعد الأحلام!

لقد قيل لها إنه من الممكن أن تحلم المرأة بالرجل إذا ركزت كل أفكارها فيه قبل أن تغمض عينيها وهي تركز أفكارها بالليل والنهار في عادل علاء الدين ومع ذلك لا يجيء. كأنه ينتقم منها، ويهرب منها في الحلم بعد أن هربت منه في الحقيقة!

كانت تحلم كل ليلة، تحلم بكل شيء إلا بالرجل الذي تمنيت أن تراه في الأحلام. كانت تحلم بعم عبده في سجنه. تحلم بالراقصة نشوى، تحلم بالصاغ عبد الفتاح الشبهاوى الذى لفق قضية عم عبده.. بل إنها حلمت بالمرض المنشاوى من كثرة ما سمعت عنه من عم عبده بعد حادث خنقه للمسجون مسعود! بل إنها كثيرا ما حلمت بالأميرة فضيلة! حلمت بها ترتدى ملابس ممرضة وتخنقها بيدها!

ولكنها المرة الأولى التي ترى فيها عادل علاء الدين في الحلم. ما الذى

جعله يغير عاداته ويحضر إلى أحلافها؟ هل أحس بالشوق لها كما أحست بالشوق له؟ هل أحس بأنه في حاجة إليها فأسرع إلى صدرها يحتفى فيه؟ إنها لم تسمع صوته منذ سبعة شهور. صوته الملىء بالرجولة.. لم تلمس يده، يده التى كانت تصافحها وكأنها تعانقها وتسند خدها إلى شعر يده، فتحس كأن كل شعرة فيه تلثم خدها. لم تتمرغ بين ذراعيه، أه من هاتين الذراعين، إنها عندما تدخل بينهما تحس كأنها دخلت في أبواب النعيم.. لم تذق قبلاته، قبلاته التى كانت تميتها وتحببها، ترفغها إلى السماء وتهبط بها إلى الأرض، قبلاته التى كانت تنسى فيها الدنيا وكأنها تخدرها وتملاها بنشوة لذيذة رائعة. إنها افتقدت كل شىء في عادل علاء الدين. حتى رائحة صابون الحلاقة الذى كان يستعمله كانت تملأ أنفها بهذه السرائحة فتحس بأنها أجمل رائحة في الدنيا.. رائحة الرجل الذى عشقته، الرائحة التى كانت تبقى في أنفها يوما كاملا بعد أن تقابله، وكأن رائحته المعطرة ملأت الدنيا كلها!

أما اليوم فإنها لا تشم إلا رائحة الموت! تحس كأنها أصبحت مجموعة من الجثث في امرأة واحدة.. كان جسدها تحول إلى مدفن ملىء بالقبور والهيكل العظمية!

كان حب عادل جعل منها عدة نساء في امرأة واحدة.. مياتت قسمت شاهين.. ولدت الأنسة كاف ذات الشخصية المتعددة. العاشقة التى ولدت لتحب عادل علاء الدين، الصديقة التى كرس حياتها من أجله، الغانية التى تفننت في أن تجعله يستمتع بكل نساء الدنيا في امرأة واحدة. الأم التى تتلهف عليه ولا تريد أن يغيب عن عينيها لحظة واحدة، الأخت التى كانت تحس بأنها توأمة. الابنة التى كانت تنظر إليه كأنه مثلها الأعلى.

كانت الأنسة كاف كل هؤلاء النساء لعادل. ثم فجأة مات كل هؤلاء. متن بالسكتة القلبية تحولن إلى موتى بلا حراك. لا يصرخن ولا يبكين، فالموتى لا يعرفون الدموع ولكنها تظلم عادل إذا قالت إنه القاتل. إنه هو الذى قتل المخلوقات الجميلة التى خلقها فى داخلها. إنها هى التى قتلتهم.. هى التى خنقتهم بيديها. كما خنق العمرض المنشاوى المسجون مسعود.. قتلت معهم الأنسة كاف.. وبعثت قسمت إلى قيد الحياة، قسمت بكل بشاعتها، بكل حقدما على الرجال، بكل سخطها على العشق والعاشقين !

إنها لم تطق أن ترى عادل بعد أن عرفت أن الأميرة فضيلة حملت منه بعد أن شعرت أنه مهتم بهذا الجنين.. أحست بأن هذا الحمل قطع كل ما بينها وبينه. إن هذا الجنين هو رمز خيانة عادل علاء الدين، وسيكبر الرمز كل يوم، وسيخرج إلى الحياة، وسيتحرك، وستنمو الخيانة كل يوم، وكلما عرفت قسمت من صديقاتها أن بطن الأميرة فضيلة تكبر، كان عذابها يكبر، وشقاؤها يكبر، وحقدما على كل الرجال يكبر. وكأنها شعرت أن حب عادل لها قد سكنت نبضاته، يوم تحرك هذا الجنين، وإن هذا الحب يتضاءل كلما نما هذا الجنين.. لم تعد تشعر أنها أم عادل، أصبحت تشعر أنها أم ثكلى فقدت أبنها الوحيد. لم تعد تحس بأن عادل أبوها. لقد مات هذا الأب وأصبحت يتيمة. لم تعد تشعر بأنه زوجها أمام الله، لقد مات زوجها وأصبحت أرمل. لم تعد تحس بأنها عاشقة معشوقة، بل أصبحت تحس بأنها عاشقة مهجورة.. أصبحت تشعر بكل عذاب هؤلاء البائسات الشقيات. تبكى بكل دموعهن. تزفر مجموع زفراتهن. كل كلمة حلوة سمعتها من شفثيه انقلبت إلى سكين ' كل ضمة لذيذة فى صدره تحولت إلى جحيم. كل شئ: انقلب إلى ضده. كأنها عندما فقدت الحبيب، فقدت حواسها الخمس.. ما فائدة العينين إذا كانت لا ترى بهما من تحب؟.. ما فائدة الشفثين إذا

كانت لا تقبل بهما من تهوى؟. ما فائدة حاسة السمع إذا لم تسمع بها
صوته القوى المثير؟ ما فائدة اللمس إذا لم تلمسه؟ ما فائدة حاسة الشم
إذا لم تملأ جسدها برائحته !

لقد طاردها عادل خلال هذه الشهور. طلبها في التليفون مئات المرات،
فكانت تنكر نفسها.. حرصت على ألا ترد على التليفون.. لم تعد تبقى
بجوار مخدعها طوال الليل. كانت تخشى أن تسمع صوته فتضعف، وتنهار،
وتعود إليه صاغرة. لقد تعودت ألا تقول له (لا) أبدا ! المرات التي قالت له
فيها (لا) نغمتها بصوتها حتى بدت كأنها ألف (نعم) !

وكتب عادل لها عشرات الخطابات وكانت تمزق الخطابات قبل أن تفض
المظاريف. كان قلبها يتمزق وهي تمزق الخطابات. ولكنها كانت تعرف أن
كل كلمة سيكتبها لها سوف تقنعها ! لو أنه اعترف بجريمته. فستغفر له
جريمته. لو أنه اعتذر عنها فسوف تقبل عذره. لو أنه شتمها فسوف تسعد
بشتائمه لأنها ستعلم - أنه يشتمها لأنه يحبها !

وهي لا تريد أن تعرف أنه يحبها.. لو عرفت ذلك فسوف تذهب إليه
مغمضة العينين، تركع أمامه، تبكي تحت قدميه. تعود كما كانت الأنسة
كاف ذات الشخصيات المتعددة، التي لا عمل لها في الحياة إلا عادل
علاء الدين !

ولأنها لم تجرؤ على أن تواجهه في الحقيقة، كانت تتمنى أن تراه في
الحلم، وها هو قد جاء في الليلة الماضية. وما كادت تراه حتى استسلمت له.
إنها لم تذكر إنها حدثته في الحلم عن فضيلة، ولا عن الجنين، ولا عن
قرارها بقطع علاقتها به.

كأن كل هذا كان حلما.. وكأن حبهما هو الحقيقة الوحيدة. وها هي تستيقظ لتكتشف أن عادل علاء الدين فعل في الحلم ما عجز عن أن يفعله في الحقيقة. لقد بعث المخلوقات التي قتلتها إلى قيد الحياة من جديد! إنها تشعر لأول مرة منذ سبعة شهور أنها عادت الأنسة كاف. إنها لم تعد تكره الرجال. إنها لا تغار من الأميرة فضيلة. إنها لا تغار من الجنين. ما اتفه عقل قسمت شاهين التي كانت تغار من جنين.. إنها الآن الأنسة كاف، بكل ما فيها من أنوثة طاغية، بكل ما فيها من شوق ولهفة. عادت تحس بأنها تشم رائحة الحياة تنبعث فيها من جديد. اختفت رائحة الموت التي كانت تخنقها.. النساء المقتولات في داخلها عدن إلى قيد الحياة. أصبحت تشعر أنها مرة أخرى، أم عادل علاء الدين وابنته، وأخته، وعابدة، وصديقه، وغانيته، وشريكته في الحياة.

وأمسكت بيدها مراتها، وتطلعت فيها. اختفى فجأة ذبولها. أمس فقط نظرت في نفس المرأة فرأت نفسها قد جفت وذبلت، كما تجف وتذبل الزهرة عندما تحرم من الماء أو من الشمس والهواء. ها هي عادت تنفتح من جديد، وكأنها وجدت الماء والشمس والهواء.. وجدتها في الحلم مع عادل علاء الدين!

هل من الممكن أن يفعل بها الحلم كل ما فعل؟ أن تتحرك حياتها بعد أن ركدت؟ أن تمتلئ أيامها بعد أن خلت؟ أن تضيء لياليتها بالنور بعد أن امتلأت بالسواد والظلام؟ إذا كان الحلم فعل بها كل هذا؟ فماذا سوف تفعل بها الحقيقة لو أنها عادت إليه؟!

وأحست بأن المرأة تبتسم في يدها. كأن كل شيء في غرفتها سمع جملة (لو عادت إليه) فرقص فرحا. كأن الوسادة التي سقطت عليها دموعها عرفت

أنها لن تبللها بهذه الدموع. الفراش الذى مل سهادها، وتقلبها ذات اليمين وذات اليسار، عرف أنه سوف يستريح من كثرة هذه التقلبات والتنهيدات والزفريات.

* * *

ودقت قسمت الجرس . ودخل الخادم يحمل إليها مائدة الافطار ويجوارها جريدة الصباح.. ووضع المائدة فوق فراشها، وفتح ستائر الغرفة فامتلات بالنور، ثم ألقى الخادم نظرة على سيدته، وشهق.

ورأت قسمت الدهشة فى عيني خادمها العجوز الذى حملها على كتفيه وهى طفلة فرأت الدهول يملأ وجهه فسألته :

— ماذا حدث ؟

— إننى أنا الذى أسألك ماذا حدث ؟

— لم يحدث شيء !

— كيف لم يحدث شيء ؟ لقد حدث كل شيء.

— ماذا تقصد ؟

— لست أنت التى كنت نائمة فى هذا الفراش !

— هل جننت ؟

— لقد رأيتك فى الليلة الماضية عندما دخلت من باب البيت.. وصعدت معك إلى باب غرفة النوم وأغلقت بنفسى الباب عليك. والفتاة التى أوصلتها إلى غرفة النوم ليست أنت ' كنت شبحا وأصبحت امرأة ! كنت ليلة أمس تصعدين درجات سلم البيت وكانك تشيعين جنازة. أما صباح اليوم فبانك

أشبهه بعروس في صباح اليوم التالي لزفافها!

– ربما دخل العريس من النافذة وأنت نائم!

– لابد أن شيئاً قد حدث! لابد أنك خرجت من البيت بعد أن تركتك!

– إننى لم أغادر الفراش.

– لابد أنك كنت مسحورة.. وزال السحر!

– ربما أكون الآن مسحورة!

– إنك عدت جميلة كما كنت منذ سبعة شهور!

– كيف عرفت أن جمالى ذهب منذ سبعة شهور؟

– لا يمكن أن أنسى ذلك اليوم الذى عدت فيه إلى البيت وتصورت أنك تموتين. كان وجهك أصفر. كانت شفقتك ترتعشان. كانت عيناك منطفئتين. اعتقدت يومها أنك مريضة جداً. أخبرت الباشا أننى أعتقد أنك تموتين. وجاء الطبيب وكشف عليك، ثم قال إنه لم يجد فيك أى مرض. ولكنى كنت أراك تذبلين يوماً بعد يوم. اختفت ابتسامتك، أحسست أنك أصبحت بلا روح، لاحظت على المائدة لا تأكلين كما تعودت أن تأكلين... ثم أراك اليوم وكأن أمراضك كلها قد زالت في ليلة واحدة.. الدم عاد يجرى في عروقك بشرتك ناصعة، عيناك تلمعان من جديد: إنك لست المرأة التى دخلت أمس إلى هذا الفراش!

– إنك تتخيل أشياء غريبة!

– لا... إننى أرى بعينى أشياء عجيبة!

وخرج الخادم العجوز من الغرفة بخطوات أسرع من خطواته

عندما دخل. كأن السعادة مرض معد. وكأنه أصيب برذاذ من سعادة سيدته. ودهشت قسمت أن يرى خادمها العجوز فيها كل ما رآته من تغيرات حدثت في داخلها. وكأنه أطل بعينه في أعماقها. وكأنه شم هو الآخر رائحة الحياة تتغلب على رائحة الموت التي كانت تنبعث منها. وتطردها..

كيف عرف خادمها كل الذي عرفه؟ كيف قرأ فيها قصة التغير العجيب الذي حدث لها بين يوم وليلة؟

ثم سمعت دقا على الباب، ولم ينتظر خادمها أن تدعوه للدخول، فدخل وهو يحمل في يده آلة التليفون...

وذهلت عندما رأت آلة التليفون والسماعة فوق الآلة. إن معنى ذلك أن أحدا لم يطلبها. لقد أحضر لها الخادم آلة التليفون دون أن يطلبها. على الرغم من أنه كان يعلم بأوامرها منذ سبعة شهور بأنها لا تريد آلة التليفون! ما الذي جعله يجيء اليوم بالآلة التليفون؟.. وقالت له وكأنها توبخه:

— ولكنى لم أطلب منك إحضار التليفون!

— أعرف ذلك.

— لماذا أحضرته؟

— لأنك تريد أن تتكلم في التليفون.

— كيف عرفت؟

— عندما عرفت أنك عدت إلى قيد الحياة... لأن الموتى لا يتكلمون!

— ولكننى لا أريد أن اتحدث مع أحد!

— اننى واثق من أنك تنتظرين مكالمه!

- قد يدهشك ان تعلم اننى لا أنتظر مكالمة من احد !
- اذن فأنت تريدين ان تطلبى احدا !
- انك تخرف !
- اننى افكر بقلبى !
- من هى السيدة التى انتظر ان تحدثنى.. أو التى تظن اننى اريد ان حدثها ؟
- انها ليست سيدة.. انه رجل !
- ومن هو الرجل ؟
- عادل علاء الدين بك !
- كيف عرفت إنه هو ؟
- لانك قلت لى منذ سبعة شهور: إذا سأل عنى عادل علاء الدين فقل له إننى غير موجودة !
- وما الذى يجعلنى اتحدث اليه اليوم ؟
- الذى حدث فى الليلة الماضية !
- وماذا تظن انه حدث فى الليلة الماضية ؟
- لا أعرف.. ولكنى واثق انه حدث شىء !
- ان شيئاً لم يحدث على الاطلاق !
- إننى اعرفك منذ كنت طفلة.. واعرف متى تكذبين ومتى تقولين الحق !

– وانت تظن اننى كاذبة عندما اقول لك : لم يحدث شيء !

– لا أظن.. وانما انا واثق انه حدث شيء ! سأتركك الآن لتتسكلمي في التليفون !

وتركها الخادم العجوز وخرج. تركها مذهولة. كانت فعلا تريد علاء الدين. كانت فعلا تريد أن تتحدث مع عادل علاء الدين. كانت فعلا تريد ان تطلب التليفون من الخادم ولكنها لم تقل له شيئا من هذا فكيف عرف كل هذا ؟ هل يتحول الخادم الذى يخدمنا سنوات طويلة الى رجل يقرأ أفكارنا، يفحص فى داخلنا، يفهمنا بغير ان نفتح أفواهنا ؟ ام اننا عندما نحب انسانا يزيل الحب الحواجز التى بيننا وبينه. نرى أشياء لا يراها الذين لا يحبونه. نسمع كلمات لم ينطق بها !..

إن خادمها اذهلها بهذه المناقشة، وكأنها قصت عليه قصة حبها مع عادل علاء الدين، وقضت خلافها معه !

هل يعرف هذا الخادم العجوز الحب ! هل ذاقه كما ذاقته ؟ هل تعذب فى ناره كما تعذبت وأصبح يفهم لوعتها ويحس بشقائها، ولهذا جاء بالتليفون، لأنه يعرف انه يوصلها إلى الطبيب الوحيد، الذى هو الداء والدواء معا !

ونظرت الى الساعة. وجدت انها لا تزال السابعة والنصف صباحا. لا يزال عادل نائما. سوف تنتظر عشر دقائق حتى يستيقظ.. لا تريد أن توقظه من النوم، انها تريد ان تحدثه وهو يقظان...

وأمسكت الجريدة بيدها، وأطلت بلا اهتمام على عناوين الصفحة الأولى ! انها تتحدث عن توقع انتهاء الحرب ! الحرب العالمية الثانية

لا تهماها الآن، انها مشغولة بانتهاء الحرب التى أعلنتها بلا مناسبة على عادل علاء الدين ! لقد انتهت هذه الحرب ! انها هى التى ستستسلم فيها بلا قيد ولا شرط ! إنها تشعر إنها مجرمة الحرب الوحيدة ! لقد اشعلت هذه الحرب بحماقتها وغيرتها العمياء، من جنين لا يزال فى بطن أمه !

وقلبت قسمت صفحات الجريدة فى ثققل، ووصلت إلى صفحة المجتمع، وخطر ببالها ان تبحث عن اعلان مجانى وعدت الجريدة بنشره عن الحفلة الساهرة التى ستقيمها جمعية ملجأ المتسولين فى الأسبوع القادم. وتسمرت عينها أمام نبأ فى أول صفحة المجتمع بعنوان « الاميرة فضيلة ترزق بمولود ذكر » !

وجمت وهى تقرأ العنوان. كأنها لم تتوقع ان تلد الاميرة فضيلة ! كأنها تمنى فى عقلها الباطن ان يموت الجنين فى بطن أمه !..

وها هى الاميرة فضيلة تلد، وتلد ذكرا ! تماما كما توقع عادل علاء الدين عندما كان يتحدث عن الجنين ويسميه « ابنى »... عندما غضبت منه وثار عليه !

ومضت تقرأ الخبر، والجريدة ترتجف بين يديها. وكانت تقرأ كل سطر مرتين وثلاث مرات. وخيل اليها ان حروف الخبر تهتز أمام عينيها، وإنها لا تفهم ما قرأت. فقد كانت تقرأ الكلمة الواحدة عدة مرات... وكلما مضت فى القراءة سقطت دموعها على الخبر ! « رزقت صاحبة السمو الملكى الاميرة فضيلية قرينة سعادة معروف باشا، بمولود ذكر، فى الساعة العاشرة من صباح أمس.

« وتولى الدكتور نجيب باشا محفوظ الاشراف على عملية الولادة وقد اطلق على المولود اسم « عادل علاء الدين معروف ».

« ونحن نهنيء صاحبة السمو الملكي الأميرة فضيلة وقرينها معروف
باشا بمولودهما الأول، جعله الله من أولاد السعادة وانبتة نباتا حسنا..
وسقطت الجريدة من يدي قسمت، ودفنت رأسها في فراشها تبكي
وتنتحب بصوت عال... »

إن الأميرة فضيلة لم تلد فقط، وإنما ولدت ذكرا، واطلقت عليه اسم عادل
علاء الدين !

لا يمكن ان تكون الأميرة فضيلة فعلت هذا بغير الاتفاق مع عادل ! هو
الذي وافق على ان يحمل ابن الخطيئة اسمه. هو الذي شجعها على ان
تفعل ذلك. هذا دليل واضح على انه عاد اليها. على انه أصبح صديق
الاسرة الأول الذي لا يفارقها، وهكذا لم يجد زوجها غرابة في ان يكون اسم
ابنه البكر عادل علاء الدين تيمنا بأسم صديق الاسرة الوفي !

هل جن عادل حتى يطلق اسمه على ابنه السفاح من الأميرة، ام حبه
للأميرة اعماه عما في هذه التسمية من سخرية ؟ ام ان شعور الابوة فيه، قد
تغلب على الخوف من الفضيحة، فلم يعد يهمه أى شيء، لم يعد يهمه
ما سوف يقوله الناس، كل ما يهمه ان يوقع بامضائه على الجريمة التى
ارتكبها مع عشيقته الأميرة ! أم أن عادل يريد ان يجرح قسمت فوق
ما جرحها، ويمضى في الاستهانة بشعورها... فهو يعلم اكثر من أى إنسان
آخر ما يعنى عندما يطلق اسمه على ابن الأميرة البكر. كأنه يريد ان يقول
لقسمت ان علاقته بالأميرة فضيلة هى علاقة دائمة، وانه من أجل استمرار
هذه العلاقة فهو مستعد ان يعمل أى شيء، حتى ان يضع اسمه على الابن
الحرام الذى ولدته الأميرة !

وشعرت قسمت بأنها تكره عادل أكثر مما كرهته في أى يوم في حياتها بل

ان شعورا جديدا أضيف إلى شعور الكراهية، هو شعور الاحتقار. أصبحت تحتقر عادل لأنه قرن اسمه بامرأة يعرف ماضيها القذر. يعرف مغامراتها العديدة يعرف انها غيرت الرجال كما غيرت أحذيتها. تضع الرجل تحت قدمها، وتدوس عليه، ثم تخلعه، وتلقيه بعيدا، لتجىء بحذاء جديد! كيف رضى عادل علاء الدين لنفسه بهذا الهوان؟ لابد انه أحب الأميرة فضيلة حبا جنونيا اعماه عن رؤية ما يفعل. الناس لن يرحموا فضيلة من السنتهم. إنهم لن يصدقوا ان المولود هو ابن زوجها معروف باشا. سوف يقولون انه ابن شركة مساهمة لا ابن رجل واحد! سيؤكدون ان كل عاشق من عشاق الأميرة له سهم في المولود الجديد. وان عادل علاء الدين هو العاشق المفضل الذى قبل ان يضع اسمه على أول منتجات الشركة المساهمة!

انها ليست ثائرة من أجل نفسها فقط، وانما من أجل رجل احبته ومنحته قلبها، وكل شيء. تصورت انه مثل أعلى بين الرجال اختارته وحده من دون رجال العالم.. وإذا بهذا الرجل ينهار فجأة، يتحول من إله إلى صنم، من رجل فوق التشبهات إلى أضحوكة تتندر بها المجالس والمجتمعات!

* * *

ودق جرس التليفون فاضطربت... ومدت يدها إلى السماعة، ووجدت صديقتها أميرة عبد العاطى تفاجئها بقولها وهى تضحك ساخرة:

— هل قرأت خبر ولادة الأميرة فضيلة؟

— نعم قرأت الخبر.

— ما رأيك فى الاسم الذى اطلقته على المولود؟

— ما رأيك انت!

— رأيى انه نكتة الموسم !

— لم أفهم النكتة !

— النكتة انها اسمته «عادل علاء الدين معروف» ! أى أن ثلثى المولود للمهندس عادل علاء الدين والثلث للباشا الزوج !

— ان لسانك طويل يا أميرة !

— البلد كله يتحدث عن هذه التسمية العجيبة !

وما كادت تضع قسمت سماعة التليفون حتى دق جرس التليفون مرة ثانية، وسمعت صوت صديقتها زينب كامل تضحك في التليفون دون أن تتكلم، ضحكات عالية متواصلة، كانت تحطم أعصاب قسمت... ثم بدأت زينب تقول :

— لقد جن الناس... في الماضى كانوا يقولون إذا بليتيم فاستتروا ... أما اليوم فإنهم يقولون إذا بليتيم فانشروا الخبر في الصحف... انها أول مرة يعلن اسم عشيق احدى اميرات الأسرة المالكة ببلاغ رسمى... ان الاميرة فضيلة قصدت بتسمية ابنها باسم «عادل علاء الدين» ان تحذر جميع نساء مصر من الاقتراب من عادل، لانه أصبح ملكا خالصا لصاحبة السمو الأميرة... وأى محاولة لمغازلتها هى عيب فى الذات الملكية !

وحاولت قسمت ان تضحك، ولكن المرارة كانت تملأ فمها. كانت تريد ان تصرخ، ان تلطم وجهها، وهى تسمع هذه الكلمات الساخرة التى تتناول الرجل الذى احبته ولا تزال تحبه... تحبه وتكرهه فى وقت واحد ! تشفق عليه وتحقد عليه.. كأن قلبها يلعنه ويهواه فى كل دقة من دقائقه !

ودق جرس التليفون للمرة الثالثة وسمعت صديقتها فاطمة عبد الرسول

ابنة إسماعيل باشا عبد الرسول تقول لها :

- لم أكن أعرف ان الأميرة فضيلة بكل هذا الذكاء والدهاء.. لقد اطلقت اسم عشيقها على ابنها ... وهكذا ضمنت الا تخطى إذا نادت زوجها باسم عشيقها ! ان ابتسام سعد الله تطلقت من زوجها لانها قالت له : انا أعبدك يا محمد

بـ وهل يطلق زوج زوجته لأنها تقول له انا اعبدك؟

- لأن اسمه كان محمود، أما محمد فقد كان عشيقها !

- لا أظن أن معروف باشا من الأزواج الغيورين مثل زوج ابتسام عبد الله.

- ان الأميرة فضيلة ابتكرت طريقة تريح كل الزوجات العاشقات !

انها الآن تستطيع ان تقول امام زوجها : « اعبدك يا عادل علاء الدين.. اموت فيك يا عادل علاء الدين.. انت لذيذ جدا يا عادل علاء الدين !

بـ وماذا تفعل الأميرة إذا غيرت عادل بعاشق آخر؟

- تستبدل اسم ولدها باسم العاشق الجديد !

وانتهى حديث فاطمة عبد الرسول، ليدق جرس التليفون مرة أخرى وتسمع صوت صديقتها الهام حافظ تقول لها :

- فضيحة ! فضيحة الموسم !

- ما هي هذه الفضيحة ؟

- الم تقرئي جريدة « الاهرام » ؟

- قرأتها..
- الم تعرفي اهم خبر؟
- توقع انتهاء الحرب!
- «الأهرام» نشرت أن عادل علاء الدين هو عشيق الأميرة فضيلة!
- هل قالت جريدة «الأهرام» ذلك!
- قالت بالتحرف الواحد.. وقد قرأت الخبر بنفسى!
- قالوا انها عشيقته!
- قالوا انها عشيقته.. ع.. ش.. ي.. قاف.. تاء.. تاء مربوطة ايضا!
- لا اتصور ان الصحف تنشر صراحة بأن فلانا هو عشيق ابنة عم الملك!
- لقد قالت «الأهرام» ذلك.. بالتحرف الواحد!
- إن جريدة «الأهرام» امامى وليس مكتوبا فيها ذلك.
- وأمامى ايضا جريدة «الأهرام» وفيها الخبر مكتوب بالخط العريض
- اين!
- فى الصفحة الأولى!
- عنوان الصفحة الأولى هو توقع انتهاء الحرب.
- ربما تكون الطبعة التى عندى غير الطبعة التى عندك!
- اقرئى لى نص ما هو مكتوب عندك!

– الواقع اننى لم اقرأ المکتوب وانما صديقتى عصمت شفيق هى التى أبلغتنى الخبر، فارسلت الخادم يشتري لى «الأهرام» !

– وقرأت الخبر بغير ان تقرئيه !

– لأننى أثق فى عصمت شفيق !

– ان الخبر مکتوب فى الصفحة الخامسة فاقريه.. فى العمود الخامس من الصفحة الخامسة تحت عنوان «المجتمع».

وسكتت الهام حافظ، وراحت تقرأ الخبر المنشور بصوت عال.. وما كادت تنتهى من قراءته حتى قالت :

– لقد قلت لك اننى واثقة من صديقتى عصمت شفيق.. انها لا تكذب على ابدأ !

– كيف لا تكذب عليك وقد قالت لك انه مکتوب فى «الأهرام» ان المهندس عادل علاء الدين هو عشيق الأميرة فضيلة !

– وهذا هو المکتوب حرفيا فى «الأهرام».

– كيف تقولين انه مکتوب حرفيا.. وانت قرأته الان بنفسك !

– واضح من الخبر أنهم يقصدون أن يقولوا هذا !

– ولكنهم لم يقولوه !

– لابد ان الرقيب شطبه !

– ومع ذلك قرأته برغم ان الرقيب شطبه !

– أى شخص نصف متعلم يمكنه ان يفهم الخبر كما فهمته ! الم تفهمى

من الخبر ان « الأهرام » تريد ان تقول ان المهندس عادل علاء الدين هو
عشيق الأميرة فضيلة ؟

— لم أفهم هذا !

— لأنك لا تعرفين عادل علاء الدين كما اعرفه !

— فعلا، انا لا اعرفه !

* * *

وانتهت قسمت المحادثة التليفونية وعجبت من نفسها ما الذى جعلها
تدافع عن عادل علاء الدين، ما الذى جعلها تتضايق من عبارات السخرية
التي وجهتها اليه بعض صديقاتها ؟ لقد كانت تريد ان تقول نفس هذه
العبارات الساخرة ولكنها تألمت وهي تسمعها من شفاة أخرى. أحست بأن
كل واحدة منهن تطعننها بخنجر، كل كلمة قيلت في عادل كأنها قيلت فيها،
كأن كل حجر يلقي عليه يصيبها، كل طعنة توجه اليه تجرحها وتجعلها تنزف
دما ! لقد تصورت انها سوف تشمت فيه عندما تنهال عليه النكات، وإذا بها
لا تشعر بالشماتة، بل تشعر بالحزن والالام والعذاب. كأن هذه السهام
موجهة إلى ابنها، إلى ابيها، إلى اخيها إلى زوجها، إلى صديقها إلى إلهها
المعبود !

عجبا... لا يزال عادل علاء الدين كل هؤلاء بعد كل ما حدث !

ونظرت إلى آلة التليفون الصامت..

وتذكرت انها كانت قررت ان تتحدث إلى عادل قبل ان تقرأ النبأ في
الجريدة.. انها لا تستطيع أن تحدثه الآن، لا تستطيع أن تسمع صوته !

لقد سمعت ما فيه الكفاية، سمعته من أفواه صديقاتها الساخرات
الضحكات العابثات.

ودقت الجرس واستدعت الخادم وقبل ان تنطق بكلمة واحدة، وتقول
للخادم: خذ التليفون.. ولا اريد ان اتحدث مع أحد..

قبل ان تنطق بهذه الجملة، فوجئت بالخادم يدخل الغرفة، ويتجه إلى آلة
التليفون ويحملها ويتجه إلى الباب.
وذهلت لتصرفه!

كيف عرف انها لا تريد آلة التليفون في غرفتها!

كيف عرف انها عدلت عن الحديث مع عادل علاء الدين في التليفون؟ لابد
انه قرأ الخبر المنشور في النسخة الأخرى من الجريدة التي يقدمها لوالدها
الباشا مع الافطار..

لابد انه كان يتصنت على الباب وسمع الاحاديث التي دارت بينها وبين
صديقاتها..

واستوقفته وقالت:

— من قال لك انني لم اعد في حاجة إلى التليفون؟

— لم يقل لي هذا أحد.

— إذن لماذا تأخذ التليفون؟

— لأنك لم تعودى في حاجة للتحدث مع عادل علاء الدين بك!

— كيف عرفت ذلك؟

— لأنه ينتظرك الآن في الصالون!

الفصل الثالث والثلاثون

جلست قسمت فوق فراشها ساهمة.. كانت شبه مصعوقة بعد أن سمعت أن عادل علاء الدين ينتظرها في صالون بيتها.

ما الذى جعله يطرق بابها بعد هذا الغياب الطويل؟ لماذا اختار هذا اليوم المشئوم دون بقية الأيام؟ لماذا اختار هذه الساعة الحزينة.. الساعة التى علمت فيها أنه أصبح أبا؟

سبعة شهور كاملة مرت على فراقها له، ولم يخطر بباله أن يحضر إلى بيتها. اكتفى بالتليفونات التى لا ترد عليها. وبالرسائل التى تمرقها قبل أن تفضيها. لو أنه جاء إليها فى أى يوم قبل هذا اليوم لركعت تحت قدميه.. ولكن الرجال لا يعرفون كيف يدخلون قلوب النساء.. يفضلون أن يقفزوا إليها من النافذة، أو يتسلقوا المواسير إلى سطوح القلوب، بدلا من أن يدخلوا من الباب.. الباب المفتوح على مصراعيه!

ما الذى جاء به؟ أكون قد جاء ليراها مذبوحة عقب قراءتها نبأ ولادة الأميرة فضيلة وتسمية ابنها عادل علاء الدين؟ أم أنه أراد أن يسبق جريدة الصباح فيمهد لها لتقبل هذا النبأ القاتل؟ أكون قد جاء معتذرا عن نشر الخبر؟ أكون قد جاء يواسيها فى حزنها وفجيعتها، كما يمشى القاتل فى جنازة ضحيته؟!

أم هي النظرية المعروفة في علم الاجرام التي تقول إن المجرم يحوم دائما حول مكان جريمته !

وانتفضت غاضبة. واعتزمت أن ترفض مقابله. إنها لا تريد أن تسمع منه أية كلمة. لقد قالت الجريدة كل شيء، قالت الكلمة الأخيرة ! لا تريد أن ترى وجهه. لا تطيق أن تراه بعد أن أصبح أباً. إنها لم تطق أن تراه والجنين لا يزال في بطن الأميرة فضيلة، فكيف تراه بعد أن خرج الجنين إلى الحياة.. خرج يحمل اسمه هو!

ولا تريد أن يراها تبكي. دموع النساء تريح الرجال. تشعرهم بقوتهم، كأنها تغسل أيديهم من آثار الدم التي تركتها جرائمهم.. لا تريد أن تنفجر فيه، وتصب عليه كل لعناتها. لتتركه حائراً يتخيل كل لعنات الدنيا وهي تنصب فوق رأسه. الرجل بطبيعته يخاف عقاب المرأة المجهول، ويهزأ بالعقاب الذي يعرفه. الكلمات التي لم يسمعها من فم المرأة الغاضبة ترهبه أضعاف ما ترهبه نفس الكلمات بعد أن يسمعها. لتتركه غارقاً في حيرته لتعذبه بالخيال أضعاف ما عذبها بالحقيقة !

ومدت يدها، لتدق الجرس، وتستدعي خادمها، وتطلب إليه أن يبلغ الزائر أنها لا تستطيع مقابله لأنها مريضة ! ثم سحبت يدها فجأة عن الجرس، كأنها تكهربت من سلك وهمي. ما الذي يجعلها تهرب من مواجهته ؟ لقد كانت طوال حياتها أنثى شجاعة جريئة، لا تخاف أحداً . تذهب بقدميها إلى الخطر. ولا ترهبه. صحيح أنها أصبحت الآن قتيلة مذبوحة... فماذا يخيف القتل من أن يواجه القاتل ؟ المفروض أن القاتل هو الذي لا يطيق أن يعيش مع الجثة التي قتلها في مكان واحد إنه يغطي عينيه حتى لا يراها إنه يهرب منها.. فإذا استطاعت الجثة أن تلاحق القاتل فإنها تعذبه.. وهي

تشعر في هذه اللحظة أنها ترغب في أن تعذب عادل كما عذبها. أن تذيبه بعض المرارة التي ملأت فمها..؟

وقامت من فوق الفراش، وفتحت دولاب الملابس، ووقفت تستعرض أثوابها. ومدت يدها وأخرجت الثوب الأبيض الذي كان يحبه، والذي طالما تغنى بجمالها فيه، وقال لها ذات مرة إنه يبرز كل مفاتها كأنه قيمص نوم شفاف .. لقد كانت ترتدى هذا الثوب يوم زفافها إليه.. ما أعجب القدر أن يصبح ثوب زفافها كفنها. نفس الثوب الذي ارتدته في يوم زفاف الحب، سوف ترتديه في يوم جنازة الحب !

ووقفت أمام مرآتها، وبدأت تتزين كما كانت تتزين قبل أن تدخل شقة عادل وتركت شعرها الأسود يسقط فوق كتفها.

وأحست بأنها جميلة جدا، جميلة كما كانت في الحلم.. لم تستطع صدمة الخبر المنشور عن المولود أن تفقدها هذا الجمال الذي اكتسبته في الحلم. دموعها التي سقطت بغزارة من عينيها، لم تفقد عينيها سحرهما، بل إنها زادت لهما لمعانا. كل ما حدث أن أنفها محمر من تأثير البكاء، واستطاعت أن تخفى احمراره بقليل من الكريم والبودرة.

ومدت يدها بحكم العادة، وتناولت نظارتها السوداء وضعتها فوق عينيها. ثم عادت وخلعتها!، فضلت أن يراها عادل جميلة جدا.. حتى وهي مذبوحة! وهبطت درجات السلم. قررت أن تتماسك أمامه. أن تخرس اهساتها. أن تخفى الجرح الذي ينزف منها. يجب أن تتحكم في أعصابها. سوف تمثل دور عدم المبالاة. وما أشبهها بامرأة تحاول أن تبتسم لقياتها، وفي ظهرها خنجره الذي ينزف منه الدم !

إن عادل يتوقع أن يراها في هذه اللحظة امرأة محطمة مهزومة منهارة

ولكنها تريد أن يراها في نفس الصورة الجميلة التي رآها في حلم الليلة الماضية !

* * *

ودخلت إلى الصالون، وعلى شفيتها ابتسامة مصطنعة، دفعت كثيرا من أعصابها ثمنا لها. وتقدم إليها يصابحها. وفوجئت به شاحبا، واجما، هزيلا، أصفر الوجه، كأنه أمضى السبعة الشهور الماضية مريضا في فراشه بمرض خطير. وكتمت شهقة كادت تنطلق. إنها كادت تنسى القرار الذي أصدرته منذ دقائق.. وتأخذه بين ذراعيها، وتسأله في لهفة عما حدث له، ولكنها تمالكت نفسها. ضغطت على أعصابها. واكتفت بأن مدت إليه يدا متخادلة تصافحه والابتسامة المصطنعة واقفة فوق شفيتها !

وفاجأته بقولها :

— مبروك !

وهوت على رأسه كلمة « مبروك » كمطرقة هائلة.. لقد توقع أن تقول له كلمات كثيرة. ما عدا هذه الكلمة بالذات. وصمت قليلا. وكأنه يحاول أن يستعيد النطق الذي فقده فجأة وقال في تلعثم :

— مبروك على ماذا ؟

— لقد أصبحت أبا !

— إننى لم أنم طوال الليل.

— من الفرحة ؟

— من الألم !

- إنها لأول مرة يشعر فيها الرجل بالآلام الوضع !
- أنت تسخرين منى فى وقت غير مناسب .
- أنا لا أسخر.. إننى لم أكن جادة فى يوم من الأيام كما أنا اليوم !
- ولذلك تهنتيننى بالمولود !
- هل تنكر أنه ابنك ؟
- لا أنكر..
- ألا يتقدم الناس بالتهنئة للآب عندما يرزق ولدا ؟
- تصورت أننى أستحق التعزية !
- لو كنت تظن أنك تستحق التعزية لما أطلقت عليه اسمك !
- أنا لم أجن حتى أطلق عليه اسمى !
- لقد تصورت أنك شجاع . عادة يهرب الرجال من جرائمهم ، ولكنك وقعت بإمضائك الصريح على الجريمة !
- إننى لم أوقع.. إنما وقعت !
- كل إنسان معرض للوقوع !
- عجباً ! لقد نصورت أن تلومينى لا أن تنتحلى لى الأعذار .
- كيف ألومك على أمر لا ذنب لك فيه !
- أقسم لك يا قسمت أنه لا شأن لى فى كل ما حدث .
- إنك الآن اعترفت أنك والد الطفل !

– لا أقصد هذا.. أقصد أننى لست الذى اقترح تسمية المولود باسمى !

– أعتقد أن الأميرة هى التى فعلت ذلك !

– ولا الأميرة فضيلة.. إن زوجها معروف باشا هو الذى أصر على أن يكون اسم الطفل عادل علاء الدين !

– إنه زوج نموذجى !

– إنه لا يشك فى !

– ولهذا أطلق على المولود اسمك !

– لقد قال لى إنه يؤمن بأننى صاحب الفضل فى أن زوجته رزقت بمولود.. بعد سنوات طويلة لم تحمل فيها !

– إذن هو يعلم !

– لا يعلم.. لقد أخبرته زوجته أننى أحضرت لها زجاجة دواء يسبب الحمل !

– ولم يعلم أنك داخل الزجاجة !

– ما زلت تسخرين منى.. كأنك لا تصدقينى !

– بالعكس إننى أصدقك.

– إذا كنت تصدقينى فلماذا هجرتنى سبعة شهور؟

– لأننى صدقتك !

– ولهذا لم تردى على خطاباتى. ولا على تليفوناتى؟

- لقد كنت غبية ! سامحني !
- إننى سامحتك قبل أن تطلبى هذا.. كلما أحببنا تضاعف استعدادنا للغفران !
- كنت أظن أنه كلما تضاعف الخب قلت فرص المغفرة !
- الدليل على عكس هذا إنك سامحتنى !
- إننى سامحتك لأننى اقتنعت بأن هذا الحادث وقع فى وقت لم تكن بينى وبينك فيه علاقة.
- إن هذه هى النتيجة التى يصل إليها من يحب حقيقة ! إن هذا دليل لا شك فيه على أنك تحبيننى !
- هل كنت فى حاجة إلى دليل ؟!
- العاشق يحتاج كل يوم إلى دليل !
- ولماذا جئت اليوم ؟
- لأطلب يدك !
- إنك جئت متأخرا !
- ولكننى كنت أريد أن أتزوجك من اليوم الأول !
- لم تقل لى ذلك !
- كان يجب أن تفهميه !
- هذه الأشياء لا تترك للاستنتاج.
- ما الفرق بين أن أطلب يدك اليوم وأطلبها منذ سبعة شهور ؟

— فرق كبير! لو كنت طلبت يدى قبل أن تعرف أن الأميرة فضيلة حامل،
لعرفت أنك تريد أن تتزوجنى لأنك تحبنى.. أما الآن فإننى أشعر بأنك تريد
أن تتزوجنى لتخفف عني صدمة أنك رزقت من فضيلة بمولود يحمل اسمك!

— إن هذا منطق مقلوب! المفروض أن تشعرى بسعادة لأننى طلبت
يدك، بعد أن عرفت أننى رزقت بولد، وأنت تعرفين جيدا أن الأميرة فضيلة
كانت مستعدة أن تطلق زوجها، وتتزوجنى، وأننى رفضت!

— ولماذا رفضت!

— لأنى أحبك!

— وماذا يحدث لو أننى تزوجتك ولم أرزق ولدا أو لم أحمل منك على
الاطلاق؟ سوف تشعر دائما بالندم لأنك لم تتزوج أم ابنك!

— إنك تعقدين الأمور!

— إننى أبسطها!

— لا يهمنى سواء رزقت منك ولدا أو لم أرزق أولادا على الإطلاق!

— ولكن هذا يهمنى.

— كل الذى يجب أن يهكم الآن هو أن نتزوج.

— قلت لك إنك جئت متأخرا!

— الحب ليس قطارا له مواعيد. كموااعيد قطارات السكك الحديدية!

— إنه طائرة إذا فقدت أحد أجنحتها تهشمت ومات كل من فيها.

— ولكننا لم نمت، لا نزال على قيد الحياة.

- ليس كل الأحياء على قيد الحياة !
- أنت لا يبدو عليك أنك ميتة. إنك مليئة بالحياة !
- لم أقل إننى مت ! ولكن حبنى لك قد مات !
- ولهذا غفرت لى أن الأميرة فضيلة رزقت منى بمولود !
- نعم، لأن الموتى لا يحققون على الأحياء !
- ولكن حبنى لك لم يمت. إن حبك مات بالسكته القلبية !
- سوف يموت حبك بالشيخوخة !
- أنت تتكلمين لغة غريبة.

- أيام الفراق تدخل إلى اللغة كلمات جديدة !.. نحن نفهم بعضنا بسرعة عندما نفترق.. الزمن أشبه بالمسافات، فهو يبعد الناس. وكلما طال الزمن كبرت المسافة. أنا الآن لا أسمعك كما كنت أسمعك عندما كنت بين ذراعيك ! الشهور السبعة التى فرقتنا أضعفت سمعى، وغيّرت لغتك.. أصبح كل منا يعيش فى كوكب آخر له لغة مختلفة ! فى الماضى لم أكن احتاج لكلمة منك لأفهمك. ولم تكن محتاجا لتسمع صوتى لتعرف الرد على سؤالك. أما اليوم فأنت تحتاج إلى قاموس لتفهمنى ! قد يحدث أحيانا أن تحب امرأة رجلا أجنبيا لا تفهم كلمة واحدة من لغته. ومع ذلك تفهمه أكثر مما تفهم رجلا آخر من أبناء جنسها يتكلم لغتها !.. فالحب هو قاموس يفسر للعاشقين كل كلمة لا يفهمها سواهما ! ولهذا فأنت تقول لى الآن أننى أتكلم لغة غريبة !

- إن القاموس لا يزال معى.. لأننى لا أزال أحبك !

– لو كان القاموس معك لما قلت لى إننى أتكلم لغة غريبة. ولكن يبدو أن نصف القاموس معك ونصفه مع المولود!

– ماذا تقصدين؟

– أقصد أنه ابتداء من اليوم سوف تفهم نصف كلامى.. ونصف كلامه!

– لقد اتفقنا على أن هذا الموضوع قد مات وانتهى!

– كيف يموت الموضوع.. وقد ولد بالأمس فقط؟

– إذن أنت قررت أن تنهى علاقتك بى اليوم فقط!

– هأنت لا تزال لا تفهمنى! أنا لم أقل هذا. لقد أنهيت علاقتى بك منذ سبعة شهور وأنت تعلم ذلك.

– ولكننى كنت واثقا أننا سوف نستأنف العلاقة!

– الموتى لا يعودون إلى قيد الحياة!

– إننى حائر معك، ساعة تقولين لى أنك غفرت لى خطيئتى مع الأميرة فضيلة، وساعة تقولين إنك حكمت على حبنا بالاعدام لأن فضيلة حملت منى! أنت تعذبيننى بأحكام متوالية بالبراءة والادانة. لا تكادين تنطقين بحكم الاعدام وأهينى نفسى للموت حتى تفاجئينى بالعفو. ولا أكاد استرد أنفاسى فرحا بالعفو، حتى تبادرينى بحكم اعدام جديد. إنك تعذبيننى!

– إننى لا أعذبك. أنت الذى تعذب نفسك. لقد أصدرت قرارى ولا تريد أن تفهمه!

– وما هو قرارك؟

١ - أننى لا أستطيع أن أتزوجك؟

- لماذا؟

- لأن فى بطنى جنينا!

- جنين؟! ابن آخر!

- اطمئن إنه ليس ابنك!

- ماذا تعنين؟

- لقد افترقنا منذ سبعة شهور.. ولو كان ابنك لكانت بطنى الآن كبيرة جدا.. ولكنك قد لاحظت الجمل بنفسك، إن الجنين عمره شهران فقط!

- مستحيل!

- لا شيء مستحيل!

- لا يمكن أن أصدق أنك خنتنى!

- إننى لم أخنك!

- كيف لا تكونين قد خنتنى وأنت تعترفين أن فى بطنك جنينا من رجل آخر!

- لم تكن بينى وبينك أى علاقة!

- أنت لست قسمت التى أحبيبته!

- أنا الأنسة كاف التى خلقتها أنت!

- لم أخلقك هكذا!

– إننى يا مولائى، كما خلقتنى !

– تستسلمين لرجل آخر، وتحملين من رجل آخر، إنك امرأة فاجرة جدا !

– لماذا تغضب كل هذا الغضب ؟ لقد سامحتك منذ دقائق لأنك فعلت من قبل نفس ما فعلت أنا اليوم !

– عندما حدث ما حدث مع الأميرة فضيلة لم تكن بينى وبينك أى علاقة !

– وعندما حدث ما حدث.. لم تكن بينى وبينك أية علاقة. كانت علاقتى بك منقطعة منذ خمسة شهور !

– وتركتنى أحبك وفى بطنك جنين من رجل آخر !

– وأنت تركتنى أحبك، وفى بطن الأميرة فضيلة جنين منك !

– لم أكن أعرف !

– الجهل ليس عذرا !

– ومن هو هذا الرجل ؟

– ليس من حقه أن تسأل من هو ؟ !

– إن هذا حقى !

– عندما يتنازل الملك عن عرشه يفقد كل حقوقه !

– أنا لم أتنازل عن العرش.. أنت التى خلعتنى عن عرشى !

– ولكنك تتكلم كأنك ما زلت ملكا !

– من هو هذا الرجل ؟

– يجب أن استأذنه أولاً قبل أن أخبرك !

– إننى لم استأذن الأميرة فضيلة قبل أن أخبرك أنها حملت منى !

– كانت غلطة !

– ما هو قصدك من إخفاء اسمه ؟ أنت تقصدين أن تعذبيننى أكثر مما عذبتنى ! أنت تريدين أن أنظر فى وجه كل رجل فى الشارع وأقول أنه هو الذى أخذك منى ! سوف تجعليننى أشك فى كل صديق لى !

– إننى حرصت على ألا يكون صديقك، حتى لا أسىء إليك !

– لا تسيئين إلى ؟! أى رجل مصرى أخذك منى سيجعلنى أكره المصريين جميعاً ! أكره أبناء بلدى، لأن واحداً منهم سلب منى المرأة التى أحبها !

– إننى حرصت ألا يكون مصرى !

– إذن هو عربى ؟

– ولا عربى !

– أجنبى !

– إنه ضابط فى الجيش البريطانى .

– تستسلمين لضابط فى الجيش البريطانى ؟ لضابط من جيش الاحتلال ؟ لأحد الرجال الذين يدوسون كرامة بلادك وشرفها بالأقدام ؟ أنت قسمت شاهين التى كتبت منشوراً يلعن الاحتلال، وبسبب هذا المنشور يعيش رجل برىء فى السجن، ينتهى بك الأمر أن تستسلمى لأحد ضباط جيوش الاحتلال ؟!

– إن قلب المرأة لا يشبه الموانى والمطارات، ولا يفحص جوازات السفر قبل أن يسمح لأصحابها بالدخول !

– لقد كنت أفضل أن تنامى مع سكان مصر جميعا.. ولا تنامى مع جندي انجليزى واحد !

– إن سكان مصر من المصريين كانوا سوف يسألوننى من الذى سلبنى عذريتى، وكنت سأقول لهم عن اسمك.. وأنا يهمنى أن أحافظ على اسمك وكرامتك وسمعتك بين الناس !

– أنا لا يهمنى اسمى وكرامتى، وسمعتى. أنا يهمنى اسمك أنت، وكرامتك أنت، وسمعتك أنت !

– إن أحدا لن يعرف هذه العلاقة إلا أنت !

– والجنين الذى فى بطنك.. هل تتخلصين منه ؟

– كلا.. إننى مثلك لا أحب أن أقتل الاجنة فى بطون أمهاتهم !

– وماذا ستقولين للناس ؟

– سأقول لهم أنه ابنى !

– ابنك من الحرام ؟

– لا.. الضابط الانجليزى سيتزوجنى !

– تتزوجين رجلا من غير دينك !

– سوف يعتنق دين الاسلام !

– إذن فأنت تظنين أنه يحبك لأنه سيترك دينه من أجلك !

— كل ما أعجبني فيه أنه لم يسألني أين ذهبت عذريتي؟

— لو كان يحبك لسألك!

— شعرت أنه يحترمني لأنه لم يسألني.. إننى امرأة لا أحسب أن أبداً حياتى مع الرجل الذى أتزوجه بكذبة. أرفض أن أبنى حياتى ومستقبلى فوق أكذوبة. كنت سأرفض أن أخدع الرجل الذى تتزوجنى بعملية تجميل صناعية كنت سأواجهه بحقيقتى كاملة. وأى رجل مصرى أو شرقى ما كان يقبل أن يتزوج امرأة بهذا الماضى. ولو قبل هذا اليوم، فسوف يعيرها بهذا الماضى غداً!

— أنت تحمليتنى الآن مسئولية زواجك من ضابط من ضباط الاحتلال!

— أنا لا أحملك أية مسئولية. إنك لم تعتد على. بل إننى أشعر أننى أنا المعتدية! أنا التى كنت أريدك قبل أن تريدنى. أنا التى جريت وراءك. إن لدى الشجاعة دائماً بأن أحمل على كتفى مسئولية كل عمل قمت به!

— لماذا لم تخبرينى قبل أن تفعلنى ما فعلت؟

— لو أخبرتك لتصورت أننى أهديك أو أساومك.. وأنا أرفض أن أبنى علاقتى مع رجل على المساومة والتهديد!

— كنت سأتزوجك فوراً!

— كنت ستتزوجنى لتداوى ما تعتقد أنه غلطتك! وأنا لا أعتقد أنك ارتكبت غلطة!

— إن غلطتى أننى أحبيتك كل هذا الحب! إننى وضعتك فوق كل النساء، فإذا بك امرأة كباقى النساء! تصورت أنه لا يمكن أن تخطئى كما يخطئى

البشر، وإذا بك لا تخطئين فقط، وإنما ترتكبين جريمة !

– عجباً ! أنت تأثر كل هذه الثورة لأننى فعلت مع الضابط البريطانى نفس ما فعلت مع الأميرة فضيلة، أنا عذرتك وأنت لم تعذرني ! أنا غفرت لك وأنت لا تريد أن تغفر لى ! لقد كنت أتصور أنك سوف تقول لى إنك مستعد أن تتزوجنى بالرغم من كل ما حدث !

– أتزوجك وفى بطنك ولد من رجل آخر؟

– هل لو أجريت عملية إجهاض تتزوجنى؟!

– إننى تمنيت أن أتزوج من قديسة !

– والآن تشعر أننى شيطانة؟

– إننى أشعر أنك لست أنت التى أحببتها !

– كأنك أحببتنى لأننى لم أعرف رجلاً سواك !

– إننى أحببتك لأننى شعرت أننى الرجل الوحيد فى حياتك !

– وكرهتنى لأنك عرفت أن هناك رجلاً سواك؟

– أنا لم أكرهك، أنا أحتقرك !

– ولماذا لم أحتقرك وأنا أعرف أنه كانت لك مع مئات النساء علاقات؟

– لأننى رجل !

كنت أظن أنك تؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة !

– أؤمن بها فى كل شىء، إلا فى هذه المسألة !

– إن المساواة تبدأ من هنا !

– إنها تنتهى هنا !

– هل تظن أن المرأة عندما طالبت بالمساواة مع الرجل كانت تقصد أن يكون لها حق الانتخاب وحق أن تكون نائبة في البرلمان وحق أن تكون وزيرة؟

– هكذا قالت لنا المرأة وصدقناها !

– إنها كانت تخدعكم ! المساواة الحقيقية، والمقصودة هي التي تبدأ بالمساواة في الجسد ! حقوق الجسد أهم من حقوق الانتخابات ولهذا سيجىء يوم لا يحاسب فيه الرجل المرأة على ماضيها، تماما كما لا تحاسبه الآن على ماضيه !

– أنا لا أحاسبك على ماضيك. أنا أحاسبك على حاضرك !

– لأنك تعلم أنني بلا ماض !

– لبيتك كنت امرأة لها ماض !

– كنت تزوجتنى ؟

– نعم !

– لماذا لم تتزوج الأميرة فضيلة ؟

– لأننى كنت أحبك !

– أنت الآن تستعمل الفعل الماضى لأول مرة !

– إن اعترافك اليوم بالجنين الذى فى بطنك قتل حبنى !

– لا ألومك على هذا الشعور. لقد شعرت بنفس هذا الاحساس ذات يوم!

– متى؟

– عندما اعترفت لى بأن الجنين الذى فى بطن الأميرة فضيلة هو ابنك!

– هل أخبرت عم عبده بما حدث لك؟

– لم أخبره.. ولكننى سوف أخبره!

– أرجوك ألا تخبريه!

– إننى لا أستطيع أن أخفى عنه أى شىء!

– سوف تقتلينه فى سجنه! سوف يعرف أنه ضحى من أجل امرأة لا تساوى هذه التضحية! امرأة كانت تنادى بإخراج جيش الاحتلال البريطانى من مصر، وانتهت بأن احتلها الجيش البريطانى

– إنك تتكلم عما حدث بمرارة غريبة!

– إننى غاضب لكرامة بلدى!

– كأنك ما كنت تغضب هذا الغضب لو أن الجنين الذى فى بطنى هو ابن رجل مصرى!

– كنت سأغضب لكرامتى، وفرق بين الغضب لكرامة رجل واحد، والغضب لكرامة أمة بأسرها!

– لم أتصور أنك تكره الانجليز كل هذه الكراهية!

– إننى أشعر بأن الجيش البريطانى اغتصب زوجتى وأمى وابنتى

وأختي في وقت واحد ! إنني أشعر برغبة في أن أقتل أي انجليزي ألقاه في الطريق الآن !

- كأننا لا نشعر بالعدوان على بلادنا إلا إذا أصبنا برذاذ من هذا العدوان، إن أبرز عيوبنا أننا لا نحس بالظلم إلا إذا أمتد إلينا. فإذا أصاب غيرنا بقينا نجلس في مقاعد المتفرجين ! لو أن كل واحد منكم شعر بأن احتلال جندي أجنبي لأرض بلادكم أشبه باحتلال هذا الجندي للمرأة التي تحبونها لما بقي الاحتلال ٧٠ عاما !

- أنت تلقين على درسا في الوطنية، وفي بطنك انجليزي صغير !
- إن الذي في بطني مصري.. بطن المرأة هو وطن الجنين الذي ينبت فيه.

اطمئن إن الذي سيخرج من بطني سيحب مصر أكثر مما تحبها أنت !
- إنك تدافعين عن الذي في بطنك بحرارة غريبة !
- هل تغار من جنين ؟ لقد لمتني في الماضي لأنني كنت أغار من الجنين الذي في بطن الأميرة فضيلة !

* * *

ولم يجب عادل على سؤال قسمت الساخر، بل قفز من مقعده، واتجه إلى باب الغرفة، وأسرع في خطواته دون أن يلتفت ورائه.. وقامت قسمت لتعده ورائه. ولكنها ترددت، تسمرت في مكانها.. وسقطت على الأرض تبكي وتنتحب.

لماذا كذبت عليه؟ لماذا اخترعت هذه القصة التي لا أساس لها؟ لماذا
أوهمته أنها حامل؟

ولطمت قسمت وجهها بيديها! ثم أسرعَت تعدو إلى الطابق الثاني،
ودخلت غرفة نومها، وأغلقت الباب بالمفتاح، ودفنت وجهها في الفراش
وراحت تذرف دموعها بصوت مجروح!

ثم رفعت رأسها ومسحت دموعها وأخذت تسأل نفسها:

— هل جنت؟ ما الذى جعلها ترفض أن تتزوج عادل؟ لقد كانت مستعدة
أن تعيش معه طوال حياتها عشيقة بغير زواج. ما الذى جعلها تصاب بحالة
سادية غريبة، تجعلها تجد لذة في تعذيبه، تكويه بنفس النار التي أكتوت بها.
تنتشى برؤيته وهو يحترق أمامها.

إنها لن تدبر هذه الكذبة ولم تفكر فيها، قبل أن تقذفه بها. كانت كذبة
لا إرادية. كانت تريد أن تداعبه وتسخر منه، ولكنها ما كادت ترى وجهه
يشحب حتى شعرت برغبة غريبة في أن تجهز عليه، أن تنتقم منه، أن تذيقه
من نفس الكأس التي ذاقتها طوال هذه الشهور السبعة!

لماذا فعلت به هذا؟ إنها لا تكرهه. إنها تحبه. تحبه أكثر مما أحبته في
أى يوم مضى.

أتكون قد أدخلته النار لتطهره من الألم؟ إنها لم تطهره إنما حرقته
حولته إلى رماد!

لقد رأت في عينيه صورة رجل مجروح، محطم، مهزوم، ومع ذلك لم تشفق
عليه. بل مضت تغمد فيه خنجرها. وكأنها تمزقه إلى قطع صغيرة!

كأنها تأكل بقاياها.. كأنها تشرب من دمه! لم تشعر طوال حياتها أنها

امرأة قاسية كما كانت اليوم. هل من الممكن أن يتحول حب عظيم إلى كل هذه القسوة والوحشية !

لقد كانت سعيدة وهي تراه يتلوى أمامها من الألم. كأنه شاة صغيرة تشويها أمامها على النار، في إحدى رحلاتها إلى الصحراء ! وكلما رأت النار وهي تلتهم الشاة المذبوحة أحست بالرضا والهناء وكأنها ترى في دقائق كل العذاب الذي كابدته خلال سبعة شهور ينتقل إلى عادل !

وجدت نفسها تواجه موقفا غريبا ! 'إنها حائرة بين الندم على جريمتها، والاصرار عليها !

شيء فيها يقول لها : أنت مجنونة !

وشيء فيها يقول لها : إنك لم تكوني عاقلة في يوم كما كنت اليوم !

شيء فيها يجذبها لتسرع إليه، وتركع أمامه، وتعترف بأنها كذبت عليه، وضللت، وأن رجلا سواه لم يلمسها.

وشيء آخر يجذبها لتمضي في طريق انتقامها !

إنها عندما قرأت خبر المولود أحست بأنها تقرأ نبأ نعيها ! صفحة المجتمع في الجريدة كانت بالنسبة لها صفحة الوفيات، ضحكات صاحباتها في التليفون كانت أشبه بنواح وعويل وعديد في مأتم.

ولكن كل هذا لم يحولها إلى المرأة المتوحشة. وإنما الذي أثارها هو عرضه للزواج منها. أحست أن عادل لم يعرض عليها الزواج لأنه يحبها، ولكن لأنه يشفق عليها. لم يكن يقوم بدور العاشق. وإنما بدور عربة الاسعاف عندما ترى امرأة صدمتها عربة الترام، كأنه أراد أن يضمم كرامتها المجروحة برباط الزوجية، كما يضمدون الجريح برباط من الشاش !

أمنية كل امرأة أن تتزوج الرجل الذى تحب. ولكنها لا تحب أن تتزوج
وهى تنزف دما ! لا تحب أن تجلس فى الكوشة وهى ملفوفة بالضمادات بدلا
من ثوب الزفاف. لا تحب أن تتزوج لأن الرجل أشفق عليها، بل لأنه أحبها..

الكلمة الواحدة تختلف باختلاف الظروف. الزمن ينغمها ويعطى لها
معانى مختلفة ! الرجل قد يقول لامرأة فى وقت معين « أنا أحبك » فتبدو هذه
الكلمة الحلوة أشبه بالصفعة، لأنه قالها فى الوقت غير المناسب. وقد يقول
نفس الكلمة فى وقت مناسب فيصبح لها طعم الألف قبلة !

إن كلمة (دائما) تبدو جميلة إذا قلتها فى فرح، وتبدو وقحة إذا قلتها فى
مأثم !

كلمة (امرأة) تملأ المرأة نشوة وهى بين ذراعيك. ولكنها تعتبر إهانة إذا
قلتها لامرأة فى الطريق العام !

لقد قال لها عادل (أنا أريد أن أتزوجك) فى اليوم الذى عرفت فيه أنه رزق
فيه مولودا من الأميرة فضيلة، وأطلق على المولود اسمه. إنه يوم عاصف
لا يصلح للحب ولا لعروض الزواج والأتربة التى ملأت الجوف من أثر الزوينة
أفقدت الكلمات معانيها.

أصبحت الكلمة الحلوة ذبحة السكين !

وأحست قسمت بأنها أخطأت بالأكذوبة التى اخترعتها عن علاقتها
بالضابط الانجليزى والجنين الذى فى بطنها. كان يكفى أن ترفض عرض
الزواج فى مثل هذا اليوم المشئوم !

ولكنها مضت شوطا بعيدا فى الطريق الوعر الذى اختارته لنفسها. ولم
يعد فى استطاعتها أن تتراجع..

لو اتصلت بعادل اليوم تليفونيا وأخبرته بالحقيقة فسوف يكرها أكثر
مما كرها اليوم !

ليس أمامها الآن إلا أن تمضى فى الطريق .

وتذكرت أنها وضعت نفسها فى مأزق !

لابد أن تبحث الآن عن طريقة للخروج من المأزق !

ومسحت دموعها . وعادت فجأة الابتسامة إلى شففتيها ، وعادت ، مع
الابتسامة ، المرأة المتوحشة فيها !

فى كل امرأة امرأتان ، ملاك وشيطان ، امرأة مستسلمة ، وامرأة عنيدة .
امرأة تغفر ، وامرأة تنتقم .

وقامت قسمت واقفة على قدميها ..

وخزجت من الغرفة بقدم ثابتة .

قدم المرأة المتوحشة التى اختارت طريق الانتقام ..

خرجت تبحث عن ..

ضابط انجليزى تستأجره !

وجنين .. تشتريه !

الفصل الرابع والثلاثون

امتلات حديقة فندق شبرد القديم بالمصابيح الملونة الخضراء والحمراء والصفراء والزرقاء.

أقيم سرادق ضخم، مصنوع من قماش السراقات الملسون بأشكال هندسية غير منتظمة، ولكنها تعطى الحديقة جوا سحرى شرقيا، كأن أيام ألف ليلة وليلة عادت إلى قيد الحياة.

أشجار الحديقة زينت بقراطيس وعمائم وطراير ملونة وكأن على بابا وأربعين حرامى يختبئون فى كل شجرة من شجر الحديقة.

فى كل ركن من الحديقة الواسعة لعبة تشرف عليها فتاة جميلة، أو بار أمريكانى تقف فيه امرأة شقراء كأنها زجاجة شامبانيا، أو غادة فى ملابس صفراء كأنها زجاجة ويسكى أو فتاة ترتدى ثوبا واسعا من عند صدرها كأنها زجاجة كونياك !

عدد من الفتيات تنكرن على هيئة نوع من أنواع الخمور. حتى يشجعن السكرى على التزاحم على أنواع مختلفة من البارات، حيث تباع كأس الويسكى بثمان الزجاجة، وتباع زجاجة الشامبانيا بثمان صندوق زجاجات الشامبانيا، وحيث يختار المشاهد هلى سيدوق الخمر من الكؤوس الجميلة أم من أفواه النساء الجميلات؟

والحديقة مليئة برجال في ملابس السموكن ونساء في فساتين السهرة. وموسيقى تعزف فيرقص الناس وهم يمشون أو يمشون وهم يرقصون والخدم يحملون الصواني على أيديهم ويتميلون. كل شيء في الحفلة يتميل ويرقص حتى غصون الأشجار. وأغلب الحاضرين من الشباب. فهي الحفلة الساهرة التي تقيمها جمعية ملجأ المتسولين. ولحفلات هذه الجمعية طابع خاص، فهي حفلة يقيمها الشباب للشباب ومن صفات الشباب المرح واللهو والصخب والجمال !

ومشت قسمت تحلق في وجوه الرجال تبحث عن ضابط انجليزى عن أى ضابط انجليزى ! إنها تريد أن تعثر عليه بسرعة، قبل أن يحضر عادل علاء الدين. تريد أن تجده، وتتعرف به، ويدعوها إلى الرقص، ويخاصرها وتلتصق به وهي ترقص معه، ويدور بها في الحلبة على أنغام الموسيقى.

كل هذا يجب أن يتم في بضع دقائق ! لا وقت عندها للاختيار ولا للانتظار. إنها تريد في هذه اللحظة أى ضابط انجليزى، حتى اذا جاء عادل رآها بين ذراعى الضابط الانجليزى الذى ادعت أنها تحبه، وأن في بطنها جنينا منه !

لقد كذبت عليه. فيجب أن تثبت له بالدليل القاطع أنها صادقة بأن تجعله يرى بعينه شريكها في جريمة الخيانة !

أنها أصيبت بحالة من السادية أصبحت لذتها اليوم أن تعذب عادل. وقد كانت لذتها في الماضى أن تسعده !

إن رغبة الانتقام تدفعها إلى أن تمضى في كذبتها إلى نهاية الشوط. كانت في الماضى تريد أن تعطيه كل شيء واليوم تريد أن تأخذ منه كل شيء !.. كانت تنتشى وهي تمرر أصابعها على شعره ،والآن تنتشى إذا أغمدت

اظاferها في جسده. كانت تتمنى أن ترى نظرة الهناء في عينيه، وهي الآن تتمنى أن ترى نظرة الشقاء في نفس العينين !

إنها لا تكرهه. لا تزال تحبه، تعبده. ولكن منذ ولد هذا الطفل أصبحت تشعر أنها لم تعد امرأة من نار كما كانت. إنها أصبحت جبلا من الثلج ! أحست بهذا الشعور عندما واجهت عادل في بيتها، ولم ترتطم بين ذراعيه، ولم تحترق بنظراته ولم تذب وهي تسمع صوته. وجدت لذة في أن تشكه بلسانها الذي تحول إلى دبوس، ثم تحول إلى خنجر، ثم تحول إلى سيف أغمدته في قلبه !

وخطر ببالها في أول الأمر أن تنتقم منه بأن تصاحب كل رجل ! أن تكون فضيحة متنقلة ! كي تعذبه بفضيحتها كما عذبها بمولوده ! أن تجعله يشعر بعذاب الضمير لأنه الرجل الذي حولها إلى امرأة ! الذي فتح أمامها حياة العشق ! ولكنها لم تجرؤ على أن تمشي في هذا الطريق شعرت بأنها لا تنتقم منه، إنما هي تنتقم من نفسها. لو أنها أصبحت مضغة في الأفواه فسوف يجد عادل لنفسه عذرا ومبررا ! ثم إنها تشعر أنها أصبحت جسما من الثلج ! أي جسد سوف يلتصق بها سوف تخمد أي نار فيه. لم تعد الشمس الالهة المحرقة التي تبعث الحياة والدفء لكل من تشع عليه. لقد أصبحت هيكلًا عظميا. كل الاسلاك التي في داخلها قد احترقت، ومهما احتكت الاسلاك بها فلن ينبثق النور !

إن في قلبها بقعة مظلمة. لا تعرف كيف سقطت في قلبها. وكيف كبرت البقعة حتى ملأت قلبها كله وجعلته أسود.. جعلته ينبض بالكراهية بعد أن كان ينبض بالحب.

منذ أن قرأت نبأ مولد ابن الأميرة فضيلة لم تر عادل في أي مكان ولكنها كانت تجده في كل مكان تذهب إليه ! تراه في كل رجل يمشي بجوار فتاة

جميلة ! تراه في كل شاب يراقص امرأة حسناء ! تراه في كل سيارة فيها عاشقان متعانقان ! تراه في إعلانات دور السينما عن فيلم جريتا جاربو وهي تقبل جون جيلبرت تختفى صورة الممثل جون جيلبرت من الاعلان ويخيل اليها أنها ترى عادل علاء الدين يقبل الممثلة العظيمة جريتا جاربو ! كل رجل في الشارع يشبه عادل علاء الدين . كل طفل صغير تحمله أمه يشبه ابن الاميرة فضيلة ، الذي لم تره ، ولا تريد أن تراه ! كانت تحس بأن عادل يطاردها في كل مكان ! كأنه يعتمد أن يراها ويتفرج على تعاستها وبؤسها وشقائها !

وعندما كانت تركب سيارتها كانت تعتمد ألا تنظر إلى وجوه الناس .. ولكنها كانت دون أن تدري تحمق في وجوه الناس باحثة عنه . تهرب منه واليه في وقت واحد ، تختفى منه وتطارده . تتأجج في صدرها نيران جحيم من البغض . وفي الوقت نفسه يلهب صدرها نار من الحب والشوق ! ومع هذا التضارب في عواطفها كانت تريد أن تضايقه الليلة ، تنكد عليه السهرة !

* * *

وجالت قسمت بعينها بين الحاضرين في الحفلة فلم تجد ضابطا انجليزيا واحدا . ولعنت الجيش البريطاني كله ، من الماريشال مونجمري إلى أصغر جندي فيه . هؤلاء الذين يملأون الحفلات والسهرات والمآدب عندما لا تريد أن ترى وجوههم ، ثم يختفون فجأة عندما تحتاج إلى واحد منهم !

لقد سلمت منذ بضعة أيام مائة تذكرة لهذه الحفلة لصديقتها ماري خياط عضو الجمعية وطلبت منها أن تباع هذه التذاكر لضباط القيادة البريطانية في الشرق الأوسط ، وأبلغتها ماري خياط أن إدارة الترفيه بالقيادة اشترت المائة تذكرة وسددت ثمنها .. فلماذا لم يحضر الضباط الانجليز المائة إلى الحفلة

لتخار منهم واحدا تغيب به عادل علاء الدين؟

هل اكتفت القيادة البريطانية بشراء التذاكر على سبيل التبرع، وعاملت الجمعية كما تعامل الجمعيات الخيرية الصغيرة، فتشتري سكوتها بشراء بعض التذاكر، وتلقيها في سلة المهملات؟

وفجأة رأت أمامها زميلتها زينب كامل تقول لها:

— لعلك تبحثين عن عادل علاء الدين!

— أنتى لا أبحث عنه.. لأننى أعرف أنه لن يحضر!

— كنت مثلك أظن أنه لن يحضر وأن الأميرة فضيلة سوف تمنعه من الحضور!

— لماذا تمنعه؟

— لأنها منذ رزقت مولودها امتنعت عن حضور الحفلات والسهرات

— ربما لأنها مشغولة بارضاع طفلها!

— الأميرات لا يرضعن أطفالهن. إنهم يقولون أن الأميرة فضيلة تضى وقتها في العبادة والصلاة: تصورى أننى سمعت أن عادل يصلى مع الأميرة فضيلة.. ويقوم زوجها بدور الامام!

— أنت تشنعين دائما يا زينب!

— أنا لا أشنع! إن السفرجى الذى يعمل عندى هو شقيق السفرجى لذى يعمل عند الأميرة فضيلة، وهو الذى يروى لى هذا.

— لهذا لن يحضر عادل هذه السهرة.. لأن فندق شبرد ليس فيه مسجد!

— لقد التقيت بعادل بعد ظهر اليوم في نادى الجزيرة، وأكد لى أنه سيحضر الحفلة. وأنه ألغى كل مواعيده حرصا منه على حضور هذه السهرة الجميلة ! وقال إنه سيجيء الساعة العاشرة مساء.

— قد يحضر معه الأميرة !

— طبعاً.. ستجىء معه وسيجىء معها الامام !

وضحكت زينب كامل ضحكتها الرنانة.. وتركت قسمت ساهمة واجمة ! وأحست قسمت بأن طبيعتها البركانية تتحرك فيها. أحست برغبة فى أن تدمر كل شىء أمامها تريد أن تحطم الحفلة على رؤوس الموجودين، تريد أن تكسر المصابيح، تريد أن تخرس الموسيقى اللاهية العابثة ! أحست كأنها أشبه بثور مذبوح ينتفض، يريد أن يحطم كل شىء قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

إنه لن يحضر وحده. وسيحضر معه غريمته، سيراهما جالسة وحدهما سيشتمت فيها. سيسخر من أكذوبتها المخترعة. سيميل برأسه على فضيلة وهو يتحدث إليها.

سيدعو فضيلة للرقص سيخاطبها أمامها. سيتحدثان طبعاً عن المولود وهما يرقصان ! يجب أن تجد الآن ضابطا انجليزيا. يجب أن تجده من تحت الأرض. إنها لا تشترط أن يكون شابا، ولا تشترط أن يكون وسيما. إنها لم تصفه فى أكذوبتها لعادل. ولا يههما شكل الحبيب المجهول. الحب أعمى. كل ما يههما أن يكون ضابطا إنجليزيا، حتى ولو كان ضابطا بيد واحدة وساق واحدة !

كانت عيناها تمشيان فى أرجاء الحفلة، وكأنهما ذلك المنادى الذى يمشى

في الحوارى والأزقة بحثا عن الأولاد التائهين. كأن عينيها تناديان :

«يا أولاد الحلال، ما حدث شاف ضابط انجليزى تائه؟»

ونظرت إلى ساعتها، فوجدت أنها تقترب من العاشرة مساء. لم تبق
الا بضع دقائق ويحضر عادل ومعه الأميرة فضيلة !

* * *

واتجهت قسمت إلى بواب فندق شبرد، لتسأله عن أسماء الضباط
الانجليز المقيمين في فندق شبرد، ومشت نحوه في خطوات ثابتة ثم قالت له
باللغة الانجليزية :

— أريد أن أعرف أسماء الضباط الانجليز الذين يقيمون هنا.

ونظر إليها البواب اليونانى باندهاش واستغراب. وبدا عليه أنه لم يفهم
سؤال قسمت الغريب.

وقدمت قسمت نفسها إليه وهى تقول :

أنا سكرتيرة جمعية ملجأ المتسولين التى تقيم حفلتها الساهرة فى حديقة
الفندق. ولى صديق ضابط انجليزى، وأريد أن أطمئن هل هو حى أم أنه قتل
فى المعارك الأخيرة؟

وتأثر البواب اليونانى، ونظر إلى قائمة نزلاء الفندق التى أمامه، ثم إلى
الصناديق الصغيرة التى يودع فيها النزلاء مفاتيح غرفهم عند مغادرة
الفندق، ثم قال وهو يهز رأسه أسفا .

— لا يوجد الآن أحد منهم فى غرفته.

— ومتى يعودون؟

— إنهم عادة لا يعودون إلى الفندق الا بعد منتصف الليل.

ونكست قسمت رأسها، وكأنها ناعت بخيبة الامل الجديدة، التي ألقت بثقلها عليها. وصاح الباب اليونانى :

— تذكرت ! يوجد فى الغرفة رقم ٢٠٧ الملازم جاك ستيوارت ! ولكنه مريض وملازم للفراش !

وتنهّل وجه قسمت وقالت :

— لا يهمنى إذا كان مريضاً.. أو ملازماً للفراش. كل ما يهمنى أنه على قيد الحياة !

واستدارت قسمت، واتجهت إلى المصعد. وطلبت من عامل المصعد أن يحملها إلى الطابق الثانى. وخرجت من المصعد. ومضت تتطلع إلى الأرقام المثبتة على أبواب الغرف، إلى أن وصلت إلى الغرفة ٢٠٧.

وتسمرت أمام باب الغرفة. وقفت مترددة. شعرت بالرعب من فكرة دخول غرفة نوم رجل غريب. ماذا سوف يظن هذا الضابط الانجليزى عندما يرى فتاة فى مخدعه ؟ لو كان رجلاً محترماً فسوف يطردها من الغرفة. ولو كان رجلاً فاسقاً فلن يتركها إلا بعد أن يتقاضى ثمن حماقتها ! إنهم يقولون : « لا شرف فى الحب ولا فى الحرب » ! المحارب فى أثناء المعركة يفعل أشياء لا يخطر بباله أن يفعلها فى أيام السلام. كأن رائحة البارود تحول الانسان إلى وحش. ولولا أنه أصبح وحشاً لما أطلق النار على إنسان آخر لا يعرفه. إنه فى أثناء الحرب يتغير. تسقط فيه أشياء كثيرة، تتهاوى مبادئ تموت عواطف، فمن يضمن لها أن هذا الضابط لن يغتصبها بعد أن تدخل غرفته ؟

وقررت أن تعود أدراجها. عدة مرات قررت أن تعود أدراجها، وعدة مرات

قررت أن تدخل مخدع الضابط المجهول، تتنازعها الرغبة في الانتقام من عادل والخوف من المخدع المجهول. وانتصر الخوف فيها على رغبتها في الانتقام. واستدارت عائدة إلى المصعد، وقد عدلت نهائيا عن المغامرة. سوف تترك الحفلة كلها وتعود إلى بيتها، بعد أن تمر على صديقاتها وتهمس في أذانهن بسر خطير، وهي أنها ارتبطت بموعد هام، وسوف تطلب من صديقاتها كتمان هذا السر. وهي تعرف صديقاتها جيدا سوف يثرثن بالسر عقب خروجها مباشرة، ويسمع عادل بالقصة وقد كبرت عند وصوله إلى السهرة!

وابتسمت، كأن الفكرة قد أعجبتها. إنها أكثر أمانا، وأسلم من الدخول في غرفة نوم رجل غريب..

وفي طريقها إلى المصعد سمعت صراخ طفل رضيع ينبعث من إحدى الغرف المغلقة. وتسمرت في مكانها. تذكرت مولود الأميرة فضيلة. كأنها سمعت صوت عادل علاء الدين الصغير. المولود الذي فرق بينها وبين عادل. شعرت أن صوت الرضيع فجر قنبلة فيها. عاد البركان الذي في داخلها ينفث نارا وحما ولها من جديد أحست بأن هذا الرضيع صفعها وركلها وعضها حتى قبل أن تنبت له أسنان!

ووجدت نفسها تتجه بخطوات سريعة إلى باب الغرفة رقم ٢٠٧، وتسطرق الباب، وسمعت صوتا يقول في لغة انجليزية، وفي لهجة خافتة ادخل! ودخلت..

ورأت شابا انجليزيا أشقر، راقدًا في فراشه. وما كاد الشاب يراها حتى بدا عليه فزع عجيب، وأسرع يشد الملاءة البيضاء، ويغطي بها نفسه، تماما كما تفعل أى امرأة عارية عندما ترى رجلا غريبا يدخل إلى غرفة نومها!

وشعرت قسمت بأمان واطمئنان من فزع الضابط الشاب ورعبه، فإن من طبيعة الانسان الخائف، أن يشعر بالأمان والاطمئنان عندما يرى شخصا أمامه أكثر منه خوفا وهلعا !

وقال الشاب وهو يتلعثم :

— أظن أنك أخطأت في رقم الغرفة يا سيدتى. هذه الغرفة رقم ٢٠٧.

وابتسمت قسمت وقالت :

— إننى لم أخطئ الغرفة !

— لعلك أخطأت الشخص ساكن الغرفة !

— ولا الشخص.

— تريدان مقابلتى أنا !

— أأست الملازم جاك ستيوارت ؟

— نعم أنا هو.. ولكن من أنت ؟

— هذا لا يهم !

— كيف لا يهم. إنه مهم جدا.

— ما هى أهميته ؟

— سيدة تدخل غرفة نومى ولا أعرف اسمها.

— هل تخاف أن أكون الماريشال روميل ؟

— إننى لا أخاف الماريشال روميل. ولا من الجيش الالمانى كله !

- وتخاف من امرأة !
- أخاف منها في غرفة النوم !
- عجباً لكم أيها الرجال، إنكم تطاردون المرأة، وتحاصرونها وتهاجمونها لتحملوها إلى غرفة النوم. فإذا جاءت إليكم في غرفة النوم من تلقاء نفسها أصبتم بالفرع !
- أرجوك أن تخبريني ما هو اسمك ؟
- وهل تسأل كل امرأة تدخل غرفة نومك عن اسمها ؟
- طبعاً يجب أن أسألها.. فنحن في حرب كما تعلمين !
- أتظن أنني جاسوسة ؟
- إن الجاسوسة الألمانية ماتاهارى، كانت تدخل غرف الضباط الانجليز في الحرب العالمية الأولى، وقد خلعت ملابسها !
- ما دمت احتفظت بملابسي، فيجب أن تطمئن إلى أنني لست ماتاهارى !
- لو كنت جاسوسة.. فأنت جاسوسة خفيفة الدم !
- إننى قسمت شاهين سكرتيرة جمعية ملجأ المتسولين في القاهرة.
- فهمت جئت تجمعين تبرعات !
- لا أريد نقوداً !
- ملابس قديمة !
- ولا ملابس قديمة !

- إذن ماذا تحتاج إليه الجمعية؟
- تحتاج إلى ضابط انجليزى!
- ماذا يفيد المتسولين من ضابط انجليزى؟
- يشحذون به!
- لا أفهم!
- العادة فى بلادنا أن تستأجر المتسولات أطفالا، تضع الطفل على كتفها وتشحذ به، فالناس تعطف على الأمهات أكثر مما تعطف على الشحاذاة التى ليس لها طفل! وأنا أريد أن استأجركِ الليلة!
- وتحمليننى فوق كتفك؟
- لا.. سأرقص معك!
- ويتبرع الناس لجمعية عندما يروننى أرقص معك!
- ستنهال التبرعات على الجمعية!
- ولكن لماذا اخترتنى أنا دون باقى الضباط الانجليز؟
- أنت الضابط الانجليزى الوحيد الموجود فى الفندق الآن!
- هذا صحيح. لقد ألغيت فجأة أجازات جميع الضباط لسوء الحظ!
- أتعبر رقصك معى سوء حظ!
- بالعكس! لو حدث هذا منذ عامين لكانت الليلة أسعد ليلة فى حياتى!
- وما الفرق بين الليلة. وليلة من عامين؟

– فرق السماء.. من الأرض !

– إن الحفلة الساهرة تقام في حديقة الفندق فلن نتعب في الانتقال من غرفتك إلى هناك..

– أنت لست مصرية !

– بل أنا مصرية مائة في المائة !

– غريبة ! إننى أعرف أن المصريات يهربن من الضباط الانجليز ويكرهن الانجليز.. وأنت تقولين لى إن الناس عندما يروتنى أرقص معك سينهالون عليك بالتبرعات !

– نحن نكرهكم كامبراطورية.. ونحبكم كأفراد !

– ولكنى جئت إلى بلادكم لأحارب من أجل الامبراطورية !

– ولكنى سأرقص مع رجل.. لا مع الامبراطورية !

– وهل يوجد فى السهرة فتيات جميلات مثلك !

– أجمل منى كثيرا.. سترى أجمل نساء القاهرة من كل الجنسيات !

– لهذا لا يمكن أن أحضر الحفلة !

– تكره النساء ؟

– كلا.. أعبدهن.. أعبدهن.. للأسف !

– ولماذا « للأسف » ؟

– هذا سؤال شخصى لا أستطيع الاجابة عليه !

— هزيمة في الحب؟

— لا هزيمة في الحرب!

— ولكن الحرب لم تنته بعد.

— أما أنا، فقد انتهيت!

— لا أفهم!

— إننى سعيد أنك لا تفهمين. لو فهمت لغادرت غرفتى فى الحال!

وفوجئت قسمت بالضابط الشاب يجهش بالبكاء كأنه طفل صغير!

كانت قسمت تتمنى أن ترى رجلاً يبكى أمامها. كانت تحلم بيوم يبكى فيه جميع الرجال فى العالم حتى يعرفوا عذاب الدموع. وكانت تتصور أن الرجال لا يبكون، وإنما هم الذين يجعلون النساء يذرفن الدموع. كانت تحس دائماً بأن حلقها جاف. الظمأ يقتلها إلى دموع رجل! لو شربت هذه الدموع لروتها وأسكرتها! وما هى ترى أمنيتها تتحقق. ترى دموعاً حقيقية أمامها.

ولمعت عيناها ببريق عجيب، وكأنها ترى هذه الدموع تنقلب إلى نار، وتنظر متلذذة إليها وهى تأكل وجه الشاب الباكى. وخيل إليها أن وجه الضابط اختفى، وحل مكانه وجه عادل علاء الدين.

وإذا بالدموع تنهمر، وتتحول إلى شهيق مستمر.

ثم اختفت رغبتها العارمة فى التخطيم والتدمير واشعال الحرائق فى الرجال. ونسيت فى لحظات أنها تشهد مصرع الجنس الآخر الذى تمقتة. أحست فجأة بأنها أمام إنسان يبكى. وأحست بأن شرايينها تنتفض، وأوصالها ترتعش. وأن الثلج الذى يملؤها بدأ يذوب.. وأحست أن قلبها

يتمزق وهى ترى هذا الشاب الجميل الرقيق القوى، صاحب الجسم الرياضى الممشوق، ينتحب أمامها. وبلا إرادة وجدت نفسها تجلس إلى جواره فى الفراش، وتسأله فى حنان لماذا يبكى.

وجفف الشاب دموعه. وهز رأسه عدة مرات كما يفعل الأطفال عندما يرفضون الجواب على أسئلة أمهاتهم. وعادت تلح عليه ثم أخرجت منديلها من حقيبة يدها، ومسحت به دموعه.

وكان هذه الحركة البسيطة فتحت كل الأبواب الموصدة فى قلبه، وحطمت كل الأقفال التى كان يضعها فى لسانه فقال:

— إننى جريح!

— كلنا جرحى!

— ولكن جرحى أنا أكبر من جروح الآخرين!

— إننى مثلاً كلى جرح واحد، كلى أنزف دماً!

— كل جروح الدنيا تشفى إلا جرحى!

— أنت شاب فى ريعان شبابك.. والزمن هو طبيب التجميل الذى يتولى إخفاء آثار الجروح!

— حتى هذا الطبيب لن يستطيع أن يزيل ما فى من تشوهات!

— إن التشوهات فى جسد الإنسان يمكن إزالتها. أما التشوهات التى فى القلوب فهى التى لم يظهر بعد طبيب لتجميلها! إن من نتيجة الحرب ظهور طب جديد اسمه طب التجميل. بعد سنوات قليلة سيكون فى استطاعة جراحى التجميل أن يغيروا شكل الأنوف، أن يخفوا التجاعيد، أن يزرعوا

الشعر في رؤوس الصلح.. أن يذخلوا ما يشاء الانسان من تعديلات في مظهره الخارجي.. سوف يصنع مبضع الجراح المعجزات.. أما الذي لم يكتشف بعد فهو جراحة الروح !

— إن التشوه الذي أصنبت به هو في جسدي وفي روحي !

— أن ضربة المبضع في يد جراح ماهر سوف تخفي كل أثر للتشوه فيك !

— ما قيمة أن يخفي الجراح التشوه وأنا أشعر به !

— سيجيء يوم تنساه !

— إن هذا التشوه لا يمكن أن أنساه أبدا !

— كل شيء نستطيع أن ننساه إلا الهزيمة في الحب !

— إنها قصة طويلة وقصة قصيرة في وقت واحد، وأخجل أن أقصها عليك !

— اعتبرني طبيبة.

— إنها قصة لا تقال أمام امرأة !

— لا توجد قصة لا تقال أمام امرأة إلا إذا كانت قصتها هي !

— في شهر مايو سنة ١٩٤١ قام الجيش البريطاني، ومعه قوات فرنسا الحرة بغزو سوريا. وكانت تسيطر عليها قوات حكومة فيشي الموالية للمحور. وكنت ضابطا للمدفعية في هذا الجيش. وتقدمنا من شرق الأردن، واتجهنا إلى الشمال عبر مدينة درعا. وفوجئنا بنيران قوية تنهال علينا من مدفعية الفرنسيين. واضطررنا إل التوقف فشلت كل محاولتنا لاختراق نيران الفرنسيين. واختارني القائد البريطاني مع عدد من جنود الجيش

الأردنى، لكى نعبر بادية الشام ونهاجم تدمر، ونحتلها ونتجه غربا منها إلى حمص. واضطر الفرنسيون إلى الانسحاب. وشعرت الكتيبة التى أقودها أنها حققت نصرا عظيما. واختارنى القائد البريطانى لآكون رغم صغر رتبتي قائد الكتيبة التى تدخل حمص.. وكان الفرنسيون قد انسحبوا أمامنا.. وعند أبواب حمص انفجر لغم تحت قدمى. ولم أعد أعرف من حولى. لم يبق منهم شىء.. تناثرت الأيدي والأذرع والسيقان والرءوس، حتى أصبح من المستحيل أن تعرفى رأس من هذا ويد من ذاك!

لم أعرف إذا كانت هذه يدي أم ساقى أم رأسى! ووجدت نفسى فى المستشفى العسكرى فى دمشق. وتحسست رأسى فوجدته فى مكانه.. وتحسست يدي وأصابعى وساقى فوجدتها جميعا! وتصورت أننى نجوت! وطلبت مرآه وتطلعت إلى وجهى فلم أجد جروحا ولا خدوشا.. وحمدت الله وصليت له شكرا. ثم اكتشفت بعد ذلك الكارثة، عرفت أن شظية من اللغم انفجرت تحت بطنى، وأكلت النار رجولتى!

وكدت أفقد عقلى! تمنيت لو فقدت ذراعى أو يدي.. تمنيت لو أن اللغم كان قد قتلنى! ونقلونى من مستشفى دمشق إلى مستشفى حلوان العسكرى، وبقيت فيه شهورا وشهورا!

أطباء التجميل يدخلون ويخرجون.. أنا لا أريد تجميلا. أنا أريد أن تعود إلى رجولتى! إننى أحب فتاة فى مدينة شيفيلد اسمها ديانا سميث.. كانت طالبة معى فى الجامعة. خطبتها واتفقنا على الزواج بعد انتهاء الحرب.. وهى تكتب لى مرة كل أسبوع وتقول إنها تنتظرنى. إنها ستتزوجنى يوم وصولى إلى إنجلترا. فى كل خطاب من الخطابات تحدثنى عن شهر العسل. عن الليالى التى تحلم أنها سوف تمضيها بين ذراعى. كل خطاب من هذه

الخطابات أشبه بخنجر تغمده في قلبي. كل خطاب منها أشبه برحلة إلى بحر الهلاك. كل قبلة في خطاباتها تسممني ! كل عناق يخنقني ! إنني لا أجرؤ أن أكتب لها وأقول إنني لم أعد رجلاً، سوف تخبر بالأمر زملائي في الجامعة.. سوف تعرف المدينة كلها مصيبتى.. سوف لا أطيق أن أعود إلى بيتي.. إلى أمي، إلى أبي، إلى إخوتي !

إنني أخجل من أن أعترف لها بالحقيقة. أخجل منها ! أخجل من نفسي، أخجل من الدنيا كلها !

وسكت الضابط الشاب وجفف دموعه بمنديل قسمت.. وإذا بقسمت تضمه إلى صدرها وتقبله في فمه !

وذهل الضابط الشاب وقال :

— كيف تقبليني بعد أن عرفت كل ما عرفت ؟

— لأنني أريدك هكذا !

— هكذا !

— هكذا بالضبط

— هل فهمت ما حدث لي ؟

— فهمته قبل أن تروي لي !

— كيف فهمت !

— دموعك قالت لي كل شيء !

— إنك امرأة غريبة ! كنت أتصور أن الرجل في نظر المرأة هو الجنس !

– الجنس ليس كل شيء ! إن المرأة تعبد أحيانا رجلا لم تحصل على قبلة واحدة من شفتيه، وتحبقر رجلا يقاسمها الحياة.

– ولكنها تحلم دائما بأن يحل الرجل الذي تحبه مكان الرجل الذي تكرهه.

– قد يدهشك أن تعلم أن القلوب تستطيع أن تقوم بالعملية التي يقوم بها الجسد ! قلوب شهوانية في أجساد من جليد، قلوب ظمأى وعطشى في أجسام تروى كل ليلة بخطيئة مجنونة أو بحلال ممقوت ! قلب المرأة له أشواقه وبركانه وناره مثل جسدها. وقد يثور بركان الجسد، وبركان القلب خامد. وقد ينفجر بركان القلب وينفجر حمما نارية لا هبة والجسد ميت بلا حراك !

– ولكن السعادة أن ينفجر البركانان في وقت واحد.

– هذا يحدث نادرا في الحياة ! كثيرا ما يتحرك كل بركان من البراكين في وقت يختلف عن ثورة البركان الآخر.

– لا أصدق أن امرأة تعجب برجل مذبوح.

– الرجل في نظر المرأة هو ألف صنف وصنف ! وهو دكان تتوقع أن تجد فيه كل شيء تريده ! تريد أن تجد فيه اللحم والفاكهة، السوردة وسكين المطبخ، مكياج وجهها وطلاء حذائها ! تريده معبدا وكباريه في وقت واحد، والجنس هو واحد من الألف صنف التي تريدها ! فإذا وجدت الجنس وحده ولم تجد الأشياء الأخرى بحثت عن محل آخر ! ولكنها إذا وجدت التسعمائة والتسعة والتسعين صنفا في المحل، ولم تجد الجنس، لا تغير المحل !

– إن هذه هي المرأة الملاك !

– إن نصف المرأة ملاك ونصفها شيطان ! وفي قدرة الرجل وحده أن

يخرج الملاك منها أو يخرج الشيطان !

– هل تتصورين أن خطيبتي ديانا تقبل أن تتزوج منى بعد ما حدث لى ؟

– لنفرض أنك تزوجت بها ثم حدث لك ما حدث .. فهل كانت تطلقك ؟

– أعتقد أنها كانت تطلقنى !

– إذن، فهى لن تتزوجك !

– وسوف أحتقرها لأنها تخلت عنى ! وبهذا لا أفقدها وحدها،

وإنما أفقد صورتها الجميلة. إننى أستطيع أن أعيش على ذكرى أيامنا

الحلوة معا، ولكنى أموت كمدا إذا انتهت قصتنا هذه النهاية الدامية !

– إذن يجب ألا تعرف، يجب أن تفسخ خطبتك لسبب آخر !

– أى سبب آخر ؟

– أنا .. مثلاً !

– أنت .. ماذا تستطيعين أن تفعلنى ؟

– أستطيع أن أقوم بدور حبيبتك وأظهر فى المجتمعات معك .. وتلتقط

الصور لنا .. ويتحدث زملاؤك عن غرامك بفتاة مصرية .. وتقع صورة لى وأنا

أعانقك فى يد ديانا فتغضب وتتور وتفسخ خطبتها معك. وبذلك تشتت بسانك

زئير نساء .. لا رجل فقد رجولته !

– إنها فكرة عبقرية .. ولكن ما الذى يجعلك تفعلين من أجلى كل هذا ؟

– لأننى أحتاج إليك لتقوم بهذا الدور !

– لتفسخى خطبتك ؟

- لا.. لأستعيد الرجل الذى أحبه !
- ولكن بحالتى الراهنة لا يمكن أن أثير غيرة رجل !
- نحن مجتمع يهتمه البذلة الرسمية وليس الرجل الذى فى داخلها تخيفه البندقية.. حتى ولو خلت من الرصاص !
- إننى فعلا بندقية خلت من الرصاص !
- ولكننى سأحارب بها !
- إننى موافق على هذه الشروط !
- إن لى شروطا أخرى !
- ما هى ؟
- أن تحاول، عندما تذهب إلى الحفلة، أن تقبلنى وأنت ترقص معى !
- هذا شرط لذيذ !
- وأن تقول إنك تريد أن تتزوجنى !
- هذا شرط سهل جدا !
- وأن تقول إنك أب الجنين الذى فى بطنى !
- هل فى بطنك جنين ؟
- نعم.. ابنك !

الفصل الخامس والثلاثون

مالَت الأميرة فضيلة برأسها على رأس عادل علاء الدين، وقالت له
هامسة :

— هل ترى.. ما أراه؟

— ماذا ترى؟

— قسمت شاهين؟

والتفت عادل إلى حيث تشير الأميرة، فرأى قسمت بين ذراعي ضابط
انجليزى، يرقصان متلاصقين. وتأملَت الأميرة الضابط الشاب، كان الرجل
وسيمًا جدًا. شعره كالحرير الذهبى، ذا عَيْنَيْن زرقاوين وفم صغير، شفته
العليا قرمزية رقيقة مقوسة، وشفته السفلى قرمزية ممتلئة تبدو الشفتان
منتشيتين وكأنهما انتهتا من قبلة لذيذة. خده المشرَّب بالحمرة التصق بخد
قسمت، وأحاطت يده التى تشبه الزنبقة بخصرها. وتنهدت الأميرة وقالت:

— يظهر أن قسمت كسبت وحدها الحرب العالمية الثانية!

وأحس عادل كأن سكينًا حادة تتحرك فى داخله، تغوص فيه، تمزقه أربا
أربا، ظهر وجه قسمت أمامه فى أول الأمر مهزوزًا مضطربًا، كأن وجهها
يختفى خلف سحابة من الدخان أو يختبئ خلف هالة من الغمام. وعجب أنه

لا يرى من مقعده القريب تقاطيع وجهها. هل دخان سيجارته هو الذى أخفى ملامحها، أم أن انفاسه الملهبة تحولت إلى دخان أبيض يحجبها عنه؟

وحدق فيها من جديد. واستطاع بعد جهد أن يرى وجهها. إنها ليست صورة المرأة التى عرفها وأحبها. إنها صورة امرأة أخرى. ليست هذه قسمت القديمة ذات النظارة السوداء، ولا هى الأنسة كاف التى خلقها من أشواقه وصنعها من هواه. تذكر تلك الليالى التى كان يلتقيان فيها بشقيقته. وكيف كان يطفى نور الغرفة ويجلس فى الظلام يرى وجهها يشع بالبراءة، كأن قبلاته الملهبة لم تدنسها وكأنها وهى بين ذراعية غانية ولا تكاد تفلت من ذارعية حتى تعود قديسة من جديد.

لا.. هذه المرأة التى يراها الليلة ليست قسمت ولا الأنسة كاف. إنها امرأة ثالثة يراها للمرة الأولى فى حياته. امرأة خطيرة لا تنتمى إليه ولا ينتمى إليها. امرأة من عالم آخر هو عالم الشياطين. امرأة فاجرة وهى تفتح عينيها. امرأة أشد فجورا وهى تغمض نفس العينين!

امرأة خلقت لتعذب الناس، لتخدعهم، لتشقيهم، لتدوسهم بقدميها. كم تغيرت ملامحها! كم تبدل وجهها!

كم اختلفت تصرفاتها عن المرأة التى عرفها! كيف جرؤت أن تضع خدها على خد هذا الضابط الانجليزى وهى ترقص؟ إنها لم تفعل ذلك أبدا معه خلال مئات المرات التى رقصت فيها معه. كيف رضيت أن يضمها الضابط الانجليزى بهذه الطريقة الشائنة أمام هذه الجموع الغفيرة؟

وقطع صوت معروف باشا زوج الأميرة عليه سلسلة أفكاره وسمعه يقول:

ـ ألا تلاحظ يا عادل بك أن غصون الأشجار تتمايل وكأنها ترقص !
والتفت عادل إلى الأشجار ولم يرها تتمايل وترقص، بل رآها ترتجف وترتجف !

وعجب عادل كيف أن شخصين يجلسان معا على مائدة واحدة، ويريان الشيء الواحد بنظرة مختلفة ! كأنه ليست في عيوننا عدسات تلتقط صور الأشياء، بل مرآيا نرى فيها ما في داخلنا. لعل الجالسين في فندق شبرد لا يرون وجه قسمت كما يراه لعلها تفتنهم في الوقت الذي يشمئز هو فيه من منظرها. لعلها تخلص ألبابهم في نفس اللحظة التي تجعله يشعر برغبة شديدة في البكاء !

كل من في السهرة سعداء بالسهرة ما عداه. الموسيقى التي يرقصون عليها تحولت في أذنه إلى أنغام الجنازات. الضحكات العالية بدت أشبه بالصراخ والعويل. أحس بأن أشياء كثيرة في داخله تتحطم وتتكسر. إنه يسمع صوت هذه الأشياء وهي تتمزق وتنقطع في أعماقه. وأحس فجأة بفراغ ضخم في روحه. كأن العالم الذي كان يعيش في داخله تعرض إلى زلزال عنيف. تهاوت الأبنية الشاهقة. سقطت البيوت. تحول الناس إلى جثث وأشباح. كل شيء في أعماقه تحول إلى خراب وعدم !

ودهشت الأميرة فضيلة عندما رأت لون وجهة يشحب. تصورت في أول الأمر أن الأنوار الملونة ألقت ظلالها على وجهه. ولكنها رأت العرق يتساقط من جبينه بغزارة. ورأت جسمه ينتفض فقالت له ملتاعة :

ـ ماذا حدث يا عادل؟ هل أنت مريض؟

وتماسك عادل، وقال إنه يشعر ببرد خفيف، وأنه يستطيع أن يعالج هذه الحالة الطارئة ببضع كنوس من الويسكى.

وأمسك زجاجة الويسكى التى فوق المائدة، وأراد أن يسكب بعضها فى كأس الأميرة، فابعدت كأسها وهى تقول باسمه :

— هل نسيت أننى لم أذق الخمر منذ أصبحت أما !

وهز عادل رأسه. لقد نسي فى هذه اللحظة كل شيء. وأفرغ بعض ما فى الزجاجة فى الكأس ولم يمزجه بالصبودا كما كان يفعل دائما، ورفع الكأس وشربها جرعة واحدة.

وأحس أن الخمر تخفف ألم السكين الذى كان لا يزال يمزقه. فالخمر هى مخايبى يهرب إليها الذين لا يستطيعون مواجهة الواقع. وهم يختفون فى داخل الكئوس الزجاجية متوهمين أنهم اختفوا فى مخايبىء من الأسمنت المسلح، ولا يعرفون أنهم يختفون فى بيوت من زجاج !

وعادت الأميرة تقول وهى مبهورة :

— أن هذا الضابط الانجليزى مزيج من نجوم السينما وأبطال الرياضة !
وأطارت هذه الكلمات الخمر من رأسه. وأحس كان الأميرة هوت على رأسه بمطرقة هائلة. وشعر أنه يكرهها، كما يكره قسمت، كما يكره الضابط الانجليزى، كما يكره فندق شبرد كله بما فيه ومن فيه !

وتدخل معروف باشا وقال :

— صحيح أن هذا الضابط رجل فائن جدا ! الشاب الانجليزى الوسيم عندما يكون جميلا يقترب من أن يكون امرأة جميلة ! ولكن هذا الشاب جمع بين الرجولة والجمال فى وقت واحد.

ولمعت عينا الأميرة وقالت :

– إنه جميل فعلا. أنه أجمل رجل رأيته في حياتي. ترى كيف عثرت
قسمت على هذا الكنز؟!

وتضايق عادل من هذا المديح والاطناب في وصف الضابط الانجليزي
الشاب. إنه وحده الذي يعرف علاقة قسمت به، والجنين الذي في بطنها منه.
وأحس بالغيرة تنهش فيه، تأكله، تعذبه.

كانت كلمات الاعجاب بالضابط الانجليزي أشبه بقنابل تسقط فوقه،
تصيبه إصابات مباشرة تدمره، تحولها إلى أشلاء!

وأراد أن يغير موضوع الضابط الانجليزي بموضوع آخر، كأنه يهرب من
الغازات المتلاحقة إلى مخبأ أمين، فقال:

– إن كل القاهرة هنا الليلة في هذه الحفلة!

ولم تترك الأميرة عادل يستريح في مخبئه الأمين الذي لجأ إليه، وعادت
تنتزعه منه وهي لا تزال متجهة بكل عينيها إلى الضابط الانجليزي، وكأنها
تأكله:

– أعتقد أن القاهرة كلها لن يكون لها حديث إلا عن الضابط الجميل
الذي كانت ترقص معه قسمت شاهين.

وأدار معروف باشا رأسه، ليتابع قسمت والضابط وهما يدوران معا في
حلبة الرقص ثم قال في حماس:

ألا تلاحظون أن الضابط ينظر إلى قسمت نظرات حب وولع وعشق
وهيام؟ إنه مفتون بها. يظهر أنها سحرته!

وما كادت الأميرة تسمع هذه الكلمات حتى تحركت المرأة اللعوب
المدفونة في داخلها. عادت إلى قيد الحياة من جديد. شعرت برغبة عارمة في

أن تنتزع الضابط الشاب من قسمت، لتكون هى حديث المدينة غدا
لا قسمت شاهين!

وبحركة غير إرادية، مدت الأميرة يدها إلى كأس الويسكى التى كانت
أمام زوجها وأفرغتها فى جوفها. نسيت فى لحظات أنها منذ حملت ابنها طلقت
الخمرا! نسيت أنها أضربت عن حياة العبث والسهر والمجون. نسيت أنها
قررت أن تضى بقية حياتها فى الصلاة والصوم شكرا لله على النعمة التى
أسبغها عليها. وإن كانت أصدرت فتوى بأن علاقتها الفرامية بعادل علاء
الدين ليس لها علاقة بقرار الصلاة والعبادة! أحست كأن هذا الضابط
الوسيم أصبح الرجل الوحيد فى العالم. يجب أن تتحرك لتستولى عليه قبل
أن يفلت منها! يجب أن تحتكره لنفسها ولا تسمح لامرأة أخرى بأن
تشاركها فيه!

بل إنها نسيت أنها تحب عادل علاء الدين، ونسيت أنه يجلس إلى
جوارها، ونسيت أنها ويخته منذ دقائق عندما أراد أن يسكب لها كأسا من
الويسكى!

وقالت لزوجها بلهجة أمرة:

— اذهب.. واحضر قسمت والضابط ليجلسا على مائدتنا.

وتحرك معروف باشا من مقعده ليلبى أمر الأميرة، ودمدم عادل معترضا
وقال لها هامسا:

— يحسن أن نتركهما وحدهما!

— ما الضرر فى دعوتهما لمشاركتنا مائدتنا؟

— العشاق يكرهون الغرباء فى أيامهم الأولى!

- ولكنك لم تكره الغرباء في أيامنا الأولى !
- عندما يزيد عدد الموجودين مع عاشق وعاشقة واحدا . يشعران أن هذا الواحد الزائد هو جمهور كبير !
- أنت لم تعترض أبدا على وجود زوجي معنا !
- لم أشعر بوجوده !
- لسنا غرباء بالنسبة لقسمت إن قسمت صديقتنا ، ويهمنا أن نهنتها على ذوقها البديع !
- اعتقد أن قسمت سوف ترفض دعوتنا .
- إنها لن ترفض ، بل يسرها أن تتباهى بالجوهره التي في يدها !
- أنا واثق أنها لن تحضر لن تجرؤ على الحضور ؟
- لماذا ؟
- لأنها تعلم أنني لا أوافق مطلقا بأن تظهر فتاة مصرية بهذا المظهر الفاضح مع ضابط انجليزى !
- إنها ترقص معه . ولا أرى في هذا أى شىء فاضح !
- إنها ترتكب فعلا فاضحا في الطريق العام !
- ماذا جرى لك يا عادل ! إننى لم أعرف عنك أنك أصبحت من كبار رجال الدين ، وأصبحت ترى أن من ترقص مع رجل سوف تدخل جهنم !
- إنى لا أثور لسبب دينى . إننى غاضب لسبب وطنى ! إننى أجد أن

مراقصة سيدة مصرية محترمة لضابط من ضباط الاحتلال هي لطمة على وجه كل مصرى !

— لقد رأينا معا من قبل فتيات مصريات يرقصن مع ضباط انجليز ولم تثر كل هذه الثورة !

— لم يكن يرقصن بهذه الطريقة الشائنة !

— أنت مريض يا عادل ! إنك ترى أشياء لم تحدث ! أعتقد أنه يحسن بك أن تعود إلى بيتك قبل أن يشتد البرد. لا بد أن حرارتك ارتفعت. لا بد أن ما تقوله هو تخريفات الحمى !

وسكت عادل على مضض. أ يكون فعلا أصيب بالحمى، حمى الغيرة، وأصبح يرى أشياء لم تحدث ! أو تكون ثورته ليست بسبب غيرة وطنية، ولا غيرة دينية، ولكن غيرة عاشق مهزوم من عاشق منتصر !

وصمت ولم يقل شيئا. ومد يده إلى زجاجة الويسكى وعاد يفرغها في كأسه الجديد، ولم توجه الأميرة إليه حديثا بعد ذلك. واكتفت بأن أشارت بطرف عينها إلى زوجها، وقفز معروف باشا من مقعده واتجه إلى قسمت والضابط البريطاني في حلبة الرقص، وهمس في أذن قسمت يقول لها :

— إن الأميرة تدعوك أنت وصديقك للجلوس إلى مائدتها !

وترجمت قسمت إلى الانجليزية ما يقوله معروف باشا، فقال الضابط الشاب :

— الأمر لك !

وابتسمت قسمت وقالت :

— سنجيئكم بعد انتهاء هذه الرقصة !

وعاد زوج الأميرة إليها يحمل لها بشرى قدوم قسمت والضابط بعد انتهاء الرقصة.

وضغط عادل بأسنانه على شفتيه. ثم أفرغ الكأس في جوفه. ولم تلاحظ الأميرة الطريقة المجنونة التي يشرب بها عادل، فقد كانت مجنونة بنوع آخر من الخمر أسكرها، وهو الضابط الانجليزى الوسيم، فإنها كانت تتابعه بعينيهما الشرهتين، وهو ينتقل بقسمت من ركن إلى ركن في حلبة الرقص.

* * *

وأنهت الموسيقى الدور الراقص واتجهت قسمت مع الملائم جاك ستيوارت إلى المائدة التي يجلس إليها عادل مع الأميرة وزوجها.. وقدمت جاك إلى الأميرة فصافحته وضغطت على يده، ثم قدمته إلى زوجها معروف باشا ثم إلى عادل..

وحرصت الأميرة على أن تجلس جاك إلى جوارها. وجلست قسمت بين عادل وزوج الأميرة. وكأنها حرصت على ألا تجلس في مواجهة عادل، حتى لا تلتقى عيناها بعينه.

وقالت الأميرة للضابط البريطانى :

— لعل هذه الحفلة أعجبتك !

— أعجبتنى ! إنها أروع سهرة حضرتها في حياتى !

— هل أنت تصف الحفلة أم تصف قسمت ؟

— أصف قسمت واصف الحفلة وأصف السهرة ! إننى أحب هذا المكان

فعلا. لقد كنت مع الدكتور كروزيل أستاذ الدراسات الاسلامية أمس، فقال لى أن حديقة شبرد هذه كانت عش غرام نابليون بونابرت ! عندما غزا مصر. كان منزل محمد بك الألفى الذى يقيم فيه نابليون مكان الفندق . وقد كان مكان هذه الحديقة عش غرامه، وكان بينهما باب سرى !

قالت الأميرة ضاحكة :

— إذن أنت تحاول أن تعيد فتوحات نابليون فى نفس مكان المعركة !
— إن تشبيهى بنابليون شرف عظيم ! لقد قرأت عنه أنه كان يسحق النساء فى حبه كما يسحق الجيوش فى المعارك !
وقهقهت الأميرة وضحك زوجها وابتسمت قسمت، واصفر وجه عادل. لم يعجبه أن يتكلم الضابط الانجليزى هذا الكلام المفتوح. وانبرى عادل يقول له متهمكا :

— لماذا تقلدون نابليون فى الحب ولا تقلدونه فى الحرب !

— إنه شرف لنا أن نقلد نابليون فى الحب والحرب.

— هل هذا تظاهر بالتواضع ؟

— إن طبيعة الانجليزى أن يحنى رأسه للمهزوم الذى انتصر عليه.. كما يحنى رأسه للمنتصر الذى هزمه.

ولسعت هذه الجملة عادل كأنها افعى. ونظر إلى عيني قسمت، وكأنه يريد أن يقرأ فيهما السؤال الذى قفز إلى رأسه. هل أخبرت الضابط البريطانى أن عادل هو القائد المهزوم الذى انتصر عليه جاك ستيوارت فى معركتها !

ولم تشأ قسمت أن تريحه بالرد على سؤاله الذى يقطر دما، لم يفصح وجه قسمت عن شيء. لا هى انكرت، ولا هى اعترفت. وضاعف غموض تعبيرات وجهها من حيرته.

ونظر الضابط الانجليزى حوله إلى حديقة شبرد وإلى جدران الفندق كأنه ينظر إلى امرأة شرقية جميلة وتنهد وقال !

— أشعر كأننى أعيش الآن فى سهرة بقصر نابليون عندما كان فى القاهرة. إننى قرأت كثيرا عن تاريخ نابليون فى مصر. إن طراز فندق شبرد هو نفس طراز قصر الألفى الذى عاش فيه نابليون. إنه يشبهه من الداخل شبها غريبا. نفس النقوش الشرقية نفس الزخارف العربية التى تزين الجدران. الأعمدة البيضاء المزركشة. ملابس الخدم التى تشبه ملابس المماليك. الأخشاب المموهة بالذهب والفضة. الموائد المبطنة بالصدف حتى أشجار البرتقال المزروعة فى صناديق خشبية.. حتى نافورة المياه هذه لا تزال فى نفس المكان !

قال عادل فى سخرية مريرة :

— لا ينقصنا إلا نابليون..

قال الضابط الانجليزى :

— وزينب ؟

وضحكت الأمير فضيلة وقالت :

— زينب ؟.. زينب كامل عضو جمعية ملجأ المتشردين وصديقة. قسمت :

قال عادل فى مرارة :

– إن الملازم ستيوارت يقصد فتاة مصرية اسمها زينب. كانت ابنة الشيخ البكرى في عهد نابليون استطاعت بجمالها أن تغزو قلب القائد الغازى! خانت دينها ووطنها نسيت بين ذراعيه شرفها وتقاليدها. وجد نابليون لذة في أن يذل شعب مصر بأن يجعل زينب معشوقته

قالت قسمت معترضة:

– وما أدراك أن زينب فعلت كل هذا من أجل هواها ما أدراك أن زينب ضحت بشرفها لتنفذ شعب مصر من جبروت الطاغية! ما أدراك أنها استسلمت لقائد الاحتلال لتقلم أظافره ولتنزع أنيابه؟ ما أدراك أنها لم تكن جان دارك مصرية، أحرقت نفسها من أجل هذا الشعب؟!

قال عادل باحتقار:

– إن حريات الشعوب لا تنتزع بين أذرع الطغاة!

– إننى قرأت أن زينب البكرى هى التى أقنعت نابليون باعتناق الاسلام، وجعلته يلبس عمامة، ويحضر تلاوة القرآن قرأت أن هذه الفتاة المصرية التى لم تكن تبلغ إلا السادسة عشرة من عمرها سحرت الطاغية وجعلته أشبه بالطفل الصغير... وإنها منعت كثيرا من البطش والأذى عن المصريين واقنعت نابليون أن يرحم المصريين من قيود الاحتلال وهوانه!

– الذى أعرفه أنه بعد هذه العلاقة مباشرة، هدم نابليون جامع الأزهر بمدافعه، وقتل عشرات العلماء المصريين، وفنك بمئات من المصريين.. فماذا فعلت صاحبك زينب؟

– إن زينب ليست صاحبتى، وإنما الحقيقة هى صاحبتى! إننى أعتقد

أن التاريخ ظلمها.. لأن التاريخ يكتبه الرجال، ولو كتبت النساء التاريخ لتغير وجه التاريخ !

— لأن المرأة تجيد الكذب أكثر من الرجل !

— أن في رأى أن زينب البكرى بطة. ليس ذنبها أن تعشق الطاغية.. إذا كان كبار العلماء يقبلون يد الطاغية !

— لم تفعل زينب شيئاً لانقاذ أهل وطنها من غضب الطاغية. إنه أمر بإبادة كل من في جامع الأزهر. سلط مدافعه على البيوت، دمرها على من فيها من نساء وأطفال. جعل الناس يجرون في الشوارع هائمين على وجوههم يصرخون «ياخفى اللطاف.. نجنا مما نخاف»! رجال نابليون اقتحموا الأزهر وهم على خيولهم، حطموا القناديل وهشموا قبلة المسجد، وماذا فعلت زينب خلال هذا كله؟ كانت بين ذراعى عاشقها الطاغية في هذا المكان الذى نجلس فيه الآن بفندق شبرد !

— لا تزور التاريخ يا عادل : إن اعتداء نابليون على الأزهر وقع بعد أن قطع علاقته بزينب البكرى بعام على الأقل ! أذكر لى حادثة واحدة وقع فيها عدوان على الشعب المصرى أيام كانت زينب عشيقة نابليون؟
— إنها هى التى أعطت المصريين المثل فى الاستسلام !

— حتى هذا لم تفعله ! والدليل على ذلك أنه بعد أن انتهت علاقة نابليون بزينب بعدة شهور قام الشعب فى القاهرة بثورة عارمة. هجم الشعب على الجنرال دبوى محافظ القاهرة، وكانوا يطلقون عليه لقب «شيخ البلد» وقتلوه هو وحرسه. وكان نابليون يومئذ يزور الجيزة وأراد أن يسرع إلى القاهرة فألقى عليه الشعب الأحجار ومنعه من دخول المدينة، واضطر أن يدخلها من الباب الخلفى. وغطت جثث الجنود الفرنسيين شوارع المدينة. وأشعل

الثوار النار في كل مكان. واقتحم الشعب مقر البعثة العلمية الفرنسية وقتلوا أحد العلماء الفرنسيين وأربعة من المهندسين، وحطموا كل الآلات العلمية. وحاصر الشعب المستشفى العسكري الفرنسي وقتل اثنين من الأطباء.. سيطر الشعب على القاهرة كلها باستثناء القلعة !

وانتهت قسمت من حديثها، وأخذت تعبت بخصلات شعرها. وانحنى عليها عادل وقال ساخرا :

— وماذا فعلت ست زينب في هذه الثورة؟ لعلها أعلنت الثورة في قلب نابليون. عانقته وقبلته وارتمت بين ذراعيه !

— إنها ارتمت تحت قدميه. توسلت إليه أن يعدل عن القرار الذي أصدره بقطع رأس ألف تائر مصري.. مزق القرار أمامها ! إن جميع المؤرخين دهشوا لأن نابليون لم يفتح حمامات الدم. أصبح صفح نابليون عن ثوار القاهرة موضوع الكثير من اللوحات المشهورة في أوروبا.. ولكن هذه اللوحات تناست الدور الذي قامت به زينب !

— إن المؤرخين الفرنسيين أرادوا أن يحيطوا نابليون بهالة من القداسة ! لقد قرأت بنفسى في متحف نابليون أمرا أصدره إلى الجنرال برتويه نائبه، جاء فيه بالحرف الواحد « أرجو أن تصدر أمرك إلى قومندان مدينة القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين قبضتم عليهم وبأيديهم السلاح، وأن يؤخذوا بعد هبوط الظلام إلى شاطئ النيل، وتلقى جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر ». إن وثائق التاريخ تؤكد أن نابليون أعدم في يوم واحد ثلاثمائة مصرى في تلك الليلة؟. ولعل زينب كانت بين ذراعيه وهو يصدر قراراته بقطع رؤوس أبناء وطنها !

— إذن فقد استطاعت زينب أن تنقذ هذه الليلة سبعمائة مصرى من قطع

رؤوسهم ! إنها أعطت الجنرال الفرنسي ليلة واحدة لتمنح الحياة لسبعمئة
مصرى !

— هذا موضوع شائك لا يجوز للنساء أن يتحدثن فيه !

— هناك مثل صيني قديم يقول : ممنوع على المرأة أن تتحدث في أى
موضوع .. إلا موضوع الحب !

— ولكن هذا ليس موضوع حب إنه موضوع دعاية !

— إنه موضوع امرأة مصرية انقذت بحبها حياة سبعمئة مصرى !

كان أشرف لمصر، لو قتل نابليون ألف رجل مصرى، ولم يلوث شرف فتاة
مصرية واحدة !

وقاطعه جاك ستيوارت قائلا :

— أنا متحمس جدا لزينب !

قالت قسمت لعادل :

— وأنت متحمس جدا ضد زينب !

قال عادل :

— أنا متحمس ضد كل زينب ! ضد كل امرأة تستسلم لأعداء وطنها !

قال جاك ستيوارث ضاحكا :

— أحمد الله أننا نحن الانجليز لسنا أعداءكم ! نحن حلفاؤكم بحكم

معاهدة سنة ١٩٢٦ !

قال عادل متجهما :

— إن هذه المعاهدة سقطت يوم ٤ فبراير. عندما حاصرت مصر ملك مصر
بالدبابات البريطانية وفرضتم عليه رئيس وزارة!

— يومها صفق الشعب المصري لنا.

— لأنه لم يعرف حقيقة ما جرى. تماما كما لم يعرف حقيقة ما جرى
لزينب الكبرى إلا بعد عدة شهور، ولذلك ثار على نابليون!

— إنك يا عادل، تشوه سمعة الشعب المصري! كأنك تريد أن تقول إن
شرف الشعب هو في نسائه! الشعب لا يثور لأن الجيش الفرنسي غزا أرضه!
ويثور لأن قائده عشق إحدى نسائه!

— إن الشعب المصري تحمل كل شيء من نابليون، ولكنه لم يتحمل أن
يرى قلة حياء الغزاة مع نسائه! إن المؤرخ المصري الجبرتي يقول إن
الفرنسيين هاجموا حتى بولاق، وأسروا كل نسائه وفتياته الجميلات،
وجعلوهن محظيات لديهم! إن المصري يثور الدم فيه عندما يرى ابنة بلده
تعانق جنديا من جنود الاحتلال، ولو كان الأمر بيدي لحقت رأس كل فتاة
تخرج مع جندي بريطاني!

وتحسست قسمت شعرها وهي تضحك ساخرة وقالت:

— الحمد لله.. إن الأمر ليس في يدك يا عادل!

* * *

وكانت الأميرة فضيلة مشغولة طوال الوقت في الحملقة في وجه الملازم
جاك ستيوارت. تلاحقه بابتساماتها، تتابعه بنظراتها، تحاول أن تقول له
برموشها أنه أعجبها. ولكنه كان منصرفا عنها بمتابعة المناقشة الحادة من
غراميات نابليون في مصر. ولم يكن أحد من الجالسين، سوى قسمت. —

يعرف حقيقة المناقشة . أو يتصور أنها ليست مناقشة تاريخية . وإنما مناقشة في الأحوال الحاضرة ! وإن عادل وهو يشتم زينب البكرى إنما يشتم قسمت ، وأنه يهاجم نابليون بقسوة وهو يريد أن يهاجم الملازم جاك ستيوارت الذى فعل بقسمت ما فعله نابليون بزينب البكرى !

وقالت الأميرة فضيلة وهى توجه الحديث للضابط البريطانى الذى سلب لبها :

— إن عادل ينسى أن المصريين هن حفيدات كليوباترا ! كليوباترا عشقت يوليوس قيصر وعشقت مارك انطوان لتنقذ مصر من الغزو الأجنبى ! حلم كل فتاة في مصر أن تكون كليوباترا جديدة !

قال عادل غاضبا ، فى صوت يشبه رذاذ الزجاج المكسور :

— إن كليوباترا لم تكن مصرية — كانت يونانية ! وقد دخلت التاريخ من أبواب الغانيات ، لا من أبواب الملكات !.. ولقد كان الفرنسيون يسمون زينب البكرى « فتاة القائد المصرية » « كليوباترا الجديدة » ، وكانوا يسخرون من والدها الشيخ البكرى ! إن كليوباترا وزينب البكرى فضائح فى تاريخنا ، لا مثل يحتذى !

قالت قسمت وهى تتحداه :

— إننى شخصا معجبة بزينب البكرى !

— سوف يزداد إعجابك بها عندما تعلمين أنه بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، خرج الشعب إلى بيت البكرى بحى الجودرية ، وهاجموه وكسروا رقبة زينب ، ثم ضربوا جثتها بالأحذية والنعال !

قالت قسمت بالعربية وهى تضحك :

— هل هذا تهديد؟

— لا.. إننى أروى التاريخ!

— والتاريخ يعيد نفسه طبعاً!

وامتقع وجه عادل، وهو يرى قسمت تضحك وتسخر كأن كل السهام التى وجهها لها قد طاشت. كأنها أصبحت زينب البكرى الجديدة. وفخورة بمغامراتها مع الغازى الجديد. لا يهمها لو كسر المصريون رقبتها. كل ما يهمها أن تستمتع بهوى جاك ستيوارت، بعينيهِ الزرقاوين، بخده المتورد، بشعره الذهبى برجولته الصاخبة. وفوجئ بالأميرة فضيلة تتخلى عنه هى الأخرى وتقول:

— أنا لا أفهم هذا الخلط بين الحب والوطنية! القلب لا وطن له. أعظم رجال العالم أحبوا نساء من غير بلادهم. ولم يلعن العالم امرأة لأن قلبها خفق بحب رجل من غير بلادها! إن رجالنا يفهمون أن العرض هو الأرض!

قالت قسمت فى حماس:

— إن كثيراً من رجال مصر الوطنيين تزوجوا من أجنبيات ولم يطعن أحد فى وطنيتهم!.. بعض المتزوجين من انجليزيات كانوا من أشد رجال ثورة ١٩١٩ تطرفاً! لماذا يجوز للرجل المصرى أن يتزوج من انجليزية، ولا يصبح خائناً للوطن، ولا يجوز للمصرية أن تتزوج من انجليزى، ولو فعلت ذلك لاستحقت أن تقتل ضرباً بالشباشب والمراكيب!

وفهم عادل من حديث قسمت أنها تشير إلى مشروع زواجها من الضابط البريطانى. إلى قصة جاك الذى غزاها واستسلمت له. ووقعت وثيقة

استسلامها بهذا الجنين الذى فى بطنها.. واشتدت كآبته. وحاول أن يفرق هذه الكآبة فى كأس أخرى يشربها !

وسارع جاك ستيوارت متوهما أن يضمّد جراح عادل :

— من حقك أن تلعن فتاة مسلمة تخالف تعليمات دينكم وتتزوج من ضابط أجنبي من دين آخر.. ولكن ماذا تقول لو أن الضابط الأجنبي اعتنق الاسلام؟

— أقول إن هذا نفاق ! لا أتصور أن رجلا يترك دينه من أجل امرأة !

— هناك نساء يسلمن عقول الرجال ! تساوى الواحدة منهن أن يترك الرجل منا دينه ووطنه من أجلها !

— كما فعل نابليون عندما تظاهر بالاسلام ! ثم بعد شهر مل هوى زينب وعشق فتاة فرنسية أخرى زوجة أحد الضباط، اسمها مدام فورييه !

— لا أقصد نابليون ! أقصد قائدا آخر من كبار قواده. أقصد الجنرال مينو. لقد أسلم وتزوج فتاة مصرية من رشيد اسمها زبيدة. وصفها فى رسائله بأنها طويلة القامة، جميلة من جميع الوجوه، لها عينان رائعتان.. سمراء خمرية.. شعرها طويل فاحم.. ويومها قال الجنرال مينو: لن أستطيع أن أنتفع بالرخصة التى منحها لى حتى الجديد بالزواج من أربع؟ إن المرأة المصرية حارة عنيفة.. ولذلك تكفينى زوجة واحدة !

ثم غمز الملازم جاك ستيوارت بعينه وقال :

— اعتقد أن الجنرال مينو كان على حق !

وانفجرت الأميرة فضيلة وقسمت تضحكان ! وابتسم زوجها معروف باشا

واحمر وجه عادل غضبا ! شعر أن جاك ستيوارت لا يصف زبيدة زوجة الجنرال مينو إنما يصف الأنسة كاف... قسمت شاهين. إن هذا هو وصفها بالحرف الواحد.. كلمة كلمة.. حتى في حديثه عن حرارتها وعنقها

وشعر برغبة في أن يقوم ويلطم الضابط الانجليزى على وجهه، ثم فوجيء بالأميرة فضيلة تلتفت إلى جاك ستيوارت وتقول له :

— تعال.. نرقص هذا التانجو!

— إنه شرف عظيم.. ولكن الأمر ليس بيدي !

— بيد من !

— بيد.. سيدى !

— سيدك ؟

— إن سيدى هو قسمت ! لقد اشترتنى ! أصبحت عبدا لها ! وليس في استطاعتي أن أفعل شيئا بدون أمر سيدى.. إننى ياصاحبة السم، لست إلا مملوكا !

والتفتت الأميرة إلى قسمت وهى تضحك ضحكة صفراء، وقالت لها :

— هل تسمحين لعبدك بأن يرقص معى !

— إن ذلك يسعدنى كثيرا.

— هل أنت مستعدة أن تبيعيه لى ؟

— لا أبيع.. وإنما أؤجره فقط !

وقامت الأميرة، وتبعها الضابط الانجليزى الوسيم إلى حلبة الرقص..

واستأذن معروف باشا ليتحدث مع صديق رآه..

نفخ عادل وقال لقسمت :

– إنه رجل قليل الأدب !

– من ؟ معروف باشا ؟

– أنت تعرفين من أقصد.. صديقك الضابط الانجليزى.

– ماذا فعل !

– ألم تسمعى بأذنك ماذا قال عنك ؟

– لم أسمع !

– إنه قال إنك امرأة عاطفية.

– وما رأيك أنت ؟

– رأى أنك قليلة الأدب مثله !

– لا تنس أنك أستاذى الاول ! كنت أتصور أنك ستكون فخورا بتلميذتك
النجيبة !؟

– لم أكن أعرف أنك امرأة فاجرة !

– ظننت أنك أول من عرف ذلك ! لقد قلت لى كثيرا أنه يسعدك أنك
جعلتنى امرأة فاجرة ! إننى يامولاي كما خلقتنى ! لماذا يسعدك أن أكون
فاجرة معك، ويشقيك أن أكون فاجرة مع غيرك ؟

– إنه رجل مستهتر ! يتباهى علنا بجريمته الزكراء !

— إنه والد الجنين الذى فى بطنى !

— أنت مجرمة !

— لماذا يكون لك ولد ؟.. ولا يكون لى ولد ؟

— إننى لا أتصور أن يجىء اليوم الذى تخلعين فيه مبادئك ! تخلعين فيه
وطنيتك !

— يدهشنى أنك تعتبر هذه العلاقة خيانة وطنية ! كأنك تعتبر وطنيتى هى
ملابسى، فإذا نزعته نزعته وطنيتى معها ! إن المرأة ممكن أن تخلع كل
ملابسها وتبقى وطنية مع ذلك ! ما أعجبكم أيها الرجال، إنكم لا تفرقون بين
العلم والفسطان، لو أنكم تموتون من أجل العلم كما تموتون من أجل الفستان
لما بقى جندى أجنبى واحد على أرض الوطن ! اقرأ احصاءات الجرائم فى
بلادنا تجد أن الرجال الذين قتلوا بناتهم أحببن رجالا آخرين أكثر
ألف مرة من عدد الذين قتلوا الجنود الغزاة ! اعلم يا عادل أننى لا أخلع
وطنيتى عندما أخلع فستانى !

— كما فعلت زينب البكرى مع نابليون !

— وكما فعلت أنا ! إن عيبكم أنكم تعتبرون الوطنية خطبا وقصائد
حماسية. الوطنية هى عمل صامت !

— لعلك انتهزت فرصة وجودك مع جاك فى غرفة واحدة وحصلت منه على
وعد بجلاء الانجليز عن مصر بعد الحرب !

— لا.. حصلت منه على وعد بالافراج عن عم عبده !

— هل هو يملك سلطة الافراج عنه ! أنه أحد الوعود الكاذبة التى يقولها
الرجل وهو مع المرأة التى يريدتها !

— إنه صديق ياور سير مايلز لامبسون السفير البريطانى، ويستطيع أن يصدر أمرا إلى وزير العدل !

— إننى أؤكد لك أن عم عبده يفضل المشنقة على أن يخرج من السجن بهذه الطريقة القذرة !

— ما هى القذارة فيها؟ إنها نفس علاقتى بك ! هل للقذارة جنسية هى الأخرى؟ فإذا كانت قذارة مصرية فهى شرف وفضيلة وإذا كانت انجليزية فهى خيانة ورذيلة ! متى تفتحون عيونكم وتعرفون أن أعلام الشعوب ترفع فوق قلاعها لا فوق فساتين نساءها؟

— أنت أصبت بالعمى ! إن سقوط امرأة مصرية فى يد ضابط انجليزى أشبه بسقوط قلعة !

— أخشى أن تكون أنت الذى أصبت بالعمى؟ انظر الآن خلفك ! ونظر عادل خلفه فرأى جاك ستيوارت وهو يقبل الأميرة فى عنقها والأميرة تغمض عينيها وكأنها تحلم !

واضطرب عادل..

ولاحظت قسمت اضطرابه وقالت ساخرة :

— إن قلعة أخرى سقطت فى يد الجيش البريطانى !

— إنها ليست قلعة.. إنها مدينة مفتوحة !

الفصل السادس والثلاثون

جلس عادل بمفرده على مقعده في مكتبه. كانت الساعة العاشرة صباحا.. ومع ذلك أحس بأن أضواء الغروب الحمراء انعكست عليه .. أحس بانقباض غريب.. عجب أن يحس في الصباح بأشعة الغروب.

كأن الشروق والغروب لا تصنعهما الشمس وحدها. المشاعر التي في أعماقنا هي شمس أخرى تشرق وتغيب! أحيانا نرى البظلام الدامس في الصباح، أحيانا نحس بالشمس المشرقة في الليل! ليالينا لا تحددها الساعات التي نحملها. وإنما تحددها ساعات أخرى في داخلنا. لها عقارب أيضا، ولكن عقاربها لا تتحرك. انها تلدغنا، تطفىء النور في قلوبنا فتحول حياتنا إلى ليل بهيم لأول مرة في حياته يشعر أنه بلا مستقبل.. كأن قسمت كانت مستقبله، فلما ذهبت ذهب مستقبله معها. انه يحس بأنه مشرد بلا بيت، كأن قسمت كانت بيته، وعندما انهار حبها له أصبح بلا مأوى!

كانت حياته قبل ذلك عدة نساء: نساء بعدد الأيام، ينزع كل امرأة وكأنه ينزع أوراق النتيجة المعلقة في الحائط. وهو على ثقة من أنه سيجد في اليوم التالي ورقة جديدة وراء الورقة القديمة وهو اليوم يرى الحائط عاريا من النتيجة كأن قسمت كانت كل أوراقها!

وأحس بأن العالم يضيق حوله .. ذلك العالم اللانهائي المليء بالحب،

تحول إلى زنزانة. أ يكون قد أخطأ لأنه وضع البيض كله في سلة واحدة؟! أكان على حق عندما كان يتنقل بين امرأة وأخرى كما يقسم الاقتصادى الخبير ثروته بين عشرات من أسهم الشركات المختلفة فإذا انخفض سهم ارتفع سهم آخر، وإذا أفلسـت شركة احتفظ بثروته من الاسهم الأخرى؟ أكانت غلطته الكبرى أنه أعطى كل حبه وكل قلبه لقسمت، وعندما مضت، أخذت كل شىء معها، ولم تترك له الفتات ليعيش عليه؟

ما أشقى الرجل العاشق عندما يتبين أن المرأة التى أحبها كانت سرابا! انه يكره نفسه أكثر مما يكرهها. يلوم عينيه لانهما لم تكتشفا السراب من بعيد. يسترجع حياته معها، ويتخيل أنه كانت أمامه علامات تؤكد أنه يرى سرايا ومع ذلك أغمض عينيه، لأن المحب يرى بأوهامه. لا بعينيه.

ان قسمت استسلمت له بسرعة .. فماذا يمنعها من أن تستسلم للضابط البريطانى بسرعة؟ كيف تصور أنه وحده الذى تفتح له القلعة أبوابها؟ كان يجب أن يعلم أن أبواب قلوب النساء تختلف عن ابواب القلاع. إنها أشبه بالابواب الأوتوماتيكية فى المحلات التجارية فى أوربا التى تفتح على مصراعها بعيون سحرية.. ما يكاد زبون يقترب من الباب حتى تنفتح الابواب دون أن تدفعها بيدك!

كان يخدع نفسه عندما توهم أن قسمت تختلف عن باقى النساء اللاتى عرفهن. كان يشم فيها رائحة هواء نقى لم يشمها فى امرأة من قبل! كان يطمئن لها أكثر مما اطمأن إلى أى امرأة أخرى. كان يثق فيها ثقته بنفسه. هل من المعقول أنه كان مخدوعا فى كل هذا؟ هل استطاعت قسمت التى خلقها ان تحطم المثال الذى صنعها من أشواقه وأحلامه. إنه ليس شابا مراهقا يسهل للمرأة أن تخدعه وتعبث به. تجاربه العديدة بين ألوان النساء

كانت لابد أن تحميه من السقوط في هذا الشرك المنصوب !

وأحس أنه يكرهها كما لم يكره إنسانا من قبل. كرهها لأنها قتلت الأنسة كاف التي خلقها ! وكرهها أكثر لأنها لا تخجل من جريمتها. إنها تتباهى بها. إنها لا تلتقى بهذا الضابط الانجليزى في الظلام. بل تحرص على أن تعرضه على الناس. تعرضه عليه هو ' إنها لا تتستر على فضيحتها. بل تدافع عنها. وتذهب في جراتها إلى الدفاع عن كل امرأة غيرها فعلت ما فعلته.. حتى زينب البكرى التي عشقت نابليون !

وضاعف من كرهه لها أنه لم يسمع احدا يهاجم قسمت بعد سهرة جمعية المتسولين في فندق شبرد. إن الناس الذين يخلقون من الحبة قبة مروا سريعا على حكاية رقص قسمت مع الضابط الانجليزى. لم تهزهم كما هزته لم تثرهم كما أثارته. كل ما فعلوه أنهم كانوا يبدون إعجابهم بوسامة جاك ستيوارت. فهل أصيب الناس كلهم بالعمى. وهو وحده الذى احتفظ بنعمة الابصار. أم أنه هو الإعمى الوحيد. وباقى الناس هم المبصرون "

واجتاحته فجأة موجة من الحب ! شعر في داخله بهزة خفيفة. خيل إليه أنه يسمع صوت انفجار مكتوم. كان خلايا دمه تحولت إلى جيوش. جيوش تكرمها وحيوش تحبها جيوش تلعنها وحيوش تلهج بحمدها.

واهتر في مكانه كانه أصيب بضربة شديدة لم يتوقعها. كان قبلة سقطت على الجيوش التي تكره قسمت وتلعنها وتدمرها كلها '

وعاد فجأة يشعر أنه لا يزال يحبها. كيف يحبها بعد كل ما فعلت ' إنه لا يحبها فقط . بل إنه لا يزال مجنونا بها.. إنه يجب ان ينتزعها من يد الصابط الانجليزى جاك ستيوارث ' كيف قبل أن يستسلم لهذا الغازى ؟

كيف قبل الهزيمة بكل هذه السهولة واكتفى بالبكاء والنحيب؟ لماذا لا يقاوم؟

ثم احس بأن المعركة استؤنفت في داخله بين جيوش أعداء قسمت وجيوش عابديها! وسمع في داخله دوى انفجار له ألف صدى! وعاد يشعر إنه يكرهها. لا يكرهها. فقط، انما يمقتها ويحتقرها! وأحس برغبة شديدة في أن يلطخها ويشوهها!

وخطر بباله خاطر عجيب.. لماذا لا يذهب إلى عم عبده ويقص عليه فضيحة الأنسة كاف؟!

* * *

حملق عادل علاء الدين في وجه عم عبده في ذهول. إنه ذهب إليه خصيصا ليزوره في سجن الاستئناف، ويروي له قصة قسمت مع الضابط الانجليزى جاك ستيوارث. قصة الجنين الذى فى بطنها. قصة مشروع زواجها منه. قصة تنكرها لشرفها ووطنها.

وجلس عم عبده يستمع إليه فى صمت، كأن على وجهه قناعا من الثلج. لم ير نظرات الغضب تتطاير كالشر من عينيه. لم يشهد قسمات وجهه وهى تنكمش ارتياحا للفضيحة الكبرى. لم يسمع كلمة واحدة من كلمات السخط والازدراء والاحتقار لما ارتكبته قسمت.

وأمسك عادل بأنفاسه. وانتظر أن يقول عم عبده شيئا. ولكن عم عبده لم يفتح فمه بكلمة واحدة. واعتقد عادل أن عم عبده فقد النطق من هول ما سمع. ماتت الكلمات فوق شفتيه. وأراد أن يدفعه للكلام فقال له بعد وهلة

- ما رأيك؟
- رأى إنه كلام فارغ!
- كل هذا كلام فارغ! إذن ما هو الكلام المليان!
- الكلام المليان إننى لا أصدق كلمة واحدة مما قلت عن قسمت!
- إنها اعترفت بجريمتها، وما قلته لك هو نص اعترافها.
- إن جريدة «المقطم» قالت إننى اعترفت بأننى عميل لهتلر. ونشرت نص اعترافى التى لم أقل حرفا واحدا منها!
- الاعتراف هو سيد الأدلة!
- كان الاعتراف فى الماضى سيد الادلة. ولكنه اليوم أصبح أسيرها!
- إنها اعترفت بهذا لى.. أنا!
- لم أعد أصدق الاعترافات بعد أن ذقت طعمها بنفسى! أغلب المسجونين معى اعترفوا بأشياء لم يرتكبوها. الاعترافات الآن هى قصص يؤلفها محقق مزور ويوقعها متهم مظلوم! إن صوت المعترفين ليس صوتهم إنما هو صوت الشياطين التى يضربون بها!
- أنا لم أضرب قسمت بالسوط حتى تدلى بهذا الاعتراف!
- الأيدى التى تحمل السوط ضعيفة الذاكرة دائما!
- إننى واثق من جريمتها، إننى متأكد!
- هل فتحت بطنها ورأيت الجنين!
- لم أفتح بطنها.

— ما دمت لم تفتح بطنها فليس من حقدك أن تقول إنك متأكد !

— أنا سمعتها بأذنى !

— لو كانت ارتكبت هذه الجرائم حقا لكنت آخر من يعلم بها. إن الزوج هو آخر من يعلم !

— لم أكن زوجها !

— كنت لها أكثر من زوج !

— هذا صحيح !

— ولهذا فهي تحرص على ألا تعرف أنت بجريمتها حتى لو عرفت بها الدنيا كلها !

— ولكنها قالت إنها تحرص على أن اكون أنا أول من يعلم بجريمتها !
— لأنها لم ترتكبها !

— كيف أكذب عيني ؟ لقد رأيتها بعيني بين ذراعى الضابط الانجليزى يرقص معها فى انسجام تام

— هل رأى الذين كانوا معك فى المكان ما رأيت !

— لا أعرف.

— بل تعرف أنهم لم يروا ما رأيت ! ولكنك أنت وحدك الذى رأيت. لأن عين العاشق تبالغ دائما فى كل ما تراه. العاشق لا يرى بعينه، وإنما يرى حينما بشوقه، وحينما بغيرته، وحينما بحبه. وأنت رأيت ما رأيت بعين الغيرة. والغيرة أشبه بمرايا اللونى بارك، تكبر الأشياء الصغيرة، وتضاعف الأشياء

التافهة، وتقصر المسافات الطويلة ! الغيرة تجعلنا نرى أشياء لم تقع وتؤكد لنا إنها وقعت ! لقد تصورت في شبابي إننى أرى بهية مصقعة الشحاذة التى كانت غرامى الأكبر، وهى تقبل زميلى الشحاذ سلومة ! بعينى رأيتها تقبله، ثم اكتشفت أنها كانت جالسة على الرصيف المقابل فى الشارع. ولا يمكن أن تمتد الشفاة وتقطع عرض الشارع ! ولكن الغيرة القاتلة جعلتنى أتصور ما لم يحدث. وأثور وكأئننى ضبطتها بين ذراعية. وأنا واثق أن الغيرة هى التى جعلتك لا ترى المسافة بين قسمت وبين الضابط الانجليزى وهما يرقصان معا !

– تقصد أننى أصبت بالعمى ؟

– الغيرة هى عمى. إنها تصيب كل جزء من أجسادنا. حتى قلوبنا !

– أنت تحدثنى كأننى مراهق.

– عندما نحب نتحول إلى مراهقين دون أن ندري !

– إذن أنت تتصور أننى أتخيل أنها اعترفت بخيانتها لى ؟!

– لم أقل هذا. ولكنى قلت إنها لم تعترف !

– إنك تتشكك فى قواى العقلية !

– الجنون فى الحب ليس مرضا. بل إنه لذة !

– أنت واثق أنها بريئة ؟

– ألف فى المائة !

– وإذا جاءت واعترفت أمامك ؟

– لن أصدقها !

— كيف لا تصدقها؟

— لأننى مؤمن بها !

— أخشى أن يكون كل منا آمن بصنم !

— إن كفرك بصنمك زادنى إيماناً بصنمى !

— أن العادة جرت، عندما يكتشف العابد أنه مخدوع فى الصنم الذى عبده، يبالغ أمام الناس فى عبادته، حتى لا يتهموه بالغفلة ! هذا الدفاع الحار عن قسمت ليس إيماناً منك ببراءتها وإنما هو دفاع عن كرامتك أمام نفسك. لأنك لا تريد أن تعترف بأن المرأة التى ضحيت من أجلها بحريتك داست عليك عندما التقت بأول ضابط انجليزى !

— أنا رجل ليس لى كرامة ! مهنتى شحاذ. والشحاذ يخلع كرامته قبل مزاولة المهنة !

— لا يمكن أن تعيش بغير كرامة !

— كرامتى. هى الحقيقة !

— ولقد أهينت كرامتك !

— لا أصدق أن قسمت تفعل هذا !

— كما لم تصدق ان الراقصة نشوى تفعل بك ما فعلت !

— قسمت ليست نشوى.

— كل النساء صنف واحد !

— عجباً أن يقول زئر النساء مثلك هذا الكلام.

— عند إطفاء النور تتساوى كل النساء !

— عند إطفاء النور تختلف كل النساء !

— إنك تتكلم كذواقة !

— إننى زئر نساء على المعاش !

— عجيب أن يثق زئر النساء بالنساء !

— زئر النساء هو رجل خبير بالنساء. ولهذا يعرف قيمة النساء، إنه أشبه بتاجر المجوهرات القادر بنظرة واحدة على أن يفرق بين الماس الحقيقى والزجاج ذى البريق !

— ما دمت أنا زئر نساء وأنت زئر نساء ، فكيف نختلف فى حكمنا على قسمت ؟

— لأنك تعشقها ! العشق يعمى عينيك ! تحكم عليها بمقدار اقترابها منك وابتعادها عنك. فإذا هى اقتربت فهى قطعة من الماس. وإذا ابتعدت عنك فهى قطعة من الزجاج !

— لقد قالت لى قسمت إنها اتصلت بالضابط البريطانى ليتوسط للإفراج عنك ! إنها تحاول أن تبرر جريمتها !

— إنها تعلم أننى أرفض أن أخرج من السجن فوق كتف ضابط بريطانى !

— ولكنها تصر على أنها تحب الضابط البريطانى !

— هل قالت لك هذا ؟

- نعم.. بالحرف الواحد !
- هذا دليل على انها لا تحبه، وتحبك انت !
- تحبني أنا !
- لو لم تكن تحبك لما أخبرتك بكل هذه القصة !
- هل أنت مجنون ؟
- لا... الحب هو المجنون !
- إنها بتصرفها هذا حطمت صورتها في قلبي !
- ان المجانين يحطمون كل شيء حولهم ! إن مجنون ليلسى فضحها وحطمها أمام الناس وهو يتصور أنه يغازلها !
- ولكن ما الذى يجعلها تفعل بى كل هذا ؟
- انها أرادت أن تذيبك من نفس الكأس !
- أى كأس !
- ألم تقل لها إن فى بطن سيدة أخرى، جنينا منك ؟
- نعم حدث ذلك !
- إنها ترد التحية بأحسن منها ! لقد قلت لها السلام عليكم.. فردت عليك قائلة : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته !
- انها امرأة خطيرة !
- كل امرأة عندما تحب تصبح خطيرة !

— إنك تنسى أنها اعترفت !

— وأنت تنسى أنني اعترفت أنني صاحب المنشور وأنا برىء منه !

— لى رجاء يا عم عبده ألا تخبر قسمت اننى جئت لزيارتك.

— اعدك بأن أكتّم هذا السر!

* * *

غادر عادل سجن الاستئناف، وأسرع إلى بيته، وأحضر مسدسه، ودسّه في جيبه، وذهب إلى فندق شبرد. وسأل بواب الفندق عن الغرفة التي يقيم فيها الملازم جاك ستيوارث، وهل هو موجود في غرفته. وأجاب البواب، الذى كان يعرف عادل من كثرة تروده على الفندق، بالإيجاب .. وصعد عادل إلى غرفة جاك ستيوارث. وتردد أمام الباب، ثم أخرج مسدسه وشهره في يده، واقتحم الغرفة..

وقفز الضابط جاك ستيوارث من فراشه مذعورا !

وقال له عادل فى هدوء !

— أتذكر الثورة التى قامت فى القاهرة لأن نابوليون اعتدى على زينب ابنة الشيخ البكرى؟ .. إن ثورة جديدة قامت فى القاهرة!

— ثورة؟

— نعم ثورة مسلحة.. وقد جئت لأقتلك !

— ولكنى لست نابوليون !

— أنت فعلت ما فعله نابليون

— أنا...؟!

— أنت فعلت بقسمت شاهين فعلة نابوليون بزينب البكرى!

— أنا؟!

— نعم.. وأنت والد الجنين الذى فى بطنها!

— أنا؟!

— نعم أنت.. وقد اعترفت بذلك. والتقاليد فى بلادنا أن نقتل أى رجل يعتدى على عرض فتاة!

— إنها جريمة أتمنى أن أرتكبها!

— إنك ارتكبتها فعلا!

— من قال هذا؟

— قسمت شاهين نفسها.

— لا ألومها على أنها قالت ذلك فقد اتفقنا على أن نقول ذلك!

— اتفقنا على ماذا؟

— على أن ادعى أنني عشيقها ووالد الجنين الذى فى بطنها!

ولقد قبلت أن أقوم بدورى فى المسرحية.... ولكن الشئ الوحيد الذى لم نتفق عليه، هو أن يقتلوني بالرصاص فى نهاية المسرحية.

— كيف تتصور أنني ساذج. حتى أصدق ما تقول؟

— إنك تجيد الانجليزية كما أرى. إن على المائدة ملفا مكتوبا عليه صور

التقارير الطبية... يمكنك أن تقراها بنفسك، لتعرف إذا كان في إمكانى أن أكون عاشقا ووالدا لهذا الجنين.

واتجه عادل إلى المائدة، ولا يزال شاهرا مسدسه، وفتح الملف وقلب في التقارير الطبية، وانفجرت أساريره..

– لاحظ الضابط الانجليزى الفرحة في وجه عادل فقال له :

– يبدو أنك سعيد بشقائى !

– إننى سعيد ببراءة المرأة التى أحبها !

– لقد شعرت من مناقشتك العنيفة معها في سهرة جمعية ملجأ المتشردين أنك تحبها.. وأنها تعبدك !

– ومع ذلك تركتنى أتعذب !

– كنت أنفذ شروط الاتفاق.

– لقد نفذته فعلا بكل أمانة، حتى إننى قررت أن اقتلك رميا بالرصاص !

– لو أنك قتلتنى لأرحتنى مما أنا فيه !

– إننى قرأت في صباح اليوم أن طبيبا امريكيا أجرى جراحات في مستشفى كلينيك، لبعض الذين أصيبوا في المعارك بمثل حالتك، واستطاع ان يعيد اليهم ما فقدوه !

– هذا أسعد نبا أسمعه في حياتى !

– انه منشور في جريدة « الاجبشيان جازيت » اليوم

– ونظر الضابط البريطانى حوله يبحث عن جريدة « الجازيت » ووجدها

ملقاة بجوار الفراش فأسرع يلتقطها، وتطلع في لهفة إلى الصفحة الأولى.
وانتزع عادل منه الجريدة، وأشار إلى خبر منشور في الصفحة الأولى.

وقرا جاك الخبر المنشور بصوت عال ثم صاح :

— هذه حالتى بالضبط! هذه حالتى بالضبط!

واحتضن جاك الجريدة في صدره، وبدأ يرقص ويدور في الغرفة وهو
يصيح :

سأصبح رجلا ! سأصبح رجلا !

ثم توقف ونظر إلى عادل في امتنان وقال له :

لا أعرف كيف أشكرك ! إننى مستعد أن أفعل من أجلك الآن أى شىء
تطلبه منى

ووضع عادل المسدس في وسطه وهو يضحك وقال :

— أريد منك أن تتحدث تليفونيا مع قسمت الآن !

— وأبلغها الخبر المنشور في « الجازيت » ؟

— لا.. ستبلغها الخبر بطريقة أخرى.

ماذا أقول لها !

— تقول لها إن الأطباء فحصوك اليوم، واكتشفوا أنهم أخطأوا في
تشخيصهم، وأنهم اكتشفوا أنك مازلت رجلا، وتستطيع أن تزاول حياتك
العادية منذ الآن !

— أنا لا أستطيع أن أكذب عليها !

– قلت لى الآن إنك مستعد أن تفعل من أجلى أى شىء أطلبه منك
– نعم قلت ذلك.

– إذن كرجل شريف، عليك أن تنفذ إتفاقتك معى، كما نفذت إتفاقتك مع
قسمت.

– أنا مستعد أن أفعل كل ما تطلب منى!

– وتقول لها إنك تريد أن تراها فوراً!

وأمسك عادل بسماعة التليفون وطلب من عاملة التليفون رقم قسمت
شاهين فى مكتب جمعية ملجأ المتسولين..

وما كاد يسمع صوت قسمت حتى أسرع وأعطى سماعة التليفون إلى
جاك، ووضع أذنه على السماعة ليستمع إلى الحديث!

وقال جاك:

– إن عندى خبراً ساراً جداً!

– انتهت الحرب؟

– أهم من نهاية الحرب.. إنها بداية العالم! الأطباء كشفوا على اليوم فى
مستشفى حلوان العسكرى واكتشفوا أنهم أخطأوا التشخيص، وأننى ممكن
أن أزاوّل حياتى العادية. يمكننى أن أحب.. يمكننى أن أتزوج.. لقد
أصبحت رجلاً!

– أنا سعيدة بأن أسمع هذا النبأ.

– إننى أريد أن أراك فوراً:

– أرجوك الا تتصل بى بعد الآن !

– ترفضين لقائى ؟

– لقد عرفتك بصفة معينة.. وما دامت انتهت هذه الصفة فلا أستطيع
أن أعرفك.. الوداع !

ووضعت قسمت سماعة التليفون بعنف !

وقهقه عادل بصوت عال. والتفت إليه جاك مدهوشا وقال :

– هل غضبت لأننى أصبحت رجلا :

– لأنها فقدت دليل براءتها.

– هل عجزى هو دليل براءتها ؟

– إنها تعتقد ذلك.. إنها أرادت أن تعذبنى باختلاق قصة حملها منك،
وكانت تريد أن تمضى مدة فى تعذيبى ثم تجيء لى بعد ذلك ومعها الدليل على
براءتها، وهو أنك عاجز جنسيا. وتوقعت أنها ستسخر منى لأننى صدقت
أكذوبتها.. ولكنها الآن بعد أن عرفت أن الأطباء اكتشفوا أنهم أخطأوا
التشخيص، أصبحت أنت دليلا ضدها بعد أن كنت دليلا معها !

– إن طريقته فى الغزل غريبة أيها العشاق المصريون.. إنكم تطلقون
الرصاص بدلا من تبادل القبلات !

– هل كنت تظن أننى سأقتلك بمسدسى ؟

– اعتقدت ذلك فى لحظات..

– خذ مسدسى.. ستجده خاليا من الرصاص !

– لقد كنت من ساعة واحدة أتصور أننى سوف أعيش حياتى مسدسا خاليا من الرصاص !

– ومع ذلك استطعت أنت بهذا المسدس أن تقتلنى من الغيرة عدة أيام !

– عندما أجرى الجراحة التى تحدثت عنها جريدة « الجازيت » فلن أصبح مسدسا مليئا بالرصاص.. بل ساتحول إلى مدفع رشاش !

– هذا شىء يسعدنى جدا.. مادمت ستطلق هذا المدفع فى بلادك !

– سأعود إلى خطيبتى ديانا سيث !

– وأنا سأعود الآن إلى قسمت شاهين.

– إننى فى عجب من نساءكم !.. لقد عانقتنى قسمت وأنا جثة.. ورفضت أن تلقانى وأنا رجل !

– إن المرأة المصرية تضعف دائما أمام الاموات !

– وهل تهلك الأميرة فضيلة ؟

– لا تهمنى !

– أعتقد أنها لاتعرف قصتى !

– إنها لا تعرف شيئا !

– إن زوجها معروف باشا دعانى لتناول العشاء معها فى قصرها بالجزيرة !

– يسعدنى أن تذهب إليها !

– ولكنى لاحظ أن لها نوايا عدوانية.

– يمكنك أن تؤجل الحب إلى ما بعد إجراء العملية !

– مثل هذه المرأة لا تنتظر !

– إذن ليس أمامك إلا الهرب !

– سوف يكون في هربي إساءة لسمعة الجيش البريطاني !

كان عادل سعيداً بالمقلب الذي دبره لقسمت سعادته ببراءتها !

عادت إليه الروح عندما تأكد أنها إختلقت قصة هواها بالضابط الانجليزى، وقصة الجنين المزعوم الذى فى بطنها. ولكنه كان مغيظاً لأنها استطاعت أن تعبت به بكذبتها، أن تجعله يتقلب عدة أيام فوق شوك عصف بعد ذلك أنه كان ورداً. إن الحب نوع من أنواع الجنون. ولكنه لم يتصور أن تجن المرأة العاقلة كل هذا الجنون لغيظه وتكيد له، أن تشوه صورتها الجميلة لتؤلمه. أن تلوث سمعتها لتذيقه من كأس الغيرة التى شربتها قبله..

واستراح عندما أحس بأن حديث الضابط التليفونى معها أتعبها ! إنه يتصورها الآن حائرة ماذا تفعل. لقد أنقلب السحر على الساحر. الضابط الانجليزى الذى كان فى يدها أصبح فى يده هو. فضح مؤامراتها واشترك مع عادل فى مؤامرة جديدة ضدها ! الانجليز ليس لهم صداقات دائمة ولا عداوات دائمة، وإنما لهم مصالح دائمة !

وأحس عادل بالولد الشقى فيه يطل منه. إنه يريد أن يمضى فى العيب بقسمت كما عيبت به. وشعر برغبة أن يتفرج عليها فى حالتها الجديدة، وقرر أن يذهب إليها فى مكتبها بمقر جمعية الشحاذين.

وفوجئت به أمامها !

لقد كانت تتمنى أن تراه في كل وقت إلا في هذه الساعة التي أكتشفت فيها أن الضابط البريطاني الذي يمثل دور الرجل أصبح رجلا فعلا !

تمالكت قسمت نفسها وحاولت أن تبتسم ابتسامة تخفى بها مفاجأتها
فقالت :

– ما الذي جاء بك.

– جئت أعتذر!

– تعتذر عن أى شيء !

– أعتذر عن كل شيء :

ليس بينى وبينك أعذار!

– لقد كنت وقحا معك في سهرة شبرد . قلت كلاما ندمت عليه، لم أذق
طعم النوم منذ تلك الليلة.

– إنك لم تشتمنى.. إنما شتمت زينب البكرى!

– وأنا أعتذر عما قلته عن زينب البكرى!

– إنها أول مرة أراك لا تثبث برأيك!

– لم يكن هذا رأيا.. كان حماقة!

– هل جئت لتقول لى هذا!

– جئت لأقول لك أشياء كثيرة.

- ماهى؟
- إننى أريد أن أتزوجك!
- والجنين الذى فى بطنى؟
- سوف أتبناه!
- لماذا تقدم على هذه التضحية!
- إنها ليست تضحية.. إنها نداء قلبى!
- وهل سامحتنى على جريمتى مع الضابط الانجليزى!
- إنها ليست جريمتك.. إنها جريمتى!
- أنت تتحدث لغة غريبة!
- أنها لغة الحب عندما يصل إلى أقصاه! أصوات الواقفين على القمة لا يفهمها الذين يقفون عند السفح!
- كنت أتصور أن العاشق يغفر لكل انسان.. إلا لمن يحبه!
- جرح الحبيب يؤلم أكثر من جرح العدو ولكنه يشفى بأسرع من جرح العدو!
- هل تعتقد أننى قصدت أن أجرحك؟
- بعض العشاق يكتبون رسائلهم الغرامية بالقلم، وبعضهم يكتبونها بالخنجر!
- إنها أول مرة أراك تستسلم بلا مقاومة!
- فى العشق يصبح الاستسلام أعظم انتصار!

- وماذا أفعل بجاك ستيوارت؟
- إنها مشكلة فعلا!
- هل تعرف أنه يحبني!
- أعرف أنه يعبدك.
- ولهذا لن يتخلى عني بسهولة!
- لقد فكرت أن أدعوه للمبارزة فيما أن يقتلني ويأخذك.. أو أقتله وأخذك!
- هل جننت يا عادل.. إنك تعود بنا إلى القرون الوسطى!
- إن مصر لا تحتملني وتحتمله في وقت واحد. يجب أن أبارزه!
- أنت نسيت أنه ضابط وأنت مدني. إنه يستطيع أن يقتلك بسهولة!
- إنني عضو في نادي السلاح. وأجيد لعبة الشيش!
- دعني أقنعه!
- إنني سأذهب إليه بنفسى!
- أرجو ألا تذهب!
- تخشين أن أقتله!
- لا.. أخشى أن يقتلك هو!
- إنني أرحب أن أموت من أجلك!
- لماذا لم تقل لي قبل اليوم إنك تحبني كل هذا الحب!

– لم تتركى لى فرصة !

– إن تصرفك هذا يخجلنى ما أعظم موقفك منى . وما أحقر موقفى منك .
أنت أخطأت ولم أسامحك . وأنا أخطأت وغفرت لى !

– لأننى أحبك أكثر مما تحبيننى

– وهل ستحب الجنين الذى فى بطنى ؟

– سأحبه كأنه ابنى !

– وهل تريدنى أن أقطع علاقتى بجاك !

– على العكس.. اريد أن تستمرى فى لقائه . لايهمنى إذا قابلته على
انفراد بغير وجودى !

– عجباً أنها المرة الاولى فى حياتى التى أراك لا تغار على !

– إن ثقى بك لا حد لها !

– لقد قلت لك فى أول علاقتنا إننى أريد أن تستمر فى علاقتك مع الاميرة
فضيلة، وكنت أتلقى من الألم والعذاب والغيرة !

– أما أنا فقد وصل حبنى لك وثقتى فبك إلى درجة أننى لا أخاف عليك
من أى رجل آخر .. لأننى أعرف أنه لا يمكن لرجل آخر أن يحبك كما أحبك
أنا !

– أنت تريد أن تقول لى الآن، أننى عندما غضبت عليك من أجل الولد
الذى رزقت به من الاميرة فضيلة، لم أكن أحبك حبا كاملا !

– إن الحب درجات .. والمحبة يتصور فى كل درجة أنها الدرجة العليا، ثم

يفاجأ بأن هناك درجة أعلى !

– كانت أمنيى دائما أن أحبك أكثر مما أحببتنى !

– إننى سبقتك فى الصعود إلى درجات الحب !

– وما هى أعلى درجات الحب

– عندما يشعر المحب أن ذنوب حبيبته هى ذنوبه، وأن خطاياها هى خطاياها. عندما تخطئ فيعاقب نفسه، عندما ترتكب الحماقات فيتصور أنه المسئول عنها !

– أنت بكلامك هذا تجعلنى أعبدك من جديد !

– بعد ٢٤ ساعة سوف تنسين أنك تعبدتنى !

– لا تظلمنى يا عادل !

– سوف تعودين تغارين من ابن الأميرة فضيلة !

– لا.. لن أغار منه بعيد اليوم !

– وسوف تقيمين الدنيا وتقعدينها إذا رأيتنى أصفح الأميرة فضيلة أو أى امرأة جميلة !

– أعدك بأننى سوف أثق بك ثقة عمياء. بعد أن وثقت بى ثقة عمياء !

– أنت امرأة عظيمة !

– اذن أنت سامحتنى على الجنين الذى فى بطنى !

– من كل قلبى !

- وغفرت لى حبنى لجاك ستيوارت !
- ونسيت كل شىء عنه !
- اذن أريد أن اعترف لك !
- لا أريد أن أسمع منك أى اعتراف !
- أريد أن أقول لك كل شىء
- لقد أحببتك كامرأة خاطئة ولا أريد أن أسمع كلمة عن هذا الموضوع بعد الآن !
- أريد أن أقول لك الحقيقة !
- لا أريد أن أسمع الحقيقة !
- سوف تحبنى أكثر إذا عرفت الحقيقة !
- لا يمكن أن أحبك أكثر مما أحبك الآن يا حبيبتي !
- حتى ولو عرفت الحقيقة !
- حتى ولو عرفت الحقيقة !
- ولكنى أؤكد لك أن الحقيقة جميلة أجمل من الخيال !
- ليس دائما ! إن الحقيقة شىء غير ثابت. حقيقة اليوم قد تصبح أكذوبة الغد، وأكذوبة اليوم قد تصبح حقيقة الغد !
- كأنك تفضل أن تحبنى كما تتخيلنى، لا كما أنا فى الحقيقة !
- أحبك كما خلقتك !

– مع أخطائي !

– إننى خلقتك انسانا ولم أخلقك ألها!..

– ولو أثبت أننى اله !

– سوف أشعر بحرج أن أعيش مع اله فى مكان واحد !

– ولو عرفت أننى بريئة !

ستحرميننى من لذة كبيرة.. لذة العفو!

– صدقت يا عادل ! إن اللذة العفونشوة غريبة ! إننى أشعر الآن بسعادة
لا حد لها. سعادة لم أشعر بها فى حياتى، لأنك عفوت عنى.. ولأننى عفوت
عنك ؟

– لو عرف الظالمون لذة العفو لكرهوا أن يكونوا ظالمين ؟

الفصل السابع والثلاثون

فوجئت قسمت وهى تقرأ فى صحف الصباح نبأ أزعجها.. قالت الصحف إن محكمة الجنايات حددت يوم أول أكتوبر لمحاكمة عم عبده أمام السدائرة الأولى.

نزل عليها الخبر كالصاعقة.. إن الأستاذ مكرم عبيد المحامى هو الذى درس القضية، وهو الذى يهتم بها اهتماما شخسيا، وهو الذى اعتاد دائما أن يطمئنها بأنه قادر على أن ينتزع البراءة لعم عبده..

ولكن الأستاذ مكرم مقبوض عليه ! فقد أصدر الحاكم العسكرى أمرا بالقبض عليه بسبب الكتاب الاسود الذى ملأه بالمطاعن ضد الحكومة. وبسبب حالته الصحية نقل إلى المستشفى الايطالى بالعباسية.. وسمحت له الحكومة بأن يصحب زوجته وكلبه إلى المستشفى، ولكنها منعتهم من استقبال الزائرين.

وذهبت قسمت إلى مكتبه، وقابلت الأستاذ سيد سليم المحامى وعرفت منه أن مكرم لم يكتب أى مذكرات عن القضية قبل القبض عليه.. كان يعتمد دائما على ذاكرته العجيبة. فهو يحفظ الأحداث وأرقام الصفحات والأدلة فى رأسه، وتخرج من شفتيه أمام المحكمة، وكأنه يستخرجها من أرشيف مرتب يعمل فيه عدد كبير من الموظفين !

وسألت الأستاذ محمد على علوية باشا المحامى، فقال لها إنه قرأ قضية عم عبده، وأن أخطر ما فيها هو شهادة الراقصة نشوى عبده شاهدة الاثبات. إنها أدلت ضد عم عبده بأقوال محددة دقيقة. وقد حاول كثيرا أن يجد فى هذه الشهادة منفذا يدخل منه ليفند أقوالها فلم يجد. إن أقوالها فى التحقيق ليست شهادة شاهدة وإنما حيثيات حكم ضد عم عبده تقنع أى محكمة، حتى ولو كانت محكمة النقض والابرام!

وامتعضت قسمت من رأى الذى أبداه المحامى الكبير وقالت :

— ولكنها شاهدة زور!

— إنها تبدو على الورق شاهدة تقول الحق ولا شىء إلا الحق!

— إننى واثقة أن القسم السياسى هو الذى كتب لها الشهادة.

— لا أتصور أن بين ضباط القسم السياسى من له مثل هذه العقلية القانونية.

— إنهم يستطيعون أن يستأجروا كفاءات قانونية، ويستخدموا خبراء فى القانون ليجعلوا من شهادة الزور شهادة صدق وحق!

— لو كانوا فعلوا هذا فإنهم نجحوا فى مؤامرتهم. إن الورق معهم

— والحقيقة معنا!

— للأسف، إن القضاة يعتمدون على الورق!

— وماذا سوف تفعل؟

— ليس أمامى إلا أن أناقش الراقصة نشوى أثناء الادلاء بشهادتها أمام المحكمة.

– وتظهر كذبها وزورها؟

– أخشى ألا يكون هذا سهلاً، إن إجاباتها في التحقيق تدل على أنها امرأة حادة الذكاء، سريعة الخاطر، عندها دائماً جواب لكل سؤال!

– ممكن أن تكشف تناقضها!

– العجيب أنها أدلت بأقوالها في عشر صفحات. وليس في كل أقوالها جملة واحدة تناقض أقوالها الأخرى.. إنها مؤلفة قصصية بارعة. في روايتها حبكة غريبة وكأنها أستاذة في فن الكذب!

– إن الكذب هو رأس مالها لقد رأيتها في بيتها ورأيت كيف تستطيع أن تكذب على عشرة رجال في وقت واحد، وتوهم كل واحد منهم أنه حبيبها الوحيد!

– كنت أتصور أن الممثلة هي التي تستطيع أن تفعل ذلك.. لا الراقصة!

– الراقصة هي ممثلة! ولكنها لا تمثل بوجهها فقط، إنها تمثل بكل عضو من أعضاء جسدها!

من حسن الحظ أنها لن تدلى بشهادتها أمام المحكمة وهي عارية من ثيابها!

– أعتقد أن أقوالها في التحقيق ليست أقوالها هي. إنما أقوال عشيقها الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى الضابط في القسم السياسى، والمتخصص في تليفق القضايا.

– هل يمكنك أن تحصلى على اثباتات كافية عن هذه الصلة؟

– سوف أحاول!

— لو حصلنا على هذا الاثبات لأمكننا تجريح شهادتها!

— وإذا لم نحصل على هذا الاثبات؟

— سوف نخسر القضية!

وخرجت قسمت من مكتب الأستاذ محمد على علوية منكسة الرأس. إن محاميا من أعظم المحامين المصريين يقف عاجزا أمام شهادة زور! ما أتعس الأبرياء عندما يصبح الزور هو السلطان وتصبح الحقيقة هي الأسيرة المهينة الجناح!

وفكرت أن تذهب إلى عم عبده ومضت تقنود سيارتها إلى سجن الاستئناف، ولكنها لم تلبث أن عادت أدراجها. ماذا يستطيع عم عبده في زنزانته أن يفعل؟ كل ما سوف يحدث أنها ستضاعف الهموم التي فوق رأسه.

وقررت أن تذهب إلى عادل علاء الدين. فعندما تحب المرأة تتصور أن الرجل الذي تحبه هو اله، أقوى من البشر جميعا. قادر على أن يفعل وحده ما يعجز عنه جميع الناس. هو طبيبها إذا مرضت. وهو درعها إذا صوبت إليها السهام وهو المظلة التي تحتوى تحتها إذا سقطت الأمطار. وهو المنقذ إذا غرقت. وهو الحكيم إذا واجهت مشاكل بلا حلول!

وقصت عليه ما جرى بينها وبين محمد على علوية باشا المحامى ثم قالت في عصبية:

— أخشى أن علوية باشا لم يقرأ القضية جيدا!

- إن علوبة باشا يقرأ قضاياه كأنه قاض !
- معنى ذلك أنه يتوقع الحكم على عم عبده.
- أعتقد ذلك.. إلا إذا أثبتنا كذب الراقصة نشوى !
- ولكن من السهل أن يناقشها محام ذكى أمام المحكمة، ويثبت كذبها؟
- ليس هذا سهلاً !
- ما هي صعوبته؟
- نشوى امرأة ذكية جداً.
- أذكى من أكبر المحامين في مصر!
- إنها أخبرت منهم جميعاً !
- ولكنها امرأة جاهلة، غير متعلمة. لقد قال لى عم عبده إنها كانت خادمة ولم تدخل مدرسة.
- المرأة تتعلم خارج المدرسة أكثر مما تتعلم داخل المدرسة !
- تقصد أنها تتعلم كيف تكذب؟
- الكذب هو أحد أسلحتها ! وعندما تعمل في الوسط الفنى يصبح الكذب هو كل أسلحتها ! الفنانة يجب أن تكذب على عشاقها لتحافظ بحبهم، وتكذب على جماهيرها لتنال إعجابهم، وتكذب على النقاد ليشيدوا بها في صحفهم . إن الفن أحد فروع الكذب. كلما استطاعت المطربة أن تتأوه من عذاب الحب وهي سعيدة في حبها اشتد تصفيق السامعين وإعجابهم. كلما استطاعت الممثلة أن تبدو فتاة مراهقة وهي في سن الأربعين، دل ذلك

على تمكّنها من فنّها ! كلّ شيء على المسرح هو أدوات الكذب ! مناظر من ورق توهمك أنّها بيوت من حجر ! أنوار كشافة ملونة تظهر مفاصل غير موجودة، وتخفي تجاعيد موجودة ! الشعور المستعارة ! تيجان من صفيح توهم المشاهدين أنّها تيجان من ذهب وماس ! وكلما استطاع الفنان أن يقنع المتفرج بالكذبة التي يقولها، دل ذلك على نجاحه وتألقه !

— ولكن الجماهير تعرف أن الفنان يمثل !

— كثيرا ما ننسى أنه يمثل..

— أظن أن نشوى سوف تفعل هذا في المحكمة ؟

— من المؤكد أنّها سوف تفعله.

— ويقتنع القضاة.

— القضاة بشر.. يجلسون فوق مقاعد عالية !

— ليروا الحقيقة ؟

— الحقيقة دائما قصيرة القامة.. وكثيرا ما لا يراها القضاة من مقاعدهم المرتفعة !

— ولكن، ماذا سوف تستفيد نشوى من إدخال رجل بريء إلى السجن ؟

— إنها تؤدي دورا تتقاضى ثمنه !

— إنني على استعداد أن أدفع لها ثمنا أكبر لتقول الحقيقة !

— ولكننا لا نعرف الثمن الذي تقاضته !

— سوف أذهب إليها وأحاول أن أعرف الثمن !

– أحب أن أنبهك أننى عرفت نشوى فى يوم من الأيام.. وعرفت أنها امرأة تبىع الأشياء الرخيصة بأثمان غالية ! وتبىع الأشياء الغالية بثمان رخيص !

– ولكنها تبىع هذه المرة رجلا !

– تبىع عم عبده وتشتري بثمانه رجلا !

– إنها تشتري الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى !

– صناعتها بىع اللحوم .

– ولكنها فى هذه المرة تبىعه بالجملة !

– يجب أن نمنع هذه الصفقة يا عادل .

– لا يمكن منع هذه الصفقة إلا إذا بحثنا عن صفقة أخرى تحل محلها !

– إنى مستعدة أن أعطيها كل ما أملك لتقول الحقيقة.. أنت وحدك يا عادل الذى يمكنك أن تذهب إليها وتساومها !

– بسبب خبرتى فى التجارة !

– بسبب خبرتك فى النساء !

– خبرتى فى النساء تقول إن الغانية تبىع للمرأة بثمان أرخص كثيرا مما تبىع للرجل !

– لأن المرأة بطبيعتها زبونة متعبة !

– لأن الغانية عندما تبىع أى شىء لرجل، تضيف إلى الفاتورة ثمن ابتسامتها !

— وهكذا تدفعون صاغرين!

— المحال التجارية الكبرى تضع بائعات في الأقسام التي تباع للرجال!

— لأنهم يدققون في وجوه البائعات أكثر مما يدققون في جودة البضاعة!

— ولهذا أفضل أن تذهبي أنت إلى نشوى.

— هل تخشى أن تحاول تجديد علاقتها بك!

— إنها قادرة على أن تحاول كل شيء.

— إذن سأذهب أنا!

— ها أنت لا تثقين بي مرة أخرى!

— إنى أثق بك.. ولا أثق بها!

— تخافين أن أقع تحت تأثيرها!

— منذ أن وقعت تحت تأثيري أصبحت أخشى أن تفعل بك أي امرأة

ما فعلت بك!

— أنت مصرة على أنك أنت التي أوقعتنى تحت تأثيرك!

— لو تركتك لشأنك لبقيت أنا الآنسة قسمت، ولما بقيت الآنسة كاف

ابدا.

— إنك نسيت أنني اشترطت لكي أراك أن تخلعي النظارة! وأنت امرأة

ذكية فهمت على الفور أنني أريد منك كل شيء من اللحظة الأولى!

— إنك قلت هذا لتعجزني! لتجبرني على الفرار منك! كنت واثقا ألف في

المائة إننى سأرفض شروطك، فتقدمت بهذا الشرط المعجز لكي أهرب منك!

لكى تتخلص من هذه العاشقة الدميمة ! إنك نسيت أننى أنا التى جئت
بقدمى إلى شقتك !

– كأنك تجرديننى من أى فضل فى علاقتنا الحلوة ! أنت التى أغريتنى !

– فضلك الوحيد.. أنك لم تصرخ، ولم تستنجد بالبوليس !

– إن رءوس النساء ضعيفة الذاكرة !

– أنت مصر على أن يكون لك فضل فى علاقتنا !

– لا أريد أن تحرمينى من شرف المساهمة فى صنع أجمل ما حدث فى
حياتى !

– سأعترف لك بالفضل !

– كنت على ثقة أنك ستعودين للحق !

– فضلك.. هو أنك لم تقاومنى.. استسلمت لى على الفور.

– إن هوايتك أن تعكسى الأدوار ! لذتك الكبرى أن تتصرفى معى
كما يتصرف الرجل مع المرأة !

– إننى أنشد المساواة !

– ولكن هذه ليست مساواة، المساواة عندك أن يكون لك حقوق الرجل،
وأن يصبح الرجل الذى تحبين « الحريم » !

– إننى أجد نشوة حقيقية فى أن أعاملك معاملة تختلف عن معاملة كل
النساء فى حياتك ! فى الماضى كنت تجرى وراء المرأة، ولكننى الآن أريد أن
أجرى وراءك ! لذتى فى أن أطاردك، أن أغازلك، أن أغريك.. ألم تلاحظ أننى

أحب أن أجذك دائما في انتظاري ! لم يحدث مرة واحدة أن أنتظرتك ! لماذا ؟
لأننى أجد كل نشوتى فى أن أشعر أننى أفعل بك، ما كنت تفعله أنت بباقى
النساء .

– شعورك هذا شعور غريب . يدهشنى، يذهلنى ويثيرنى فى الوقت نفسه !
ولكن ممكن أن تشعر به امرأة مسترجلة، ولا أفهم أن تشعر به امرأة كلها
أنوثة مثلك .

– إننى أحب أن أكون الوحش . أن أكون الذئب وتكون أنت الحمل
الوديع !

– فى بعض الأحيان يخیل إلى أنك درست ما يفعله ذئب النساء مع
المرأة التى يغويها، وتحاولين أن تفعلنى معى نفس الشئ ! المرأة تعجب
كثيرا بالرجل صاحب التجارب، الذى يظهر لها الاهتمام الدائم . إذا وضعت
سيجارة فى فمها كان أسرع الجالسين إلى إشعالها، وإذا قدمت إلى الغرفة
تنازل لها عن مقعده . وإذا أرادت أن تخرج هرع يساعدها فى ارتداء
معطفها . وإذا قالت أى كلام فارغ تظاهر أنه يسمع الدرر . وهذا هو نفس
ما تفعلينه معى ! تصرين على أن تتركى مقعدك لى، تصرين على أن تشعلنى
لى سيجارتى، تصرين على أن تحملنى معطفى وتساعدينى على ارتدائه حين
خروجى معك، وتصرين على أن تجردينى حتى من كل شئ !!

– هل تكره ما أفعله ؟

– إننى أعبدہ ولكنه يذهلنى !

– أريد أن أكون مختلفة عن كل امرأة عرفتہا !

– أنت مختلفة عنهن كل الاختلاف ولكنك امرأة !

– أنا امرأة تعيش للحب.. وتفهم الحب كما لم تفهمه أى امرأة أخرى؟..
الحب ليس علاقة انسان قوى بانسانة ضعيفة. إنه ذوبان كامل بين رجل وامرأة. يفقد الرجل ارادته ويفقد المرأة ارادتها. يندمجان فى شىء جديد. يختلفان كل الاختلاف عما كانا قبل الحب. لا يكفى أن يندمج أحدهما مع الآخر ويفنى فيه. لا بد أن يحدث التفاعل الكيماوى فى الرجل والمرأة فى وقت واحد. فإذا أصبحت المرأة صورة من الرجل قبل أن يحبها فمعنى ذلك أنه لم يحبها الحب الكافى. إنها تفاعلت فى المادة الكيماوية وذابت بينما هو احتفظ بخصائصه. الحب الكامل هو الذى يصنع منا مخلوقين جديدين، يصهرنا صهرا كاملا، يخلق فينا صفات جديدة لم تكن لنا. فإذا كان من طبيعتنا التردد أصبح من طبيعتنا الاقدام. وإذا كان من صفاتنا التعقل أصبح أبرز صفاتنا الجنون وإذا كنا معروفين بالحياء أصبحنا مشهورين بقلّة الحياء! لا بد أن يحدث تغيير هائل فى داخلنا. أشياء كثيرة تتبدل فينا أشياء تختفى وأشياء تظهر.. منذ أحببتك لم أعد قسمت.. وإنما أصبحت الأنسة كاف؟.. وقسمت القديمة تبدو امرأة أخرى لا تشبهنى أبدا. أكرها وتكرهنى، انكرها وتنكرنى، احتقرها وتستقرنى! أنا اسميها «مغفلة» وهى تسمينى «مستهترة» أنا اعتبرها جاهلة حمقاء وهى تعتبرنى طائشة مجنونة!

– ولكنى أنا لم اتغير!

– إنك تغيرت أكثر منى! كنت تعشق نساء الدنيا وأصبحت تعشق امرأة واحدة!

– إننى أعشق نساء الدنيا فى امرأة واحدة!

– كنت تحب أن تبدل فى أصناف الطعام.. والآن تحب صنفا واحدا من الطعام!

– لأننى أجد فيه ألف صنف

– إننى سددت شهيتك التى لا تشبع!

– إنك فتحت شهيتى أكثر مما كانت!

– إذن تغيرت!

– نعم تغيرت.. ولكن الشئ الغريب أننى أشعر أنك قتلت الأنسة
قسمت، وأنا الذى ورثتها!

– أصبحت أنت الأنسة قسمت!

– أصبحت الأستاذ قسمت! أصبحت أحب العزلة كما كنت تحبينها!
أصبحت لأول مرة فى حياتى أجد لذة فى أن أجلس وحدى أصبحت أكره كل
الرجال! تماما كما كنت أنت فى الماضى عدوة كل الرجال!

– هذا خبر جديد!

– سعادتى الآن أن أجلس معك وحدنا! أصبحت لا أطيق الذهاب إلى
السهرات، أصبحت أكره تناول الطعام فى الفنادق الكبرى، أصبحت أكره أن
أرقص مع كل امرأة جميلة!

– وأصبحت تغار!

– هذه هى المصيبة الكبرى

– ألم يحدث لك من قبل أن أصبت بحمى الغيرة!

– قبل أن أحبك كنت محصنا ضدها!

– كأنك لم تذق الحب!

لم يكن لدى وقت للغيرة !

– ألم تكن تغار من أزواج عشيقاتك ؟

– على العكس.. كنت أحبهم !

– تحبهم ؟

– أحبهم، وأشفق عليهم، وأدافع عنهم أمام عشيقاتي، كنت أشعر أنني أقوى منهم، والقوى لا يغار ممن هو أضعف منه. المليونير لا يغار من الشحاذ، وإنما يغار من مليونير أكثر منه ثروة ! الشاب لا يغار من الشيخ، وإنما يغار من شاب أصغر منه وأقوى منه. الغيرة هي مركب نقص !

– كان نابليون العظيم يغار على جوزفين من ضابط صغير اسمه الملازم شارل !

– لأن نابليون كان وحده في إيطاليا.. والضابط الشاب مع جوزفين في باريس.. القائد العظيم ممكن أن يشعر بالغيرة إذا كان منافسه يمتاز عليه بالقرب من المرأة التي يحبها.. تتحول المسافة إلى نوع من الامتياز !

– وماذا حدث لك الآن !

– أصبحت أغار عليك من كل شيء.. كان الحب الجارف جعلنى اتضاءل أمام نفسى، وأحس بأن كل رجل آخر أطول قامة منى ! كل رجل آخر أجمل منى ! كل رجل آخر أكثر شبابا منى ! كل رجل آخر يمكن أن يأخذك منى ! أصبحت أغار عليك من الخادم العجوز الذى يقدم لك افطارك فى الصباح ! أغار عليك من جمعية ملجأ المتسولين

– وتغار من عم عبده أيضا ؟

– نعم أغار منه ! أحبه وأغار منه ! أشعر أنه يشاركنى فى قلبك ! أحس بأنانية عجيبة لم أحس بها فى يوم واحد فى حياتى ! أصبحت أريد أن تكونى كلك لى، كل وقتك لى كل أفكارك لى !

– أنت تنسى أن عم عبده هو الذى انقذنى ! هو الذى ضحى بحريته من أجل أن يستبقى لى حريتى .. هو الذى ادعى أنه صاحب المنشور الذى ضبط فى مكتبى !

– أعرف ذلك، وهذا ما يجعلنى أغار منه أكثر !

– تغار منه لأنه ضحى من أجلى !

– لأننى شعرت أنه أنبل منى .. لقد فعل من أجلك الشيء الذى يجب أن أفعله أنا من أجلك، ولهذا أغار من نبلة ! أشعر أنه بعمله هذا انتزع من قلبك جزءا كان يجب أن يبقى لى وحدى !

– ولهذا السبب لا تتحمس للذهاب إلى الراقصة نشوى.

– إننى مستعد أن أذهب إليها .. ولكنى قلت لك إنك أقدر منى على أن تنجحى فى هذه المهمة أكثر منى.

– إذن تعال معى !

– سوف تضعف قدرتك على المساومة بوجودى .. يمكنك أن تقولى لها أننى أنا الذى كلفتك بهذه المهمة إذا لم تستطيعى أن تتولى اقناعها بنفسك

* * *

عجبت قسمت من حديث عادل معها. لقد أحبته وهو رجل قوى رجل

تخافه، رجل تحسب له ألف حساب، رجل تخشى أن يفلت منها في أى لحظة، ويعود كما كان زئير النساء من جديد.

كانت تحس دائماً أنها تحت سيطرته تحس بين ذراعيه القويتين، بأنها مخلوقة ضعيفة مستسلمة. تجد أحياناً لذة لا حد لها في قسوته وهو يضمها إلى صدره، في عنفه وهو يلتمها بشفتيه. متعتها الكبرى في أن تتضائل فيه وتذوب. تحبس في ضعفها بجواره برعشة مثيرة، رعشة فيها كهرباء، فيها لسعة لذيدة، فيها رهبة ممزوجة بنشوة

كان يبدو لها أن عادل ليس حبيبها فقط، إنه أبوها الحقيقي. اسم والدها شاهين باشا عبد اللطيف المكتوب في شهادة ميلادها، حبر على ورق. ولكن اسم أبيها الحقيقي هو عادل علاء الدين المكتوب في قلبها إنها تحس معه بنفس ما تحسه الطفلة مع أبيها، عندما تتصور أنه قادر أن يفعل كل شيء، عندما تتوهم أنه عملاق قوى. إنه إله يصنع معجزات، إنه فوق أخطاء البشر إنها لا تخاف أباهما شاهين باشا كما تخاف عادل، لأنها تشعر إن عادل هو الذى خلقها، هو الذى جعلها الأنسة كاف، امرأة مصنوعة من الحب!

ولهذا عجبت عندما قال لها عادل إنه أصبح يغار عليها! الرجل الوحيد الذى تجد فيه الأمان خائف! إنه أصبح مثلها، يريد أن يكون كل شيء فيها له وحده.. يتخيل لصوصاً يسرقون منه ما يمتلك! الجمعية تسرق منه بعض المرأة التى يحبها. عم عبده يسرق منه بعض الوقت الذى من حقه وحده، إنه مثلها يريد أن يكون كل حياتها، كل أفكارها، كل اهتمامها!

إنها في أوقات تمنى لو كان عادل عاطلاً! لم يكن المدير العام لشركة الهندسة الكهربائية. لم يكن المهندس الاستشارى العالمى. كانت تريد أن تكون هى مكتبه الذى يبقى فيه كل يوم ١٨ ساعة! هى مجالس الإدارات

التي يعقدها! هي المواعيد الهامة التي يحرص على حضورها هي كل تليفون يدق في مكتبه، هي كل مشروع يدرسه، هي كل الرسوم التي تعرض عليه!

وها هو عادل يشعر فجأة بهذه الأتانية التي تسميها ضعفا. كان الحب لا تختلف أعراضه بين الرجل والمرأة. الحب يكوي الرجل كما يكوي المرأة. الحب عندما يكبر في الرجل والمرأة تتشابه صورته في كليهما. الرجل العاشق يبكي أحيانا كما تبكي النساء. يحس بأن الحب يشويه ويحرقه ويلسه تماما كما تشعر المرأة!

لقد تخيلت أن أعضاء الحب في قلب الرجل تختلف عن أعضاء الحب في قلب المرأة. المرأة تعطي والرجل يأخذ. المرأة تبكي والرجل يمسح الدموع. قلب المرأة ينزف دما وقلب الرجل يتفتت كما تتفتت الصخور.

ولكنها اليوم أحست وهي تسمع عادل يتحدث بأن لا شيء يفرق بين المرأة والرجل في الحب. كل ما هنالك أن الحب عند الرجل يرتدى بنطلونا والحب عند المرأة يرتدى فستانا، وإذا خلعا البنطلون والفستان تشابه الحب في الرجل والمرأة معا، بحيث لا تختلف مشاعر الحب عند المرأة عن مشاعره عند الرجل عندما يصلان إلى درجة واحدة من الحب.

وانتفضت قسمت. أحست بقشعريرة لذيذة. أحست بأن حبها وحب عادل وصل إلى قمة الحب. ألم يغفر لها زلتها المزعومة مع الضابط جال ستيوارت؟ لولا أنه يعبدها لما غفر لها ذنبا لا يغفره رجل لامرأة أبدا!

سوف تذهب الآن إلى الراقصة نشوى. سوف تقنعها بأن تعدل عن شهادة الزور. الحب يجعلها أقوى مما هي، وأكثر فصاحة مما هي. ألا يفعل الحب المعجزات!

واستقبلتها الراقصة نشوى بترحاب. ولكنها ما كادت تفتح موضوع شهادتها أمام محكمة الجنايات حتى قطبت نشوى جبينها. وقالت

— إننى سوف أقسم أمام المحكمة بأن أقول الحقيقة ولا بد من أن أقول كل الحقيقة..

— وما هى الحقيقة!

— الحقيقة هى أن عبده قال لى إنه يعمل عميلا للألمان!

— أخشى أن تكون ذاكرتك خانتك!

— إن أقوى شىء هو ذاكرتى!

— إن عبده الذى تقولين إنه يعمل من أجل الألمان.. ليس هو عبده المسجون!

— أنا واثقة أنه هو!

— هل تعرفين أن عم عبده هذا هو شحاذ!

— لا يهمنى أن أعرف أن العملاء يتنكرون فى عدة أشكال!

— سوف يدهشك أن تعلمى أن عم عبده هذا هو رجل صاحب فضل عليك

— لا يوجد رجل له فضل على.. إننى مدينة لما وصلت إليه لهاتين الساقين فقط!

— قد يكون هناك رجل غير هاتين الساقين!

— إننى أدوس بقدمى فوق الرجال ولا أرتفع فوقهم!

— أتذكرين يوما فى ميدان الأوبرا منذ عدة سنوات؟ جاءت فتاة حافيا

ترتدى ملاءة لف سوداء، ترتجف، وقالت لشحاذ إنها تريد أن تعرف الطريق إلى صالة بديعة ، وأن اسمها شلبية الوحش، وأنها تعمل خادمة في بيت الست أميرة، وأن الست أميرة ضربتها بيد الهاون وأنها تريد أن تعمل راقصة.. وأعطاهما الشحاذ اسما جديدا هو (نشوى).. وذهب معها إلى السيدة بديعة مصابنى وأقنعها بقبولها راقصة وتظاهر بأنه والدها واختارت الخادمة اسم الشحاذ ليكون اسمها.. وأصبح اسمها نشوى عبده؟. إن عبده هذا هو الذى سوف تشهدين ضده فى محكمة الجنايات.. وشهادتك هى التى سوف تضع حول عنقه حبل المشنقة!

وارتجفت نشوى وهى تسمع القصة. واصفر وجهها، ثم تحول الاصفرار إلى سواد عجيب..

واعتقدت قسمت بأنها كسبت نصف المعركة فمضت تقول:

— تصورى أى مكافأة سوف تكافئين بها عم عبده الذى تحملين اسمه..

هو اعطاك المجد.. وأنت تعطينه تهمة الخيانة! هو فتح أمامك طريق الحياة، وأنت تفتحين أمامه طريق الموت. هو كذب أمام بديعة وادعى أنه والدك ليجعل منك نجمة مشهورة وأنت سوف تكذبين أمام محكمة الجنايات لتجعلى منه مجرما حقيرا!!

هل نسيت أنه رفض أن يأخذ منك مليما واحدا عندما قابلته بعد ذلك بسنوات فى ميدان الأوبرا؟. هل هذه هى مكافأته على كل ما فعل من أجلك؟.

وتمالكت الراقصة نشوى نفسها وأحست بأنها ماتت عدة مرات وهى تسمع حديث قسمت. كان الحديث أشبه بسياط تلهبها وتلسعها، وتشويها!

وفتحت فمها لتتكلم.. وقالت كلاما في صوت متهدج محشرج، لم تسمعه
قسمت.. فعادت تسألها أن ترفع صوتها !

قالت نشوى :

– لم أكن أعرف أن عم عبده المتهم هو عبده الشحاذ في ميدان الاوبرا

– الآن وقد عرفت ستعدلين عن شهادتك !

– لا أستطيع أن أعدل عن شهادتى إننى مستعدة أن أفعل من أجله أى
شئ ! مستعدة أن أدفع أتعاب أكبر المحامين في مصر ليقوموا بالدفاع عنه !

– عجباً ! تطلقين عليه الرصاص وتدفعين مصاريف العلاج ! إن
رصاصك لا يجرحه، إنما يقتله ! إن ما تدفعينه سيكون مصاريف تشييع
الجنائز !

– لا أستطيع أن أفعل له أكثر من هذا !

– لماذا ؟

– لأن الأمر ليس بيدي !

– بيد من إذن ؟

– لا أستطيع أن أتكلم !

– أنا أعرف أنه بيد الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى ! إنه هو الذى لقنك
هذه الشهادة الكاذبة، من أجل من يرقونه من صاغ إلى بكباشى إنه يشتري
نجمة نحاسية على كتفه بحياة رجل برىء !

– أرجوك ألا تتكلمى ضد عبد الفتاح الشبهاوى أمامى !

- لأنك تحبينه !
- ولأنه يحبني !
- إننى على استعداد أن أدفع عشرة آلاف جنيه لتقولى الحقيقة !
- مال قارون لا يكفينى !
- ماذا تريدان إذن لتقولى الحقيقة ؟ كم تطلبين ؟
- إننى لست فى حاجة إلى مال.. إننى لا أعرف ما أفعله بأرباحى الضخمة !
- أفهم أن يبيع فقير ذمته ليأكل ولكنى لا أفهم أن تفعل ذلك فنانة يسجد أمامها الأثرياء !
- هل أحببت يانسة قسمت ؟
- نعم أحببت..
- وهل تترددان فى أن ترتكبى جريمة إذا طلب منك رجل تحبينه أن ترتكبى جريمة ؟
- هذا سؤال غريب ! إننى لا أحب رجلا مجرما !
- المرأة عندما تحب لا تطلب من الرجل صحيفة سوابقه !
- إذن أنت مصممة على أن تقتلى رجلا بريئا أحسن إليك من أجل إرضاء رجل تحبينه !
- كل امرأة عاشقة سوف تفعل ما أفعل.. !
- إننى كنت واثقة فى أنك امرأة لا قلب لها.. ولكن المهندس عادل علاء

الدين قال إنه يعرفك. وهو الذى كلفنى بأن أحضر لمقابلتك..

— هل عادل علاء الدين مهتم بعم عبده!

— مهتم به مثل اهتمامى!

— وهل هو مستعد أن يدفع ثمن عم عبده؟

— أنا التى ستدفع الثمن!

— أنا لا أريد منك شيئاً..

— إذن ماذا تريدین؟

— أريد.. أريد عادل علاء الدين..

الفصل الثامن والثلاثون

ذهلت قسمت للثمن الذى تطلبه الراقصة نشوى !

— أحست أنها تغوص بقدميها فى أرض من السوحل، كأن الأرض التى تدوس عليها بقدميها فى صالون نشوى قد ابتلت فجأة ! أصبح كل شىء حولها موحلا ومبتلا. شمت فجأة رائحة القذارة تنبعث من كل مكان فى الصالون، من نشوى نفسها !

توقعت أن تطلب نشوى مبلغا أكبر من العشرة آلاف جنيه، توقعت أن تطلب اسهما فى شركة الهندسة الكهربائية التى يملكها عادل. توقعت أن تطلب أى شىء، أما أن تطلب عادل علاء الدين ثمنا للحقيقة فى محكمة الجنايات فهذا ما لم تكن تتوقعه على الإطلاق !

وأحست قسمت أنها تكره نشوى أكثر مما كرهتها فى أى يوم من الأيام، إنها لا تكرهها فقط، بل هى تحتقرها وتزدريها.

وتمالكت قسمت نفسها، بعد جهد جهيد، وقالت :

— إن خيال المؤلف شكسبير عندما أراد أن يرسم صورة لجشع الانسان لم ينزل إلى هذه الصورة. إن شكسبير تصور المراهب اليهودى شايلوك يقطع رطلا من لحم المدين فى قصة تاجر البندقية. ولكنه لم يتخيل أن تجىء امرأة وتطلب رجلا كاملا ثمنا لأن تقول الحقيقة ؟

قالت نشوى :

– إن قول الحقيقة سوف يفقدنى رجلا.. كل ما أفعله أن أحصل على رجل مقابل رجل !

قالت قسمت :

– المهندس عادل علاء الدين مدير عام شركة الهندسة الكهربائية أغلى كثيرا من الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى الضابط فى القلم السياسى !

– تذكرى أننى لم أفقد عبد الفتاح وحده.. سوف يطاربنى البوليس، سوف يحرر لى بوليس الآداب ألف محضر ومحضرا ! سوف تخرب الحكومة بيتى ! سوف تحرض الحكومة صحفها على أن تهاجمنى وتلوثنى ! أنا أريد أن أعيش ! أريد أن أستمتع بالحب والحياة !

– ولكن ما الذى يجعلك تختارين عادل علاء الدين بالذات ؟

– إنه الرجل الوحيد فى حياتى الذى تركنى ! أنا التى أهجر الرجال وليس الرجال هم الذين يهجروننى !

– تريدن أن تستعيدى كرامتك بعودته إليك ؟

– أريد أن أستعيد اعتبارى، هذا الرجل هز ثقتى بنفسى عندما هجرنى. جعلنى أشعر بالهزيمة لأول مرة فى حياتى.. المرأة لا يمكن أن تنسى هزيمتها الأولى.

– ولهذا تريدن أن يصبح عشيقك من جديد.

– أنا لا أريد أن يكون عشيقى.

– تريدينه لليلة واحدة ؟

- أريد أن يتزوجنى !
- يتزوجك.. أنت ؟!
- هذا هو شرطى !
- إنه لا يمكن أن يقبل هذا الشرط !
- لقد قلت إنه مهتم جدا ببراءة عم عبده.
- ليس معنى ذلك أن يقضى على مستقبله من أجل عم عبده.
- لماذا إذن تطلبين منى أن أقضى على مستقبلى من أجل عم عبده ؟
- الوضع مختلف !
- لا فرق بين تضحيته وتضحيتى !
- من حق كل انسان أن يزن تضحيته بنفسه ! أنا أعتبر أن ما أفقده بقول الحقيقة هو أضعاف ما يفقده بزواجه منى ؟
- إننى أرفض هذا الثمن الباهظ !
- أنا لم أعرض شيئاً للبيع. أنت التى جئت تقنعيننى بالبيع !
- كيف يمكن لامرأة مثلك أن يخطر ببالها مثل هذا العرض الغريب ؟
- ما غرابته ؟ إننى أستبدل علاقة شرعية بعلاقة شرعية ؟
- تتزوجين رجلاً رغم أنفه ؟
- لست أول امرأة تزوجت رجلاً رغم أنفه.
- إنه لن يقبل هذا.

— دعيه هو يرفض.. لماذا تتولين الاجابة نيابة عنه؟
— لأننى واثقة أنه سيرفض.
— لأننى راقصة !
— ليس هذا.. إنه يحب امرأة أخرى !
— لا مانع عندي من أن يحبها !
— تتزوجين رجلا يحب امرأة أخرى؟
— عندما يتزوجنى أستطيع أن أجعله لا يحب امرأة أخرى !
— لو كنت تستطيعين أن تفعلى هذا.. لاحتفظت به عندما كان عشيقا
لك !

— يومها لم أتخذ احتياطاتى !
أما اليوم فسوف أتفرغ لهذه المهمة.

* * *

وسكنت قسمت كأنها تمنع كلمات سباب كثيرة تنطلق من فمها كمدفع
رشاش.

ووقفت الراقصة نشوى، ومشت تتبختر فى أرجاء الصالون ذهابا وإيابا
وهى تقول وكأنها تحدث نفسها :

— حرم المهندس عادل علاء الدين بك ! لقب لا بأس به ! إنه أقل قليلا فى
المقام من « راقصة مصر الأولى » !

وتميزت قسمت من الغيظ، وقالت والبشر يتطاير من عينيها:

— إن تحية كاريوكا هي راقصة مصر الأولى!

قالت نشوى في سخرية:

— سوف تصبح راقصة مصر الأولى بعد أن أصبح حرم المهندس عادل
علاء الدين!

— إنك تبنين كباريه من الأحلام وترقصين فيه!

— كل قصر بذيته من الأحلام.. سكنت فيه.

— ولكن هذه المرة سوف تسكنينه وحدك!

— مسكين عم عبده! لا أحد يريد أن يضحى من أجله!

— تذبحين عم عبده وتبكين عليه؟!

— أنا لم أذبحه.. أنا عرضت عليك طريقة لخلاصه وأنت ترفضين أن
تخلصيه من السجن!

— إنك فاجرة!

— هذه هي مهنتي!

— مهنتك أن ترقصي على المسرح لا فوق جثث الرجال!

— الرقص على المسرح هو واحد من المائة من صناعاتي، والتسعة
والتسعون في المائة الباقية هي ذبح الرجال في الصلاة!

— وتقديم لهم خمرا مغشوشة!

– كل شيء في الكباريه مغشوش المشروبات، عدد الزبائن، المواعيد التي تمنحها الراقصات للزبائن !

– وشهادتك في قضية عم عبده مغشوشة أيضا ؟

– لا تذكريني بعم عبده.. لأنك تمزقين قلبي !

– لو كان لك قلب لما تمسكت بهذا الشرط !

– ولو كان لك قلب لما رفضت هذا الشرط !

– إننى لم أطلب منك سوى أن تقولى الحقيقة !

– وعندما طالبتك بأن تدفعى ثمن الحقيقة رفضت أن تدفعى !

– لأنك تطلبين اعدام رجل برىء مقابل انقاذ رجل برىء من الاعداء !

– إن مئات الرجال يتمنون أن يتزوجوا بى !

– ولكن ليس فيهم رجل مثل عادل علاء الدين !

– إن وكيل وزارة الأشغال عرض على أن يتزوجنى ورفضت ! إنه مهندس أعظم من عادل، وهو أستاذ عادل باعترافه !

– من قال لك هذا ؟

– عادل نفسه !

– ولماذا لم تتزوجى وكيل وزارة الأشغال ؟

– لأننى كنت أحب عادل !

– وهل كان يحبك ؟

- كل رجل عرفنى أحبنى !
- ولماذا تركك إذا كان يحبك؟
- خاف منى ! خاف منى وهرب !
- لماذا لم تطارديه؟
- كنت منرورة.. تصورت أنه سوف يجىء، لابد أن يجىء.. ومضت الأيام ولم يحضر.. ودارت الأيام.. وسوف يضطر إلى الحضور!
- إنه لن يحضر!
- لماذا أنت واثقة كل هذه الثقة؟
- لأنه يحبنى أنا!
- سوف تكون مهمتى سهلة جدا!
- إنك فرحتى لأننى منافستك؟
- فرحت لأنه لا منافسة لى!
- كأننى لا أملا عينيك؟
- أنت ما زلت طفلة يا ابنتى ! ما زلت فى سنة أولى حب!
- أنت تثيرين أعصابى بغرورك!
- وأنت تهدئين أعصابى بسذاجتك!
- هل أنا ساذجة؟
- الدليل على سذاجتك أنك تصورت عندما قلت لى إنك تحبين عادل،

أنك تقولين لى خبرا لا أعرفه، أنه خبر قديم جدا !

— متى عرفته ؟

— عندما قلت لك إننى أريد عادل ! تغير وجهك، اصفر لونك، كنت أشبه بامرأة مذبوحة.

— ومع ذلك مضيت فى ذبحى !

— تشبثك به جعلنى ازداد تشبثا به ! إن الرجل الخالى لا يثيرنى، .. يثيرنى الرجل المشغول.. لذتى كلها فى المعركة التى انتصر فيها على منافستى !

— وإذا قلت لك إننى أحبه.. فلن تتمسكى بأن يكون هذا هو ثمن قولك الحقيقة ؟

— سوف أتمسك به أيضا..

— لماذا ؟

— لأننى لن أصدقك لقد قلت لك إننى سأخذه.. وسوف أخذه !

— أنت تتكلمين عن عادل وكأنه زبون فى الصالة ؟

— كل رجل هو زبون فى صالة ما !.. صالة بديعة هى صورة المجتمع المصرى ! الراقصات هن الزعماء، والزبائن هم الشعب المغفل !.. مبادئ الأحزاب هى زجاجات الخمر المغشوشة، التى يدفع الشعب ثمنها ! بائع الفزدق المطيباتى هو أجهزة الاعلام !.. الجمهور يعلم أن الخمر مغشوشة، والراقصات كاذبات، والبرنامج قديم، ومع ذلك، يملأ الجمهور الصالة كل مساء ! يغنى ويرقص ويصرخ ويتشاجر كأن ما يراه أمامه هو الحقيقة..

- لا يكاد يفيق في الصباح، حتى يغيب عن الوعي في المساء!
- أنت تتكلمين عن جمهورك وكأنك تحتقرينه
- احتقره بينى وبين نفسى.. وأحنى له رأسى وأنا فوق المسرح!
- وتسرقين ما فى جيوبه!
- قلت لك فى المرة الماضية إننى لا أضع يدى فى جيوب الزبائن!
- الزبائن هم الذين يضعون جيوبهم فى يدك.. وأنت الآن تضعين يدك فى قلبى وتحاولين أن تسرقى رجلى!
- كان رجلى قبل أن يكون رجلك!
- أنت أول لصة من نوعها!.. تعلنين عن تصميمك على السرقة قبل ارتكابها!
- إننى أعب على المكشوف!
- ولهذا تتعرين من كل شىء لتظهرى كل شىء!
- أنا أتعرى من كل شىء لأخفى كل شىء!
- لست أفهم!
- طريقتى دائما أن أفصح عن نواياى فأضلل من يقف فى مواجهتى..
- لأن العادة ألا يفصح أحد عن نواياه! أنا لا أسرق إلا فى النور! ولا أسرق إلا أولاد الذوات!
- لماذا أولاد الذوات؟
- لأن بينى وبينهم دينا قديما!

— تآر قءىم !

— إئنئ لم أنس أى صفعة على وءهى؁ أى لكمة على أسنأنئ.. أى كئ بالنار على فءذئ منذ كنت أعمل ءأمة فى بئوت الذوات !

— وترءىن الآن الصفعة واللكمة بكئك بالنار !

— إئنئ لا أوءعهم كما أوءعونئ !

— وما ذنب عاءل علاء الءىن ؟ إنه لم ىصفعك ولم ىلكمك.. ولم ىكون بالنار !

— إنه هءرنئ.. وطعم الهءر أقسى من الكئ بالنار !

— إذن هى فرصتك الذهبئة للانتقام من عاءل.

— لئس من عاءل فقط !

— منئ ؟

— أنت برئئة.. من سوء ءظك أنك ءئت فى طرئقئ !

— ممن تننقمئن أئضا ؟

— من الست أمئرة.. السئدة التى ءربتنئ بئء الهاون وءعلتنئ أفر من بئتها وأعمل راقصة فى صالة بءئعة..

— إن واءبك أن ءشكرئ ست أمئرة لا أن ءءقءئ عئها؁ لولها لما وصلت إلى كل هذا المءء !

— كل هذا المءء لم ىنسنئ عذاب الضرب بئء الهاون؁ وهذا هو الذى ىءعلنئ أءمسك بعاءل علاء الءىن !

— وما العلاقة بين عادل وأميرة التي ضربتك؟

— إنها شقيقة عادل قد يدهشك أن عادل رانى عدة مرات في بيت شقيقته الست أميرة، كنت أقدم له القهوة، كنت أفتح له الباب، ولكننى كنت فتاة ذليلة، تعيسة بشعة لم تستلفت نظره.. ولما أصبحت راقصة كبيرة وأراد أن يصاحبنى تصورت أنه عرف من أنا، ولكنه لم يعرفنى! وشعرت يوم بدأت علاقتى به بسعادة غامرة أن يصبح عشيقى هو الرجل الذى كنت أقدم له القهوة في يوم من الأيام. أحسست بأن هذا العشيق أعاد لى كرامتى واعتبارى، ضمد جراح يد الهاون التى ضربتنى بها شقيقته الست أميرة. نسيت حقدى كله. نسيت شقائى كله. وفجأة تركنى وذهب. ذهب بلا سبب!

— قد يكون اكتشف أنك الخادمة التى كانت تعمل في بيت شقيقته!

— لم يعرف!

— سأقول له!

— قولى له.. ولكنى سوف أقول للست أميرة بعد أن أتزوج من عادل علاء الدين.. أننى واثقة أن هذا سيؤلمها أكثر مما ألمنى ضربها لى بيد الهاون!

خرجت قسمت من بيت نشوى كالمحمومة. رأسها يكاد ينفجر، أطرافها تؤلمها، شعرت في لحظات برغبة في أن تقبض بيديها على رقبة نشوى وتخنقها.. إنها مزيج من المرأة والأفعى. حديثها يقطر سما، كلامها عن عادل كان أشبه بطعنات الخنجر. أحست بأنها كانت في لقاء مع الشيطان، لا يمكن أن يكون الشيطان أكثر ضراوة وشرًا وخبثًا من هذه المرأة. كيف

استطاعت أن تحتملها وهي تتحدث ببساطة عن رغبتها في الزواج من عادل، لا لأنها تحبه، بل لأنها تريد أن تنتقم منه، تريد أن تذلل أخته أميرة وتؤلمها كما ألماها يوم ضربتها «بيد الهاون» !

وحارت قسمت ماذا تفعل !!

— لن تشتري حرية عم عبده ببيع عادل علاء الدين

لن تشتري حرية رجل في السبعين مقابل حياة شاب في الثلاثين ! وهو ليس أى شاب، أنه حبيبها، وروحها، وقلبها، حياتها. كيف يمكن أن تقتل رجلا وامرأة مقابل حرية رجل ان عاش خمس سنوات ، فلن يعيش عشر سنوات ؟

انها تتمنى أن تحرر عم عبده من قيوده، ولكنها ليست مستعدة أن تضحي بحبيبها ولو لمدة ساعة واحدة يمضيها بين ذراعى هذه المرأة القذرة ! انها مستعدة أن تضحي من أجل عم عبده بكل ما تملك، ما عدا أن تضحي بحبها. إنها لم تشعر في لحظة من اللحظات بأنها تحب عادل كما تشعر في هذه اللحظة. كأن تحدى نشوى لها أضرم النار في قلبها. أنها احست برغبة في أن تمتلكه وحدها دون سواها، أكثر مما احست في أى لحظة من قبل.

وضمت ذراعيها فوق صدرها بحركة غير ارادية، كأنها تحمى عادل المختفى في قلبها من الايدى التى تريد ان تنتزعه منها. وكأن أطماع نشوى في عادل جعلتها تشعر بقيمة عادل أكثر مما شعرت به فيما مضى. كان عادل بالنسبة لها بذرة الحب التى زرعها فيها الاله والشيطان معا ! بذرة تحولت إلى شجرة، فيها طعم الجنة وطعم النار! اما اليوم فإنها لا تدافع عن الشجرة، وانما تدافع عن نفسها، عن حياتها. لقد أصبح عادل كل حياتها،

ومن يأخذه، يأخذ حياتها كلها !

... كانت تشعر في أول الامر بحبه في قلبها، ولكنها تشعر الآن بهذا الحب في رأسها، وفي كل جزء من أجزاء جسدها، إنها تحب كل شيء في هذا الرجل، حتى الخطيئة نفسها تحبها لأنها تشاركه فيها !

وقررت قسمت أن تخفى عن عادل حديثها مع نشوى، ولكنها أحست بأن هذا السر يقلقها، يعذبها، لا تستطيع أن تحتمله وحدها. إن المرأة عندما تبوح بالسر لا تفعل هذا لأنها لا تستطيع أن تمسك لسانها، وانما لأنها أضعف من أن تحمل فوق رأسها وحدها سرا ثقيلا، كبيرا.

وفكرت أن تذهب إلى عم عبده لتروى له ما جرى. واشفقت على عم عبده أن تخبره بحقيقة أمر الراقصة نشوى التي كان معجبا بها، والتي تلقى الضربات والركلات والصفعات في ميدان الاوبرا دفاعا عنها.

وخشيت قسمت شيئا آخر أهم من كل هذا ! خشيت أن يتضايق عم عبده لان قسمت ترضن بأن تضحي بحبيبها عادل علاء الدين من أجله !

قد يقول لنفسه انه ضحي بحريته من أجل انقاذها، وهي لا تريد ان تضحي بحبيبها من أجل ان تنقذه !

وخيل إليها ان عم عبده يكون غيبا جدا إذا تصور انها لا تقدر التضحية التي قدمها من أجلها !

ولكنها تعرف بحكم تردها المستمر على سجن الاستئناف، أن الزنزانة تجعل من المسجون انسانا حساسا، تجعل اعصابه فوق جلده بعد أن كانت تحت جلده. جو الوحدة القاتل يجعله قلقا، متشائما. كل شيء يصغر داخل الزنزانة ولكن شيئا واحدا فيها يكبر ويكبر ويتضاعف !

يدخل المسجون إلى الزنزانة وهو يحمل هما واحدا، فإذا أقفل عليه الحارس الباب زادت الهموم وتوالدت وتضاعفت.. رائحة الزنزانة النتنة تجعل الهم الصغير يتحول إلى هم كبير، تبالغ في المتاعب. فالزنزانة هي الظلام، والهموم هي الميكروبات الصغيرة التي تتوالد في الظلام وتموت في ضوء الشمس. والشمس بالنسبة للمسجون هي الحرية، وهي لا تشرق عليه أبدا لأن أشعتها تنكسر أمام الجدران العالية والأبواب المغلقة.

لو أخبرت قسمت عم عبده بحديث نشوى فسوف يتعذب أكثر مما يتعذب! كأنها تستأنف معه عمليات التعذيب التي قام بها ضابط القسم السياسى يوم قبضوا عليه، عندما اعترف بأنه صاحب المنشور!

* * *

وزارته في السجن، واكتفت بأن تحدثه عن تحديد جلسته أمام محكمة الجنايات وكيف أن محمد على علوبة باشا المحامى هو الذى سيتراجع عنه، لأن مكرم باشا لا يزال مقبوضا عليه..

هز عم عبده رأسه بغير اهتمام وقال:

— اننى لست فى حاجة إلى محامين!

— لابد من محام يعرف القانون!

— القانون فى أجازة!

— ولكن المحامى يستطيع دائما أن يقطع هذه الإجازة!

— لو كان هناك قانون لساكد.. انا فى السجن!

— القانون مقبوض عليه فى كل مكان. ولكنه حر أمام ساحة القضاء!

— اخشى أن تكون حصون العدالة قد وقعت كلها في يد الاستبداد !

— حصن واحد لم يستسلم بعد وهو حصن القضاء ! ولو سقطت كل هذه الحصون واحدا بعد واحد، وبقي حصن العدالة، فهذا يكفينا !

— وماذا تستطيع العدالة أن تفعل اذا كانت الدولة تحولت إلى عصابة !

— انت تنسى مواقف القضاة في بلادنا ! تنسى ان الشيخ المراغى وهو قاض شرعى حكم على الملك فؤاد ! تنسى أن سعد زغلول وهو رئيس للوزراء اتهم الدكتور هيكل رئيس تحرير السياسة بأنه قذف في حقه بأن قال عنه انه دجال ونصاب، وافاق، ومشعوذ، ومحتال، وبرأ احمد طلعت باشا رئيس محكمة الجنايات الدكتور هيكل وقال إن سعد زغلول ما دام أختار أن يشتغل بالسياسة فواجبه أن يتحمل لغة السياسيين ! وتنسى أن اسماعيل صدقى رئيس الوزراء سنة ١٩٣٠ قدم محمد محمود باشا زعيم المعارضة إلى محكمة الجنايات لانه خطب وقال إن حكومة اسماعيل صدقى لا ترضاها أمه من البغايا، ثم اضطر رئيس الوزراء إلى سحب القضية من محكمة الجنايات لانه عرف أن القضاة سيحكمون ببراءة محمد محمود. وتنسى أن وزيرين في وزارة عبد الفتاح يحيى باشا قدما حفنى محمود رئيس تحرير جريدة « السياسة » إلى محكمة الجنايات لانه يتهمهما بالرشوة والفساد، فبرأت المحكمة رئيس التحرير وأدانت الوزيرين بتهمة الرشوة والفساد.. كل هذا يدل على أن في مصر قضاة !

— مادام في مصر قضاة فما حاجتى إلى المحامين !

— المحامى سوف يناقش شهادة الاثبات نشوى عبده.

— لا احتاج إلى محام لتعدل عن شهادتها !

- انت تحتاج إلى مائة محام لا إلى محام واحد !
- يكفي أن انظر إلى نشوى.. وتعرف اننى المتهم حتى تعدل عن الشهادة !
- سوف تتأثر بسحر نظراتك !
- كلا.. سوف تتذكرنى وتعدل عن شهادتها وتقول الحقيقة كلها !
- ما الذى يجعلك متأكدا منها !
- اعتقد انها امرأة نبيلة !
- ما اغبى حكم الرجال على النساء !
- لا تنسى اننى كنت زئير نساء فى شبابى !
- اكاد اتصور أنك لم تعرف امرأة واحدة فى حياتك !
- يمكنك أن تسألنى فى هذا الموضوع غرامى الأول.. بهية مصقعة.. انها لاتزال حتى الآن تتسول أمام جامع الحسين !
- اننى مختلفة معك فى رأيك فى نيل الراقصة نشوى !
- هذا هو الموضوع الوحيد الذى نختلف فيه.
- وسوف تثبت لك الأيام اننى على حق.
- سوف تثبت الأيام أن نشوى امرأة نبيلة !
- وأحست قسمت بأنها تريد أن تنفجر فى عَم عبده ، وتصارحه بكل ما قالته الراقصة نشوى، وبشروطها لتقول الحقيقة، ولكنها استطاعت أن تمسك الكلمات على طرف لسانها، قبل أن تنطلق منها، وأسرعت تنهى المقابلة .

حتى لا تواجه عم عبده بالحقيقة المؤلمة، وهي أن معبودته هي الجزار
الذى قرر أن يذبحه !

وعندما التقت قسمت في المساء بعادل في شقته كانت قد اتخذت قرارا
نهائيا ألا تخبره بشروط الراقصة نشوى لتقول الحقيقة..

– وروت له الحوار الذى جرى بينها وبين نشوى، واكتفت بالقول بأن
نشوى مصممة على أن تقول إن عم عبده ابلغها انه يعمل لحساب الالمان،
وأن امرها ليس في يدها لتعدل عن أقوالها !

وفجأة وجدت نفسها تقول له :

– ان نشوى مستعدة ان تقول الحقيقة بشرط !

– ما هو هذا الشرط.

– ان تتزوجك !

– تتزوجنى أنا؟

– نعم !

– انها تطلب ثمنا غاليا جدا !

– كنت أظن أن الحقيقة غالية في بلادنا.. ولم اتصور انها بهذا الثمن
الباهظ !

– قلت لك إن نشوى تبيع الأشياء الرخيصة بثمن غال !

– ولكننى قلت لها اننى ارفض أن تعطىها ساعة واحدة ثمنا للحقيقة !

– اننى مستعد ان اعطىها هذه الساعة !

- لعلك تحن إليها !
- لو كنت أحن إليها لقبلت اقتراحك بأن اذهب إليها.
- لتكون زيارة وتجارة !
- اننى عندما اقطع علاقتى بامرأة لا اعود إليها ابدا !
- ومع ذلك نتركها معلقة، انها مجنونة بك !
- مثل هذه المرأة لا تستطيع أن تجن الا بنفسها !
- قالت لى إنك الرجل الوحيد الذى تركها !
- اذن هى تريدنى لتطردنى !
- تقول إنها تريد أن تنتقم من شقيقتك اميرة، لانها كانت خادمة عندها، وضربتها « بيد الهاون » !
- لا اتذكر اننى رأيته عند أختى اميرة لقد قلت لها مرة اننى اذكر اننى رايتها فى مكان قبل هذه المرة.. فقالت لى ضاحكة :
- انك رأيتنى فى فندق شبرد.
- لعل هذا السبب فى أنها كانت تحرص طوال علاقتى بها على ان تتحدث عن والدها عبده باشا !
- وهل صدقتها.
- ان فيها رائحة ميدان عبده باشا فى العباسية !
- ولماذا تركتها.

– لاننى لاحظت انها تريد أن تعلن علاقتها بى للناس جميعا. كأنها تريد أن تغيظهم وتكيد لهم جميعا !

– قالت لى نشوى انها تقصد أن تكيد اختك اميرة وحدها !

– الحقد يبدأ بسيطا، ثم يصبح مركبا ! يحدث أن يشعر طفل بإساءة فى طفولته، فيشب يكره الناس كلهم الذين اساءوا إليه والذين لم يسيئوا إليه. لذته أن يشقى العالم كله عقابا له على الاساءة التى اصابته. يذيق الناس كلهم طعم الحرمان الذى ذاقه. يحمل المجتمع كله ظلم فرد واحد. وقد يكون الذى اساء إليه اقرب الناس إليه. يتكون فى داخله حقد يبدأ ضد من اساء إليه، وكلما كبر، كبر الحقد معه، حتى يشمل الناس جميعا.

– إن نشوى وصلت إلى الثروة والمجد الفنى.

– كل هذا لا يسعدها. يسعدها أن تشقى أكبر عدد من الناس. تضربهم كما ضربتها سيدتها، تهينهم كما اهانتها سيدتها، وتؤلمهم كما ألمتها اميرة. انها تجمع العشاق حولها، لا لتسلب نفودهم، وانما لتسلبهم سعادتهم، لتسلبهم كرامتهم، لتذلهم، لترى رجالا محترمين يركعون تحت قدميها، لتسمع الشفاه التى لعنتها وهى خادمة، تسبح بحمدها بعد أن أصبحت راقصة مشهورة.

– شعرت ان سعادتها فى تحطيم كل شىء جميل. تريد أن تكون كل امرأة مهجورة، وكل عاشق تعيسا !

– أخشى أن تكون تشبثت بزواجى عندما احست انك تحبيننى !

– لقد وجدت نفسى فجأة اعترف لها باننى احبك !

– لماذا اعترفت ؟

- لاغيظها ! لاصدمها ! لا دافع عن حبي !
- انك جعلتها ترفع الثمن !
- ولكنني شعرت بسعادة لاحد لها وأنا اقول لها اننى احبك ! كأننى اعلن انتصارى عليها للدنيا كلها !
- ليس أمامنا الآن، الا أن اذهب إليها بنفسى !
- لا يمكن ان أسمح لك بلقائها.
- خمس دقائق !
- ولا دقيقة واحدة !
- انها لن تخطفنى !
- اننى اخاف عليك منها !
- سوف اقاومها !
- مقاومة الرجل للمرأة تزيدها وحشية واصراراً !
- اعدك بأننى لن اسقط فى شراكها !
- اننى اموت إذا ذهبت إليها.
- هذه هى الطريقة الوحيدة لانقاذ عم عبده من الاعداء.
- تنقذه من الاعداء.. وتعدمنى أنا..
- اذن. ماذا نفعل لانقاذه؟
- سأذهب أنا.. سأذهب إلى محكمة الجنايات.. واعترف امامها أن عم عبده برىء، واننى أنا كاتبة المنشور !

الفصل التاسع والثلاثون

دخلت الأميرة فضيلة إلى مكتب توفيق دوس باشا المحامى، فى عمارته الضخمة المطلة على شارع طلعت حرب، الذى كان اسمه شارع سليمان باشا، وشارع فؤاد، الذى أصبح اسمه ٢٢ يوليو الآن.

وكانت العمارة هادئة على غير عادتها. مئات من مكاتب المحامين والأطباء أغلقت أبوابها. الساعة الآن الثالثة ظهرا، وهو الموعد الذى تموت فيه الأعمال فى شارع الأعمال.

وكانت الأميرة تضع فوق عينيها الجميلتين نظارة سوداء كبيرة تخفى وجهها، وتلف رأسها بإيشارب أسود يغطى كل وجهها وشعرها. كان الناظر إليها يعتقد أنها عاملة عند إحدى الخياطات التى تمتلئ بها العمارة.

وحرصت الأميرة على ألا تدق جرس مكتب المحامى الكبير. اكتفت بأن تدق بأصبعها على زجاج الباب دقات خفيفة.. وكأنها علامة متفق عليها.

وفتح الباب الخادم حرص على ألا يحييها، ولا يفتح فمه، كان التعليمات التى لديه أن يكون أعمى لا يرى، وأخرس لا يتكلم!

— وقالت الأميرة هامسة :

— قل لمعالى الباشا عاطمة هانم هنا

ولم يرد الخادم بكلمة، وإنما اتجه إلى الغرفة المقفلة التي يجلس فيها دوس باشا. وقبل أن يصل إلى الباب، كان دوس باشا يفتح باب مكتبه ويتجه متهللاً إلى الأميرة بوجهه الأسمر، وبعينيه اللتين تشعان بالذكاء، وعلى وجهه دهشة وقال وهو يصافح الأميرة، ويدعوها إلى أن تتقدمه إلى مكتبه، قال بانجليزية فصيحة:

— ماهذه الأسرار التي تحيطين بها نفسك يا صاحبة السمو؟

ووضعت الأميرة أصبعها على شفتي دوس باشا وقالت:

— لا تنادينى بيا صاحبة السمو.. أنا اسمى فاطمة هانم.

— خادمى لا يعرف الانجليزية!

— إننى دهشت أن أرى خادمك فى المكتب!

— خادمى غيبى جداً لا يفهم ما يسمع. وقد مضى عليه وهو يعمل عندى

ثلاثون عاماً وهو يزداد غباوة عاماً بعد عام!

— إننى أحب الخدم الأغبياء!

— والنساء الغبيات!!

— الرجل يتمنى أن يتزوج امرأة غبية ويحب امرأة ذكية.. هل يوجد فى

المكتب سواك؟

— أنت تدخلين فى رواية بوليسية!

— ألا تحب الروايات البوليسية!

— بشرط ألا أكون أحد أبطالها!

— جئت إليك لأننى أئتمنتك وحدك على أسرارى !

— أنت تحيطين زيارتك لى بغموض غريب ! عندما قلت لى فى التليفون إنك تريدين مقابلتى لأمر هام جدا، عرضت عليك أن أحضر أنا إلى قصرك فإذا بك تقولين إنك تفضلين أن يكون اللقاء خارج قصرك. عرضت عليك أن تحضرى إلى بيتى فى الزمالك، فقلت لى إن المسألة سرية جدا وأنت لا تريدين أن تراك زوجتى وأولادى ويناتى ! وعرضت عليك أن نتقابل فى مكتبى فاشترطت أن يكون اللقاء بعد انصراف جميع المحامين والموظفين الذين يعملون فى مكتبى، وبعد انتهاء ساعات العمل ! ما هو الضرر فى أن تحضرى لمقابلتى فى النور ! لماذا تخفين وجهك تحت « الايشارب » الأسود والنظارة السوداء ؟ لماذا تصرين على تغيير اسمك وتجعلينه فاطمة هانم بدلا من الاميرة فضيلة ؟ المفروض إننى محاميك ومن حقى أن ألقاك فى أى وقت !

— إنها مسألة خطيرة وسرية لا يعرفها أحد !

— ولا زوجك معروف باشا !

— الزوج آخر من يعلم...

— هل هى استشارة قانونية ؟

— إنها استشارة غرامية !

— إن المطربة اسمهان كانت تستشيرنى فى مسائلها الغرامية.. وكانت مشورتى لا تعجبها !

— إذن أنت متخصص فى الاستشارات الغرامية !

– متخصص فقط في القضايا المدنية والقضايا الجنائية والقضايا العسكرية !

– والقضايا الشرعية ؟

– والقضايا الشرعية أيضا !

– إذن أنت متخصص في مشكلتي .. مشكلتي متصلة بالمسائل المدنية والمسائل الجنائية، والمسائل العسكرية، والمسائل الشرعية !

– يبدو أنها مسألة دولية !

– وهي أيضا فيها طابع دولي !

– إنها لغز يحيرني !

– ذكاء معاليك يستطيع أن يحل كل الألغاز !

– قضية طلاق !

– قضية زواج !

– أنت متزوجة الآن !

– سوف اتطلق !

– هل زوجك موافق على الطلاق ؟

– يجب أن يوافق !

– كيف تتأكدين أنه سيوافق ؟

– لأنه يحبني !

- الزوج الذى يحب امرأة لا يطلقها !
- لقد رببت معروف باشا كما أربى الكلب ! أناديه فيحضر ! وأشير إليه فيخرج !
- ولكن الكلب يعض فى بعض الأحيان.
- زوجى كلب أليف لا يعض ولا يعوى.. يطيعنى طاعة عمياء !
- أشك فى أنه يقبل الطلاق بسهولة.
- إتنى مستعدة أن أدفع له.
- خلو رجل !
- سمه كما تشاء ! خلو رجل ! تعويض ! معاش ؟
- المسألة ليست سهلة. إن لك ولدا منه !
- كثيرات من الأمهات اللاتى لهن أولاد حصلن على الطلاق !
- ولكن الموقف معك يختلف.
- ماهو الاختلاف ؟
- الاختلاف إنك أميرة
- إننى بشر قبل أن أكون أميرة !
- طلاق البشر يقرره، المأذون، وطلاق الأميرات يقرره مجلس البلاط !
- وهل تظن أن مجلس البلاط سوف يعارض طلاقى ؟
- هذا يتوقف على رأى الملك. إن مجلس البلاط، هو مجموعة من

الطرايطير، تنفذ أوامر الملك !

– سوف يوافق الملك على الطلاق عندما يعلم أنني وزوجى متفقان على الطلاق. إننى مصممة على أن يكون معروف باشا هو صديقى الأول حتى بعد طلاقى منه !

– إذا كنت تحببته كل هذا الحب فلماذا تطلقينه ؟

– أنا أحبه ككلب.. لا كزوج !

– إذن فمشكلة الطلاق ليست صعبة !

– هذه ليست المشكلة !

– ماهى المشكلة إذن ؟

– مشكلة الزواج ؟

– ولكننا لم ننته من الطلاق حتى نفكر فى الزواج.

– إننى أطلب الطلاق من أجل الزواج، وإذا لم أتأكد من الزواج من الرجل الذى اخترت ، فلا داعى للطلاق !

– ومن هو الرجل الذى تريد الزواج منه ؟

– الكابتن جاك ستيوارت الضابط بالجيش البريطانى !

– وبريطانى أيضا !

– أعرف أنك تكره الانجليز..

– إننى لا أكره الانجليز.. ولكن حكومة بريطانيا طلبت القبض على أثناء الحرب !

– لأنك هاجمتهم أثناء الحرب !

– لم اهاجمهم ! كل ما حدث أننى زرت ألمانيا قبل الحرب، وصرحت بعد عودتى إلى مصر، بأننى لا حظت أن الطيران الألمانى متقدم جدا عن الطيران الانجليزى، وثار الانجليز واتهمونى بالدعاية للمحور، ولم يصدقوا ما قلته إلا عندما هدمت الطائرات الألمانية بلادهم، وحولت مدنها إلى خرائب وانقاض !

– أنا مثلك لا أحب الحكومة الانجليزية.. ولكنى اعبد الكابتن جاك ستوارت !

– إننى لا أعترض على الزواج من وجهة سياسية.

– تعترض عليه من وجهة وطنية ؟

– أعترض عليه ومن وجهة واقعية. إننى ضد الزواج من الأجانب !

– ولكننى أحبه !

– الحب الذى لا يتكلم لغة واحدة لا يعيش طويلا !

– إننا نتكلم لغة واحدة هى لغة الحب !

– ولكنك تعبرين عنها بالعربية.. وهو يعبر عنها بالانجليزية ! المفروض أن يلتصق الرجل بالمرأة التصاقا كاملا، ولكن إذا تزوج انجليزى بمصرية فإنه يحتاج إلى قاموس يضعه بينه وبينها !

– فى الحب لا تحتاج الشفاه إلى كلمات !

– هذه الآراء لا يقرها مجلس البلاط

— ولكن رئيس مجلس البلاط هو الأمير محمد على، وهو يحب الانجليز..
ولا يجرؤ أن يرفض زواج أميرة مصرية من ضابط بريطاني!

— لن يثير الأمير محمد على جنسية الضابط.. سوف يقول إنه لا يجوز
أن تتزوج أميرة مصرية من رجل مسيحي!

— سوف يعتنق الاسلام!

— كثيرون من المسلمين يعتقدون أن المسلم هو من ولد مسلما.. لا من
اعتنق الاسلام!

— لا يهمنى ما يقولون!

— اعتقد أن رأى العام المصرى سوف يثور إذا تزوجت أميرة مصرية
من ضابط بريطاني من جيوش الاحتلال!

— لا يهمنى رأى العام!

— ومجلس البلاط لا يجرؤ أن يوافق على هذا. إن بين أعضائه رئيس
مجلس الشيوخ ووزير العدل وشيخ الأزهر!

— سوف أتزوج برغم مجلس البلاط!

— سوف يجردك الملك من لقبك!

-- إن لقبى يقيد حريتى ويمنعنى من الحركة!

— ولكنه يزيدك جمالا!

... عندما أدخل غرفتى لا أصحب لقبى معى!

— وسوف يجردك الملك من كل أموالك، سوف يحجر عليك، سوف يضع
قيما على ثروتك.

— لن يجروا!

— لقد فعل ذلك بأميرات غيرك!

— سوف أفضحه في كل الدنيا!

— إن مشكلتك تشبه مشكلة الأميرة صالحة! من سخرية القدر إننى
محاميك.. وكنت محاميا للأميرة صالحة أيضا.

— وكسبت لها القضية؟

— خسرتها!

— لماذا.. أليس في مصر عدالة!

— في قضايا الأمراء يجلس الملك في مقعد القاضي!

— ماذا حدث للأميرة صالحة!

* * *

قال دوس باشا:

— إنها قصة طويلة. منذ عشرات السنين، كانت الأميرة صالحة امرأة
جميلة فاتنة. وكانت صاحبة أجمل عينين في مصر! وكانت عيناها تظهران من
اليشمك الأبيض الذى تلف به وجهها كأنهما منارتان تملآن الدنيا بالنور.
وكانت أغرب صفاتها أنها جمعت بين الجلال والجمال! العيون الفاجرة
ما تكاد تراها حتى تتأدب! الشفاه الجائعة ما تكاد تقترب منها حتى تبتل!

فيها شيء يجذب الرجل ليأخذها بين ذراعيه وفيها شيء أقوى يوقفك مكانك عندما تقترب منها ! كانت بين الأميرات الجميلات أشبه بالسهل الممتنع في أسلوب اللغة العربية ! تظن أنها سهلة جدا وصعبة جدا في وقت واحد !

وكانت تمضي نصف العام في القاهرة، ونصفه في باريس، وكان لها بيت جميل أنيق فرشته وكأنه صورة مصغرة من قصر سلطان في قصة ألف ليلة وليلة !

وكانت تملك في باريس اسطبلًا ضخما للخياد العربية. وكانت خيولها تحصل على الجوائز الأولى في السباق. وكانت هوايتها أن تعنى بنفسها بتربية هذه الخيول. وكانت فارسة ممتازة، وكانت تبهر أمهر الفرسان بقدرتها العجيبة على التحكم في الخياد..

وكانت السيارات غير معروفة في تلك الأيام بين الطبقة الارستقراطية في باريس، وكانت الأميرة تستقل دائما عربة موشاة بالذهب، يجرها حصانان عربيان مطهمان.

وكانت الأميرة تبدو في عربتها الفاخرة أشبه بامبراطورة. وكان جمالها وسحرها وأناقته تسلب عقول أهل باريس. كان كل رجل في باريس يطمع في أن يتعرف إلى الأميرة المصرية الساحرة، ولكن منظرها الملكي المهيّب كان يفرض على الرجال احترامها، كان حولها حرس مسحور يقطع رقاب كل من يقترب منها، فكان الباريسيون يكتفون بأن يقفوا فوق رصيف الشارع، يخلعون قبعاتهم، ويحنون رؤوسهم، وكأنهم يحيون موكب الجمال !

وذات يوم رآها ضابط روسي شاب في أحد شوارع باريس، ففتن بجمالها، وجن بسحرها، وذهل أن الواقفين في الطريق يقفون مبهورين، بلا حراك. كأن هذه الأميرة المصرية نومتهم جميعا تنويما مغناطيسيا !

وتبع الضابط الروسى عربة الأميرة وعرف بيتها، وحام حول البيت، وسأل الجيران، فعرف أن هذه الساحرة هى أميرة مصرية شابة، وإنها ابنة الأمير حلیم شقيق الملك فؤاد ملك مصر، وأرملة الأمير ابراهيم أغنى أمير مصرى فى تلك الأيام !

وسأل : هل لها عشاق؟

فقيل له : نعم. كل الخيول التى فى اسطبلها ! إنها تمضى مع هذه الخيول أغلب ساعات اليوم !

ولم يصب الضابط بالذعر عندما علم من تكون الساحرة الحسناء. بل أسرع يضع خطة ليغزو بها قلب الأميرة الجميلة !

واكتشف أن خير طريقة للحرب هى الهجوم الخاطف.. ووصل إلى هذه الحقيقة قبل أن يصل إليها هتلر بعشرات السنين !

وذهب الضابط الروسى الشاب إلى بيت الأميرة فى باريس، وطلب التشرف بمقابلتها لأمر هام !

وعندما أبلغت وصيفة الأميرة صاحبة السمو أن ضابطا روسيا يريد مقابلتها فورا، تصورت أنه يحمل لها رسالة من الغراندوقة أو لجا شقيقة قيصر روسيا، وصديقتها القديمة !

وفوجئت الأميرة بالضابط الروسى الشاب يقول لها :

— جئت لاستأذن سموك فى شراء أحد جيادك ! إن جيادك هى أجمل جياد رأيته فى حياتى ! إنها لا تمشى إنها ترقص ! إنها لا تجرى، إنها تطير !

وسرت الأميرة من إعجاب الضابط الروسى الشاب بجيادها، وذكرت له

أسماء الجياد التي تملكها، وأصل كل جواد، ونسبه، وعدد السباقات التي اشترك فيها، والجوائز التي حصل عليها..

ومكثت الأميرة ساعتين كاملتين، تصف خيولها، وتتغزل في كل واحد منها، وكأنها ترسم لكل حصان صورة بالألوان، أو كأن كل حصان رجل، له تاريخ وقصة ومغامرة!

وقد كانت الأميرة تهوى الخيول، وتهتم بتربيتها، وتجد سعادة لا حد لها في الحديث عن خيولها.

وشجعها على الحديث عن الخيول أن الضابط الروسي الشاب بدأ مبهوراً بما يسمع، يستزيدها كلما توقفت، وكأنها تغنى له أغنية رائعة من أغاني القوزاق!

وفجأة قال الضابط الروسي الشاب:

– ولكن هناك (مهرة) جميلة فاتنة، أثارتني، هزتني، أخذت بلبى، ملكت على حواسي، ما كدت أراها حتى جننت بها. جعلتني لا أنام الليل، أحلم بها. أتمناها. إنى مستعد أن أدفع عمري كله من أجل الحصول عليها. هذه هي المهرة التي أريدها، ولا أريد سواها..

قالت الأميرة في دهشة:

– أي مهرة؟

قال الضابط الروسي:

– أنت!

صرخت الأميرة في ذهول:

– أنا؟!

قال الضابط الروسى فى هدوء :

– نعم أنت.. إننى أحبك وأريد أن أتزوجك!

– كيف تحبنى وتتزوجنى وأنت لا تعرفنى؟

– إننى خبير فى الخيول الأصيلة!

– ولكن أين رأيتنى؟

– فى عربتك.. فى شارع الشانزليزيه.

– فى هذا الشارع تمشى أجمل نساء فرنسا، بل نساء العالم!

– لم أر فى الشارع الكبير إلا امرأة واحدة هى أنت!

– أنت شاعر!

– أنا فارس!

– إنك أول رجل شبهنى بالحصان!

– لأننى أحب الخيول!

– ولهذا أحببتنى؟

– المرأة الجليلة أشبه بالحصان الجميل!

– ولكنى حصان متوحش!

– لذتى أن أروضه!

سوف تقع من فوق الحصان.

- ساقع في الجنة !
- لو أنك شبهتني بأى شيء آخر في الدنيا لما استطعت أن تفتح قلبي !
- إننى أحب أن أدخل إلى قلبك فوق حصان !
- الحصان لك ! كم تدفع فيه !
- شبابى وحياتى !
- إنه أغلى حصان بعته في حياتى !
- إننى لم أدفع فيه إلا واحدا من ألف من ثمنه !
- حدثنى عن الخيول في روسيا !
- أنا واحد منها !
- جميلة وذكية وجريئة !
- وتحتمل كثيرا !
- إنك تعجبني !
- ستتزوجيننى ؟
- نعم
- متى ؟
- متى تشاء ! أنا الماهرة.. وأنت صاحب الحصان !

وتقدم الشاب الروسى نحو الأميرة الفاتنة، ورفع ذقنها، ثم قبلها قبلته الأولى.

ولم تقاومه، وإنما ترنحت وهى تذوب بين ذراعيه، ثم قالت له :

— نسيت أن أسألك.. ما هو اسمك؟

— اسمى ديورك !

* * *

وسمع ملك مصر، بقصة هوى الأميرة المصرية والضابط الروسى فجن جنونه، وطار عقله عندما علم باعتزامها الزواج منه.

وأرسل الملك على الفور رسولا إلى باريس قابل الأميرة وقال لها وهو يرتجف :

— إن جلالة الملك غاضب جدا وثائر جدا. كلفنى أن أبلغك أنك إذا تزوجت هذا الضابط الروسى فسوف ينتزع منك لقب (صاحبة السمو الأميرة) — إن الرجل الذى أحبه لا ينادينى أبدا بيا صاحبة السمو الأميرة ! إنه ينادينى (حبيبتى) ! وما دام عمى الملك لا يستطيع أن يجردنى من لقب (حبيبتى)، فلا يهمنى أى لقب سواه.

— إن الأسرة المالكة سوف تقاطعك وتتبرأ منك.

— إن المرأة المشغولة بالحب ليس لديها وقت للتشريفات الملكية !

— إن الملك سوف يجردك من كل أموالك فى مصر.

— عندما نحب يصبح أى شىء آخر لا قيمة له.

— سوف تموتين من الجوع.

— سوف أعيش على الحب !

— الحب لن يطعمك !

— لو أنك ذقته.. أو لو أن جلالة الملك ذاقه مرّة واحدة، لعرف أن الحب الذي يمنح الحياة قادر على أن يعطى الطعام !

وتوالت رسل الملك على الأميرة العاشقة، تحذرها وتنذرها، تهددها وتتوعددها، ولكنها طردت الرسل جميعا وقالت إنها مستعدة أن تضحي بكل شيء من أجل حبها !

واعتنق الضابط الروسي الدين الاسلامي، وتزوج المهره الملكية !

وما كاد ملك مصر يسمع بالنبا الفاجع حتى كلف رئيس ديوانه بأن يبرق إلى الأميرة صالحة برقية يقول فيها : «تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم، وأصدر أمرا ملكيا كريما، بتجريدك من لقب الامارة، ومن كل حقوقك».

وأرسلت الأميرة صالحة برقية إلى الملك، لعلها أغرب برقية تلقاها ملك مصر، بل لعلها أغرب برقية أرسلتها أميرة إلى ملك جالس على العرش. كان نص برقية الأميرة إلى الملك عبارة عن كلمة واحدة هي (طظ) !

* * *

ما كادت الأميرة فضيلة تسمع نص البرقية التي أرسلتها الأميرة صالحة إلى الملك حتى صرخت، واستغرقت في ضحك متواصل !

ودمعت عيناها من الضحك، فأخرجت منديلا ومسحت به دموعها وهي تقول :

— لا أعرف كيف أشكرك يا توفيق باشا.

– لأننى رويت لك قصة الأميرة صالحة؟

– بل لأنك أرشدتنى إلى نص البرقية التى سوف أرسلها إلى الملك فاروق!

– ولكن القصة لم تنته بعد!

– يكفى أنها تزوجت من تحب، وعاشا فى التبات والنبات، وخلفا الصبيان والبنات!

– كانت الأميرة قد رزقت من زوجها الأمير إبراهيم، بولدين وبنت، هم الأمير محمد على إبراهيم، والأمير عمرو إبراهيم، والأميرة عين الحياة. وكانوا أطفالا يعيشون مع أمهم الأميرة صالحة فى باريس، واتفق ملك مصر مع عدد من رجاله على أن يسافروا متنكرين إلى باريس وهناك يدبرون خطة لاختطاف أولاد الأميرة. وذات يوم خرجت الأميرة لتزور أسطبلها، ومعها زوجها، الضابط الروسى الشاب.

وعادت الأميرة إلى بيتها فلم تجد أطفالها الثلاثة.. وقالت المربية إن ثلاثة من الرجال جاءوا وقالوا إن الأميرة تريد أطفالها الثلاثة فى الاسطبل!

– وكان مظهر الرجال يدل على الاحترام، فلم تشك فيهم المربية، وسلمتهم الأولاد.. وجئت الأميرة صالحة، وأبلغت البوليس...

وحوصرت الموانئ والطرق لضبط العصابة التى خطفت الأمراء الثلاثة الصغار!

وفشلت كل المحاولات.. وصل الأطفال الثلاثة إلى القاهرة، وسجنهم الملك فى أحد القصور، ومنعهم من الاتصال بأمهم!

كل ذلك عقابا للأميرة لأنها قالت (طظ) للملك :

قالت الأميرة جزعة :

— تقصد أنه من الممكن أن يخطف الملك ابني !

— كل شيء ممكن في هذا البلد !

— لن تستطيع قوة على هذه الأرض أن تأخذ ابني مني !

— إن الملوك لا ينتزعون الأطفال من أمهاتهم فقط.. بل إنهم ينتزعون قلوبهم أيضا !

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن ملك مصر استطاع أن يقنع الأمراء الصغار أن أمهم الأميرة صالحة هي التي طردتهم من بيتها لكي تتفرغ لزوجها الروسى الشاب. وصدق الأطفال الصغار الأكذوبة. وقاطعوا أمهم فترة طويلة.. وعندما كبروا عرفوا الحقيقة، وعادوا يتصلون بأمهم، ولكن بعد أن تمزق قلبها سنوات طويلة !

— إننى مستعدة أن أقتل الملك إذا انتزع ابني مني.

— قد لا يكون الملازم جاك ستيوارت مستعدا لأن يدخل كل هذه المعارك من أجلك !

— سوف يدخلها من أجلى..

— هل أخبرته بالعقبات المنتظرة !؟

— إننى لم أخبره بعد بأننى قررت أن أتزوجه !

- ماذا تقولين؟ تفكرين في الطلاق.. وتعلنين الحرب.. وتستشريينني.. قبل أن تعرفي إذا كان هذا الشاب مستعدا أن يتزوجك أو لا؟
- إنه لا يستطيع أن يقول لا!
- هل تعرفينه جيدا؟
- عرفته منذ بضعة أيام!
- وكيف تستطيعين الحكم عليه!
- لأنني أعرف نفسي!
- إن هذا جنون يا صاحبة السمو!
- المحبون يتحولون دائما إلى مجانين!
- أنت مجنونة فعلا!
- لو ذقت الحب مرة واحدة لعرفت طعمه يا باشا..
- أعرف طعمه.. وأعرف أن ألد جنون في الدنيا هو جنون الحب!

الفصل الأربعون

مائدة عشاء في قصر الأميرة فضيلة.

أضيئت غرفة الطعام بالأنوار الساطعة. الأطباق من ذهب الشوك
والسكاكين من ذهب. شعر معظم المدعوات من ذهب. مجوهرات السيدات
تشع بأضواء متألقة، فيصبح جو الغرفة مزيجا من الذهب والنور. الخدم
يرتدون قفاطين سوداء مطرزة بالذهب. الذي يدخل الغرفة ولا يعرف أن هذه
ليست غرفة مائدة الأميرة، يتصور أن البنك الأهلي يخفي احتياطي الدولة
من الذهب في هذه الغرفة !

الأميرة فضيلة في ثوب ذهبي أنيق، يكشف عن صدرها العاجي وذراعيها
البضتين، تجلس على رأس المائدة وإلى يمينها الأمير محمد علي إبراهيم
بنظارته الأمريكية، وقامته المتوسطة، وبطنه الكبير وإلى يسارها المليونيير
محمد سلطان، بوجهه الأسمر، وأذنيه الطويلتين، وملامحه التي تجعل بينه
وبين توت عنخ أمون شبها غريبا.. ومعروف باشا يجلس في مواجهة زوجته،
وعن يمينه الأميرة فاتنة هان زادة زوجة الأمير محمد علي إبراهيم، بجمالها
الساحر الذي ورثته عن سلاطين بني عثمان، وعن يساره حرم المليونيير
محمد محمود خليل بك رئيس مجلس الشيوخ السابق ورئيس ثمانية وعشرين
مجلس إدارة شركة مساهمة، أو عضو في مجلس إدارتها !

وتناثرت على المقاعد بضعة ملايين من الجنيهات، في شكل أمراء وأميرات، نبلاء ونبيلات، باشوات ووزراء سابقين، وأصحاب ملايين الرجال بملابس الفراك السوداء والياقات البيضاء والنساء في ملابس السهرة، هذه الملابس التي تخفى ما يجب أن يظهر، وتظهر ما يجب أن يختفى، وتجعلك لا تعرف هل المرأة ترتدى ملابسها أم تخلع ملابسها، وهلى هى فى حفلة ساهرة أم فى غرفة النوم!

وكان الملازم جاك ستيوارت، يجلس بين الأنسة موصيرى إحدى صاحبات بنك موصيرى، وبين الكونتس منشة. وقد تعمدت الأميرة فضيلة أن تجلس جاك ستيوارت فى هذا المقعد بين الأنستين لأنهما من صاحبات الملايين، بل لأن الأنسة موصيرى كانت فى الخامسة والستين والكونتس منشة فى السبعين..

وكان جاك مذهولا بهذا البذخ الذى يراه أمامه، فقد كان يعلم أن أصحاب الملايين فى انجلترا يأكلون بيضة واحدة فى الأسبوع؟ وأن مستر تشرشل، رئيس الوزارة يرتدى بنطلونا مرقعا! وأن ملك انجلترا يأكل ببطاقة التموين كالتى يأكل بها عامل منجم الفحم فى مقاطعة ويلز.. ولم يستنكر جاك هذا الاسراف، بل كان سعيدا به. فقد افتقد المظاهر الارستقراطية، والمآدب الملكية، منذ بدأت الحرب، وعاش الانجليز فى بلادهم يربطون الأحزمة على البطون.

وتنهدت الكونتس منشة وقالت بالفرنسية :

— متى تنتهى هذه الحرب الملعونة ياربى!

قال لها جاك :

— هل لك أولاد يحاربون في الحرب ياسيدتى !

قالت الكونتس في استنكار :

— إننى أنسة ! لم أتزوج بعد !

وأسرع جاك يبدى أسفه واعتذاره للكونتس العذراء، ابنة السبعين ربيعاً :

— أسف يا أنسة.. تصورت أن أحدا فقدته في الحرب !

— نعم فقدت رائحة « أحبك » الفرنسية !

— سقطت قنبلة على زجاجة العطر

— لا.. منذ سقوط فرنسا في يد الألمان لم يعد فى إمكانى الحصول على عطر « أحبك »، وهو العطر الوحيد الذى يعجبنى !

— لك حق يا أنسة، إن سقوط فرنسا فى يد الألمان مصيبة كبرى !

وبينما كانت المناقشة تدور عن مصيبة سقوط فرنسا، والمصيبة الأكبر وهى عدم وصول عطر « أحبك » الباريسى إلى القاهرة، كانت الأميرة هان زادة تقول لمعروف باشا زوج الأميرة فضيلة :

— إن قصركم هذا يشبه قصور الجنة !

— قال الباشا : إننى أتصور الجنة رجالاً فى ملابس الفسراك ونساء فى فساتين السهرة !

— وماذا يفعل الملائكة !

— يقومون بمهمة الجرسونات !

وضحكت الأميرة هان زادة ضحكة حلوة سمعها أحمد صديق باشا
السفير في وزارة الخارجية، فقال :

– كل منا يتصور الجنة في صورة مختلفة. المسجون يتصورها أرضاً بلا
أسوار.. الجائع يتصورها مطعماً كبيراً.. النساء يتصورنها معرضاً للأزياء..
المراهقون يتصورونها صالة رقص.. خصوم الوفد يتصورونها دولة
لا يرأسها النحاس باشا ! الوفديون يتصورونها دولة يرأسها النحاس باشا..
المفلسون يتصورونها بنوكاً تصرف الشيكات بغير رصيد محمد بك محمود
خليل يتصورها أى مكان تقيم فيه السيدة سعاد راشد !

– وضحك الجالسون حوله.. فقد كانوا يعلمون أن رئيس مجلس الشيوخ
السابق وقع في غرام السيدة سعاد راشد التي كانت تعتبر من أجمل نساء
مصر، وتزوجها سرا، على الرغم من أنه يكبرها بأربعين سنة، وأنه تزوجها
بغير علم زوجته الفرنسية العجوز !

وسمع محمد محمود بك خليل اسمه من بعيد يردده صديق باشا فقال له :

– ماذا تقول عنى يا صديق؟

قال صديق :

– كنت أقول إن مجلس الشيوخ فقد قيمته عندما تخلت عن رياسته !

– أنا لم أتخل عن الرياسة، الحكومة هي التي طردتنى !

– لعلها تصورت أن لا وقت عندك لرياسة مجلس الشيوخ !

– ماذا تقصد !.

– أقصد .. أقصد.. أنك مشغول في الشركات التي ترأس مجالس إدارتها !

وضحك الجالسون حول صديق باشا !

وسألت الأميرة فضيلة جارها الأمير محمد إبراهيم هامية :

– ما سر ضحكهم ؟

قال الأمير :

– إنهم يتحدثون عن الحب !

– وهل الحب مضحك !

– إنه يجمع بين قمة المأساة وقمة الكوميديا !

كنت أريد أن أسألك سؤالاً شخصياً !

– عن الأميرة هان زادة !

– لا عن الأميرة صالحة والدتك !

– والدتي !

– نعم.. إننى سمعت قصتها وأنا معجبة بها !

– لقد ماتت قبل أن تولدى !

– أعلم ذلك.. ولكنى أعلم أنها داست على لقبها وثروتها من أجل الحب..

أريد أن أسألك : ألم تندم بعد ذلك !

– لقد سألتها هذا السؤال.

— ماذا قالت؟

— قالت إنها كانت تفعل نفس الشيء لو عادت عقارب الساعة إلى الوراء!

— على الرغم من أن الملك أبعدك أنت وإخوتك!

— قالت لى إن هذا الفراق ألمها ألما قاتلا.. ولكن سعادتها بالرجل الذى أحبته جعلها تتحمل كل عذاب.. قالت لى مرة إن يوما واحدا مع الحب يساوى عمرا من العذاب!

— وهل تعتقد أنها كانت تحبك أنت وإخوتك؟

— كانت مجنونة بأولادها كانت تكتب لنا خطابا كل يوم لمدة عشر سنوات، ولم تتلق ردا واحدا، لأن الملك كان يمزق خطاباتنا لنا. ومع ذلك استمرت تكتب كل يوم خطابا!

— ولم يقتلها فراقكم!

— قتلها فراقنا، وأحياها حبها للضابط الروسى!

— هل رزقت منه بأولاد!

— نعم .. رزقت منه بولد اسمه اسماعيل، وقد أطلقت عليه هذا الاسم تيمنا باسم جدها الخديو اسماعيل.

— وهل جاء إلى مصر؟

— عاش فى أوربا.. وأدخلته أمى الأميرة صالحة جامعة كمبريدج فى انجلترا وكانت تتمنى أن تزوجه من أميرة مصرية أو أميرة راها من بنى عثمان. ولم تعجبه أى أميرة راها وبعضهن كانت لا تقل جمالا عن ملكات

الجمال. وكان يقول لأمى : لن أتزوج.. سأعيش طوال حياتى بلا زواج.. لن أتزوج امرأة إلا إذا عشت معها خمس سنوات كاملة، وبعد ذلك اقرر أن أتزوجها أو لا أتزوجها.. وكان الشاب جميلا ورث جمال عينى أمى وتقاطيع وجهها، وقامة أبيه الرائعة.. وكانت كل العرائس المقدمات من صاحبات الملايين، ومع ذلك رفضهن جميعا !

واستطرد الأمير محمد قائلا :

— وحدث بعد قيام الثورة الروسية بخمس سنوات أن هربت فتاة روسية وشقيقها إلى لندن

وكانت الفتاة الروسية لا تملك سوى ملابسها، وعملت خياطة فى لندن.. وبينما كانت تسير فى شارع اكسفورد ستريت، رأت سيارة كرايذر جميلة، يقودها شاب. وخفق قلبها عندما رأت الشاب. شعرت أنه أجمل شاب رآته فى حياتها.. وعادت إلى بيتها وصورة الشاب والسيارة تطاردها كانت تذكر كل صفات الشاب الذى رآته. لون شعره، لون عينيه، شكل ذقنه، وشكل السيارة ورقمها أيضا !

لقد قالت لى إنها لم تجن بالشاب وحده، وإنما جنت بالسيارة أيضا ! بمعنى أن الشاب أصبح جزءا من السيارة، والسيارة جزءا من الشاب ! كان المرأة لا تحب الرجل وحده، إنما تحبه فى ديكور معين. فلو اختلف المنظر لما أحببت الشاب كل هذا الحب. ولو اختلفت أرضية الصورة، لفقدت الصورة كثيرا من جمالها.. أى أن المرأة لا تحب الرجل وحده، إنما تحبه، وتحب ما حوله.. تحبه فى إطار معين، فإذا خرج من هذا الإطار، فقد كثيرا من قيمته !

وفى صباح اليوم التالى كانت الخياطة الروسية الشابة راقدة فى فراشها

تحلم بالشاب الذى رآته فى السيارة الكرايزلر، وتحلم بالسيارة الكرايزلر التى فى داخلها الشاب !

وكان ذلك اليوم يوم عطلة، لا تذهب إلى عملها فى مصنع الخياطة. وسمعت سيارة تقف أمام باب بيتها. وبحركة غير إرادية، وجدت نفسها تقفز من فراشها وتطل من النافذة..

وفتحت قمها من الدهشة. رأت عجباً. رأت أن السيارة التى وقفت أمام بيتها هى نفس السيارة الكرايزلر التى رأتها فى شارع أوكسفورد ستريت. نفس لون السيارة. نفس الرقم الذى حفظته عن ظهر قلب.. والسائق هو نفس الشاب الجميل الذى رآته بالأمس فى شارع اكسفورد ستريت، الذى عاشت صورته فى ذاكرتها، بكل ملامحها وتفصيلها ودقائقها !

وبغير تفكير أسرعت وخلعت قميص النوم، وارتدت ملابسها، ونزلت تجرى إلى الدور الأرضى.

ولم تجد الشاب الجميل !

وأسعدت إلى باب البيت، وفتحته وخرجت إلى الشارع فلم تجد السيارة الكرايزلر ! وشعرت بخيبة أمل لم تشعر بها طوال حياتها.. تصورت أنها كانت تحلم.. تصورت أنها من شدة تعلقها بهذا الشاب تخيلت أنه جاء يطرق بابها !

ورأها شقيقها والدموع فى عينيها... وسألها عما يبكيها، فروت له كل ما حدث وأنها تخشى أن تكون قد جنت.. فقد رأت شاباً وسيارة ثم اكتشفت أنه ليس هناك لا شاب ولا سيارة، وإنما كانت تحلم !

وضحك شقيقها وقال لها :

- إنك لم تكونى تحلمين !
- إذن أين الشاب.. وأين السيارة الكرايزلر؟
- لقد جاء الشاب فعلا وقابلنى ولم يبق سوى دقيقة !
- وكيف تتركه يذهب !
- لم أكن أعلم أنك تحلمين به !
- كيف لا يبقى سوى دقيقة؟
- إنه طالب فى جامعة كامبردج
- هل أنت عرفت اسمه؟ هل عرفت عنوانه !
- اسمه اسماعيل ديورك، وهو ابن الأميرة صالحة وضابط روسى صديق
لأمنا
- يجب أن أراه.
- سترينه !
- يجب أن أراه فوراً !
- إنه جاء يقول لى إن والدته الأميرة صالحة تدعونى أنا وأنت لنتناول
طعام الغداء معا غدا.
- طبعا قبلت الدعوة.
- قبلتها ..
- وهل سيكون إسماعيل هذا موجودا فى الغداء؟
- لا أعرف !

- كيف لا تعرف؟. هذا مهم جدا! هذا أهم سؤال في الدنيا!
- كل ما أعرفه أن إسماعيل ديورك سيحضر إلى بيتنا غدا، ليوصلنا إلى مأدبة الغداء.
- هل سيحضر بسيارته الكرايزلر!
- لا أعرف!
- اتصل به وقل له يجب أن يحضر بسيارته الكرايزلر! لا أستطيع أن أراه بغير سيارته الكرايزلر!
- وفي اليوم الثانى جاء الشاب إسماعيل ديورك إلى بيت الخياطة الروسية.. في سيارة كرايزلر!
- وجلست الخياطة الروسية بجانبه في المقعد الامامى. ومنذ تلك اللحظة لم تغادر السيارة الكرايزلر!
- فقد أحبها إسماعيل في اليوم الاول!
- وخطبها في اليوم الثانى!
- وتزوجها بعد أسبوع من اللقاء!
- وابتسم الأمير محمد على ابراهيم وهو ينهى قصته قائلا:
- وهكذا دخل الحب قلب أمى راكبا حصانا.. ودخل قلب ابنها وأخى غير الشقيق، راكبا سيارة كرايزلر!
- وتنهدت الأميرة فضيلة وقالت:
- هذه أجمل قصة حب سمعتها في حياتى!

— إن الحب خلق حبا !

— وهل هما سعيدان حتى اليوم !

— لقد مات أخى غير الشقيق إسماعيل وعمره ٤٢ سنة. أصيب بسرطان فى حلقه، ومات بعد ذلك ببضعة أسابيع.. وقابلت أرملة الروسية فى سويسرا منذ شهر.. ورأيت أنها لا تزال جميلة رغم أن زواجها بإسماعيل دام ٢٢ سنة ! وسألتها : ألا تفكرين فى الزواج ؟. إنك ما زلت شابة !

قالت لى وهى تبتسم : إن زواجى بإسماعيل لم يدم أكثر من ٢٢ سنة ! ولم أشعر إلا أنها ٢٢ يوما.. لقد مات وأنا أظن أننا ما زلنا فى شهر العسل ! قلت لها : لا شك فى أنك تعيسة الآن.

قالت : تعيسة ؟ أبدا.. إن اسماعيل غمرنى فى هذه السنين بسعادة تكفينى مائة سنة.. تكفينى أن أكون أسعد امرأة فى العالم إلى آخر يوم فى حياتى !

وترنحت الأميرة فضيلة وهى تسمع قصة حب أخى الأمير محمد على إبراهيم.

ولاحظ الأمير دمة تترقرق فى عينى الأميرة، فابتسم وقال.. وكأنه يجفف الدمة :

— وهكذا ترين أن الحب دخل قلب أمى راكبا حصانا، ودخل قلب أخى راكبا سيارة.

قالت الأميرة فضيلة :

— وأنت .. كيف دخل الحب قلبك؟

قال الأمير بصوت مشجون بالعاطفة:

— دخل الحب قلبي راكبا سفينة!

— سفينة حربية!

— لا.. سفينة ركاب! كنت عائدا من أوربا على ظهر الباخرة أسبريا،
عندما رأيت هان زادة مع والدها الأمير عمر الفاروق ولى عهد سلطان تركيا
المخلوع! ماكدت أراها حتى أحسست كان عاصفة هوجاء تقتلعنى! جمال
المرأة يكون هادئا كالنسيم أو ساخنا كالرياح الخماسينية أو باردا كتيارات
الهواء في القطب الشمالى. ولكن جمال هان زادة كان أشبه بعاصفة
اقتلعتنى من مكانى! واحببتها في الصباح، وخطبتها في العصر، واتفقنا على
موعد الزواج في المساء!

كانت الأميرة فضيلة تتمايل وهى تسمع قصص الحب التى يرويها الأمير
محمد ابراهيم. وكانت تسمع هذه القصص وهى تأكل بعينيها الضابط
الانجليزى جاك ستيوارت. تتخيله هو بطل كل قصة، وتتخيل نفسها بطة كل
قصة! كأنه هو يركب الحصان ويركب السيارة ويركب السفينة، يدخل قلبها!

وسمعت الأميرة فضيلة الضابط جاك ستيوارت يقول:

— لقد قرأت في جريدة «التايمز» أن فساتين السهرة ستختفى بانتها
الحرب!

وتوقفت جميع السيدات عن الحديث. حدثت وقفة رهيبة. صمت كل شيء
فجأة. تجمدت الشوك والسكاكين في أيدي السيدات. بلغ من عمق السكون
وشدة وقع التصريح الخطير أن كان في فم الكونتس منشة قطعة من اللحم

توقفت عن مضغها. وقطعت الأنسة موصيرى حديثها عن أسعار الاسهم بعد الحرب، ولم تتم الأميرة هان زادة الجملة التى كانت تتحدث فيها مع معروف باشا عن مظالم الغازى مصطفى كمال اتاتورك مع امرأة بنى عثمان، وكيف طردهم من تركيا بالملابس التى يرتدونها فقط!

وصمت الرجال احتراماً لذهول السيدات عندما سمعن الخبر الصاعق عن اختفاء فساتين السهرة وقطعت الأميرة فضيلة الصمت بقولها:

— إننى لا أتصور الحياة بغير فساتين سهرة:

قالت الأميرة هان زادة!

— إن فساتين السهرة دليل المدنية والحضارة.. ومعنى الغائها أن يكون عالم بعد الحرب بلا مدنية ولا حضارة!

قال محمد محمود خليل بك باسم:

— لا أظن أن فستان السهرة سيختفى.. ستحل مكانه ورقة التوت التى كانت تضعها أمنا حواء!

قال أحمد صديق باشا، وابتسامته تطل من خلف نظارته:

— إنها خسارة كبرى! أن ثوب السهرة هو الذى يظهر فى المساء ما يتمنى أن يراه الرجل فى الصباح!

قالت الأميرة هان زادة!

— تصوروا هذه السهرة الجميلة بغير فساتين السهرة التى ترتديها النساء.. كانت السهرة ستفقد ثلاثة أرباع جمالها!

قالت الأنسة موصيرى وهى تنظر إلى فستان السهرة المزركش الذى ترتديه :

— بل كانت تفقد كل جمالها ! قال صديق باشا فى ابتسامة خبيثة :

— أن فستان السهرة هو الثوب الذى ترتديه المرأة فى أول الليل بصعوبة.. وتخلعه فى آخر الليل.. بسهولة !

وضحك الرجال.. وابتسمت النساء.. وقالت الأميرة فضيلة مداعبة صديق باشا :

— يظهر يا باشا أنك متخصص فى خلع ملابس النساء !

قال صديق باشا :

— إن مهارة زئز النساء تتوقف على السرعة التى يستطيع أن يجرد المرأة من ملابسها !

المفروض فى زئز النساء أن يدرس الأمكنة التى فيها الزراير والمشابك وهى عملية أشبه بعملية النشل تحتاج إلى مهارة فائقة وخفة يد. وكما يستطيع النشال فى لحظة أن يضع يده فى جيب الضحية وينتزع محفظة نقوده دون أن يشعر فمهارة زئز النساء أن يخرج المرأة من داخل ملابسها دون أن تشعر.. فكثير من النساء يغيرن رأيهن أثناء خلع ملابسهن !

قال جاك ستيوارت :

— أعرف صديقا لى يستطيع أن يجرد المرأة من ثيابها وهو يصافحها عند باب الشقة !

قالت مدام اسبرنجاي، وهى غانية يهودية، يعشقها خال الملكة وتدعى

إلى المآدب بهذه الصفة :

— أعطني عنوان هذا الشاب :

ضحك صديق باشا وأشار إلى جاك وهو يقول :

— إن عنوانه في هذه الغرفة !

واحمر وجه جاك ستيوارت !، واحنى رأسه إلى الأرض.. وتصور الجالسون أنها علامة الخجل والتواضع. ولكنه كان يتعذب في أعماقه. إنه حقيقة كان خبيرا في خلع ملابس النساء.. ولكن ما الفائدة ! لن يستطيع أن يزاوِل هذه الخبرة الا بعد أن يجرى الجراحة المطلوبة في مستشفى مايو كلينيك.

واهتزت الأميرة فضيلة وتصورت نفسها بين يدي جاك، وهو يمارس هوايته المحببة. أنها ليست في حاجة إلى هذه الهواية.

وعادت تأكله بعينها ! إن الحب لم يدخل قلبها راكبا حصانا أو سيارة أو سفينة ! أنه دخل راكبا سلاح الفرسان البريطاني وسلاح النقل والبحرية البريطانية كلها !

وتمنت أن ينصرف المدعون جميعا، ويأخذوا معهم زوجها، ولا يبقى في القصر الا جاك ستيوارت !

واستمر العشاء، وأحست الأميرة فضيلة بأنه مضي متثاقلا ببطيئا، كانت تشعر بضيق لأن بينها وبين جاك عدة مقاعد. لعنت البروتوكول الذي جعلها تضطر أن تجلس الأمير محمد على إبراهيم عن يمينها والمليونير محمد سلطان عن يسارها. وأحست بان بروتوكول قلبها يختلف عن بروتوكول القصر. بروتوكولها يجعل جاك قريبا منها، قريبا جدا، في داخلها، في

أعماقها.. وبدأت تشعر أن جاريها ثقيلان، وأن المدعويين والمدعوات ثقلاء..
إنهم يأكلون ببطء شديد، لماذا لا يلتهمون الطعام بسرعة؟ واتهمست
السفرجية بأنهم يمشون حاملين الأطباق بسرعة السلحفاة. لماذا لا يسرعون
ياناس؟

وانتهى العشاء أخيرا..

وقام المدعوون والمدعوات إلى الصالون الذي تحول إلى صالة رقص.
ودعا الأمير محمد على إبراهيم الأميرة فضيلة للرقص فرقصت معه على
مضض.

ثم دعاها أحمد صديق باشا للرقص فرقصت معه. أنه راقص رائع على
الرغم من أنه بساق واحدة! لقد قطعت ساقه، ووضعت بدلا منها ساق
صناعية، ومع ذلك فهو يتحرك ويقفز كأنه بساقين! ومع أن الرقص مع
صديق باشا متعة حقيقية كانت تحرص عليها، إلا أنها في هذه المرة أحست
بأنها تريد أن تنتهي الرقصة بأسرع ما يمكن. كانت طوال الوقت تتابع جاك،
وهو يرقص مع الكونتس منشة، ثم مع الأنسة موصيري، ومع أنهما في
السبعين من عمرهما إلا أنها أحست بغيرة شديدة، فقد تمنيت ألا يلمس
امراة سواها!

وانتهت الرقصة، ودعاها صديق باشا لرقص الرقصة التالية معه،
فاعتذرت بأنها وعدت الملازم جاك ستيوارت بالرقصة التالية.. واتجهت إليه
فوجدته قد قام ليرقص مع مدام اسبرنجاي!

وأحست بالغيرة تأكلها. كرهتها كما لم تكرهها. وكرهت معها خال الملك
الذي يعشقها!

ولم تبال بالأصول المرعية في الرقص، فأتجهت إليهما، وقطعت عليهما
الرقصة وهي تقول لمدام اسبرنجاي :

— إن أمنية زوجي أن يرقص معك !

قالت المدام :

— إنني مستعدة أن أرقص معه الرقصة التالية.

— أنه مصر على هذه الرقصة !

— ولكنى وعدت جاك بها :

سوف أحل مكانك إذا لم يعترض جاك !

وقال جاك : كيف اعترض ! إنه لشرف لى يا صاحبة السموا !

وتعلقت الأميرة فضيلة بكتف جاك وبدأت ترقص معه، بينما وقفت مدام
اسبرنجاي مذهولة من تصرف الأميرة العجيب !

وراحت تبحث بعينها عن معروف باشا الذى يتمنى أن يرقص معها فلم
تجده، ومشيت تبحث عنه.. ووجدته يلعب البوكر مع بعض الامراء والنبلاء !
وعندما رآها معروف باشا لم يتحرك من مقعده، ومضى في اللعب..
واقتربت مدام اسبرنجاي منه وقالت له :

— قالت لى الأميرة أنك تريد أن ترقص معى هذه الرقصة !

— أنا؟.. أنا لم أقل ذلك

— لقد قالت لى أن زوجي يتمنى أن يرقص معك !

— لابد أنها تزوجت رجلا آخر من وراء ظهري !

ولم تضحك مدام اسبرنجاي للدعابة، وجزت على اسنانها، وفهمت أن
الأميرة خطفت منها الضابط الوسيم!

* * *

مالت الأميرة فضيلة برأسها على كتف الملازم جاك ستيورات، وهي
ترقص معه رقصة التانجو، وقالت.

— لماذا لم تنشلني؟

— كيف انشلك؟

— فهمت من الحديث بينك وبين صديق باشا أنك أمهر نشال في العالم..
أي من الذين ينتزعون بسرعة المرأة من داخل ملابسها!

— كانت هذه هوايتي إلى أن قطعت الحرب يدي!

— أن يدك أجمل يدين رأيتهما في حياتي!

— ولكنهما فقدتا الدافع إلى النشل!

— ماذا تقصد؟

— ألم يخبرك صديقك عادل علاء الدين؟

— قال لي إنك شاب ممتاز!

— إنه رجل جنتلمان فعلا لأنه كتم سرى!

— ماهو سر؟

— شيء لا يقال!

— كنت اتصور اننى المرأة الوحيدة التى تقول لها ما لايجوز أن يقال
لغيرها.

— أخشى أن تصابى بخيبة أمل!

— مادمت بين ذراعىك فلن يخيب أملى!

— هذه هى المأساة!

— أنت رجل غامض!

— أننى أخفى عورتى!

— عورة العاشق أجمل ماتراه المرأة التى تحبه.. إنها رأسماله!

— ماساتى أن لغما نسف رأسمالى

— أنت تدزح!

— إننى أقول الحقيقة!

— كيف خدعتنى؟ كيف أخفيت عنى هذا؟ لقد تركتني أحبك.. تركتني

أقرر الطلاق من زوجى.. تركتني أقرر الزواج منك.. لماذا لم تقل لى إنك
شيك بغير رصيد؟

— لم تسألينى ياسيدتى

— أنت رجل نصاب! كاذب! مخادع! حقير! سافل!

وتخلصت الأميرة من ذراعيه، وتركت حلبة الرقص، والملازم جاك يقف

في مكانه متسمرا، وقد ازداد وجهه احمرارا..

وأسرعت الأميرة إلى السلم، وصعدت درجاته بسرعة، ودخلت غرفة نومها

وأرتمت على فراشها تبكى وتنتحب !

وأحست كأنها سقطت في هاوية سحيقة، قلبها تحول إلى بركان يقذف الحمم. ودموعها نار سائلة تحرق خديها. أحست بأنها سقطت فجأة من سماء أحلامها إلى الحضيض.. حضيض ملء بصخر مذاب، ! بحمم، بلهب وشواظ!

ولا يمكن ! مستحيل ! كيف يتحول رجلها في لحظة واحدة إلى هباء الرجل الذي أرادت أن تضحى من أجله بلقبها وثروتها وابنها وزوجها ويكل شيء.. ليس رجلاً !

وسقط الكحل من عينيها والبودرة من وجهها، والاحمر من شفتيها، وامتزجت كل هذه الألوان وجعلت وجهها يبدو مسخاً ! اختفى فجأة كل ما فيه من جمال وشباب وحيوية

ومضت في بكائها ونشيجها.. ومضت ساعات وهي لا تكف عن البكاء. وفتح زوجها معروف باشا باب غرفتها وهو يقول:

— الضيوف ينتظرون ليودعوك قبل انصرافهم.

ولم ترد عليه، ورفعت وجهها، فذهل معروف باشا عندما رأى زوجته الجميلة وقد تحولت إلى شبح !

وقال في لهفة : ماذا حدث؟

ولم ترد عليه وانما دفنت رأسها في وسادتها وراحت تبكى من جديد !

قال معروف باشا، في صوت متهدج :

— ماذا أقول للضيوف يا حبيبتي !

— قل لهم.. قل لهم إننى مت !

وهز معروف باشا رأسه فى عجب، وأغلق باب غرفة نوم الأميرة فى هدوء،
وهو يردد :

— ماتت؟ كيف؟ كيف ماتت زوجتى وأنا — عادة — أول من يعلم؟!

الفصل الواحد والأربعون

نظر محمد على علوية باشا المحامى، إلى قسمت فى عطف، وقال لها:

— هذا الاعتراف لن يخرج عم عبده من السجن!

وخلا وجه قسمت من التعبير. لم تعبر عن مشاعر خيبة الأمل. بقى
وجهها جامدا، كأنها وضعت فوقه قناعا من الثلج:

ومضى علوية باشا يقول:

— اعترافك أمام المحكمة بأنك كاتبة المنشور، وأن عم عبده لا يعرف
عنه شيئا، لن يخرج عم عبده من السجن، سوف يدخلك أنت إلى السجن..
وبدلا من أن يكون فى القضية متهم واحد، يصبح فيها متهمان.

— هل هذا هو رأيك؟

— إنه رأى القانون!

— وما هو الحل؟

— أن تأتيني بإثبات أن الراقصة نشوى كاذبة، أو أن تحضرى دليلا على
العلاقة بين الراقصة نشوى والصاغ عبد الفتاح الشبهاوى الضابط بالقلم
السياسى.

— أى دليل تريد ؟

— صورة فوتوغرافية تجمعهما مثلاً..

ولم تنبس قسمت ببنت شفة، وانصرفت من مكتب علوبة باشا صامته، وركبت سيارتها، وذهبت إلى «دار الهلال»، وقابلت المصور محمد يوسف كبير مصوري «دار الهلال». وكانت تعرفه لأنه قام بتصوير كل الحفلات الخيرية التي أقامتها جمعية ملجأ المتسولين، وكانت صورته تنبض بالحياة والجمال.

وكانت تعرف أن أبرز صفات محمد يوسف الأمانة والكتمان والایمان برسالة الصحفي.. فروت له القصة كاملة، وطلبت إليه أن يلتقط صورة للصاغ الشبهاوى مع الراقصة نشوى، وقالت له إن هذه الصورة ممكن أن تنقذ بريثاً من الاعداء.

وتحمس محمد يوسف، وقال إنه مستعد أن يخصص كل أوقات فراغه من العمل لهذه المهمة الخطيرة.

وفي كل يوم كانت قسمت تمر على محمد يوسف، وتصحبه معها في سيارتها، وتتجه السيارة إلى الشارع الذي تقيم فيه الراقصة نشوى..

وتقف السيارة بعيداً عن العمارة، ويمضيان الوقت يرقبان باب العمارة لرؤية الضابط الشبهاوى أثناء دخوله وخروجه !

وتكررت المحاولات دون جدوى !

لم يحدث مرة واحدة أن دخل الشبهاوى إلى بيت الراقصة !

وقال لها محمد يوسف إن الطريقة الوحيدة، هي الاتصال بخادمة

الراقصة ومعرفة مواعيد تردد ضابط القسم السياسى..

وفشلت محاولات محمد يوسف ، مع اعتدال خادمة الراقصة وكاتمة أسرارها !

كانت اعتدال امرأة حريصة، مستعدة أن تمكث الساعات الطويلة تشيد بالراقصة نشوى وحسن أخلاقها، وتقسم أغلظ الأيمانات بأنها تؤدي فروض الصلاة في مواعيدها، وتقسم بجميع الأنبياء والأولياء أنها ليس لها عشاق.. ولم تكن مستعدة أبدا أن تقول كلمة واحدة عن حياة الراقصة الخاصة. والتقط محمد يوسف صور العشاق الكثيرين الذين أقسمت اعتدال أنه لا وجود لهم إلا في مخيلة أولاد الحرام!

ولكنه لم يستطع أن يلتقط صورة واحدة للصاغ عبد الفتاح الشبهاوى! وأحست قسمت بأن الشبهاوى ليس سهلا.. وأنه حرص على ألا يتردد على بيت الراقصة، بعد أن تحدد موعد محاكمة عم عبده أمام محكمة الجنايات. :

ويئست قسمت، وأرادت أن تنصرف..

وقال لها محمد يوسف :

— فلننتظر ساعة أخرى.. إن عملى يبدأ بعد ساعة..

وبقى الاثنان فى السيارة يرقبان باب عمارة الراقصة.

وفجأة صرخت قسمت :

— غير معقول !

وقفز محمد يوسف من السيارة والتقط عدة صور للشباب الذي كان يدخل
العمارة !

وعاد محمد يوسف إليها وفي عينيه فرحة الانتصار وهو يقول :

— لقد التقطت له ١٢ صورة !

— إنه ليس هو !

— ليس الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى ؟

— لا إنه رجل آخر !

— ولكنى رأيتك تضطربين عندما رأيته متجها إلى العمارة. فتأكدت على
الفور أنه الصاغ الشبهاوى !

— إنه ليس هو !

— من هو إذن ؟

— هو.. هو المهندس عادل علاء الدين مدير شركة الهندسة الكهربائية !

— ولماذا اضطربت كل هذا الاضطراب ؟

— لأنه الرجل الذى أحبه !

— خشيت أن يراك معى ؟

— لا.. إنه لم يخبرنى أنه سيذهب ويقابل الراقصة نشوى !

— لعله يحاول أن يقنعها بالعدول عن الاعتراف.

— لو كان هذا غرضه لأخبرنى !

- ما هو غرضه إذن؟
- كان عشيقها في يوم من الأيام!
- ولاحظ محمد يوسف أن قسمت تبكى فقال لها مهدئا:
- لماذا تتصورين أن هذا موعد غرام؟ لماذا لا يكون موعد عمل؟
- إن موعد العمل لا يخفيه الرجل عن المرأة التي يحبها.. لقد كان معي أمس ولم يقل شيئا!
- ربما كان موعدا مفاجئا!
- إن قلبي يقول لى إن هذا موعد غرام!
- قلوب النساء مثل قلوب الطغاة، تصدر أحكامها وتشنق المتهم، وبعد ذلك تسمع دفاعه!
- لقد توسلت إليه ألا يذهب إليها ووعدنى ألا يذهب!
- وماذا تريدان أن نفعل الآن؟
- ندخل عليهما فى الشقة!
- ماذا نقول؟
- تقول إن مجلة «الاثنين» أرسلتك لتصوير الراقصة نشوى!
- ولكن تصوير الراقصات ليس من اختصاصى!
- أرجوك أن تذهب إلى الشقة!
- وحدى؟

— سأجىء معك !

— بأى صفة ؟

— تقول أننى صديقتك !

— ولكن عادل علاء الدين يعرف أنك صديقته هو !

— صديقته سابقا !

— وما هى علاقة ذهابنا إلى الشقة بمسألة قضية عم عبده !

— هذه المسألة أهم من قضية عم عبده !

— لقد جئت معك لنضبط قضية سياسية.. ولكن هذه قضية غرامية !

— أرجوك أن تجىء معى إلى الشقة !

* * *

واستسلم محمد يوسف لدموع قسمت، وصعد معها إلى الطابق الذى تسكن فيه الراقصة.. وتقدم محمد إلى الباب، واختفت قسمت بجوار الحائط.

وضغط محمد يوسف على الجرس.

ولم يجىء أحد لفتح الباب..

وعاد محمد يضغط الجرس من جديد.

وجاءت الخادمة اعتدال وفتحت الباب.

وقال لها محمد يوسف :

— أنا محمد يوسف مصور «دار الهلال» جئت أصور الأنسة نشوى
لمجلة «الاثنين»!

— أهلا وسهلا! أنا أعرفك جيدا!

— أرجو أن تبلغنى الأنسة نشوى أننى هنا.

قالت اعتدال فى هدوء غريب:

— الست ليست هنا!

— متى ستجىء؟

— لن تجىء الليلة!

— أين هى؟

— فى صالة بديعة!

— هل تسمحين لى بأن أدخل لأتكلّم مع «دار الهلال» تليفونيا!

— التليفون معطل!

وأقفلت اعتدال باب الشقة قبل أن يقول محمد يوسف كلمة أخرى!
والتفت محمد يوسف إلى قسمت وقال لها:

— إن نشوى غير موجودة!

— أنا واثقة أنها هنا!

— يبدو على الخادمة أنها صادقة.

— لو رأيتهما وهى تحدث الزبائن لعرفت أنها أستاذة فى الكذب!

- إذن ماذا تريد أن تفعل؟
- أريد أن أصرخ!
- تصرخين؟
- أصرخ وأفضحه وأفضحها!
- إننى لا أحب أن أحضر هذه الفضائح!
- هل أنت خائف؟
- لست خائفا على نفسى.. أنا خائف عليك!
- أنا لا يهمنى أى شىء!
- ولكن أنا يهمنى عم عبده الذى حدثتنى عنه!
- أنا امرأة أولا!
- إننى جئت معك باعتبارك بطلة!
- إلى أين أنت ذاهب؟
- عائد إلى عملى!
- وتتركنى وحدى؟
- أترك المرأة... لأن موعدى كان مع البطلة!
- وبدا محمد يوسف يهبط السلم، وأسرعت قسمت تعدو خلفه وهى تقول:
- سأجىء معك!
- كامرأة.. أم كبطلة؟

وأجابت يائسة :

— لا بطلة ولا امرأة.. إنما جثة !!!

* * *

حمل عادل علاء الدين الراقصة نشوى فوق يديه ووضعها في فراشها وهو يقول :

— تجربتى مع الغانية أنها وهى مع الرجل الذى تحبه تكون أكثر استعدادا للاقتناع، مما لو كانت بعيدة عنه !

— ليست المرأة وحدها ! إن رأس الرجل فوق كتفيه يكون أصعب ألف مرة، مما لو كان مع المرأة التى يحبها !

— إذن سوف نصل إلى تفاهم !

— لقد وصلنا إلى تفاهم من وقت طويل !

— طبعاً..

— وهجرتنى !

— كنت مشغولاً !

— بالآنسة قسمت ؟

— لا.. بأعمال الشركة !

— وما الذى أعادك إلى ؟

— شوقى !

— شوقك.. أم عم عبده ؟

— الاثنان معا !

— أيهما سبق الآخر ؟

— اتخذت من حكاية عم عبده مبرراً للعودة إليك !

- يالك من كذاب !
- هل شعرت أن قبلاى كاذبة ؟
- الغريب فىكم أىها الرجال أن قبلاىكم صادقة وقلوبكم كاذبة !
- لم أكن أعرف أنك رجل !
- هل كذبت علىك مرة واحدة يا عادل ؟
- لم تكذبى مرة واحدة... كذبت ألف مرة !
- ألم أعدك بأن أقطع علاقتى مع الضابط الشبهاوى ؟
- حدث..
- وحافظت على عهدى، لم أره مرة واحدة بعد ذلك !
- كيف أصدقك ؟
- أعطيتك مفتاح شقتى لتدخل فى أى وقت تشاء.
- تستطيعين أن تقابليه خارج الشقة !
- يمكنك أن تراقبنى !
- أنتصويرين أننى أترك أعمالى، لكى ألتبع خطواتك فى كل مكان تذهبين إليه ؟
- عندك البوليس السرى !
- لا ثقة لى بالبوليس السرى !
- لا أعرف كيف أجعلك تثق بى.
- قولى الحقيقة فى محكمة الجنایات !
- أنت تعرف أنهم سيقطعون رقبتى !
- لقد قلت لك إننى سأقف بجانبك إلى الأبد !
- وما هو الضمان ؟
- كلمة الشرف !

– كلمة الشرف المنطوقة تعيش دقيقة.. وكلمة الشرف المكتوبة تعيش
العمر كله !

– مستعد أن أكتب لك ورقة أضمن بها دخلك من صالة بديعة لمدة عشر
سنوات !

– قلت لك لا أريد ضمانات مالية !

– ماذا تريدین؟

– قطعة من الورق !

– بنكنوت؟

– أغلى من البنكنوت !

– كمبيالة؟

– لا، وثيقة زواج !

– قلت لك إننى لا أستطيع أن أتزوج ! إننى مستعد أن أعطيك كل شيء
ما عدا هذه الورقة !

– لا أريد سوى هذه الورقة !

– أنا قررت أن أعيش أعزب طول حياتى !

– لأنك لا تحبنى !

– قلت لك ألف مرة إننى أحبك ! إننى سوف أجعلك المرأة الوحيدة فى
حياتى.. سوف أوفر لك كل ما تحتاجين إليه.

– وقلت لك إننى لا أريد كل هذا ! كل ما أريده ورقة !

- أنت تعلمين جيدا أنني لا أستطيع أن أتزوج من راقصة !
- لأنك تحتقرنى ؟
- لأنك عشت حياة ليست فوق الشبهات !
- أتخاف على سمعتك من كلام الناس ؟
- نعم أخاف على سمعتى .. ولو كنت تحبيننى حقيقة لخفت أنت أيضا على سمعتى !
- إذن تزوجنى زواجا عرفيا !
- إن لدى الشجاعة أن أعلن ما أوقع عليه !
- إذا كنت تريد أن أشهد فى المحكمة وأقول الحقيقة فتزوجنى أولا !
- لو كنت أريد أن أخدعك فإننى أستطيع أن أتزوجك قبل الجلسة، ثم أطلقك بعد أن تدلين بشهادتك !
- أنا مستعدة أن أتزوجك لمدة ٢٤ ساعة فقط !
- إذن فالمسألة ليست حبا !
- حب .. وكرامة !
- لا كرامة فى الحب !
- لعلك تستنكر على امرأة مثلى أن يكون لها كرامة !
- المرأة التى لها كرامة لا تشترط أن تتزوج لتقول الحقيقة !
- المرأة التى تحب تفعل كل شئ من أجل أن تحصل على الرجل الذى

تحبه ! ترتكب أى جريمة من أجل هذا الرجل !

- ولكن الجريمة التى ترتكبينها ليست من أجلى ! إنما من أجل الضابط
الشبهأوى الذى تقولين إنك قطعت علاقتك به !

- إننى مستعدة أن أفعل أى شىء لو تزوجتنى !

- كأن زواجك منى وحده هو الذى سيجعلك امرأة فاضلة !

- لو تزوجتك لأصبحت امرأة أخرى !

- الزواج لا يخلق المرأة ولكن الحب هو الذى يخلقها !

- أنت تعلم أننى أحبك !

- الحب لا يعرف المساومات، أنت تريد أن تعقدى صفقة لا أن
تعقدى قرانا !

- أليس من حقى أن أدافع عن حبى ؟

- الدفاع عن الحب شىء، وشنق رجل برىء شىء آخر !

- لا يهمنى أن أقتل ألف رجل لأحصل عليك !

- أنت تخيفيننى ! إن حياة الكباريات أثرت على تفكيرك ! من كثرة
ما ذهبت من الرجال فى الصلاة لم تعودى تأبهين بحياة رجل برىء ! رؤوس
الرجال فى نظرك أصبحت كرؤوس زجاجات الويسكى والشامبانيا التى
تفتحونها كل ليلة ! قسوتك هذه تجعلنى أبتعد عنك. ماذا يضمن لى فى
المستقبل أنك لا تفعلين بى ما فعلته بعم عبده وتلفقين قضية ضدى ؟

- إننى لم ألق هذه القضية .. الحكومة هى التى لفقتها ..

- وأنت شريكة فى التلقيق !

- إننى أنفذ أوامر الحكومة !

- قد تطلب منك الحكومة أن تلفقى قضية ضدى !

- لا يمكن أن أفعل ذلك مع رجل أحبه !
— وهل كنت تكرهين عم عبده ؟
— لم أكن أعرف أنه هو !
— وماذا فعلت بعد أن عرفت أنه هو ؟
— عرفت متأخرة .. بعد أن كنت أدليت بأقوالى فى النيابة !
— لم يفت الوقت لتقولى الحقيقة !
— قلت لك إننى أحتاج لحماية لأقول الحقيقة ! قلت لك أننى سوف أفقد
عملى كراقصة إذا قلت الحقيقة ... قلت لك أننى سأفقد دخلا كبيرا إذا قلت
الحقيقة .. قلت لك إننى مستعدة أن أضحي بكل هذا إذا تزوجتنى !
— إنك لتفعلين بى ما فعلته بعم عبده !
— إن هذه القضية هى رأس مالى ..
— إنه أحقر رأس مال رأيت فى حياتى .
— هذا هو كل ما أملكه !
— ما أغربك من امرأة ! منذ أيام كنت بين ذراعى تقولين لى : أنا جاريتك
افعل بى ما تشاء ! أومرنى فافعل من أجلك ما تريد ! والآن تشترطين
الشروط !

— إننى متمسكة بشروطى .. رجل فى مقابل رجل !

* * *

وانتفض عادل غاضبا .. وسمع ضوضاء خارج الغرفة .. مشادة عنيفة لم
يتبين أمرها .. ثم سمع دقا متواصلا على الباب .
وأسرع يفتح الباب .
ورأى اعتدال تقول فى صوت مضطرب :

— إن سيدة اقتحمت باب الشقة.. وهى مصرة على الدخول!

وقفزت نشوى من الفراش وهى تقول:

— سيدة؟ من هى هذه السيدة؟

— لم أرها قبل الآن!

— اطلبى إليها أن تنتظر فى الصالون، وإذا رفضت.. فاطردها!

واندفعت السيدة المجهولة إلى داخل غرفة النوم، وقالت:

— إنها لا تستطيع أن تطردنى.. يا شلبية!

وتراجعت الراقصة نشوى إلى الخلف وقالت:

— ست أميرة!

— نعم ست أميرة.. ألم تقولى أن أمنية حياتك أن أراك مع شقيقى عادل

علاء الدين هأنا جنئت لأحقق لك أمنية حياتك، وأراك مع شقيقى فى غرفة

واحدة!

— أنا لم أقل هذا!

— أنت كاذبة! وقد قلت هذا لقسمت شاهين.. وقالته لعادل.. وعادل قاله

لى!

وقالت نشوى بصوت مرتعش:

— تفضلى يا ست أميرة اجلسى!

— إذننى لم أجيء للزيارة.. جنئت أسألك أمام عادل أسئلة محددة!

— أنا تحت أمرك!

تضاءلت الراقصة الكبيرة فجأة أمام أميرة.. عادت فجأة الخادمة شلبية

الوحش فى مواجهة سيدتها! وعجب عادل وهو يرى نشوى التى كانت تتكلم

معه من دقائق وكأنها ملكة جالسة فوق عرشها، تنكمش وتنكمش، وتقف

ذليلة صاغرة أمام أميرة!

لقد كانت شقيقته أميرة على حق عندما قالت له هذا صباح اليوم إنها تستطيع إذا واجهت نشوى أن تضعها في مكانها ! لم يصدق عادل شقيقته أميرة، وهي تدبر معه هذه المواجهة.. ولكنه الآن يرى صورة لم يتخيلها !

كانت نشوى ترتعش، ترتجف، تسند ظهرها إلى حائط الجدار، تسند يدها إلى الكوميدينو وكأنها تخشى أن تسقط على الأرض من هول المفاجأة.. كانت في وجهها صفرة تشبه صفرة الموت.. كأنها ترى في يد الست أميرة « يد هاون » سحرية سوف تضربها بها !

ومضت أميرة تقول في صوت حازم :

— أنت قلت إننى ضربتك بيد الهاون !

— نعم !

— ألم تقولى لماذا ضربتك بيد الهاون ؟ !

— لم يسألنى أحد !

— والآن.. أنا أسألك هذا السؤال ؟ !

— ضربتنى لأننى أخطأت !

— لم يكن خطأ ! إنما جريمة ! ألم يحدث أننى ضببطتك مرة بين ذراعى

كامل السفرجى الذى يعمل في بيت الجيران ؟

— نعم..

— هل ضربتك يوماً بيد الهاون !

— لا.. شتمتنى.. وويختنى.. ثم سامحتنى !

— وألم يحدث بعد ذلك أن رأيت شاكر المكوجى يقبلك أمام باب الشقة ؟

— نعم..

— هل ضربتك بيد الهاون ؟

– لا.. اكتفيت بطرد المكوجى ومنعه من الحضور إلى البيت!

– ثم حدث أن أكتشفت سرقة سوار من الماس من دولابى وأبلغت البوليس . وشهدت أنت أمام البوليس أنك رأيت الأسطى طه الطاهى يدخل غرفة نومى ويسرق السوار. وقبض البوليس على الأسطى طه وأودع السجن.. وبعد ذلك أكتشفت السوار المسروق فى غرفتك، وقد أخفيته فى ملابسك.. وبكيت وارتميت تحت قدمى تقوسلين إلى ألا أبلغ البوليس بأمرى.. واعترفت أنك اختلقت هذه القصة وشهدت أمام الشرطة كذبا لأن الأسطى طه رفض أن يتزوجك، وأنت أردت الانتقام منه بسرقة سوارى ولهذا لفقت هذه القصة.. واكتفيت بأن أبلغت الشرطة أننى وجدت السوار عندى فأفرجت الشرطة عن الأسطى طه وقبض عليك البوليس وأراد أن يقدمك بتهمة البلاغ الكاذب، وتدخلت حتى أفرج عنك قسم عابدين.. هل حدث هذا أو لم يحدث؟!

– نعم حدث!

– وهل ضربتك بيد الهاون على فخذك؟

– لا.. دفعتنى بيد الهاون فى ظهرى!

– ليس فى فخذك!

– لا فى ظهرى فقط!

– والعلامات السوداء التى كانت فى فخذك؟!

– كانت آثار عضة من شاكرك المكوجى!

– إننى جئت أقول لك كلمة واحدة... إذا شهدت كذبا فى محكمة الجنايات ضد عم عبده فسأقوم أنا فى محكمة الجنايات وأروى القصة كلها، وسأقول إنها ليست المرة الأولى التى تشهدين فيها شهادة الزور.. وسوف يصحبنى إلى المحكمة الأسطى طه وشاكرك المكوجى وكامل السفرجى

ليقولوا أمام المحكمة ما يعرفون عنك! سوف تقولين إنهم يشهدون عن
خادمة اسمها شلبية الوحش وأنت الراقصة نشوى! إنك عندما خرجت من
بيتي نسيت عندي رخصتك كخادمة وفيها صورتك واسمك واسم أبيك،
وتاريخ مولدك وبصماتك.

ويومها سيعرف المعجبون بالراقصة نشوى أنها ليست ابنة عبده باشا
كما تقول الصحف، وإنما هي فتاة قذرة، لصة، ملفقة!

* * *

ثم خرجت أميرة من الغرفة، وهي تجذب شقيقها عادل أمامها.
وسقطت نشوى على الأرض تبكى وتنتحب وتخفى وجهها بيديها.
وذاب الكحل من عينيها، والأحمر عن شفتيها، والبودرة عن وجهها.. ولم
يبق منها إلا الخادمة شلبية الوحش!

الفصل الثانى والأربعون

دخلت قسمت إلى قاعة محكمة الجنايات. لمحها عادل وهى تجتاز باب القاعة. أسرع يتخلى لها عن مقعده فى الصف الأول من مقاعد المحامين إلى يمين منصة القضاء.

وتجاهلت قسمت دعوته، واتجهت إلى الصف الأول من مقاعد المدعى على يسار المنصة، واختارت لنفسها مقعدا ملاصقا لقفص الاتهام.

وعاد عادل إلى مقعده بجوار علوية باشا المحامى، وعقد ذراعيه على صدره، وراح يتأمل قسمت من بعيد.. وهاله شحوبها ونحولها وهزالها. عاد اللون الأصفر إلى بشرتها. عادت النظارة السوداء الكبيرة إلى عينيها. عاد إليها ثوبها المهلهل الباهت. عاد إليها شعرها المهمل بلا نظام. عاد مظهرها الزرى القديم!

عجب عادل لصورة قسمت الجديدة. تساءل هل الثوب هو الذى يخلق المرأة، أم أن المرأة تضيف جمالها على الثوب الذى ترتديه ما أعظم الفرق بين قسمت التى يراها الآن فى محكمة الجنايات، وبين الأنسة كاف التى كان يراها بين ذراعيه! كانت ملكة الأناقة وملكة الجمال وشعرها مبعثر منكوش!

إن الفرق بين المرأتين هو الفرق بين زهرة ذابلة وزهرة ناضرة، بين غانية وجثة، وبين حياة وعدم!

أ يكون الحب السعيد هو الذى يجعل المرأة رائعة الجمال، هو الحلاق الذى يصفف لها شعرها، هو خبير الميكياج الذى يرسم وجهها بالمساحيق والالوان، هو الخياط الذى يفصل ثوبها ويبرز مفاتن جسدها، هو عامل المانيكير والبديكير، هو بائع العطور وادوات التزين، هو الساحر الذى يحقنها بالنضارة والشباب والاثارة، فاذا انصرف الحب السعيد عن المرأة، سحب معه جميع عماله ومساعديه، من حلاقين ومزينين وخبراء فى الجمال، وترك المرأة محطمة ممزقة مشوهة رثة الثياب؟!

لقد لاحظ فى الايام الاخيرة أن قسمت بدأت تذبل. كأنها تكبر فى كل يوم عشر سنوات. تجلس معه صامته لا تتكلم. كأنها قيثاره تمزقت كل أوتارها، ولم يبق منها سوى الخشب الذى تصنع منه الات الموسيقى والتوابيت فى وقت واحد!

كانت فى الايام الاخيرة تدخل معه إلى شقته صاغرة منكسة الرأس كأنها تدخل غرفة تنفيذ الاعدام.. كانت بين ذراعيه، كلوح من الثلج، أو كجثة بلا حراك!

وكثيرا ما سألتها عما جرى لها فكانت تقول إنها متعبة مرهقة، وأنها تمضى كل يومها فى مراجعة أوراق قضية عم عبده والصحف والوثائق.. لتعد لعم عبده دفاعه أمام المحكمة.. ولم يقنع عادل بأن هذا السبب وحده يجعلها تتحول كل هذا التحول.. من ملكة للسعادة إلى تمثال للشقاء!

وخيل له فى أول الأمر أن قسمت اكتشفت أنه عرف أن الضابط جاك ستيوارت فاقد الرجولة، قبل أن يتظاهر بأنه سامحها وغفر لها خطيئتها مع الضابط البريطانى.. وأنها عندما عرفت أن عادل كان يعبت بها ويدعى أنه سامحها على جريمتها التى لم ترتكبها، كان يريد أن يحصل منها على صك

غفران لجريمة ارتكبها فعلا، وهى جريمة ولادة الأميرة فضيلة لابن منه !
ولقد حاول أن يدور ويلف معها حول هذه الحكاية، فوجدها لا تهتم بها،
وكأنها قد نسيتها !

وكان يعجب أن تتحول امرأة مليئة بالحياة إلى هذا الجمود. كانت أشبه
بامرأة ضائعة تائهة. تجلس معه وهى ليست معه. موجودة وغائبة ساهمة
حينا، واجمة أحيانا، تعيسة دائما !

ولم تشجعه حالتها هذه على أن يطلعها على الخطة التى وضعها مع
شقيقته أميرة، ولا عن المواجهة التى تمت بينها وبين الراقصة نشوى
خشى أن يؤلمها أكثر مما تتألم، فهو يعرف أنها طلبت منه الا يتصل
بالراقصة نشوى، وألحت عليه الا يذهب اليها ولا يقترب منها.. ولو أنه قص
عليها ما حدث بينه وبين نشوى لضاعت تعاستها. لقد اتصل بنشوى من
أجلها. ومثل دور العاشق الولهان بين ذراعيها فى سبيل أن يحصل على براءة
عم عبدة الذى ضحى بحريته من أجل قسمت.. والمرأة العاشقة لايهمها
النتائج بقدر ما تهمها الوسائل !! لا يهمها أنه نجح فى مهمته وأنقذ حياة عم
عبده بقدر ما يهمها أنه قبل نشوى ! لا يهمها اذا استطاع أن يخرج
الانجليز من مصر، اذا عرفت أنه فعل ذلك خلف ظهرها. المرأة العاشقة
تتصور أن كل ما يجرى خلف ظهرها هو خناجر مصوية إليها !!

وماذا كانت تفعل قسمت لو عرفت أنه لم يعط نشوى قبلة واحدة، وأنما
عشرات القبلات، وأنه لم يعط القبلات فقط، بل أنه باع جسده لتاجرة
الرقيق !

وماذا كانت تفعل لو أن كل الخيانات التى ارتكبها لم تؤد إلى نتيجة،
وإنما الذى صنع المعجزة هو تهديد شقيقته أميرة للراقصة نشوى بأنها

ستفضح قصة الخادمة شلبية الوحش أمام محكمة الجنايات

لو أنه روى لقسمت الحقيقة لثارت في وجهه، لاتهمته بأنه ارتكب كل هذه الخيانات عامدا متعمدا، من أجل شهواته ولذاته، لامن أجل عم عبده.. والدليل أن قبلاته لم تحقق أى نتيجة.. أن يد الهاون وحدها هى التى حققت المعجزات!

* * *

والقى عادل نظرة على قفص الاتهام فوجده خاليا.. ووجد نفسه يضع قسمت في قفص الاتهام..

في رأس كل رجل وامرأة قاعة لمحكمة الجنايات، فيها قفص اتهام وفيها منصة قضاء، وفيها مقعد للمدعى العام! وكل يوم نضع في هذا القفص متهما! ويجلس الواحد منا في مقعد الادعاء ومقعد القضاة.. نوجه إليه التهم ولا نسمح له بالدفاع عن نفسه! ونحكم عليه بغير أن نسمع له بحق الاستئناف أو النقض! وأحكامنا على الناس ظالمة! فالذى يحتكر لنفسه حق الاتهام واصدار الاحكام لابد أن يظلم الأبرياء!

والبعض منا في قلبه بقية من عدالة، فهو احيانا يضع نفسه في قفص الاتهام، ويسمى هذه المحاكمة محاسبة الضمير! ولكننا نجلس هذه المرة في مقعد القضاة أيضا.. ونبيع لأنفسنا الاستعانة بمحام، هو نحن أيضا، وهو حق نحرمة على الآخرين الذين نضعهم في قفص الاتهام وتجسء أحكامنا خفيفة تحمل مبررات التخفيف.. ونتصور أن المحاكمة كانت عادلة، بينما الواقع أننا أقمنا في داخلنا مسرحية محاكمة.. لا محاكمة فعلا!

والقت قسمت بنظرها على قفص الاتهام، ووجدته خاليا، وأسرعت بخيالها تضع علاء الدين داخل القفص!

إنه مجرم ارتكب الخيانة العظمى.. رآته بعينها يدخل شقة نشوى..
قابله عدة مرات بعد هذا فلم يعترف بجريمته. لو أنه اعترف لسامحته ! لو
أنه كذب عليها لصدقته ! لو أنه حاول أن يبرر جريمته لبرأته ! ولكنه أخفى
كل شيء، فهو ليس مجرماً بحكم الصدفة.. إنما هو مجرم مع سبق
الاصرار.. لقد خان كل امرأة قبلها، فلماذا لا يخونها؟ كيف يرضى هذا
الرجل أن يلوث نفسه بجسد هذه المرأة الكاذبة المختلفة. لقد أحست وهو
يحتضنها بعد ذلك اليوم بأنها لا تنتشى بالتصاق جلده على جلدها وإنما
تتعذب كأن شعر صدره تحول إلى مسامير تدق في صدرها !

وأحست قسمت بأن قفص الاتهام لم يعد فيه عادل وحده. ازدحم بكل
رجال العالم. كل رجال العالم متهمون، كلهم مجرمون، كلهم خونة.. كلهم
كذابون !

لماذا يكذب العاشق على المرأة التي يحبها ؟ لماذا يخفي عنها أشياء ؟
إنه لا يعرف أنه يجرحها بالكذب أكثر مما يؤلمها بالحقيقة ! أنها مستعدة
دائماً أن تنسى وتغفر وتسامح اذا اعترف بالحقيقة، ولكنها تشعر أنه طعن
كرامتها عندما كذب عليها ! حتى ولو كذب عليها ليسعدها !

الكذبة الصغيرة تؤلم المرأة وتعذبها الكذبة الكبيرة ! بل إن المرأة
العاشقة قد تنسى الكذبة الكبيرة ولا تنسى الكذبة الصغيرة، كأنها تنسى طعنة
الخنجر ولا تنسى أبدا شكة الدبوس !

إنها تنسى الكذبة بأن دافعها شيء واحد، هو أن الرجل الذي يحبها
يفترض أنها حمارة، يفترض أنها غبية، يفترض أنها ساذجة، والا لما كذب
عليها ! ولهذا فهي تحس أنها أهينت بالكذبة كأن الرجل الذي أحبها وصفها
بهذه الأوصاف جميعاً !

وشعور المرأة أن حبيبها أهان كرامتها يقتلها وهي على قيد الحياة !
والرجال يتصورون أن كرامة النساء تشبه كرامة الرجال، وهم يخطئون في
هذا التصور. كرامة الرجل في داخله، ولكن كرامة المرأة في كل مكان ! حتى
في فستانها.. حتى في حذاءها.. حتى في أثاث بيتها !

وهزت قسمت رأسها، وكأنها استراحت بعد أن حكمت على كل رجال
العالم بالاعدام !

* * *

وتطلع محمد على علوبة باشا المحامي إلى القفص الخالي. وخيل له أنه
يملا هذا القفص بالمسؤولين عما نحن فيه ! وابتسم ساخرا.. فقد بدا
القفص أضيق كثيرا من أن يتسع لكل المتهمين الذين يجب أن يوضعوا في
هذا القفص !

وخيل له أيضا أن القفص يجب أن يتسع ويتسع حتى يحيط بالبلد كله !
إننا جميعا مسئولون عما نحن فيه ! نحن المجرمون والضحايا في وقت
واحد !

إننا نحكم بالاعدام على من يرتكبون مخالفات ضد أشخاصنا ! ونحكم
بالبراءة على من يرتكبون جنایات ضد خصومنا !

إننا نعتبر الحرية ممتلكات خاصة لنا وحدنا. ونأبأها على السذين
يخالفوننا في الرأي أو العقيدة !

إننا نطالب بالدستور، ونحن في المعارضة. ونعطل أحكام الدستور ونحن
في الحكم !

إننا نريد أن تكون العدالة قديسة اذا تولى خصومنا الحكم، ونريد أن

نجعل العدالة محظية لنا اذا جلسنا نحن في منصة الحكم!

وكان كل واحد من الجالسين في قاعة محكمة الجنايات يضع شخصا معينا أو عدة أشخاص في قفص الاتهام الخالي! الصحفيون وضعوا فيه الرقباء الذين يحذفون كل ما يستحق النشر، ويبيحون ما لا يستحق النشر، وكاتب الجلسة وضع في القفص باشكاتب المحكمة الذي رفض الموافقة على منحه أجر ساعات العمل الاضافية. وحاجب الجلسة وضع في القفص حماته التي تنكد عليه الحياة. ومحام شاب وضع في القفص جميع كبار المحامين الذين يستولون لا أنفسهم على القضايا الكبيرة ولا يتركون للمحامين الشبان الا قضايا المخالفات..

واستمر خيال الجالسين يملأ القفص ويخليه إلى أن دخل عم عبده، وشاربت اليه الاعناق، ولم يعد أحد من الجالسين يملأ القفص ويخليه، وكان عم عبده ملأ القفص كله بجسمه الضئيل النحيل..

ودخل وراء عم عبده مباشرة عدد كبير من الضباط والجنود المسلحين بالبنادق والمدافع والمسدسات! وتلفت الجالسون خلفهم في ذعر.. وفهموا أن المتهم عم عبده في نظر البوليس هو أخطر رجل في العالم.. وأنهم احاطوه بهذه الحراسة خشية أن ينقض جنود المظلات الالمان على المحكمة، ويخطفوه كما خطفوا موسولينى!

ومد عم عبده يده النحيلة من وراء القفص، وصافح قسمت، وعلى شفتيه ابتسامة!

واستمرت البسمة لا تفارق شفتيه.. وقد أمسك بيده مسبحة، وتصورت قسمت أنه يعد حباتها وتصور عادل أنه يلعن الظالمين مع كل حبة، وتصور

شيخ معمم في الصفوف الخلفية أنه يحمد الله الذي لا يحمد على مكروه
سواه!

وتطلعت قسمت في وجه عم عبده.. تعبير وجهه رقيق هادئ، فيه رباطة
جأش قوية، كأن لا شيء يهزه. كأنه في طريقه إلى لقاء صديقه القديمة بهية
مسقعة المتسولة بحى الحسين، لا في طريقه إلى المشنقة! ولا حظت فمه
بشفتيه الغليظتين يبتسم بشهوانية غريبة في هذه السن ممزوجة بسخرية
مرة، وكأنه يتطلع إلى زينات أخت البكباشى البلحاوى مأمور سجن
الاسئناف، ولا يتطلع إلى منصة القضاة الثلاثة الخالية، الذين سيحكمون
عليه بالموت أو الحياة!

واستوقفت نظرها التجاعيد الكثيرة التى في وجهه. إن الأضواء الساطعة
في قاعة محكمة الجنايات وفلاشات المصورين جعلتها تتنبه لكثرة هذه
التجاعيد أكثر مما تنبهت إليها عندما كانت تلتقى به في غرفة المأمور
الضعيفة الضوء!

وصرخ الحاجب بأعلى صوته : محكمة !

ووقف الحاضرون اجلالاً للعدالة ودخل القضاة الثلاثة من باب خلف
المنصة، واتخذوا مقاعدهم في سرعة، ومشى خلفهم رئيس النيابة إلى
مقعد.

وتأملت قسمت وجوه القضاة.. كانت وجوههم خالية من التعبير وكأنها
تجمدت. وكانت عيونهم خرساء لا هي تطمئن ولا هي تفرع.

ونادى الحاجب : قضية عبده عبده رقم ٧٩

ووقف الاساتذة محمد على علوبة باشا وهيب دوس وعلى أيوب يقولون
إنهم حاضرون عن المتهم.

وقلب رئيس المحكمة أوراقا أمامه ومال على عضو اليمين الذى غرق فى
غيبوبة يهمس فى اذنه ببضع كلمات.

ووقف الاستاذ على أيوب المحامى يقول :

— لاحظت عند اطلاعى على ملف القضية شيئا غريبا، لا اسميه تزويرا،
وإنما اسميه خطأ ! والخطأ فى أوراق العدالة أكبر من الجريمة !

وصاح رئيس المحكمة :

— قل باختصار.. ما هو الخطأ؟ قال على أيوب :

— الخطأ أنه ورد فى نسخ محاضر التحقيق الموزعة على المحكمة وعلى
المحاميين أن المتهم قال فى صفحة ١٧١ « إننى أقصد خيانة الوطن » ! بينما
المحضر الاصلى يقول « إننى أقصد صيانة الوطن » !
وانبرى رئيس النيابة يقول :

— إنه خطأ بسيط.. خطأ فى حرف واحد !

— الفرق بين (الخيانة) و(الصيانة) هو الفرق بين الاعداء والبراءة !

— إنها غلطة من قلم النسخ !

— غلطة ثمنها المشنقة !

— غلطة فى صفحة واحدة من ألف صفحة !

— إنها ليست الغلطة الوحيدة كما يقول رئيس النيابة ! فى صفحة ١٧٢
جاء على لسان المتهم فى الملف الذى وزعته النيابة « أنا أؤمن بالأعمال غير

المشروعة .. بينما في أصل التحقيق أن المتهم قال « أنا لا أومن بالاعمال غير المشروعة ». فكيف اختبأت كلمة (لا) ؟ كيف تحولت فجأة الجملة من دفاع إلى اتهام ؟

– هذا خطأ وقع بسبب السرعة في عملية النسخ !

– لماذا تقع الاخطاء دائما ضد مصلحة المتهم .. ولا يقع خطأ واحد لمصلحته ؟

– إن النيابة تحتج على هذه الملاحظة !

– يرضى القتل .. وليس يرضى القاتل !

– إننا لسنا قتلة .. إن النيابة هي القضاء الواقف !

– يوم تطيع النيابة أوامر البوليس لا تكون قضاء واقفا .. ولكنه قضاء يقعد القرفصاء !

– هذه إهانة لكرامة العدالة !

– كرامة العدالة لا تهان بكلمة تقال، وإنما تهان بتغيير كلمة في محضر التحقيق !

– يحدث دائما أثناء عملية النسخ أن تسقط كلمة !

– وإذا حدث أن زادت كلمة ؟

– إننى اتحدى الدفاع .. لاتوجد كلمة واحدة زائدة !

– هل أنت متأكد يا سعادة رئيس النيابة أنه لم تضيف كلمة إلى أقوال المتهم ؟

– متأكد جدا.. واثق جدا.. المسألة كلها سهو في عملية النسخ !

– أعتذر لسعادة رئيس النيابة :

يظهر أننى تسرعت عندما قلت إنه أضيفت كلمة واحدة؟

– النيابة تقبل اعتذار الدفاع، وتؤكد أن محاضر التحقيق فوق الشبهات !

– يظهر أن النيابة تسرعت في فهم اعتذارى ! كنت أظن أننا في عصر السرعة، وإذا بنا في عصر التسرع ! قلم النسخ يتسرع في النقل ! رئيس النيابة يتسرع في الفهم، ولهذا فإننى أفضل أن أبسط في اتهام رئيس النيابة بالتسرع !

– النيابة ترفض أن يلقي الدفاع التهم على النيابة بغير إثبات ولا دليل ! لقد قلت منذ لحظة أنه أضيفت كلمات إلى أقوال المتهم.. ما هى هذه الكلمات المزعومة؟ لقد قلت إن الأخطاء التى وقعت في المحضر أخطاء مطبعية نتيجة السهو.. سهو بسيط جدا جدا جدا.

– يبدو فعلا أن ما تقوله النيابة صحيح ! لقد رأيت في أوراق التحقيق سهوا غريبا ! في صفحة ١٨٦ من أصل التحقيق يقول المتهم بالحرف الواحد « إننى أحببت مرة واحدة في حياتى. كان ذلك في أوائل الحرب العالمية الأولى. عندما أحببت بهية مسقعة الشحاذة بجامع سيدنا الحسين. كان هذا هو أعظم حب في حياتى. كنت أقول لها كل أسرارى. كنت أتمناها على كل خباياى » ! وإذا بالسهو يحدث في النقل ! سهو بسيط جدا جدا جدا.. كما تقول النيابة ! وتنقل هذه الجملة من ملف التحقيق الأصى إلى الملف الموزع على حضراتكم وعلى المحامين وإذا بها تقول على لسان المتهم « إننى أحببت مرة واحدة في حياتى. كان ذلك في أوائل الحرب العالمية الثانية. عندما أحببت نشوى عبذه الراقصة بصالة الست بديعة. وكان هذا

أعظم حب في حياتي. كنت أقول لها كل أسرارى. كنت أأتمنها على كل
خباياى» !!!

ووقف الأستاذ وهيب دوس المحامى يقول ساخرا :

— ما هذا السهو العجيب؟ الذى استمر ٢٥ سنة؟ ونقل الحب من سنة
١٩١٤ عندما قامت الحرب العالمية الأولى إلى سنة ١٩٣٩ عندما قامت
الحرب العالمية الثانية؟ ما هذا السهو الذى يجعل من بهية الشحاذة،
نشوى الراقصة؟! ويجعل من بهية مسقعة، نشوى المشهورة بشدة
الحرارة؟ ويحل من جامع سيدنا الحسين، صالة السيدة بديعة؟! إن الذين
نسخوا هذا التحقيق حولوا ساحة العدالة من ساحة مسجد إلى صالة
كباريه! لعل النيابة سوف تعتذر عن هذا بأن موظفى قلم النسخ أصيبوا
بالسهو، بسبب كثرة ترددهم على صالة بديعة، ولهذا خلطوا بينها وبين
جامع الحسين!

وصرخ رئيس النيابة محتجا :

— هذا مساس بسيدنا الحسين لا تقبله النيابة!

قال علوية باشا :

— بل هذا مساس بسيادة العدالة لا تقبله المحكمة!

وضرب رئيس النيابة المنضدة بقضبة يده وقال :

— إن هذه أخطاء مطبعية تحدث في كل قضية!

— هذه الأخطاء تحول ورق التحقيق إلى ورق تواليت!

— إن النيابة غير متمسكة بهذه الأقوال.

– وهل تقبلون كل الطلبات التي طلبناها؟

– نعم نقبلها.. إن لدينا من الأدلة والبراهين والمستندات ما يفقأ عين المتهم!

قال علوبة باشا بهدوء:

– أحمد الله على أن العدالة معصوية العينين. وإلا لوصلت أصبع رئيس النيابة إلى عيني العدالة أيضا!..

قال رئيس النيابة في عصبية:

– النيابة تطلب التأجيل لمدة شهر لتصحيح هذه الأخطاء البسيطة في النسخ المطبوعة!

قال على أيوب المحامي:

– شهر؟ إن المتهم مضى عليه في السجن أكثر من عام!

– الذي بقى في السجن عاما يستطيع أن يبقى عاما وشهرا!

– ووقف علوبة باشا وهو يلوح بيده ويقول:

– ما هذه الاستهانة بحرية الشعب؟ بقاء برىء واحد في السجن دليل على أن البلد كله محروم من العدالة!

واندفع رئيس النيابة غاضبا:

– إننى احتج على هذا الكلام! إن المحامين يريدون أن يحولوا صرح العدالة إلى منبر للسياسة! إن وجود مسجون واحد رهن المحاكمة ليس معناه أن مصر ليس فيها عدالة!

قال علوية باشا :

— عندما تسلب حرية فرد واحد في هذا البلد، فمعنى ذلك أن البلد كله قد سلبت حريته ! إن حرية مصرى واحد هى حرية المصريين جميعا !

قال وهيب دوس :

— هذه مؤامرة لاستمرار سجن برىء !

صاح رئيس النيابة :

— هذا المتهم ليس بريئا ! سوف نثبت لكم أنه مجرم .. مجرم .. مجرم ! نحن نطلب التأجيل لاعادة نسخ القضية.

قال على أيوب المحامى ساخرا :

— بشرط التنبيه على موظفى قلم النسخ بعدم الذهاب إلى صالة بديعة..
ولا فسوف تجيء لنا الملفات وهى ترقص رقصة البطن !

ووقف علوية باشا وقال فى حماس :

— إن التصحيح المطلوب فى الملف لا يستغرق سوى بضع دقائق،
ولا يحتاج إلى شهر كامل. ولهذا فإن الدفاع يرفض التأجيل !

واقتربت رعوس المستشارين الثلاثة ! وتهامسوا وتداولوا، وهزوا
رعوسهم، ثم قال رئيس المحكمة فى صوت قوى :

— قررت المحكمة رفض التأجيل واستمرار نظر الدعوى..

* * *

وتصاعدت زفرات الابتهاج من الحاضرين. وكأنهم تنفسوا الصعداء..

لقد أصبحوا جميعا من أنصار المتهم ومن خصوم النيابة، أحسوا أن رئيس النيابة يمثل السلطة الفاشمة ! والمصريون بطبيعتهم إذا وجدوا مشاجرة في الشارع بين جندي الشرطة وأحد المدنيين انضموا على الفور إلى المدني وناصروه على رجل الشرطة، ظالما كان أو مظلوما !

ولقد أحس الحاضرون في الجلسة بأن رئيس النيابة نسي أنه رجل القانون، وتحول إلى جندي شرطة، واعتبر القانون الذي في يده هراوة ينهال بها على رأس المتهم الصامت العجوز !

وتهيأت المحكمة لنظر القضية. ووقف محمد على علوبة باشا يقول :

— أما وقد قررت المحكمة نظر القضية، فإنني أتشرف بأن ألفت نظر المحكمة، إلى أن في حرم المحكمة، ضباطا وجنودا يحملون البنادق والمسدسات والمدافع الرشاشة ! وقاعة المحكمة مكان مقدس، مثل المسجد مثل الكنيسة، في المسجد نخلع نعالنا قبل الدخول، في الكنيسة نخلع قبعاتنا قبل الدخول، في المحكمة نخلع أسلحتنا قبل الدخول ! السلاح الوحيد الذي يشهر في داخل هذه القاعة هو القانون ! وكل سلاح يجب أن يتوارى أمام قداسة القانون !

فقال رئيس النيابة في هلع :

— يا حضرات المستشارين إن هذا المتهم رجل خطير.. خطير جدا جدا جدا ! إنه أخطر مجرم في هذا البلد، ولن يتردد في الهرب، وهو له صلة بالعدو. صلة مباشرة بالجيش الألماني.. ووجوده بلا حراسة مسألة خطيرة جدا جدا جدا !

قال رئيس المحكمة في هدوء :

– يمكن للحرس المسلح أن يقف خلف باب القاعة، وتحت النوافذ..
ولا يجوز أن يبقى داخل القاعة أى شخص يحمل السلاح.

وخرج الضباط والجنود المسلحون بخطوات متثاقلة.

وضحك وهيب دوس وقال :

– يظهر أن أمر المحكمة مقصور على البوليس العلنى، لأننى أرى رجال
البوليس السرى لا يزالون فى أماكنهم !

قال على أيوب :

– كيف ينصرفون وهم القضية ؟

وضجت القاعة بالضحك، وضرب رئيس المحكمة المنصة بيده وقال :

– هدوء ! المحكمة لا تسمع بأى هرج أو مرج !

ونادى رئيس المحكمة على المتهم، ووقف عم عبده فى القفص، ولا تزال
ابتسامته ترقص فوق شفتيه.

– اسمك ؟

– عبده عبده عبده.

– مهنتك ؟

– متهم !

– أقصد قبل توجيه الاتهام لك ؟

– متهم أيضا !

- لا يوجد أحد في الدولة مهنته متهم !
- ربما أكون أنا المتهم الوحيد ! اسمى في كل أوراق الدولة منذ نشأتى،
مسبوق بكلمة متهم !
- متهم بماذا ؟
- متهم بالتسول ! متهم بالتشرد ! متهم بأشغال الطريق لأننى كنت أنام
على الرصيف !
- أين تقيم ؟
- بجوار فندق الكونتنتال !
- فى العمارة التى بجواره ؟
- لا.. فى الرصيف الذى بجواره !
- أنت متهم بأنك طبعت منشورا قلت فيه إن الجيش البريطانى جيش
من السكارى !
- لست وحدى الذى قال هذا !
- هل لك شركاء ؟
- نعم، لى شريك !
- من هو ؟

– وخيم الصمت فجأة على قاعة الجلسة.. ورفع علوية باشا رأسه فى
ذهول.. واصفر وجه عادل علاء الدين. ونظر الاثنان إلى قسمت. هل اتفقت
مع عم عبده على أن يعلن أمام المحكمة أنها صاحبة المنشور ولم يظهر على

قسمت الاضطراب.. كانت تنظر إلى عم عبده بإعجاب !

وصمت عم عبده ولم يرد على السؤال..

وعاد رئيس المحكمة يسأله :

– من هو شريك في هذا المنشور؟

– أحب أولاً قبل أن أذكر اسم شريكى أن أسأل هل من يقول « إن الجيش البريطانى فى مصر هو جيش من السكارى » يوضع فى السجن؟

وأمسك رئيس النيابة بيده قانون العقوبات وقال فى تحد :

– طبعاً يوضع فى السجن ! إن بريطانيا حليفة مصر بحكم معاهدة سنة ١٩٣٦ ، التى أقرها البرلمان، وأصبحت قانوناً نافذاً، والقانون يعاقب من يهاجم حلفاء مصر، وكل من يهاجم جيش بريطانيا كأنه يهاجم جيش مصر !

– هل تضعون فى السجن كل من يقول هذا الكلام مهما كان مركزه؟

– قال رئيس المحكمة فى لهجة التأكيد.

إن الجميع أمام القانون سواء !

– إذن سأعترف باسم شريكى !

– ما اسمه؟

– صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء، والحاكم العسكرى !

– النحاس باشا.. شريكك؟

– نعم !

ووقف رئيس النيابة يقول :

— إن المتهم يتظاهر بالجنون ليفلت من المحاكمة !

— إننى لست مجنوناً، إننى أتمتع بكل قواى العقلية !

— أنت تتصور إذن أننا مجانين لنصدق أن رئيس الوزراء هو شريك !

— إن النحاس باشا خطب فى شهر أغسطس سنة ١٩٤١ فى رأس البر وقال بالحرف الواحد إن الجيش البريطانى هو جيش من السكارى.. وبعد ذلك بستة شهور أصبح رئيس وزراء مصر !

وصرخ رئيس النيابة فى غضب :

— هذا المتهم ملفق كاذب، أفاق ! إن صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا لم يقل شيئاً من هذا الكلام الفارغ !

— إننى أقدم إلى المحكمة ثلاث صحف يومية صدرت فى القاهرة، ومنشوراً بها نص خطاب رئيس الوزراء عندما كان زعيماً للمعارضة وهو يقول بالحرف الواحد : إن الجيش البريطانى فى مصر جيش من السكارى ! وأمسك رئيس المحكمة بنسخة من الجريدة، وأمسك المحامون بالنسخة الثانية، وأمسك رئيس النيابة بالنسخة الثالثة !

ووقف محمد على علوبة باشا يلوح بالجريدة ويقول :

— إن ما قاله المتهم هنا صحيح بالحرف الواحد.. إن النحاس باشا قال فعلاً إن الجيش البريطانى هو جيش من السكارى.. فإذا كان فى هذه الجملة جريمة.. فيجب أن تأمرؤا بالقبض على رئيس الوزراء، وتضعوه فى السجن مع عم عبده. وإذا لم يكن فى الأمر جريمة، فأطلقوا سراح عم عبده فى الحال !

قال رئيس المحكمة :

– حدد لنا طلباتك يا باشا !

قال علوبة باشا :

– طلبات الدفاع هي القبض على شريك المتهم.. صاحب المقام الرفيع

رئيس الوزراء !!!

الفصل الثالث والأربعون

عندما طالب المحامى علوبة باشا بالقبض على رئيس الوزراء، اهتزت أرجاء المحكمة. انفجرت كلمته كأنها قنبلة هائلة ألقيت في القاعة، خيل لعادل علاء الدين أن القاعة تحولت إلى أنقاض. خيل لقسمت أن المستشارين الثلاثة أصبحوا مبتورين لا يستطيعون الحراك.. خيل لعم عبده أن كاتب الجلسة أصبح بلا ذراعين، وتوقف عن الكتابة. خيل للحاضرين أن رئيس النيابة أصبح بلا ذراعين ولا يدين ويلا رأس!

المحكمة كلها اهتزت من هذا الدوى. خيل لحاجب الجلسة أن اللافتة المعلقة فوق رموس القضاة، المكتوب عليها «العدل أساس الملك» قد سقطت فوق رؤوس القضاة!

واتجهت عيون الحاضرين إلى قفص الاتهام. وهيا لهم السهم أن عم عبده لم يعد وحده في داخل القفص، بل إن معه رئيس الوزراء أيضا!

الكلمة أحيانا تفعل في الناس ما تفعله القنبلة عندما تنفجر. تجعلهم يتصورون أن جدران القاعة تتشقق، وسقفها يتساقط فوق رؤوسهم. ويتخيلون أن الأضواء تهتز، والأرض تميد تحت أقدامهم هناك كلمات كالرصاصة. وكلمات كالقنابل، وكلمات كالصواريخ، تطيش وتصيب، تسقط في الرمال أو تنقض على الهدف بإصابات مباشرة.

ومضت فترة صمت. ثم وقف رئيس النيابة يترنح، وكأنه يرفع رأسه من بين الانقراض والتراب. كانت جفونه حمراء وكأنها احترقت من شظايا القنبلة، وقال في صوت مرتجف لعلوية باشا:

— أنت تمزح يا باشا عندما تطالب بالقبض على رئيس الوزراء!

— إننى لا أمزح.. إذا كنت أنت لا تمزح عندما تقول إن العبارات المنسوبة إلى عم عبده تؤلف جريمة تستحق العقاب!

— لا تسمح النيابة لمثل هذا المجرم النصاب الأفاق أن يقارن نفسه بصاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء!

— رئيس المحكمة قال إن المصريين جميعا أمام القانون سواء.. وهذا هو نص الدستور!

— خطاب النحاس باشا منشور في جريدة، ومعنى هذا أن الرقيب وافق عليه!

— وكلام عم عبده هو نفس كلام رئيس الوزراء عندما كان زعيما للمعارضة!

— الكلام الذى كتبه عبده مكتوب في منشور، ولم يطلع عليه الرقيب، ولم يأذن بنشره، وهذه جريمة طبقا لقانون الأحكام العرفية!

— أيهما أكثر انتشارا يا سعادة رئيس النيابة، الجريدة التى تطبع عشرات الآلاف، أم المنشور المطبوع من عشرات النسخ؟

— القانون لا يحدد عدد النسخ المطبوعة!

— يظهر أن قانونكم لا يحده أى شيء!

- الدفاع يسخر من القانون الذى وقعه جلالة الملك وأقره البرلمان !
- نحن نسخر من الذين يطبقون القانون !
- تطبيق القانون أمانة فى أعناقنا !
- أنتم تفتنون على الابرة، وتبلعون المثذنة !
- نحن خدام العدالة !
- نحن لا نهاجم خدام العدالة.. وإنما نهاجم خدام الحاكم !
- إن الدفاع عندما يطالب بالقبض على رئيس الوزراء يحاول أن يحول هذه القضية إلى مهزلة !
- إن تقديمكم هذه القضية إلى محكمة الجنايات هو المهزلة بعينها.
- إننى ألتجئ إلى المحكمة لتحمى النيابة من عدوان المحامين.
- صدق سعد زغلول عندما قال : « أعجب لمن يقول للباكى لا تبك، قبل أن يقول للضارب لا تضرب » !
- النيابة لم تضرب أحدا !
- البوليس ضربه !

* * *

- وثبت رئيس المحكمة النظارة فوق عينيه وقال فى حزم :
- إننا لا نريد أن نضيع الوقت فى مناقشات بين النيابة والدفاع.. نحن نريد أن نتفرغ لمناقشة المتهم.

- الدفاع يأسف إذا كان رئيس النيابة أضاع وقت المحكمة !
- والنيابة حزينة لأن الدفاع أضاع وقت المحكمة !
- وتجههم وجه رئيس المحكمة، والتفت إلى عم عبده وقال له :
- إنك قلت في منشورك : إنه يجب أن يقوم الشعب على بكرة أبيه،
ويقاطع جيوش الاحتلال، وينقض على الانجليز!
- نعم قلت هذا !
- هذا الكلام ليس موجودا في خطاب رفعة رئيس الوزراء الذى
استشهدت به.
- فعلا.. إن هذا الكلام ليس موجودا في الخطاب.
- وصاح رئيس النيابة، وكأنه أفاق من دوى قنبلة علوية باشا عن طلب
القبض على رئيس الوزراء، وقال في لهجة الانتصار:
- طبعا هذا الكلام الفارغ لم يقله رئيس الوزراء. لأن هذا الكلام
لا يقوله إلا مجرم أو مجنون.. أو مجرم مجنون في وقت واحد !
- إن هذا ليس كلامى !
- كلام مجرمين مجانين مثلك !
- معلوماتى أنهم جميعا متمتعون بقواهم العقلية !
- إذن لابد أنهم مجرمون !
- ولا مجرمين..
- فى نظرك !
- وفى نظرك أنت ! ويجب أن تحترمهم !
- إننى لا أحترم من يقول هذا الكلام الفارغ !

- إنهم محترمون بحكم القانون!
- من هم هؤلاء الشركاء؟
- أغلبية أعضاء البرلمان الحالى!
- وصرخ رئيس النيابة محتجا:
- أطلب من المحكمة عدم إثبات هذا الكلام الفارغ فى محضر الجلسة وحذفه منها!
- وصرخ علوبة باشا بصوت أعلى من صوت رئيس النيابة:
- والدفاع مصمم على عدم حذف أى شىء من محضر الجلسة!
- النيابة مصممة على الحذف.. النيابة لا تقبل أن ينسب المتهم إلى أغلبية أعضاء النواب المحترمين ارتكاب جريمة يعاقب عليها القانون ويسجل هذا فى محضر رسمى!
- نحن لم نقل إنها جريمة.. أنت الذى قلت إنها جريمة!
- أنا قلت أن حضرات النواب والشيوخ المحترمين أبرياء من هذه الجريمة! وأن كلام المتهم الذى ينسبه إليهم هو كلام مجانين لا يمكن أن يصدر عنهم!
- قال عم عبده مبتسما:
- إن هذه الكلمات التى يصفها رئيس النيابة بالجنون، هى نص القرار الذى أصدره الوفد المصرى فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤١ عندما كان فى المعارضة، ووقع عليه جميع أعضاء الهيئة الوفدية وعددهم ٢٨٦ عضوا، وهم يكونون الآن أغلبية أعضاء البرلمان الحالى!
- واهتز رئيس النيابة فى مقعده كأن قنبلة جديدة سقطت فوق رأسه:

– مستحيل.. مستحيل! هذا كذب.. هذا تضليل!

– إننى أقدم للمحكمة الصحف التى نشرت القرار وفيها إمضاءات
أغلبية البرلمان الحالى!

وتناول كاتب المحكمة الصحف من عم عبده، وقدمها إلى رئيس المحكمة
ورئيس النيابة والمحامين. رغاصت رؤوسهم جميعا فى الصفحات يقرأون
قرار الوفد المصرى بأن يقوم الشعب على بكرة أبيه، ويقاطع جيوش
الاحتلال، وينقض على الانجليز!

ووقف الأستاذ على أيوب يلوح بالجريدة فى يده ويقول فى هدوء:

– إن الكلمات المكتوبة فى منشور عم عبده، هى بحروفها وألفاظها كلمات
قرار حزب الوفد الذى يتولى الحكم الآن!

وهز المستشارون الثلاثة رؤوسهم علامة الموافقة.

ونظر إليهم رئيس النيابة فى ذهول.

ورفع على أيوب رأسه وقال:

– إن رئيس النيابة قال أمامكم يا حضرات المستشارين إن الذى يقول
هذا الكلام إما مجنون أو مجرم.. بل هو مجرم ومجنون! ولما كانت أغلبية
مجلس الوزراء الحالى من أعضاء الوفد، وأغلبية البرلمان من أعضاء الهيئة
الوفدية.. فليس أمامه إلا أن يطلب إحالة الوزراء وأعضاء البرلمان إلى
مستشفى الأمراض العقلية، وإما أن يطلب إحالتهم إلى محكمة الجنايات!

ووقف محمد علوية باشا، وأزاح طربوشه إلى الخلف وقال:

– أعتقد أنها زلة لسان من رئيس النيابة.. ولهذا فالدفاع يكتفى بأن

يطلب من المحكمة أن تأمر بحذف الكلمات النابية التي وجهها رئيس النيابة إلى أصحاب المعالي وإلى حضرات الشيوخ والنواب المحترمين..

وانتفض رئيس النيابة فزعا :

— إننى لم أوجه عبارات نابية إلى أعضاء البرلمان.

— أنت قلت أن الذى يقول هذا الكلام مجرم ومجنون وقد ثبت للمحكمة أن الوزراء وأعضاء البرلمان قالوا نفس الكلام!

— إنهم رجال سياسة ومن حقهم أن يقولوا ما يشاءون!

— هل معنى هذا أن الكلمة الواحدة إذا قالها رجل من الشعب تعلق له المشنقة، وإذا قالها الوزير أو عضو البرلمان يصبح صاحب حق فيها؟

قال وهيب دوس ساخرا :

— عندما يلعن الزعيم الانجليز يصبح وطنيا عظيما فى رأى النيابة.. وعندما يقول فرد من الشعب نفس الكلمة يصبح مجرما ومجنونا!

وتدخل رئيس المحكمة قائلا :

— المحكمة قررت حذف كل هذه المناقشات من محضر الجلسة، وتطلب إلى الصحفيين عدم نشرها فى الصحف.

قال علوبة بأشا معترضا :

— قبل أن تحذفوها من محضر الجلسة يجب أن تحذفوها أولا من قائمة الاتهام الموجهة إلى عم عبده..

وأخرج رئيس النيابة من جيبه منديلا، وجفف العرق المتساقط من جبينه، قال وهو يلهث :

— النيابة متمسكة بجميع التهم.

قال المحامى وهيب دوس بك :

— ولكن تهمة عم عبده هى نفس تهمة الوزراء وأعضاء البرلمان، إذا سقطت عنهم يجب أن تسقط عن عم عبده !

— قرار أعضاء الوفد صدر فى سبتمبر ١٩٤١، ومنشور المتهم صدر فى يونيو ١٩٤٢ .. الفرق عشرة شهور !

— لم أعرف أن القانون يتبع نتيجة الحادث !

— فلسفة القانون تقول إن الجريمة تتغير بتغير السنة التى وقعت فيها.. إنك إذا قلت فى سنة ١٩١٣ « يسقط الخديو عباس » توضع فى السجن وإذا قلت فى سنة ١٩١٤ « يحيا الخديو عباس » توضع فى السجن ! ففى سنة ١٩١٣ كان الخديو عباس حاكما على مصر يحميه القانون، وفى سنة ١٩١٤ كان الخديو عباس مخلوعا من عرش مصر يحارب القانون !

وضحك علوية باشا وقال :

— إن هذا يذكرنى بحكاية وقعت سنة ١٩٣١ عندما كان صدقى باشا رئيسا للوزارة، فقد ذهب مدير مصلحة السجون يزور سجن مصر، ووجد فى زنزانة ثلاثة من المسجونين، وسأل المدير المسجون الأول : ما هى تهمةك ؟ قال المسجون : فى سنة ١٩٣٠ هتفت « يسقط النحاس باشا » فوضعونى فى السجن لأن النحاس كان وقتئذ رئيس الوزراء

وسأل مدير السجون المسجون الثانى : ما هى تهمتك؟ قال المسجون الثانى : « فى سنة ١٩٢١ هتقت «يحيا النحاس باشا» فوضعونى فى السجن، لأن النحاس باشا كان قد أقيـل من الوزارة!

وسأل المدير المسجون الثالث : وأنت ما هى تهمتك؟

قال المسجون الثالث : أنا النحاس باشا نفسه!

وضجت القاعة بالضحك!

وـمـجـر رئيس المحكمة، وطلب فى غضب من الحاضرين مراعاة النظام، وإلا فسوف يطرد الحاضرين من الجلسة، ويجعلها سرية..

وساد المحكمة سكـون كامل.

ووقف رئيس النيابة وقال :

— خطورة هذا المنشور، ليست فى الكلام الذى يتضمنه، إنما خطورته أنه موعـز به من أعداء البلاد!

قال عم عبده ساخرا :

— هل وزراء مصر وأعضاء برلمانها هم أعداء مصر؟

— إنه موعـز به من الحزب النازى!

— هل تريد النيابة أن تقول إن الحزب النازى ينادى اليوم بما كان ينادى به حزب الوفد عندما كان فى المعارضة؟

ووقف الأستاذ على أيوب وقال :

— ما دام رئيس النيابة يقول إن الجريمة تتغير بتغير السنة، فلماذا

لا نؤجل هذه القضية إلى أن تنتهى الحرب؟

قال وهيب دوس :

— وإذا كسب الانجليز الحرب شتقنا عم عبده!

وأضاف على أيوب :

— إذا كسب الالمان.. شتقنا رئيس النيابة!

— إن النيابة تحتج على هذه الاهانة!

— ليس فى الأمر إهانة! إنها أول مرة يصبح فيها القانون جزءا من نشرة الأخبار.. يتغير المتهم بتغير أنباء الحرب.. إن هذا المتهم لم يقدم إلى المحاكمة عندما كان الالمان منتصرين فى الصحراء الغربية.. وعند هزيمتهم قدمته النيابة للمحكمة!

— إن الدفاع خرج على موضوع القضية الاساسى. إن هذا المتهم تجسس على البلاد فى وقت الحرب للأعداء.. هذه هى التهمة الخطيرة التى تلوثه والتى يحاول الدفاع عبثا أن ينظفه منها.. ولكنى أحب أن أؤكد له أن كل الصابون الذى فى المملكة، لا يمكن أن يغسل هذه التهمة أو يزيل آثارها!

قال عم عبده ساخرا :

— أرجو أن توفر النيابة ما لديها من صابون.. هناك أماكن كثيرة فى الدولة فى أشد الحاجة إلى هذا الصابون!

— الرجل الفارق فى الطين، يرمى الأشراف بالطين.

— إن تهمتك لا تلوثنى، إنها تهمة تقليدية!

- المتهم تباهى بجريمته النكراء!
- إنها التهمة التقليدية التى يلجأ إليها البوليس السياسى فى كل بلد لتلويث خصومه!
- البوليس السياسى لا يلفق التهم!
- إن صناعته هى تلفيق التهم!
- عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان الزعيم لينين يقيم فى النمسا، واعتقلته السلطات النمساوية ولم تجد تهمة توجهها إليه، فوجهت إليه تهمة التجسس لحساب روسيا القيصرية.. فى الوقت الذى كان يعد لينين أعظم ثورة للقضاء على روسيا القيصرية!
- صرخ رئيس النيابة
- إن المتهم يا حضرات المستشارين لا يكتفى بجرائمه التى ارتكبها، وضبط متلبسا بها، بل يرتكب أمامكم جريمة جديدة، وهى الدعاية للشيوعية، وهى جريمة ينص عليها قانون العقوبات!
- أنا لا أدعو للشيوعية!
- أنت قلت أن لينين قام بأعظم ثورة فى العالم.. وهذه دعاية للشيوعية..
- أنا لا أدعو للشيوعية.. أنا أتحدث عن لينين.
- إنه زعيم الشيوعية.
- إنه منشئ الاتحاد السوفيتى، حليف بريطانيا فى حربها الآن، وبريطانيا هى حليفتكم!
- من أين أتيت بهذا الكلام عن لينين؟

– إنه مكتوب في كل الكتب المؤلفة عن تاريخ حياته.

– وماذا فعلت بهذه الكتب؟

– أعطيتها لبعض الناس.

– ليلفوا في أوراقها الفول السوداني؟

– لا.. ليقرأوها!

– يا حضرات المستشارين! أنتم تعلمون أن كل الكتب عن لينين ممنوعة في هذه البلاد. والمتهم يعترف أمامكم. بترويج الكتب الشيوعية، وهي جريمة ينص عليها قانون العقوبات. والنيابة تحتفظ بحقها في إضافة هذه التهمة الجديدة إلى قائمة الاتهام!

– أنت حيرتني! ساعة تقول إننى نازى. وساعة تقول إننى شيوعى!

– أنت أسوأ من الاثنين!

– أنا مصرى ولى رأى!

– لو كنت مصرياً! لما استشهدت بلينين الشيوعى!

– تريد مثلاً مصرياً؟

– نعم، لأن الكتب الشيوعية ممنوعة، ولا يجوز الاستناد قانوناً إلى كتاب

مخالف للقانون!

– النيابة تريد أن تشنقنى بأى تهمة!

– انتظر حتى أواجهك بالتهمة الكبرى الخطيرة!

– هل توجد أخطر من كل هذه التهم

– إن النيابة تتهم هذا المتهم بأنه تواطأ مع الألمان، ليدخلوا القاهرة،

على حين غفلة من أهلها!

– هذه التهمة بحروفها وألفاظها، هي نفس التهمة التي وجهها محمد على إلى الزعيم الوطنى عمر مكرم، عندما أراد أن يتخلص من معارضته !

– المتهم يخلق الوقائع ويضيف التاريخ !

– أنا لا أضيف التاريخ يا سعادة رئيس النيابة المحترم ! أنا لا أحذف كلمات من كتب التاريخ ! أنا لا أضع فى كتاب التاريخ اسم الراقصة نشوى عبده، وأحذف اسم بهية مسقعة !

– المتهم مصاب بلوثة تاريخية ! يريد أن يدخل التاريخ ! التاريخ ليس صندوق قمامة !

– كتب التاريخ فيها أسماء الملوك والصعاليك، وكثير من أعمال الصعاليك تنسب كذبا إلى الملوك.. وكثيرا ما يفعل الملوك فى كتب التاريخ ما فعلتم فى محضر التحقيق !

– المتهم فضح نفسه وعاد يتكلم بلغة الشيوعيين !

– إننى لا أضيف التاريخ.. وإنما أتكم بلغة التاريخ.

– أنت تتهرب من الاجابة.. تختفى وراء الشعارات والكلمات البراقة.

– الحقيقة دائما لها بريق !

– أنت ادعيت على محمد على أنه لفق قضية خيانة وتخابر ضد الزعيم الوطنى محمد عمر مكرم، فلما طالبناك بالدليل، رحت تلف وتدور، إنك لست مجرما فقط، أنت مزيف للتاريخ !

– إننى لا أضيف التاريخ. هذا الكلام منقول حرفيا عن المؤرخ الكبير الجبرتى، الجزء الثالث، صفحة ١٠٠، وهذا هو كتاب الجبرتى أقدمه إلى المحكمة.

ومد عم عبده يده تحمل الكتاب، وتناوله منه كاتب الجلسة، وحمله الكاتب إلى رئيس المحكمة، الذى فتح صفحة ١٠٠ ثم هز رأسه مرة وتناوله إلى عضو اليمين الذى قرأه ثم هز رأسه مرتين، وتناوله إلى عضو اليسار الذى قرأه، ثم هز رأسه ثلاث مرات، ثم ناوله إلى رئيس النيابة، الذى دفن رأسه فى صفحات الكتاب، ولم يرفعه.

وقال رئيس المحكمة :

— مضبوط! لقد قال المؤرخ الجبرتى هذا الكلام!

واحمر وجه رئيس النيابة، ثم أصفر وجهه، ثم قال فى ضيق:

— يا حضرات المستشارين، هذا المتهم يريد أن يعطل سير العدالة. ويثير مسائل لا علاقة لها بالقضية. يدخل بنا فى تفريعات ومناقشات لا داعى لها! يقلب المأساة إلى كوميديا! إنه يشبه نفسه بالزعيم الوطنى الكبير عمر مكرم!

— وأشبهك أنت بمحمد على الكبير!

— أخرس!

— أنا مستعد أن أخرس. ولكن الحقيقة لابد أن تتكلم!

— الذى يتكلم الآن هو الأكاذيب.

— إن التهمة التى وجهتها لى هى نفس التهمة التى لفقها محمد على ضد الزعيم الوطنى عمر مكرم!

وضرب رئيس النيابة بقبضته على المنصة التى أمامه، فتطايرت الأوراق من فوقها وقال فى صوت متهدج:

— هذه جريمة عيب في الذات الملكية ترتكب في حرم المحكمة !

— إننى لم أذكر عن الملك أى كلمة !

— أنت قلت أن محمد على الكبير بيلفق القضايا ضد الأبرياء ! إن ساكن الجنان محمد على باشا الكبير هو مؤسس الأسرة العلوية الكريمة. وهو جد جلالة الملك فاروق. وعندما تقول إن جد جلالة الملك ملفق، فهذا عيب في جلالة الملك الجالس على العرش. والنيابة تحتفظ بتوجيه تهمة العيب في الذات الملكية إلى المتهم.

ووقف محمد على علوية باشا وقال في هدوء :

— يبدو أن رئيس النيابة يريد أن يوجه إلينا كل التهم الموجودة في قانون العقوبات ! ولا أستبعد بعد ذلك أن يوجه للمتهم تهمة إشغال طريق، والسير على يسار الطريق، وإدارة كازينو قمار، وبيع مواد تمويينية أغلى من التسعيرة، إلى آخر مواد قانون العقوبات !

— النيابة لا تتصيد التهم !

— إنك كلما فوجئت بتهمة تنهار.. اخترعت تهمة جديدة !

— النيابة ترفض أن يصفها الدفاع بالاختراع !

— الحاجة أم الاختراع !

— النيابة ليست في حاجة إلى أدلة اتهام.. وإنما المتهم هو الذى في حاجة إلى أدلة يدافع بها عن نفسه.. وهذا ما جعله يخترع هذه الأسانيد التاريخية.

ولوح عم عبده بكتاب في يده وقال :

— إن هذه الواقعة التي ذكرتها الآن أمام المحكمة مذكورة في كتاب المؤرخ أمين سامى باشا الجزء الثانى صفحة ٢١٨.

واستغرق المستشارون الثلاثة فى مراجعة كتاب المؤرخ أمين باشا سامى.

وتهلل وجه قسمت.

وابتسم المحامون.

ونظر عادل إلى قسمت بإعجاب، فقد شعر أنها اشتركت فى إعداد هذه المستندات، ولكن قسمت أدارت رأسها...

وحدثت مهمة بين الحاضرين، وامتقع وجه رئيس النيابة، وراح يقلب بعصبية بعض الأوراق التى أمامه.. واتجهت عيون الحاضرين إلى عم عبده.. يتأملون وجهه الذى لم تفارقه الابتسامة الساخرة.. وأحسوا بأن هذا الرجل الهزيل الضعيف الضئيل يحارب عملاق السلطة. نواة تقاوم السريح! رجل من قش يصمد للمطارق التى تنهال فوق رأسه من يد رئيس النيابة الذى لا ييأس أبدا، ثم يفاجأون بهذا الرجل الضئيل ينتزع المطرقة من رئيس النيابة ويهوى بها على رأسه.

وكان الحاضرون فى أول الأمر يشفقون على القزم عندما تهوى فوق رأسه سياط رئيس النيابة الجبار ومطارقه وصواعقه.. قلوبهم على الضعيف تهمس بالحب، وألسنتهم خرساء تخاف أن تهتف بكلمة الحق.. ولكنهم عندما رأوا القزم الصغير يخطف السوط من يد الجبار وينهال عليه، تحولت الشفقة إلى إعجاب وتجرات الكلمات الجبابة وخرجت تهتف فوق الشفاه. فترددت كلمات الاعجاب بعم عبده، بعد أن تحول المظلوم المسحوق إلى بطل.

ولهذا أحس الذين حضروا الجلسة بأنهم ينتقلون فجأة من مقاعد المتفرجين إلى المسرح. وبدأت الهمسات تعلو.. كأن المحكمة تحولت إلى مباراة للملاكمة. الحاضرون يهللون لكل ضربة يوجهها عم عبده إلى رئيس النيابة، ويستنكرون كل ضربة يلطم بها رئيس النيابة وجه عم عبده.

وتبادل الطرفان مواقعهما في عيون الحاضرين.. كأن الحماس رفع عم عبده من قفص الاتهام وأجلسه في مقعد المدعى، وأصبح رئيس النيابة هو الذى فى قفص الاتهام!

ولاحظ رئيس المحكمة أن المحامين بدأوا يستعدون للانقضاض على رئيس النيابة. ولاحظ أن الجمهور بدأ يفقد سيطرته على أعصابه وعلى ألسنته وبدأت تصل إلى أسماع المحكمة ألفاظ الهزء والزراية والاستخفاف برئيس النيابة.

واشتدت عصبية رئيس النيابة. وبدأ الجو يتكهرب فى الجلسة. وسارع رئيس المحكمة يحاول انقاذ الموقف.

وأعلن فجأة وقف الجلسة للاستراحة.

وأظهر الحاضرون استياءهم بمصممة شفافهم، ويدب الأرض بأقدامهم. وشعروا أن رئيس المحكمة أشبه بالحكم فى مباراة ملاكمة، رأى أحد المتبارين هوى على الأرض أثر ضربة قاضية. فأسرع يمدق الجرس معلنا انتهاء الجولة، قبل أن يعد من واحد إلى عشرة.. ويستمر الملاكم المهزوم ملقى على الأرض بلا حراك!

ثم أعيدت الجلسة..

وبداً رئيس النيابة كأنه استرد أنفاسه، أو اتصل برؤسائه، ووقف في بداية الجلسة يقول:

— يا حضرات المستشارين رأيتم بأبصاركم، وسمعتم بأذانكم، وعرفتكم خطورة المتهم المائل بين أيديكم! المتهم الذي ادعى طوال التحقيق أنه شحاذ ساذج، هل هذه عقلية شحاذ ساذج؟ إن كل إجاباته أمامكم تقطع بأنه عميل مدرب، عميل خطير، أعدته ألمانيا النازية ليقوم بعمليات تخريب خطيرة في البلاد، وعلمته المخابرات النازية طرق مراوغة القانون وتضليل العدالة. تنكر في زى متسول ليخدع البوليس، ويخدع الدولة ويخدع القانون. إنكم رأيتم كيف حاول أن ينقل قضيته من القرن العشرين إلى القرن التاسع عشر. من ورق التحقيق إلى كتب التاريخ. إن وقائع الحاضر شاهدة عليه! تدينه وتأخذ بتلابيبه!

إننى أستاذنكم أن أقطع عليه الطريق، وأدعو شاهدة الاثبات وسوف تسمعون وقائع تشيب لها الرؤوس، وقائع لن يجد المتهم أمامها مهرباً في كتب الجبرتي وأمين سامى باشا..

وتداول رئيس المحكمة مع زميليه ثم قال لحاجب الجلسة:

— استدع الشاهدة نشوى عبده!

الفصل الرابع والأربعون

دخلت نشوى إلى قاعة محكمة الجنايات. دخلت تنهذى كأنها ملكة،
وكأن اشواق الرجال عبيدها وجواريها، يسبقها عطرها الأخاذ، يملأ الأنوف،
ويسكر الرؤوس، ويجعل الاجسام تترنح.

ارتدت أفخر ثوب لديها. ثوب أحمر فاقع، مزركش، مدندش.. يكشف عن
ذراعيها المخروطتين وساقيهما الطويلتين، وجزء من صدرها، وهو يتظاهر
بأنه يغطيها!

كل ما فيها مثير. كأنها علقت على جزء من جسمها بطاقة دعوة .. شعرها
الأسود الناعم يدعو الاصابع تلعب بخصلاته.. عيناها الكبيرتان الشرهتان
تغطيهما بنظارة سوداء فتفشل النظارة في أن تخفى ما فيهما من جوع، بل
أنها على العكس تضاعف من خيال الناظرين. فمها الشهوانى يسطل منه
مطرب يصيح : يا مرحبا.. بالقبلات.. صدرها يتحرك تحت فستانها، وكأنه
يحاول أن يمزق الفستان الحريري الأحمر ويخرج منه إلى العيون المبهورة،
وإلى العيون الحالمة وإلى العيون الفاجرة!

واشرأبت رؤوس الموجودين.. لووا رقابهم، مدوها، بدأت أعناقهم وكأنها
طالت فجأة، وكأن كل واحد منهم ضاعف طول رقبته لترى عيناه أكثر مما
اعتادت أن تريا!

حاجب الجلسة لوى شاربىه باصابع مضطربة . كاتب الجلسة أخرج لسانه .
العجوز المذهول استعاذ من الشيطان الرجيم بلسانه ، واثنى عليه بعينه ..

وهيب بك دوس المحامى أسرع يصلح رابطة عنقه . المستشارون الثلاثة
تحركوا فوق مقاعدهم . استيقظ المستشار عضو اليمين من غفوته الدائمة
واعتقد أنه يحلم . خلع عضو اليسار نظارته ومسح زجاجها بمنديله حتى تزيد
وضوح الصورة فى عينيه . رئيس المحكمة مد رأسه أمامه ، حتى كادت تعبر
منصة العدالة ، وتلتصق برأس الراقصة نشوى !

ورفع عادل رأسه نحو نشوى فى إعجاب . إنه لم يرها من قبل فى كل هذه
الاثارة والأناقة والجمال وابتسم فى استغراب ، فقد كانت نشوى أشبه بغانية
حضرت لتنام مع محكمة الجنايات ، لا شاهدة جاءت لتؤدى الشهادة أمامها !

وفتح عم عبده فمه فى دهشة .. كانت نشوى امرأة شائقة ، أشبه بتفاحة
ناضجة شهية . وخيل إليه أن كل الموجودين فى قاعة الجلسة فتحوا أفواههم
مثله . وأن فى كل فم من هذه الأفواه الجائعة قطعة من التفاحة . كل فم أصبح
فيه بعض من حلوة نشوى !

وشعر عم عبده بشيء من الزهو والفخر ، كأنه اشترك فى صنع هذا
الجمال ، عندما ساعد الخادمة شلبية الوحش لتكون راقصة فى صالة بديعة !
تغلب الرجل فيه على المتهم ! نسى أن هذه المرأة شاهدة الاثبات ضده ، ولم
يذكر الا جمالها الفتان !

احست قسمت بالغیظ الشديد وهى تشاهد هذه المظاهرة الصاخبة
لجمال الراقصة نشوى عبده .. عجبت كيف يستطيع الزيف أن يخفى قبحه
تحت هذا الجمال المصنوع .. عجبت أن ترى الناس يتدافعون إلى قاعة
الجلسة ، ويملاونها ، ولا يجدون مكانا فيسدون الممرات . عجبت الا يهتم

الناس برؤية مشنقة الظلم وهى تلف حبلها على عنق برىء، ويهتمون برؤية جسد راقصة ! خيل إليها أن انصار الراقصة أكثر كثيرا من انصار العدالة ! شعرت قسمت أن احدا من كل هؤلاء الملهوفين على رؤية الراقصة.. رأى كل تفاصيل جسدها المثير.. ولم يرحل المشنقة الذى حملته فى يدها ! لقد اعترفت مرغمة أن نشوى بدت فى قاعة الجلسة رائعة الجمال، وكأنها رشت كل الموجودين فى القاعة، واعطت كل رجل منهم قطعة من جمالها، تلسعه وتكويه، أو تحرقه وتشويه. إنها فعلا أعطت كل عين ما تأكله من جسدها ! اعطت رجلا شعرها، واعطت آخر صدرها، وأعطت ثالثا ذراعها، ورابعا ساقها، وخامسا أناملها الرقيقة. وخيل إلى قسمت أنها اعطت لرئيس النيابة المدهوش إحدى عظامها فراح ينهش العظام بشبق عجيب !

ومع ذلك فقد عجبت قسمت أن تستطيع هذه المرأة أن تسحر القاعة بطريقة مشيتها، وتشعر كل من يراها كأنها ترقص له عارية، حتى أنها نومت كل الرجال فى القاعة تنويما مغناطيسيا.. وزاد ضيقها أن الشيخ المعمم صاحب اللحية الطويلة الذى يجلس خلفها وكان يتثاءب أثناء المناقشة العنيفة بين عم عبده ورئيس النيابة، فتح عينيه فجأة، وقال فى صوت مرتعش إن الله جميل يحب الجمال !

* * *

وملأت ابتسامة كبيرة فم رئيس المحكمة، وقال لها فى صوت ناعم رفيق،
وكان الكلمات (ملبسة) تذوب بين شفتيه :

— اسم الهانم ؟ !

— نشوى عبده.

— السيدة نشوى عبده.

— لا.. الانسة نشوى عبده.

— طبعا.. طبعا.

وأخفت قسمت ابتسامة خبيثة ونظرت بنصف عين ساخرة إلى وجه عادل وكأنها تطالبه أن يقف ويؤدي شهادته في هذا الموضوع.. ولكن عادل أخفى رأسه في الورق الذي أمامه !

وعاد رئيس المحكمة يسأل نشوى في رقة بالغة :

— مهنتك؟ راقصة ! اشهر من نار على علم !

— راقصة فنانة !

— ما الفرق بين الراقصة والراقصة الفنانة ؟

— الراقصة ترقص بجسدها، والراقصة الفنانة ترقص بروحها وجسدها !

وقاطعها وهيب دوس المحامي ساخرا !

— يقولون إن الراقصة هي المرأة التي تباع لحمها بالجملة للعيون الجائعة !

ولم تغضب نشوى من سخريه المحامي اللاذع، بل قالت في هدوء :

— أنا شخصا ابيع لحمى.. بالقطاعى !

واستشاط رئيس المحكمة غضبا وقال لوهيب دوس :

— المحكمة قررت حذف هذا السؤال غير اللائق من المحضر !

وابتسمت نشوى ابتسامة حلوة جعلت رئيس المحكمة يزداد رقة ويقول :

— عمر الانسة.. عشرون سنة طبعا؟

— لا ٢٢ سنة !

— يبدو عليك أصفر كثيرا من هذه السن ! قولى والله العظيم أقول الحق .

— والله العظيم أقول الحق .

— وابتسم على أيوب المحامى، ومال على الاستاذ علوية باشا وقال له
هامسا :

— رئيس المحكمة كله نظر ! الم تلاحظ أنه سأل الراقصة نشوى عن
عمرها أولا، وبعد ذلك طالب منها أن تقسم اليمين أن تقول الحق

ولم يسمع رئيس المحكمة ملاحظة المحامى الخبيثة، فقد كان مشغولا
بتأمل الشاهدة، وكأنها ملف القضية !

ومضى يسألها :

— هل تعرفين المتهم عبده عبده ؟

— أعرفه جيدا

— كان يتردد على الصلاة !

كان يتردد على بيتى

— ما هى معلوماتك عنه ؟

— طيب فى خبيث، صريح فى مراوغ .

— لقد رأينا ذلك بأنفسنا !

— وهو ذكى لماح، سريع الخاطر

— ما هى معلوماتك عن القضية، ؟

— ذكرتها فى التحقيق أمام النيابة

— الا تريدان أن تعدلى عن أى شىء فيها ؟

— متمسكة بكل حرف فيها .

– الا تريدین أن تضیفی أى شیء لها؟
– اننى قلت كل ما اعرفه وما أقسمت اليمين عليه.
واصفر وجه عادل وقسمت وعم عبده فى وقت واحد.

فوجئ عادل بهذه الأجابة القاطعة. كان يتوهم أن نشوى ستحافظ على الكلمة التى اعطتها لشقيقته اميرة، وتقول الحقيقة كاملة !
عض على شفته أسفا على اللیالى التى أمضاها بین ذراعیها من أجل أن يحصل على الحقيقة خان قسمت، أغضبها، أثارها، فقد علاقته الحلوة بها.
ولكن نشوى خدعته، باعته لأول زبون دخل بعد خروجه !

وامتقع وجه عم عبده. شعر أن نشوى فقدت فجأة كل جمالها الذى سلب عقله ! لم يتصور أن فى داخل كل هذا الجمال، يوجد كل هذا القبح، وكل هذه البشاعة !

وهزت قسمت رأسها ! إنها لم تخدع أبدا فى الراقصة نشوى. إنها رأتها دائما على حقيقتها. ما أغبى عادل الذى تصور أنه يستطيع أن يقنع نشوى بجسده، بعد أن عجز أن يقنعها بكلماته كيف لا يعلم زئ النساء أن أجساد الغانيات، تقتنع وهى بین اذرع الرجال، فاذا ذهب الرجل أخذ معه كلماته، الرجل يستطيع أن يدخل جسد الغانية، ويستطيع أن يدخل قلبها، ولكنه لا يستطيع أن يدخل عقلها ابدا، لان عقل الغانية يختلف عن عقول النساء العاديات، إنه مصنوع من أكاذيب الزبائن، من خداع العشاق، من مرارة التجارب، من قسوة الايام، الغانية تفتح قلبها بسهولة، وتفتح جسدها بسهولة أكثر، ولكنها لا تفتح عقلها ابدا !

وعاد رئيس المحكمة يسأل نشوى :
كيف عرفت أن المتهم يتعامل مع الالمان ؟

– قال لى ذلك صراحة.

– أنت قلت أنه صريح فى مراوغ.. فهل سألته، أو استدرجته؟

– إننى لم أسأله.. ولم استدرجه!

– كيف يقول لك هذا السر الخطير؟

– عندما يحب الرجل تنحل عقدة لسانه! الرجل يكتم سره عن أقرب الناس اليه، ولكنه يبوح بسرهِ للمرأة التى يعشقها!

– قال كل شيء لأول وهلة؟

– لم يقل كل شيء.. قال بعض الاشياء.. والكأس الثالثة قالت الباقي!

– قد يكون هذا كلام سكارى!

– قال نفس الشيء مرة أخرى قبل أن يلمس كأسا واحدة!

وهنا وقف محمد على علوية باشا وقال:

– مع اعترافى الكامل بقوة جاذبيتك يا أنسة، ويسحر جمالك، ويقدرتك على السيطرة على الرجال، فأننى أحب أن أسالك ما الذى يدعو عميلا سريا لدولة أجنبية، أن يعترف لراقصة بأنه عميل سرى؟

– اراد أن يخفى عندى جهاز الارسال والحبر السرى الذى كان يكتب به رسائله!

– وهل اخفيت الجهاز عندك،

– رفضت طبعاً.

– ما الذى يدعو المتهم أن يستمر فى التردد عليك، بعد أن رفضت أن

تخفى عندك جهاز الارسال؟

– لأنه كان يحبنى!

- وهل كنت تحبينه !
- كنت اعطف عليه !
- ما الفرق بين الحب والعطف ؟
- كالفرق بين الشيك المصرفي من البنك.. والشيك بلا رصيد
- ماذا قال لك المتهم عن اسباب تعامله مع الالمان !
- قال إنه يحبهم.
- يحبهم.. أو يعطف عليهم
- يحبهم !
- أى شيك مصرفي !
- لم أر الشيك.. وإنما رأيت معه مبالغ كبيرة !
- قلت في التحقيق إنه قال لك إنه يعمل مع الالمان لأنهم يدفعون له مبالغ كبيرة.. وتقولين الآن إنه قال لك أنه يعمل مع الالمان لأنه يحبهم !
- قلت هذا عن حديث آخر بينى وبينه، تم بعد حديثي الاول.
- ولماذا قلت الحديث الثانى، ولم تقولى الحديث الاول ؟
- يمكنك أن ترجع لأقوالى أمام النيابة، وسوف تجد أننى ذكرت الروايتين، ووقف رئيس النيابة، يتمايل مختالا، وفوق وجهه تعبيرات الانتصار لأول مرة :
- إن ما تقوله الانسة نشوى الان مؤيد بأقوالها في التحقيق. إنها قالت في صفحة ٣٣٧ بالحرف الواحد : « قال لى عبده في أول الامر إنه يحب الالمان » وفي صفحة ٣٣٩ قالت بالحرف الواحد « ذكر لى في لقاء آخر أنه يتقاضى من الالمان مبالغ كبيرة ».. إن هذه الشهادة صادقة مائة في المائة !

ووقف على أيوب المحامى وقال :

— اريد أن اسأل الانسة نشوى هل سبق لها الاشتغال بالسينما أو المسرح، وتدخل رئيس المحكمة قائلاً :

— ما علاقة هذا السؤال بالقضية؟

— انه فى صميم القضية.

وقالت نشوى دون أن تلتفت إلى على أيوب :

— عملت بالسينما.

— راقصة.. أم ممثلة؟

— ممثلة فى ثلاثة افلام هى «قبلة فى السماء» و «العاشق المجهول» و «الحب بعد منتصف الليل».

— أى الأدوار قمت بها؟

— فى الفيلم الأول قمت بدور معلمة فى مدرسة بنات، وفى الفيلم الثانى قمت بدور بائعة فى محل تجارى، وفى الفيلم الثالث قمت بدور فتاة فى السيرك.

— وهل نجحت فى هذه الأدوار؟

— طبعا، وقال النقاد أننى تقمصت هذه الشخصيات.

— هل قالوا أنك أجدت التمثيل؟

— أجمعوا على ذلك!

— هل تكون شهادتك أمام المحكمة هو الدور الرابع الذى تقومين به؟

واهتز رئيس النيابة فوق مقعده، وصاح :

– هذه إهانة للشاهدة وتجريح لها !

– الدفاع قصد أن يستوضح !

– ليس هذا استيضاحا انه اعتداء على كرامة الفنانين !

قال وهيب دوس بك مازحا :

– إلى سنوات قليلة كانت المحاكم الشرعية في مصر لا تقبل شهادة الفنانين والموسيقيين والقراداتية !

ولم تفقد نشوى أعصابها فقالت دون أن تلتفت إلى وهيب بك :

– وقبل ذلك كانت المحاكم في مصر ترفض سماع شهادة المحامين وتسميهم « النصابين » !

– هذا اعتداء على كرامة المحامين !

– أنت الذي بدأت.. والبادى أظلم !

* * *

وفوجئت قسمت في مقعدها، وهي ترى وجوه الحاضرين في الجلسة إعجابا بردود نشوى على المحامين ! كانوا أثناء المناقشة مع رئيس النيابة مع عم عبده ومع المحامين ضد رئيس النيابة.. ثم انقلبوا مع شاهدة الأثبات ضد المحامين ! وسألت نفسها : هل شهوات الرجال تتغلب على عقولهم، أم أن ذكاء المرأة يستهوى الرجال كما يستهويه جمالها وأنوثتها، فاذا جمعت المرأة بين الذكاء الصارخ والجمال الصارخ اكتسحت كل من يقف أمامها ! وكان رئيس المحكمة أكثر من الحاضرين أعجابا بردود نشوى وسرعة

خاطرها. كان يهز رأسه مع كل كلمة تقولها، وكأنه يقول « أمين »!

ووقف وهيب دوس بك المحامى وقال:

— أطلب من المحكمة أن تسمح للشاهدة أن تدير رأسها إلى ناحية الدفاع!

وذهل المستشارون الثلاثة لهذا الطلب الغريب. وقال رئيس المحكمة في غضب:

— المحكمة لا تفهم هذا الطلب،

— المحكمة استمتعت مدة كافية بجمال الشاهدة، ومن حق الدفاع أن يستمتع بنصيبه من هذا الجمال!

— المحكمة تلفت نظر الاستاذ المحامى أنه لايجوز له أن يوجه للمحكمة مثل هذه الكلمات!

— إننى أريد أن أوجه سؤالاً للآنسة نشوى، وهذا السؤال يستوجب أن تنظر الآنسة نشوى إلى ناحيتى، أظن أن هذا من حقى!

واستدارت نشوى إلى ناحية مقاعد الدفاع وعلى فمها ابتسامة

ولم يضعف وهيب دوس أمام سحر الابتسامة الصاعقة، فقال:

— قلت يآنسة فى محضر تحقيق النيابة، إن المتهم كان فى اللقاء الاول يرتدى كرافته زرقاء مخططة باللون الابيض؟

— نعم قلت ذلك.

— وقلت إن المتهم فى اللقاء الثانى كان يرتدى رباط عنق رمادى بنقوش خضراء.

– نعم قلت ذلك.

– ماهى المدة التى مضت بين هذين اللقائين، واقوالك فى التحقيق؟

– حوالى عامين.

– هل من المعقول أن تتذكرى بعد عامين لون رباط عنق رجل رأيتَه؟ كان يرتدى رباط عنق رماديا بنقوش خضراء،

– كلما رأيت رجلا نظرت إلى رباط عنقه!

– ولا تنسين لون رباط عنقه.

– مطلقا...!

– حتى ولو بقيت معه نصف ساعه؟!

– ولو بقيت معه دقيقة واحدة

– إنك يا أنسة بقيت تواجهين سعادة رئيس المحكمة نصف ساعة تقريبا.. فهل يمكنك أن تقولى لى ما هو لون رباط عنقه؟ أرجوك الا تنظرى الى ناحية سعادة رئيس المحكمة.

– لست فى حاجة إلى أن انظر إلى ناحيته.

-- اذن ما هو لون رباط عنقه:

– لون رباط عنق رئيس المحكمة هو أسود وفيه نقط حمراء صغيرة، ولون رباط عضو اليسار أخضر غامق وفيه ورود سوداء، ولون رباط عضو اليمين رمادى وفيه نقط بيضاء وخضراء!

ونظر المستشارون الثلاثة إلى صدورهم، ورأوا لون أربطة رقابهم كان كل

واحد منهم نسي لون رباط رقبتة. وفوجئوا بأنها كلها مطابقة للالوان التسي
حددتها الراقصة نشوى.

وذهل الحاضرون لقوة ملاحظة نشوى. إن كثيرين منهم مضى عليهم أكثر
من ساعتين يواجهون المستشارين. ولم يلاحظوا ألوان اربطة رقابهم!
ونظروا إلى وهيب دوس في تشف واحس وهيب دوس بنظرات التشفى
تحاصره فقال:

— ما رأيك أن المتهم لا يرتدى رباط عنق؟

قالت نشوى دون أن تنظر إلى عم عبده:

— ربما لا يرتدى رباط عنق الان.. ولكنه عندما كان يزورنى كان يرتدى
رباط عنق!

— وكان يخلعه؟

— يخلعه اذا كان الجو حارا! وهز وهيب دوس رأسه وجلس في حسرة.

والتفت إلى علوية باشا وقال له:

— إنها شاهدة خطيرة!

— خطيرة جدا!

— لقد عرف البوليس السياسى كيف يختار شاهدته!

— إنها أذكى من ضباط البوليس السياسى جميعا!

ووقف على أيوب المحامى وسأل نشوى:

— أنت تقولين إن المتهم قال لك أنه يعمل عميلا للالمان!

– نعم..

– وتعرفين أن مصر تعتبر الالمان اعداء!

– نعم..

– وتعرفين أن هذه جريمة!

– طبعا..

– وعرفت هذا من أول مقابلة!

– نعم.

– لماذا لم تبادرى بإبلاغ الشرطة على هذه الجريمة الا بعد المقابلة
التاسعة كما قلت في التحقيق؟

– لم أحمل حديثه الاول على محمل الجد.

– وبعد الحديث الثانى؟

– تصورت أنه يمزح تحت تأثير الخمر.

– وبعد الحديث الثالث؟

– إننى إذا رأيت صديقا ينوى أن يرتكب جريمة لا أبلغ الشرطة.. وإنما
أنصحه أولا.

– وهل نصحته؟

– نعم، قلت له أنه يلعب بالفار!

– وما الذى جعلك تبليغين الشرطة عنه.

- عندما اراد أن يخفى عندى جهاز الارسال !
- الم تطلبى منه نقودا، فلما رفض ابلغت عنه؟
- لم أكن فى حاجة إلى طلب النقود لقد كان ينفق بلا حساب !
- أنت تقولين إن المتهم صديقك؟
- نعم إنه صديقى !
- وهل أنت سعيدة الآن؟ لأنك سلمت رأس صديقك والرجل الذى كان يحبك كما تقولين إلى حبل المشنقة؟
- سعيدة كمواطنة.. وتعيسة كأمرأة.
- هل بكيت عليه؟
- أبديت استعدادى لدفع أتعاب المحامين عنه !
- قالت نشوى الجملة الأخيرة بتأثر شديد، وكأن كل كلمة من كلماتها تذرف الدموع.



وهز الجالسون فى قاعة الجلسة رؤوسهم، وكأنهم يسمعون أغنية لام كلثوم.

وأخرجت سيدة تجلس فى الصف الأخير منديلها وجففت دموعها.. استطاعت نشوى فى دقائق أن تنتزع الحاضرين من حزب عم عبده، لتضمهم إلى حزبها.. الذين لعنوا رئيس النيابة لقسوته على عم عبده أصبحوا يلعنون عم عبده.. شعروا أن كل كلمة تقولها الشاهدة فيها صدق وإخلاص.

لم تعد التى تتكلم هى الراقصة نشوى، وإنما هى السيدة حقيقة.. خيل لكل واحد منهم أنه خبير فى معرفة الحقيقة، إن هذه هى ملامحها هذا هو صوتها فنحن عندما نحب إنسانا نصدق حتى ولو كذب.. وعندما نكره إنسانا نكذبه ولو صدق!

— استطاعت نشوى أن تسيطر عليهم جميعا. سيطرت على العقلاء منهم بصوتها الهادئ. الواثق من نفسه، الساحر الناعم الرقيق، الملىء بالبراءة! وسيطرت على المجانين منهم بجمالها الطاغى، وفتنتها الباهرة وأنوثنها الصاخبة!

وسيطرت على أنصاف العقلاء بثباتها.

وسيطرت على أنصاف المجانين بسرعة ردودها.

وسيطرت على كاتب الجلسة بعطرها، وعلى حاجب الجلسة باستدارة مقعدها، وسيطرت على المستشارين الثلاثة لأنها كانت متجهة بكليتها إليهم!

كانت عيناها الساحرتان تأسرانهم من خلف نظارتها. وكأن نظراتها تقبل المستشارين الثلاثة معا، وتهمس فى أذن كل واحد منهم بأن القبلة له وحده، دون سواه!

وسيطرت على رئيس النيابة عندما وجدها تنتقم له من عم عبده والدفاع، فتزد للمحاميين الصاع صاعين، والتحية بأحسن منها!

وكانت نشوى فعلا أقوى شخصية فى قاعة محكمة الجنايات. أصبحت تملأ القاعة كلها، كأنها ابتلعت كل من فى القاعة!

ونظرت قسمت حولها في جزع.. رأت أن كل من في القاعة افتنن بالراقصة الكاذبة، واقتنع بصدقها وأمن بأنها تقول الحقيقة.. كل الحقيقة.. ولا شيء سوى الحقيقة!

إنها ليست غانية فقط. إنها ممثلة كبيرة. حفظت دورها، اندمجت فيه، اقنعت به المتفرجين.. حتى أن المحامين أنفسهم بدت عليهم الحيرة، كأنهم بدأوا يتشككون في براءة عم عبده!

ونظر عادل علاء الدين إلى ساعته.. ونظر في قلق إلى باب قاعة محكمة الجنايات.. وإلى وجه عم عبده الذي اختفت منه الابتسامة.. وحلت مكانها صور الدهشة والعجب والذهول.. ثم نظر إلى وجه قسمت. فوجدها تتجه برأسها إلى سقف الغرفة، وكأنها تتجه إلى الله. إنها طريقته دائما عندما يخذلها الذين (تحت) فتتجه بعينها إلى (فوق)!

ولكن عادل كان يعرف أن الله لن يرسل النجدة المطلوبة من (فوق).. وإنما سوف يرسلها من باب قاعة محكمة الجنايات!

ولم يدخل أحد من الباب.

ومضت نشوى تروى معلوماتها في القضية في تفصيل، في دقة، في طلاقة.. كأن مؤسسة كبرى للكذب والافتراء والتلفيق تعمل في خدمتها.. كل سؤال له جواب. كل كلمة لها مستند في أوراق التحقيق.. كل رواية منطقية ومعقولة وقابلة للتصديق. كل ما تقوله لا يتطرق إليه الشك، مهما حاول الدفاع أن يشكك فيه!

وعندما كادت تنتهي من روايتها نظر عادل خلفه. ورأى شقيقته أميرة

تدخل إلى القاعة، وهي تحمل في يدها شيئاً ملفوفاً في جريدة.. وخلفها
الأسطى طه الطاهى، وكامل المكوجى، وسعيد السفرجى!

وجلست أميرة في هدوء بين علوية باشا وشقيقها عادل علاء الدين وجلس
الطاهى والمكوجى والسفرجى فى الصف الثانى خلفهم..

ثم دخلت سيدة محجبة. واتجهت إلى الصف الأول، وجلست بجوار
عادل، ثم كشفت حجابها، وتهامس الحاضرون قائلين: تحية كاريوكا.. تحية
كاريوكا!

ولم تشعر نشوى، وهى مندمجة فى الادلاء بشهادتها، بدخول كل هؤلاء..
وكانت أميرة ترتدى معطفاً أزرق مخططاً بالأبيض، وكان الخدم يرتدون
ثياباً رمادية..

ومال عادل على شقيقته أميرة يسألها عن اللقافة التى تحملها، فنزعت
اللقافة.. وإذا به يجد (يد الهاون).

وابتسم عادل، ومال برأسه على الأستاذ علوية باشا وراح يسر فى أذنه
بحديث طويل.

وانتهت نشوى من الادلاء بشهادتها، ولفت حبل المشنقة حول عنق عم
عبده بإحكام.

وقال رئيس المحكمة المسحور إن المحكمة تشكر يا أنسة نشوى على
شهادتك الدقيقة الواضحة الصادقة.. وتتمنى لو كان الشهود جميعاً الذين
يأتون إلينا يكونون بهذا الصدق والدقة..

ثم التفت إلى الدفاع وقال:

— أظن أنه ليس لدى الدفاع أى أسئلة.. لقد أوضحت الآنسة نشوى كل شىء..

وقام علوية باشا فى تناقل وقال :

— الدفاع يريد أن يوجه سؤاليين آخرين للآنسة نشوى.

— تفضل..

— يا آنسة .. قلت فى التحقيق وأمام المحكمة.. أن المتهم عبده كان يرتدى رباط عنق لونه أزرق مخطط بالأبيض..

قالت نشوى دون أن تلتفت إليه :

— فى اللقاء الاول كان يرتدى رباط عنق لونه أزرق مخطط بالأبيض.

— هل لونه بنفس لون معطف السيدة التى تجلس بجوارى مثلا !

واستدارت نشوى، ووقعت عيناها على أميرة، وعلى يد الهاون التى أمامها.

وترنحت نشوى كأنها ستسقط، بذلت مجهودا جبارا لتتماسك، ولكنها شعرت بأنها تتضاءل، عادت فجأة الخادمة شلبية الوحش. وأمامها الست أميرة. وفى يد الست أميرة (يد الهاون).

وتسمرت نشوى فى مكانها، كانت ترتجف. حاولت أن تتكلم فخانها لسانها. أخفت رأسها فى صمت.

وعاد علوية باشا يقول فى هدوء، والكلمات تخرج من فمه بطيئة متناقلة :

— وقلت إن المتهم كان يرتدى فى اللقاء الثانى رباط عنق رمادى بنقوش

بيضاء.. فهل اللون الرمادى، يشبه لون الثياب الرمادية التى يرتديها الرجال
الثلاثة الذين يجلسون خلف هذه السيدة؟

وبقيت نشوى مطرقة برأسها.

وعاد علوية باشا يقول :

— انظرى إليهم جيدا.. إننا نعتمد على قوة ذاكرتك العجيبة !

ورفعت نشوى رأسها المنكسة، ورأت الرجال الثلاثة أمامها، وضفطت
بأسنانها على شفتها، وكأنها ترى فضيحتها من جديد مع الطاهى والمكوجى
والسفرجى !

وفجأة رأت وجه عدوتها ومنافستها تحية كاريوكا..

واصفر وجهها ! شعرت أنها تموت وهى واقفة. بذلت كل أعصابها من
أجل أن تبقى واقفة على قدميها !

ولاحظ رئيس المحكمة ارتباك نشوى فقال محتدا لعلوية باشا :

— ما هى علاقة ألوان الكرافتات بموضوع القضية يا باشا؟

— أسف جدا.. إننى أسحب هذين السؤالين !

— هل لديك سؤال آخر؟

— لا.. ليس لدى أسئلة.. وإنما لدى زميلى وهيب دوس بك سؤال واحد
فقط.

ووقف وهيب دوس بك وقال :

— إننا خصوم لك يا أنسة نشوى فى هذه القضية باعتبارك شاهدة

إثبات.. ومع ذلك فإننا نعجب كل الاعجاب بصدقك وقوة ذاكرتك العجيبة،
ولا نشك في صدق أى كلمة قلتها، ولهذا أريد أن أسألك سؤالاً واحداً.. هل
عم عبده الموجود في القفص الآن.. هو عبده الذى قال لك إنه يعمل عميلاً في
خدمة الألمان؟

وأدارت نشوى رأسها ناحية عم عبده. كانت هذه أول مرة تتجه ببصرها
ناحيته.. تعمدت ألا تقع عينها عليه.. كأنه بقى لديها بقية من حياة.. حياة
القاتل من القتل!

ومشت نحو قفص الاتهام بخطوات متعثرة.. كأنها تشيع جنازتها
بقدميها.

وتوقفت أمام القفص، وحدثت في عم عبده.

ثم خلعت نظارتها، وعادت تحمق في وجهه من جديد.. وكل شيء فيها
يرتجف ويرتعش وينتفض. وعادت بنفس الهدوء والخطوات المتعثرة إلى
مكانها أمام رئيس المحكمة وقالت في صوت خافت:

— ليس هذا هو..!

وحدثت ضجة في المحكمة وعاد رئيس المحكمة يقول في دهشة:

— ماذا تقولين؟

— ليس هذا عبده الذى قال لى إنه يعمل عميلاً للألمان.

— أنت وصفت في أقوالك في التحقيق عبده هذا وصفاً دقيقاً.. ينطبق على
هذا المتهم!

— ولكن الذى أراه في هذا القفص.. ليس هو عبده الذى أعرفه.

وقفز رئيس النيابة من مقعده كالمذهول وهو يقول :

— تذكرى يا أنسة ! تذكرى جيدا !

— إنه ليس هو !

— إن ما تقولينه يا أنسة شيء خطير.. خطير.. خطير جدا جدا !

— ليس هو !

— ضعى النظارة فوق عينيك !

ووضعت نشوى النظارة فوق عينيها وعادت تحملق في عم عبده ثم هزت رأسها وقالت :

— إنه ليس عبده الذى أعرفه !

— أرجوك يا أنسة نشوى.. اقتربى من القفص ودقعى النظر جيدا !

واتجهت نشوى إلى القفص، ووقفت طويلا تفحص عم عبده، ثم عادت تقول وهى تصر وكأنها لم تعد تحتمل أن ترى عم عبده أكثر مما رآته :

— إنه ليس عبده الذى أعرفه أبدا !

— ربما تغير في السجن.. السجن عادة يغير الملامح ! السزنزانة تشوه وجوه السجناء !

— الرجل الذى أعرفه كان أقصر من عم عبده !

— ربما تكون طالت قامته أثناء وجوده في السجن !

— الرجل لا تطول قامته بعد الستين !

- إن هناك نظرية علمية تقول إن الرجال «يكشون» بعد الستين !
- إنه يختلف عن الرجل الذى أعرفه !
- ولكنك فى التحقيق أمام النيابة أخرجت صورة هذا الرجل من بين عشر صور عرضت عليك !
- عرضت على صور وجهه... ولم أر قامته !
- لعل الأمر اختلط عليك الآن، بسبب رهبة الموقف أمام المحكمة ؟
- إننى أشعر برهبة أكبر.. وأنا فوق مسرح الست بديعة !
- قد تكون أسئلة الدفاع السخيفة أتعبت أعصابك ؟
- إنها أتعبت أعصابى، ولم تتعب نظرى !
- إننى أشك فى صدقك !
- كيف تشك فى صدقى، وقد قلت أنت أمام المحكمة أننى صادقة مائة فى المائة ؟
- مستحيل ألا يكون هذا هو المتهم !
- لقد أقسمت اليمين أمام المحكمة بأن أقول الحق.
- إن النيابة تحتفظ بحقها فى أن ترفع عليك دعوى شهادة الزور..
وتطالب بوضعك فى السجن !
- إننى أفضل أن أقول الحق، وأذهب إلى المشنقة !

* * *

ورفعت المحكمة الجلسة، وبعد مداولة قصيرة، أصدرت حكمها ببراءة
عم عبده والافراج عنه فوراً.

وارتفعت أصوات الجماهير تهتف بحياة الراقصة النبيلة نشوى عبده!
وأسرعت قسمت ترتدى بين أحضان عم عبده وتقبله..

ولكن عم عبده تخلص بسرعة من ذراعى قسمت، وأسرع نحو الراقصة
نشوى يعانقها ويقبلها قبلات طويلة..

وعادت الأصوات تدوى بحياة «نشوى النبيلة» وأصرت الجماهير على أن
تحمل الراقصة فوق أكتافها إلى باب المحكمة الخارجى..

ومشى الموكب الصاخب يحمل نشوى ويهتف لنشوى النبيلة.

وقال عم عبده لقسمة والدموع فى عينيه:

— ألم أقل لك يا أنسة كاف أن نشوى امرأة نبيلة؟

وهزت قسمة كتفها فى غضب:

— لم أعد قسمة شاهين.. ولا الأنسة كاف. سوف أصبح ابتداء من
اليوم الراقصة كاف!

— تشتغلين راقصة؟

— حتى يؤمن بى الرجال!

— وهز عم عبده رأسه أسفا على غيرة النساء

وتركته قسمة.. ومشت وحدها بين الجماهير الفرحة. وسمعت الشفاه
خلفها تقول جملة واحدة:

— إن نشوى امرأة نبيلة فعلا ! إنها هى التى انقذت عم عبده من حبل المشنقة !

ومضت قسمت فى طريقها إلى باب المحكمة، وهى تسمع كلمة (نبيلة) تدق فى أذنيها كالمطارق. وخرجت إلى الشارع، وجملة «نشوى نبيلة» تطاردها، تلاحقها، تعدو خلفها، تمسك بتلابيبها. أسرعت تضع يديها فوق أذنيها. تسدهما، حتى لا تسمع الجملة التى كانت تشبه الخناجر والسكاكين.

ولكن جملة «نبيلة. نبيلة»، كانت تنطلق من المقاهى، تخرج من الدكاكين، تتردد على أفواه المارة على كل الألسنة، وعلى كل الشفاه.

خيل إليها أن كل شىء فى الدنيا أصبح يقول «نشوى نبيلة». أبراة، السيارات تصرخ «نبيلة»، تدق فى أذنيها كالمطارق. الباعة المتجولون توقفوا عن النداء عن بضائعهم وأصبحوا ينادون «نبيلة نبيلة» كأن الأشجار وهى تهتز وترقص. تقلد الراقصة نشوى، وكأن حفيف الأشجار يصيح «نبيلة نبيلة»

ورفعت رأسها إلى السماء تستنجد بها.

وخيل إليها أن السماء تخلت عنها، وكتبت بالسحب كلمات «نبيلة. نبيلة» وجرت فى الشارع كالمجنونة.

ثم انكفأت على الأرض، سقطت تبكى وتنتحب.

لم تبك نفسها

لم تبك حبها !

لم تبك كل الجهود التى بذلتها لانقاذ عم عبده من المشنقة!
كانت تبكى الحقيقة.

نعم.. لقد أفلت عم عبده من حبل المشنقة.

ولكنهم علقوا فيها « الحقيقة »!

ودخلت الراقصة نشوى التاريخ نبيلة!

كشهادة تتأبط ذراع الأنسة كاف!

كتب للمؤلف

- أمريكا الضاحكة

حياة طالب مفلس في أمريكا
الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣ ، نفذت «
الطبعة الثانية سنة ١٩٤٣ ، نفذت «
الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٤ ، نفذت «

- فاطمة

مثلتها للسينما أم كلثوم وأنور وجدى سنة ١٩٤٧

- عمالقة وأقزام

ساسة مصر قبل الثورة
سنة ١٩٥١ ، نفذت «

- ليالى فاروق

قصة حياة الملك السابق
الجزء الأول سنة ١٩٥٤ ، نفذت «
الجزء الثانى سنة ١٩٥٤ ، نفذت «

- معبودة الجماهير

الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ ، نفذت «
مثلها للسينما عبد الحليم حافظ وشادية

- صاحبة الجلالة في الزنانة

قصة الصحافة المصرية في الاغلال والصراع بين الصحافة والطغيان

الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ . نفذت

الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ . نفذت

الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٥

- سنة أولى سجن

الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٧٤ . نفذت

الطبعة الثانية ديسمبر ١٩٧٤ . نفذت

الطبعة الثالثة يناير ١٩٧٥ . نفذت

الطبعة الرابعة فبراير ١٩٧٥ . نفذت

الطبعة الخامسة مايو ١٩٧٥ . نفذت

الطبعة السادسة يناير ١٩٧٨

الطبعة السابعة أبريل ١٩٨١

- الكتاب الممنوع

أسرار ثورة ١٩١٩

الطبعة الأولى ١٩٧٤ . نفذت

الطبعة الثانية ١٩٧٥

- سنة أولى حب

يناير ١٩٧٥

مثلها للسيد محمود ياسين ونجلاء فتحي

- ست الحسن
الطبعة الأولى ١٩٧٦ « نفذت »
الطبعة الثانية ١٩٨١
- من واحد لعشرة
الطبعة الأولى ١٩٧٧
الطبعة الثانية ١٩٨١
- سنة ثانية سجن
الطبعة الأولى ١٩٧٧
- سنة ثالثة سجن
الطبعة الأولى ١٩٧٨
- لا
الطبعة الأولى ١٩٧٧
- لكل مقال أزمة
الطبعة الأولى ١٩٧٩
- ال ٢٠٠ فكرة
الطبعة الأولى ١٩٧٩
- تحيا الديمقراطية
الطبعة الأولى ١٩٨٠

- من عشرة لعشرين
الطبعة الأولى ١٩٨١
- صاحب الجلالة الحب
الطبعة الأولى ١٩٨٠
- سنة رابعة سجن
الطبعة الأولى سنة ١٩٨١
- من فكرة لفكرة
الجزء الأول
الطبعة الأولى ١٩٨٣
- من فكرة لفكرة
الجزء الثاني
الطبعة الأولى ١٩٨٤
- أفكار ممنوعة
الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤
- مسائل شخصية
الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤
- سنة خامسة سجن
الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤
- الأنسة كاف
الطبعة الأولى ٥ يناير ١٩٨٥

رقم الايداع : ١٩٨٨/٤٩٢٩

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جنود حبي - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقية: شروق - تلکس: BHROK UN 93091
بيروت: ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٢ - برقية: داشروك - تلکس: BHROK 20175 L E

